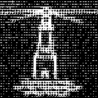
الدكتور عبد العظيم رمضان

الصراع بين العرب وأوربا

من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية





دار المعارف

الصراع بين العرب وأوربا

من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية

الدكتور عبد العظيم رمضان

الصراع بين العرب وأوربا

من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية



دار المعارف

لناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى الجيل العربي الجديد ...

الذي يعيش عصر الهيمنة الإسرائيلية والامبريالية

أهدي هذا الكتاب، شمعة قد تضيء بعض معالم الطريق .

تقديم

عندما كنت فى لندن فى الفترة من سبتمبر ١٩٨٠ إلى نوفمبر ١٩٨١ . فى مهمة علمية من قبل جامعة المنوفية ، وكأستاذ زائر بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، طلبت منى جريدة « العرب » التى تصدر فى لندن باللغة العربية – وهى أول جريدة تصدر باللغة العربية بها – أن أقدم لقرائها فى المملكة المتحدة وأوربا ، دراسة باللغة العربية عن الصراع بين العرب وأوربا ، تضرب بجذور هذا الصراع إلى أصوله الأولى ، وتعطى أبعاده التى خفيت فى عصرنا الحاضر عن الأذهان ، بعد طفو البترول على الأرض العربية ، وهيمنته على العلاقات الاقتصادية والسياسية بين العرب وأوروبا . وكانت حجتهم أن الشعور السائد لدى الأوروبيين هو أن العرب وليدو البترول ، ولم تكن لهم قائمة قبل هذا البترول ، وأن هذا الشعور أخذ يسرى إلى العرب المقيمين فى أوربا أنفسهم ، المتحمسين لحضارتها ، وكثيرون منهم بدأوا يفقدون الثقة بأمتهم العربية بسبب الإحباطات المتوالية المترتبة على السيطرة الاستعمارية أولا ، وعلى الغزوة الصهيونية ثانيا .

وقد راقت لى الفكرة ، لمضمونها القومى من جهة ؛ ولأنها تتيح لى الفرصة أن ألقى بنظرة على التاريخ الإسلامى من منظور مؤرخ من مؤرخى التاريخ الحديث والمعاصر ! . وكان أول ما اتجه إليه فكرى هو معالجة الموضوع من الزاوية الحضارية . ولكنى بعد أن قطعت شوطًا فى دراسة هذه الزاوية ، تبينت أن اهتمامات مؤرخينا كانت قد انصبت منذ بروز حركة القومية العربية فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين ، على معالجة هذا الجانب ، وصدرت لهم فى ذلك دراسات هامة وعديدة تغنى فى حدّ ذاتها عن إضافات أخرى من جانبى . واكتشفت أن الجانب السياسى ، المتمثل فى صراع القوى التاريخى بين العرب وأوربا ، مبعثر فى كتب التاريخ الإسلامى وفق حقبه المختلفة ، لا تجمعه جلدة كتاب واحد ، وأكثر من ذلك لا تجمعه وحدة فكرية أو موضوعية .

لذلك ، ولأسباب تتصل ببواعث الإحباط النفسى لدى شعوبنا العربية ، الناتجة عن عجز القدرة العربية العسكرية عن إزالة الكيان الصهيونى من أرضنا العربية ، واهتزاز الثقة فى هذا الجانب بالذات – آثرت معالجة الصراع السياسى بين العرب وأوربا منذ ظهور الإسلام حتى آخر الحروب الصليبية ، أملاً فى أن تتاح لى الفرصة فيما بعد لمعالجة الفترة اللاحقة حتى عصرنا المعاصر .

وإذا كان الهدف من هذه الدراسة – إذن – هو شحذ ذاكرة شعوبنا العربية ، وتعريفها بنفسها وبتاريخها النضالى المجيد – فليس معنى ذلك بحال تزييف الحقائق التاريخية أو تحريفها أو لوى عنقها لخدمة هذا الهدف ! أو الاكتفاء بإلقاء الضوء على الإيجابيات دون السلبيات ! . وإلا بعدت هذه الدراسة عن الصفة العلمية كلية – وإنما معناه الكشف عن عوامل القوة والضعف فى القدرة العربية العسكرية عبر التاريخ ، وهو ما نعتقد أن هذه الدراسة قد وضعته نصب عينيها طوال هذه الحقبة الطويلة التى عالجتها ، ولم تغفل عنه ، سواء فى انتقالها المكانى من شبه الجزيرة العربية إلى شمالى أفريقيا إلى الأندلس إلى جنوبى أوربا ، أو فى انتقالها من شبه الجزيرة إلى الشام إلى آسيا الصغرى إلى أبواب القسطنطينية ! ، أو فى انتقالها الزمنى من عهد الرسول ﷺ إلى الخلفاء الراشدين إلى الدولة الأموية إلى الدولة العباسية إلى عصر الحروب الصليبية فى المشرق ، أو تتبعها العهود الإسلامية العربية فى شمالى أفريقيا والأندلس .

ومنذ البداية كان على الباحث أن يحدد موقفه بين ما ينتمى للعرب كجنس ، وبين ما ينتمى كدين . ولم نقف طويلاً دون حسم هذه القضية ، فالدين فى هذه الحقبة الزمنية كان يحل محل القومية فى عصرنا الحاضر ، أو كان فى حدّ ذاته قومية ! . فقد كان العالم ينقسم فى تلك الأثناء ، فى نظر المسلمين العرب أو المسيحيين الأوربيين على السواء ، إلى عالم حرب وعالم سلام ، أو عالم مسيحى وعالم إسلامى ! . ومن ثم فلا فرق ، من وجهة النظر القومية العربية ، بين إنجازات صلاح الدين الأيوبى الكردى فى فلسطين والشام ، وبين إنجازات عبيدة بن الجراح أو عمرو بن العاص العربيين فى فلسطين والشام . فكلّ ما يتم باسم الإسلام فى تلك الحقبة ينتمى للعرب ، وهو جزء لا يتجزأ من التاريخ العربى العام .

وعندما فكرت فى إعداد هذه الدراسة لم يكن فى تقديرى أن تشتمل على أكثر من عشر مقالات ، بواقع مقال كل أسبوع ، ولكنى لم ألبث أن تبينت استحالة تغطية هذه المساحة الزمنية الهائلة فى مثل ذلك الحيز المحدود ! . وسرعان ماجاء ترحيب القراء بالدراسة ليتيح لى الفرصة لإعطائها الحيز الذى تستحق ، حتى بلغت – لدهشتى – ثلاثة وخمسين مقالاً استغرقت عاماً كاملاً !

ومن الطبيعى أنه لم يكن من الممكن استكمال الدراسة على هذا النحو ، لولا تشجيع أخى وصديق الفاضل رشاد الهونى ، رئيس تحرير جريدة العرب اللندنية ، الذى يرجع إليه الفضل فى اختيار الموضوع أولاً ، ثم متابعته معى ثانيًا ، ومنحه المساحة الكافية فى جريدة العرب ثالثًا . ولم

يكن أخى الأستاذ أحمد الهونى ، الذى خلف رشادا فى رئاسة التحرير ، بأقل تحمسًا ، فظل يفرد للدراسة المساحة اللازمة فى الجريدة ، رغم التجديدات التى اقتضت إدخال المزيد من الموضوعات ، حتى انتهت الدراسة بمقالها الثالث والخمسين ! .

وقد كان علىّ ، عند إعداد هذه المقالات للنشر ككتاب ، أن أقرر ما إذا كان من الأوفق نشرها بصورتها التى نزلت بها كمقالات ، أو تغيير هذه الصورة فى شكل فصول . وقد رأيت أنه طالما أن الدراسة قد خطط لها منذ البداية لتكون فى شكل مقالات ، فإن أى تدخل فى صورتها بعد ذلك لتحويل هذه المقالات إلى فصول ، سوف يكون تدخلاً مصطنعًا ، ولن يضيف إليها ، بل سينقص منها ، وأنه من الأفضل - لذلك - قراءتها بالشكل الذى نشرت به ما أمكن دون تعديل كثير ، خصوصًا وأن هذا الشكل قد تمكن من شدّ القراء العرب فى لندن وفى أوربا ، فضلاً عن بعض البلاد العربية التى توزع الجريدة فيها - لمدة عام كامل !

لقد رجعت إلى عدد ضخم من المصادر والمراجع ، القديمة والحديثة ، التى امتدت على مساحة هذه الدراسة المكانية والزمنية الشاسعة ، والتى كتبها مؤرخون عرب أو أوربيون . وأتيح لى أن أستفيد من الجهود العلمية الهامة التى بذلها مؤرخو التاريخ الإسلامى وتاريخ العصور الوسطى العرب ، الذين عالجوا جوانب متفرقة من موضوعات هذه الدراسة ، وأسهموا فيها ببحوثهم ودراساتهم . وسوف يجد القارئ ثبتًا بأسماء هذه المراجع والمصادر فى نهاية الكتاب ، اعترافا بالفضل والامتنان .

وأخيرًا لعل المنظور التاريخى الذى كتبت منه هذه الدراسة ، والامتداد الزمنى الذى تناولته ، والمساحة المكانية التى اتخذتها مسرحًا ، والتى تنتشر على أرض الوطن العربى وأوربا ، فضلاً عن البعد الحضارى لهذا الصراع الهائل الذى ملأ حوض البحر المتوسط ضجيجًا وصخبًا على امتداد سبعة قرون منذ ظهور الإسلام تحت علم الدين - أن يهيىء لهذا الكتاب مكانًا مميزًا فى المكتبة القومية العربية .

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٨٣ م

د . عبد العظيم رمضان

١ - قضايا حول الحضارة العربية

- الروح الصليبية فى أوروبا وانكار فضل العرب .
- مفهوم الحضارة العربية ، هل يقتصر على ما قدمه عرب شبه الجزيرة العربية ؟
- هل تجوز المقارنة بين علماء العرب والمخترعين المحدثين ؟..
- هل كان العرب مجرد نقلة للحضارة الإغريقية والرومانية ؟ .
- الحضارة الأوروبية عند ظهور الإسلام .
- دور العامل الدينى فى النشاط الحضارى العربى .
- الحضارة العربية فى التاريخ .

١ – قضايا حول الحضارة العربية

لم يعد اسم العرب يقترن فى أذهان الأوروبيين فى السنوات الأخيرة ، إلا بالبترول ، بعد أن أصبحوا يعتمدون عليه اعتمادًا كليًّا فى كل ما يتصل بحياتهم الإنتاجية والاقتصادية ، وبعد أن أخذت الحروب فى المنطقة العربية ، بسبب الوجود الإسرائيلى من جهة ، والأطماع الاستعمارية من جهة أخرى – تهدد مرارًا بقطع هذا المورد من موارد الطاقة عن الغرب ، وجاءت الارتفاعات المتوالية فى أسعار البترول لمواكبة ارتفاع أسعار المواد المصنعة ، بكل ما ترتب عليها من أزمات اقتصادية فى الغرب – لتضيف إلى مرارة الأوروبيين من العرب – تلك التى أخذوا ينفسون عنها برمى العرب بتهم التخلف الحضارى ، ومحاولة وسائل إعلامهم تأليب شعوبهم عليهم ، وتكوين شعور عدائى ضدهم .

فهل حقيقة أن أهمية العرب ترجع إلى البترول ؟ . وهل حقيقة أنه قبل البترول لم يمكن وراء العرب سوى التخلف الحضارى ؟ .

إن الصفحات التالية تحتوى على إجابة هذا السؤال . إنها تفتح ملف التاريخ العربى من زاوية واحدة ، هى علاقة العرب بأوربا منذ ظهور الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى إلى أواخر القرن الثالث عشر – أى على مدى سبعة قرون كاملة .

وفى الحقيقة أن محاولات أوروبا الحديثة غمط العرب حقهم هى محاولات متكررة ، وقد بدأت منذ أن أخذ الأوروبيون يتحررون من سلطان الحضارة العربية ، ويبنون حضارتهم المستقلة . فقد أصبح إنكار فضل العرب على أوروبا وتمدينهم لها من تقاليد مؤرخى أوروبا ! ، الذين أخذوا يبحثون عن جذور حضارتهم الحديثة فى التربة الأوروبية ذاتها وليس بعيدًا عنها ، فأخذوا يطلقون أن اليونان والرومان هم منبع العلوم والآداب ، ويبخسون دور العرب بحجة أن دورهم لا يعدو أن يكون دور نقل حضارة اليونان والرومان ، وأنهم فى ذلك ليسوا إلا مقلدين ، ولم يكن فيما أتوابه شيء مبتكر ! .

وقد لعبت الروح الصليبية دورًا كبيرًا فى إنكار الأوروبيين فضل العرب ، باعتراف كتابهم أنفسهم . فقد رأى بعضهم أن أتباع محمد ظلوا من أشدّ ما عرفت أوروبا من أعدائها بأسًا ورهبة ،

سواء فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو فى زمن فتح القسطنطينية وتهديد أوروبا بالاجتياح ، وأنهم عندما كفّوا عن تهديد أوروبا بالسلاح ، ظلّوا يذلّونها بأفضلية حضارتهم . وبذلك أخذت تتراكم أسباب الخوف أو الشعور بالنقص فى نفس الأوروبيين إزاء العرب ، حتى أفل نجم حضارة العرب ، ولمع نجم حضارة الأوروبيين ، وكان عليهم أن يذيقوا العرب من نفس الكأس التى جرعوها لهم ! .

وقد ذهب بعضهم فى إنكار فضل العرب إلى التذرع بأن معظم علماء المسلمين ليسوا من أصل عربى ! ، وأن ما قدموه من علم للبشرية ينسب إلى أصولهم الجنسية وأوطانهم الأصلية ، ولا ينسب إلى العرب ! .

وذهب آخرون إلى القول بأن العرب لم يظهر بينهم عباقرة أو مخترعون عظام ! . وأخذوا يتساءلون : ما قيمة من ظهر من علمائهم بالمقارنة مع « نيوتن » الذى اكتشف قانون الجاذبية ، أو إديسون » الذى سجل ألف اختراع ، منها الفونوغراف والمصباح الكهربائى ، أو « ليبنتز » ، أو « لافوازييه » أو « كيبلر » أو « كوبرنيك » ؟ بل ما قيمة ما قدموه بالقياس إلى المخترعات الحديثة من طائرات ومدافع وراديو وسينما وغيرها ؟ .

وبالنسبة للحجة الأولى ، وهى أن كثيرًا من علماء المسلمين ليسوا من أصل عربى ، وأن ما قدموه لا يجب – بالتالى – أن ينسب إلى العرب وإنما إلى أوطانهم ، فنى الحقيقة أن النسبة الصحيحة لما قدمه هؤلاء يجب أن تكون للعرب الذين فتحوا تلك البلاد ، واختلطت دماؤهم بدماء شعوبها ، واستبدلوا دين الإسلام بالدين الأصلى الذى كان سائدًا فيها ، وتفاعلت حضارتهم مع حضارتها . فلولا الفتح العربى لهذه البلاد ، لظلت على أوضاعها ما قبل الإسلام ، ولما حدث الاحتكاك الحضارى الذى أوقد شعلة العلم عند هؤلاء .

بل لقد ذكر بعض المنصفين من العلماء الأوروبيين أنه لا يجوز لأحد أن يجادل فى التأثيرات الحضارية للعرب فى جميع الأمم التى فتحوا بلادها ؛ ذلك أن جميع الأمم التى اتصل بها العرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حينًا من الزمن . وحتى عندما غابوا عن مسرح التاريخ ، انتحل قاهروهم ، كالترك والمغول تقاليدهم ، وأخذوا ينشرون هذه الحضارة .

وقد تجلّى تأثير العرب الحضارى فى الأمم التى فتحوها فى الشرق – وهى التى خرج منها هؤلاء العلماء المسلمون العظام – فى الدين وفى اللغة وفى الفنون وفى العلوم ، حتى انه لا توجد فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز فى غيرها من الأمم التى اتصلت بها ، كالعرب .

فما عجز الإغريق والفرس والرومان عنه فى الشرق ، نجح فيه العرب فى يسر وسرعة ودون إكراه ! . فقد كانت مصر من أكثر بلاد العالم مناعة ضدّ النفوذ الأجنبى والمؤثرات الأجنبية ، وقد احتفظت بشخصيتّها القومية فى عهد البطالمة وفى عهد الرومان ، فلم تتكلم اللغة اليونانية ولا اللغة اللاتينية ، ولم تعتنق عبادة سيرابيس ولا عبدت أباطرة الرومان ، ولم تغير دينها إلا مرةً واحدةً قبل العرب ، حين اعتنقت المسيحية بالقوة . ولكنها فى أقل من قرن واحد بعد فتح عمرو بن العاص لها ، اعتنقت دينًا جديدًا ، ولغة جديدةً ، وفنًّا جديدًا – ودام ذلك حتّى بعد أن زال سلطان العرب عنها . وتحولت إلى بلد عربى لا يقل عروبة عن عرب شبه الجزيرة ! .

وما نجح فيه العرب فى مصر ، نجحوا فيه فى كل بلد خفقت فيه رايتّهم ، أو انتقلت إليه تجارتّهم ، كما حدث فى شمالى أفريقيا وشرقيها ، وفى سوريا ، وفى فارس ، بل أثروا بنفوذهم الحضارى فى الهند ، وفى الصين التى لم يزوروها إلا تجارًا . وقد ذكر « سيديو » أن « العربى البيرونى » ، المتوفى سنة ١٠٣١ ، أهدى الهندوس فى أثناء سياحته فى بلادهم ، مختارات مهمة من كتب العلم ، فنقلوها إلى اللغة السنسكريتية .

وقد دخلت علوم العرب الصين على أثر الغارة المغولية ، وتناول الفلكى الصينى المشهور « كوشوكنج » رسالة ابن يونس فى الفلك سنة ١٢٨٠ م ، وأذاعها فى بلاد الصين ، كما دخل الطب العربى الصين عندما غزاها « كوبلاى » سنة ١٢١٥ .

وعلى ذلك ، فلا نملك إلا أن ندرج فى الحضارة العربية ماكتبه أهل شبه الجزيرة أو غيرها مما فتحه العرب أو اتصلوا به ، سواء فيما يعرف الآن باسم العالم العربى ، أو خارجه . فلا فرق بين الكندى وابن خلدون ، وكلاهما عربى المنتمى ، وبين ابن سينا والغزالى ، وكلاهما فارسى المنتمى ، أو بين الفارابى ، وهو تركى الأصل .

أما بالنسبة للحجة الثانية ، وهى مقارنة علماء العرب بالعلماء والمخترعين المحدثين ، للوصول إلى أنه لم تظهر بينهم عبقريات حقيقية – فى الواقع أنه لا يوجد أفسد من هذه الحجة ، فقد جرت العادة أن يقاس العالم فى إطار عصره ، ولا يقارن بالعصور التالية ، وأن تقاس عبقرية المخترع بمخترع من عصره ، وليس بمخترع أتى بعده بألف عام أو يزيد ! . ومن المعروف أن عصر الابتكار والاختراع فى الأزمنة الحديثة أكثر منه فى الأزمنة السابقة . ولكن يبقى دائمًا للسابقين فضل السبق ، وفضل إرساء الأساس .

فلم يكن « لاڤوازييه » ليضع علم الكيمياء بدون المختبرات والاكتشافات التى اكتشفها

العرب . ولم يكن «كيبلر» و«كوبرنيك» يحققان ما حققا لولا اكتشاف العرب لحركات الكواكب السيارة على شكل بيضاوى . ونظرية دوران الأرض . فإذا كانت الحضارة سلسلة ممتدة الحلقات ، وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات ، فلم يكن ليتيسر ظهور «نيوتن» و«ليبنتز» وغيرهما بدون حلقة الحضارة العربية .

أما الحجة الأوروبية التى تغمط الحضارة العربية حقها ، بحجة أن العرب ليسوا أكثر من نقلة للحضارة الإغريقية والرومانية ، وليسوا مبتكرين – فإن الرد عليها يسير ، وهو أن العرب فى الحقيقة لم يكتفوا بدور النقل ، بل اهتضموا تلك الحضارات واختلطت بها عصارتهم الفكرية ، وأخرجوا للناس حضارةً جديدةً هى التى نقلت العالم من ظلمات العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

نعم لم يكتف العرب بنقل علوم الأقدمين من اليونان والرومان إلى اللغة العربية ، بل درسوها وشرحوها وفسّروا ما غمض منها ، وأضافوا إليها بالمزج من حضارتهم ومن حضارات الأمم الأخرى التى فتحوها أو اتصلوا بها . فقد مزجوا بين الآراء اليونانية والآراء الهندية فى الرياضيات ، وقدموا الفلسفة اليونانية إلى العالم الحديث مدروسةً مشروحة ، ففتحوا أمام التفكير الأوروبى آفاقا جديدة ، وهزّوا العقل الأوروبى الوسيط ، الذى كان مستسلماً لما كانت تفرضه عليه الكنيسة من معتقدات . ولولاهم لما عرف العقل الأوروبى الحديث العقل اليونانى والهندى والصينى ، ولما تلقح العالم بهذا اللقاح الفكرى الذى نتجت عنه العلوم الحديثة ، ولما أمكن للغرب اللاتينى الكاثوليكى الحديث أن يتصل بالغرب القديم اليونانى الأرثوذكسى . ولو لم ينقل العرب ذلك لتوقف سير التمدن والعلوم بضعة قرون .

نحن إذن أمام ثلاثة نتائج هامة نعود إلى تكرارها لأهميتها :

الأولى : أن ما يطلق عليه اسم الحضارة العربية لا يقتصر فقط على ما قدمه العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية ، وإنما يطلق على ما قدمه كل المفكرين والعلماء فى البلاد التى فتحها العرب واعتنقت الإسلام وتكلمت العربية وتأثرت بالحضارة العربية – كما حدث فى مصر وشمال وشرق أفريقيا وسوريا وفارس وتركيا والأندلس . ومن ثم فلا يجب فى حديثنا عن الحضارة العربية التفرقة بين عالم عربى أو فارسى أو تركى . لأن كلاً منهم نبتٌ من نبات الحضارة العربية المزدهر .

والثانية : أن ما قدمه العرب من علم أو اختراع لا يجب أن يقارن أو يقوّم بما قدمته الحضارة

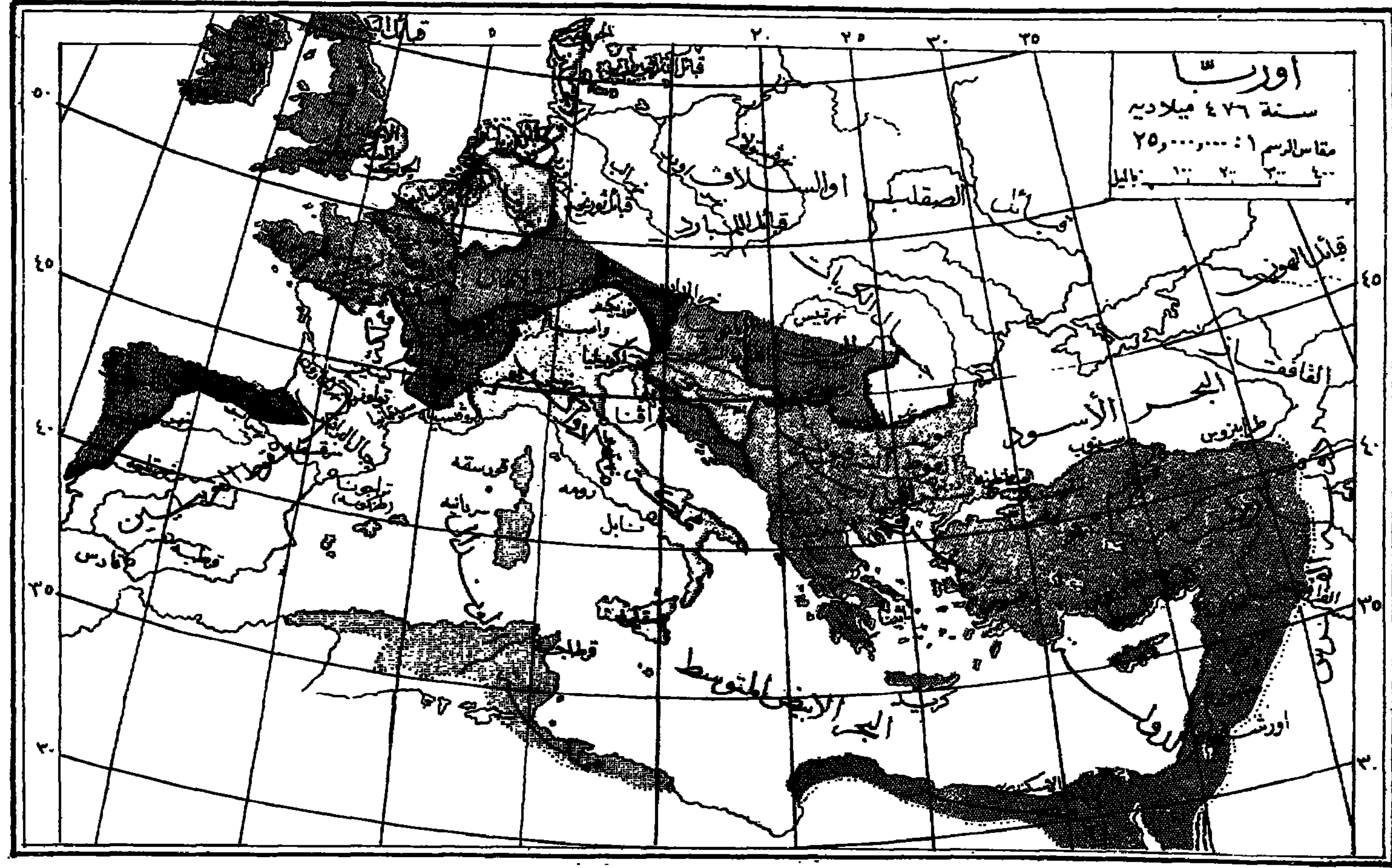
الأوروبية الآن فى هذه المجالات ، وإنما بما كان سائدًا فى عصر ازدهار حضارتهم . وبموقع هذه الحضارة فى سلسلة الحضارة العالمية الممتدة الحلقات .

والثالثة : أن ما قدمه العرب لم يكن مجرد نقل لحضارة اليونان والرومان ، على الرغم من أن نقل العلوم عند العارفين من العلماء لا يقل أهميةً عن ابتداعها وابتكارها ، وإنما كان اهتضامًا واستخلاصًا وإضافة جديدةً للتراث العالمى .

فعندما خرج العرب من شبه الجزيرة العربية حاملين لواء الإسلام ، لينشروه فى مشارق الأرض ومغاربها ، كانت كل صلة حضارية فى أوروبا بالعالم القديم قد انقطعت . فقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية فى عام ٣٩٥ إلى إمبراطوريتين : الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعاصمتها روما . والإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية . وفى عام ٤٧٦ سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية فى يد البرابرة من الفرنجة والقوط والوندال .

وفى الوقت نفسه ، تفسّخ النظام الاقتصادى للحضارة الرومانية القديمة ، عن طريق الإقطاعيات التى كان يمنحها ملوك البرابرة لكبار قوادهم وأقاربهم تحت المؤثرات القبلية لهذه القبائل ، وتحت عامل الخوف من الفوضى التى عمت أوروبا فى أعقاب سيطرة هذه القبائل . وبذلك ظهر ما عرف باسم النظام الإقطاعى فى أوروبا ، الذى عاش طوال العصور الوسطى ، والذى اعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة ، وانقسم المجتمع الأوروبى فيه إلى غالبية من الفلاحين أنصاف العبيد يطلق عليهم اسم « الأقنان » ، وأقلية من الإقطاعيين ، فضلا عن رجال الكنيسة الذين كانوا يتكونون فى معظمهم من رهبان جهلة يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وقليل منهم ممن يعرف القراءة والكتابة كانوا يقضون وقتهم فى كشط كتب الأقدمين النفيسة فى خشوع لكى يتوفر لديهم الرقوق الكافية لنسخ كتب العبادة .

حتى اليونان أنفسهم ، وهم الذين كان مفروضًا فيهم أن يكونوا ورثة العلماء القدامى ، والمحافظين على تراثهم من عهد تاليس إلى عهد سقراط فأفلاطون فأرسطو – فعلوا العكس تمامًا ، فقد اعتبروا هذا التراث تراثًا وثنيًا لا يجب أن يلقى أى اهتمام بعد اعتناق المسيحية ، وكانوا يفتشون المكتبات والمدارس والخزائن بحثًا عمّا فيها من هذه الكتب ، ليجمعوها ويكدّسوها فى الدهاليز والأقبية ، ويحولوا بينها وبين طلبة العلم وطلاب المعرفة ! . وقد أجمع مؤرخو الفلسفة على أن اليونانيين (وهم من عرفوا فى الكتاب الكريم باسم « الروم ») قد طمروا هذه الكتب بعد اعتناق المسيحية .


أوربا
سنة ٤٧٦ ميلادية
مقاس الرسم ١ : ٢٥٠٠٠٠٠٠
الصقلب
البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
قورسقة
سردانيه
روما
نابل
قرطاجنة
قادس
طرابزون
أورشليم
القفقاس

(خريطة رقم ١)

فى هذا الوقت وبينما كانت أوروبا تعيش فى ظلمات الجهل والهمجية ، خرج العرب من شبه الجزيرة لنشر لواء الإسلام كما ذكرنا . ففتحوا بلاد العراق الخاضعة لدولة الفرس ، وفتحوا سوريا التى كانت تابعةً للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الروم) ، ودخل عمر بن الخطاب القدس بنفسه ، فخسر الروم فى سبع سنين بلاد سوريا التى حكموها لمدة سبعمائة سنة .

وفى الغرب كان عمرو بن العاص يغزو مصر والنوبة ، بينما كانت جيوش عمر وعثمان تفتح العراق وفارس ، وتصل إلى جبال القوقاز ، وترتاد الهند . وفى عهد معاوية أرسلت الجيوش إلى شمالىّ أفريقيا ولم يعق زحفها إلا المحيط الأطلنطى . ونزل البحر المتوسط أسطول مكون من ١٢٠٠ قطعة ، فاستولى على جزره ، وأغار على صقلية .

وقد حوصرت القسطنطينية ، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية سبع سنين ، وفى عام ٧١٢ ميلادية اجتاز العرب مضيق جبل طارق ، ودخلوا إسبانيا ، وانتزعوها من مملكة القوط المسيحية ، وأسسوا فيها مملكة خضعت لسلطانهم نحو ثمانمائةسنة ! .

ولم ينقض القرن الأول من الهجرة حتّى كان سلطان العرب يمتد من الهند إلى المحيط الأطلنطى ، ومن القوقاز إلى الخليج العربى (الفارسى وقتذاك) . وأصبحت إسبانيا التى كانت إحدى الممالك المسيحية الكبرى فى أوروبا ، تحت سيطرتهم .

وفى القرن الثانى امتدت الفتوح العربية ، وتوغلت الجيوش العربية فى فرنسا حتّى بلغت نهر اللوار ، حيث هزمها شارل مارتل ، ولكنها استقرت بجنوب فرنسا ، حتّى طردها شارلمان نهائيًّا .

وهكذا اتسعت رقعة الدولة العربية منذ أوائل القرن الثانى للهجرة من جبال البرناس وجبل طارق فى الغرب ، إلى الهند فى الشرق – ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال الصحراء . وأضحى العرب فى أوروبا مالكين لإسبانيا ولجزر البحر المتوسط ، بينما كانوا يملكون شاطئ البحر المتوسط الجنوبى فى مصر وكل شمالى أفريقيا .

وكان من الطبيعى بعد انتهاء دور الفتوح ، أن يبدأ دور الاستقرار والتنظيم . فحوّل العرب نشاطهم من الناحية العسكرية إلى الميدان الحضارى . وأخذوا ينهلون من ثقافة اليونان ، فأخرجوا الكتب القديمة من الأقبية بعد أن تهرّأ معظمها ، وأخذوا ينقلونها إلى العربية ، فى الوقت الذى كانوا يفعلون ذلك أيضًا فى الشرق ، وينهلون من مصادر المعرفة الشرقية . ويمزجون بين الحضارتين .

وكان العرب فى هذا النشاط الحضارى مدفوعين بدوافع دينية . فلم تخل سورة من سور

الكتاب الكريم ، أو حديث من أحاديث الرسول ، أو قول من أقوال الفقهاء العرب – من حثٍّ على طلب العلم ، ودعوة إلى التفكير فى خلق السموات والأرض ، والاعتبار والتأمل فى الظواهر العلمية الطبيعية والعقلية والروحية .

وبالتالى ، فلم يعتبر العرب الدين عائقا أو حائلاً بينهم وبين المعرفة ، حتى ولو كان مصدر هذه المعرفة مصدرًا وثنيًّا – كما فعل اليونان أنفسهم بعد اعتناق المسيحية . بل كان لهم فى حديث الرسول الكريم : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، هديًا ومرشدًا لارتياد مناهل المعرفة دون تحرج أو إحجام .

وهكذا أخذت الحضارة العربية منذ عهد العباسيين الأول تدخل فى مرحلة الازدهار ، ونهضت الفنون والعلوم والصناعة والتجارة بسرعة فى زمن الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) على الخصوص . وأخذ الشعراء والعلماء وأرباب الفن يشيدون بذكره ، بل أعطته القسطنطينية ، عاصمة الدولة الرومانية الشرقية جزية ، وأرسل إليه شرلمان ، إمبراطور الغرب وفدًا . واستمر ذلك فى عهد المأمون .

وقد تميزت هذه الحضارة الجديدة باحترام العلم والعلماء ، وتشييد المدارس والمكتبات ، ونشر العلم بين الناس ، واحترام العقل . ففى الوقت الذى كان فقهاء أوروبا يرفعون شعار : « اعتقد ، ثم حاول أن تفهم » ، رفع الغزالى شعار « العقل قبل الإيمان » ، فأوضح أن الإيمان التقليدى الموروث عن الآباء والأجداد لا قيمة له ، إذا لم يقترن « بالعلم اليقينى ، وهو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط أو الوهم » . بل لقد تعرّى الغزالى من عقيدته الموروثة ، وبقى فى الشك فترة طويلة ، يتفحص الطرق التى تفضى بسالكها إلى الحقيقة .

ومعنى ذلك إجلال وتعظيم العلم ، وتقديمه على كلّ شىء حتى على العبادة والإيمان ، واعتباره مدخلاً ضروريًّا لها .

وقد دعا الفيلسوف العربى ابن رشد إلى إخضاع كل أنواع المعرفة للعقل ، ومعالجتها بالعلم ، دون تعصب ، أو اكتراث بمصادر هذه المعرفة من ناحية الجنس أو العقيدة ، فذكر أنه « يجب علينا إذا وجدنا لمن تقدمنا من الأمم السالفة وجهة نظر فى الموجودات ، أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه . وما كان منها غير موافق للحق نبهنا إليه وحذّرنا منه وعذرناهم » ! .

وقد أطلق ابن رشد هذه الدعوة فى الوقت الذى كان من يتجرأ على الدعوة لتحكيم العقل فى

أوروبا . يربط إلى سارية وسط نيران متأججة . أو تشدّ أطرافه الأربعة إلى أربعة جياد ينهال عليها الجلادون ضربًا بالسياط

ونلاحظ أن العرب فى ذلك تجاوزوا دور اليونان أنفسهم . فقد كان اليونان هم الذين أجبروا سقراط على تجرّع السم ؛ لأنه كان يفسد الشبان بتدريبهم على التفكير ! .

وهكذا يظهر واضحًا كيف أن العرب هم الذين أرسوا قواعد حرية الفكر واحترام العلم . والتجرد ، وعدم التعصب . وعلى هذا النهج سارت أوروبا بعد ألف عام ! .

٢ – الصدام الأول بين العرب وأوروبا : بين مؤته وتبوك

- الدوافع الحقيقية وراء الفتوح العربية .
- الغساسنة يفجرون الصراع مع أوروبا .
- موقعة مؤتة ٦٢٩ م .
- جيش العسرة وغزوة تبوك ٦٣٠ م .
- إعداد جيش أسامة بن زيد .

٢ – الصدام الأول بين العرب وأوروبا : بين مؤتة وتبوك

وقف المؤرخون طويلاً أمام الأسباب التى دفعت العرب إلى الخروج من شبه الجزيرة العربية والاصطدام بأوروبا . هل كان الدافع دينيًّا أم اقتصاديًّا ، وهل كان هجوميًّا أم دفاعيا ؟ .

فقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن اصطدام العرب بأوروبا كان تحت عامل الجهاد الدينى ، استنادًا إلى أن الله بعث نبيّه إلى الناس كافة ، ولم يبعثه إلى أمة العرب وحدها ، بقوله فى كتابه الكريم : (وما أَرْسَلْناك إلاّ كافّة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكنَّ أكثر الناس لا يعْلمونَ) . وقوله : (لِيُنْذِر مَنْ كان حيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافرين) وبالتالى فقد أوجب هذا على المسلمين الخروج من شبه الجزيرة العربية لنشر دين الله . مما أدى إلى صدامهم بأوروبا .

وقد استدلّ هؤلاء المؤرخون بحملة أسامة التى جهزها الرسول لإنفاذها إلى جنوب الشام ، الذى كان تحت سيطرة أوروبا (الروم) لمدة سبعمائة سنة . مما يعدّ أكبر دليل على رغبته فى التوسع خارج الجزيرة . ولما جاء أبو بكر الصديق حثّ المسلمين يوم بايعوه على الجهاد قائلاً : « إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل » . ولما فرغ من أمر أهل الردّة ، رأى توجيه الجيوش إلى الشام ، وكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه .

أما الذين رأوا أن الدافع كان اقتصاديًّا ، فقد بنوا رأيهم على أن أوضاع شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام ، كانت أوضاعًا متدهورة ، وبالتالى فلم يكن مفر أمام العرب من الخروج من جزيرتهم إلى المناطق الغنية فى منطقة الهلال الخصيب ، التى كانت واقعةً تحت سيطرة الروم فى الشام ، والفرس فى العراق ، وأدّى بالتالى إلى اصطدامهم بالإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية .

وقد استند هؤلاء المؤرخون ، ومنهم الأب لامانس ، وبرنار لويس ، وفيليب حتّى ، وكيتانى ، وسبرنجر – إلى نصٍّ أورده البلازرى ذكر فيه أن أبا بكر عندما دعا أهل الجزيرة العربية إلى الجهاد ، رغبهم «بغنائم الروم، فسارع إليه الناس بين محتسب وطامع !» .. وأنه عندما وجّه سعد بن أبى وقاص رسوله المغيرة بن شعبة إلى القائد الفارسى رستم ، قال له الأخير : « قد علمت

أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدّة الجهد . ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ، ونصرفكم ببعض ما تحبون » . كما استندوا إلى نصٍّ أورده الطبرى على لسان خالد بن الوليد فى موقعة الولجه ، يرغب جنوده فى بلاد العجم قائلاً : ألا ترون إلى الطعام كرفغ التّراب ؟ . وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتّى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال » ! .

وبطبيعة الحال فإن الرأيين سالفى الذكر يقضيان بأن الاصطدام بأوروبا كان تحت دافع هجومى لا دفاعى .

وبالنسبة للعامل الدينى ، وهو الجهاد لنشر الدين الإسلامى ، فواضح أن أصحاب هذا الرأى يغفلون عن حقيقة أن تشريع الجهاد لم يكن بغرض نشر الإسلام بالحرب فى أنحاء العالم ، وإنما كان الغرض الدفاع عن الإسلام ؛ بدليل أن العرب عندما فتحوا البلاد التى كانت خاضعة للروم وخاضعة أيضًا للفرس ، لم يرغموا الناس على اعتناق الإسلام بالقوة ، بل تركوا لهم الحرية للبقاء على دينهم ، ودفع الجزية . ولم تكن هذه الجزية كبيرة تجبر الناس على ترك دينهم واعتناق الإسلام ، وإنما كانت فى المستوى الذى يمكن كل فرد من دفعها دون إرهاق .

أما السبب الاقتصادى ، فلم تظهر نصوص تاريخية تشير إلى قحط أصاب الجزيرة ، أو مجاعة ألمت بالمسلمين تدفعهم إلى الخروج ، بل إن المصادر تشير إلى العكس ، وهو أن العرب قد زادت مواردهم فى الفترة السابقة على الإسلام وفى عصر النبوةُ نتيجة اشتغالهم بالتجارة . كما أن مواسم الحج كانت من عوامل الانتعاش الاقتصادى لأهل مكة – وبالتالى فإن الاصطدام بأوروبا ، أو بفارس ، لم يكن نتيجة للعامل الاقتصادى على النحو الذى يدعونا إلى تقبل مايقول به الأوروبيون من أن الفتوحات الإسلامية لم تكن سوى موجة سامية كتلك الموجات السامية السابقة التى أدّت إلى استقرار العرب فى العراق وبابل والساحل اللبنانى قبل الميلاد وغيرها من الموجات .

وفى الواقع أن تتبع الصدام التاريخى بين العرب وأوروبا منذ عهد الرسول ، يثبت أن هذا الصدام من جانب العرب كان دفاعيًّا وليس هجوميًّا . ولكن هذا يقتضى أن نرسم للقارئ صورة حيّةً للوضع الذى كانت عليه الدولة الرومانية الشرقية التى كانت أول ما اصطدم بها العرب فى ذلك الحين ، والأسباب المباشرة التى أدّت إلى هذا الصدام .

ففى ذلك الوقت كانت الدولة الرومانية الشرقية تمثل إحدى الدولتين العظميين فى العالم فى مواجهة الدولة الثانية وهى الدولة الفارسية – كما هو الحال فى عصرنا بين الولايات المتحدة فى

الغرب والاتحاد السوفيتى فى الشرق . وكانت الدولة الرومانية الشرقية ، وهى التى كان يطلق عليها العرب اسم « الروم » — صاحبة إمبراطورية شاسعة ، إذ كانت تسيطر على جنوب أوروبا وبلاد الشام وشمال أفريقيا الممتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى !

وبالنسبة لبلاد الشام ، وهى الميدان الأول للصراع بين العرب والدولة الرومانية الشرقية ، فقد كانت تقوم فى بادية الشام قبائل عربية نزحت من اليمن ، واعتنقت فيما بعد المسيحية ، وتعرف باسم الغساسنة ، وأصبحت مملكة تحت نفوذ الدولة الرومانية الشرقية ، ومتحالفة معها ، وفى خدمة الصراع بينها وبين الدولة الفارسية . وكانت كلٌّ من الدولة الرومانية الشرقية والدولة الفارسية قد عمدت إلى إقامة حاجز بينهما وبين القبائل العربية التى كانت تغير عليها من قلب شبه الجزيرة العربية ، وقد تمثّل هذا الحاجز فى تكوين دويلات عربية متحالفة معها تزودها بالسلاح والمال ، وتحمى الدولتين من غارات القبائل العربية ، كما تحميها الدولتان إذا تعرضت للخطر من جانب هذه القبائل . فتكونت « مملكة الحيرة » على حدود فارس من « المناذرة » وتكونت « مملكة غسان » على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية من « الغساسنة » ، وكانت « جلّق » عاصمة لهم ، وهى التى تسمى دمشق الآن . ومن أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة ، والمنذر بن الحارث ، وجبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة . وفى عهده دخل المسلمون بلاد الشام .

وكان الاصطدام الأول بين العرب والروم فى مملكة الغساسنة . وكان السبب المباشر حادث من الحوادث الصغيرة التى يمرّ عليها التاريخ دون اهتمام ولكنها فجرت أكبر صدام جرى بعد ذلك بين العرب وأوروبا .

ففى ذلك الحين كان الرسول قد قرّر اصطناع سياسة خارجية ترمى إلى نشر الدعوة الإسلامية خارج نطاق دولته فى المدينة ، على امتداد الجزيرة العربية من جهة ، وعلى امتداد العالم المعروف من جهة أخرى . فأرسل مبعوثين عنه إلى الملوك والأمراء فى الجزيرة العربية وخارجها ، يدعوهم إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا ستة خرجوا فى يوم واحد فى شهر محرم من السنة السابعة الهجرية . وتوجّه أحدهم إلى الحبشة ، والثانى إلى قيصر الروم ، والثالث إلى كسرى ، والرابع إلى المقوقس نائب قيصر الروم فى الإسكندرية ، أما الخامس فإلى أمير غسّان ، الحارث بن أبى شمر الغسّانى ، أما السادس فإلى أمير اليمامة . كما أرسل رسولا إلى صاحب بصرى .

على أن استجابة الغساسنة لكتب الرسول كانت استجابة عدائيةً . فقد ألقى الحارث بن أبى شمر الغسّانى بالكتاب الذى حمله إليه شجاع بن وهب الأسدى فى وجهه ، وتوعّد بالسير



الأسر الممالكة التابعة للفرس والروم
البحر الاسود
امبراطورية الروم
انطاكية
البحر المتوسط
دمشق
الغزوات بين الأتباع
الحيرة
المدائن
فارس
الصحراء
مكة

(خريطة رقم ٢)

لمحاربة النبى ! . وكان نصيب الحارث بن عمير الأزدى ، الذى حمل كتاب الرسول إلى صاحب بصرى ، الذبح ! ، فحين نزل مؤتة ، وهى قرية من قرى البلقاء ، اعترضه شرحبيل بن عمرو الغسّانى ، أحد أمراء الغساسنة ، وأوثقه ، وضرب عنقه .

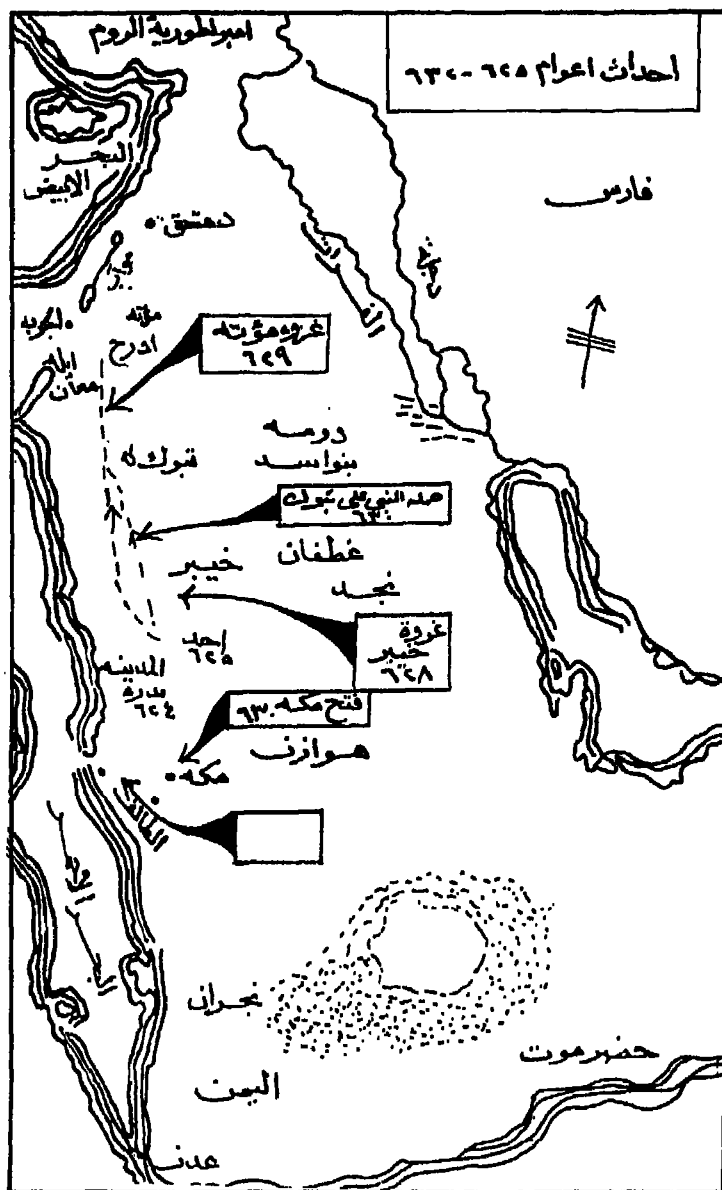
وكان ذلك الحادث هو الذى فجّر الصراع مع الدولة الرومانية الشرقية . فنظرًا لأنه يمثل استهانةً بالغة بالمسلمين ، ومساسًا بكرامتهم وشرفهم ، فقد قرر رسول الله إرسال جيش ضخم على رأسه زيد بن حارثه ، لتأديب أمير مؤتة . وقد بلغ هذا الجيش ثلاثة آلاف مقاتل . وكان ذلك فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة .

على أنه نظرًا لعلاقات التحالف بين الغساسنة والدولة الرومانية الشرقية ، فقد تقدمت جيوش هذه الدولة لحماية حلفائها ، ولذلك حين بلغ جيش العرب « معان » من أرض الشام ، فوجئ بالجيوش الرومانية جنبًا إلى جنب مع جيوش الغساسنة من لخم وجذام وقضاعة وغيرها .

وقد أقام العرب فى « معان » ليلتين يفكرون فيما يصنعونه : هل ينسحبون دون اشتباك ، اعترافًا بالأمر الواقع المتمثّل فى تفوق الجيوش الرومانية عليهم عددًا وعدّةً وخبرةً ، أم يخاطرون بالقتال . وقد تغلّبت الحميّة الدينية فى النهاية ، فجرت معركة غير متكافئة سقط فيها زيد بن حارثه ، وجعفر بن عبدالمطلب ، وعبدالله بن رواحة ، وغيرهم من خيرة قواد المسلمين ، ولم ير خالد بن الوليد بدًّا من الانسحاب . أو فناء الجيش العربى دون طائل ، فانسحب بعملية باهرة ، وعاد بالمسلمين إلى المدينة .

كانت هذه المعركة أول معركة يخوضها العرب مع الدولة الرومانية الشرقية ، وأوّل تجربة حربية على المستوى الدولى . وقد دخلت التاريخ تحت اسم : « غزوة مؤتة » ، وعرف فيها العرب لأول مرة مخاطر اللقاء مع دولة كبرى وإمبراطورية عظمى ، وعرفوا ماهو أكبر ، وهو أن الشجاعة لاتقوم مقام الفن الحربى الحديث (بمعيار ذلك العصر) . فلم يكن اقتتال العرب فيما بينهم قبل هذه الموقعة يدخل فى فنون الحرب ، وإنما كان اقتتالاً اجتهاديًا بالدرجة الأولى . ومن ثم فقد عملوا من ذلك الحين على تعلم ماكانوا يجهلونه من فنون تعبئة الجيوش والنظام وأعتدة الحرب ، اقتباسًا من قاهريهم الرومان ، حتى يستطيعوا الوقوف أمامهم على قدم المساواة ، ويحققوا النصر عليهم .

على أن موقعة مؤتة كان لابد أن تكون لها آثارها المباشرة ، التى سبقت إقبال العرب على تعلّم فنون الحرب ، وأوّلها ، انتهاز الدولة الرومانية فرصة هزيمة العرب لإرهابهم والحدّ من شوكتهم ،



احداث اعوام ٦٢٥ - ٦٣٠
امبراطورية الروم
البحر الابيض
دمشق
فارس
مؤتة
ادرح
الجرباء
ايلة
معان
غزوة مؤتة ٦٢٩
دومة
بنو اسد
تبوك
غطفان
خيبر
نجد
غزوة خيبر ٦٢٨
احد ٦٢٥
المدينة
بدر ٦٢٤
فتح مكة ٦٣٠
هوازن
مكة
الطائف
نجران
حضرموت
اليمن
عدن

(خريطة رقم ٣)

عن طريق حشد الجيوش من جديد . أمّا الأثر الثانى ، فهو تأثر الروح المعنوية للعرب من هذه الهزيمة أمام دولة كبرى .

فنى العام التالى ، وهو التاسع للهجرة ، جمعت الدولة الرومانية جموعًا كبيرةً بالشام ، انضمت إليها القبائل المتنصرة من لخم وغسان وغيرها ، وزحف ذلك الجيش إلى أطراف شبه الجزيرة ، وقد هبّ رسول الله لإعداد جيش يقابل به جيش الروم ، ولكن هزيمة مؤتة كانت قد فعلت فعلها فى النفوس ، فقد أرعب العرب أن يقفوا مرةً أخرى وجهًا لوجه أمام الروم ، ويواجهوا معداتهم وحصونهم وتدريبهم ، وأثاروا بعد بلاد الروم عن قلب الجزيرة العربية ، ومشقّة الوصول إليها ، وبعدها عن مراكز التموين والإمدادات والمساعدات . فضلاً عن أن الوقت كان شديد الحرارة حين طاب أول الثمر .

لهذه الأسباب لقى رسول الله عناءً شديدًا فى تجهيز هذه الحملة ، التى نصب نفسه قائدًا عليها ، لدفع الخوف عن القلوب . وقد سُمى هذا الجيش « جيش العسرة » للصعوبات التى أحاطت بتكوينه .

على أن قيام هذا الجيش ، الذى بلغ تعداده ثلاثين ألفًا ، بالزحف على الشمال ، فى زمن الحرّ القاسى ، كان مفاجأةً للعدو الرومانى الذى لم يكن يتوقع ظهور هذا الجيش فى فترة الحصاد وزمن الحرّ معًا ، فأخذ يتقهقر داخل بلاده ليتخذ وضع الدفاع لا الهجوم !

وهذا ما كان يستهدفه الرسول من الاستنفار فى ذلك الوقت بالذات ، طلبا للمفاجأة من جانب ، ولإشعار الرومان بأن جيشه على درجة الصلابة والبأس الكافية التى تتيح له الخروج والقتال فى أشق الظروف — من جانب آخر .

ولذلك لم يشأ الرسول متابعة العدوّ داخل أرضه بعد تقهقره ، فقد حقق غرضه ، واكتفى بنصب معسكره فى تبوك عشرين يومًا ، عقد فيها المعاهدات مع قبائل الحدود بين الجزيرة العربية والشام . وبعث بخالد بن الوليد إلى « دومة الجندل » ليضمن خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية الإسلامية ، حتى لايتمكن الرومان من استخدام هذه القبائل فى الإغارة على الاسلام . وقد تمكن خالد بن الوليد من أسر أكيدر بن عبدالله الكندى صاحب « دومة الجندل » وقدم به إلى الرسول ، فعفا عنه عندما أعلن إسلامه ، وعاد رسول الله إلى المدينة بعد عشرين يومًا قضاها فى تبوك .

على أن المحنة التى صاحبت تكوين جيش العسرة ، والنتائج الهامة التى أسفرت عنها الحملة

لقنت العرب درسًا فى الجهاد وعدم التخاذل مهما كانت الظروف . ونزل هذا الدرس فى القرآن الكريم فى الآيات البليغة الآتية :

(يا أيها الذين آمنوا مالَكُمْ إذا قِيلَ لكمُ انفِروا فى سبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرْضِ ؟ أرضيتُمْ بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرةِ ؟ . فما متاعُ الحياةِ الدنيا فِى الآخرةِ إلاَّ قليلٌ) . (لو كان عَرَضًا قريبا وسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبعوك ، ولكن بَعُدتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ! . وسَيَحْلِفُونَ باللهِ ، لَو اسْتَطَعْنا لخَرَجْنا مَعَكُمْ ، يُهْلِكونَ أنْفُسَهُمْ ، والله يَعْلَم إنّهُمْ لكاذِبونَ) . (فَرِحَ المخَلَّفونَ بِمقْعَدِهِمْ خِلافَ رسول اللهِ ، وكَرِهوا أنْ يُجاهِدوا بأموالِهِم وأنْفُسِهِم فى سبيلِ اللهِ ، وقالوا : لا تَنْفِروا فى الحرِّ ! . قُلْ : نارُ جَهَنَّمَ أشدُّ حَرًّا لَوْ كانوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلا وَلْيَبْكُوا كثيرًا جزاء بِمَا كانوا يكْسِبونَ . فإن رَجَعَكَ الله إلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فاسْتَأْذَنوكَ لِلْخُروجِ ، فقُلْ : لنْ تَخْرُجوا مَعِى أبَدًا ، وَلَنْ تُقاتِلوا مَعِى عَدُوًّا . إنَّكُمْ رضيتُمْ بِالقُعودِ أول مَرَّةٍ فاقْعُدُوا مَعَ الخَالِفِينَ) .

وفى الوقت نفسه وعد الله الذين خرجوا مع محمد للقاء الروم بحسن الجزاء . فقال : (لايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصةٌ فى سَبيل اللهِ . وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفَّارَ ، وَلاَ ينالونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيلاً - إلاكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ . إنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ المُحسِنِين * وَلاَ يُنْفِقونَ نَفَقةً صَغِيرةً وَلا كبيرةً ، وَلاَ يَقْطعونَ وَادِيًا - إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ . لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا كانوا يَعْمَلونَ) .

وقد تحرر العرب بعد « تبوك » من عقدة الخوف من لقاء الروم ومواجهة دولة كبرى - واجتازوا الرهبة التى يلمسها المرء فى كلمة كتلك التى قالها عمر بن الخطاب - مع شجاعته وبأسه - فى قوة الروم قائلا : « إنها الروم وبنو الأصفر ، عزمٌ حديدٌ وبأسٌ شديد » ! أو حين كانوا يخشون قدوم الروم قبل تبوك ، حتى لقد هبَّ عمر مذعورًا حينما دقَّ بابه ليلاً أحد الصحابة قائلا : « ماهو ، أجاءت غسّان ؟. - أى غسّان وحلفاؤها الرومان » !

وكان للرسول - كما رأينا - الفضل فى كسر وإزالة هذا الحاجز النفسى الذى صنعته هزيمة مؤتة ، بخروجه بنفسه للقاء الروم على رأس جيشه ، ومفاجأة الرومان وحلفائهم على غير ما كانوا يتوقعون .

وقد انطلق الرسول بعد تبوك فى تعميق هذا الخط . الذى حذا خلفاؤه بعده حذوه - خط مواجهة الدولة الرومانية الشرقية فى عقر دارها ، وعدم الانتظار حتى تقوم بإغاراتها على الدولة العربية الإسلامية الفتية . فقد حرص فوْر توحيد شبه الجزيرة ، وأداء الحج فى العام العاشر

للهجرة ، على إعداد جيش آخر . أسند قيادته إلى شاب صغير هو أسامه بن زيد بن حارثة ، وهو أبن زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ، وأول من أسلم من الموالى ، وذلك لغزو أطراف الشام الجنوبية .

ونلمس فى اختيار الرسول لأسامة بن زيد لقيادة هذا الجيش معنيْين كبيرْين :

الأوّل ، الثقة بالنفس وبالنصر إلى حدّ تولية شاب صغير لمهمة خطيرة كمهمة محاربة الروم ، ولدى رسول الله كبار القادة المسلمين الذين أثبتوا جدارةً ورسوخ قدم فى السرايا والغزوات .

أمّا المعنى الثانى ، فهو الصلة بين تكوين هذا الجيش وموقعة مؤتة . ذلك أن أسامة بن زيد ، هو ابن زيد بن حارثة ، قائد الجيش فى موقعة مؤتة – وكان زيد قد قتل فى المعركة . فحمل الراية بعده عبدالله بن أبى رواحة ، ثم جعفر بن أبى طالب ، وقد قتل كلاهما .

فكأنما أراد رسول الله بتعيين أسامة بن زيد التأكيد على أنها موقعةٌ واحدة مستمرة يتوارثها الأبناء عن الآباء !. وقد بّر بذلك بوعده لمن عيروا رجال جيش مؤتة بأنهم « الفرّار » ! – أى الذين فروا من المعركة ! فقد ردّ الرسول قائلاً : « بل هم الكرّار إن شاء الله » ! أىْ أنهم سوف يكرّون مرةً أخرى . وقد وضع رسول الله بذلك أساس الجولات التالية فى عهد خلفائه .

٣ – من هزيمة مؤتة إلى انتصارات الشام

- الرسول يضع تقليد المواجهة مع أوروبا .
- هزائم المسلمين فى الاشتباكات الأولى مع البيزنطيين .
- عوامل بناء القوة الإسلامية .
- الحملة العربية الإسلامية على الشام ٦٣٤ م .
- رحلة خالد بن الوليد التاريخية وموقعة أجنادين .
- موقعة اليرموك ٦٣٦ م وسقوط الشام فى يد المسلمين .

٣ - من هزيمة مؤتة إلى انتصارات الشام

حرص رسول الله قبل وفاته - إذن - على وضع تقليد المواجهة مع الدولة البيزنطية ، عن طريق تكوين جيش آخر ، لغزو أطراف الشام الجنوبية الواقعة تحت سلطان البيزنطيين ، والثأر لهزيمة مؤتة التى دارت بين العرب والبيزنطيين وحلفائهم . ووضع على رأس هذا الجيش أسامة بن زيد بن حارثة ، الذى كان والده قائد جيش مؤتة وقتل فى المعركة - للتأكيد على أنها معركة واحدة يتوارثها الآباء عن الأجداد .

وقد كان هذا الجيش هو الذى وجده أبو بكر بعد وفاة الرسول وتوليه الخلافة . ولم يتردد أبو بكر فى تنفيذ وصية رسول الله ، فأنفذ جيش أسامة ، الذى مضى إلى الشمال ، فأغار على « آبل » وهى قرية من قرى مؤتة ، وحقق الانتصارات على متنصرة الشام . وكان هدف أبى بكر من تسيير هذا الجيش تخويف البيزنطيين ، فلا يطمعون فى الانقضاض على الدولة بعد موت الرسول . ولذلك فبينما كانت حروب الردة على أشدها ، عاد أبو بكر فأرسل جيشًا آخر بقيادة خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام ، انطلاقًا من القاعدة المعروفة عسكريًا بأن الهجوم خير وسائل الدفاع . ولكن البيزنطيين وجهوا إليه حشودًا ضخمة من جيوشهم مدعومة بمتنصّرة عرب الشام ، والحقوا به الهزيمة بقيادة القائد البيزنطى « ماهان » ، فأرسل إليه أبوبكر جيشًا آخر بقيادة ذى الكلاع الحميرى وعكرمة بن أبى جهل ، ثم لحق بهما الوليد بن عقبة فى جيش آخر لمساندته . وقد زحف خالد بن سعيد بن العاص بهذه الجيوش إلى جنوب البحر الميت لمقاتلة البيزنطيين ، ولكن القائد البيزنطى ماهان استدرجه مع ذى الكلاع والوليد إلى « مرج الصفر » إلى الشرق من بحيرة طبرية وطوق الجيوش العربية ، وقطع عليها خط الرجعة ، وألحق الهزيمة بها ، واضطر خالد بن سعيد إلى الفرار تاركا جيشه تحت رحمة البيزنطيين ، ولكن عكرمة بن أبى جهل نجح فى تغطية انسحاب قوات المسلمين إلى حدود الحجاز . واتهم ابوبكر خالد بن سعيد بن العاص بالجبن ، وأمره بالبقاء فى المدينة فلايغادرها .

وبذلك يكون العرب قد منوا بالهزيمة فى معظم الاشتباكات الأولى التى وقعت بينهم وبين البيزنطيين حتى الآن منذ موقعة مؤتة ، ولم يقع اشتباك فى غزوة تبوك بقيادة الرسول -كما ذكرنا -

لتقهقر البيزنطيين داخل حدود بلادهم . ثم تتابعت هزيمة العرب فى حملة خالد بن سعيد بن العاص كما رأينا .

وهذا يبين فساد الرأى ، الذى أخذ به المؤرخون الإسلاميون ، نقلاً عن المؤرخين الأوروبيين ، فى تفسير الانتصارات التى حققها العرب بعد ذلك على البيزنطيين والذى ينسبون فيه هذه الانتصارات إلى ضعف الدولة البيزنطية .

فقد درج المؤرخون الأوروبيون على تفسير هذه الانتصارات بالضعف والوهن الذى أصاب الدولة البيزنطية بسبب الحروب المتبادلة بينها وبين الدولة الفارسية ، والتى استنزفت طاقاتهما ، وأدت إلى شيوع الاضطراب والفوضى فى كلا البلدين . وعزوا هذا الضعف إلى استبداد الملوك والبذخ ، والخلافات الدينية ، والتنافس على الملك ، والفتن والثورات منذ أواخر عهد جستنيان إلى وفاة هرقل ، أى من ٥٦٥ إلى ٦٤١ ميلادية .

على أن الدولة البيزنطية لم تكن بهذا الضعف – كما يصورها الغربيون – بدليل أنها استطاعت فى سنة ٦٢٩ ميلادية ، أى فى عهد الرسول ، وقبل تولى أبى بكر الخلافة بثلاثة أعوام ، أن تسترد من الفرس بلاد الشام التى دخلت فى حوزتهم منذ عام ٦١٣ ! فقد نجح الإمبراطور هرقل فى طرد الفرس من هذه البلاد . وأعاد إليها الغساسنة . ومعنى ذلك أن هذه الدولة كانت على درجة القوة الكافية لمحاربة إمبراطورية أخرى مثل الإمبراطورية الفارسية ، عندما وقع الصدام بينها وبين العرب . وهذا يفسر الهزائم التى ألحقتها بهم فى مؤتة والوقائع التى دارت بعدها .

كذلك فإن تعليل انتصارات العرب على البيزنطيين من جانب المؤرخين الأوروبيين ، بأن فلسطين والشام كانت بهما قبائل عربية تربطها بالعرب المسلمين روابط فى الجنس وتقارب فى اللغة ، وصلات فى التجارة ، مما سهل على العرب فتح هذه البلاد – هى حجة لاتقل فساداً . فقد رأينا أنّ الغساسنة كانوا أشدّ من هرقل ومن المقوقس فى مصر اعتداء على الإسلام ، حتى لقد ذهبوا فى ذلك إلى حدّ قتل مبعوث رسول الله ، الحارث بن عمير الأزدى فى مؤتة ! ، ثم عمدوا إلى تحريض البيزنطيين على المسلمين والاستعانة بهم فى محاربة الحملة التى أرسلها رسول الله إلى مؤتة ، مما أدى إلى إلحاق الهزيمة بها . وبذلك كان الغساسنة العرب هم الذين زجوّا بالبيزنطيين فى الحرب ضد المسلمين . وبالتالى لايمكن أن يكونوا قد سهلوا على المسلمين فتح هذه البلاد ! .. أمّا المتنصرة العرب الآخرون فقد استمروا فى محاربة العرب المسلمين حتى بعد موقعة اليرموك المشهورة . بل اشتركوا مع الروم فى معركة قنسرين !

وفى الحقيقة أن انتصارات العرب المسلمين على البيزنطيين ترجع إلى قوة المسلمين وليس إلى ضعف البيزنطيين ! وهذه القوة ترجع إلى عدة عوامل :

أولها : قوة العقيدة . فالمحاربون فى كلّ الأزمنة يحتاجون دائما إلى مُثُلٍ عليا وأهداف سامية يموتون من أجل تحقيقها . وقد كان لدى العرب المسلمين هذه المثل والأهداف ، ولم تكن لدى البيزنطيين !

وثانيها : اهتم العرب المسلمون بالدرجة الأولى بالكيْف فى تكوين مقاتليهم ، نظرًا لقلة عددهم ، على حين اهتم البيزنطيون بالكم نظرًا لكثرة عددهم . والكيف يغلب الكمّ عادة .

ثالثها : تجانس العرب المسلمين لغويا وفكريًّا وجنسيًّا ودينيًّا ، فى حين اختلف البيزنطيون فى هذه الصفات . فقد كان من الطبيعى بالنسبة لإمبراطورية ضخمة مثل الإمبراطورية البيزنطية ، أن يتكون جيشها من كافة الأجناس التى تخضع لها . وقد كان هذا هو شأن جميع جيوش الإمبراطوريات الكبرى ، ومنها الإمبراطورية العثمانية فيما بعد ، حتى سقطت معظم هذه الإمبراطوريات فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ومن الطبيعى أن يكون التماسك فى جيش مكون من جنسيات عديدة ، أقلّ من التماسك فى جيش مكوّن من جنس واحد وعقيدة واحدة ووطن واحد ، كما كان الحال بالنسبة للعرب المسلمين . فقد كان الجيش البيزنطى الذى واجهه المسلمون فى واقعة اليرموك – على سبيل المثال – مكونًا من فرق من البيزنطيين ، ومستعربة الشام من لخم وجذام ، وفرقة من أهل أرمينية والجزيرة وكثيرين من المرتزقة !

وفضلا عن ذلك ، ففى مواجهة العقيدة الإسلامية الواحدة التى كان يدين بها جيش العرب المسلمين . كان الجيش البيزنطى مكونًا من عقيدتين متنازعتين :

فقد كان العدد الأعظم من جند الشام يدينون بالمذهب المونوفيزيتى أو اليعقوبى ، مخالفين فى ذلك مذهب كنيسة القسطنطينية . وكان أباطرة بيزنطة قد تدخلوا فى هذا الصراع المذهبى واعتبروا المذهب اليعقوبى كفرًا وإلحادًا وخروجاً على الدين الصحيح ، وأنزلوا الاضطهاد بمتنصرة الشام ومصر . ومعنى ذلك أن الجيش البيزنطى كان يحارب تحت لواءى مذهبين !..

ورابعها : تجانس الجيش العربى الإسلامى اجتماعيًّا وطبقيًّا إلى حدٍّ لم يحدث فى التاريخ القديم والوسيط والحديث حتى الحرب العالمية الأولى – على حين كان الجيش البيزنطى جيشاً تبرز فيه الصفة الطبقية بشكل ظاهر ، فقد كان المجتمع البيزنطى منقسماً إلى طبقتين : طبقة أرستقراطية

تتمتع بكافة الحقوق والامتيازات ، وطبقة العامة المحرومه من هذه الحقوق والامتيازات ، والتى ترهق بالضرائب والمغارم . وكانت الطبقة الأولى تسود الطبقة الثانية .

أما الجيش الإسلامى فإن العقيدة الإسلامية قد سوت بين الجميع فى المركز الاجتماعى مهما اختلفت أوضاعهم الاقتصادية . فلم يعد المركز الاقتصادى للفرد المسلم يعطيه ميزة اجتماعية على من هم أقل منه فى هذا المركز ، وإنما كانت درجة إيمانه هى الأساس فى تحديد وضعه فى المجتمع ، وفقا لما ورد فى الآية الكريمة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ولربما كان خير ما يصور هذه الحقيقة الفريدة وتأصلها فى النفوس ، وإيمان الحكام بها ماجاء فى الوصية المشهورة لأبى بكر . التى خاطب بها عمرو بن العاص عندما سيَّره بجيشه إلى فلسطين لفتحها . (وقد نقل هذه الوصية كبار المؤرخين الأوروبيين مثل « جبون » و« ايرفنج » لمغزاها الخطير) – فقد قال له فيما قال : «اعلم ياعمرو ، إن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر. فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولانى أبوبكر لأنى خيرهم ! . إياك وخداع النفس ، وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك .. وأطل الجلوس بالليل مع أصحابك ، وأقم بينهم ، واجلس معهم .. وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك » .. إلخ ..

ومعنى ذلك أن الجيش العربى الإسلامى الذى هزم جيوش أوروبا ، كان جيشًا ديمقراطيًا على نحو لم يحدث من قبل أو بعد فى التاريخ . وهذا سبب من أهم أسباب انتصاره .

أما السبب الخامس ، فهو سرعة تعلم العرب المسلمين الفن العسكرى لأعدائهم البيزنطيين ، والاستفادة به فى محاربتهم ، واستفادتهم من الهزائم التى لحقت بهم على أيديهم . وهذا الكلام ليس من عندنا ، بل يقوله المؤرخون الأوروبيون أنفسهم : يقول المؤرخ الفرنسى **Gustave Le Bon** فى كتابه : **"La Civilization des Arabes"**

« لم يلبث العرب طويلا أن تعلموا من الهزائم التى منوا بها فى سوريا ماكان ينقصهم . فأخذوا ممن هزموهم الكثير من فنون الحرب ، وعرفوا ممن دخلوا منهم فى الدين الجديد ماكانوا يجهلون من فنون التعبئة والنظام وعتاد الحرب . وتم استعدادهم فى سنوات قلائل ؛ ولذلك فقد فوجئ البيزنطيون حين حاصر العرب دمشق ورأوهم مجهزين بمثل ما كان لديهم من آلات الحرب » !

وللأسف الشديد أنه لايوجد فى المراجع العربية اهتمام بهذه الناحية ، ولا يوجد ضوء كثير على الاستعدادات المحمومة ، والتدريبات الشاقة التى أخذ بها العرب المسلمون أنفسهم ، والجهود التى

بذلت لنقل وسائل الحرب الحديثة إلى الجيش العربى الإسلامى حتى يستطيع مواجهة جيش أكبر إمبراطورية أوروبية فى ذلك العصر ، فى تلك الفترة الوجيزة من الزمن .

وعلى كل حال فيجمع كثير من المؤرخين على أن تحدى الهزيمة التى منى بها العرب المسلمون على يد البيزنطيين فى حملة خالد بن سعيد ، كان وراء اهتمام أبى بكر بتجييش الجيوش لفتح الشام ، للقضاء على خطر البيزنطيين ، حتى لقد أعطى هذا الهدف فى تلك اللحظات الحرجة الأولوية على الصراع الدائر وقتذاك مع الفرس ! ، كما سوف نرى .

فى عام ١٣ من الهجرة (٦٣٤م) نجح استنفار أبى بكر لأهل مكة والطائف واليمن وجميع عرب الحجاز ونجد للجهاد ضد البيزنطيين . فى مجىء حشود ضخمة توافدت من جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وتجمعت فى المدينة فى معسكرين بالجرف . وعندئذ عقد أبوبكر أربعة ألوية : أحدها لأبى عبيدة بن الجراح ، ووجهته حمص ، والثانى لعمرو بن العاص ، ووجهته فلسطين ، والثالث ليزيد بن أبى سفيان ، ووجهته دمشق ، والرابع لشرحبيل بن حسنة ، ووجهته وادى الأردن . وأمرهم أبوبكر أن يعاون بعضهم بعضا .

على أنه حين بلغ هرقل وهو بحمص توافد قوات العرب المسلمين على جنوب الشام . أرسل أربعة جيوش جرارة لمحاربة الألوية الأربعة كل على حدة .. وأمام هذا التفوق العددى الكبير . فزع القادة المسلمون إلى عمرو بن العاص ، الذى نصح بالتجمع وتوحيد الألوية الأربعة قائلا : « إن الرأى الاجتماع . وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة » فكتبوا بذلك إلى أبى بكر ، الذى رد مؤيداً هذا الرأى . وفى الوقت نفسه ولمعرفة أبى بكر بخطورة المعركة ، أصدر أوامره إلى خالد بن الوليد ، الذى كان يخوض المعارك ضدّ الفرس فى العراق ، بالتوجه إلى الشام لمساندة جيوش المسلمين ، وتولى القيادة العامة .

وقد قام خالد بن الوليد برحلته التاريخية مخترقا الصحراء الفاصلة ما بين العراق والشام على رأس نحو تسعة آلاف مقاتل . حتى وصل الى « بصرى » حيث كان يقف أمامهاشرحبيل بن حسنة عاجزًا عن اقتحامها ، فاشترك فى محاصرتها ، مما أسفر عن سقوطها . ثم اتجه بالجيوش الإسلامية مجتمعة إلى مساعدة عمرو بن العاص فى مواجهة حشود البيزنطيين فى « أجنادين » ، وهى بلدة تقع بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين ، وكانت هذه الحشود بقيادة تيودور أخى الإمبراطور هرقل . ودارت معركة هائلة استشهد فيها شخصيات إسلامية بارزة منها : عبدالله بن الزبير بن

زحف خالد (من عين التمر الى اذرعات)

سوريا
حمص
تدمر
القريتين
السوه
مرج راهط
دمشق
بصرى
صحراء
صحراء الجزيرة
الفرات
عين التمر
الحيرة
السواد
مسير خالد (يناير ٦٣٤)
خالد (مارس ٦٣٤)
مؤته
قراقر
صحراء
وادي السرحان
ايله
البحر المتوسط
اليرموك

(خريطة رقم ٤)

عبد المطلب ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وأخوه أبان بن سعيد . كما قتل من الجانب البيزنطى قائده تيودور مع أعداد ضخمة من الجنود والضباط ، وانتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين .

وعندئذ عول الإمبراطور هرقل على الاشتباك فى معركة فاصلة مع العرب . فعين القائد ماهان الذى سلف ذكره ، وهو قائد أرمنى عرف بالشجاعة ، على رأس ثمانين ألفا ، ولحق به جبلة بن الأيهم ملك غسان على رأس ستين ألفا من العرب المتنصرة . عدا الجنود التى كانت مع قواد الروم الآخرين ، فأصبح عددهم نحو مائة وأربعين ألفا ، بينما كان جيش المسلمين نحو أربعين ألفا . واجتمع المسلون شمال نهر اليرموك فى سهل فسيح يعرف بالواقوصة فى انتظار لقاء البيزنطيين .

وقد رتب خالد بن الوليد الجيش إلى أربعين كردوسًا يتألف كل منها من ألف جندى ، ثم قسم الكراديس إلى ميمنه عليها عمرو بن العاص ، وميسرة عليها يزيد بن أبى سفيان ، وقلْب أقام عليه أبا عبيدة بن الجراح . وألقى خطابًا خطيرًا كشف عن نظرة ثاقبة وتقدير لأهمية المعركة التى ستدور قائلا : « إن هذا يوم له مابعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردهم ، وإن هزمونا ، لم نفلح بعدها » !

على أن البيزنطيين حملوا على المسلمين حملة شديدة ، ارتدوا على أثرها من مواقعهم ، ولكن عكرمة صرخ مناديًا قومه : « من يبايع على الموت ؟ » فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، وقاتلوا أمام فسطاط خالد ، مما أتاح لخالد الهجوم بقلب الجيش ، وهزيمة فرسان العدو ، الذين تركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين ، فأعملوا فيهم السيف ، وتعقبوهم إلى سهل الواقوصة ، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين ، أبادوا فيه الغالبية العظمى من جنود العدو ، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف ، منهم عكرمة بن أبى جهل ، وعمر بن مكرمة ، وضرار بن الأزور . ولما بلغ هرقل ما أُصاب جيشه ، رحل إلى القسطنطينية ، وعندما جاوز الدرب الذى يصل أرض الشام بأرض بيزنطة قال : « عليك ياسوريا السلام ! سلاما لا لقاء بعده » Vale Syria et Ultimatum Vale.

وبموقعة اليرموك انهارت سلطة البيزنطيين ، وزحف أبوعبيدة بن الجراح إلى دمشق ، بعد أن تولى إمارة الجيوش الإسلامية تنفيذا لأمر عمر بن الخطاب (الذى ولى الخلافة قبيل معركة اليرموك وعزل خالد بن الوليد عن القيادة) وقام بمحاصرتها ، حتى سقطت صلحًا .

ومالبثت مدن الشام الشمالية أن أخذت تتساقط ، فاستولى عبيدة بن الجراح على « فحل » بعد اشتباك مع البيزنطيين ، كما استولى على بيسان وطبرية . وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن ، ثم

معركة اجنادين

(خريطة رقم ٥)

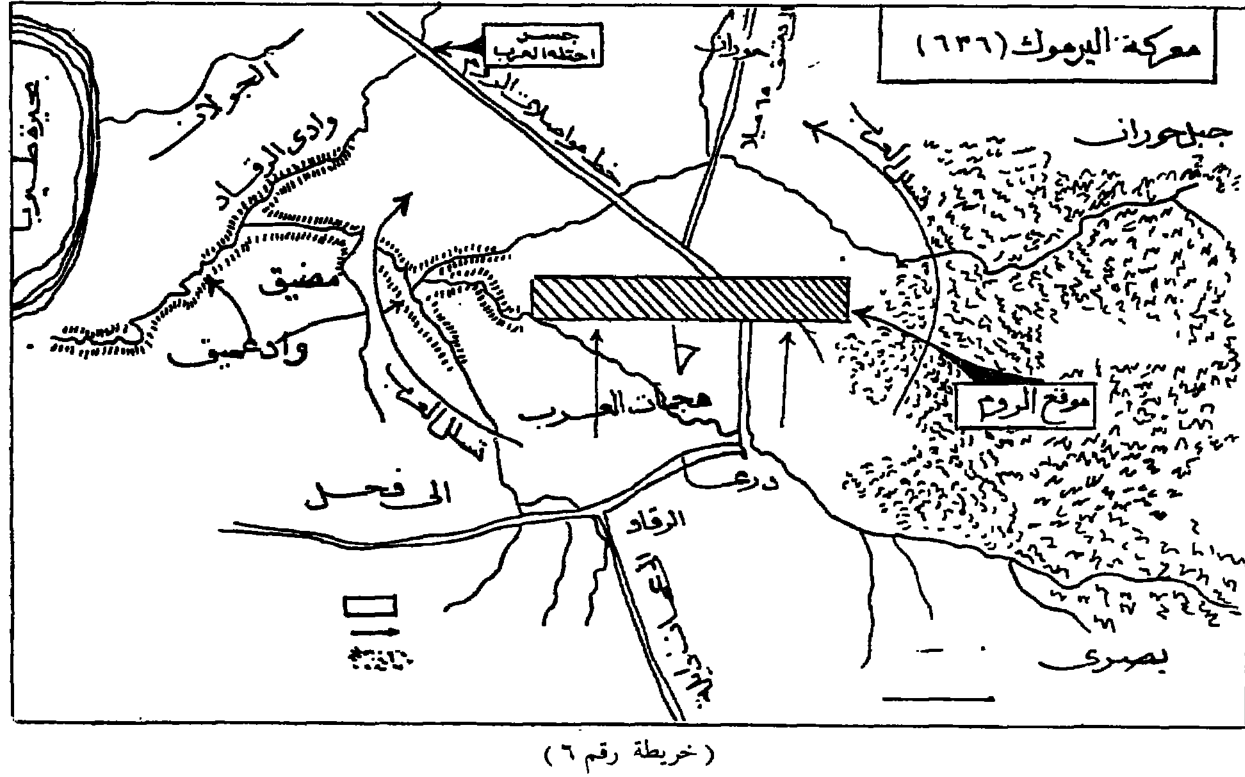
زحف أبو عبيدة ، ومعه بن الوليد ، إلى حمص ، فاستولى عليها صلحًا ، وقصد إلى بعلبك وحماة وشيزر ، فخرج إليه أهلها مصالحين ، ثم واصل زحفه إلى معرة النعمان ، وافتتحها صلحًا ، وعهد إلى عبادة ابن الصامت بفتح سواحل سوريا ففتحها عنوة ثم فتح أنطرطوس ، كما فتح « جبلة » عنوة . وسار أبوعبيدة وعلى مقدمته خالد إلى « قنسرين » ففتحها صلحًا وأسلم بعض أهلها . ورحل إلى حلب ففتحها صلحًا ، ومن هناك زحف إلى « أنطاكية » فصالحه أهلها على الجزية والجلاء . ومازال أبوعبيدة يفتتح المدن ويسقط القلاع حتى بلغ الفرات . ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة بن مسروق العبسى ، فكانت أول مرة تعبر فيها جيوش المسلمين هذا الدرب ، كما استولت قوات خالد بن الوليد على مرعش .

وفى نفس الوقت كان جيش عمرو بن العاص يفتح مدن فلسطين . فاستولى على نابلس واللد ، وعمواس ، وبيت جبرين ، ويافا ، ومرج عيون ، وعكا ، وعسقلان ، وغزة ، ورفح ، دون قتال : ثم زحف إلى بيت المقدس ، الذى كان يسمى « إيلياء » وحاصر المدينة زهاء أربعة أشهر ولكنه لم يتمكن من فتحها بسبب المقاومة الشديدة تحت قيادة بطريقها « صفرونيوس » ولكن أبا عبيدة بن الجراح جاء بعد أن أتم فتح قنسرين عام ١٦هـ . لمساعدته . فاشترط بطريق بيت المقدس لتسليم المدينة أن يتسلمها عمر بن الخطاب بنفسه ، ويوقع معاهدة صلح خوفًا من تعرض كنسيتهم الكبرى لأعمال التخريب . وقد قبل عمر بن الخطاب ، وجاء بنفسه فى سنة ١٦هـ ، وعقد عهد الصلح لأهل بيت المقدس .

أما عمرو بن العاص فقد توجه إلى قيسارية لفتحها وحاصرها ولكنها كانت تتلقى الإمدادات من البحر فعجز عن فتحها ، حتى افتتحها معاوية قسرًا فى شوال ١٩هـ .

وفى تلك الأثناء كان يزيد بن أبى سفيان يفتح مدن الساحل الشامى . فاستولى على صيدا ، وعرقا ، وجبيل ، وبيروت . وقد ساعده فى فتح هذه السواحل أخوه معاوية بن أبى سفيان . ولكن طرابلس استعصت على الفتح ؛ إذ كانت تتطلب حصارًا بريًا وبحريًا يطول أجله ، كما حدث فى قيسارية التى استغرق فتحها نحو سبع سنين (من ١٣ - ١٩هـ) . ولكن هذه الصعوبات سوف توجّه نظر المسلمين إلى الحصول على الخبرة البحرية اللازمة ، وهو ما سوف يتم فى المرحلة التالية .

وهكذا انتهت تلك المرحلة من المواجهة العربية الأوروبية . بسقوط الشام كله وانتزاعه من أيدى الدولة الرومانية الشرقية . ولكنه لم يكن فتحًا سهل المنال ، لأن حروب الشام كلّفت العرب


معركة اليرموك (٦٣٦)
جسر احتله العرب
بحيرة طبريا
الجولان
وادي الرقاد
مضيق
وادي عميق
تسلل العرب
هجمات العرب
موقع الروم
جبل حوران
إلى فحل
درعا
الرقاد
بصرى
(خريطة رقم ٦)

المسلمين نحو خمسة وعشرين ألف شهيد . وفقًا لتحقيقات المؤرخين ، وهو ثمن فادح بالمقارنة بعدد المسلمين فى ذلك الحين ، ولكنه ثمن يسير مقابل صبغ الشام كلها بالصبغة العربية الإسلامية ، بعد أن كانت ذات صبغة رومانية ، ومقابل نتيجة جاءت عرضًا ولكنها أثبتت خطورتها البالغة ، وهى وصول العرب إلى شاطئ البحر المتوسط .

٤ – من الصحراء إلى البحر

- فتح قيسارية وطرابلس على المتوسط .
- رفض عمر بن الخطاب فتح قبرص .
- تحصين معاوية لساحل الشام .
- فكرة فتح مصر بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب .
- فتح مصر ٦٤٠ م .
- فتح الإسكندرية ٦٤٢ م .

٤ – من الصحراء إلى البحر

يعتبر خروج العرب من الصحراء إلى البحر من أروع صفحات الاستجابة للتحدّى الذى فرضته أوروبا . فقد رأينا كيف تحدى العرب هزيمتهم فى مؤتة على يد البيزنطيين بغزوة تبوك فى عهد الرسول . ثم بحملة أسامة بن زيد التى أعدّها الرسول قبيل وفاته. ثم عبروا الهزيمة إلى النصر بفتوح الشام . وقد كان خروجهم من الصحراء إلى البحر ، ومن ركوب الدواب إلى ركوب السفن ، استجابة أخرى للتحدّى الذى واجهوه فى البحر أثناء فتوح الشام .

فلقد رأينا فيما سبق كيف عجز عمرو بن العاص عن فتح قيسارية ، نظرا لأنها كانت تتلقى الإمدادات من البحر ، وفى الوقت نفسه كان يزيد بن أبى سفيان يلقى المثل أمام طرابلس ، فقد استلزم فتحها حصاراً من البحر والبر فى آن واحد ، ولم يكن للعرب بعد خبرة بشئون الحصار البحرى ، وكانت طرابلس تتلقّى الإمدادات البيزنطية بانتظام عن طريق البحر . وهكذا ألقى عبء فتح هاتين المدينتين الساحليتين على عاتق معاوية بن أبى سفيان .

وقد لقى معاوية عناداً شديداً فى فتح هاتين المدينتين ، ولذا عمد إلى تشديد حلقة الحصار البرى عليهما ، وانتهاز الفرصة المواتية لاقتحام أسوارهما ، ولكنه استمر على حصاره لقيسارية سبع سنوات . ولم ينجح فى اقتحامها إلا بطريق الدهاء ، حيث استمال أحد اليهود بها يدعى يوسف ، الذى أرشده إلى طريق يمكن مهاجمة المدينة منه . وبذلك اقتحم المدينة ، وكان لسقوطها فى يد العرب فرحة كبرى .

أما طرابلس الشام ، فكانت أشد منعة من قيسارية . فقد كان البحر يحيط بها من ثلاث جهات بينما كان يحيط بسورها خندق عظيم ، وكانت هناك أربع جزر صغيرة فى مياه البحر القريبة منها تتلقى منها الإمدادات البيزنطية . وقد وجّه معاوية بن أبى سفيان إلى طرابلس سفيان بن مجيب الأزدى ، الذى لم يكتف بتضييق الحصار عليها ، بل بنى على مقربة منها حصناً لتضييق الخناق على أهلها ، حتى كتبوا إلى الإمبراطور البيزنطى يطلبون منه إرسال سفن لنقلهم ، ولم يتم فتحها إلا فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

على أن الدرس الذى خرج به معاوية بن أبى سفيان من فتح هذه المنطقة الساحلية ، هى

العمليات في سوريا
عام ٦٣٦

جبال طوروس
شمشاط
مرعش
الرها
أذنه
طرسوس
حلب
انطاكية
قبرص
حماة
حمص
تدمر
طرابلس
القريتين
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
صيدا
السادة
دمشق
صور
حوران الجابية
جبل حوران
صخور بركانية
قيسارية
درعا
بصرى
سهول البلقاء
عمان
غزة
البحر الميت
صحراء
رفح
بئر السبع
العريش
صحراء

(خريطة رقم ٧)

ضرورة بناء أسطول عربى ، وأن يصبح العرب قوّة بحرية فى البحر المتوسط . بل لقد رأى معاوية أنه لن يمكن الاحتفاظ بالشام إلا إذا أصبح العرب قوّةً بحرية .

وكانت تجربة الفرس مع الدولة البيزنطية شاهدًا على صحة هذا الرأى . فقد استطاع الفرس الاستيلاء على الشام ومصر سنة ٦١٤م ، أى قبل الفتح العربى لهذين البلدين بنحو عشرين عامًا تقريبا . وحققوا بذلك أعظم أمانيهم ، وهى الوصول بحدود الدولة الفارسية إلى البحر المتوسط . ولكنهم نسوا أن يؤسسوا قوة بحرية تستطيع مواجهة السيادة البيزنطية فى البحر المتوسط ، فظلت شواطئ الشام ومصر بدون حماية أسطول فارسى ، بل أهملوا تحصين هذه الشواطئ . ثم ظهر الإمبراطور هرقل على عرش الدولة البيزنطية ، وقرر استرداد الشام ومصر ، فأعد حملة بحرية أبحرت إلى شواطئ الشام الشمالية . واستطاع استعادة سلطان بلاده على هذه الأنحاء فى سهولة ويسر .

وعلى هذا النحو لم يكد معاوية بن أبى سفيان يخلف أخاه يزيد على دمشق والأردن فى عهد عمر بن الخطاب ، حتى نشط لتحقيق سياسته البحرية التى قامت على أساسين :

أولا : بناء أسطول قوىّ يستطيع مواجهة الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ،

ثانيا : الاستيلاء على جزر البحر المتوسط التى تهدد سواحل الشام .

وقد سعى لتحقيق هذين الهدفين بأسلوب يتفق مع دهاء معاوية . فقد كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص بقوله : « يا أمير المؤمنين ، إن الشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » ! . وطلب إليه الإذن بغزو تلك الجزيرة ! . وبطبيعة الحال فإن الإذن بغزو الجزيرة يعنى البدء بإنشاء أسطول ! .

وقد أدرك عمر بن الخطاب أن منح هذا الإذن معناه الانتقال إلى مرحلة جديدة هى مرحلة اقتحام البحر ، مع كل مايترتب على ذلك من المخاطر . ويقول المؤرخون إنه طلب من عمرو بن العاص إبداء رأيه فى الموضوع ، وأن يصف له البحر وراكبه ؛ وكان عمرو بن العاص يرى تجنب المخاطرات البحرية ، ولذلك كتب إلى الخليفة على نحو يثير الاعتراض ، قائلا :

« إنى رأيت البحر خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير . والماء إن ركد حزن القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلّةً ، والشك كثرةً . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » !

وقد لقى هذا الرد ، الذى ينفر من ركوب البحر ، هوى فى نفس عمر بن الخطاب . ففى ذلك

الحين كان عمر يرى أنّ العرب – بعد – حديثو عهد بالحروب البحرية ، وهم يواجهون خصمًا متمرسًا بشئون البحر ومتدربًا على خوض مياهه ، وكان يدرك أن العرب فى هذا الوقت المبكر لا يمكنهم مواجهة الروم فى البحر لقلة خبراتهم البحرية . وأنه ينبغى عدم الانسياق وراء حماس القواد حتى لا تضيع الانتصارات التى بذل فيها العرب الدماء . وكان هؤلاء القادة قد أخذوا بالفعل يركبون البحر بدون أمر الخليفة ، الأمر الذى اضطره إلى معاقبتهم .

فقد كان أوّل من ركب البحر أبو العلاء الحضرمى ، والى البحرين فى عهد عمر فقد توجّه لغزو بلاد فارس فى سنة ١٧ فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين ، من غير إذن الخليفة . وقد عاد هؤلاء إلى البصرة محملين بالغنائم ، ولكن بعد أن فقدوا سفنهم التى عبروا بها إلى فارس !.. وقد غضب عمر بن الخطاب لما اعتبره تغريرًا بالمسلمين من جانب أبى العلاء الحضرمى ، وتعريضهم للهلاك ، وأدّب أبا العلاء بعزله . كذلك لام عمر بن الخطاب عرفجة بن هرثمة الأزدى ، سيد بجيلة ، عندما أرسله لغزو عمان ، فبلغه غزوه فى البحر !

لهذا السبب رفض عمر بن الخطاب إجابة معاوية بن سفيان إلى ماطلب من غزو قبرص ، وكتب إليه يقول : « تالله لمسلم أحبّ إلىّ ممّا حوت الروم » !

وقد علّل ابن خلدون سبب امتناع العرب فى أوّل عهدهم عن ركوب البحر فقال :

« والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أوّل الأمر مهرةً فى ثقافته وركوبه . والروم والإفرنجة ، لممارستهم أحواله ، ومرباهم فى التقلب على أعواده – مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية ، وتكررت ممارستهم البحرية – تاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه ، فأنشئوا السفن فيه ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأعطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس » !

على كل حال ، فنظرًا لأن معاوية كان يدرك بحكم موقعه فى الشام الخطر عليه من حملة بحرية بيزنطية كتلك التى اقتلعت الفرس منه من قبل ، فقد كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه أن يطلق يده فى إصلاح حال السواحل ، ويصف ماهى عليه من سوء حال وخراب ! وقد رد

عليه عمر بن الخطاب بأن يتخذ مايراه « من مرمّة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها » .

وعلى هذا النحو أخذ معاوية فى ترميم السواحل وتحصينها وإقامة « الأربطة » – أى المعسكرات – التى يتجمع فيها المقاتلة ، وإقامة المراقبة على النواحى التى يقبل منهاالبيزنطيون فى البحر ، والإنذار باقتراب العدو ليلاً عن طريق إيقاد النيران فى مواقيد خاصة ، للتنبيه بالخطر. وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام تتجاور فيها القلاع والأبراج ، حتى بدت كسور يمتد بحذاء الساحل للدفاع عن البلاد من جهة البحر. وقد شجع عثمان بن عفان العرب على المرابطة على الساحل عن طريق منحهم إقطاعات من الأرض للاستغلال والتمتع بالخيرات ، مما أدّى إلى إقبال الناس على السواحل دون خوف من اعتداءات البيزنطيين .

على أنه فى تلك الأثناء كان توسّع العرب غرباً على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، يفرض عليهم شيئا فشيئاً فكرة إنشاء الأسطول البحرى العربى ، والانتقال من خطة الدفاع عن السواحل براًّ إلى حمايتها بحرًا . ولكن هذه قصة فريدة فى لقاء العرب بالبيزنطيين .

فلقد رأينا كيف فتح عمرو بن العاص فلسطين وأنهى الحكم البيزنطى فيها . وبات بذلك مرابطًا على حدود مصر . ولما لم تكن هناك حدود طبيعية تفصل بين فلسطين ومصر ، وكان للبيزنطيين بمصر جيش كبير . فقد شعر عمرو بن العاص بأنه لن يتسنى له تأمين الانتصارات العربية فى فلسطين وسوريا إلاّ إذا فتح مصر . واستخلصها بدورها من يد البيزنطيين ، وقضى على هذا الخطر المحتمل .

لذلك يجمع معظم المؤرخين . على أن عمرو بن العاص هو الذى طلب من الخليفة عمر بن الخطاب الإذن له بفتح مصر . فقد انتهز فرصة حضور عمر إلى الشام فى سنة ١٧ هـ للمرة الثالثة وخلا به ، واستأذنه فى السيرلمصر لفتحها . وكان عمرو بن العاص قد زارها زمن الجاهلية للتجارة ودرس أحوالها تحت السيادة البيزنطية ، وأدرك مايعانيه المصريون من مظالم اقتصادية ودينية ، وأنهم لن يساندوا البيزنطيين فى حالة هجوم العرب عليهم ، كما فعل نصارى الشام مع العرب فى أثناء فتوح الشام .

على أن عمر بن الخطاب اتخذ موقفًا حذرًا ، فقد خشى من الدخول فى مغامرة جديدة قد لاتحمد عقباها . ولكن عمرو بن العاص أخذ يهون عليه الفتح ويشجعه عليه بقوله : « إنك إن فتحتها كانت قوةً للمسلمين وعونًا لهم . وهى أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزها عن القتال

والحرب . وذكر له أن وجود مصر فى يد البيزنطيين يعرض سيادة العرب على الشام للخطر ، أما فتحها فيؤمن هذه البلاد من ناحية الجنوب .

ونلاحظ هنا أن عمر بن الخطاب قد وقف من عمرو بن العاص نفس الموقف الذى وقفه من معاوية بن أبى سفيان وهو يعرض فتح قبرص ! . مما ينبه إلى حقيقة جديدة فى هذا الصدد ، هى أن روح المخاطرة والجرأة فى القادة العسكريين العرب ، هى التى أخذت تحمل الفتوحات العربية غربًا وشرقًا ، إلى أبعد مما كان قائمًا فى ذهن الخلفاء الراشدين ، ووسعت من رقعة الإمبراطورية الإسلامية ، التى لم تكن هدفًا من أهداف هؤلاء الخلفاء فى بادئ الأمر ! حتى إذا ما انتهى عصر الخلفاء الراشدين ، كان الإسلام قد تحول إلى دولة ، كما هو الحال بالنسبة لكل ثورة عالمية ، وجاء هذا التحول على يد معاوية بن أبى سفيان ، أى على يد أحد هؤلاء القادة العسكريين الذين ذكرناهم ! ولهذا السبب لاغرابة أن تحول العرب إلى قوة بحرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان بالذات وخلفائه !

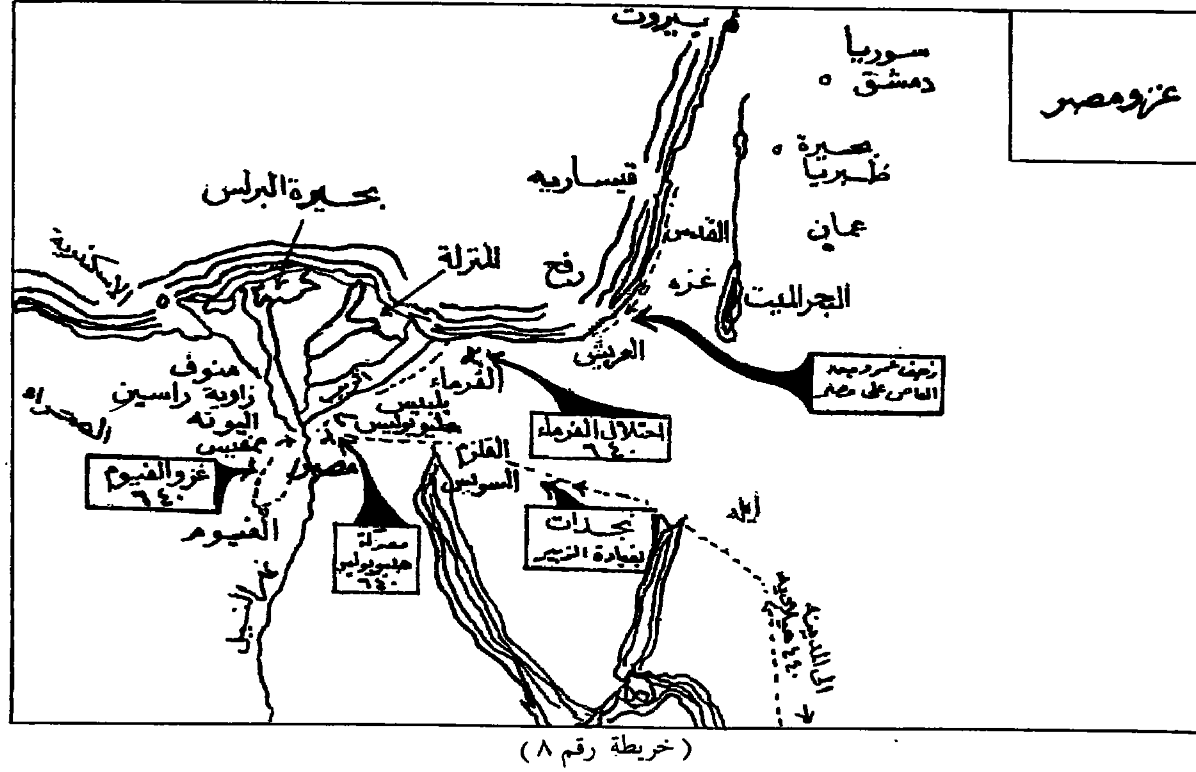
ولم يكن عمر بن الخطاب وحده فى هذا الموقف الحذر والمتردد من استمرار الفتوح العسكرية بعد فتح الشام ، أو الضرب المتواصل على أيدى البيزنطيين . بل كان كبار الصحابة أيضا ! فقد استطاع عمرو بن العاص إقناع عمر بن الخطاب بفتح مصر ، والحصول على أمره بندب الناس معه إلى المسير إلى مصر ، فكوّن عمرو جيشًا من نحو أربعة آلاف مقاتل . ولكن عثمان بن عفان عندما علم بذلك أفصح عن مخاوفه للخليفة قائلا ! « يا أمير المؤمنين ، إن عمرو بن العاص لجرأ ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، وأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولاجماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لايدرى تكون أم لا ! » . وقد نجح عثمان بن عفان فى إعادة الخليفة عمر إلى حذره السابق ، فسارع بالكتابة إلى عمرو بن العاص يقول : « إن أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك . وإن كنت دخلت فامض لوجهك » ويقول المؤرخون إن كتاب عمر بن الخطاب وصل إلى عمرو بن العاص وهو برفح ، فخشى إن هو تسلمه من الرسول وفتحه وجد فيه مايدعوه إلى العودة ، فلم يأخذه ، وواصل سيره حتى أصبح قرب العريش ، فأخذ الكتاب وقرأه على أصحابه ، ثم أمر الجيش بالمضى فى طريقه على بركة الله .

وقد استطاع عمرو بن العاص فتح العريش بدون مقاومة ، واخترق الطريق الذى كان يسلكه المهاجرون والفاتحون والتجار والحجاج والزائرون منذ أقدم العصور ، وهاجم « الفرما » على ساحل البحر المتوسط وحاصرها شهرًا وكان بها حامية بيزنطية ، فألحق بها الهزيمة ، وفتح المدينة فى أول

محرم سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) . ثم انطلق إلى بلبيس ، فقاتل البيزنطيين فيها نحو شهر آخر حتى فتحها ، ثم أتى « أم دنين » وهى قرية فى شمال حصن بابليون ، فاشتبك مع البيزنطيين فى قتال عنيف ، وألحق بهم الهزيمة ، وتقدم إلى حصن بابليون الذى كان يقف بازاء جزيرة الروضة فى النيل كأنه سدٌّ فى وجه الغزاة . فرابط فى عين شمس يتربّص الفرصة ويترقب الإمدادات . وقد بعث إليه عمر بن الخطاب نجدة بقيادة الزبير بن العوام ، فأصبح مجموع الجيش العربى نحو عشرة آلاف مقاتل فى مواجهة عشرين ألفًا من الجنود البيزنطيين ، عدا حامية الحصن التى كانت تبلغ خمسة آلاف ، ولكن فى القتال الذى دار بين الجيش فى يوليو ٦٤٠ تمزق الجيش البيزنطى ، وفرّ تيودور إلى الإسكندرية ، واحتمى المقوقس فى بابليون ، وفرض عمرو بن العاص الحصار على الحصن ، وأخذ يضيق عليه الخناق ومن فيه .

على أن عنصرًا آخر من عناصر النصر للعرب دخل المعركة فى ذلك الحين ، وهو تأثر الجيش البيزنطى بنظام الجيش العربى الذى يقوم على الديمقراطية الكاملة ، وإعجابه بالمبادئ التى تقوم عليها علاقاته الاجتماعية ! فيذكر المؤرخ ابن عبدالحكم هذه القصة الفريدة ، وهى أنه لمّا اشتدّ الحصار العربى على حصن بابليون أرسل المقوقس رسله إلى الجيش العربى لمفاوضة عمرو فى صرفه وجنوده بالمال ! ، ولكن عمرو بن العاص ردّ بأنه ليس بينه وبين الروم سوى ثلاث : إما الدخول فى الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، « حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » . وقد عاد الوفد إلى المقوقس متأثرًا بما شاهده فى الجيش العربى قائلاً : « رأينا قومًا الموت أحبّ إليهم من الحياة ، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد » .

وعندئذ طلب المقوقس إلى العرب إرسال وفد منهم للتفاوض . فبعث عمرو عشرةً من الجنود بقيادة عبادة بن الصامت ، وهو أسود . فلما دخلوا على المقوقس ، وأراد عبادة الكلام ، نحاه المقوقس بسبب لونه ، وطلب أحدًا آخر للتحدث معه قائلاً : نحّوا عنى هذا الأسود ، وقدّموا غيره يكلمنى » . فردوا عليه قائلين : « هذا الأسود هو سيدنا وخيرنا والمقدّم علينا » : وعندئذ أعاد عبادة بن الصامت على مسامع المقوقس شروط عمرو وهى : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال . فقبل المقوقس أداء الجزية ، ورجع إلى الاسكندرية ليرفع الاتفاق إلى الإمبراطور هرقل . ولكن هرقل غضب لتلك الشروط ، واتهم المقوقس بالخيانة .


غزو مصر
سوريا
دمشق
طبرية
عمان
الجرالميت
الفلس
غزه
رفح
قيساريه
بيروت
بحيرة البرلس
المنزلة
الإسكندرية
العريش
الفرماء
احتلال الفرماء ٦٤٠
زحف عمرو بن العاص على مصر
بلبيس
هليوبوليس
القلزم
السويس
نجدات بقيادة الزبير
أيلة
معركة هليوبوليس ٦٤٠
منوف
زاوية راسين
البويه
عمقبيس
غزو الفيوم ٦٤٠
الفيوم
مصر
نهر النيل
الصحراء

(خريطة رقم ٨)

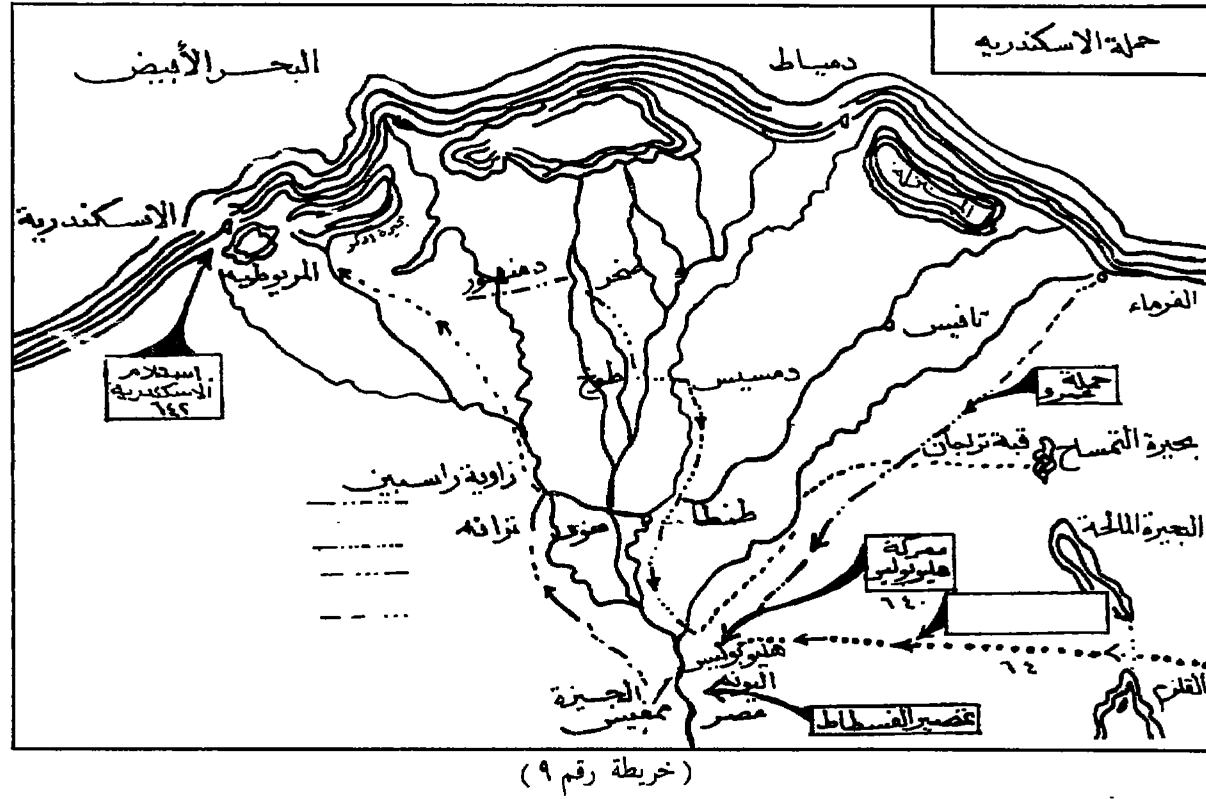
وقد استمر حصار العرب بعد ذلك لحصن بابليون سبعة أشهر ، تمكّن الزبير بن العوام فى نهايتها من ردم بعض الخندق ، ثم وضع سلّماً على جانب الحصن ، وصعد مع بعض المقاتلين بعد أن اتفق مع جيشه على أن يكبروا معه إذا سمعوا تكبيره . وقد ظن البيزنطيون بعد سماع التكبير على هذا النحو أن الجيش العربى اقتحم الحصن ، ففرّ الحراس والمدافعون ، ونزل الزبير وأصحابه ففتحوا باب الحصن ، وألحقوا هزيمة كبيرة بالبيزنطيين ، وسقط الحصن فى النهاية ، وعقد العرب معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى ، لم تعترف بها بيزنطة .

ولم يلبث عمرو بن العاص أن انطلق زاحفا ، فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين وأخميم وقرى الصعيد وتنيس ودمياط ودميرة وغيرها . ثم عبر نهر النيل بجيشه متوجها إلى الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الحين . وكانت أجمل مدن الأرض واقواها بعد القسطنطينية . حتى ليذكر بعض المؤرخين المحدثين أنه لاشك أن دهشة العرب القادمين من الجزيرة الصحراوية لرؤيتهم أسوارها المنيعة وصروحها العالية ومسلاتها الشاهقة ، ومنارتها الشامخة ، لم تكن تقل عن دهشة المهاجر القادم حاليا إلى نيويورك ، عندما تقع عيناه على جسورها ومافيها من ناطحات السحاب !

وقد كان فى الإسكندرية حامية يبلغ عددها خمسين ألف مقاتل ، ويحميها الأسطول البيزنطى القوى من البحر وقاعدته فى مينائها . بينما كان العرب أقلّ عدداً وعتاداً ، وليس لهم أسطول ولا آلات حصار ، أو خط قصير للإمداد السريع ! .

ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن عمرو بن العاص حاصر الاسكندرية أربعة عشر شهراً ، منها خمسة فى عهد هرقل ، وتسعة بعد وفاته فى عهد ابنه قسطنطين الثالث . وقد تسببت طول مدة الحصار فى غضب الخليفة عمر بن الخطاب الذى كتب إلى عمرو بن العاص كتاباً شديداً يعنفه فيه لتقاعسه عن الفتح . فقد خشى أن تكون الروح المعنوية للمسلمين قد ضعفت بسبب وجودهم فى هذه البلاد وإنهم استكانوا إلى الحياة فيها ، وقد عبّر ذلك بقوله « ما أبطئوا بفتحها إلاّ لما أحدثوا » ! .

وقد تغيّر موقف الجنود بعد خطاب عمر بن الخطاب الذى قرأه عمرو بن العاص عليهم . فقاموا بحملة قوية تحت قيادة عبادة بن الصامت ، تمكنوا فيها من التسلّل إلى داخل الأسوار ، وأعملوا القتل فى الجنود البيزنطيين ، فهربوا إلى سفنهم بالبحر ، وأسر منهم عدد كبير ، وبذلك تمّ هذا الفتح عنوةً . ولكن عمرو بن العاص جعل أهلها ذمّة كمن فتحت بلادهم صلحًا ،



حملة الاسكندريه
البحر الأبيض
دمياط
الاسكندرية
المريوطيه
دمنهور
دمسيس
تافيس
الفرماء
إستلام الاسكندرية ٦٤٢
حملة عمرو
بحيرة التمساح
قبة تربان
زاوية راسبين
طنطا
ترانه
البحيرة المالحة
معركة هليوبوليس ٦٤٠
هليوبوليس
البونة
٦٤
القلزم
الجيزة
منف
مصر
حصار الفسطاط

(خريطة رقم ٩)

ليستجلب محبة الأهلين . وأجرى الصلح سنة ٢١هـ ، وبمقتضاه تمّ جلاء البيزنطيين عن المدينة فى أول سبتمبر سنة ٦٤٢ م . ولم يجرؤ الأمبراطور قسطنطين ، الذى كانت تحيط به المنازعات الداخلية ، على الاعتراض ، فأقرّ المعاهدة . وبذلك انتقلت مقاطعة من أفضل مقاطعات الإمبراطورية البيزنطية إلى يد العرب .

ومع ذلك فقد يكون من الأمور المثيرة فى هذا الصدد ، أن نذكر هنا البساطة التى استقبل بها الخليفة عمر بن الخطاب خبر سقوط الإسكندرية وتحقيق هذا الانتصار العظيم ! فيقول بن عبد الحكم : « عندما جاء رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يبشّره بهذا الفتح » قال : ياجارية ! هل من طعام ؟ . فأتت بخبز وزيت ، فقال له : كل ! ثم قال : هل من تمر ؟ . فأتت الجارية بتمر فى طبق . وخرج عمر إلى المسجد ، فقال للمؤذن : أذن فى الناس الصلاة الجامعة . فاجتمع الناس ، ثم صلّى ، ودخل منزله ، واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ، ثم جلس » ! !

وفيما يبدو أن عمر بن الخطاب كان يضع انتصار العرب على البيزنطيين فى الإسكندرية فى موضعه الصحيح ، وهو أنه مجرد بداية أو نقطة انطلاق فى الطريق الطويل إلى فتح المغرب ، ثم الأندلس فيما بعد ثم جنوب أوروبا ، وهو ماحدث بالفعل !

٥ - ظهور أول أسطول عربى فى التاريخ

- فتح برقة وطرابلس .
- رفض عمر بن الخطاب فتح ولاية أفريقية (تونس) .
- حملة عبد الله بن أبى سرح على ولاية أفريقية .
- معاوية وفكرة انشاء أسطول بحرى عربى .
- العرب والقتال فى البحر .
- التعاون البحرى بين الشام ومصر .
- النظام الدفاعى البيزنطى فى البحر المتوسط .
- عثمان يأذن لمعاوية بفتح قبرص .

٥ – ظهور أول أسطول عربى فى التاريخ

أوضحنا كيف أن روح المخاطرة والمغامرة فى القادة العسكريين العرب هى التى انتقلت بالفتوح العربية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، ومن مرحلة الوقاية من الخطر إلى مرحلة التوسع والانطلاق ، وذلك على غير رغبة الخلفاء . الذين كانوا يخشون من أن يؤدى اتساع نطاق الميادين العسكرية وتوزع الجيوش العربية ، إلى إلحاق الخطر بالمسلمين وبالدعوة الإسلامية ، وكان أهم القادة العسكريين العرب الذين كانوا يضغطون باستمرار على الخليفة عمر بن الخطاب للسماح لهم بمواصلة مطاردة البيزنطيين والتوسّع فى إمبراطوريتهم هما : معاوية بن أبى سفيان ، الذى كان يطالب بالتوسع فى البحر المتوسط ، وعمرو بن العاص ، الذى كان يضغط للتوسع فى شمال أفريقيا ، وسنرى أن اجتماع الشام ومصر فى قبضة العرب سيكون له أعظم الأثر فى تكوين القوة البحرية العربية لأول مرة فى التاريخ .

وبالنسبة لعمرو بن العاص ، فلم يكد يفتح الإسكندرية ، وحتى من قبل أن ينتهى تمامًا من فتح مصر ويتفرغ لفتح برقة – حتى بادر إلى إرسال عقبة بن نافع الفهرى على رأس حملة استطلاعية إلى برقة . وعندما اطمأن إلى تقرير عقبة عن هذه البلاد سار بنفسه على رأس جيش من فرسانه لفتحها ، وكانت فى ذلك الحين أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية ، ففتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم انطلق إلى طرابلس ، بعد أن كوّن جيشين لهذا الغرض ، أحدهما سار بحذاء الساحل وكان هو على رأسه ، والآخر اتجه نحو الداخل للاستيلاء على الواحات حتى لا تقطع الطريق على العرب فى العودة ، وجعل على رأسه عقبة بن نافع .

وقد استطاع عقبة بن نافع أن يفتح فزان ، وبلغ زويلة ، وحصل على طاعة أهل البلاد الواقعة بين برقة وزويلة فأصبحت هذه المنطقة مأمونة الجانب للمسلمين . وأما عمرو بن العاص فنجح فى فتح إقليم طرابلس ، وقد بدأ بمدينة سرت ، ثم زحف على لبدة ، ثم إلى طرابلس ، وكانت مدينة حصينة مسوّرةً من سائر الجهات ماعدا الجهة الشمالية المطلة على البحر ، فامتنعت عليه ، ولكن جماعة من جيشه فاجأت البيزنطيين من جهة الساحل عندما انحسرت عنه مياه البحر بسبب الجزر ، فمهّدت السبيل أمام عمرو بن العاص لدخول المدينة . ولم يلبث عمرو أن سير فرقةً

من الفرسان إلى سبرت . قامت بفتحها ، ثم أرسل قائده بسر بن أرطأةإلى واحة ودان ، ففتحها سنة ٢٣هـ . وبذلك تم لعمرو بن العاص فتح برقة والقسم الشرقى من ولاية طرابلس .

ويتفق جميع المؤرخين العرب ، ومؤرخو الدولة البيزنطية ، والأقباط – على أن عمرو بن العاص لم يستأذن عمر بن الخطاب فى غزو برقة ! ، مع أنها كانت قطرًا منفصلاً عن مصر فى إدارتها الداخلية والعسكرية ، ومع أنها تبعد مئات الكيلومترات عنها . فقد خشى فيما يبدو معارضته فى الفتح ، وأراد وضعه أمام الأمر الواقع ! .. وهذا يؤيد ماذهبنا إليه من دور القادة العسكريين العرب فى مطاردة البيزنطيين ، وتخوف الخلفاء من هذا التوسع .

ولذلك حين كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بعد فتح طرابلس وبرقة ، يستأذنه فى فتح ولاية أفريقية – وهى المنطقة التى كانت حدودها تنتهى عند حدود طرابلس الغربية وابتداء حدود تونس – رفض عمر بن الخطاب منحه هذا الإذن ، وأمره بالرجوع ! . وقد جرى الخطابان المتبادلان بين عمرو بن العاص والخليفة على النحو الآتى : « من عمرو بن العاص إلى عبدالله أمير المؤمنين : إن الله قد فتح علينا طرابلس ، وليس بينها وبين أفريقية إلاّ تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه ، فعل » . وقد رد عمر بن الخطاب قائلا : « من عبدالله أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : لا ، إنها ليست أفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها لايغزوها أحد مابقيت » !

على أن عمر بن الخطاب لم يلبث أن توفّى مقتولا على يد أحد الموالى الفرس فى عام ٢٣ للهجرة ، وأتى بعده الخليفة عثمان بن عفان ، الذى عيّن عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، أخاه فى الرضاعة واليًا على مصر بدلاً من عمرو بن العاص . وكان عبدالله أحد قادة جيش عمرو بن العاص الذى اشترك معه فى جميع المعارك ، وممن يحملون أيضا فكرة مطاردة البيزنطيين والاستمرار فى الفتح . فكتب إلى عثمان بن عفان يستأذنه فى فتح ولاية أفريقية ويطلب إليه مددًا لهذا الغرض .

ونظرًا لخطورة الطلب ، فقد جمع عثمان بن عفان وجوه الصحابة وذوى الرأى فى سنة ٢٧هـ (٦٤٧م) لاستشارتهم فيما عرضه ابن أبى سرح . ولكن الأعور بن سعيد اعترض على الطلب متمسكًا برأى عمر بن الخطاب فى ألاّ يغزو أفريقية أحد من المسلمين ، على أن الباقين وافقوا على طلب عبدالله بن سعد ، وكان الخليفة يميل إلى إجابة هذا الطلب ، بعد أن ثبتت قدرة الجيوش العربية على مواجهة البيزنطيين ودحرهم . وكوّن جيشًا لفتح أفريقية تحت قيادة الحارث بن الحكم

سار إلى مصر حيث انضم إلى جيش مصر تحت لواء عبد الله بن أبى سرح . وانطلق إلى برقة حيث كان عقبة بن نافع ومن معه من قوات ، ويذكر المؤرخون أن هذا الجيش بلغ عشرين ألفا .

على أن المهمة فى هذه المرة لم تكن سهلة ، ففى تلك الأثناء كان البطريق جريجوريوس حاكم أفريقية ، قد ثار على الدولة البيزنطية فى سنة ٦٤٦ ، واستقل بولايته فى تونس ومابعدها غربًا إلى طنجة . وكانت عاصمته قرطاجنة ، وتقع قرب مدينة تونس الحالية ، وقد استشعر الخطر على ولايته من الناحية الشرقية بعد احتلال العرب للقسم الشرقى من ولاية طرابلس فبادر بتحصين بلاده وإقامة الحاميات ، ونقل عاصمته من الساحل إلى مدينة سبيطلة وحصّن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصه ، لتكون خطًّا دفاعيًّا أماميًّا .

وعلى ذلك ، فعندما بدأ عبد الله بن أبى سرح حملته العسكرية على « أفريقية » – أى تونس . كانت قد أصبحت أكثر مناعة مما كانت عندما أراد عمرو بن العاص فتحها فى عهد عمر ابن الخطاب ، وتبين للقادة العسكريين صعوبة اقتحام الحصون عندما حاولوا اقتحام طرابلس (التى كانت فى تلك الأثناء قد خرجت عن طاعة العرب) . وكذلك عندما حاولوا اقتحام قابس ؛ لذلك اتفقوا على تغيير خطتهم العسكرية الأولى القائمة على فتح الحصون ، واتباع خطة أخرى تقوم على إجبار الجيش البيزنطى على الخروج من حصونه لملاقاة العرب فى معركة مكشوفة . فأرسل عبد الله بن سعد السرايا إلى أنحاء البلاد طلبًا للغنائم ، ولما كان ترك العرب يغنمون من كل وجه فى حين أن الجيش البيزنطى داخل الحصون يؤدّى إلى خراب البلاد – فقد اضطر البطريق جريجوريوس إلى الخروج من سبيطلة لملاقاة العرب ، وكان جيشه يقترب من مائة ألف أو يزيد بعد أن انضم إليه الروم والبربر فى العاصمة والحصون القريبة من سبيطلة .

وتقول المصادر التاريخية إن تضخم جيش البيزنطيين دعا عبد الله بن أبى سرح إلى التردد فى الاشتباك معه فى معركة فاصلة ، خوفا من أن يلقى العرب ، وهم قلة ، هزيمة قد تقضى عليهم وعلى وجودهم فى الساحل الشمالى الأفريقى ، وفى الوقت نفسه كان البطريق جريجوريوس يخشى بدوره الدخول فى هذا الاشتباك الفاصل ! ، نظرًا لما سبقت الجيش العربى من سمعة مدوية وانتصارات فى الشام ومصر والعراق وفارس وبرقة على جيوش أكثر منه عددًا . لذلك اقتصر الأمر فى البداية على اشتباكات فاترة من كلا الجانبين استغرقت أيامًا .

وقد تدخل عبد الله بن الزبير فى ذلك الوقت لتغيير خطة القتال التى كان يتبعها عبد الله بن أبى سرح ، والتى كانت تقوم على الاشتباك مع الروم كل يوم إلى وقت الظهيرة ثم يعود الجيشان إلى

معسكريهما إلى اليوم التالى– فقد رأى أن هذه الخطة تتيح الفرصة للعدو للاستعداد ، ونصح بتقسيم الجيش العربى إلى قسمين ، أحدهما يقاتل صباحا ، حتى إذا انفض الاشتباك مع العدو وعاد الجيشان إلى معسكريهما ، سارع القسم المستريح من الجيش العربى إلى الانقاض على العدو من حيث لايتوقع . وقد ترك ابن سعد لعبدالله بن الزبير تنفيذ هذه الخطة بمجموعة مختارة من الرجال ، فاخترق وأصحابه معسكر البيزنطيين وهم متعبون لايتوقعون القتال ، ووصل إلى معسكر جريجوريوس وتمكن من قتله . وألحق بالروم هزيمة ساحقة .

وقد زحف عبدالله بن أبى سرح بعد ذلك على سبيطلة العاصمة ، وحاصرها ، واستولى عليها واتخذها قاعدة لجيشه ، وأخذ يبث السرايا فى البلاد فبلغت خيوله قفصه ، كما فتح عبدالله بن الزبير سوسة ، وطلب رؤساء المدن الصلح على أساس دفع غرامة حربية قدرها ثلاثمائة قنطار من الذهب فى مقابل الانسحاب ، وقد قبل عبدالله بن أبى سرح ذلك لأسباب تتصل بكثرة مافقد جيش العرب من دماء أثناء المعارك ، وغيابه عن مصر ، مقرّ ولايته ، نحو خمسة عشر شهرًا ، وماكان قد أخذ يصل إليه من أخبار الاضطراب الناشئ عن السخط على سياسة عثمان ، فضلاً عن أن الروم فى الحصون الشمالية أخذوا يتجمعون لقصده ، وبذلك دخلت غزوة عبدالله بن سعد التاريخ كتجربة مفيدة للعرب . أوقفتهم على حالة هذه البلاد ، وظروفها السياسية والاجتماعية ، تمهيدا للجولة التالية التى وقعت فى عهد الدولة الأموية .

على كلّ حال ، فبتواجد العرب على كل من الساحلين الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط ، وتوحّد الشام ومصر فى قبضتهم ، تهيأت الظروف لتنفيذ مشروع معاوية بن أبى سفيان فى بناء اسطول بحرى ، وتحوّل العرب إلى قوّة بحرية كبرى .

بل يمكن القول أيضًا أن انتهاء ولاية عمرو بن العاص من مصر ، ومجىء عبد الله بن أبى سرح ، كان من أهم الأسباب التى يسرت تحقيق هذا الحلم ! ذلك أن عمرو بن العاص ، كما ذكرنا ، كان من المعادين لفكرة تكوين القوة البحرية وركوب البحر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولكن عبدالله بن أبى سرح كان على العكس منه تماما .

ولقد كان قيام والٍ عربى فى مصر متعاطف مع فكرة إنشاء أسطول عربى ، ضروريًّا فى الحقيقة لتكوين هذا الأسطول ؛ ذلك أن مصر كانت فى عهد البيزنطيين مشهورة بصناع السفن المهرة فيها ، وكثرة دور الصناعة التى بنيت فيها كثير من السفن الحربية – وبمعنى آخر توفّر اليد العاملة فيها

لصناعة السفن . بينما كان الشام تكثر به الأشجار الجيدة التى تصنع منها السفن . لذلك كان معاوية بن أبى سفيان يرسل الأشجار إلى مصر. فتردها سفنًا للقتال !

وربما كان هذا أحد الأسباب التى دفعت الروم قبل ظهور الإسلام إلى جعل التقسيم الإدارى للدولة بحيث يجمع بين مصر والشام فى العلميات الحربية ، وتعبئة أساطيلها معًا ، وقد كان هذا التقسيم الإدارى هو أساس التعاون البحرى بين الشام ومصر بعد الإسلام فى القتال ضدّ البيزنطيين ، فقد اختصت مصر ببناء السفن ، حيث كانت دور الصناعة فيها آمنة وبعيدة عن غارات الروم ، بينما كانت الشام تستقبل السفن المصنوعة فى مصر ، فتشحنها بالعتاد والمقاتلة ، لأن قواعد الشام كانت أقرب من اراضى الروم وجزرهم بالبحر المتوسط من مصر. وكان يسهل مهاجمة الروم منها .

وهذا ماجعل بعض المؤرخين يرى أن أساطيل العرب الأولى لم تكن عربية إلاّ من حيث المقاتلين ، وأنهم استعملوا أسطول أهل البلاد التى فتحوها أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا لأهل السواحل ببناء السفن لهم . وكلمة أسطول نفسها يونانية **Stolos** .

وواضح أن العرب لم تكن لهم خبرة ببناء السفن ، على الرغم من ظروف بلادهم البحرية التى كانت تطل على البحر الأحمر والخليج الفارسى ، لأن شبه جزيرة العرب لم تكن تنتج الخشب الصالح للسفن القوية وتفتقر إلى الحديد لصنع المسامير . ولكن دخول الشعوب الساحلية الأخرى التى تملك إمكانيات بناء السفن المادية والبشرية فى إطار الإمبراطورية العربية . ثم تكلمها باللغة العربية واعتناقها الإسلام ، أضاف إلى عنصر القوة العربية ، وعرّب هذه الشعوب حتى أصبحت الآن تكوّن مجموع الأمة العربية !

ومن الثابت أن كثيرًا من البحارة والمقاتلة فى الحملات البحرية العربية الأولى كانوا من أهل مصر والشام ، وهم ممن مهروا فى ركوب البحار وتدربوا على القتال فيه . وقد لعب اليمنيون الذين استقرت قبائلهم فى الشام قبل الفتح العربى دورًا هاما فى الحملات البحرية الأولى ، إذ كان لعرب الجنوب ماضٍ بحرى مجيد ، وخبرة بركوب البحار . وتكشف لنا النصوص التاريخية حجم اشتراك القبط فى الحملات البحرية الأولى ، فقد كانت بعض السفن مكونة من أقباط فقط !

على أننا لانجد دليلاً على مايذكره البعض من أنه لم يشترك من العرب فى الحملات البحرية الأولى سوى اليمنيين ! .. فقد كان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب حربهم فى البر ، أى بالسهام والحراب ، فإذا اقتربوا من سفن العدو، ألقوا الخطاطيف عليها واجتذبوها حتى تلاصق

سفنهم ، فتتحول المعركة البحرية إلى معركة برية ! . وفى الوقت نفسه فإن معظم استخدام الأسطول العربى فى الحملات الأولى كان لنقل الجنود ، وليس للاشتباك فى البحر . وكانت خطة العرب للسيطرة على البحر المتوسط فى مستهل عهدهم تقوم على الاستيلاء على الشواطئ والموانئ .

ويتفق كثير من المؤرخين على أن العرب مدينون للبيزنطيين فى تعلّم الفنون الحربية البحرية . ولكنهم وإن تتلمذوا على البيزنطيين ، إلاّ انهم بفضل شجاعتهم وحبهم للمغامرة ووجود أهداف عليا يقاتلون من أجلها . لم يلبثوا أن أصبحوا فيما بعد أساتذة لأوروبا فى هذه الشئون .

كما يتفق المؤرخون على أن معاوية بن أبى سفيان وعبدالله بن أبى سرح هما أوّل أميرين للبحر أنجبهما الإسلام . وإن كان يبقى أن معاوية كان العقل المدبر . وفى الحقيقة أن اهتمامات معاوية كانت غربية بحرية أكثر منها شرقية برية ، وكانت سياسته موجهة أساسًا نحو الاشتباك مع البيزنطيين والسيطرة على البحر المتوسط . وقد جرى على هذه السياسة من بعده خلفاء بنى أمية .

ولهذا السبب ، ولماذكرناه من أهمية التعاون البحرى بين الشام ومصر ، فقد حرص معاوية بعد وصوله إلى الخلافة وتأسيس البيت الأموى ، على إرتباط مصر والشام برباط وثيق ، وحين نشبت الحرب الأهلية بينه وبين علىّ بن أبى طالب من أجل الخلافة ، صمّم معاوية على بقاء مصر فى التبعية له ، وانتزاعها من أتباع على بن أبى طالب ، الذين انتزعوا الولاية من عبدالله بن أبى سرح فى سنة ٣٦ هـ وأقاموا قيس بن ساعدة بن عبادة مكانه . فقد ولى معاوية عليها عمرو بن العاص ، وعهد إليه بانتزاعها مقابل الحصول على خراجها مدة سبع سنين . وكان عبدالله بن أبى سرح قد توفى فى تلك الأثناء . إذ قصد عسقلان بعد أن منعه العلويون من العودة إلى مصر . فأقام فيها ، وتوفى فى نفس السنة على الأزجح .

وقد سار خلفاء معاوية على سياسة ربط مصر والشام برباط وثيق ، عن طريق تعيين ولاة على مصر من أفراد البيت الأموى نفسه ، أو من أشدّ الناس ولاءً له ، ضمانًا لاستمرار التعاون البحرى بين البلدين فى خدمة أهداف السيطرة على البحر المتوسط . وهذا يوضح مدى أهمية ارتباط الشام ومصر برباط وثيق على مدى العصور ، وضرورة اتحادهما لمواجهة العدو المشترك .

وعلى كلّ حال ، فقد يكون من الضرورى هنا لتقدير أهمية الدور الذى لعبته القوة البحرية العربية الوليدة ، أن نستعرض أوضاع الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط فى ذلك الحين ، وسياسة الدولة البيزنطية عند بداية فتوح الإسلام .

فلقد قام نظام الدفاع البيزنطى فى البحر المتوسط على الاكتفاء بقوات بحرية صغيرة من الجنود

المحترفين لشدّ أزر قوات الدفاع المحلية فى المواقع البحرية . واحتفظت الدولة البيزنطية بقواعد بحرية ودور للصناعة البحرية فى قرطاجنة ، وعكا ، والإسكندرية ، والقسطنطينية – حيث تم بناء الكثير من السفن الحربية الخفيفة السريعة ، بجانب قواعد أخرى فى صقلية ورافنا ، لحراسة البحر التيرانى والبحر الأدرياتيكى . كما كان هناك قواعد أخرى فى سبتة وفى جزر البليار كما يقول بعض المؤرخين . وعندما كانت تقوم الحرب ، كانت الدولة البيزنطية تعزز أسطولها بعدد من السفن التجارية لنقل الجنود والإمدادات . وقد كانت هذه القوة البحرية البيزنطية هى التى أنقذت الدولة والإمبراطورية البيزنطية فى الحرب مع الفرس والآفار .

وعندما ظهرت القوة البحرية العربية النامية ، أيام قسطنطين الثانى (٦٤١ – ٦٦٨) وقسطنطين الرابع (٦٦٨ –٦٨٥) . وجّهت الدولة البيزنطية عناية مضاعفة للأسطول . فأصبح هناك اسطول مركزى إمبراطورى فى القسطنطينية وأسطولان إقليميّان آخران فى الشرق . يشرف أحدهما على جزر السكلاديز والدوديكانيز والثانى على سواحل آسيا الصغرى الجنوبية . أما فى الغرب فقد رابط أسطولان إقليميان فى صقلية ورافنا .

وقد احتفظ كلّ اسطول إقليمى من هذه الأساطيل باكتفائه الذاتى من السفن الحربية ، والترسانات البحرية وأحواض البناء . والمعدات البحرية الأخرى . وذلك على نفقة الإقليم الذى يقيم فيه الأسطول . بل لقد فرضت الأساطيل البحرية الاقليمية على كل ثغر بحرى فى منطقتها ، تقديم ملاحين أو سفن نقل ومئونة .

وهذا يوضح ، ليس فقط ضخامة الأساطيل البيزنطية ، بل واستخدامها موارد الإمبراطورية البحرية دون استثناء ، مع توزيع تكاليف الدفاع البحرى على الأقاليم . ممّا أتاح لها حماية سواحل الإمبراطورية فى أثناء الهجوم البحرى العربى بتكاليف بسيطة .

وهذا هو السبب الذى جعل معاوية بن أبى سفيان فى أثناء ولايته للشام يحس بضعف سلطانه على سواحله أمام قوة أسطول بيزنطة ، كما كان السبب أيضًا فى أنّ كثيرًا من سكان المدن الساحلية الموالية لبيزنطة ظلّت تتطلع إلى البحر ! . لذلك أصبحت القوة البحرية العربية ضمانًا أكيدًا ضدّ ضياع المكاسب العربية .

ولقد قدر لهذه القوة البحرية العربية أن تبرز إلى الوجود فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، الذى تذكر بعض المصادر أنه كان شديد التحمس لقهر أوروبا ، حتى انه اراد مواصلة الفتوح من أفريقية إلى الأندلس . ثم تسير جيوشه فى قلب أوروبا إلى القسطنطينية ! فيفتحها من الغرب بدلاً

من الشرق ! وهو مشروع جرىء وطموح بالنسبة لذلك التاريخ المبكر .

لذلك لاغرابة ، حين طلب معاوية الإذن بالاستيلاء على قبرص ، أن وافق عثمان بن عفان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك لضمان صلابة العرب فى هذا الهجوم الفريد ، وامتحان صدق عزيمة معاوية ، فاشترط أن يصطحب معاوية معه زوجته ! . وجاء فى كتابه إليه : « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونًا لك وإلاّ فلا » !

ولهذا السبب اشتركت المرأة العربية فى أول حملة بحرية فى البحر المتوسط ضدّ البيزنطيين كما سوف نرى .

٦ – غزو البحر المتوسط

- استيلاء البيزنطيين على الإسكندرية عام ٦٤٥ م .
- استرداد عمرو بن العاص للإسكندرية عام ٦٤٦ م .
- فتح قبرص .
- فتح رودس .
- موقعة الصوارى وأهميتها التاريخية .
- تراجع الفتوح الإسلامية أثناء أحداث الفتنة الكبرى .

٦ – غزو البحر المتوسط !

أصبحت الدولة العربية الإسلامية دولة من دول البحر المتوسط ، باستيلائها على الشام أولاً . واستيلائها على مصر وبرقة وطرابلس ثانياً .

وقد حتّم عليها هذا الموقع الجديد تملّك القوة البحرية للدفاع عن هذه الممتلكات ، حتى لا تنتزعها منها الدولة البيزنطية بفضل أسطولها كما انتزعتها من قبل من يد الفرس ! .

وفى الحقيقة أن الدولة البيزنطية لم تتأخر عن تكرار هذه المحاولة مع العرب منذ الأيام الأولى ، أى فى عهد قسطنطين الثانى . ففى عام ٢٥ هـ (٦٤٥ م) . انتهز الإمبراطور فرصة افتقار العرب لأسطول بحرى ، وعمد إلى مفاجأة كلٍّ من مصر والشام بحملتين بحريتين على درجة كبيرة من القوّة ، وقد استطاع بحملته على مصر أن يستردّ بالفعل الإسكندرية بعد مفاجأة الحامية العربية بالمدينة والتغلب عليها . وكان يتولّى قيادة هذه الحملة « مانويل » أعظم قادة الروم ، وهو الذى سبق له الدفاع عن الإسكندرية إبّان هجوم العرب عليها عام ٦٤١ . وقد هاجم الإسكندرية بأسطول كبير يبلغ ثلاثمائة سفينة وتمكن من قتل معظم رجال الحامية العرب .

ولو أن مانويل سار مباشرةً إلى حصن بابليون واستولى عليه ، لسيطر بذلك على مصر السفلى ، ولكنه شغل نفسه بالمناطق المجاورة للإسكندرية ، فترك الفرصة للعرب لاستجماع قوتهم من جديد بقيادة عمرو بن العاص ، الذى عاد من مكة لمواجهة هذا الموقف ، وقد تمكن من هزيمة الحملة البيزنطية حول حصن نقيوس ، ومطاردتها حتى بلغت أسوار الإسكندرية فحاصرها للمرة الثانية ، وأقسم « إن استولى عليها ليهدم أسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان » ! . وكان هذا الحصار الثانى أشق من الأول . نظرًا لأن البيزنطيين نصبوا المجانيق على أسوار الإسكندرية ، وأخذوا يمطرون بها الجيش العربى ! . ولكنه انتهى باقتحام الجيش العربى المدينة للمرة الثانية ، وإبادة كثير من القوات البيزنطية ، ودكّ عمرو بن العاص بالفعل أسوارها الشرقية وأبراجها فى صيف ٦٤٦ م .

وقد لقيت الحملة البحرية البيزنطية الأخرى التى توجّهت إلى الشام فشلاً أكبر ، وذلك بسبب

التحصينات التى أقامها معاوية بن أبى سفيان ، والتى أشرنا إليها سابقًا . وعندما وردت الأنباء بهزيمة البيزنطيين فى الإسكندرية ، عادت السفن إلى القسطنطينية ! .

وهذا هو السبب فى التعاون الذى جرى بين معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن أبى سرح الذى خلف عمرو بن العاص فى مصر ، فى إنشاء الأسطول الحربى العربى ، عن طريق تقديم الأخشاب من الشام ، وتحويل هذه الأخشاب إلى سفن فى دور الصناعة المصرية . فقد كان بفضل هذا التعاون أن أمكن القيام بأوّل حملة بحرية عربية فى التاريخ فى البحر المتوسط على إحدى جزره ، وهى جزيرة قبرص ، فى عام ٢٨ هـ (٦٤٩ م) .

كانت جزيرة قبرص ، بحكم موقعها الجغرافى أشبه بمسدس مصوبة فوهته نحو الشام . وإلى جانب ذلك كانت الجزيرة تتحكم فى مياه القسم الشرقى فى البحر المتوسط ؛ إذ كان يمكن للمرء أن يرى منها بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، وكانت خطورتها بالنسبة للعرب هى أنها كانت محطة تموين للأسطول البيزنطى ، وملجأ يلجأ إليه الروم وقت الانسحاب .

وتذكر المصادر العربية القديمة ، مثل البلاذرى ، أن غرض معاوية بن أبى سفيان من الحملة لم يكن احتلال الجزيرة ، واتخاذها قاعدة عسكرية – وإنما لإجبار أهلها على الوقوف موقف الحياد فى الحرب الدائرة بين العرب والروم ! . . وقد قبل هذا السبب جميع المؤرخين ، برغم أنه سبب غير معقو ل ؛ لأنه لم يكن فى وسع العرب ضمان وقوف أهل الجزيرة على الحياد بعد انسحابهم من الجزيرة ! .

وفى الحقيقة أن الاستعداد العظيم الذى قام به معاوية للقيام بهذه الحملة لا يتفق مع ضآلة الهدف السالف الذكر – وهو حياد أهل الجزيرة ! ، وإنما يتفق مع هدف أكبر وهو الاستيلاء عليها . ومن الثابت أن الطلب ، الذى طلبه معاوية من عمر بن الخطاب هو الإذن له بغزو الجزيرة . وهو نفس الطلب الذى طلبه من عثمان بن عفان ! . وقد أذن له الأخير بشرط ألاّ يجبر الناس على ركوب البحر . وفيما يبدو أن المؤرخين ذكروا سبب حياد أهل الجزيرة لأنه كان النتيجة التى انتهت إليها الحملة بالفعل ! .

وعلى كل حال فقد استعد معاوية لهذه الحملة بعدد ضخم من السفن ، واشترك فى الحملة كثير من مشاهير القادة العرب مثل عبادة بن الصامت ، كما خرجت معها النساء أيضًا ، إذ اشترط عثمان بن عفان على معاوية – كما ذكرنا – للإذن له بالغزو أن يصطحب معه زوجته ، واصطحبها

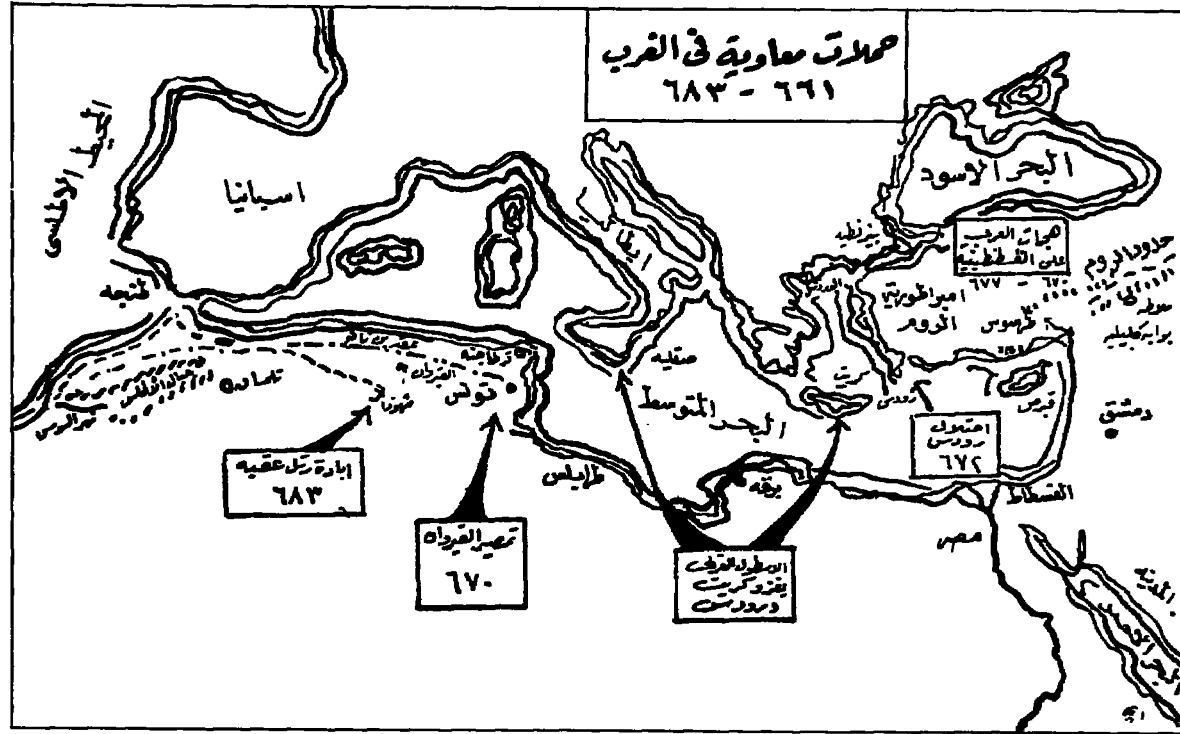
كما اصطحب أخته أيضًا ! . وأخذ عبادة بن الصامت معه زوجته أم حرام بنت ملحان ! .

ويذكر المؤرخون أن الحملة كلها قامت من الشام ، ومن ميناء عكا ، وأن السفن جميعها من مصر ، وكانت السفن المصرية بقيادة عبد الله بن أبى سرح . ولكنها عندما التقت بجيش معاوية صارت القيادة له (لمعاوية) وهذا تفسير ما ورد فى بعض المصادر من أنه قد غزا قبرص «أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، حتى لقوا معاوية ، فكان على الناس » ! .

وقد أنزلت الحملة عدتها وعتادها على الشاطئ ، واعتصم أهل الجزيرة بأسوار مدينتهم فتقدمت القوات العربية نحو العاصمة قسطنطينا ، وعرضت التفاوض مع السكان ، فرفضوا تحت ضغط الروم ، ففرضت القوات العربية الحصار على المدينة ، واضطر حاكمها (أو أركونها كما كان يسمى) إلى طلب الصلح . وقد تساهل معاوية فى شروط الصلح رعاية لوجود الأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ، ولما أظهرته له الحملة من ضرورة تقوية الأسطول العربى ووضع جيش احتلال فى الجزيرة لحماية فتوحاته ، وهو ما سنرى أنه سيفعله فى الحملات التالية ، فقد قبل من أهل الجزيرة جزية سنوية تماثل ما يدفع للروم ، وأن يقفوا موقف الحياد فى الحرب بين العرب والروم فلا يساعدوا طرفًا على طرف .

وقد أفادت هذه الحملة العرب فائدةً لا تقدّر ، فإلى جانب اكتساب الخبرة الحربية البحرية التى كانوا يفتقرون إليها ، فقد انكسر حاجز الخوف من ركوب البحر الذى كان يخالج العرب فى تاريخهم ! .

وقد أخذ معاوية بعد هذه الحملة يتبع سياسة التقدّم التدريجى فى البحر المتوسط بأقدام ثابتة . ففى العام التالى مباشرة (٢٩ هـ) قام بغزو جزيرة أرواد الواقعة بالقرب من ساحل الشام بين مدينتى جبلة وطرابلس . ويلاحظ أن هذه الجزيرة أقرب إلى ساحل الشام من جزيرة قبرص ، وبالتالى يمكن أن تكون شوكة فى ظهر أى احتلال عربى لقبرص فى المستقبل . وكان قد حاول غزو هذه الجزيرة عند عودته من غزوة قبرص ، ونزل بالجزيرة ولكن أهلها اعتصموا بقلعتها ، فلم يتمكن من إخضاعهم ، لذلك عاد إليهم فى العام التالى ٢٩ هـ ، ومعه قوة ضخمة ، فاستولى على القلعة ، واتخذ خطوة غريبة هى إجبار السكان على إخلاء الجزيرة تمامًا ، وأسكنها مسلمين ! . ولا معنى لهذا الإجراء القاسى إلاّ أن معاوية كان يريد تأمين ظهر أسطوله تماما من ناحية الجزر القريبة من ساحل الشام .



حملات معاوية فى الغرب
٦٦١ - ٦٨٣
المحيط الاطلسى
اسبانيا
طنجه
تلمسان
تونس
القيروان
قرطاجنه
إبادة رجل عقبة
٦٨٣
تمصير القيروان
٦٧٠
طرابلس
برقه
البحر المتوسط
صقليه
ايطاليا
كريت
رودس
احتلوك رودس
٦٧٢
قبرص
دمشق
الفسطاط
مصر
البحر الاسود
بيزنطه
امبراطورية الروم
طوروس
حدود الروم

(خريطة رقم ١٠)

ولم يلبث معاوية أن أخذ يستعد للجولة الثانية فى قبرص ، عن طريق تنمية أسطوله . وفى عام ٣٣ هـ (٦٥٣ – ٦٥٤ م) هاجم الجزيرة بأسطول ضخم يبلغ عدد سفنه – وفقًا للمصادر التاريخية – خمسمائة سفينة ! . وكانت الذريعة لهذا الغزو هى إمداد أهل الجزيرة للروم بسفن ساعدتهم على الهجوم على الشواطئ العربية للشام . وقد تمكن معاوية من الاستيلاء على الجزيرة عنوة ، وإخضاع أهلها الذين قاوموا مقاومة شديدة .

وقد أصبحت قبرص منذ ذلك الحين قاعدةً دائمةً للأسطول العربى فى البحر المتوسط . واتخذ معاوية الخطوات اللازمة لذلك . فوضع فيها جيش احتلال يبلغ مقداره اثنى عشر ألفا من الجند النظامى ، الذى أجرت عليه الدولة الرواتب لهذا الغرض ، كما اتبع ذلك بخطوة أخرى هى توطين مجموعات من أهل بعلبك فى قبرص ، وقد أجرى عليهم الرواتب أيضًا لإغرائهم على البقاء . وفى الوقت نفسه أقرّ أهل قبرص على الصلح السابق تأليفًا لقلوبهم ، ولم يأخذ بالآراء المتشدّدة بين قوّاده للقسوة فى معاملتهم . إذ رأى أنهم مغلوبون على أمرهم إزاء الروم ، أوكما عبّر أحد القادة المعارضين استخدام الشدة : « إن أهل قبرص أذلاّء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم » .

وقد مضى معاوية بعد ذلك لتنفيذ مخططه فى التقدم فى البحر المتوسط ، فبعد بضعة أشهر من فتح قبرص ، أى فى سنة ٣٣ هـ (٦٥٤ م) بعث معاوية جنادة بن أبى أمية على رأس أسطول بحرى لفتح جزيرة رودس ذات الموقع الهام لقربها من آسيا الصغرى والحدود الإسلامية البيزنطية فى أطراف الشام . وقد تمكن جنادة من الاستيلاء على الجزيرة عنوة . وعمد معاوية إلى تدعيم هذه القاعدة البحرية الأخرى عن طريق بناء حصن منيع بها ، ووضع حامية عسكرية عربية . وبذلك كسب العرب جزيرة تعدّ أهم جزر بحر إيجة وأكثرها فائدةً لبحرية البيزنطيين بسبب صناعة السفن التى كانت بها . ومع أن البيزنطيين استعادوا هذه الجزيرة أثناء الحرب بين معاوية وعلى ، إلا أن معاوية استردها فى عام ٦٧٢ م .

على أن الإمبراطور قنسطانز لم يلبث أن هبّ للرد على هذا الخطر العربى ، والاشتباك مع الأسطول العربى فى معركة حاسمة . فعمد إلى تدعيم قوته البحرية فى شرق البحر المتوسط ، وإيجاد تعاون بحرى بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وعوّل على الخروج قاصدًا الشام لتدمير الأساطيل العربية وكان ذلك فى عام ٣٤ هـ – ٦٥٥ م .

وتقول المصادر العربية إن قنسطانز «خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثله منذ كان الإسلام» ! فقد كان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة حربية ، مزوّدة بآلات الحرب . حتى راع منظرها العرب لأوّل وهلة ! كما يفهم من وصف أحدهم حين تقابل مع سفن البيزنطيين قائلاً : « التقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ! » .

فى ذلك الحين كان معاوية قد أرسل إلى عبد الله بن أبى سرح فى مصر يطلب حضور الأسطول المصرى للاشتراك فى المعركة . وقد لبّى عبد الله بن سعد الدعوة حتى إذا ما التأم شمل الأسطولين الشامى والمصرى ، خرج الأسطولان إلى البحر للالتقاء بالأسطول البيزنطى . وكان على الأسطول الأوّل معاوية ، وعلى الأسطول الثانى عبد الله بن أبى سرح .

وقد التقى الأسطول العربى والأسطول البيزنطى فى البحر فى موقع بين جزيرة رودس وساحل ليكيا عند شاطئ فينكس Phoenix ولكن الريح كانت غير ملائمة للطرفين ، فأرسى الأسطولان على مقربة من بعضهما . ويقول شاهد عيان للمعركة إن العرب خيّروا البيزنطيين بين القتال على الساحل « حتى يموت الأعجل منا ومنكم . وإن شئتم فالبحر ! » وقد فضّل البيزنطيون القتال فى البحر اعتمادًا على خبرتهم الطويلة وحداثة عهد العرب بالبحر . واشترك فى القتال الإمبراطور قنسطانز نفسه .

وفى البداية كادت الهزيمة تحل بالأسطول العربى ، الذى كانت تلك أوّل معركة بحرية يخوضها ضدّ الأسطول البيزنطى ، حيث كانت الحملات السابقة ، تقع على الجزر ، وتستخدم السفن فيها للنقل لا للحرب – فقد استعمل العرب فى المعركة أدوات القتال على البر ، وهى الأقواس والسهام ، وبطبيعة الحال نفدت ذخيرتهم سريعًا ، فاضطروا إلى أن يستبدلوا الحجارة بالأقواس والرماح ! . ولكن الحجارة نفدت أيضًا ! بينما كان العدوّ على مبعدة منهم .

وعند ذلك قررت القيادة العربية تحويل سفن الأسطولين إلى أرض يقاتلون عليها ! فقذفوا الخطاطيف على سفن البيزنطيين ، فاجتذبتها إلى سفنهم ، ثم اتخذوا من ظهور السفن المتلاصقة ميدان قتال أشبه بالميدان البرّى ، ووثبوا على الروم بسيوفهم ، ويقول شاهد العيان سالف الذكر : « دنونا منهم ، فربطنا السفن بعضها إلى بعض ، فقاتلنا أشدّ القتال ، ووثبت الرجال على الرجال ، يضربون بالسيوف على السفن ، ويتواجئون بالخناجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركامًا » ! وكاد الإمبراطور قنسطانز يقع فى أسر

العرب لولا تنكره فى ملابس أحد ضاربى الطبل على سفينته ، وهروبه من المعركة على ظهر مركب آخر أقلته إلى صقلية .

وعلى هذا النحو انتهت تلك المعركة البحرية التى عرفت باسم « موقعة الصوارى » ، لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فى المعركة ، حتى قيل إنه اشترك من الجانبين فيها ألف سفينة ! وقد قتل معظم رجال الأسطول البيزنطى البالغ عددهم عشرين ألفا .

وتعتبر هذه المعركة البحرية من المعارك التاريخية الكبرى . فيرى البعض أنها تقف على قدم المساواة مع واقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م . وأبى قير البحرية سنة ١٧٩٨ . ويرى تيوفانس أن هذه المعركة تماثل معركة اليرموك البرية ، ويقول إن هذا الانتصار أكد قوة العرب البحرية ، ولكن الفتنة التى اندلعت ضد عثمان بن عفان حرمت العرب من الاستفادة من هذا النصر . ويقول الدكتور « فيليب حتى » : هذه المعركة أثبتت أنها يرموك أخرى ، إذ حطمت القوى البيزنطية تحطيمًا تامًا .

ولكن أهم نتائج هذه المعركة هى تخلى الإمبراطور قنسطانز وخلفائه عن أحلام طرد العرب من البلاد التى فتحوها فى شرقى البحر المتوسط ، والاكتفاء بمحاولة تأمين الأراضى البيزنطية فى الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى . وأهمية هذا التحول تأتى من أنه أتى فى وقت كانت الدولة العربية قد دخلت فى دور قلق ونزاع بعد مقتل عثمان ثم نشبت الحرب الأهلية بين علىّ ومعاوية . فكان الأسطول العربى والقوة البحرية العربية هى التى حققت الحماية للفتوحات العربية ، ومنعت استرداد البيزنطيين لها كما سبق لهم أن استردوها من الفرس ! . وذلك هو الدرس الذى تلقاه العرب من أخطاء الفرس .

على كل حال ، ففى تلك الأثناء وقعت أحداث الفتنة الكبرى ، فقتل عثمان فى عام ٣٥ هـ ، أى بعد واقعة الصوارى بعام ، ووقعت الحرب بين علىّ ومعاوية ، ثم اغتيل « علىّ » عام ٤٠ هـ . وفى خلال تلك الأعوام توقفت حركة الفتوحات ، وانشغل العرب بالتقاتل فيما بينهم عن قتال البيزنطيين . بل اضطر معاوية ، قبل مواجهته جيوش علىّ بن أبى طالب ، إلى عقد هدنة مع الإمبراطور قنسطانز ومع أتباعه من الجراجمة ، وقد قبل أن يدفع لهم إتاوة ليضمن سلامة أراضيه ، واستمر ذلك إلى عام ٤١ هـ حين استقر الأمر لمعاوية بعد تنازل الحسن له عن الخلافة فى ذلك العام .

وتقول بعض المصادر : إن عمرو بن العاص هو صاحب فكرة دفع إتاوة للبيزنطيين فى أثناء الفتنة الكبرى . فقد ذكرت أنه جاء خبر إلى معاوية فى أثناء نزاعه مع علىّ بأن قيصر الروم سيقوم بمهاجمته . فاستشار عمرو بن العاص الذى قال له : « أخطر قيصر فوادعه ، وأعطه مالاً وحللاً من حلل مصر ، فإنه سيرضى عنك بذاك » ! .

وتقول مصادر أخرى إنه عندما بلغ معاوية عزم إمبراطور الروم على غزو الشام كتب إليه يهدده بأنه إذا فعل ذلك سيصالح عليًّا ويتحالف معه على قتاله ؛ فقد قال : تالله لئن تممت على ما بلغنى من عزمك ، لأصالحن صاحبى ، ولأكونن مقدمته إليك ، ولأجعلنّ القسطنطينية البحراء حامة سوداء ، ولأنتزعنّ منك الملك » .

وعلى كل حال فمن المحقق أنه حدثت هدنة أو صلح بين معاوية والبيزنطيين فى أثناء نزاعه مع علىّ ، فيقول البلاذرى : إن الروم صالحت معاوية على أن يؤدى إليهم مالاً ، وارتهن معاوية منهم رهناء ، فوضعهم ببعلبك ، ولكن الروم غدرت ، فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من الرهائن ، وخلوا سبيلهم ، وقالوا : « وفاء بغدر ، خير من غدر بغدر ! » .

وقد التزم معاوية بدفع ألف دينار وعبد وحصان كل يوم أو أسبوع للبيزنطيين . ويذكر تيوفانيس ان هذا الاتفاق تم سنة ٣٨ أو سنة ٣٩ هـ ، ولم تذكر المصادر نصوص هذا الاتفاق .

على أن أرمينيه وقبرص عادتا إلى النفوذ البيزنطى . فى مقابل أن يدع قنسطانز الثانى المسلمين وشأنهم ! . ولم يكن من مصلحة قسطانز الطموح إلى أكثر من ذلك ، حتى لا يستفز العرب إلى الانتقام ، ومعنى ذلك أن الدولة البيزنطية قد صرفت النظر تمامًا عن استعادة الشام ومصر والجهات الأخرى التى دخلت فى ملك العرب . وهذه هى أهمية ذلك الاتفاق التاريخية .

على أن بعض المؤرخين يرى أن الاتفاق مع ذلك لم يعقد مع الدولة الإسلامية ، وإنما عقد مع الفريق الثائر على خلافة علىّ بن أبى طالب ! – يقصدون معاوية بن أبى سفيان !

وعلى كل حال ، فهذا الاتفاق يبين كيف انتقل العرب من موقف الهجوم إلى الدفاع أثناء انقسامهم . وقد ضاعت بذلك الاستفادة من انتصار موقعة الصوارى فى الهجوم على القسطنطينية ، وهى الخطوة التى كان يعدّها معاوية .

على أن معاوية لم يكد ينتهى من مشاكل الفتنة ، حتى عاد إلى تنفيذ مخططه فى التوسع على حساب البيزنطيين . وقد جرى التوسع وقتذاك فى خطّين متوازيين :

برًّا ، على الساحل الشمالى لأفريقيا حتى المحيط الأطلنطى

وبحرًا ، فى القسم الشرقى من البحر المتوسط حتى القسطنطينية !

وبالنسبة للبحر المتوسط ، فقد أخذ معاوية فى تقوية الأسطول البحرى ، حتى تذكر المصادر أن أسطول الشام بلغ فى عهده ١٧٠٠ سفينة مزوّدة بالعدّة والسلاح . وقد استعاد به جزيرة قبرص . كما استعاد رودس وأخذ يستعد للهجوم على القسطنطينية .

وأما فى البر ، فقد استأنف عملية فتح الشمال الأفريقى . وكان الكثير من جهاته قد انتقضت على العرب أثناء الفتنة الكبرى . فاستأنف معاوية بثّ السرايا والبعوث فى برقة وطرابلس . وقد لعبت مجموعة من القادة العسكريين العرب على رأسهم عقبة بن نافع أروع الأدوار فى لقاء البيزنطيين .

وسنرى كيف ارتبطت العمليات فى البحر المتوسط بالعمليات فى الشمال الأفريقى ، على نحو ما ارتبطت من قبل بفتح الشام ومصر .

٧ – الوصول إلى المحيط الأطلنطى

- حملة معاوية بن حديج على ولاية أفريقية (تونس) .
- حملة عقبة بن نافع الأولى على تونس وبناء القيروان .
- حملة أبى المهاجر دينار على تونس .
- التركيب الحضارى لبربر شمال أفريقيا .
- حملة عقبة بن نافع الثانية ووصوله إلى الأطلنطى .
- سياسة عقبة بن نافع تجاه البربر واعتقاله كسيله .
- إستشهاد عقبة وأبى المهاجر بيد البربر .

٧ - الوصول إلى المحيط الأطلنطى !

كان قيام الدولة العربية الأموية فى عام ٤١ من الهجرة ، بداية مرحلة خطيرة فى العلاقات بين العرب وأوروبا . ذلك أن خلفاء هذه الدولة قد أثبتوا أنهم أكثر الخلفاء فهمًا للخطر القادم من أوروبا على الإسلام ، وأكثر استيعابًا لسياسة رسول الله التى حملتها معانى حملته التى جهزها قبل وفاته وأمَّر عليها أسامة بن زيد . فقد كانت هذه الحملة بمثابة وصيّة لخلفائه بمواجهة هذا الخطر دائمًا بالهجوم لا بالدفاع ! .

ولا شك أن انتقال عاصمة الدولة من المدينة إلى دمشق القريبة من الحدود البيزنطية ، قد أسهم فى تعزيز هذا الاتجاه إلى الغرب فى التوسع الإسلامى ، الذى رأينا - كما ذكرنا - أنه كان سياسة معاوية بن أبى سفيان ، مما أدّى إلى فتح جزر شرقى البحر المتوسط . ونظرًا لأن فتح القسم الغربى من البحر المتوسط قد ارتبط بفتح الشمال الأفريقى ، فلذلك لا مفرّ من الاتجاه بدراستنا إلى هذا الميدان الخطير ، الذى استكمل به العالم العربى الحالى صورته القومية .

وقد أثبت ميدان شمال أفريقيا أنه أصعب الميادين على الفتح العربى ، حتى لقد استغرق هذا الفتح نحو ٦٠ عامًا منذ فتحت برقة فى عام ٢٣ هـ ، وقد فقد العرب فى فتحه عددًا من كبار القادة العسكريين الذين خلد ذكرهم فى التاريخ - مثل عقبة بن نافع ، وزهير بن قيس البلوى . ولكن الدماء التى فقدها العرب لم تذهب هباء ، إذ لولا هذه الدماء لتوقفت حدود الوطن العربى الحالى عند المشرق العربى ! .

وكانت حملة عبد الله بن أبى سرح قد انتهت - كما ذكرنا - لظروف تتصل بكثرة ما فقد الجيش العربى من دماء ، واختلال ميزان القوى بينه وبين الروم - بعقده صلحًا مع الروم وأهل البلاد ، على أن ما أصابه المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وعلى الانسحاب من البلاد مقابل غرامة ضخمة ، ولكنه لم يترك خلفه حاكمًا ولا حامية ، فدخلت حملته التاريخ كإغارة طويلة كثرت أحداثها وزادت مغانمها ، ولكنها لم تخلف وراءها فى البلاد أثرا كبيرا ، وان زودت العرب بالخبرة اللازمة بالبلاد .

وكان طبيعيًّا أن تعود الفتوح سيرتها الأولى بعد استقرار الأمر لمعاوية . فقد أصبح عمرو بن

العاص عاملاً على مصر سنة ٣٨ هـ ، وهو من المتحمسين للاتجاه غربًا فى الشمال الأفريقى . فأرسل عقبة بن نافع لإعادة فتح هذه الجهات فى سنة ٤١ هـ .

على أن الدولة البيزنطية فى تلك الأثناء كانت قد انتهزت فرصة انشغال الدولة العربية بالفتنة الكبرى ، لتعزيز أقدامها فى الشمال الأفريقى ، فبعد موقعة الصوارى نقل قنسطانز الثانى عاصمته إلى صقلية وأقام بلاطه فى سرقوقه . وجعلها مركزًا للمقاومة ضدّ النشاط البحرى العربى . وقام بتقوية أسطوله تمهيدًا للاعتماد عليه فى طرد العرب من شمال أفريقيا . ولكن عقبة بن نافع تمكن من فتح غدامس وودان – سنة ٤٢ هـ (٦٦٢ م) . وكان قد غزا لواته من البربر لانتقاضهم على عمرو بن العاص ، وأخذ فى إخضاع بعض واحات الصحراء .

ولكن عمرو بن العاص لم يلبث أن توفى فى أول شوال سنة ٤٣ هـ . (٦٦٤ م) . وخلفه ابنه عبد الله بن عمرو ، الذى بقى واليًا نحو سنتين . ولكن معاوية فصل ولاية أفريقية عن مصر ، وأتبعها مباشرةً إلى دمشق ، وأقام على مصر عقبة بن عامر الجهنى بعد عزل عبد الله بن عمرو . ثم أعقب ذلك بتولية معاوية بن حديج قيادة الفتوح فى أفريقية ، والإمارة على ما يفتحه من بلادها ، متجاهلاً بذلك عقبة بن نافع الذى كان مايزال فى تلك الأثناء يقوم بالغزو فى نواحى فزان والواحات القريبة منها .

ولا يستبعد كثير من المؤرخين أن تكون الظروف السياسية فى أفريقية (تونس) قد دعت أهل البلاد إلى الاستنجاد بدمشق لفتح البلاد وتخليص أهلها من مظالم البيزنطيين . فتتفق المصادر اليونانية على أن الدولة البيزنطية فى ذلك الحين كانت تقاسى عوزًا ماليًا شديدًا فى الأموال . مما أرهق الأهالى بالضرائب .

وعلى كل حال ، فقد خرج معاوية بن حديج من مصر فى عام ٤٥ هـ . على رأس حملة من عشرة آلاف جندى لفتح أفريقية . وكان مسيره على مقربة من الساحل ، وفيما يبدو أن أخبار خروجه وصلت للدولة البيزنطية ، لأنها أرسلت جيشًا بيزنطيًّا يقوده نقفور نزل أفريقية وتقدم ليلقى العرب . ولكن معاوية ألحق به الهزيمة وانفتح بذلك الطريق أمامه حتى وصل إلى سهل تونس حيث حطّ عسكره فى موضع من ناحية قمونية ، وهو موضع القيروان الحالية ، وكان معه نفر كبير من الصحابة والتابعين من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحكم بن أبى العاص ، وعدّة من أشراف قريش ، مما يشير إلى الأهمية التى كان يقيمها معاوية بن أبى سفيان على هذه الحملة .

:

ولم يكد معاوية بن حديج يستقر فى قمونية ، حتّى سمع بجيش بيزنطى ينزل فى أفريقية ، فتقدم للقائه وأجبر البيزنطيين على الانسحاب والعودة بسفنهم . فانتهت بذلك المقاومة البيزنطية .

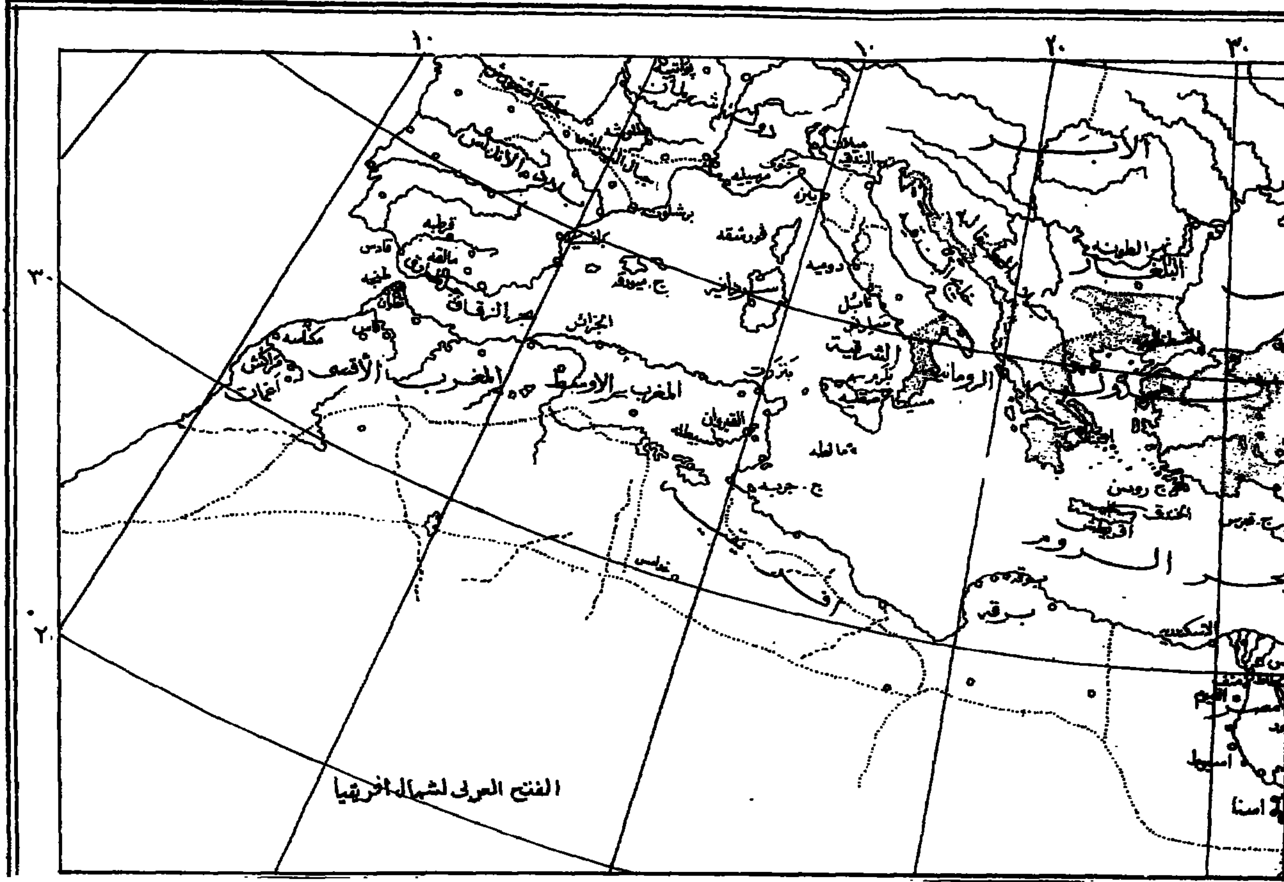
ثم تقدم شمالاً إلى مكان يدعى « القرن » اتخذه مركزًا لقيادته ، ومن هناك أرسل عبد الله بن الزبير لتتبع الروم ، الذين انسحبوا إلى مدينة سوسة ، فاشتبك معهم وأجبرهم على الإقلاع فى البحر .

وكان على معاوية بن حديج بعد ذلك إما التقدم غربًا لمهاجمة القبائل البربرية فى معاقلها ، أو الاتجاه شمالاً لفتح مدن السواحل ومحارسها حتّى يقضى تمامًا على آثار الروم فى البلاد ، ويحول دون قيامهم بمحاولة أخرى لفتحها من جديد . وقد قرر تحقيق الغرضين معًا . فأرسل جيشًا بقيادة عبد الملك بن مروان ، الذى لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة فى ذلك الحين ، لفتح جلولاء ، ثم اتجه ببقية جيشه شمالاً لفتح بنزرت . وكان قد خلف على طرابلس صحابيًّا اسمه رويفع بن ثابت الأنصارى، فقام بحملة قصيرة عبر بها البحر إلى جزيرة جربة المجاورة للساحل، ففتحها فى عام ٤٧ هـ.

على أن معاوية بن حديج اكتفى بهذا القدر ، فلم يقصد قرطاجنة عاصمة أفريقية البيزنطية لحصارها ، نظرا لما كانت عليه من منعة وقوة . ولو أنه وجه اهتمامه لفتحها لتقدّم بالفتح العربى لأفريقية خطوة كبرى . ولكن يبدو أن إمكانيات جيشه لم تهيئ له الفرصة لذلك ، فدخلت حملته التاريخ دون نتائج ثابتة – أى كغارة من الغارات الطويلة ، التى تعلّم فيها العرب الكثير من معالم البلاد وحياتها الاجتماعية والاقتصادية . وكمقدمة من المقدمات الطويلة التى سبقت الفتح الحقيقى لأفريقية (تونس) .

وفى الحقيقة أن الخطوة الأولى للفتح الحقيقى لأفريقية لم تتم إلاّ على يد عقبة بن نافع الفهرى ، الذى وضع الأساس الأوّل فى بناء أفريقية العربية ، فقد عينه معاوية بن أبى سفيان واليًا على أفريقية فى عام ٤٩ هـ ، فخرج إليها من « صرت » فى أوائل هذا العام بعد أن وصل إليه عشرة آلاف جندى .

وقد سار عقبة متبعًا الطريق الداخلى مؤثرًا الابتعاد عن الإقليم الساحلى الملىء بالحصون والمدن الكبرى ، والأسطول البيزنطى . مخترقًا أقاليم الواحات التى لقيها فى طريقه ، مثل غدامس وقسطيلية حتّى وصل إلى أفريقية ، وعسكر فى موضع قمونية الذى كان قد عسكر فيه من قبله معاوية بن حديج .


الفتح العربي لشمال افريقيا
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
الجزائر
القيروان
مالطة
بحر الروم
برقة
الاسكندرية
أسيوط
أسنا
قرطبة
قادس
مالقة
طنجة
سبتة
فاس
مكناسة
مراكش
أغمات
الزقاق
برشلونة
جبال البرانس
بلاد الأندلس
فرنسا
جنوة
روما
ج. جربة
نابل
سردانية
صقلية
قورشقة
ج. ميورقة
البلقان
الألب
ج. قبرص
ج. رودس
أقريطش

(خريطة رقم ١١)

وقد تعرض عقبة لنقد بعض المؤرخين بسبب عدم مواجهته الإقليم الساحلى بكلّ ما فيه من حصون ، وبالتالى قلّة ما فتح منه من المدن الكبرى والمدن المهمة فى طريقه إلى أفريقية . وفى الواقع أن عقبة كان قد سار إلى أفريقية واضعًا أمام ناظريه هدفًا كبيرًا ، هو بناء قاعدة عربية عسكرية للفتوح الإسلامية فى أفريقية . إذ كان قد أدرك من خلال حملاته فى شمالى أفريقية من سنة ٢٢ إلى ٤٩ هـ ، أن عدم وجود قاعدة فى تلك الأنحاء ، يعطى البربر الفرصة للخروج على طاعة العرب عندما ينصرفون عن البلاد . ويرتدّ منهم من دخل فى الإسلام إلى المسيحية ، لذلك اتجه مباشرة إلى هدفه وهو موضع قمونية الذى عسكر فيه من قبله بن حديج ، وهو موضع يقع فى أحد الأودية البعيدة عن الساحل وبعيدا عن الأسطول البيزنطى وغزوات البيزنطيين البحرية . فاختط القيروان فى سنة ٥٠ هـ وأمر الناس بتشييد دورهم ومساجدهم بها ، حتى اكتمل بناؤها فى عام ٥٥ هـ.

كانت أهمية بناء القيروان أنها افتتحت صفحة جديدة فى تاريخ الفتوح العربية فى شمال أفريقية. فقبل بنائها كان العرب يخرجون من مصر للإغارة على أفريقية (تونس) ثم يعودون إلى مصر أو إلى برقة محملين بالغنائم ، دون أن يخلفوا فى البلاد أثرا . ولكن بعد بناء القيروان أصبح العرب يخرجون من القيروان ويعودون إليها ، فتحوّلت الإغارات إلى فتح ثابت دائم . وتحولت البلاد تدريجيًّا إلى بلاد إسلامية .

على أن جهود عقبة بن نافع فى بناء القيروان ، صرفته عن أعمال الفتح الأخرى ، التى كان قد عزم على القيام بها بعد تأمين ظهره – مما أتاح لخصومه فى مصر السعى لدى الخليفة معاوية ضدّه . وكان عامل مصر وقتها هو مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى طمعت نفسه إلى السيطرة على الولاية الجديدة وجعلها من بلاده ، فهوّن من شأنه لدى الخليفة على أساس انقطاع ورود الغنائم والأموال .

لذلك عزل معاوية عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية . وولّى مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية ، وقد عيّن هذا مولاه أبا المهاجر دينار أميرًا على أفريقية فى عام ٥٥ هـ ، بعد أن أوصاه بإساءة عزل عقبة ! . وهكذا حيل بين عقبة بن نافع وتنفيذ مشروعاته .

على أن أبا المهاجر دينار أثبت بدوره أنه من طراز الفاتحين العظام ، على الرغم من أنه لا توجد عنه روايات كافية ، نظرًا لوقوع فترة ولايته بين فترتى ولاية عقبة بن نافع . بل إن أهمية أبى المهاجر دينار ، تكمن فى أنه من الرعيل الأول من المعربين الذين أصبحوا الآن يكونون مجموع الأمة العربية

الكبيرة التى تمتد من الخليج إلى المحيط ! فلم يكن بصاحب ولا تابع ولا عربى ، وإنما كان مولى من أهل مصر فيما يبدو ، أعتقه مسلمة بن مخلد لذكائه وفطنته وولاه أفريقية .

وكانت الظروف التى قدم فيها أبو المهاجر دينار إلى أفريقية تتطلب رجلاً له مثل مرونته وشجاعته . ذلك أن الدولة البيزنطية فى ذلك الحين كانت قد اكتشفت أن سياستها الدينية فى بلاد شمال أفريقية ، هى التى دفعت بسكانها فى أحضان العرب ، كما حدث فى مصر ، وفى أفريقية (تونس) . لذا رأى الإمبراطور قسطنطين الرابع اتخاذ سياسة دينية جديدة تعيد إليه ولاء السكان ، الذين كانوا يدينون أصلاً بالمسيحية ، فيقفون معه صفًا واحدًا ضدّ العرب الذين يعتنقون دينًا غير دينهم وهو الإسلام . وعقد لذلك مجلسًا دينيًا سنة ٦٨٠ م . ليضع حدًّا لخصومات المذاهب المسيحية التى باعدت بين الدولة ورعاياها فى أفريقية وفى البلقان وإيطاليا . وقد أثمرت هذه السياسة المتسامحة الجديدة فى اجتذاب ولاء القبائل البربرية التى تدين بالمسيحية ، مما ترك أثره البالغ فى المقاومة المغربية للفتح العربى .

ذلك أنه منذ ذلك الحين أخذ العرب يواجهون الروم والبربر معًا فى حلف قوىّ ، يقاومهم مقاومة عنيفة ، الأمر الذى أدّى إلى فشل العرب فى الاستيلاء على غالبية الحصون والمدن . ومن المعروف أن الروم فى شمال أفريقية كانوا وحدهم إلى ذلك الحين هم الذين يضطلعون بعبء المقاومة الحقيقية للفتح العربى ، ولم يلعب البربر دورًا يذكر فى مقاومة هذه الفتوح .

وكان هؤلاء البربر ينقسمون إلى قسمين : القسم الأول ، تأثر بالحضارة الرومانية ، ويعيشون فى المنطقة الجبلية الواقعة بين تاهرت ووهران ، التى تتوسطها تلمسان ، فى المنطقة الشمالية ، ويسميهم نسابة البربر « البرانس » . والقسم الثانى هم البدو الجنوبيون البعيدون عن الحضارة البيزنطية . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « البتر » . وهذا هو السبب فى أن القسم الأوّل من البربر هو الذى أخذ يلعب دورًا هامًّا فى مقاومة الفتوح العربية بعد التسامح الدينى الذى أبدته بيزنطة -- وإن لم تتخذ هذه المقاومة شكلاً ظاهرًا إلاّ حين بدأ العرب يهاجمون جبال الأوراس . موطن أقوى قبائل البربر فى ذلك الحين ، وهى قبائل « أوربة » التى كان على رأسها كسيلة بن لمزم من سنة ٥١ هـ .

لذلك اعتبر بعض المؤرخين مقاومة هؤلاء البربر للعرب « مقاومة بيزنطية » . بمعنى أنها تتم بوحى وتنسيق وتحريض من جانب الروم مع حلفائهم المسيحيين البربر .

وفى هذا الضوء يمكن فهم سياسة أبى المهاجر حين وصل إلى أفريقية . فلم تكد تصل إليه الأنباء بتحرك قبائل « أوربة » حتى رأى مفاجأتها فى ديارها . وهذا هو سبب حملته الطويلة التى وصل

بها إلى تلمسان ! . حيث اشتبك مع هذه القبائل بقيادة كسيلة ، فهزمها شرّ هزيمة . ولكنه لم ينكل بها ، بل صالح كسيلة ، الذى أسلم وأسلم معه بعض من قومه . فكان أبو المهاجر أوّل أمير مسلم وطئت خيله المغرب الأوسط . وقد جعله هذا يقف – فى رأى بعض المؤرخين – على قدم المساواة مع عقبة بن نافع .

وقد عاد أبو المهاجر دينار من تلمسان إلى المدينة التى اختطها بدلاً من القيروان ، وهى التى أطلق عليها البربر اسم « تكيروان » ، ليخرج مرّة أخرى إلى قرطاجنة عام ٥٩ هـ ، وليفرض عليها الحصار . وقد خرج أهل المدينة لقتاله وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن ينزل له الروم عن شبه الجزيرة المحصورة بين الحمامات وتونس ، وهى جزيرة شريك .

ولم يكد يفرغ أبو المهاجر من حملته حتى اتجه غربًا إلى ميلة ، على مقربة من بجاية ، ففتحها . وعاد فى سنة ٦١ هـ فأقام مدّة سنة ، حتى عزله الخليفة ، بعد أن ترك أثرًا لا ينكر فى نشر لواء الإسلام بين البربر ، الأمر الذى ستظهر نتائجه بعد ثلاثين عامًا حين يشترك رجال من البربر والعرب فى فتح البلاد ونشر راية الإسلام .

كان عقبة بن نافع هو الذى خلف أبا المهاجر دينار على ولاية أفريقية . وكما ذكرنا فإن أبا المهاجر كان قد أساء عزله من قبل بإيحاء من مسلمة بن مخلد ، وأخذ يعفّى على آثاره ، حتى أنه أمر الناس بترك القيروان ، فأصبحت فى عهده خواءً . بل إنه أخذ عقبة بالسجن الشديد . لذلك بدأ عقبة بن نافع عمله بالاقتصاص من أبى المهاجر ، فأوثقه فى وثاق شديد ، ووضعه فى عسكره يتنقل به فى فتوحاته وهو فى حديد ! . بل إنه اعتقل كسيلة أيضًا ، زعيم البربر ، خوفًا من أن يثير قومه عليه انتقامًا لأبى المهاجر ، ممّا ترتب عليه نتائج خطيرة كما سنرى .

ويفهم مما أورده المؤرخون أن عقبة بن نافع بدأ حملته الكبرى التى وصل بها إلى المحيط الأطلنطى – بعد قليل من تولّيه الإمارة خوفًا أن يفاجأ بعزل جديد ! . ولكن اعتقاله كسيلة جعله يلقى مقاومة شديدة من الروم والبربر معًا . ذلك أن البربر قد غضبوا لما وقع لزعيمهم ، فاتصلوا بالروم ، الذين كانوا يعيشون فى غير اطمئنان فى قرطاجنة منذ عسكر العرب فى جزيرة شريك على مقربة منهم ، فأسرعوا لعون البربر لمساعدتهم على القضاء على العرب ، وساعدوهم على تحصين مواطنهم .

وقد خرج عقبة من القيروان رأسًا إلى مدينة باغاية ، حيث التقى بجيش كثيف من الروم والبربر معًا ، فألحق بهم الهزيمة ، واضطره إلى الاحتماء فى المدينة ، ثم سار إلى بلاد الزاب دون أن يحاول

فتح باغاية ، نظرا لما يتطلبه ذلك من طول مدّة الحصار . حتى وصل إلى لمبيزة . وهى من أعظم حصون الروم ،فدار قتال عنيف بينه وبين أهلها ، وألحق بهم الهزيمة . ولكنه لم يتوقف لفتح الحصن ، واتجه بزحفه إلى الزاب ، فقصد مدينتها الكبرى وهى «أربه» فألحق بأهلها الهزيمة بعد قتال عنيف كاد العرب يفقدون فيه الأمل ويتملكهم اليأس . حتى ليصوّر المغربيون خشية العرب من الهزيمة بقولهم إنه كانوا يبيتون الليل يتواقفون حتى لا يأخذهم الأعداء على غرّة ! .

وبعد أن فرغ عقبة من سهل الزاب ، عبر نهر « شلف » متجهًا إلى « تاهرت » ، حيث واجه الحلف الرومى البربرى مرّةً أخرى ، وألحق به الهزيمة . ثم انحدر من « تاهرت » مختارًا الممر الضيق المحصور بين هضبة الريف وجبال أطلس الوسطى ، لكى يتجنّب مواجهة الساحل الملىء بالحصون والمقاومة التى لقيها فى باغاية ولمبيزة وتاهرت . حتى وصل إلى طنجة ، ثم انحدر جنوبًا إلى السوس الادنى ، فاشتبك مع قبائل البربر هناك وألحق بها الهزيمة ، ثم انطلق بخيله غربًا راكضًا نحو المحيط الأطلنطى ، حتى اقتحم فرسه أمواج المحيط ، وهتف قائلاً : « يارب ! لولا هذا البحر المحيط ، لمضيت مدافعًا عن دينك ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك » .

على أنه كان على عقبة بن نافع أن يدفع ثمن إساءته معاملة كسيلة . فى تلك الأثناء كان كسيلة قد تمكن من الفرار من معسكر عقبة إلى قومه ، وأخذ يستعد للقاء عقبة عند عودته بجيشه إلى القيروان ، بالتنسيق مع الروم .

وكان عقبة قد سلك فى طريق عودته طريق السهل المتوسط . فاجتاز وادى سبو ووادى ملوية إلى الهضبة ، حتى أدرك مدينة طبنة . وهناك أذن لبعض فرق جنده بالإسراع إلى القيروان ، وعندئذ سنحت الفرصة للبربر والروم معًا ، للقضاء عليه ، فاستدرجوه إلى موضع قرب تهودة ، حيث وجد نفسه محاطًا بجيش ضخم على رأسه كسيلة . ولم يكن ثمة مهرب ، فرحّب عقبة وجنده بالموت ، وتسابقوا إلى الاستشهاد . فلما رأى أبو المهاجر ذلك وهو فى حديده تمثل بقول أبى محجن الثقفى :

كفى حزنًا أن ترتدى الخيل بالقنا
وأترك مشدودًا على وثاقيه
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت
مصارع من دونى تصم المناديه

فأطلق عقبه وثاقه ، فعرض عليه أن يهرب ليلحق بالجيش فى القيروان قائلا : « الحق بالمسلمين وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة » ! فردّ عليه قائلا ! « وأنا أيضا أريد الشهادة » ! فحمل عقبة وأصحابه على أعدائهم فقتل المسلمون جميعًا ، ولم يفلت أحد سوى محمد بن أوس الأنصارى الذى أسر وكان ذلك فى عام ٦٣ هـ

وهكذا كانت خاتمة حملة عقبة بن نافع ، التى اقتحم بها أمواج المحيط الأطلنطى ، استشهادًا أسطوريًّا خلّد ذكره فى التاريخ ، ولكنها كانت تضحية من سلسلة التضحيات العربية الكثيرة التى قدّمها عرب شبه الجزيرة لتكوين الأمة العربية الحالية !

٨ - طرد أوروبا من شمالى افريقيا

- ارتداد الفتوح الإسلامية فى شمالى أفريقيا مؤقتا .
- انتشار الإسلام بين البربر .
- حملة زهير بن قيس على تونس .
- استشهاد زهير بن قيس على يد البيزنطيين .
- حملة حسان بن النعمان الغسانى الأولى على تونس .
- هزيمة حسان بن النعمان على يد الكاهنة وطرده من أفريقية .
- استعادة البيزنطيين قرطاجنة .
- حملة حسان بن النعمان الثانية على تونس وانتصاره على الكاهنة .
- استعادة حسان بن النعمان قرطاجنة من يد البيزنطيين وتثبيت الدولة الإسلامية فى تونس .
- فتوح موسى بن نصير فى الجزائر والمغرب .
- حركة المد والجزر بين شمالى افريقيا وأوروبا .

٨ – طرد أوروبا من شمالى أفريقيا

وقف المؤرخون طويلاً فى تقييم حملة عقبة بن نافع التى وصل بها إلى المحيط الأطلنطى . فبينما نظر البعض إلى ما تخللها من أعمال بطولية ، نظر البعض الآخر إلى نتائجها ، فرأى أنها لم تقم على هدف معين . فلو كان الهدف الفتح والاستيلاء ، لأمّن عقبة ظهره وخطّ رجعته عن طريق تصفية أعدائه فى حصونهم ، ولما تركهم يتربصون به عند عودته ! . ولو كان الغرض نشر الإسلام ، لفعل عقبة كما فعل القادة العسكريون العرب السابقون عند فتح الشام ومصر . حيث كانوا يخيرون الناس بين الإسلام أو الجزية ، فإن أبوا كانت الحرب . ولكن عقبة كان ينقض على المدن محارباً ، ثم ينفض عنها دون الوصول مع أهلها إلى اتفاق معلوم . ويلومون عقبة لموقفه من كسيلة زعيم البرانس . ويقولون إنه كان يمكنه أن يستفيد منه كما استفاد عمرو بن العاص من قيرس فى مصر ، ولكن سياسته نحوه قذفت به وبقومه فى أحضان الروم .

وفى الحقيقة أن مجرد أن تطأ أقدام العرب أرض المغرب الأوسط والأقصى ، وتلمس سنابك خيلهم أمواج المحيط – يعتبر فى حدّ ذاته هدفًا جليلاً جديرًا بالاحترام . فقد رأينا من العرض السابق أن العرب كانوا يبدءون عادة بمثل هذه الغارات قبل الفتح الحقيقى والاستقرار النهائى ، فكانت أشبه بتمهيد الطريق لمن يجيئون بعدهم . ولا نعتقد أن عقبة بن نافع كان يجهل الشروط التى يجب توافرها فيمن يريد الفتح والاستقرار ؛ لأنه هو الذى بنى القيروان لتكون حاضرةً وقاعدةً عسكرية عربية تثوب إليها الحملات ، بعد أن كانت تثوب إلى برقة أو مصر . ولذا يرى بعض المؤرخين أنه حين توجه عقبة إلى تهودة ، حيث دارت المعركة التى قتل فيها ، إنما كان يهدف إلى الاستيلاء عليها وجعلها قاعدة لقواته فى منطقة الأوراس .

على كل حال فإن استشهاد عقبة وصحبه قد أثار الذعر فى قلوب العرب فى القيروان . وكان عقبة قد ترك عليهم زهير بن قيس البلوى ، فقرروا الانسحاب إلى مصر ، وعندما فشل زهير فى إقناعهم بالبقاء ، عاد إلى برقة . وأقبل كسيلة فاستولى على القيروان سنة ٦٤ هـ . وبذلك ضاعت جهود أربعين عامًا قضاها العرب فى غزو وفتح ، وخرجت أفريقية (تونس) من أيدى العرب .

على أن الموقف داخل أفريقية كان قد تغير فى تلك الأثناء . فكما رأينا كان الإسلام قد أخذ فى

الانتشار بين قبائل البربر البتر ، كما انتشر داخل البربر الذين كانوا يعيشون فى القيروان . وفضلاً عن ذلك فإن استشهاد عقبة بن نافع وأصحابه على تلك الصورة الأسطورية قد أثر تأثيراً كبيراً فى أهل البلاد ، فأخذ الكثيرون يعتنقون هذا الدين الذى يلهم أصحابه كل هذه الشجاعة .

وقد كان ذلك مما جعل عودة العرب إلى أفريقية أمرًا محتومًا . فقد أصبحت لهم رعية داخل البلاد يلزم تحريرها من حكم كسيلة . كما كان لهم مدينة عربية هى القيروان يلزم استردادها من يد الأعداء . بل كان لهم ثأر لابدّ من طلبه بسبب مقتل عقبة وأصحابه .

لهذا السبب ، وعلى الرغم من انشغال عبد الملك بن مروان بثورة عبد الله بن الزبير واضطرابات الشيعة فى عام ٦٩ هـ ، فإنه استطاع إمداد زهير بن قيس بجيش هام حشد له وجوه العرب ، الأمر الذى يوضح أن الخلافة الأموية أصبحت تنظر إلى أفريقية كبلاد إسلامية لا تقل فى ذلك عن الموصل والجزيرة !

وقد سار زهير بن قيس بجنوده لاستعادة القيروان فى عام ٦٩ هـ ، متخذًا الطريق الساحلى الذى سلكه عبد الله بن أبى سرح فى حملته الأولى ، حتى بلغ القيروان . فعسكر إلى جوارها ، وهدفه كسيلة . ولكن كسيلة غادر القيروان للتحصن فى «ممس» ، فرأى زهير مهادنة الروم حتى يتفرغ لقتال كسيلة ، وقبل الروم هذا التهادن على أمل أن تضعف الحرب الطرفين ، فتخلص لهم السيطرة على البلاد من جديد !. واشتبك جيش زهير مع جيش كسيلة ، وروح الانتقام لاستشهاد عقبة تسيطر على الجيش العربى ، فقتلوا كسيلة وكبار الزعماء فى بداية المعركة ، وسحقوا المقاومة البربرية سحقًا عنيفًا ، حتى أنه عندما فرّ نفر منهم إلى الجبال طلبًا للنجاة ، تتبعهم الجيش العربى وأعمل فيهم القتل .

ويعترف كثير من المؤرخين بأن هذه الموقعة فى «ممس» قد «كسرت شوكة البرانس ، وقضت على مقاومتهم ، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم» .

على أن الدولة البيزنطية كانت فى ذلك الحين تدبر لزهير بن قيس ، مع الروم الذين يعيشون فى البلاد ، مصيرًا مثل مصير عقبة بن نافع ! مستغلةً الخطأ الذى وقع فيه – وهو نفس الخطأ الذى سبق لعقبة أن وقع فيه ، وهو توسعه فى أفريقية دون أن يؤمنّ ظهره ليتفادى المفاجآت فى طريق عودته .

ففى أثناء انشغاله بقتال كسيلة ، أصدرت القسطنطينية تعليماتها بخروج حملة بحرية من جزيرة

صقلية ، أغارت على برقة ، «فأصابوا منها سبياً كثيرًا ، وقتلوا ونهبوا» !

وقد وافق ذلك عودة زهير بن قيس من غزوته ، وهى العودة التى يحتار المؤرخون فى تفسيرها بعدما أصاب من نصر واستعاد القيروان . ويرون أنه ربما اعتقد أن مهمته انتهت بالثأر لمقتل عقبة ، فترك بالقيروان حامية ، وعاد مسرعًا ليفاجأ بالغزوة البيزنطية على برقة . وفيما يبدو أنه لم يكن يتوقع حجم هذه الغزوة . فقد أمر عسكره أن يمضى فى طريقه ، واتجه بنفر قليل من جنده إلى الساحل لاستنقاذ الأسرى العرب من الروم ، وهناك شاهد ضخامة الحملة البيزنطية ، ولكنه شاهد أيضاً الأسرى العرب والبيزنطيون ينقلونهم إلى السفن ، وقد استغاث هؤلاء به ، فتملكته النخوة العربية ، ولم يشأ العودة إلى جنده لمعاونته على قتال الروم ، بل أمر من معه بالتقدم لإنقاذ الأسرى ، ولكن الجنود البيزنطيين كانوا ينصبون له كمينًا على الشاطئ ، ونشب القتال بين الفريقين . وانتهى باستشهاد زهير بن قيس وجنده استشهادًا لا يقلّ جلالاً عن استشهاد عقبة بن نافع . وكان ذلك عام ٦٩ هـ .

على هذا النحو خسر العرب قائدين كبيرين فى أفريقية فى فترة زمنية قصيرة . فاضطربت بعده بلاد المغرب اضطراباً شديدًا ، وسنحت الفرصة من جديد للدولة البيزنطية لاستعادة سيطرتها على أفريقية فى عهد جستنيان الثانى وخلفه «ليونتيوس» الذى تولى سنة ٧٥ هـ (٦٩٥ م) .

على أنها لم تهنأ طويلاً ، فكما أن مقتل عقبة بن نافع على يد البربر قد وجّه اهتمام العرب إلى الأخذ بالثأر منهم ، على نحو ما فعل زُهير بن قيس ، فإن مقتل زهير بن قيس على يد البيزنطيين ، وجّه اهتمام العرب لطلب الثأر منهم .

وكان هذا هو هدف حملة حسّان بن النعمـان الغسّانى التى أعدها الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ بعد أن انتهى من فتنة ابن الزبير . وهى أضخم حملة عربية شهدتها أفريقية حتى ذلك الحين ؛ إذ بلغ عدد الجيش أربعين ألف جندى . وكان أمل عبد الملك بن مروان من تعيين قائد قدير مثل حسان بن النعمـان إتمام هذا الفتح الذى انقضى عليه حتى ذلك الحين أكثر من نصف قرن دون أن ينتهى إلى نتيجة حاسمة !.

وقد رسم حسان بن النعمان لنفسه خطة العمل قبل خروجه ، وتستهدف القضاء على كل من الروم الأفريقيين والروم البيزنطيين . فاجتاز برقة وطرابلس سريعًا حتى وصل إلى سهل تونس والقيروان ، متجهًا مباشرةً إلى قرطاجنة ذاتها التى تتركز فيها المقاومة . وكانت الدولة البيزنطية قد عينت عليها فى تلك الأثناء حاكمًا مرهوب الجانب . ولكن الروم فيما يبدو قد فوجئوا بسرعة عودة

العرب قبل الاستعداد لمقاومتهم ، فقد سحق الجيش العربى مقاومة المدينة فى وقت قصير ، وطلب سكانها النجاة عن طريق البحر ، وسلموا المدينة . وكان هذا هو الفتح الأول للمدينة على يد حسّان بن النعمان .

على أنه لم يكد ينصرف عائداً إلى القيروان ، حتى عاد أهل المدينة إليها وأخذوا فى تحصينها وإصلاح أسوارها . فعاد حسّان للمرة الثانية . وحاصر قرطاجنة حصارًا شديدًا حتى دخلها بالسيف . وقام بتخريبها وهدم الكثير من مساكنها ، حتى لا تقوم لها قائمة .

ولم يكتف حسان بذلك ، بل انطلق لملاقاة الروم فى مدينتى بنزرت وصطفورة ، فألحق بهم الهزيمة ، ولم يترك موضعًا من بلادهم إلاّ وطئه . وبهذه الضربات الثلاث عاد حسان إلى القيروان ، مطمئنًا إلى أنه لن تقوم للروم بعدها قائمة .

على أنه قدّر لهذا الفاتح العظيم أن يلقى هزيمة منكرةً على يد زعيمة من زعماء البربر تدعى الكاهنة داهيا بنت ماتيه بن تيفان ، ملكة جبل أوراس وزعيمة قبائل جراوة من البتر ، التى رفعت راية العصيان حين سمعت بمسيرة حسان إليها . ويبدو أن العرب كانوا قد ارتكنوا إلى ما حققوه من انتصارات على الروم ، وقللوا من شأن الكاهنة وقومها . ولكنهم سرعان ما منوا بهزيمة ساحقة فى القتال ، وأسرت الكاهنة ثمانين رجلاً من كبار أصحاب حسان ، وأعملت فى الجيش العربى القتل الذريع . ولم تكتف بذلك ، بل تتبعت حسان وجيشه حتى أخرجته من حدود أفريقية !

وكما هى العادة حين يستفيد أحد الطرفين : الروم والبربر ، من هزيمة العرب ، فإن الروم سارعوا إلى الاستفادة من خروج حسان من أفريقية بعد هزيمته على نهر نينى ، فقد أعد الإمبراطور ليونتيوس ، حملة كبيرة تخير لقيادتها قائدًا من أشهر قادة الدولة ، وهو البطريق يوحنا **Patricius Jean** ، وجهز أسطولاً كبيراً لنقلها إلى أفريقية .

وقد ظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة ٧٨ هـ . (٦٩٧م) . وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر ، وطرد المسلمين الذين كانوا فيها ، وقتل منهم عددًا كبيرًا . ثم استمر فى قرطاجنة طيلة ذلك الشتاء .

وباستعادة البيزنطيين قرطاجنة ، وطرد حسان من أفريقية على يد الكاهنة – انتقضت أفريقية على العرب ، حتى لم يعد فى طاعتهم شبر واحد مما يلى قابس غربًا ! . فقد سيطرت الكاهنة فى الجنوب فى السهل الداخلى ، بينما اهتم البطريق يوحنا بإعادة الرباط الذى يمتد من سوسة إلى شقبنارية .

على أن اليأس لم يتسرب إلى الدولة الأموية من استعادة أفريقية من جديد مهما كانت التضحيات . فأعد عبد الملك بن مروان حملة أخرى أرسلها إلى حسان بن النعمان الذى استقر فى برقة فى ذلك الحين ، فزحف بها على أفريقية مرّةً أخرى سنة ٨١ هـ ، فاشتبك مع الكاهنة وجيشها ، وألحق بها الهزيمة عند بئر عرف باسم « بئر الكاهنة » . وبذلك قضى على آخر حركة مقاومة للبربر فى المغرب الأدنى .

ولكن بقيت قوة البيزنطيين فى قرطاجنة ، وإليها اتجه حسّان بن النعمان بجيشه لفتحها وطرد البيزنطيين منها ، ودارت معركة كبيرة بينه وبين الأسطول البيزنطى سقطت بعدها قرطاجنة . وبذلك خلصت أفريقية لحسّان ، فمع أن البطريق يوحنا توجه إلى بيزنطة ليعود منها بجيش أقوى ، إلاّ أن الظروف لم تسمح له بتحقيق هذا الغرض قط بعد أن تم الفتح العربى لأفريقية .

وفى الحقيقة أنه كان على يد حسّان بن النعمان تثبيت هذا الفتح . فقد سارع إلى بناء مدينة جديدة على البحر تشرف على مدخل قرطاجنة ، وهى تونس الحالية ، التى بنيت على بعد ١٢ ميلاً شرقى قرطاجنة ، ولم تكن تعدو قرية صغيرة ، فحوّلها حسّان إلى قاعدة بحرية تقلع منها الأساطيل ! وأنشأ بها ترسانةً برّيةً لبناء الأسطول العربى الجديد !. ثم اتجه إلى تنظيم البلاد إداريًا على نحو ما فعل العرب فى مصر والشام ، فأنشأ الدواوين ونظم الخراج ، وعمل على نشر الدين الإسلامى بين البربر ، واجتذب منهم كثيرين ، وجند منهم فى جيشه ، حتى يذكر بعض المؤرخين أن أكثر جيش حسان صار من البربر !.

وهذا يوضح أن موسى بن نصير حين خلف حسّان بن النعمان فى عام ٨٦ هـ (٧٠٧ م) كان الفتح العربى « لأفريقية » قد استقر ، ولم يبق سوى المغرب الأوسط (الجزائر الحالية) والمغرب الأقصى (المغرب الحالى) . وكان خط التقسيم بينهما هو مجرى وادى ملوية .

على أنه كان من الطبيعى أن تكون هناك إلى ذلك الحين جيوب مقاومة بين البربر مدعومة بالروم . وإليها وجّه اهتمامه أوّلاً لحماية ظهره أثناء تقدّمه غربًا . فقد ذكر المؤرخ ابن عذارى أنه بدأ ولايته بفتح قلعة زغوان ، وهى منطقة جبلية بين القيروان وتونس ، ليقضى على مجموعة موالية للروم يشكل وجودها خطرًا على القيروان . كما أرسل ابنيه عبد الرحمن ومروان إلى جهات أخرى لنفس الغرض .

وقد أحدثت هذه الحملات رجّةً كبرى بين قبائل البربر ، فتسابقت فى الخضوع له والدخول فى الإسلام . ثم خرج موسى بن نصير بنفسه على رأس جيشه واتجه غربًا إلى طنجة ففتحها ، وترك

فيها حاميةً على رأسها طارق بن زياد . ثم اجتاز نهر درعة ؛ لأول مرة فى تاريخ المغرب ، وأرسل حملةً تأديبية إلى سجوما . التى كانت تسكنها قبائل البربر التى اشتركت فى قتل عقبة بن نافع . وكان على رأس الحملة عياض وعثمان وأبو عبيدة من أبناء عقبة بن نافع فانتقموا لأبيهم شر انتقام وقضوا عليها قضاءً مبرمًا .

وهكذا أخضع موسى بن نصير المغرب الأقصى للعرب ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر .

ويقول بعض المؤرخين إن موسى بن نصير – وقد دانت له بلاد المغرب – لم يرخطراً من وجود هذه المدينة إلى جانبه ، بل رأى فى الإبقاء عليها ما يتيح له الاطلاع من خلالها على الأحوال السياسية عند جيرانه الأوروبيين ، الذين لا يفصلهم عن سبتة سوى مضيق من المياه أطلق عليه العرب اسم «بحر الزقاق» – وهو الذى عرف فيما بعد باسم «جبل طارق» .

على هذا النحو تم طرد أوروبا تمامًا من شمال أفريقيا ، كما تم طردها من قبل من الشام . فأصبحت منطقة شرق وجنوبى البحر المتوسط خاضعة للعرب ! .

وقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تطرد فيها أوروبا من شمال أفريقيا فى حركة المدّ والجزر التاريخية بين الطرفين . فربما كان مما يهم القارئ أن يعرف أن قرطاجنة نشأت فى الأصل على يد عرب هاجروا من البحرين قبل الميلاد ، وسكنوا فى جنوب سورية فى صور ، وأسسوا ما عرف باسم الحضارة الفينيقية ، ثم انتقل بعضهم إلى خليج تونس بعد تدمير «نبوخذ نصر» الكلدانى عاصمتهم ، واستقروا فى تلك المنطقة وأنشأوا قرطاجنة سنة ٨١٣ – ٨١٤ ق . م وأسّسوا حضارة عظيمة ، وأصبحوا سادة البحر المتوسط ، وبسطوا نفوذهم على ساحل إسبانيا ، وساحل صقلية ، والجزر المجاورة للساحل الإسبانى ! .

ثم وقع النزاع بين قرطاجنة وأثينا منذ عام ٥٥٠ ق.م ، ونشبت الحروب بينهما . ولكن قرطاجنة تغلبت على الإغريق ، وبسطت نفوذها على إسبانيا .

على أن قرطاجنة دخلت فى دور نزاع طويل مع روما فيما عرف باسم «الحرب البونية الأولى» (٢٦٤ – ٢٤١ ق م) ثم «الحرب البونية الثانية» (٢١٨ – ٢٠١ ق م) . وقد لعب هانيبال فى الحرب الأخيرة دورًا هامًا فى بعض مراحله ، فوصل إلى أبواب روما ، ولكن الرومان انتصروا عليه ، ثم هزموا قرطاجنة فى سنة ٢٠٢ ق م ، وفرضوا عليها معاهدةً تنازلت بمقتضاها عن أسطولها

وسائر مستعمراتها الأوروبية ، ولم يبق لها سوى ممتلكاتها فى أفريقية . . وبذلك ضاعت إسبانيا والجزر المجاورة لها وبعض سواحل إيطاليا من يد قرطاجنة .

وقد جاءت المرحلة الثالثة حين شنّت قرطاجنة الحرب على روما بقصد استرداد سيطرتها على أملاكها الأوروبية ، ولكنها هزمت فى القتال ، واحتل الرومان قرطاجنة للمرة الثانية ، ودمروها .

ومنذ ذلك الحين خضع شمال أفريقيا لأوروبا ، وتناوبته دولها . فقد بنت روما مدينةً جديدةً على أنقاض قرطاجنة منذ سنة ١٢٢ ق . م . ولكن قبائل الوندال عبرت جبل طارق ٤٢٩م من إسبانيا واحتلت قرطاجنة وانتزعتها من الرومان . ثم جاءت بيزنطة عام ٥٥٣ م فاستولت عليها ، ودان لها شمال أفريقيا كله . حتى جاء العرب بعد الإسلام لينتزعوا هذه المنطقة من جديد ، ويقلبوا حركة المد والجزر التاريخية مع أوروبا مرّةً أخرى لحساب العرب ، ويقتلعوا القدم الأوروبية التى استقرت فى المنطقة قبل نيف وثمانمائة عام .

على أن حضور العرب إلى منطقة شمال أفريقيا لم يكن حضورًا عاديًّا – أى حضور غزاة كما فعلت أوروبا . بل كان حضورًا أيديولوجيًّا ، أى حضورًا باسم الإسلام ؛ ولذلك غيّر العرب التركيب الاجتماعى والفكرى والسياسى لهذه المنطقة بما عجزت عنه أوروبا طوال ثمانمائة سنة سابقة ! .

فطوال وجود الروم فى هذه المنطقة لم تتأثر بالحضارة البيزنطية سوى بضعة قبائل قليلة تسكن نواحى «الزاب» وتحيط بالحاميات البيزنطية والمدن على طول الساحل الأفريقى . أما فى داخل البلاد فلم تمسّها الحضارة البيزنطية بتغيير كبير . ومع أن المسيحية دخلت البلاد فى القرن الثانى الميلادى ، واعتنقها نفر من بربر الأوراس ونوميدية ، وانتشرت فى إقليم الزاب على وجه الخصوص ، إلاّ أن الانقسامات المذهبية ، والاضطهاد الدينى من جانب بيزنطة ، جعل المسيحية آخر شىء يربط أهل أفريقية بالدولة البيزنطية . ولذلك لم يحدث إطلاقاً أن تحول أهل الشمال الأفريقى إلى بيزنطيين ! .

ولكن العرب فعلوا فى المنطقة ما عجز عنه البيزنطيون ، والرومان من قبلهم ، طوال حكمهم ، فقد حولوا أهل المنطقة إلى عرب ! وأصبحت أرض المنطقة جزءًا من الوطن العربى الكبير الذى ينتمى إليه سكانه الآن . وكل ذلك تم فى مدة وجيزة تثير الدهشة ، حتى أن أهل البلاد لم يتحولوا إلى الإسلام فحسب ، بل إنهم حملوا عن العرب مسئولية إتمام الفتوح ، وأصبح الجيش العربى

يتكون فى معظمه منهم ، ويقوده قوادهم ! وأشهرهم طارق بن زياد !.

وهذا ما جعل المؤرخين يقفون مبهورين أمام هذه الظاهرة الفريدة. فكتب أحدهم يقول : « هؤلاء (البربر) قوم يدافعون العرب عن بلادهم شبرًا شبرًا ، ويناجزونهم عن حريتهم مناجزةً لم يعهد العرب لها مثيلاً . فما هو إلاّ أن يطول القتال ، حتى ينشأ فى نفوس البربر إعجاب بهؤلاء الفاتحين البواسل ، الذين يكادون يشبهونهم فى كل شىء . ثم يظهر البربر شيئاً فشيئًا على طبيعة الرسالة الإنسانية التى يحملها الفاتحون إليهم ، فتبدأ نفوسهم تهوى للإسلام ، ويأخذ نفر منهم يشترك فى جيوشه المظفرة . ولا يكاد فتح المغرب يتم ، حتى نجد هؤلاء البربر الأمجاد يقودون العرب إلى الأندلس ، حيث يقيمون معهم صرح دولة من أمجد وأجل ما أنشأ المسلمون فى تاريخهم السياسى كله » .

٩ - حصار القسطنطينية الأول والثانى

- استعادة العرب أرمينية الرومانية٦٦١ م .
- الصوائف والشواتى فى آسيا الصغرى فى عهد معاوية .
- حصار القسطنطينية الأول ٦٦٩ - ٦٧٠ م .
- حصار القسطنطينية الثانى (حرب السنوات السبع ٦٧٤ - ٦٨٠) .
- الصراع العربى البيزنطى فى ظل الفتن الداخلية فى الدولة الأموية .

٩ – حصار القسطنطينية الأول والثانى

رأينا فى الصفحات السابقة كيف استولى العرب على شرق البحر المتوسط وجنوبه (الشام وشمال أفريقيا)، وكيف أخذوا فى الوقت نفسه يكونون قوّةً بحرية عربية، تدافع عن الممتلكات الجديدة ضدّ أسطول أكبر دولة أوروبية فى ذلك العصر، وهى الدولة البيزنطية، فتحاشوا بذلك المصير الذى آلت إليه الدولة الفارسية حين أغفلت إنشاء أسطول قوىّ يواجه البيزنطيين بعد استيلائها على الشام، فكانت النتيجة أن استردته منها الدولة البيزنطية بفضل أسطولها البحرى.

وفى ذلك الحين اتبع العرب خطة الهجوم كخير طريقة للدفاع، فبدأوا فى غزو شرقى البحر المتوسط، واستولوا على جزيرتى قبرص ورودس، وانتصروا على الأسطول البيزنطى فى أكبر موقعة بحرية دارت فى تاريخ العرب السابق كله، وهى موقعة «الصوارى»، التى أنهت أحلام أباطرة الدولة البيزنطية فى استرداد أملاكها فى شرقى البحر المتوسط، فلم تعد هذه الممتلكات، التى أصبحت فى يد العرب، تتعرض لخطر جدّى من أباطرة هذه الدولة، مما ساعد على تعريبها ودخولها فى نسيج الدولة العربية الجديدة.

على أن ذلك الاستقرار للعرب فى الشام لم يتحقق إلاّ بفضل سياسة معاوية بن أبى سفيان، الذى نقل العاصمة من المدينة إلى دمشق، فتغيرّ بهذا النقل اتجاه الدولة العربية الإسلامية عامةً، وتحولت من دولة قارّية إلى دولة بحرية تتوسع فى البحر المتوسط. ومعنى ذلك – وفقا لبعض المؤرخين – أن الأمر لم يكن تغيير موضع مركز الدولة العربية، بل تغيير اتجاهها!.

على أن النزاع بين علىّ ومعاوية على الخلافة عطّل خطط معاوية فى البحر المتوسط مؤقتًا، فلما استتبّ له الأمر أخذ يواصل اتجاهه الهجومى على الدولة البيزنطية فى خطيْن متوازيين: برًّا على الساحل الشمالى لأفريقيا، وبحرًا فى البحر المتوسط. وقد تعرضنا للشق الأول فيما سبق، ونتعرض الآن للشق الثانى .

كانت خطة معاوية طموحةً تستهدف القسطنطينية ذاتها!. وقد رأينا كيف أخذ يمهّد لذلك فى البحر المتوسط عن طريق غزو جزيرتى قبرص ورودس، وكيف أدّت الفتنة الكبرى، وانشغال

الدولة العربية بها ، إلى ضياع هاتين الجزيرتين . وبذلك تطلّب الأمر من معاوية تعزيز مركزه فى البرّ والبحر معًا .

وبالنسبة للبرّ ، فإن تأمين فتح الشام قد استدعى السيطرة على المناطق المتاخمة له من الشمال والشمال الشرقى ، بنفس الدرجة التى استدعت فتح مصر فى الجنوب والجنوب الغربى ! . وكانت المنطقة التى تقع فى الشمال والشمال الشرقى هى أرمينية الرومانية التى كانت تقع وراء الفرات ، وقد فتحها العرب ، ولكن الدولة البيزنطية استعادتها فى أثناء أحداث الفتنة الكبرى كما ذكرنا . وبذلك صار يتعيّن إعادة إدخالها فى التبعية العربية .

وهذا ما حدث عند تولّى معاوية الخلافة فى عام ٤١ هـ (٦٦١ م) . وفى العام التالى ٤٢ هـ سارت حملة بقيادة بسر بن أرطاة ، التقت بالروم عند قاليقلا ، وأنزلت بهم الهزيمة . وكان المقصود بهذه الحملة منع عودة الروم إلى أرمينية بعد أن استعادها العرب .

وقد مكّن استقرار الأمر للعرب فى أرمينية من توجيه الاهتمام إلى ميدان آسيا الصغرى نفسه ! . وهو آخر ممتلكات البيزنطيين غير الأوروبية . ولهذا الغرض عمل معاوية على تشييد خط منيع للحدود يكون حاجزًا بين بيزنطة وأرمينية ، ويستخدم مع الجبهة الشامية قاعدة للحملات الموجهة ضدّ آسيا الصغرى . فغدت هناك حاميات عربية عسكرية فى شمشاط وملطية وقاليقلا وسميساط .

كان معاوية قد قاد من قبل الحملات فى آسيا الصغرى ، وبذلك خبر مسالكها ، فاستأنف ما عرف باسم « الصوائف والشواتى » ، وهى الحملات الفصلية التى كانت تخرج من قواعد محصنة وتتوغل فى أرض الروم . وكان هدف معاوية من هذه الحملات أمرين :

الأول : شغل البيزنطيين فى عقر دارهم بدفاع متحرك غير ثابت .

والثانى : أن تكون هذه الحملات التى لا تنقطع مدرسةً للتدريب على الحرب ، يتخرج فيها الجيل الثانى من القادة العرب ! .

وبالفعل فقد حمل عبء هذه « الصوائف والشواتى » جيل جديد غير جيل الفاتحين الأوّلين ، يسميهم البعض « نابتة الفتح » ! . نشئوا على حب الجهاد والفروسية ، وسمعوا أحاديث المغامرات والانتصارات من آبائهم وإخوانهم ، مثل بسر بن أرطاة ، وسفيان بن عوف ، وفضالة بن عبيد الأنصارى ، وعبد الرحمن بن أم الحكم ، وجميعهم قادوا الحملات ضدّ البيزنطيين .

وقد انتظمت الحملات العربية على الحدود البيزنطية من سنة ٤١ هـ . إلى سنة ٦٠ هـ ، حتى أصبحت أراضى العدوّ لا تخلو من الحملات صيفًا وشتاءً . وبعد صائفتى سنتى ٤١ ، ٤٢ هـ ،

وجدت حملات استغرقت الصيف والشتاء ، وظلّ ذلك أربع سنوات من ٤٣ هـ إلى ٤٧ هـ . فقد غزا بسر بن أرطاة الروم صيفاً وشتى بأرضهم سنة ٤٣ . وجاء مشتّى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بأرض الروم سنوات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ هـ وقد أمضت هذه الحملة الطويلة شتاءها الأول فى كلوديوبوليس ، ثم انتقلت إلى إقليم أنقرة ، واستمرت فى غزوها فاستولت على مدينة « خيوس » ، و « برجام » وأزمير على الشواطئ الغربية لآسيا الصغرى .

كذلك غزا مالك بن هبيرة السكونى الأراضى البيزنطية ، واستمرت حملاته فى سنة ٤٧ هـ صيفاً وشتاءً . وفى سنة ٤٨ هـ كان مشتى ابن عبد الرحمن القينى بأنطاكية السوداء من بلاد الروم . وفى سنة ٤٨ كانت صائفة عبد الله بن قيس الفزارى !.

وكانت هناك حملات بحرية إلى جانب البرية . فنى سنة ٤٤ هـ غزا بسر بن أرطاة البحر ، كما غزاه مالك بن هبيرة السكونى ، ثم عقبة بن عامر الهجنى . وتحفل كتب المؤرخين العرب بالكثير من هذه الصوائف والشواتى ، وبتفاصيل كثيرة لا مجال لها فى هذا البحث .

وعلى كل حال ، فقد كان ذلك كله تمهيدًا لحصار القسطنطينية الأوّل عام ٤٩ — ٥٠ هـ (٦٦٩ : ٦٧٠ م) . فنى عام ٤٩ هـ . أعدّ معاوية جيشًا كبيرًا عيّن عليه ابنه يزيد للسير إلى القسطنطينية ، وبلغ من اهتمام معاوية بهذا الجيش أن ضمّ إليه عددًا هامًّا من القيادات العربية ، مثل ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير . ومن هذا الجيش الرئيسى كان هناك فريق من الفرسان المختارين على رأسهم سفيان بن عوف ، بل إن معاوية ضمّ لهذا الجيش صحابيًّا جليلاً هو أبو أيوب الأنصارى ، الذى استقبل الرسول فى بيته ، وذلك ليعطى الحملة طابع الجهاد الدينى .

وقد تحرك هذا الجيش فى خريف سنة ٤٩ هـ . ليصل تحت أسوار القسطنطينية عام ٥٠ هـ . ولم ترد إشارة فى المراجع إلى اشتراك الأسطول العربى فى عمليات الحصار . وفيما يبدو أنه اكتفى بنقل القوات العربية على ضفاف البسفور . فيذكر البعض أن الجيش العربى اجتاز المضايق عن طريق القوارب والمراكب . وإن كان البعض الآخر يتحدّث عن حصار من البرّ والبحر ! . وعلى كل حال فإن ما يهمنا هو الحدث التاريخى نفسه ، حيث نجد العرب ، الذين كانوا قبل الإسلام فى حالة تبعية أو شبهها للدولة البيزنطية ، يقفزون فى مدى نصف قرن فقط ، فيقفون على أبواب عاصمتها ويفرضون عليها الحصار !.

على أن الحصار لم يقدر له النجاح . فلم تكن القسطنطينية عاصمة عادية ، فقد قامت على بقعة أرض تلالية فريدة تشكل مثلثًا متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطئ الآسيوى ،

(خريطة رقم ١٢)

وتنعم بميناء طبيعى فى « القرن الذهبى » ، وهو خليج عظيم يبلغ طوله سبعة أميال على شكل قرن داخل الشاطئ الأوروبى ، يكفل لأساطيلها الحماية . فضلاً عن حصانة المدينة ذاتها ، إذ كانت تحيط بها المياه تقريباً من ثلاث جهات ، هى الشمالية والشرقية والجنوبية .

وعلى هذا النحو ، فقد أخذ العرب يهاجمون واجهة المدينة الشرقية حتّى القرن الذهبى دون أن يظفروا بالدنو من أسوارها وأبراجها المنيعة . وقد أبدوا فى هذا الهجوم من البسالة والشجاعة ما ظلّت الأجيال تذكره فيما بعد وتتغنى به ، وتذكر القصص أن يزيداً بن معاوية أظهر على أسوار القسطنطينية من القوة والجرأة ، ما أكسبه لقب «فتى العرب» !.

وقد مات أبو أيوب الأنصارى على أبواب القسطنطينية ، فدفن بالقرب من سورها . وكان قد شهد بدراً والمشاهد كلّها مع الرسول ، كما شهد صفين مع علىّ .

ولم تذكر المراجع أخبار انسحاب الجيش العربى بالتفصيل ، بعد أن تبيّن عجزه عن اقتحام أسوار المدينة ، ولكن القوات العربية عادت من حصارها للقسطنطينية دون خسائر كبيرة . على كل حال ، فإن الدرس الذى خرج به معاوية من فشل هذا الحصار الأوّل ، هو زيادة

الاهتمام بالأسطول العربى ، استعداداً للحصار الثانى الذى جرى بعد أربع سنوات فقط ، أى فى ٥٤ هـ !

وهذا الحصار الثانى للقسطنطينية يدخل التاريخ تحت اسم «حرب السنوات السبع» (٥٤ – ٦٠ هـ) . (٦٧٤ – ٦٨٠ م) . مما يوضح أنه استمر سبع سنوات !.

ولكن استعداد معاوية لهذا الحصار الثانى لم يمنعه من مواصلة «شواتيه وصوائفه» ، براً وبحراً . فقد تتابعت هذه الحملات تحت قيادة بسر بن أرطاة ، وسفيان بن عوف ، وفضالة بن عبيد الأنصارى وعبد الرحمن بن أم الحكم ، فى سنة ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ هـ . وقد قتل سفيان فى حملة سنة ٥١ هـ .

كما تتابعت الحملات البحرية ، إذ اتجه معاوية إلى استعادة ما فقده العرب أثناء الفتنة الكبرى . فاستعيدت رودس سنة ٦٧٢ م ، وأصبحت قاعدةً هامةً للعرب ، وسيصير لها دور كبير وأسطول دائم وتأثير كبير على بحرية البيزنطيين . كما استعيدت قبرس سنة ٦٦٩ م ، وأمكن للأسطول العربى الاستيلاء على جزيرة كيزيكوس **Cyzicus** لتكون مقرا لادارة الحملة على القسطنطينية . كما هوجمت جزيرة كريت .

وقد كان الهدف من استمرار هذه الحملات البحرية والبرية ، هو فرض السيادة والسيطرة العربية فى شرقى البحر المتوسط ، تمهيداً لحصار القسطنطينية الثانى .

فنى عام ٥٣ هـ . جهز معاوية بن أبى سفيان حملةً بحريةً تحت قيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ألقت مراسيها سنة ٥٤ هـ على ساحل كليكيا ، واشتبكت مع البيزنطيين فى قتال عنيف ، ثم اتخذت من جزيرة كيزيكوس – التى سبق ذكرها – قاعدة لعملياتها ، ينتقل منها الجنود إلى البرّ لمحاصرة القسطنطينية . وفى مطلع الربيع عززت قوات عبد الرحمن بن خالد لأسطول آخر . وظلت الأساطيل العربية تنقل الجنود أمام أسوار القسطنطينية ، بينما كان الأسطول العربى يكمل حلقة الحصار عن طريق الانتشار بين رأس هبدومون **Hebdomon** التى تبعد سبعة أميال عن أسوار المدينة ، وبين رأس كيكلوبيوس **Kiklobios** الواقعة قرب أحد أبواب العاصمة المعروف باسم «باب الذهب» .

وقد استمر الحصار البرّى والبحرى للقسطنطينية من إبريل إلى سبتمبر ، جرت خلاله المعارك بين كل من الأسطول العربى والأسطول البيزنطى من جهة ، وبين الجنود العرب والجنود البيزنطيين من جهة أخرى . وظلّت المعارك سجالاً بين الطرفين دون أن يحقق أحدهما الغلبة على الآخر .

وبحلول الشتاء ، رفع العرب الحصار ، وعادوا إلى قاعدتهم فى جزيرة كيزيكوس . ولكن بمطلع الربيع عادوا إلى فرض الحصار من جديد !.

وتختلف المراجع البيزنطية عن المراجع العربية ، فبينما تقول المراجع البيزنطية أن الحصار كان حول القسطنطينية ذاتها ، تقول المصادر العربية إن الحصار كان حول المنطقة البحرية من رودس إلى القسطنطينية . على أن بعض المؤرخين المحدثين يرى أن الروايتين متكاملتين ، إذ فرض العرب نوعًا من إغلاق تلك المنطقة عن طريق اقتناص السفن البيزنطية فى عرض البحر وتدميرها !.

وعلى كل حال ، فعلى هذا النحو تكرر حصار القسطنطينية على مدى سبع سنوات متواصلة !. إذ كان الأسطول العربى ينقل الجنود عند مطلع كل ربيع إلى أسوار القسطنطينية لفرض الحصار عليها ، فى حين يكمل هو الحصار من البحر كما وصفنا – وفى الشتاء يعود فينقل الجند إلى جزيرة كيزيكوس . ويقال إن المسلمين هاجموا جزيرة كريت مرةً أخرى فى عام ٥٩ هـ – ٦٧٩ م ؛ وربما أمضوا الشتاء هناك !

وعلى هذا النحو شلّ العرب فاعلية الدولة البيزنطية ، وألهوها بالدفاع عن عاصمتها ، حتى لا تبادر بمهاجمتهم . ففى خلال حصار القسطنطينية لم تكف الحملات البرية عن الخروج إلى آسيا الصغرى ، وقد روت المراجع الإسلامية أسماء القادة المسلمين الذين خرجوا على رأس هذه الحملات ، ومنهم سفيان بن عوف الأزدى ، وجنادة بن أبى أمية ، ومالك بن عبد الله الخثعمى ، وعبد الله بن قيس الفزارى ، ومحمد بن مالك ، ومعن بن يزيد السلمى . وكانت هذه الحملات تخرج صيفًا وشتاءً فى شكل صوائف وشواتى . وفى سنة ٥٩ هـ أرسلت حملة إلى كمخ استولت عليها ، وأمنت مدخل أرمينية من أرضروم . وكانت بقيادة عمير بن الحباب السلمى .

وفى الوقت نفسه كانت هناك حملات بحرية تساند حصار العرب البرّى للقسطنطينية وكان لأسطول الشام نشاط فى هذه العمليات . وفى إحدى هذه الحملات لقى يزيد بن شجرة الرهاوى مصرعه مع عدد من رفاقه .

على أن القسطنطينية أثبتت للعرب مدى سوء تقديرهم لمناعتها . وفى الوقت نفسه فإن هذا الخطر العربى الداهم على المدينة ، قد أثار فى نفوس أبنائها الشجاعة والاستبسال للدفاع عن دينهم وحضارتهم . وتقول بعض المصادر ان أهم عامل أنقذ المدينة ، هو « النار الإغريقية » التى كان قد توصل إليها سورى نازح إلى القسطنطينية يدعى كالينوكوس . فقد كانت السفن البيزنطية تقذف بهذه النار العرب ، فتفتك بسفنهم وصفوفهم ، ولا يطفئها الماء بل تزداد اشتعالاً .

غير أن مصادر أخرى ترى أن السبب فى فشل العرب أمام أسوار القسطنطينية يرجع إلى موقعها الجغرافى وطبيعة التيارات المائية التى تحيط جهاتها الساحلية .

وفى تلك الأثناء كان معاوية قد بدأ يحس بدنو أجله ، وكانت الجهود المضنية للجيوش العربية المحاصرة قد استنزفت كثيرًا من قوتها ، حيث يقدر البعض عدد من فقد من العرب فى تلك المعارك المشهودة بثلاثين ألف رجل ! ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع البيزنطيين لسحب قوات الحصار ، وأرسلت القسطنطينية إلى دمشق وفدًا لهذا الغرض على رأسه البطريق يوحنا . وقد نجحت المفاوضات فى توقيع صلح بين الدولة العربية والدولة البيزنطية مداه ثلاثون عامًا فى بعض المراجع ، وفى بعضها الآخر أربعون عامًا .

وهكذا انتهى حصار القسطنطينية الثانى ، وانسحب الأسطول العربى من مياه البوسفور وبحر إيجه . وتم هذا الانسحاب عند إخلاء جزيرة رودس وفقاً لرواية المؤرخين العرب .

على كل حال ، إذا كان العرب لم يدخلوا القسطنطينية ، فإنهم شاهدوا بيزنطة تحت الحصار ، وهى عاصمة العالم الغربى فى ذلك الحين ! واستعرضوا عضلاتهم أمامها ! وأجبروا أهلها على الاحتماء داخلها والوقوف موقف الدفاع ! . وإذا كانوا قد فشلوا فى هذه المرة فإن هدف فتح القسطنطينية سوف يظل مطمحًا من المطامح العربية سنراهم يحاولون تحقيقه بعد ٣٦ عامًا أخرى !

على كل حال ، فإن سحب القوات العربية من أمام القسطنطينية عام ٦٠ هـ ، وإبرام الصلح مع البيزنطيين ، جاء فى وقت مناسب جدًا . فنى ذلك العام توفى معاوية ، وتولى ابنه يزيد الخلافة وسط معارضة من بعض رجالات العرب ، وعلى رأسهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . وقد ترتب على هذه المعارضة انقسام آخر فى الدولة العربية يشبه الانقسام الذى وقع أثناء الفتنة الكبرى بين علىّ ومعاوية ، واتجه الأمويون إلى إخماد الفتن الداخلية . بينما وقع انقسام آخر داخل البيت الأموى نفسه عقب وفاة يزيد ، وتخلى ابنه معاوية الثانى عن الخلافة ، وتولى مروان بن الحكم الخلافة مسجلاً انتقال الخلافة من البيت السفيانى إلى البيت المروانى .

على أن سياسة البيت المروانى تجاه الروم لم تتغير عن سياسة البيت السفيانىّ فى الاهتمام بالأسطول العربى وتدعيم قواعده فى البحر المتوسط . ولكن انشغال الدولة العربية بالفتن الداخلية أطمع الدولة البيزنطية ، فقد نقضت الصلح مع معاوية سنة ٦٥ هـ . (٦٨٥ م) بهجومها على ملطية ومرعش . وقد عقد معها عبد الملك بن مروان صلحًا ثانياً سنة ٦٦ هـ ، ولكنها نقضته بعد

ثلاث سنوات ! فاضطر إلى إرسال جيش إلى آسيا الصغرى اكتسح كبادوكيا ، واستأنف جهاد البيزنطيين «الذى ركد خمسة عشر عامًا» !. وأعاد حملات الشواتى والصوائف من جديد .

وهكذا عاد الصراع بين العرب والدولة البيزنطية من جديد . وهو صراع كانت أحوال الفتن الداخلية داخل الدولة العربية قد أدت إلى وقوف الطرفين على قدم المساواة ، يتبادلان الانتصارات والانكسارات . ولكن فى كل مرة كانت تستقر فيه أحوال الدولة العربية ، كانت تحقق الانتصارات المتوالية على البيزنطيين .

ففى أواخر أيام عبد الملك بن مروان ، عهد إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك وإلى ابنه العباس بن الوليد بقتال الروم . فأظهر كلاهما مقدرةً حربيةً فى قيادة الحملات ، خصوصًا مسلمة الذى كان أبوه يسميه «ناب بنى أمية» ! ولم تكن هذه الحملات يقصد بها التهديد فقط ، بل كانت – كما يقول المؤرخون لدكّ حصون العدو ومدنه المسلحة ، وإنشاء حصون جديدة ، مما أدى إلى امتداد النفوذ العربى فى آسيا الصغرى .

ولعل أهم المعارك بين العرب والبيزنطيين فى تلك الفترة هى التى جرت فى سنة ٨٨ هـ ، وخلدها الشاعر جرير ، وكانت حول حصن «طوانة» مفتاح الطريق الهام بين الشام والبوسفور وأهم معاقل كبادوكيا . وكانت تقع إلى الجنوب من كيليكيا ، وتسدّ ممر طوروس . وقد حاصرها العرب بالمنجنيقات لمدة تسعة أشهر ! ، وبلغت خسائر البيزنطيين فيها حوالى خمسين ألفًا عدا الأسرى . وكان على الجيش العربى مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك . وانتهى الحصار بفتح طوانة .

وعلى هذا النحو أثبت الأمويون أنهم أكثر الناس فهمـا لواجبات الخلافة فى الدولة العربية الإسلامية ، بعد أن ورثوا من الدولة البيزنطية الشام ومصر ، فقد واصلوا الحرب ضدّ عدوهم البيزنطى ، وسعوا لتوطيد سيطرتهم على البحر المتوسط ، واستمر ضغطهم على العدوّ برًّا وبحرًا ، وأجبروه بصفة غالبة على اتخاذ موقف الدفاع ، فقدّموا الدليل – فى رأى كثير من المؤرخين – على مواهبهم الحقيقية كرجال دولة ، كما قدّموا الدليل على أنهم رجال حرب لا يكلّون ولا يملّون . وسوف يكون حصارهم الثالث للقسطنطينية قمّة إصرارهم على غزو أوروبا كما غزوا من قبل آسيا وأفريقيا !.

١٠ - حصار القسطنطينية الثالث

- التحرشات بين العرب والبيزنطيين فى عهد الوليد بن عبد الملك .
- حصار القسطنطينية الثالث فى عهد سليمان بن عبد الملك .
- عمر بن عبد العزيز يأمر بفك الحصار عن القسطنطينية ٧١٨ م .

١٠ – حصار القسطنطينية الثالث

اهتم المؤرخون الغربيون طويلا بحصار القسطنطينية الثالث ، باعتباره نقطة تحول بارزة فى تاريخ العلاقات بين العرب وأوربا ، بل ربما كان أبرز نقاط التحول فى هذه العلاقات . ودارت الخلافات فيما بينهم فى تقييم أهمية هذا الحصار بالمقارنة بينه ، من حيث نتائجه ، وبين المعارك الحاسمة الأخرى فى التاريخ ، مثل معركة « لابواتييه » التى ستعرض لها فيما بعد . وإن كانت أهمية هذا الحصار من وجهة نظرنا تتمثل فى حدوثه أصلا ! ، ومغزى هذا الحدوث فى تبيان الجرأة التى كانت تهاجم بها الدولة الأموية أوروبا فى عقر دارها ، وفى قلب عاصمتها ! ، بعد أن كان العرب قبل الإسلام مجرد بدْو يعيشون حالة التبعية والخضوع لأوروبا أو للفرس . وإن كنا لسنا بحاجة لتكرار أن هذه السياسة التى اتبعتها الدولة الأموية ، قد وضع أسسها رسول الله الذى رسم للمسلمين سياسة « الهجوم خير وسائل الدفاع » ! .

وفى الحقيقة أن فشل حصار القسطنطينية الأوّل فى عام ٤٩ هـ (٦٦٩م) ، ثم فشل الحصار الثانى ، الذى دخل التاريخ باسم حرب السنوات السبع من عام ٥٤ هـ إلى ٦٠ هـ – لم يصرف الدولة الأموية عن التفكير فى مشروعها الكبير بغزو القسطنطينية ، وترقب الفرص لذلك ، وكانت جيوشها تفتح الشمال الأفريقى وتقوم بتعريبه ليصبح جزءا لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير الذى نعيش فيه الآن .

وقد سنحت هذه الفرصة بعد ثلاثين عاما من الحصار الثانى . ففى ذلك الحين كانت الدولة الأموية قد بلغت ذروة مجدها الحربى ، وكان الوليد بن عبد الملك قد ارتقى عرش الخلافة بعد أبيه فى عام ٨٦هـ ، ليجنى ثمرات جهاد أبيه فى الداخل ، وليبدأ فترة جديدة من الفتوحات الكبيرة . وكان على رأس أهدافه ، فتح القسطنطينية .

وقد عهد الوليد إلى أخيه مسلمه بن عبدالملك ، وإلى ابنه العباس بن الوليد قتال الروم – كما ذكرنا – فأخذت الغزوات تتوالى من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ هـ ، تمهيدًا لحصار جديد للقسطنطينية . وكانت هذه الغزوات مدرسة لتخريج القادة العسكريين . فظهر اسم عبدالعزيز بن الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٠ م) ، وكان على الجيش مسلمة . وظهر اسم عمر بن الوليا

بجانب مسلمة أيضًا . وظهر اسم مروان بن الوليد سنه٩٣ هـ . ثم ظهر اسم العباس بن الوليد فى سنة ٩٥هـ .

وقد استطاع العرب بهذه الحملات التوغّل فى أرض الدولة البيزنطية تدريجيًا . وإن كان هذا التوغل قد كلف العرب دماءً وتضحيات كبيرة . فيذكر المؤرخون عن عام ٩٥ هـ . مثلا أنه قتل بأرض الروم الوضاحى ونحو ألف رجل معه . . ! .ولكن فى العام التالى ٩٦ هـ . كان جيش مسلمة يتوغل إلى مدى أبعد فى آسيا الصغرى . وفى عام ٩٤ تحرك الأسطول العربى فى حملة على قبرص ، بسبب عدم استقرار الأمر فى الجزيرة . كما تعرضت كريت أيضا للهجوم من نفس الحملة ، وهكذا كان التدريب على غزو القسطنطينية يتم بغزوات حقيقية ، وليست مناورات مصطنعة .

فى ذلك الحين كانت أحوال الدولة البيزنطية تشجع العرب على القيام بغزوهم الثالث لعاصمتها . ذلك أن الصراع على العرش قد اشتد حتى عزل من قياصرتها ستة فى نحو عشرين عامًا ، وتعاقب على عرشها ثلاثة من القياصرة المغتصبين فى ستة أعوام فقط ! . بينما اقتحم البلغار والصقالبة أقاليمها الشمالية ، وأشرفوا على أسوار العاصمة ، واقتحم العرب آسيا الصغرى -كما رأينا- وامتدت غزواتهم إلى البوسفور .

وقد أدى ذلك إلى مصانعة أباطرة القسطنطينية خلفاء الدولة الأموية ! . ففى إحدى الاشتباكات مع الأسطول العربى سنه ٩٠ هـ (٧٠٩م) ، وقع أمير البحر العربى خالد بن كيسان أسيرًا فى يد الأسطول البيزنطى ، ولكن الإمبراطور البيزنطى أعاده إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ليخطب ودّه ! .

على أن الوليد فى ذلك الأثناء كان يعد أضخم حملة بحرية وبرية لغزو القسطنطينية ، نصّب عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك . ذلك أن غزو هذه العاصمة البيزنطية كان يبدو فى ذلك الحين انجح السبل للتخلص من الخطر البيزنطى على الدولة العربية الفتية .

ولكن فى سنه ٧١٤ م ترامت إلى العاصمة البيزنطية أخبار هذه الاستعدادات الهائلة ، فأوفد أنستاسيوس الثانى وفدًا إلى دمشق تحت ستار مفاوضة الأمويين فى عقد هدنة ، وكان رئيس هذا الوفد حاكم مدينة سينوب ، وهو من الشخصيات الكبيرة التى تعتمد عليها الدولة البيزنطية . وذلك لاستطلاع حجم هذه الاستعدادات . وقد عاد هذا الوفد ، يؤكد هذه الاستعدادات ، وينذر بخطر الحصار العربى الجديد .

وقد شرع الإمبراطور انستاسيوس عقب ذلك فى الاستعداد . فأخذ يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية ، وعيّن على الإقليم الشرق لشبه الجزيرة – وكان يطلق عليه اسم البند الأناضولى – قائدًا هامًّا من كبار القواد العسكريين . يعرف باسم ليو الأيسورى . وفى الوقت نفسه أصدر اوامره إلى شعبه بتخزين مئونة ثلاث سنوات ، وعدم مغادرة العاصمة ، وملء الخزائن بالقمح . كما أخذ فى تجديد أسوار المدينة وتسليحها بالمجانيق وغيرها من أدوات مقاومة الحصار .

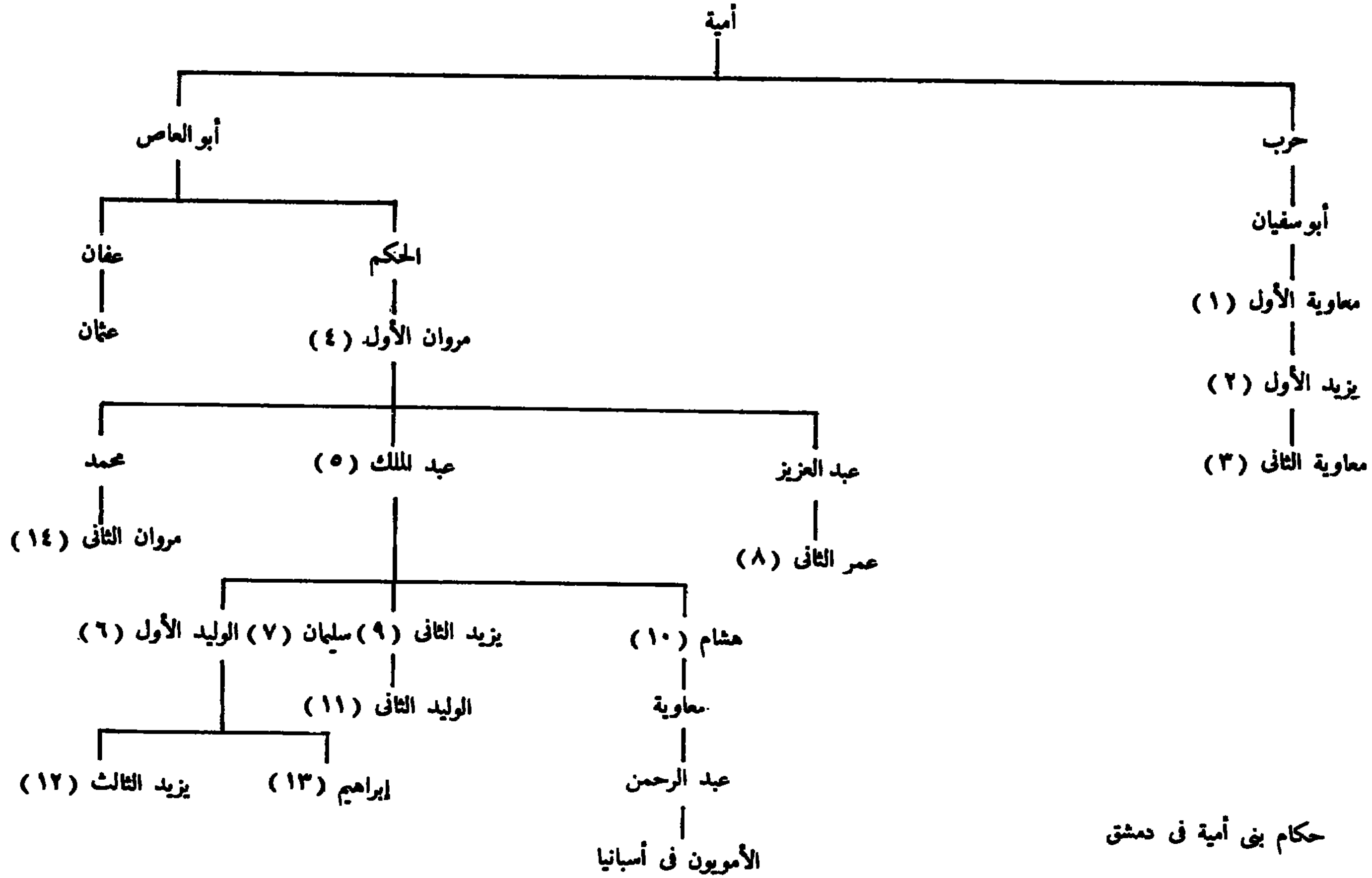
وفى تلك الأثناء توفى الوليد بن عبدالملك ، وخلفه سليمان بن عبدالملك . وقد تابع هذا سياسة أخيه بحماس كبير لتحطيم القوة الأوروبية ، وأخذ يستعد لحملته استعدادًا هائلاً . فلتكوين أسطول ضخم يستطيع نقل هذا الجيش وفرض الحصار ، عمد سليمان إلى عمل التنسيق اللازم بين أسطول الشام وأسطول مصر . فأبحر أسطول من مصر إلى الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن جديدة فى دور الصناعة بمصر . وقد عهد الإمبراطور البيزنطى إلى جند الأبسيق (إقليم العاصمة البيزنطية) وهى فرق الحرس الإمبراطورى ، وأشدّ الفرق بأسا ، بمهاجمة هذا الأسطول ، ولكن هذه الفرق شقّت عصا الطاعة على الإمبراطور حين وصل الأسطول الذى يقلّها إلى رودس ، وعادت إلى القسطنطينية فعزلت الإمبراطور وعيّنت مكانه تيودوسيوس الثالث ! .

فى تلك الأثناء استكمل سليمان بن عبدالملك استعداداته ، فكوّن جيشًا من أضخم الجيوش الاسلامية من أهل الشام والجزيرة والموصل ، وبنى اسطولاً من أهل مصر وأفريقية . وزحف سليمان بن عبد الملك من القدس إلى دمشق ثم إلى مرج دابق ، وأعطى الله عهدًا ألّا يغادره حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية ! . وبنى معسكره فيه واتخذه قاعدة لتدبير أمور الحملة الكبيرة الموجهه إلى العاصمة البيزنطية .

وفى سنه ٩٨ هـ (٧١٦م) تحركت الجيوش العربية من الشام تحت إمرة مسلمة بن عبدالملك ، وعلى أركان حربه الفارس الشهير عبد الله البطال ، ومعه سليمان بن موضح الأنطاكى . وسلكت الحملة طريق مرعش من ناحية الشام ، وأخذت فى اختراق هضاب الأناضول ، وهى تفتح فى طريقها المدن والمواقع الحصينة . ودارت المعارك الحربية فى عمورية ، ونيقية ، وبرجاس ، وساردس . .

ووفقا للروايات البيزنطية ، فإن الحملة العربية بدأت بمحاصرة عمورية (أموريوم) قاعدة الأناضول . وكان عليها ليو الايسورى الذى سلف ذكرة . وكان جنديا قديرا ، ولكنه طامع فى

خريطة رقم (١٣)



حكام بنى أمية فى دمشق

عرش القياصرة ، فدخل فى مفاوضات مع جيش مسلمة لرفع الحصار عن عمورية ، والتوجه إلى القسطنطينية ، لتمهيد الطريق للعرب لدخولها ، وتنصيبه امبراطورا عليها .

وبالفعل ، فقد رفع مسلمة الحصار ، وخرج ليو الايسورى الذى أعلن نفسه قيصرا فى عمورية ، على رأس قواته صوب القسطنطينية ، وهزم الجيش الذى وجهه إليه تيودوسيوس الثالث ، ثم دخل العاصمة البيزنطية ظافرًا ، وتوّج إمبراطورا للدولة الرومانية الشرقية باسم ليو الثالث فى مارس ٧١٧م .

على أن ليو الثالث لم يلبث أن نقض عهده للعرب بعد وصوله إلى العرش ، بل يرى بعض المؤرخين أنه لم يكن ينوى الوفاء بهذا العهد منذ البداية . وأخذ فى تحصين القسطنطينية ، مستغلاً معرفته بخطط العرب !

وفى ذلك الحين كان الجيش العربى يخترق آسيا الصغرى ، فاستولى فى طريقة على ساردس وبرجام (مدينة الصقالبة) ، وأخذ السكان يهربون أمام الجيش العربى ، بينما كان الأسطول العربى ينقل المقاتلين ويتوجه بهم إلى بحر مرمرة . وبعد خمسة أشهر من تتويج ليو وصلت قوات مسلمة بن عبدالملك إلى أسوار القسطنطينية ، وبعدستة عشر يومًا ، وصل الأسطول العربى إلى مياه البسفور . وكان الجيش العربى قد عبر البحر عند أبيدوس ، إلى ضفة الدردنيل الأوروبية ، وسار على ضفاف بحر مرمرة حتى القسطنطينية ، وأمر مسلمة جنوده بحفر خط من الخنادق يمتد من البحر حتى القرن الذهبى ، كما أمر الأسطول بأن يلقى مراسيه على مقربة من أسوار المدينة فى بحر مرمرة ومضيق البسفور ؛ لأن القرن الذهبى كان مغلقًا بالسلاسل . وهى أول إشارة لإغلاق القرن الذهبى بهذه الطريقة كما يقول المؤرخون .

وهكذا فرض مسلمة بن عبدالملك الحصار على القسطنطينية من البحر والبر . وأمر بتخزين الطعام « حتى صار كالجبل » ! ، وحظر على الجنود الأكل منه ، وطلب منهم أن يغيروا فى أرض العدو ، ويزرعوا . وعمل بيوتًا من خشب . فأقام المسلمون يأكلون مما أصابوا من الغارات ، حتى أكلوا من الزرع .

وقد أراد مسلمة اقتحام المدينة عنوة ، فنصب عليها المجانيق الضخمة ، وأخذ فى مهاجمتها ، ولكن ردّته مناعة الأسوار ، ومهارة المهندسين البيزنطيين ، وتوفر أدوات الدفاع لدى العدومن قاذفات النار الإغريقية والأحجار .

وقد انقسم الأسطول العربى قسمين : قسم رابط على الشاطئ الأسيوى فى ثغرى أتربيوس

وانتيموس ، لقطع طريق الإمدادات الآتية من بحر إيجة . والقسم الآخر اتجه إلى ساحل البسفور الأوروبى الشمالى لقطع كل صلة للمدينة بثغور البحر الأسود ، ولاسيما طرابزون .

على أن التيار المائى الشديد المتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة سبب كارثة للأسطول العربى أثناء اتجاهه إلى احتلال مواقعه فى مدخل البسفور الشمالى . فقد أغارت الرياح ، التى كان أمير البحر العربى سليمان يعتمد عليها فى مساعدة سفنه على الوصول إلى اتجاهها ، فجأة ، وعصفت به الريح والموج عصفًا شديدًا ، فاختل سير السفن ، واصطدمت ببعضها البعض ، وانتهز البيزانطيون الفرصة ، فأرسلوا سفنهم المحملة بالنار الإغريقية لنشر الفوضى فى صفوف الأسطول العربى ، فأحرقوا بعض السفن ، ودفعوا بالبعض الآخر إلى أسفل السور .

عند ذلك قرر سليمان ، أمير البحر العربى ، تحويل الهزيمة إلى نصر ، فحشد أقوى سفنه ، وزودها بفرقة من خيرة جنده ، وزحف على أسوار المدينة . ولكن ليو الثالث كان حذرًا ومستعدًّا ، فرد المهاجمين بسيل من النار الإغريقية . واضطر سليمان إلى سحب أسطوله المرابط فى الشاطئ الأوروبى إلى خليج سوستينيان .

على أن مسلمة صمّم على محاصرة القسطنطينية برًّا رغم بقاء جبهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة ، واستعد لحصار صارم . ولكن مّرة أخرى فإن الأحوال الجوية الرديئة فى الشتاء سببت متاعب عظيمة للجيش العربى . فقد غطى الثلج وجه الأرض لمدّة مائة يوم تقريبا ، مما لم يتعوده العرب ، فاشتد عليهم الضيق ، وهلك الكثير من خيلهم وبغالهم وجمالهم . ولكن مسلمة استمر فى فرض الحصار ! .

وفى الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية . فقد جاء أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وجاء اسطول آخر من أفريقية (تونس) تحت إمرة شخص يدعى يزيد . ووصلت نجدات برّية اضطلعت بمهاجمة شواطئ البسفور البحرية لتحول بين سفن الروم والخروج إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه . واستخدمت القوات العربية لأوّل مرة النفط فى القتال ، ووثبت هذه القوات مرة أخرى على القسطنطينية ليلا حتى غطت سفنها وجه البحر . ولكن هبّت ريح عاصفة أتلفت كثيرا من السفن وأغرقت الكثيرين من المقاتلين ! .

ثم جاء العام الثانى لحصار القسطنطينية . ولكن ليوكان فى ذلك الحين قد عمل على تحصين المدينة مستفيدًا من قتال العام الأوّل ، ثم دخل الشتاء بقرّه ، وكان شديدًا قاسيًا كسالفه . فلبثت المناطق المحيطة بالمدينة لمدّة أسابيع مغطاة بالثلج والجليد ، ومات كثير من الجنود ضحية للبرد ،

ونفقت معظم الخيل والدواب ، وأفسدت ندرة الأقوات والسعى للحصول عليها نظام الصفوف . واضطر الجيش إلى أكل البهائم التى تعرضت للموت بردًا . ويعلّق المؤرخ « أومان » على مالاقاه المسلمون من البرد القارس قائلا : « استطاع ليو الثالث أن يفخر مثل القيصر نيقولا فيما بعد (أثناء حملة نابليون) بأن ديسمبر ويناير وفبراير كانوا أعظم قواده » !

بل لقد تعرض المسلمون لهجوم البلغار ، الذين يسميهم مؤرخو العرب « برجان » ! . فقد أغار البرجان ، أو البلغار ، على مسلمة بن عبدالملك وهو فى قلّة من الناس ، فأمدّهم سليمان بن عبدالملك بمسعدة وعمرو بن قيس فى جيش ، حتى انهزموا بعد أن استشهد شرحبيل بن عبدة.

وقد تلقى مسلمة الإمداد خلال الصيف ، فجاءت حملة بقيادة داود بن الخليفة سليمان ، وظل حتى نهاية حصار القسطنطينية . كما تحرك جيشان للعمل فى آسيا الصغرى ، أحدهما بقيادة الوليد بن هشام المعيطى ، والأخر بقيادة عمر بن قيس الكندى . ولكنها لقيت هجومًا شديدًا من الروم .

وفى الوقت نفسه فإن عجز الجيش العربى عن تطويق الجبهة الشمالية للعاصمة ، كما فعل بالنسبة للجبة الجنوبية – قد مكّن العاصمة من الاتصال بسواحل البحر الأسود ، التى أمدتها بحاجتها من الغلال والمواد الغذائية ، التى حرمت منها بانقطاع مصادر تموينها فى الجنوب المحاصر. وعلى ذلك ، ففى الوقت الذى كان الجيش العربى يعانى من عجز التموين وندرة الأقوات والبرد القاسى وأهوال الجليد كانت العاصمة البيزنطية تعيش فى حال أفضل داخل الأسوار وداخل المنازل ! .

وفى تلك الأثناء توفّى الخليفة سليمان بن عبدالملك فى ١٠ صفر ٩٩ هـ وتولى بعده الخليفه عمر بن عبد العزيز ، ولم يكن يميل إلى مواصلة سياسة الفتوح لما تكلفه من أرواح ونفقات ، فحدث تحوّل مغاير للسياسة الأموية التى افتتحها معاوية مؤسس هذه الدولة . وكتب إلى مسلمة بن عبدالملك يأمره بفكّ الحصار عن القسطنطينية فى ١٥ أغسطس ٧١٨ م .

وانتهت بذلك أعظم حملة شنها العرب على عاصمة الدولة البيزنطية .

لقد بلغت قوة هذه الحملة وفقًا لإحصائيات ميشيل السورى والمسعودى وغيرهما من المؤرخين نحو مائتى ألف فارس ! . وكانت دواب الحمل ستة آلاف جمل ، ومثلها من الحمير ، ومالا يحصى من الخيل ! . وقد قدر البعض الآخر عدد هذه القوات بمائة وعشرين ألفا ، وهو بدوره رقم كبير . أما الأسطول فقد تألف من خمسة آلاف سفينة ، وإن كان فازيلييف يعطى رقما أكبر هو ثمانية عشر ألفا ! فكانت هذه الأرمادا أعظم ما استطاع العرب حشده لهزيمة أوروبا وفتح

عاصمتها . وقد عاد من هذه الحملة ثلاثون ألفا فقط ؟ وتعرض الأسطول فى عودته لعاصفة فى بحر إيجه أغرقت معظم سفنه .

وقد حاول بعض المؤرخين إلقاء اللوم على مسلمة بن الوليد لفشل هذه الحملة ، بدعوى أنه كان قليل الخبرة بفنون الحرب مغرورًا ، ولم يكن بين معاونيه ضباط من الطراز الأول ! ولكن هؤلاء المؤرخين يغفلون أثر الظروف الطبيعية ، التى هزمت جيش نابليون فيما بعد ! كما يغفلون حقيقة أن الدولة البيزنطية كانت دولة قوية ، بل أكبر دولةأوروبية فى ذلك الحين ، وهى ذات خبرة قديمة بالقتال وأدواته فضلا عما وفرته من مقاومة لمواجهة الغزاة .

وقد كانت هذه الحملة من الحملات الحاسمة فى العلاقات بين العرب وأوروبا ، فلم تر عاصمة الدولة البيزنطية بعدها جيشًا عربيًّا أمام أسوارها إلاّ بعد أكثر من نصف قرن ، أى فى عام ٧٨٣م بقيادة هارون الرشيد ، ولم ترجيشًا إسلاميًّا آخر تحت أسوارها إلا بعد سبعة قرون . عندما انتقلت راية الإسلام إلى أيدى الأتراك .

ويرى كثير من المؤرخين أنه لو كان حصار القسطنطينيه الثالث قد نجح ، لتغير مصير أوروبا . ولنشأت فيها أمم غير الأمم ، ودين غير المسيحية .

ولذلك يعتبر المؤرخ « بيورى Bury » عام ٧١٨م تاريخًا عالميًّا ! ويقول المؤرخ « أومان » : « ولو أن الحروب لم تكفّ عن النشوب بين الإمبراطور البيزنطى والخليفة على مدى ٣٥٠ سنة أخرى – إلاّ أنها كانت حروبًا محدودة ، وليست كهذه الحملة التى كانت الغاية منها إصابة قلب الإمبراطورية وغزو أوروبا وإخضاعها للاسلام . لقد صدّ ليو الثالث جيش المسلمين العظيم ، الذى تجمع من ممتلكاتهم الشرقية كلها ، وكان يقوده أخو خليفتهم » .

ولكن هل تخلصت أوروبا من الزحف العربى تمامًا ؟ . علينا أن نذكر أن هذه الحملة قد فشلت فى غزو شرق أوروبا ، أما فى الغرب ، أما فى أسبانيا – فكان ينتظرها فتح عربى من أروع ما سجل التاريخ ! .

١١ - فتح الأندلس

- الأحوال السياسية فى أسبانيا القوطية قبل الفتح .
- اتفاق يوليان — ابن نصير .
- غارة طريف بن مالك فى يولية ٧١٠ م .
- حملة طارق بن زياد .
- موقعة وادى لكة فى يولية ٧١١ م .
- فتح طليطلة وقرطبة .
- فتح أشبيلية .
- سقوط شبه الجزيرة الأيبيرية فى يد العرب .

١١ – فتح الأندلس

رأينا فيما سبق كيف أن فتح العرب للشام وفلسطين قد أدّى إلى فتح مصر ، لحماية الحدود الجنوبية الغربية لفلسطين . وأن فتح مصر قد أدى إلى فتح أفريقية (تونس) . وهذا بدوره أدّى إلى فتح المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المغرب الحالية) – وبذلك أصبح العرب فى مواجهة أوروبا من الغرب بنفس الدرجة التى أصبحوا فى مواجهتها من الشرق ، بفضل تداعى الفتوح !.

ولنفس الأسباب التى دفعت الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية العظام إلى الدفاع عن ممتلكاتهم عن طريق الهجوم . فقد كان على موسى بن نصير ، بعد أن دان له المغرب بالخضوع أن يعبر ببصره « بحر الزقاق » الذى عرف فيما بعد باسم « مضيق جبل طارق » . ليتطلع إلى فتح غرب أوروبا ، أى أسبانيا القوطية ! .

وكنا قد ذكرنا كيف أبقى موسى بن نصير على « سبتة » دون فتحها ، لمناعتها من جهة ولتلقيها الإمدادات من وراء بحر الزقاق – من أسبانيا القوطية من جهة أخرى ، وليطلع من خلالها على الأحوال السياسية لجيرانه الأوربيين من جهة ثالثة . وبذلك صار واضحا أن فتح سبته سيكون أسهل بكثير عن طريق قطع الإمدادات التى تصلها من أسبانيا ، وأن هذا لن يتم إلا عن طريق ضرب هذا الخطر على حدود الدولة العربية الغربية المترامية الأطراف !

وكانت أسبانيا القوطيه قد دلّلت فى مرات كثيرة على عدائها للعرب ، ليس فقط عن طريق إمدادات سبتة ، وإنما عن طريق تقديم المعونات للروم الذين كانوا يحتلون قرطاجنة وسواها من مدن الساحل ، وهى المعونات التى كانت تصطبغ بصبغة مسيحية وتأخذ شكل الجهاد الدينى فى مواجهة الصبغة الإسلامية للفتوح العربية ، واتخاذ شكل الجهاد الدينى أيضا !

على أن الظروف السياسية فى أسبانيا القوطية عند إتمام موسى بن نصير فتح المغرب لم تلبث أن جعلت من منطقة سبتة ، رغم أنها مسيحية ، هى أداة الفتح الإسلامى لأسبانيا ! وبدلاً من أن تكون عقبة فى طريق هذا الفتح ، أصبحت عتبة له !

لقد كان الوضع السياسى لمدينة سبتة هى أنها تتبع موريتانيا القيصرية ، وهى إحدى الولايات

السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولت سبتة وجهها شطر أسبانيا القوطية فى عهد حاكمها جوليان ، الذى يسميه العرب يليان أو اليان ، وبالفعل أخذت تتلقى الإمدادات منها فى عهد الملك « ويتزا Witiza » ، الذى يسميه العرب « غيطشه » ! وقد كانت هذه المساعدات هى التى دعت الكونت يوليان إلى التعاون مع العرب فى فتح أسبانيا التى كانت تحت حكم القوط !

ذلك أن الحكم فى أسبانيا كان قد انتقل فى تلك الأثناء من بيت ويتزا (غيطشه) إلى يد مغتصب هو رودريجو – أو لذريق كما يسميه العرب – بعد وفاة ويتزا ؛ إذ رفض فريق من النبلاء والقساوسة الاعتراف بابنه أخيلا – الذى يسميه العرب « وقله » – وقاموا بتنصيب رودريجو ملكًا على أسبانيا ، وعند ذلك انقسمت أسبانيا إلى فريقين : فريق ينصر البيت الملكى القديم ، وفريق يناصر الملك الجديد . وبذلك أصبحت فى حالة فوضى سياسية !

وقد كان على حاكم سبتة أن يحدد موقفه إلى جانب إحدى القوتين اللتين تتنازعان حكم أسبانيا القوطية ، ولما كان البيت الملكى القديم هو الذى أمدّه بالمعونات التى ساعدته على مقاومة فتح العرب لولايته ؛ لذلك انحاز إلى الملك المعزول أخيلا (وقله) . وقبل مساعدة أنصار هذا الملك عندما أتو إليه طالبين عونه على استرداد الملك .

على أنه كان من الواضح أن يوليان لم يكن لديه من القوة العسكرية مايمكنه من تقديم مساعدة فعالة إلى الملك المخلوع خصوصا والدولة العربية الاسلامية قد قامت على حدوده وتمتد اراضيها إلى الشام على طوال الساحل الأفريقى ! . ومن هنا نشأت فكرة الالتجاء إلى هذه الدولة طلبًا لمساعدتها فى هذا النزاع على العرش ، فى مقابل دفع جزية سنوية تؤدّى للعرب . وقد كانت مثل هذه الاتفاقات كثيرة الحدوث فى ذلك العصر .

على هذا النحو سنحت الفرصة للعرب للقفز على أوروبا . ولم يكن لدى موسى بن نصير مايدعوه إلى رفض هذا الاتفاق ، ذلك أن وجود أسبانيا التى تدفع الجزية إلى جوار دولته ، أفضل من وجود أسبانيا المحاربة ، فضلاً عن ذلك ، فإن الأمر قد يتطور إلى صورة فتح عربى شامل لأسبانيا يدخلها فى دائرة الدولة العربية كما دخلت بلاد المغرب جميعها .

وتجمع المصادر العربية على أن يوليان توجه بنفسه للقاء طارق بن زياد لمساعدته فى دخول أسبانيا ، فاتصل طارق بموسى بن نصير ، الذى كان مقيمًا بالقيروان ، لاتخاذ القرار فى هذا الشأن ، فكتب بدوره إلى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك يستأذنه فى هذا الأمر ، فأذن له

على شريطة اتخاذ الحيطة لعدم التغرير بالمسلمين ، ويقال إنه طلب إليه أن يختبرها بالسرايا أوّلا !

وقد عمل موسى بن نصير على ضمان ولاء يوليان للاتفاق بعمل فريد ، فقد طلب إليه أن يقوم بنفسه أوّلا بالغارة على أسبانيا ، ليضمن انقطاع الصلة بينه وبين الملك رودريجو ، وقال له « إننا لانرتاب فيك ، غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لايعرفونها ، وبيننا وبينها البحر . وبينك وبين ملك روذريق حمية الجاهلية واتفاق الدين . فجُزْ إليه بنفسك وشن الغارة على بلاده ، واقطع مابيْنك وبينه . وإذ ذاك تطيب النفس عليك ونحن من ورائك إن شاء الله » ! .

وقد نفذ الكونت يوليان ماطلب موسى بن نصير ، فهاجم الساحل الجنوبى من أسبانيا بجيشه فسبى وغنم ورجع » وبذلك ضمن موسى بن نصير انقطاع الصلة بين يوليان ورودريجو ! .

على أن حذر موسى بن نصير دعاه إلى القيام بغارة استطلاعية أخرى – على يد ضابط من ضباطه هذه المرة – يدعى طريف بن مالك ، فأمره بالغارة على ساحل أسبانيا الجنوبى بمائة فارس وأربعمائة راجل ، فى رمضان ٩١ هـ (يولية ٧١٠م) . وقد نزل طريف بجنوده ، بعد عبوره المضيق ، فى المكان الذى يعرف باسمه اليوم « Tarifa » وأغار على المناطق التى تليه إلى جهة الجزيرة الخضراء ، « وسبى وغنم ورجع » !

وبذلك تحقق موسى بن نصير من ضعف الدفاع الأسبانى ، وأعد جيشًا كبيرًا من سبعة آلاف محارب لغزو أسبانيا بقيادة قائده طارق بن زياد ، نائبه على طنجة .

وتؤكد أحدث المصادر التاريخية على أن طارق بن زياد قد لقى من الجيش القوطى مقاومةً شديدةً عند نزوله على جبل طارق ، على غير الشائع فى المراجع التاريخية التى تقول إن الحملة نزلت دون أن تلقى مقاومة ؟ خصوصًا بعد غارتى يوليان وطريف بن مالك . فقد عمد القوط إلى تدعيم قاعدتهم الحربية فى جبل كالبى أو جبل طارق – كما عرف فيما بعد – لحماية هذا المدخل الهام إلى بلادهم .

وكانت الحملة تتكوّن فى غالبيتها الساحقة من البربر ، فيما عدا ثلاثمائة من العرب ، مما يدل على أن البربر كانوا قد أسلموا فى ذلك الحين ، أو أسلم عدد كبير منهم . وفيما يبدو أن موسى بن نصير قد أراد من وراء تكوين الجيش كله من البربر على هذا النحو ، اختبار إسلام البربر ورغبتهم فى الجهاد فى سبيل الله من جهة ، وخوفًا على جيشه العربى من الفناء فى هذه الحملة ! . ولهذا السبب كان من الطبيعى أن يضع على رأس هذه الحملة طارق بن زياد ، الذى كان بربريًّا ، ليحسن قيادة هذا الجيش ، وآثره على أعظم قواده العرب ، أمثال طريف بن مالك ، وعياش بن

أخيل ، وزرعة بن أبي مدرك ، والمغيرة بن أبي بردة العذرى ، فضلاً عن ذلك فإن البربر كانوا أكثر الناس خبرة باسبانيا ، إذ كان الإقليمان يكونان وحدة جغرافية وتاريخية .

وقد أبحرت الحملة من ميناء طنجة فى رجب ٩٢هـ (إبريل ٧١١م) فى سفن مختلطة من أسطول يوليان وأسطول موسى بن نصير . فمضى طارق لسبتة ، واجتاز المضيق إلى موضع بالجبل منحفض كان ينوى النزول فيه ، ولكنه وجد الجيش القوطى فى انتظاره ، فعدل عن هذا الموضع ، وأمر بالنزول ليلاً فى موضع وعر لايتوقع الأسبان نزولهم فيه ، ثم ارتقى الصخور بجيشه ، والتف حول العدو ، وانقضّ عليه قبل أن يشعر به . وبذلك احتل هذا الجبل الذى استحقّ أن يحمل اسمه عن جدارة ، ويقال إنه أحرق مراكبه بعد ذلك ، ولكن المؤرخين شككوا كثيرا فى هذه الواقعة بحق ، فلم يكن معقولا أن يقضى طارق على الوسيلة الوحيدة لنقل الامدادات إليه من قاعدته ! . ولكن القصة مع ذلك صارت مثلا ! .

وسرعان ما عمل طارق على تحويل الجبل إلى قاعدة لجيوشه ، ومرسى يصل بينه وبين سبتة ، وأقام حول الجبل سورًا عرف باسم « سور العرب » ، وأخذ ينظم جيشه ، فبعث بفرقة على رأسها عبد الملك بن أبى عامر ، سارت بحذاء الساحل شمالا ، واستولت على بلدة حصينة تعرف باسم قرطاجنة الجزيرة **Cartega** عند مصب نهير يسمى « وادى البحر » . أما طارق فقد زحف غربًا واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة . وأقام قاعدة حربية فى مواجهة الجزيرة الخضراء ، حيث أقيمت هذه المدينة فيما بعد . وقد عهد إلى يوليان وجنوده بحراسة هذه القاعدة .

فى ذلك الحين كان الملك رودريجو (لذريق) فى شمال أسبانيا لإخماد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفين باسم قبائل الفاسكوس أو البسقاوية ، وكان معه معظم جيشه . ويرى المؤرخ الأسبانى سافدرا **Saavedra** أن هذه الثورة كانت مفتعلة أغلب الظن بتنسيق مع أنصار البيت الملكى القديم لإخلاء الجبهة الجنوبية لنزول العرب ! – وقد أسرع الملك القوطى بالعودة جنوبًا بجميع قواته لملاقاة العرب ، وأراد تكوين جبهة ضدّ الغزاة الجدد ، فاتصل بأبناء الملك ويتزا (غيطشه) لعقد مصالحة معهم تنهى انقسام البلاد . وضرب معسكره عند مدينة شذونة **Medina Sidona** بعد أن استولى على قرطبة مفتاح سهول الأندلس الجنوبية الشرقية وقد بلغ عدد قوات جيشه ، وفقًا لبعض كتابات المؤرخين العرب ، مائة ألف جندى ، على أن أبن خلدون يجعلها أربعين ألفا فقط .

وعلى كل حال ، فحتى هذا العدد يفوق قوات طارق بن زياد بكثير ، فكما رأينا كان تعداد

جملته سبعة آلاف جندى . لذلك نصدق الآراء التى كتبت تقول إن طارق كتب إلى موسى بن نصير منزعجًا يقول : « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث » .

وقد استجاب موسى بن نصير إلى هذا النداء ، فجهز حملة إنقاذ من خمسة آلاف محارب ، فصار مجموع المسلمين بالأندلس حوالى اثنى عشر ألفا ، وتذكر المراجع أن المدد الذى أرسله موسى بن نصير قد نقل على سفن الأسطول العربى الذى بناه موسى بن نصير ، وكان على رأسه طريف بن ملوك (أو ابن مالك) .

وقد التقى الجيشان عند بحيرة خاندا Janda فى منطقة شذونة ، ونظرًا لأن كلمة « بحيرة » بالأسبانية تسمى لاجو Lago ، فلذلك أطلق المؤرخون العرب على الموقعة التى دارت فى هذه المنطقة اسم موقعة وادى لكة بعد تحريف كلمة لاجو إلى لكة ! .

وتعتبر هذه الموقعة من أعظم المواقع التاريخية الفاصلة التى دارت بين المسلمين والقوط . فقد استغرقت ثمانية أيام من الأحد ٢٨ رمضان إلى الأحد ٥ شوال ٩٢هـ (١٩ – ٢٦ يولية ٧١١م) ! واقتتل الطرفان فيها قتالاً شديدًا « حتى ظنوا أنه الفناء » ، و« لم تكن بالمغرب مقتلة أعظم منها » ، حتى هزم القوط .

وتقول المصادر التاريخية إن الجيش القوطى قد هزم لأن الملك رودريجو (لذريق) كان قد نصب ولدى خصمه الملك ويتزا (غيطشه) على رأس ميمنته وميسرته بعد استرضائهما ، ولكنهما أضمرا خيانته ، وأرسلا إلى طارق قبل المعركة بأن يميلا إليه عند الاقتتال بمن معهما من أنصار ، مقابل ردّ أملاكهما المصادرة إليهما . وهو ماحدث مما أدّى إلى هزيمة الجيش القوطى .

وهى قصة لا نرجحها لأنها تتناقض مع ماهو متفق عليه من استمرار القتال ثمانية أيام ، خسر فيها طارق بن زياد مايقرب من ثلاثة آلاف من جيشه ! فضلا عن أنه من المستبعد أن يثق لذريق فى أبناء ويتزا (غيطشه) وبينه وبينهم تنازع على العرش ، إلى الدرجة التى يولّى أحدهما ميسرة جيشه والآخر ميمنته ! وبذلك يكون انكسار الجيش القوطى بسبب ضعف روحه المعنوية الناشئ عن انقسام البلاد .

وقد ذكرت المراجع العربية قصة خطبة طارق بن زياد المشهورة ، ولكن المؤرخين المحدثين يشككون فيها كما سبق أن شككوا فى قصة حرقه للسفن ، بناءً على أن طارق كان بربريًّا ولا يمكنه إلقاء هذه الخطبة البليغة !

وعلى كل حال فإن انتصار طارق بن زياد فى معركة وادى لكة قد أحدث دويًّا هائلا ، وقد

انطلق طارق بعدها إلى محاصرة مدينة شذونة وفتحها عنوة ، ثم مضى إلى مدور Almodovar ثم إلى قرمونة ، وبعدها إلى أشبيلية Sevilla فصالحه أهلها على الجزية .

في ذلك الحين كان القوط قد تمكنوا من إقامة أوّل مركز دفاعي في استجة Ecija ، ولكن طارق بن زياد اقتحم المدينة بعد قتال عنيف ، وفرض عليها الجزية ، ثم أخذ يقسم جيشه الذي تضخم بما أخذ يفد إليه من إمدادات من المغرب ، فأرسل فرقًا منه في بعوث جانبية ، ومضى ببقيته لفتح مركز المقاومة الثاني في طليطلة ، حيث احتشدت فلول القوط . ولكن أنباء إنتصاراته فيما يبدو وسرعة حركته أقنعت المحتشدين بتجنب المواجهة ، فدخل طارق المدينة دون مقاومة ، ومضى منها إلى وادي الحجارة لمطاردة فلول القوط ، حتى بلغ مدينة عرفت عند العرب باسم مدينة المائدة ، إذ وجد بها طارق المائدة المعروفة عند العرب بمائدة سليمان ، وهي مذبح كنيسة طليطلة العظمى ، حملها معهم القساوسة عند فرارهم من طليطلة لقداستها ونفاستها ، وكان الصيف قد انتهى وأقبل الخريف ، فرأى طارق العودة إلى طليطلة ليقضي بها الشتاء .

في تلك الأثناء كانت إحدى فرق الجيش التي أرسلها طارق بن زياد ، وعلى رأسها مغيث الرومي ، وتتكون من سبعمائة فارس – قد تمكنت من فتح مدينة قرطبة ، وقد تحصن حاكم المدينة ورجاله في كنيسة حصينة في غرب المدينة . فحاصره المسلون حصارًا شديدًا استمر ثلاثة أشهر حتى اهتدوا إلى مصدر المياه التي تمدّ الكنيسة ، فقطعوها ، ثم دعا مغيث المحصورين إلى الإسلام أو الجزية ، فأبوا ، فأشعل النار في الكنيسة بمن فيها ، فسميت كنيسة الحرق ، وظلت كذلك إلى عام ١٦٩هـ ، حين أذن عبد الرحمن الداخل لنصارى قرطبة بإعادة بنائها في مقابل تخليهم عن نصيبهم في كنيسة « شنت بنجنت » التي أقام عليها المسجد الجامع بقرطبة !

على هذا النحو ، يكون طارق بن زياد قد اقتحم أسبانيا من وسطها قبل التمكن من السيطرة على غربها وشرقها ، إذ كان لزاما عليه أنه يزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة دولة القوط الغربيين بعد انتصاره في وادي لكه ، وبذلك أصبح معرضًا لخطر قطع الطريق عليه من جانب العدو ، فاستنجد بقائده موسى بن نصير .

ونظرا لإدراك موسى بن نصير لأهمية فتح أسبانيا وتأمين الانتصارات العربية ، فقد جهز جيشا ضخمًا قدر بنحو ثمانية عشر ألف مقاتل ! ، معظمهم من العرب هذه المرة بعصبياتهم القيسية واليمنية ، ومن بينهم عدد من التابعين ، وقد عرفت هذه الحملة باسم طالعة موسى .

وقد وضع موسى بن نصير نصب عينيه فتح المعاقل الصعبة في الغرب ، مثل أشبيلية ،

وماردة ، ولبلة ، وباجة ، لتأمين فتوحات طارق بن زياد . فعبر الزقاق (المضيق) فى رمضان ٩٣هـ (٧١٢م) ، ودخل الجزيرة الخضراء . ثم زحف إلى شذونه ، وافتتح قلعة جابو ، ومضى إلى قرمونة . التى لقى عندها عناءً شديدا بسبب حصانتها ، ففتحها بالخدعة . وبذلك سيطر على المراكز الدفاعية لمدينة أشبيلية .

وقد كانت أشبيلية فى ذلك الوقت أعظم مدن اسبانيا شأنًا ، فحاصرها موسى بن نصير حصارًا شديدًا استمر شهورًا ، وتمكن من فتحها بمساعدة الأسقف « دون أبه »والجالية اليهودية بها . ومضى بعد ذلك إلى مدينة ماردة Marida أمنع معاقل استرامادور وكانت تعرف باسم رومة أسبانيا La Roma de Espana وكانت فلول رودريجو قد احتشدت فيها لوعورة الطرق إليها فحاصرها موسى بن نصير حصارًا استمر عدة أشهر دون جدوى ، وجرت بينه وبين أهلها عدة اشتباكات لم تسفر عن شىء .

وهنا أمر موسى ببناء برج يطلق عليه بعض المؤرخين اسم « دبابة » لأن المسلمين دبّوا تحته إلى أحد أبراج السور ، وأخذوا ينقبونه ، ولكن بينما كانوا يقومون بعملهم خرج عليهم العدوّ فاستشهد المسلون تحت الدبابة ، فسمى ذلك البرج برج الشهداء ، ومع ذلك فقد فتح موسى بن نصير ماردة صلحًا فى مستهل شوال ٩٤هـ .

ولما كان الملك رودريجو (لذريق) فى تلك الأثناء قد تحصن وجنوده فى شعاب جبال سيراذى فرانشيا Sierra de Francia ، متربصين للوثوب على جيش موسى أثناء سيره إلى طليطلة ، فقد بعث موسى إلى طارق يستدعيه للحضور بجيشه لمقابلته فى منتصف الطريق ، وتقابل الجيشان فى موقع يقال له « تايد » أو « تايتر » Taitar . ويقال ان موسى أنّب طارقًا لاندفاعه وسط الأندلس دون تأمين ظهره ، ولكنه أقره على إمارته للجيش ، بل أمره بالتقدم أمامه فى جيشه ، وسار موسى خلفه فى قواته !

على أن رودريجو (لذريق) كان فى ذلك الحين يتربص للانقضاض بقواته على الجيش . وهو ماحدث أمام بلدة سيجويلا ديلوس كورنيخوس ، بالقرب من بلدة تمامس Tammames ، حيث وقعت الموقعة الفاصلة الثانية فى سبتمبر ٧١٣م . وقد هزم القوط هزيمة نكراء ، وقتل لذريق على يد مروان بن موسى بن نصير ، ودفنه أتباعه بمدينة بيزو Viseo . ثم دخل موسى وطارق مدينة طليطلة ، وأقاما بها فصل الشتاء من سنة ٩٤هـ . وبعث موسى إلى الوليد بن عبد الملك يخبره

خليج بسكونيه
فرنسا
(غاليس)
جبال استورياس
جبال كنتبريه
جبال البرتات
جبال البرنيه
جليقيه
ليون
استرقه
برغش
وشقه
تطيله
سرقسطه
قطلونيه
برشلونه
طركونه
طرطوشه
لارده
سمورة
شلمنقه
سقوبيه
آبله
مدينة سالم
وادي الحجاره
قونقه
طليطله
طلبيره
قلنبريه
بورتو
نهر التاجه
جبال طليطله
ماردة
بطليوس
نهر وادي يانه
اشبونه
يابره
باجه
الغرب
جبال الشارات
نهر الوادي الكبير
قرطبه
جيان
اشبيليه
قرمونه
استجه
غرناطه
وادي آش
البشرات
المرية
مالقه
رندة
شريش
شذونه
قادس
جبل طارق
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجه
بحر الزقاق
مرسيه
لقنت
قرطاجنه
بلنسيه
منورقه
ميورقه
يابسه
الجزائر الشرقية (البليار)
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر
وهران
المغرب الأوسط
افريقيه
قبائل زناته
المغرب الأقصى
فاس
سلا
قبائل صنهاجه
جبال الأطلس
المحيط الاطلنطى
اسبانيا المسلمة
(الأندلس)

(خريطة رقم ١٤)

بما حققه وطارق من انتصارات . ويقال إن الخليفة الوليد عندما أتى على آخر الخطاب الذى يحمل هذه الأخبار ، خرّ ساجدا .

ولم يلبث القائدان بعد إنتهاء فصل الشتاء ، أن واصلا فتوحاتهما نحو الشمال. فزحفا نحو سرقسطة الواقعة على الضفة اليمنى من نهر ابره ، وكانت القيادة لطارق بن زياد .وقد افتتحت صلحًا بعد أن أرسل موسى رسولاً يؤمنّ أهلها . وتوغل موسى فى البلاد ، فسقطت لارده **Lerida** ووشقة **Huesca** وطركونة . ولم تبق إلا جليقية أو غاليسيا **Galicia**

على أنه فى تلك الأثناء أرسل الوليد بن عبدالملك مغيثًا الرومى إلى موسى بن نصير يأمره بالكف عن التوسع خوفا على المسلمين ، والرجوع إلى دمشق ! . وقد استمهل موسى مغيثًا ريثما يفتح جليقية ، فأمهله . فسار ألى الشمال للاستيلاء على قشتاله القديمة تأمينًا للحدود الشمالية لإقليم طليطلة ، وقسم جيشه إلى قسمين : أحدهما بقيادة طارق ، وقد سار فى سفوح جبال كنتابريه ، واستولى على أماية واسترقة . والثانى بقيادته ، وقد فتح حصن بارو ووصل الى خيخون وجعلها قاعدة لهذه المنطقة وأقام عليها قائدًا بربريًا هو مونوسة ، وبذلك وصلت جيوش موسى إلى البحر المحيط !

وهكذا سقطت شبه جزيرة أيبيريا **Iberia** فى يد العرب ، ولم يبق منها إلاّ بعض الأطراف الشرقية والشمالية الغربية . وقد فتح شرق الأندلس على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، أما الركن الشمالى الغربى ، وهو المسمى باقليم استورياس Asturias فى غاليسيا ، فقد تحصن فيه « بلاى » ، أحد قادة الجيش القوطى ، على رأس بعض فلول هذا الجيش . وقد حاصره المسلمون بعض الوقت ، ثم انصرفوا عنه استخفافًا بشأنه وقالوا : « ثلاثون علجًا (كافرًا) ماعسى أن يجىء منهم ؟» . وقد كانت تلك أفدح غلطة ارتكبها العرب فى فتح الأندلس ، فقد كانت أساس دولة أسبانيا المسيحية ، ولكن ذلك استغرق سبعة قرون !

١٢ - غزو العرب لجنوبى فرنسا
وموقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م

- الفتح العربى لجنوب فرنسا .
- موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م
- موقعة بلاط الشهداء فى التاريخ .

١٢ - غزو العرب لجنوبى فرنسا وموقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م

رأينا كيف سقطت شبه جزيرة أيبريا فى قبضة العرب ، فيما عدا الركن الشمالى الغربى الذى انسحبت إليه فلول الجيش القوطى ، وقد تركه العرب استخفافاً بشأنه ، متوقعين سقوطه المحتوم فى يوم من الأيام ! . وفى ذلك الحين أخذت جهود العرب تتجه إلى الركن الشمالى الشرقى ، حيث كانت تقع وراءه فرنسا ، التى لم تكن قد أصبحت وحدة سياسية بعد ، وإنما كانت الأراضى الممتدة وراء جبال البرينيه (البرانس) شمالاً تعرف وقتذاك بالأرض الكبيرة Tere Major أو بلاد الغال Gaul أو غالة .

وكانت غالة قد انقسمت بعد سقوط الدولة الرومانية إلى عدّة ولايات ، منها ولاية سيبتمانيا فى الجنوب الشرقى ، ودوقية أكيتانيا فى الشمال الغربى ، وعاصمتها بوردو الواقعة على مصب الجارون ، وإقليم بروفانس فى الشمال الشرقى ، وعاصمته أفينيون على وادى الرون . ثم إقليم برجاندى غربى نهر الرون ، وعاصمته ليون . أما المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحاضرة ، فكانت خاضعة للدولة الميروفنجية Merovingian ، أو مملكة الفرنجة The Frankish Kingdom من سنة ٤٨١ إلى ٧٥٢ م

كانت مملكة الفرنجة فى ذلك الوقت أعظم ممالك الغرب والشمال ، على نحو ما كانت الدولة البيزنطية فى الشرق . وكانت هذه المملكة قد تأسست على يد الفرنجة ، وهم فرع من القبائل الجرمانية غزوا فرنسا من الشمال ، وانتزعوا نصفها الشمالى من حاكمها الرومانى المستقل ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، ثم اعتنقوا المسيحية منذ عصر كلوفيس ، وأخذوا يتأثرون بمدنية روما وتراثها الفكرى والحضارى . ولكن التفكك الإقطاعى أخذ يصيب الدولة ، فاستقرت أكيتانيا وباقى فرنسا الجنوبية فى يد جماعة من الأمراء الإقطاعيين ؛ بينما كانت المملكة تقتتل حول السلطة ، حتى استقرت فى يد شارل بن بيبين ديريستال ، حاجب أو أمير القصر ، الذى عرف فيما بعد باسم شارل مارتل Charles Martel بعد انتصاره على المسلمين ، أى شارل المطرقة ! . وكانت سياسة شارل مارتل إخضاع الولايات المستقلة فى جنوب فرنسا للسلطة المركزية بالقوة ، مما جعله يغزو إقليم أكيتانيا مرتين ويهزم حاكمه الدوق أودو Youdo . ومن ثم نشأ العداء بين الرجلين ،

مما ترتب عليه نتائج هامة بالنسبة للحملات العربية على جنوب فرنسا ! .

ذلك أن العرب منذ فتحوا الأندلس أخذوا – كما ذكرنا – يتجهون إلى حماية الدولة الجديدة من الخطر الواقع على حدودها الشمالية الشرقية ، وذلك بالطريقة التى قادت العرب من قلب شبه الجزيرة العربية إلى الشام ، ثم إلى الشمال الأفريقى ، ثم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية – وهى طريقة الهجوم خير وسائل الدفاع ! .

وكان موسى بن نصير قد بدأ بالخطوة الأولى ، وفقاً للمصادر التاريخية . فبعد أن فتح سرقسطة ، بعث بسراياه إلى قطالونيا فى الشمال الشرقى ، فاستولت على برشلونة على البحر المتوسط ، ومن هناك اخترقت جبال البرينيه Pyrenees وتوغلت فى فرنسا (غالة) فاستولت على ناربون Norbonne أو (أربونة) ، وأفنيون Avignon أو اينيون ، وحصن لودون على وادي الرون (أو ردونة) ، وقرقشونة Carcassonne ومعنى ذلك أنها اخترقت ولايات سبتمانيا Septimania (التى كانت تقع فيها ناربون وقرقشونة) ، وبروفانس (التى كانت تقع فيها أفينيون) .

كانت هذه الغارة من قبيل الغارات التمهيدية التى تعودنا على أن نرى العرب يقومون بها قبل الفتح الحقيقى . ومنذ ذلك الحين أخذ العرب فى الأندلس يشنون هذه الغارات على جنوبى فرنسا ، فقد ذكر « دون فرنسسكو كوديرة » أنه طالع مخطوطاً عربيًّا ورد به أن عبد العزيز بن موسى بن نصير ، خرج مع الناس فى حملة حتى بلغ أربونة . كما فعل ذلك أيضًا الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الذى تولى الأندلس عام ٩٧ هـ (٧١٦ م) ، وذلك وفقاً « لإيزيدور الباجى » .

فلما كان عهد السمح بن مالك ، الذى تولّى الأندلس سنة ١٠٠ هـ (إبريل ٧١٩ م) ، أعدّ حملةً أغار بها على إقليم أكيتانيا ، فقد زحفَ على ناربون (أربونة) واستولى عليها ، ثم مضى إلى طرسكونة Tarascon ، ومنها إلى تولوز . ولكن الدوق أودو – دوق أكيتانيا ، اشتبك مع السمح فى موقعة بالقرب من هذه المدينة ، وألحق به الهزيمة ، واستشهد السمح وعدد كبير من جيشه يوم ١٠ يونيو ٧٢١ م . (١٠٢ هـ .) ، وتولّى القيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى نجح فى الانسحاب بفلول الجيش الإسلامى إلى ناربون (أربونة) . وقد سببت هذه الهزيمة لجيش المسلمين اضطراباً فى الأندلس . ولذلك توقفت الغارات على جنوب فرنسا خمسة أعوام ! .

على أن عنبسة بن سحيم الكلبى ، الذى ولى الأندلس بعد عبد الرحمن الغافقى (لم تستمر

ولايته الأولى أكثر من بضعة أشهر) لم يلبث ، بعد أن استقرت أمور دولته ، أن أخذ فى إعداد جيش لغزو فرنسا . وكانت ظروف الصراع بين دوق أودو وشارل مارتل فى ذلك الحين ، قد أخذت تقرب بين الدوق والعرب ، لحماية دوقيته وظهره منهم أثناء صراعه مع شارل . وفى الوقت نفسه كانت قد قامت مصاهرة بينه وبين مونوسه البربرى ، الذى كان عاملاً على شرطانية Cerdana أدّت إلى عقد معاهدة سلم ومهادنة تؤمّن ظهره من ناحية العرب . كما قامت علاقات طيبة بينه وبين عنبسة . وقد خدمت هذه الظروف عنبسة بقدر ما خدمت الدوق أودو ، لأن الدوق أبدى استعداده لمساعدة العرب فى غزو برجندية ، وبذلك عقدت محالفة بين الطرفين كان لها أثر هام .

فقد خرج عنبسة بجيشه شمالاً ، واستولى على قرقشونة ، لتدعيم خط الدفاع عن ناربون (اربونه) ، ثم على نيم Nimes (نيمة) ، وواصل زحفه إلى وادى الرون ، ومضى شمالاً إلى نهر الساءون ، وتوغّل فى إقليم برجندية ، واستولى على أوتون فى ٢٢ أغسطس ٧٢٥ م ، ثم اجتاحت جيوشه أوزيه Uzes وفيفييه Viviers وفالانس Valance ، وليون Lyon ، وماسون Mason ، وشالون Châlon ، ثم قسم جيشه قسمين ، توجّه أحدهما إلى ديجون Dijon وبيز Béze ولانجر Langres ، وتوجه الثانى إلى أوتون ، وتوقفت الحملة أمام بلدة سانس Sens التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط ! .

على أنه فى أثناء عودة عنبسة تصدّى له جيش من الفرنجة ، فاستشهد فى أحد المواقع سنة ٧٢٥ م (١٠٧ هـ) ، وتولّى عذرة بن عبد الله الفهرى العودة بالجيش إلى ناربون (أربونة) . وهكذا تمت أكبر غارة شهدها جنوب فرنسا حتى ذلك الحين ، وقد حققت نجاحًا كبيرًا بفضل الحلف الذى عقد بين عنبسة والدوق أودو . ولذلك يلاحظ أن الحملة لم تهاجم إقليم أكيتانيا ، وإنما ركزت على إقليمى بروفانس وبرجندية .

على كل حال ، فقد قدّر لهذا الحلف بين الوالى المسلم والدوق المسيحى ، أن ينفض فى ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية . فقد رأينا كيف اشترك عبد الرحمن الغافقى فى حملة السمح ، التى استشهد فيها وعدد كبير من جيشه فى المعركة التى نشبت مع الدوق أودو ، وكيف استطاع الغافقى أن ينسحب بفلول الجيش الإسلامى إلى ناربون . وقد أثّرت هذه الهزيمة فى نفس الغافقى تأثيرًا عميقًا ، وبات تواقًا إلى الانتقام وتعويض الهزيمة وبذلك تمهد الطريق لموقعة بلاط الشهداء .

وكان عبد الرحمن الغافقى جنديًا عظيمًا ذا مواهب حربية كبيرة ، فضلاً عن مقدرته الإدارية

كحاكم ، ونظرته المتساوية إلى المسلمين من عرب وبربر ، وإنصافه للمسيحيين فى الأندلس . فقد كان لا يميز بين مسيحى ومسلم إذا لحق به ظلم من الولاة.وقد بدأ فى الاستعداد لملاقاة الفرنجة عن طريق تنظيم شئون البلاد الإدارية وتحصين القواعد والثغور الشمالية ، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة ، فتجمعت حوله جموع المتطوعين ، حتى أصبح لديه أكبر جيش إسلامى سيّره المسلمون إلى غالة منذ الفتح ، حتى لتقدر المصادر العربية هذا الجيش بين سبعين ألفًا ومائة ألف ، بينما تبالغ رواية الفرنج فى تقدير عدده بأربعمائة ألف محارب ! . وكان معظم هذا الجيش من البربر تحت قيادات عربية ، وكان واضحًا أن عبد الرحمن الغافقى ينوى بهذه الحملة أن يجتاح غالة وينهى صفحة الدولة الميروفنجية .

ولعل هذا الهدف الكبير ، فضلاً عن ضخامة جيش الغافقى ، هو ما جعله فى غنى عن محالفة الدوق أودو ، دوق أكيتانيا ، كما فعل عنبسة . فاعتزم اجتياح ولايته (أكيتانيا) ، مما أوقعه فى خلاف مع منوسة ، حاكم شرطانية البربرى ، الذى سبق أن عينه موسى بن نصير ، والذى كانت تربطه بالدوق أودو رابطة المصاهرة . ويقال إن منوسة كان فى ذلك الحين يعمل عل الفوز بولاية الأندلس أو التغلب عليها بصورة من الصور ، ويتحين الفرص للخروج أو الثورة ، مستندًا إلى محالفته مع الدوق أودو– وهو ما نستبعده– ولكن منوسة فى كلتا الروايتين راجع عبد الرحمن الغافقى فى فكرة غزو أكيتانيا ، وأخذ يتلكأ فى الخروج عندما أمره الغافقى بالسير على بلاد حميه – مما أدى إلى ارتياب عبد الرحمن فى أمره ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابن زيان للقبض عليه ، ففر من مقامه بمدينة « الباب » التى تقع على ممرات البرناس ، وتسمى أحيانًا « بوييكاردا » ، وتحصّن مع بعض أعوانه فى الجبال ، ولكن ابن زيان طارده حتى أخذه وجزّ رأسه ! ، وأسرت زوجته الأكيتانية وأرسلت إلى بلاط دمشق .

وقد دفع هذا النزاع بين عبد الرحمن الغافقى ومنوسة بالدوق أودو إلى إنهاء تحالفه مع المسلمين ، وأخذ يولّى وجهه شطر غريمه القديم شارل مارتل ، ويستعد للدفاع عن دوقيته .

ولم يلبث عبد الرحمن الغافقى ، بعد أن ضمن الوضع فى شمال البلاد ، وبعد إنهاء حركة منوسة – أن أخذ فى اجتياح فرنسا . فقد خرج من « بنبلونة » فى صيف عام ١١٤ هـ (٧٣٢م) ، مخترقًا شعاب رونشفالة ، متجها رأسًا إلى أكيتانيا لتصفية الحساب مع الدوق أودو والانتقام لمقتل السمح . ولإخفاء هذا الغرض أرسل فرقة من جيشه إلى وادى الرون شرقًا

لاسترجاع مدينة آرل . ولم تلبث جيوشه أن اخترقت قلب أكيتانيا فى الغرب متجهة إلى العاصمة بوردو ، التى عرفت باسم « برديل » .

كانت ولاية أكيتانيا فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقًا وخليج غسقونية غربًا . وبين اللوار شمالاً ونهر الجارون جنوبًا . وتشغل من مقاطعات فرنسا الحالية جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وفنده وجزءًا من أنجو . وقد سارع دوق أودو إلى ملاقاة عبد الرحمن الغافقى بالقرب من نقطة التقاء الدوردونى بالجارون ، ولكنه هزم هزيمة فادحة . تقهقر على أثرها شمالاً ، وطارده عبد الرحمن الغافقى حتى العاصمة بوردو ، فاستولى عليها بعد حصار قصير ، وفرّ الدوق فى نفر من جيشه شمالاً ، وسقطت أكيتانيا كلها فى يد المسلمين .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن الغافقى من الاستيلاء على الجانب الغربى من جنوب فرنسا . اتجه بقواته إلى الشرق إلى وادى الرون ، فاخترق برجونية ، واستولى على ليون وبيزانصون ، ووصلت سرياته إلى سانس Sens التى تبعد عن باريس مائة ميل كما ذكرنا – والتى وقفت أمامها من قبل حملة عنبسة سنة ٧٢٥ م . فكانت هذه هى المرة الثانية التى يقترب فيها المسلمون من باريس إلى هذه المسافة القصيرة . وبذلك فتح الغافقى نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب ! .

على أن « كاردون » Cardonne فى كتابه « تاريخ أفريقيا وأسبانيا » يقدم سيرًا آخر للحملة ، فيرى أن عبد الرحمن زحف أوّلاً على آرل فى الشرق ، وحاصرها ، فبادر الدوق أودو إلى نجدتها ، ولكن عبد الرحمن هزمه وألجأه إلى الفرار ، ثم عبر نهر الجارون واستولى على بوردو ، وهزم الدوق أوتو مرّةً أخرى ، ثم اخترق بيرجور وسانتونج وبواتو ، حتى انتهى إلى تور .

وعلى كل حال فتتفق الآراء على أن عبد الرحمن الغافقى أخذ يتجه شمالاً نحو تور على نهر اللوار ليتم فتح المنطقة ، ويتوجه إلى عاصمة مملكة الفرنجة . وقد وصف المؤرخ إدوارد جيبون Gibbon هذا الغزو بقوله :

« وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المساحة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى إيقوسيا . فليس الراين بأمنع من النيل أو الفرات ! . ولعل أسطولاً عربيًا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، وربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة » ! .

على كل حال ، فقد استنجد دوق أوتو بشارل مارتل فى تلك الأثناء ، وكان شارل فى تلك الأثناء يمارس السلطة باسم ملكين ضعيفيْن من ملوك الميروفنجيين ، فرأى فى هذا الاستنجاد فرصةً للتحالف مؤقتًا مع أودو ضدّ الجيش الإسلامى الذى كانت خطوته التالية دولة الفرنجة ذاتها . وأعد جيشًا كبيرًا من غالة ومن مختلف القبائل الجرمانية فيما وراء الراين من الشماليين ، فأصبح جيشه مؤلفًا من البوغورن والألمان والغاليين ، فى مواجهة جيش عبد الرحمن الغافقى المؤلف من البربر والعرب . وكان معظم جيش شارل مارتل من المرتزقة من المحاربين الأشداء « نصف العراة ، الذين يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم المجعّدة فوق أكتافهم العارية » ! . وقد زودوا بأسلحة تتفوق على أسلحة المسلمين . وقد سار على رأسهم شارل مارتل لملاقاة العرب الذين كانوا فى ذلك الحين قد استولوا على بواتييه ثم واصلوا زحفهم نحو مدينة تور Tours وتختلف الآراء ، فالبعض يرى أن عبد الرحمن الغافقى علم بحشود الفرنجة بعد خروجه من بواتييه ، والبعض يرى أنه استولى على تور ، ولكنه عندما علم بالحشود الفرنجية ارتدّ جنوبًا إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه .

وعلى كلّ حال فقد عبر شارل مارتل اللوار غرب تور وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة بين نهرى كلين وفيين فرعى اللوار .

فى تلك الأثناء كانت جملة عوامل قد أخذت ترجح كفة الفرنجة :

أولها أن الجيش الإسلامى كان قد أثقل بالغنائم التى استولى عليها على طوال حملته من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال ! . فكما يقول بعض المؤرخين ، كان المسلمون قد استصفوا ثروة فرنسا الجنوبية فى أثناء سيرهم المظفر ، وأُثقلوا بما لا يقدّر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى ، حتى أخذ الجيش يتقدم بصعوبة . وقد قدّر عبد الرحمن الغافقى خطورة هذه الأثقال ، ومدى ما تثيره فى نفوس الجند من انشغال وحرص ، وحاول أن يحملهم على ترك جزء منها لتسهيل الحركة ، ولكنه لم يشدّد فى ذلك خوفًا من التمرد ! . ويقال إن شارل مارتل كان يقصد من تمهله فى ملاقاة المسلمين هذا الغرض بالذات ! ، وهو أن يثقل الجيش الإسلامى بالغنائم فيسهل الانتصار عليه ، خصوصًا ولم يكن للمسلمين قواعد فى البلاد .فقد روى بعض المؤرخين العرب أنه لما طلب قادة الفرنجة من شارل مارتل مواجهة المسلمين قال لهم : دعوهم وما يصنعون ، فهم كالسيل الذى يحمل كل ما يعترضه ، فإذا ما أثقلتهم الغنائم استحوذ الطمع على قادتهم ، ودبّ

الشقاق فى صفوفهم . وزحفنا عليهم واثقين من النصر » ! . وواضح أن هذه القصة تبرّر ما وقع ، ولكنها لا تتفق مع العقل أو المنطق .

أما العامل الثانى فى ترجيح كفة الفرنجة على العرب فى تلك المعركة ، فهو أن الجيش العربى كان يتألف من أعداد هائلة من البربر الذين حنقوا على الغافقى قتل مونوسة البربرى ، وكانت علاقاتهم بالعرب فى الوقت نفسه علاقة تنازع ، (انعكاسًا لما هو حادث فى الأندلس ، حيث كان البربر يرون أنهم قاموا بمعظم أعباء الفتح ، واستأثر العرب دونهم بالمغانم الكبيرة والمناصب القيادية) .

أما العرب فى جيش الغافقى فكانوا متنازعين أيضًا ، إذ كانوا يتألفون من يمنيين وقيسيين فرّقت بينهم العنصرية القبلية . وكل ذلك شكّل خطرًا على وحدة الصف الإسلامى فى الجيش .

على أن الآراء تتفق على أن العامل الأوّل – وهو ثقل الغنائم – كان السبب المباشر فى الهزيمة . لأن الجيش الإسلامى حارب حربًا ضاريةً ضدّ الجيش الفرنجى ، حتى لتذكر المصادر المسيحية أن المعركة استمرت ثمانية أيام ! ، ويقدرها ليڤى بروڤنسال ما بين يومى ٢٥ و ٣١ أكتوبر٧٣٢ م ، بينما يقدر البعض بدء المعركة بيوم ١٢ أو١٣ أكتوبر.

وقد وقعت المعركة فى سهل يقع شمالى بواتييه . ويرى البعض أنها قد تكون قد وقعت فى موضع يطلق عليه اليوم اسم موسيه لاباتاى **Maussais La bataille** وإن كان المتفق عليه أنه بين مدينتى « تور » و « بواتييه » **Poitiers** ولذا يطلق عليها فى المراجع الفرنجية موقعة « تور » أو « بواتييه » .

وقد حدثت مناوشات بسيطة فى اليومين الأوليْن ، واستمرت المعارك الجزئية أيامًا أخرى ، ثم تحولت إلى صدام مروع ، ولكن المسلمين أظهروا ثباتًا واستبسالاً ، وتحولوا إلى الهجوم لاختراق صفوف الفرنجة ، ولكن هؤلاء تماسكوا بمن انضم إليهم من ألمان وسواف وسكسون ، وبدأت تظهر عليهم علامات الإعياء أمام جيش مرن على النصر .

ويبدو أن الدوق أودو عرف نقطة الضعف فى الجيش الإسلامى ، لعلاقته السابقة بالمسلمين ، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم فى مؤخرة الجيش ، فاتجه بفرقة من الجيش خلف الجيش الإسلامى وهاجم مؤخرته ، واستطاع أن يفتح ثغرةً فى معسكر الغنائم ! . وعندئذ ارتفعت صيحة فى المراكز الإسلامية بأن معسكر الغنائم يوشك على السقوط ! . فارتدّ كثير من الجنود والفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، فاختلّ نظام الجيش ،

وحاول عبد الرحمن الغافقى عبثًا أن يعيد الجنود والنظام ، وبينما كان يتنقل بين الصفوف ، أصابه سهم من الأعداء فسقط شهيدًا من فوق جواده ، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعًا ، زاد الاضطراب فى صفوفهم ، واشتدت وطأة الفرنجة عليهم . وكثر القتل فى صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى أقبل الليل بظلامه ، فحال بين الجيشين .

وهنا اجتمع كبار قادة الجيش الإسلامى لتقدير الموقف ، واستقر رأيهم على أن الأمل فى النصر قد ضاع ، وأن الاستمرار معناه القضاء على البقية الباقية من جيش المسلمين ، واختلفوا على تنصيب خليفة لعبد الرحمن الغافقى ، فقرروا الانسحاب إلى قواعدهم فى سبتمانيا ، وانتهزوا فرصة الظلام وتسلّلوا من معسكراتهم ، تاركين أثقالهم ومعظم غنائمهم التى لم يتمكنوا من حملها وراءهم . وكان ذلك فى أوائل رمضان ١١٤ هـ . ولكنهم نجحوا فى هذا الانسحاب ، فلم يشعر العدو بهم إلا فى الصباح حين وجد معسكرهم خاليًا . ولكن شارل مارتل لم يتتبعهم ، إذ خشى أن تكون وراء هذا التراجع خدعة وكمين منصوب ، فاكتفى من الغنيمة بالنصر الذى حققه ، وعاد إلى الشمال بجيشه . وبذلك انتهت حملة الغافقى .

وقد دخلت هذه الموقعة فى التاريخ الإسلامى باسم موقعة « بلاط الشهداء » لكثرة من استشهد فيها من المسلمين ، وقد أحدثت دويًّا هائلاً فى الأندلس وفى أفريقية ، واعتبرها البعض من المؤرخين الغربيين الكبار من المعارك الحاسمة التى أوقفت احتلال العرب لفرنسا ، ووضعت حدًّا للتوسع الإسلامى فيما وراء جبال البرانس . ورأى السير ادوارد كريزى أن هذا النصر قد أنقذ المسيحية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة وبذور الحضارة الحديثة ، وردّ التفوق القديم للأجناس الآرية على الأجناس السامية ! . بل اعتبر فون شليجل أن كارل مارتل (شارل مارتل) قد أنقذ بسيفه أمم الغرب المسيحية من قبضة الإسلام الفتاكة الهدامة .

وقد انساق بعض المؤرخين العرب وراء هذا الرأى . فقد ذهب محمد عبد الله عنان إلى أنه « فى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصاير العالم القديم كله ، وارتدّ تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية كما ارتدّ قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام ! .. إلخ » .

وفى الحقيقة أن معركة بواتييه لا تعدو أن تكون معركة من المعارك السابقة واللاحقة العديدة التى قامت بين الجيوش الإسلامية والجيوش الأوروبية داخل فرنسا ، وتبادلت فيها الجيوش

الإسلامية والمسيحية الهزيمة والنصر . فقد رأينا كيف انتصر السمح بن مالك ، ثم هزم وقتل وعدد كبير من جيشه بالقرب من تولوز سنة ٧٢١م ، وتولّى عبد الرحمن الغافقى الارتداد بالجيش إلى ناربون ، التى أصبحت قاعدة إسلامية فى أرض فرنسا . كما انتصر عنبسة بن سحيم الكلبى الذى قاد أكبر غارة شهدها جنوب فرنسا إلى ذلك الحين ، ثم هزم وقتل وتولى عذرة بن عبد الله الفهرى الارتداد بالجيش الإسلامى إلى قاعدته ناربون أيضًا . وما حدث بعد هزيمة « بواتييه » ، لا يزيد ولا ينقص عمّا حدث فى الحالتين السابقتين ، فقد عاد الجيش الإسلامى إلى « ناربون » فى فرنسا ولم يخرج من فرنسا ! . بل يقول المؤرخ المستشرق « رينو » إنه عاد وهو « يدمّر كل ما مرّ به ، ومن جملة ذلك دير سولينياك » ! . ثم حقق بعد ذلك الانتصارات فى فرنسا .

ومن الثابت أن شارل مارتل لم يتتبع الجيش الإسلامى ، خشية أن تكون وراء انسحابه حيلة أو خدعة ، بل اكتفى من الغنيمة بالنصر الذى حققه فى « بواتييه » . وعاد إلى الشمال معتزًّا بهذا الانتصار . وبذلك فإن النتائج التى أسفرت عنها هذه الهزيمة لم تخرج عن النتائج التى أسفرت عنها الهزيمتان السابقتان ! .

وهذا ما يعترف به مؤرخ فرنسى آخر ، هو جوستاف لوبون ، فيقول إنه بعد « بواتييه » ، « لم يستطع شارل مارتل طرد العرب من أى مدينة احتلوها عسكريًّا ، واضطر إلى التقهقر تاركًا لهم ما استولوا عليه من البلدان ! . والنتيجة المهمة الوحيدة التى أسفر عنها انتصاره ، هى أنه جعل العرب أقل جرأة على غزو شمال فرنسا . ومثل هذه النتيجة وإن كانت مفيدة – إلا أنها لا تكفى للتضخيم فى أهمية الانتصار الذى حققه هذا القائد » ! .

وهذا هو التقييم الصحيح لموقعة بواتييه . وإذا كان هناك مبرر قومى للمؤرخين الأوروبيين الذين بالغوا فى تقدير أهمية انتصار شارل مارتل ، فقد كان أجدر بالمؤرخين العرب ألا ينزلقوا إلى هذه المبالغة ! .

وفى الواقع أن الوجود العربى فى فرنسا استمر بعد هذه الموقعة لمدة تزيد على قرنين من الزمان ! ، مما يبيّن تمامًا فساد تلك المبالغات ، بل امتد بعد ذلك إلى إيطاليا وسويسرا كما سنبين ذلك فيما بعد .

ولعل النتيجة الوحيدة التى أسفرت عنها تلك الموقعة ، هى أنها أتاحت الفرصة لشارل مارتل ليبسط سيطرته المطلقة على المملكة الميروفنجية فى شمال فرنسا ، وعززت قبضته على أمراء الإقطاع فى الجنوب ، مما هيأ الفرصة لانتقال الملك إلى أسرته ، فتولى بعده ابنه ببين **Pepin** القصير

من ٧٤٧ إلى ٧٦٨م ، وتقاسم بعده ابناه كارلومان وشارل (الذى أصبح شارلمان) الملك فى عام ٧٦٨م ، وقد حكما معا ثلاث سنوات فقط ، وانفرد شارل (شارلمان) بالحكم فى ٧٧١م.

وأخذ شارلمان يعمل على تنفيذ فكرة احياء الامبراطورية الرومانية ، عن طريق توحيد غرب أوروبا تحت حكمه – وتلك هى التى أطلق عليها اسم «الامبراطورية الرومانية المقدسة» . فكان قيام إمبراطورية قوية على حدود الأندلس من أسباب توقف الامتداد العربى داخل فرنسا وأوروبا، ولم تكن هزيمة الجيش الإسلامى فى «بواتييه» هى السبب!.

أما السبب الأساسى فيتمثل فى الفتن والاضطرابات والحروب الداخلية التى حلّت بالأندلس والمغرب ، واستنزفت قوى العرب ، وصرفت اهتمامهم عن استمرار الفتوح فى أوروبا بالمعدّل الذى كانت تسير به ، ثم توقفت تمامًا ، لتبدأ عملية الانحسار . وهذا السبب هو الذى شجع شارل مارتل على معاودة الهجوم بعد ذلك واسترداد بعض ما فتحه العرب ، ثم استكمل ذلك ابنه شارلمان . ولذلك يذكر المؤرخ المستشرق «رينو» أن «فتن العرب المستمرة قد خففت من خناق المسيحيين فى الأندلس والمملكة الفرنجية» ، وأنه «لم يكن هناك من واق لجنوبى فرنسا فى ذلك الوقت أحسن من وقوع العرب فى الخلافات فيما بينهم»! . كما يبرز حقيقة هامّة فى هذا الصدد ، فيذكر أنه كان فى وسع العرب أن يغتنموا فرصة وفاة شارل مارتل سنة ٧٤١ ، وانشغال ابنه «ببين» فى توطيد ملكه فى شمال فرنسا ، فيجددوا حملاتهم على جنوبى فرنسا ، ويبلغوا منها مرادهم ، «ولكن وقوع الشقاق بين العرب أنفسهم ، عاقهم عن كل عمل من هذا القبيل»! .

١٣ - الفتن الطائفية فى الأندلس والصراع مع شارل مارتل

- الصراع الطائفى فى الأندلس .
- تأسيس الدولة الأموية بالأندلس .
- الغزوات العربية لجنوبى فرنسا بعد بلاط الشهداء .
- حملة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى الحمقاء .

١٣ – الفتن الطائفية فى الأندلس والصراع مع شارل مارتل

ترجع أصول الفتنة الطائفية فى الأندلس إلى السياسة العنصرية التى كانت تتبعها الحكومة الأموية فى دمشق ، والقائمة على تفوق الجنس العربى وتفضيله على الأجناس الأخرى التى تعربت بعد الفتوح الإسلامية . فقد حرمت هذه الأجناس ، رغم اعتناقها الإسلام ، من المساواة السياسية والاجتماعية ، بل وفرضت عليها الجزية ! مما يخالف تعاليم الإسلام . وقد أدّى هذا ، بالنسبة للبربر فى المغرب ، إلى انتشار التذمر بينهم ، واعتناق مذهب الخوارج الذى دخل المغرب فى ذلك الحين ، نظرًا لأن أهم مبادئ هذا المبدأ كانت تقوم على عدم حصر الخلافة فى بيت معيّن أو جنس معيّن ، وإنما الخلافة لله ، وتترك لأىّ شخص تختاره الأمة .

ولم يلبث البربر أن قاموا بثورة عنيفة فى المغرب الأقصى فى سنة ١٢٢ هـ . تحت زعامة ميسرة المطغرى الزناتى ، واستطاعوا أن يلحقوا بجيوش الأمويين هزيمة كبيرة فى معركة هامة بأحواز طنجة فى ذلك العام ، وأن يبسطوا سلطانهم على المغرب الأقصى . كما استطاعوا تحت زعامة خالد بن حميد الزناتى هزيمة الجيوش العربية مرة أخرى بالقرب من طنجة ١٢٣ هـ . قتل فيها عدد كبير من أشراف العرب ، ولذا سميت بغزوة الأشراف . واضطر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك إلى إرسال جيش كبير من عرب الشام لقمع الثورة ، عرف « بالطالعة العربية الثانية » ، تمييزًا له عن « الطالعة العربية الأولى » بقيادة موسى بن نصير .

على أن هذا الجيش الشامى لم يلق ترحيبًا من « الحجازيين » ، الذين استقروا فى المغرب من أيام الفتح الإسلامى ، بسبب التنكيل الذى لحق بهم على أيدى عرب الشام سنة ٦٣ هـ . فيما عرف بواقعة الحرّة أيام ثورة عبد الله بن الزبير – وكان يطلق عليهم اسم « البلديين » ، نظرًا لاختلاطهم بالسكان الأصليين فى المغرب والأندلس – ولذلك فقد تخلوا عن هذا الجيش العربى فى القتال الدائر بينه وبين البربر ، فقتل قائده كلثوم فى آخر سنة ١٢٣ هـ ، وتراجعت فلول هذا الجيش بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى ثغر سبتة ، وكان عددهم نحو تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من مصر .

وقد حاول بلج بن بشر الاستنجاد بعرب الأندلس ، ليسمحوا له بالعبور إليهم ، ولكن نظرًا

لأنهم كانوا أيضًا من الحجازيين ، فقد رفضوا ذلك ، خصوصًا وكان زعيمهم عبد الملك بن قطن الفهرى ممن شهدوا وقعة الحرة وقاسوا أهوالها ! .

على أنه فى تلك الأثناء انفجرت ثورة البربر فى الأندلس أيضًا ، بعد أن وصلت إليهم انتصارات إخوانهم بالمغرب ، وهنا اضطر عبد الملك بن قطن إلى الاستعانة بالشاميين ، على أن يعودوا ثانية إلى المغرب بعد انتهاء مهمتهم ! . وبالفعل تمكن جيش بلج بن بشر من هزيمة البربر فى شذونة ، ثم فى قرطبة ، ثم اتحد مع جيش عبد الملك ، واتجهوا إلى طليطلة حيث هزموا تجمعات البربر على نهر التاجو ، وبذلك انتهت ثورة البربر فى الأندلس .

بيد أنه حين طلب عبد الملك بن قطن من جيش بلج بن بشر تنفيذ وعده بالعودة إلى المغرب ، رفض بطبيعة الحال ، وثار وجنوده على عبد الملك وقتلوه ! — الأمر الذى دفع الحجازيين إلى الانتقام لزعيمهم عبد الملك بقتل بلج بن بشر ! ، وقامت حروب طائفية بين الحجازيين والشاميين استمرت حوالى العام ، وانتهت بتعيين الشاعر أبى الخطار بن ضرار الكلبى ، الذى رضيه الطرفانْ لأنه كانْ يمنى الأصل ! ، فقام هذا بتوزيع الشاميين على ولايات الأندلس ليحدّ من شوكتهم ، وأطلق على الأمكنة التى نزلوا فيها أسماء مشابهة للأسماء التى أتوا منها ، مثل حمص (لأشبيلية) ودمشق (لغرناطة) ، والأردن (لمالقة) ومصر (لمرسية) . وقد بقيت هذه الأسماء مرادفةً لأسماء تلك المدن الأندلسية ، خصوصا فى الشعر الأندلسى ! .

على أنه سرعان ما قامت حروب أخرى داخلية فى أواخر عهد الدولة الأموية ، بين اليمنيين والمضريين ، أو بين العدنانية والقيسية ! ، وانقسمت القبائل الشامية والحجازية على نفسها إلى هاتين العصبيتين . وكان زعيم اليمنية هو الوالى نفسه أبو الخطار الكلبى ، وزعيم المضرية هو الصميل بن حاتم ، الذى دخل الأندلس فى طالعة بلج بن بشر . ولكن فى هذه الحروب انتصرت المضرية (عرب الشمال) على اليمنية (عرب الجنوب) فى وقعة « شقندة » فى جنوب قرطبة ، وأقاموا واليًا محايدًا هو يوسف الفهرى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد الصميل بن حاتم زعيم المضرية ! .

على كل حال فقد كان الصميل هو الرجل الذى اختاره عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الذى عرف باسم عبد الرحمن الداخل ، والذى أسس الدولة الأموية بالأندلس ، ليساعده فى تأسيس مملكة له بالأندلس .

ففى تلك الأثناء سقطت الدولة الأموية فى دمشق على أيدى العباسيين سنة ١٣٢ هـ . وتعرض

الأمويون للمطاردة الشديدة والبطش ، ولكن الأمير عبد الرحمن بن معاوية استطاع الفرار إلى المغرب حيث نزل بقبيلة نفزة البربرية فى المغرب الأقصى ، التى يقال إن أمه كانت تنتسب إليها . وقد حاول تأسيس مملكة له فى المغرب بمساعدة أخواله ، ففشل ، وعند ذلك اتجه بأنظاره إلى الأندلس لإقامة هذه المملكة .

على أن « الصميل » زعيم المضرية رفض التعاون مع عبد الرحمن بن معاوية ، حتى لا يهدد نفوذه الذى حصل عليه بانتصاره على اليمنية ، قائلاً لوفد عبد الرحمن الذى قدم إليه لهذا الغرض : إن عبد الرحمن بن معاوية « من قوم ، لو بال أحدهم فى الجزيرة ، لأغرقنا فى بحر بوله ! . وإن أول سيف يسلّ عليه هو سيفى ! » . وهكذا تخلّى عرب الشمال عنه .

وهنا اضطر عبد الرحمن بن معاوية إلى الاتجاه إلى الحزب الأضعف ، وهو حزب اليمنية ، الذى رحب به طلبًا للانتقام مما لحقهم من هزيمة فى « شقندة » ! . فعبر عبد الرحمن المضيق إلى الساحل الجنوبى الشرقى من أسبانيا فى ربيع عام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ، حيث تقدم بمن معه من جنود اليمنية والبربر والموالى إلى قرطبة ، وألحق بالصميل هزيمة ساحقة فى ١٠ من ذى الحجة عام ١٣٨ هـ (١٥ مايو ٧٥٦ م) فى موقعة مشهورة عرفت باسم : موقعة ألاميدا **Alamida** ودخل قرطبة ، وصلى بالناس ، وأعلن قيام دولته الجديدة ، التى استمرت نحو ثلثمائة عام حتى عام ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ! .

هذه – باختصار شديد – قصة الفتن والحروب الداخلية التى اشتعلت فى الأندلس والمغرب بعد معركة بواتييه ، وأثرت فى الفتوحات العربية فى فرنسا وأوروبا . ولم يكن بدّ من عرضها لتمكين القارئ من فهم علاقات القوى بين العرب وأوروبا بعد معركة بواتييه ، والتى يمكن إيجازها فى عبارة واحدة ، هى أنه فى الوقت الذى كان شارل مارتل يوحّد أوروبا الغربية ضد العرب ، كان العرب يتفسّخون وينقسمون فى الأندلس وفى المغرب ! .

ومع ذلك ، فلم يتوقف العرب ، فى مثل تلك الحالة المتردّية من التنازع والتشاحن والحروب فيما بينهم – عن إلهاب أوروبا بالضربات المتوالية كلما توحدت صفوفهم ، ومن الاحتفاظ بقدمهم فى فرنسا الجنوبية ، بل والانطلاق منها إلى إيطاليا وسويسرا وجزر البحر المتوسط ! .

فقد رأينا كيف عاد الجيش الإسلامى بعد هزيمة بواتييه إلى « ناربون » ، وسرعان ما بدأت استعدادات الأخذ بالثأر . فيقول بعض المؤرخين إن الخليفة فى دمشق عيّن عبد الملك بن قطن الفهرى واليًا خلفًا لعبد الرحمن الغافقى ، وجهز معه جيشًا للأخذ بالثأر . وقد قدم عبد الملك إلى

الأندلس ليجد أن هزيمة الجيش الإسلامى قد شجعت سكان شمال الأندلس الجبليين (البشكنس) ، وسكان سبتمانيا وما وراءها من بلاد غالة على الثورة ، بل يقال إن جيشًا فرنسيًّا عبر جبال البرينيه واستولى على « بانبلونة » و« جيرونة » .

وهنا تقدم عبد الملك إلى شمالى أسبانيا ، إلى أراجون ونافار وكاتالونيا ، وألحق الهزيمة بالبشكنس ، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد اللانجدوك **Languedoc** حيث قام بتحصين المدن والمعاقل التى كانت ما تزال فى يد العرب ، وعيّن يوسف الفهرى عاملاً على ناربون ، حيث قام بتحصينها .

وسرعان ما تهيأت الظروف للعرب للانتقال من الوضع الدفاعى فى جنوبى فرنسا إلى الهجوم من جديد . ذلك أن أمراء الإقطاع فى سبتمانيا وبروفانس عادوا بعد واقعة بواتييه إلى محاولة الاستقلال بإماراتهم عن أطماع شارل مارتل ، بينما كان هذا مشغولاً ببسط هيمنته على برجونيه ومقاطعة ليون ، ومقاتلة الفريزون . فتهيأت الفرصة ليوسف الفهرى لخطب ودّ هؤلاء أملاً فى التحالف ضدّ شارل مارتل .

وقد نجح فى خطته هذه مع دوق مرسيليا ، مورونت **Maurontes** ، وأعدّ الاثنان جيشًا جرارًا ، عبر نهر الرون واستولى على مدينة آرل ، ثم زحف إلى قلب إقليم بروفانس ، وحاصر مدينة « فريتا » **Fretta** المعروفة اليوم بـ« سان ريمى » **St Remi** واستولى عليها ، ثم سار إلى أفينيون **Avignon** التى بنى عليها فيما بعد قصر البابوات ، وقد درج العرب على تسميتها « بصخرة أبنيون » ، فاستولى عليها بعد هزيمة جيشها فى ممر دورانس ، وبذلك احتلت مقاطعة بروفانس فى عام ٧٣٤ م .

على هذا النحو ، وبعد معركة بواتييه بعامين اثنين ، كان المسلمون فى جنوبى فرنسا ينتقلون إلى وضع الهجوم . وأخذوا فى تحصين جميع المواقع فى بلاد اللانجدوك حتى ضفاف نهر الرون .

ومع أن عبد الملك بن قطن الفهرى قد عزل فى عام ١١٦ هـ (٧٣٤ م) ، وتولّى بعده عقبة بن الحجاج السلولى . إلا أن هذا الأخير استمر فى سياسة الهجوم . فأغار على بلاد « دوفينيه **Dauphiné** وخرب بلدة سان بول المعروفة باسم الثلاثة قصور ، ومدينة دونزير **Donzaire** واستولى على مدينة فالنس **Valence** الواقعة على نهر الرون ، وخرب كنائس منطقة فين **Vienne** على ضفتى الرون . وللثأر من هزيمة بواتييه احتل من جديد مدينة ليون . وبث الغارات منها على بلاد بورجونية **Burgundy** .

فى ذلك الحين كان شارل مارتل قد انتهى من إخماد الثورات فى الشمال والشرق ، وأخذ يتأهب لقتال المسلمين مرةً أخرى . ولكنه خشى فيما يبدو ألا يواتيه الحظ كما حدث فى موقعة « بواتييه » ، فأرسل يستصرخ بملك اللومبارديين فى إيطاليا ، ليعاونه بجيشه فى قتال المسلمين المتحالفين مع دوق مارسيليا ، والذين كانوا يسيطرون على جبال دوفينيه وبيمونت ، وهى البلاد الواقعة اليوم فى شمال إيطاليا . ثم أرسل أخاه شيلدبراند **Childebrand** لمهاجمة المسلمين فى أفنيون ، وتبعه بنفسه (أى شارل مارتل) على رأس جيش آخر ، بينما تقدم لويت براند **Luitprand** ملك اللومبارديين إلى أفنيون للاشتراك فى القتال ، وتمكنت الجيوش الثلاثة من الاستيلاء على أفنيون عنوة . ثم زحف شارل مارتل بجيشه إلى ناربون وفرض عليها الحصار.

فى تلك الأثناء علم عقبة بن الحجاج فى الأندلس بحصار شارل مارتل لناربون ، فأرسل جيشًا لتعزيز الدفاع عنها . وقد أرسله بحرًا لتفادى عبور البرينيه والاشتباك مع البشكنس ، الذين قطعوا الطريق بين الأندلس وسبتمانيا ، ولكن خبر هذا الجيش نمى إلى علم شارل مارتل ، فترصّد له بجنوده قبل أن يستعد للقتال ، وفاجأه على غرّة ، وألحق به الهزيمة ، ولكن فلول هذا الجيش تمكنت من الوصول إلى ناربون ، القريبة من البحر المتوسط ، وعززت الدفاع عنها . وبالفعل لم يتمكن شارل مارتل من الاستيلاء عليها ! ، واضطر إلى سحب قواته ورفع الحصار عنها ! ، ولكنه قبل رحيله ، وكما يقول المؤرخ رينو – خرب القلاع التى كانت فى « بيزيه » **Béziers** و « أجد » **Agde** الواقعة على الضفة الشمالية لنهر هيرولد ، كما دمر نيم ، وماجلون **Maguelon** الواقعة على البحر ! .

والطريف أن شارل مارتل أخذ معه رهائن من الفرنسيين ، ليجبرهم على خذلان المسلمين ! . ذلك أن الفرنسيين فى تلك الأنحاء الجنوبية من فرنسا كانوا ينظرون إلى شارل مارتل وقومه على أنهم برابرة من أهل الشمال ، بينما كانوا يرون أنفسهم شعبًا ذا حضارة ومدنية من أيام الرومان . ومع أن شارل مارتل كان قد هزم المسلمين فى بواتييه ، إلا أنه لم يبد فى أعينهم كمحرر ، خصوصًا بالنسبة لرجال الدين ؛ لأنه لم يرد العقارات والأراضى التابعة للكنيسة إليهم ، بل وزعها على أنصاره من رجال الحرب ! . ولاشك أن محاولة توحيد البلاد من جانب شارل مارتل ، كانت تؤخذ فى هذا العصر الإقطاعى على أنها محاولة للسيطرة وإخضاع تلك البلاد . وهذا هو السبب فيما رأيناه من تحالف دون أودو ، حاكم أكيتانيا ، مع المسلمين ضد شارل مارتل أيام عنبسة بن سحيم الكلبى ، ثم تحالف « مورونت » أمير مرسيليا مع يوسف الفهرى . فقد كان هؤلاء الأمراء ينظرون

إلى شارل مارتل كأمير إقطاعى مساوٍ لهم يسعى لمدّ سلطانه على جميع الأنحاء ! .

على كل حال ، فقد كان بعد رحيل شارل مارتل عن ناربون ، أن عاد التحالف من جديد بين موروونت دوق مارسيليا وحاكم ناربون العربى ، وأخذا ينشطان لإقامة دولة مستقلة تتعاون مع المسلمين . ولكن شارل مارتل عاد فزحف إلى الجنوب بجيشين ، كان على رأس أحدهما أخوه شيلدبراند سنة ٧٣٩ . واستولى على مارسيليا ، ولكنه لم يقرب المسلمين فى ناربون ! . الأمر الذى لا تفسير له إلا أنه تعلم من درس الحصار الفاشل الذى ضربه حولها أنها أصبحت منيعة على الفتح ! .

وقد مات شارل مارتل بعد هذه الأحداث بعامين فى ٧٤١ م . وبذلك أتيحت للمسلمين الفرصة لتجديد فتح جنوب فرنسا ، انطلاقًا من هذه القلعة المنيعة (ناربون).ولكن الحرب الأهلية داخل الأندلس فى ذلك الحين اتجهت بجهود العرب فى ناربون إلى الأندلس نفسها ، لا إلى جنوب فرنسا لاستكمال الفتح ! .

فقد رأينا فى عرضنا للفتن والحروب الداخلية فى الأندلس ، كيف قتل والى الأندلس عبد الملك بن قطن على يد جيش بلج بن بشر المكون من الشاميين ، والذى سمح له عبد الملك بالدخول إلى البلاد لإخماد ثورة البربر والخروج ثانية إلى المغرب . وكان عبد الملك بن قطن قد عزل كما رأينا فى عام ١١٦ هـ عن ولاية الأندلس ، ولكنه عاد فوثب على الحكم سنة ١٢١ هـ هو ومن معه من اليمنية ، فاغتصبه من عقبة بن الحجاج . ولما كان عبد الرحمن بن علقمة اللخمى ، والى ناربون وقائد جيش المسلمين فى جنوب فرنسا من أنصار عبد الملك بن قطن ، فقد حشد جيشًا ضخمًا من عساكر المسلمين فى ناربون . للانتقام لمقتل عبد الملك ، قدر بعض المؤرخين عدده بمائة ألف ، بينما قدره البعض الآخر بـ ٤٠ ألفا ؛ وزحف من ناربون على الأندلس ، حيث اشتبك مع جيش بلج بن بشر فى معركة كبيرة فى موقع يقال له أجوه بورتورا Agua Bortora وقد هزم جيش عبد الرحمن بن علقمة ، وقتل من جنوده نحو عشرة آلاف ، ولكنه تمكن من قتل بلج بن بشر ، وعاد بجيشه إلى ناربون ! .

كانت هذه الحملة الثأرية التى قام بها عبد الرحمن بن علقمة اللخمى ، من أحمق الحملات فى التاريخ ، وأكثرها رعونة ، لأن خروج هذا الجيش الكبير من جنوب فرنسا للاشتراك فى الحرب الطائفية ، قد أثر على مركز المسلمين فى ناربون وفى الجهات المجاورة لها من مدن سبتمانيا ،

وهكذا – وكما يقول المؤرخ الفرنسى المستشرق رينو – « تغيرت الحال فى جنوب فرنسا ، وخلا الجو للمسيحيين ، على الرغم من أن « ببين القصير » ابن شارل مارتل وخليفته ، كان قصير الباع فاتر الهمة » ! .

وهكذا كان العرب يبددون بخلافاتهم وتقاتلهم ما حصدوه بوحدتهم وقتال الأعداء ! .

١٤ – أوروبا بين العباسيين فى بغداد والأمويين فى الأندلس

- انحسار المد العربى فى جنوبى فرنسا بعد حملة عبد الرحمن بن علقمة .
- الانقلاب الدبلوماسى فى علاقات العرب بأوروبا بعد تأسيس الدولة الأموية بالأندلس .
- تحالف العباسيين مع الفرنجه ضد الأندلس .
- حملة شرلمان على الأندلس ٧٧٨ م .
- موقعة رونسسفال ٧٧٨ م .
- بين هارون الرشيد وشارلمان .

١٤ – أوروبا بين العباسيين فى بغداد والأمويين فى الأندلس !

قلنا إن انقسام العرب والفتن التى قامت بينهم كانت هى السبب فى عدم استكمال الفتوح فى أوروبا ، وانسحابهم فى النهاية من جنوب فرنسا – ولم يكن السبب موقعة بواتييه ! .

وفى الحقيقة أن موقف العرب فى جنوب فرنسا قبل خروج حملة عبدالرحمن بن علقمة الحمقاء إلى الأندلس ، كان من القوة بحيث إنه كان جديرا بأن يمكنهم من استرداد مافقدوه على يد شارل مارتل ، عندما وصل ابنه (ببين القصير) إلى العرش ؛ فبالإضافة الى تعدادهم الذى رأينا أنموذجا له فى جيش عبدالرحمن بن علقمة السالف الذكر . فإنهم لم يكونوا يسيطرون على منطقة ناربون فقط ، بل استولوا على «نيم» والمدن المجاورة لها إلى الشمال من تلك القاعدة ! .

ولكن بعد خروج هذا الجيش العرمرم من ناربون إلى الأندلس للاشتراك فى الحرب الطائفية – كان من الطبيعى أن تخف الحاميات الإسلامية فى تلك المدن ، حتى أصبح فى «نيم» وفى « بيزيه » وفى « ماجلون » حكومة محلية مستقلة لحدٍّ ما ، وأمير يدير أمورها ، ولكنه معترف بسلطان المسلمين . كما حدث نفس الشىء فى شمالى أسبانيا – أى استوريا ونافار وغيرهما ! .

وسرعان ماأخذ هذا الوضع الجديد يفرض نفسه شيئًا فشيئًا على علاقات العرب بكل من جنوبى فرنسا وأسبانيا ذاتها . ففى عام ١٢٩ هـ (٧٤٧م) تولّى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وقد أراد إعادة الاتصال بين الأندلس وناربون ، فأنفذ ابنه عبدالرحمن بجيش إلى جبال البرانس لإخضاع أهل « جليقية » (فى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية) ، والتغلب على مقاومة القائد « بلاى » الذى ذكرنا أنه انسحب ببقايا الجيش القوطى إلى إقليم استورياس وتركه العرب استخفافًا بشأنه ، فسيطر على هذا الإقليم . ولكن جيش عبدالرحمن لقى مقاومة شديدة من المسيحيين كما يقول المؤرخ رينو . وظلّ الاتصال منقطعًا بين الأندلس وسبتمانيا .

وسرعان ماأخذ المسلمون فى ناربون يتعرضون للهجوم من جانب ببين الثانى ، ابن شارل مارتل ، ومن جانب دوق أكيتانيا المسمى ڤايفر Vaifre ، وهو ابن أودو . وقد أراد ببين أن يسبق ڤايفر إلى الهجوم ، فسار فى سنة٧٥٢م إلى اللانجدوك ، واستولى على نيم ، وأجد ،

ومجلون ، وبيزيه ، ومن هناك تقدم إلى ناربون وفرض عليها الحصار . ولكنه عجز كما عجز أبوه شارل مارتل عن فتحها ! . فأبقى جانبا من جنده حولها بقيادة أمير قوطى يدعى أنسماندوس Ansemundus ، ولكن العرب قتلوه فى كمين ، ووقعت مجاعة فى ذلك الحين فى جنوب فرنسا ، فعطلت حركات الجيوش ، ولكن ناربون ظلّت تحت الحصار .

استمر حصار ناربون ، وفقًا لرينو ، من ٧٥٢ إلى ٧٥٩م (١٣٣ - ١٤١ هـ) . ومع ذلك فلم يستطع ببين فتحها عنوة ، وإنما بطريق الخديعة . فحين أضر الحصار بسكان ناربون المسيحيين ، ولم يعد لهم به طاقة ، اتصلوا بالملك ببين سرا ، واتفقوا معه على الانقضاض على المسلمين والانضمام إلى جيشه ، بشرط أن يكونوا فى المستقبل أحرارًا فى مدينتهم . ثم انقضوا على الحامية الإسلامية فى غفلة ، وذبحوا أفرادها جميعًا ، وفتحوا أبواب المدينة لجيش ببين ، وبذلك انتهت حكومة الإسلام فى ناربون .

على أن المسلمين لم ينتهوا من جنوب فرنسا . فقد بقيت منهم طوائف فى مقاطعة دوفينيه ، وفى مقاطعة نيس ، وفى جبال الألب . وبقيت هذه الجماعات متمكنة من هذه الجهات طوال مدة حكم ببين ثم ابنه كارولوس ماجنوس Carolus Magnus أى شارل العظيم (شارلمان) ، واحتلت مدينة جرينوبل Grenoble . وظل المسلمون فى دوفينيه منذ ذلك الحين إلى أوائل القرن العاشر ، حيث جددوا إغارتهم على بروفانس ، وزحفوا إلى بيمونت فى إيطاليا وسويسرة كما سوف نرى .

وقد بدأت صفحة العلاقات العربية الأوروبية الجديدة مع وصول عبدالرحمن الداخل إلى الحكم فى الأندلس فى عام ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) . ذلك أن قيام الدولة الأموية فى الأندلس بعد قيام الدولة العباسية فى المشرق فى عام ١٣٢هـ بست سنوات ، كان أشبه بانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى دولة رومانية شرقية ودولة رومانية غربية ! . فقد كان بين الدولتين الإسلاميتين حاجز كثيف من الدماء الأموية التى أريقت على يد العباسيين ، وخوف شديد وتوجس شديد يدفع كلاً منهما إلى الحذر من الأخرى أكثر مما تحذر من أعداء الإسلام الأوروبيين ! . فقد روى عن المنصور أنه قال : « الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » ! . يقصد عبدالرحمن الداخل . بينما كان هذا الأخير يقطع رءوس من يرسلهم المنصور للتآمر عليه ويبعث بها إليه ! .

والأمر الذى يعنينا هنا هو مايتعلق بتأثير هذا العداء الشديد بين الدولتين العربيتين ، على علاقتهما بأوروبا .

ذلك أن أعظم دولتين فى أوروبا فى ذلك الوقت كانتا تتمثلان فى الدولة البيزنطية فى شرق أوروبا ، ودولة الفرنجة الفتية التى وحدت فرنسا فى غربها . وكانت الدولة البيزنطية تجاور الدولة العباسية من الشرق ، بينما كانت دولة الفرنجة تجاور الدولة الأموية فى الأندلس فى الغرب . وبحكم العداء الشديد بين الدولتين العربيتين وقعت أغرب محالفة بينهما وبين أوروبا ، فقد قامت علاقة تقارب ومودة بين الدولة العباسية فى الشرق ودولة الفرنجه فى الغرب بسبب عدائهما المشترك للدولة الأموية فى الأندلس ، بينما قامت علاقة مودة وتقارب بين الدولة الأموية فى الأندلس وبين الدولة البيزنطية فى الشرق بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية ! . وكان هناك عداء بين الدولتين الأوروبيتين الكبيرتين بسبب العداوة بين البابوية فى روما والدولة البيزنطية ، ومساندة دولة الفرنجة للبابوية .

وقد أدت هذه العلاقات السياسية الجديدة بين الدولتين العربيتين والدولتين الأوروبيتين إلى نتائج لم يسبق لها نظير منذ ظهور الإسلام . فبعد أن كان عالم البحر المتوسط فى ذلك الحين ينقسم بين المسيحيين والمسلمين ، أو بين الأوروبيين والعرب أصبح ينقسم بين تكتل عربى أوروبى من جهة ، وتكتل عربى أوروبى آخر من جهة أخرى ! . بكل نتائج ذلك على الدبلوماسية والحرب ! .

وقد كانت هذه هى أكبر نقطة تحوّل فى العلاقات الدولية فى العصور الوسطى جرت فى ذلك الحين ، وأعظم فاصل بين مرحلتين من مراحل العلاقات بين العرب وأوروبا . فحتى ذلك الحين كانت العلاقات بين الطرفين علاقة حرب وغزو وفتح ، فدخل عنصر جديد هو العلاقات الدبلوماسية ، وتبادل المنافع التجارية ، وإرسال السفارات . وتراجع العامل الدينى والقومى الذى ظلّ يسيطر على سلوك العرب ، حتى فى خلافاتهم ومنازعاتهم وحروبهم — وحل محله عامل المصالح والمنافع المشتركة ! .

ويمكن فهم سلوك خلفاء الدولة العباسية فى ضوء الحرص الطبيعى على وحدة الدولة الإسلامية ، والرغبة فى إعادة الأندلس إلى حظيرة الإمبراطورية الإسلامية ، والقضاء على خطر استرداد هذه الدولة الحكم من أيدى العباسيين وإعادة الحكم الأموى إلى دمشق مرة أخرى . وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض لم يتورّع هؤلاء الخلفاء عن السعى إلى التحالف مع الدولة الفرنجيه ضد الأندلسيين عندما فشلت محاولاتهم لإسقاط الحكم الأموى هناك ! .

وكان الخليفة المنصور قد أشعل ثورة فى الأندلس على رأسها العلاء بن مغيث اليحصبى فى

باجة سنة ١٤٦ هـ ، حين أخذ العلاء يدعو إلى طاعة أبى جعفر المنصور ، فتبعه خلق كثير ، ولكن عبد الرحمن الداخل تمكن من إلحاق الهزيمة به وبجيشه ، وقتل العلاء ، وأرسل رأسه إلى المنصور ! .

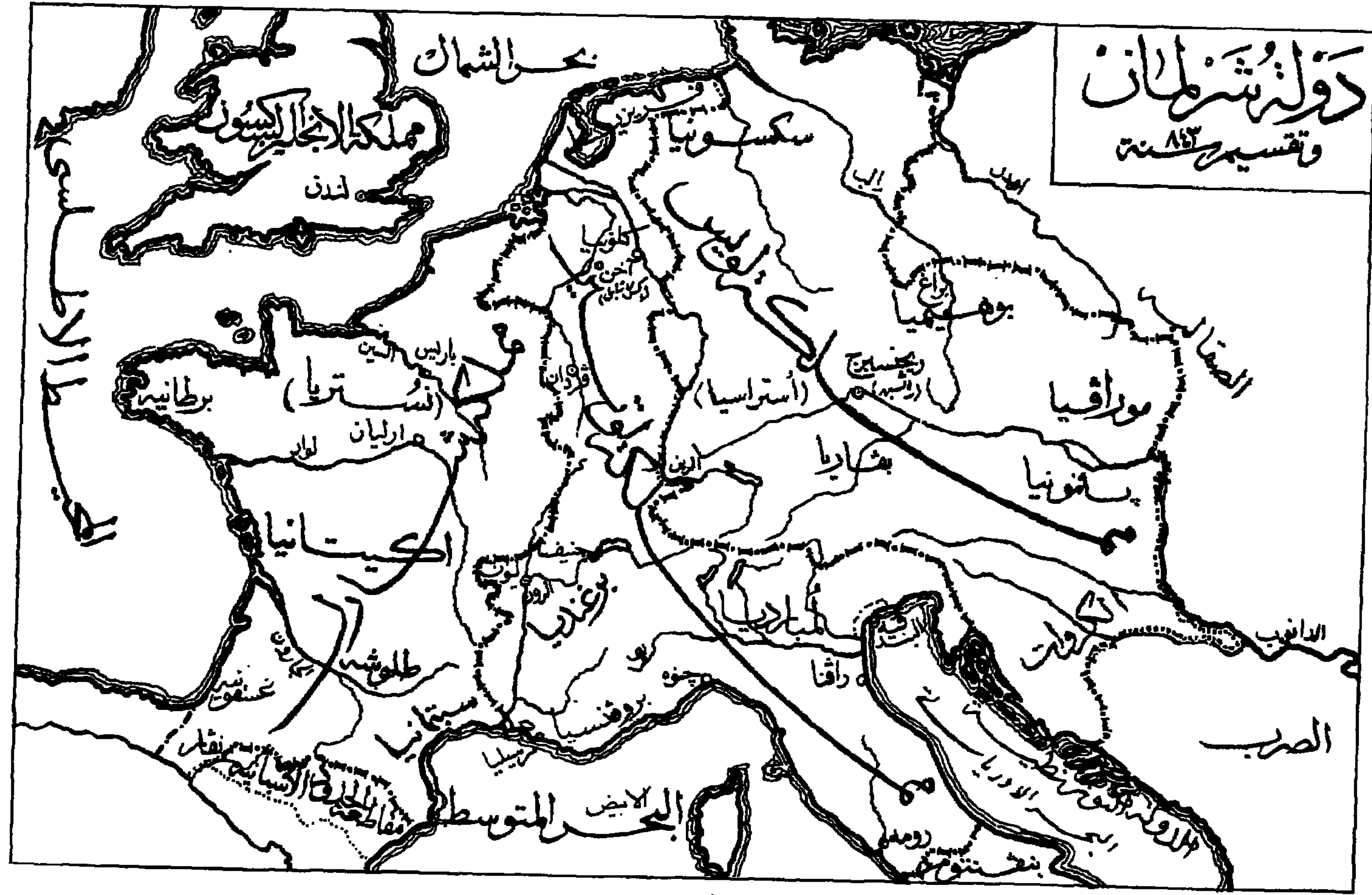
ويقول بعض المؤرخين إن المنصور رأى ألا سبيل إلى القضاء على الإمارة الأموية بالأندلس ، إلا عن طريق التحالف مع دولة الفرنجة الفتية ، فأرسل بعثة دبلوماسية إلى «ببين» Pepin تخطبّ ودّه وتطلب صداقته مع الخلافة العباسية . ولكن المؤرخ الفرنسى رينو يرى أن ببين هو الذى سعى بنفسه إلى هذه الصداقة . . فلم يكن يخشى عادية المنصور ، لبعد دولته عن فرنسا ، وفى الوقت نفسه كان يرجو نصرته لأن عدوهما كان واحدًا ، ولذا سارع بالدخول فى علاقات مع المنصور .

وفى سنة ٧٦٥ م . (١٤٨ هـ) أرسل ببن سفارة إلى بغداد ، لبثت ثلاث سنوات ، ورجعت إلى فرنسا ومعها رسل الخليفة ، فنزلوا فى مرسيليا ، وذهبوا إلى مقر ببن ، فبالغ فى الاحتفاء بهم . وقضوا ذلك الشتاء فى مدينة « متز » باللورين ثم أمر ببن بإقامتهم فى قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ، ثم أعيدوا إلى الشرق عن طريق مرسيليا ، ومعهم هدايا ببن إلى الخليفة العباسى ! .

وقد استمر الخليفة محمد المهدى بن المنصور على خطة تحسين العلاقات مع دولة الفرنجة . وفى عهده دخلت هذه العلاقات مرحلة التحالف العسكرى مع شارلمان (ابن ببن) . الذى تولّى سنة ٧٦٨ م . وكان فى تلك الأثناء قد فرغ من حروبه فى أوربا ، وضمت مملكته لمبارديا وسكسونيا وباڤيا وبلاد الأفار ، وامتد ملكه حتى الدانوب .

وكانت ظروف الفتن فى الأندلس هى التى هيأت ذلك حين ظهر فى الأندلس تحالف قوى بين حاكم سرقسطة ، وهو سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، الملقب بالصقلبى تمييزًا له عن والٍ آخر بهذا الاسم ، وأبو الأسود بن يوسف – وكان هدف هذا التحالف إسقاط الحكم الأموى فى الأندلس ، وإعادة الأندلس إلى حكم العباسيين .

ولتحقيق هذا الهدف ، اتصل هؤلاء بالخليفة العباسى فى بغداد لإعانتهم بجيش من شمال أفريقية ، على أن يشترك شارلمان فى الخطة بالإطباق بجيوشه على الأندلس من الشمال ، وبذلك تتوزع جيوش عبد الرحمن الداخل بين جبهتين ، ويسهل القضاء عليه ! . وكانت الخطة أن يهاجم عبد الرحمن بن حبيب الصقلبى الجنوب الشرقى للأندلس بجيش من أفريقية ، وينزل فى مدينة مرسية **Murcia** بينما يعبر شارلمان بجيوشه جبال البرينيه ويتجه إلى مدينة سرقسطة فيسلمها له سليمان بن يقظان الكلبى ! .


دولة شرلمان
وتقسيمها سنة ٨٤٣
بحر الشمال
مملكة الانجلوسكسون
لندن
سكسونيا
بوهيميا
مورافيا
بنونيا
باريس
نستريا
برطانيه
اورليان
استراسيا
بفاريا
اكيتانيا
برغنديا
لمبارديا
رافنا
البحر المتوسط الابيض
الصرب
الدانوب
روما

(خريطة رقم ١٥)

وسار سليمان بن يقظان مع نفر من أنصاره إلى لقاء شارلمان ، الذى كان يقيم وقتذاك فى بادربورن فى مقاطعة وستفاليا (شمال غربى ألمانيا) ، فعرض عليه المحالفة على أساس أن يقوم شارلمان بغزو الولايات الشمالية . ويسلمه سليمان المدن التى يحكمها وأنصاره ! .

ويقول المؤرخ رينو إن شارلمان «كان متربصًا فرصةً كهذه لكى ينقض على أسبانيا ، ويملك ولو جزءًا منها ! . فأمر بالنفير العام ، فتوافدت عليه المقاتلة من ألمانيا وفرنسا ولومبارديا » . وأخذ يستعد للغزو . وكان هدفه – كما يقول « أينهارت » الذى كتب تاريخ حياته ، مهاجمة قرطبة ذاتها ، وليس الاستيلاء على المدن التى وعده سليمان بن يقظان بتسليمها ، والسيطرة بذلك على النصف الشمالى لأسبانيا كله ! .

وفى أوائل ربيع ٧٧٨ م . (١٦١ هـ) خرج شارلمان بجيشه المؤلف من فرنجة نوستريا ، ومن ألمانيا ولومبارديا ، وجنود بريتانى وأكيتانيا ، واخترق أكيتانيا ، وقسم جيشه قسمين : عبر أحدهما البرينيه من الجانب الشرقى ، بينما عبرها الآخر من الجانب الغربى ، وكان هو على رأسه ، على أن يلتقى الجيشان أمام سرقسطة ، حيث ينتظره جيش المسلمين . وقد اخترق شارلمان بلاد البشكنس ، Navarre وحاصر عاصمتها بنبلونة قلعة النافاريين ، واستولى عليها بعد قتال عنيف . ثم اتجه إلى سرقسطة وهى أهم الأماكن التى اتفق على تسليمها فى « بادربورن » . وكان القسم الآخر من الجيش الفرنجى قد وصل إلى منطقة برشلونة ، واتجه غربًا للالتقاء بالقوات التى يقودها شارلمان ، وبذلك بدا أن الخطة قد قاربت على النجاح ! .

على أن الأمور فى ذلك الحين كانت تسير فى طريق معاكس تمامًا ، بسبب عدم تمكن الجيوش العربية من الوصول إلى أهدافها فى الأوقات المحددة . فبالنسبة للهجوم من الجنوب ، فقد استطاع عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبى بالفعل تعبئة جيش كبير من البربر فى أفريقية ، وعبر به إلى الأندلس ، ونزل به وبأسطوله على ساحل مرسية سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) ، ولكن ذلك كان قبل تحرك شارلمان بقواته كما أوضحنا . مما أتاح لعبد الرحمن الداخل الفرصة لمواجهته بكامل جيشه ، الأمر الذى دعا الصقلبى إلى طلب المعونة من سليمان بن يقظان ، ولكنه رفض على أساس أن الخطة تقضى ببقائه فى سرقسطة حتى يأتى شارلمان ومساعدته . وبذلك تمكن عبد الرحمن الداخل من مباغتته عند ساحل مرسية والقضاء عليه وإحراق أسطوله . وفشلت على هذا النحو نصف الخطة . أو الجانب الجنوبى من الخطة ! .

وسرعان ما فشل النصف الثانى منها ، لأسباب خارجة عن إرادة سليمان بن يقظان الكلبى .

ذلك أن أهالى سرقسطة عندما علموا باتفاق سليمان مع شارلمان ، رفضوا تسليم مدينتهم لملك مسيحى ، وقاموا بثورة تزعمها رجل منهم هو الحسين بن يحيى الأنصارى ، وأغلقوا أبواب المدينة فى وجه شارلمان وحليفه سليمان بن يقظان ، فاضطر إلى فرض الحصار عليها ، والقبض على سليمان لتغريره به . وبذلك باءت الخطة بالخسران !

وهنا كانت الظروف تهيئ لجيش شارلمان كارثةً حربية . ذلك أن القبائل السكسونية فى ذلك الحين كانت قد انتهزت غياب شارلمان بجيشه الكبير فى أسبانيا ، فقامت بثورة خطيرة فى ألمانيا ، وارتدّت عن المسيحية إلى ديانتها الوثنية ! . ولما كانت هذه الثورة تهدد المملكة الفرنجية ذاتها ، فقد أعطى شارلمان الأولوية لقمعها ، وفكّ الحصار عن سرقسطة ، وأخذ فى الارتداد شمالاً .

على أن صمود سرقسطة شجع سكان المناطق الجبلية فى البرينيه على التصدى لشارلمان أثناء عودته ، وقد تحالف فى ذلك العرب مع المسيحيين من « البشكنس » (الباسك) Vascos ، ولكن شارلمان هاجم بنبلونة ، واستطاع الاستيلاء عليها للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها . ثم غادرها متجهًا إلى جبال البرناس ، وأخذ فى عبور وادى رونسسفال Roncesvalles ولكن القوات العربية والمسيحية كانت تنتظره هناك ، فلم يكد يصل بجيشه ، حتى تركوا مقدمة هذا الجيش تمر دون أن يتعرضوا لها ، وعندما جاءت المؤخرة ، وكانت محملة بالمتاع والأسلاب ، أطبقوا عليها ، واستغلوا خفة أسلحتهم وحسن موقعهم ، ودفعوها إلى مهبط الوادى ، فانفصلت عن مقدمة الجيش ، ودارت معركة طاحنة أبيدت فيها هذه القوة من جيش شارلمان تمامًا ، وسقط فيها عدد كبير من أعاظم قواده ، منهم « ايجيهار » Eggihard وأنسلم Anselme كما قتل رولان Roland والى إقليم بريتانى ، وأعظم قواد شارلمان وصديقه الحميم .

ويقال إن بعض ضباط الجيش طلبوا من « رولان » أن ينفخ فى نفيره لاستدعاء شارلمان على رأس الجيش لنجدته ، ولكنه أبى حتى أثخن بالجراح ، وقد تواترت هذه الواقعة إلى الأجيال التالية . فألهمت أحد الشعراء أنشودة من شعر الملاحم الفرنسى تعرف بأنشودة رولان La Chanson de Roland وهى أنشودة شهيرة تصف هذه المعركة وصفًا أسطوريًا فى أربعة آلاف بيت ! ، وتعدّ من أعظم الآثار الأدبية . وقد ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ! . ويعدها الفرنسيون أوّل أنشودة حماسية فى الأدب الفرنسى .

وعلى كل حال فبهذه الموقعة التى تعرف « بموقعة رونسسڤال » ، أو باب الشزرى ، تكون قد

فشلت أخطر محاولة لإسقاط الحكم الأموى فى الأندلس . وهى موقعة تختلف عن كل المواقع السابقة التى انتصر فيها العرب أو خاضوها فى صراعهم مع أوروبا . فقد كانت نتيجة تدبير مشترك من العرب والأوروبيين ، وانتهت كنتيجة لمقاومة مشتركة بين العرب والأوروبيين أيضًا ! وهو أمر يبين المتغيرات الجديدة التى ظهرت فى العلاقات بين العرب وأوروبا بسبب التقارب والتحالف بين الدولة العباسية فى الشرق والدولة الفرنجية فى الغرب لإسقاط الحكم الأموى بالأندلس ! .

وقد استمر هذا التقارب والتحالف فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد ، حيث توطّدت العلاقة بين الدولتين ، وقامت صلات ودّ بينه وبين شارلمان ، اتخذت شكل بعثات تبودلت فيها الهدايا فى الفترة من ٧٩٧ إلى ٨٠٦ م .

وربما كانت أشهرها البعثة الدبلوماسية التى أرسلها هارون الرشيد إلى بلاط شارلمان ، والتى اهتمت بها المراجع الأجنبية . وقد أراد بها التعاون فى إسقاط الدولة الأموية فى الأندلس ! . فيقول المؤرخون إن شارلمان أرسل بعثة إلى هارون الرشيد يطلب تسليمه مفاتيح بيت المقدس ، حتى يبدو أمام العالم المسيحى بمظهر حامى حمى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين ، ويتفوق بذلك على الدولة البيزنطية ! . وقد انتهز هارون الرشيد وصول هذه البعثة الفرنجية إلى بغداد ، لمفاتحة شارلمان فى التعاون ضدّ الدولة الأموية ، وجهز بعثة دبلوماسية للقيام بهذه المهمة ، وأصدر أمره لرئيسها قائلا : « رأينا أن نوجهك إلى شارلمان بلطائف فى سبيل المودة ، لغاية نرغب فيها إليه من التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس » .

على أن البرامكة فيما يبدو لم يكونوا من هذا الرأى ، فقد توجه السفير الإسلامى إلى دار البرامكة ، وزراء الرشيد ، وأنهى إلى جعفر البرمكى الغاية من هذه البعثة ، مبديًا دهشته من « اتساع الأطماع واستهداف القضاء على الإمارة الأموية » من جانب هارون الرشيد ! .

وقد حاول جعفر البرمكى إثناء هارون الرشيد عن محاربة الأمويين بالأندلس ، ولكنه فشل ، وخرجت البعثة من بغداد وفيها هدايا ثمينة للغاية ، منها مزولة كبيرة لتحديد الوقت قام بصنعها عمال بغداد . ووصلت إلى مرسيليا بعد رحلة استغرقت عشرين يومًا . وهناك علمت أن شارلمان ليس فى عاصمته بل فى روما ، فتوجهت إليه فيها . واستقبل شارلمان البعثة الدبلوماسية العربية مرحبًا ، وتقبل الهدايا التى أرسلت إليه ، ولكن تجربته السابقة فيما يبدو ، والتى أسفرت عن كارثة

معركة رونسسفال ، جعلته يتحفظ فى فكرة خوض حرب جديدة ضدّ الأمويين فى الأندلس . وبذلك لم تحقق هذه البعثة الدبلوماسية غير استمرار العلاقات الودّية بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة !

١٥ – الأندلس وامبراطورية شارلمان

- نتائج انقسام الامبراطورية الإسلامية بين بغداد وقرطبة على الصراع مع أوروبا .
- جهاد الأمويين فى شمال الأندلس .
- غزوات الأمويين فى جنوبى فرنسا .
- سقوط برشلونة فى يد الأسبان ٨٠١ م .
- جهاد عبد الرحمن الأوسط فى شمال الأندلس .

١٥ - الأندلس وإمبراطورية شارلمان !

لعل القارئ قد لاحظ أننا وصلنا الآن إلى نقطة تحوّل تاريخية بالغة الأهمية فى العلاقة بين العرب وأوروبا ، وهى انقسام الإمبراطورية الإسلامية إلى دولتين متخاصمتين : دولة مشرقية ، هى الدولة العباسية فى الشرق ، وعاصمتها بغداد ، ودولة مغربية، هى الدولة الأموية فى الأندلس ، وعاصمتها قرطبة . وتبادل كل من الدولتين العربيتين التحالف مع الدولة الأوروبية البعيدة عنها والتى تجاور الأخرى ! . وقد ترتب على هذا التحوّل نتائج كبرى :

أولها : أن فكرة غزو القسطنطينية من الغرب ، وهى الفكرة الطموحة التى يقال إنها بدأت مع عثمان بن عفان وانتهت بموسى بن نصير ، قد انتهت ولم تعد تقوم لها قائمة ، لأن أساسها وهو الدولة العربية الموحدة التى تدير الإمبراطورية الإسلامية من الشرق ، قد تقوض بعد أن أصبحت دولتين متعاديتين ! .

ثانيا : أن إمكانيات فتح أوروبا على نحو ما تم فى آسيا وشمال أفريقيا والأندلس قد انتهت ، ليس فقط بسبب انقسام الدولة العربية إلى دولتين ، وإنما بسبب تفسخ الدولة العباسية فيما بعد ، حيث أدّى ابتعاد العباسيين بعاصمة الإمبراطورية الإسلامية إلى بغداد النائية على نهر دجلة ، إلى تشجيع ولاة المغرب على الاستقلال الذاتى بشئونهم عن الخلافة ، ثم الانفصال بعد ذلك عن السلطة المركزية فى بغداد ، فى الوقت الذى أصبحت الإمكانيات الذاتية للدولة الأموية فى الأندلس غير كافية وحدها لهزيمة دولة الفرنجة !

ثالثًا : أدت المحالفات التى قامت بين كل من الدولتين العربيتين فى بغداد وقرطبة وبين إحدى الدولتين الأوربيتين الكبرى ، إلى قيام علاقات جديدة بين العرب وأوروبا لم تكن موجودة قبل ذلك منذ ظهور الإسلام . فحتى ذلك التاريخ كان العامل الدينى هو الذى يسيطر على العلاقات بين الطرفين ، ولكن برز عامل آخر لا يقل أهمية ، وهو المصالح المشتركة التى تبيح التحالف مع دولة أوربية مسيحية ضد دولة عربية إسلامية ! .

رابعاً : أن الصراع بين العرب وأوروبا لم يتوقف بعد هذه المتغيّرات الجديدة . لقد تغيّر الميزان الدولى حقيقةً لصالح أوروبا ، ولكن الصراع استمر بشكل مختلف تلعب فيه

التحالفات الإسلامية المسيحية ، أو العربية الأوروبية دورًا هامًا . كما تؤثر فيه بالضرورة الانقسامات التى وقعت فى الدولة الإسلامية ، وانعكاساتها على القوة العربية ، ثم الفتن والحروب الأهلية التى كانت تبدد طاقة الأمة العربية الإسلامية الجديدة ، وتصرفها عن عدوّها الحقيقى إلى القتال فيما بينها .

على كل حال فمنذ ذلك الحين أخذ الصراع بين العرب وأوروبا يدور على محورين :

الأول فى الغرب ، وتتكوّن أطرافه من الدولة العربية فى الأندلس والدول العربية التى ستقوم فى المغرب ، فى مواجهة دولة الفرنجة .

والثانى فى الشرق ، وطرفاه الدولة العباسية والدولة البيزنطية .

وبالنسبة للدولة الأموية فى الأندلس ، فقد رأينا كيف انتهت حملة شارلمان عليها سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) بكارثة معركة رونسسڤال ، وكيف انتصر عبد الرحمن الداخل على أعدائه فى الداخل والخارج انتصارًا حاسمًا . وبذلك استقر الأمر له فى الأندلس ، ولم يعد يهدده أىّ خطر جدّى . وقد أثار هذا النجاح إعجاب أعدائه به ، حتى سماه الخليفة العباسى المنصور « صقر قريش » ! فقد روى ابن عذارى فى « البيان المغرب » أن المنصور سأل يومًا بعض جلسائه عمن هو « صقر قريش »؟. فخالوا أنه يقصد به نفسه ، فقالوا : إنه أمير المؤمنين ، الذى راض الملوك ، وسكّن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . . ! قال : « ما قلتم شيئاً ! » قالوا : « فمعاوية » ، قال : « لا » قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئًا . قالوا : فمن هو ؟ قال : « صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية ، الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدًا أعجميًا ، منفردًا بنفسه ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدّة شكيمته ، ووطّد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين ! » . قال الجميع : « صدقت والله يا أمير المؤمنين » ! .

على أن الدولة الأموية بالأندلس ظلّت مشغولةً بقتال المتمردين فى الداخل ، حتى مات عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٧٢ هـ (أكتوبر ٧٨٨ م) وخلفة ابنه هشام ، فدخل هذا بدوره فى حروب مع أخيه سليمان على الإمارة ، كما اضطر إلى خوض معارك أخرى ضدّ المتمردين .

على أن جماهير المسلمين فى الأندلس ، المتحمسة لقتال أعداء الإسلام ، ضاقت ذرعًا بالتقاتل بين المسلمين . فيقول المؤرخون إنه فى يوم من أيام هشام « كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرون إلاّ على قتال بعضهم البعض ! . وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون إلاّ أن

يقاتلوا أمّة محمد وحدها ! . وأخذوا يضربون الأمثال بخلفاء بغداد الذين كانوا فى ذلك الحين يواصلون غزو القسطنطينية ! » .

وإزاء هذا الضغط الشعبى ، المدعوم بالفتاوى الشرعية ! ، أخذ هشام بن معاوية يوجه جهوده إلى محاربة أعداء الإسلام الأوروبيين واسترداد ما فقد من المملكة بغارات « بين وشارلمان » ، وكسر شوكة مسيحيى شمال الأندلس فى أشتوريس **Asturias** وهى المنطقة التى تراجعت إليها فلول القوط منذ أيام موسى بن نصير ، وتركها المسلمون استخفافًا بأمرها ! . فمع تشعب الصراع الذى خاضه المسلمون فى جنوب فرنسا من جهة ، والحروب الداخلية فيما بينهم من جهة أخرى ، اشتدت شوكة هؤلاء المسيحيين تحت زعامة قائدهم « بلاى » ، وعندما تنبه المسلمون إلى هذا الخطر كان قد استفحل وأصبح أكبر من أى جهود لتصفيته ! ، فقد انتصر بلاى على جيوش المسلمين فى كوفا دونجا **Covadonga** – أو مغارة دونجا – وقتل قائدها ابن علقمة اللخمى ، وتقدمت جيوشه واستردت ما كانت قد فقدته من قبل أيام عقبة بن الحجاج السلولى الذى تولى سنة ١١٦ هـ ، ونجح بلاى فى تأسيس مملكة أشتوريس الصغيرة التى أصبحت نواة الإمارات المسيحية فى شمال الأندلس فيما بعد ! .

لهذه الأسباب ، أعلن هشام بن معاوية الجهاد ، وأمر الناس بأن ينفروا قاصدين جبال البيرينيه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه ، وجب أن يجاهد بماله . وقد نفر الناس حينذاك من كل فج ، وأخذوا ينثالون على الأمير ، ولكن – كما يلاحظ البعض – لم يكن المجاهدون بالأعداد التى كانت تجتمع فى الغزوات الأولى ، « عندما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد فى سبيل الله من أفريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها » ! فبعد انقسام الإمبراطورية الإسلامية أصبح الغزو فى الأندلس منحصرًا فى أهلها ، فلم يجتمع سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل !

وكانت دويلة أشتوريس المسيحية لها جبهتان مع الحدود الإسلامية :

الأولى : مشرقية ، وهى منطقة القلاع **Castellas** ، التى أصبحت قشتالة فيما بعد .

الثانية : غربية ، وهى منطقة غاليسيا أو جليقية .

وقد أرسل هشام بن معاوية شطرًا من هذا الجيش شرقا إلى ألبة **Alava** والقلاع ، على رأسه أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، فوصل إلى وادى إبره ، ومضى فى النهر حتى ألبة ، وهزم جيوش الأسبان المسيحيين ، وقتل الكثيرين منهم « حتى بلغ ما جز من رءوسهم تسعة آلاف رأس ونيف » – كما يقول ابن عذارى .

أما الجيش الثانى فأرسله إلى الغرب ، وعلى رأسه يوسف بن بخت ، وكان هدفه جليقية (غاليسيا) فالتقى بجيش الملك برمود الأول Vermudo ملك أشتوريس على نهر بوربيا Burbia وألحق به الهزيمة . ويقال إنه قتل من جيش الأعداء عشرة آلاف وبذلك استعاد زمام الموقف فى شمال الأندلس . .

ولم يلبث هشام أن أرسل جيشًا ثالثًا إلى فرنسا بقيادة الوزير عبد الملك بن مغيث ، فزحف على كتالونيا وأخذ يتأهب للدخول فى جنوب فرنسا . ويقول المؤرخ الفرنسى رينو : إن دخول هذا الجيش إلى فرنسا كان فى سنة ٧٩٣ ، بينما كان شارلمان يومئذ مشغولاً على ضفاف الدانوب بحرب الأفار ، وكانت نخبة جنود مملكة أكيتانيا غائبة فى إيطاليا بصحبة لويس بن شارلمان ! . وكانت جرندة قد سقطت فى أيدى الفرنجة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) فحاصرها عبد الملك ، وحطم جزءًا من أسوارها بالمجانيق ، ولكنه لم يفتحها ، فمضى إلى سبتمانيا ، وبقى – كما يقول ابن عذارى – شهورًا يحرق القرى ويخرب الحصون ، حتى وصل إلى مدينة ناربون (أو أربونة كما يطلق عليها المؤرخون الإسلاميون) . ويقول رينو إنه لم يتمكن من فتحها لحصانتها ، ولكن ابن عذارى يقول بفتحها ، كما يقول بذلك المقرى أيضًا ! . وقد زحف الجيش الإسلامى منها إلى قرقشونة ، فواجه جيوش جيوم كونت تولوز ! الذى استنفر أمراء المملكة ورجالاتها ، فأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وكان جيوم نائبا عن ملك أكيتانيا لويس . وقد التقى الجيشان على ضفاف نهر « أوربيو » فى المكان المسمى « فيلدانيا » بين قرقشونة وناربون . وكانت المعركة – كما يقول رينو – من أحمى المعارك وطيسًا ، وقاتل المسيحيون قتال الضوارى ، ولكن المسلمين ثبتوا كالأوتاد ، وألحقوا بالفرنسيين هزيمةً ساحقة وأصابوهم بخسائر فادحة « وغنم المسلمون غنائم لا تحصى » . ولكنهم لم يتعقبوا الفرنسيين اكتفاءً بما أصابوا من السبى والمغانم ، وقفلوا راجعين إلى الأندلس . فكان لهذا الانتصار فرح عظيم عند المسلمين ، إذ طال عهدهم بالظفر فى جنوب فرنسا . وقد بنى هشام بهذه الغنائم عدّة مساجد على شاطئ الوادى الكبير ، وقام بتوسيع نطاق مسجد قرطبة الذى أسسه والده ، كما بنى الجسر الذى عرف بجسر قرطبة .

وقد اشتهر جيوم ، كونت تولوز ، الذى عرف باسم جيوم ذى الأنف القصير ، فى أعقاب هذه الحرب ، بسبب شجاعته ، وأنهى حياته فى الدير ، وصار معدودًا فى مصاف القديسين ، ودخل بعد ذلك فى أساطير الشعراء الفرنسيين ! ، وكانوا يصورون مدينة « نيم » ومدينتى « أورنج

وآرل » كأنها وقعت فى أيدى المسلمين ، ولم يستخلصها منهم سوى ذلك البطل ! – رغم أنه منى بالهزيمة كما ذكرنا .

على كل حال ، فإن انتصار المسلمين فى معركة نهر أوربيو فى جنوب فرنسا ، قد شجع هشام ابن عبد الرحمن على مواصلة الجهاد ، فأرسل فى العام التالى ١٧٨ هـ حملتين أخريين ، توجّهت إحداهما إلى ألبة والقلاع مرة أخرى ، وكانت بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ، أما الثانية فكانت بقيادة عبد الله بن عبد الواحد ، وكانت وجهتها دويلة اشتوريس .

كما أرسل حملة أخرى فى العام التالى ١٧٩ إلى غاليسيا بقيادة عبد الكريم عبد الواحد ، وقد توجهت إلى استرقة فاستولت عليها ، وتراجع ألفونسو الثانى ، الذى يطلق عليه فى المراجع العربية « إذفونش » واستمد معونة البشكنس (الباسك) وعسكر فى جهة بين حيز غاليسيا والصخرة ، وأذن لسكان السهل بالتفرق فى شواهق جبال السواحل ، فأرسل إليه عبد الكريم فرقة من جيشه بقيادة فرج بن الكنانة ، واشتبكت مع بعض قوات ألفونس فى وادٍ يقال له وادى كوثية ، وألحقت بها الهزيمة ، ثم تقدّمت للقاء الجيش الرئيسى بقيادة ألفونس ، ولكنه تحصن فى حصن على وادى نالون ، فزحفت قوات عبد الكريم لفرض الحصار ، ولكن الملك ألفونس انتقل إلى حصن ملكه ، فأرسل وراءه فرج بن كنانة فى عشرة آلاف فارس ، وتمكن من الاشتباك معه ، وإلحاق الهزيمة به ، واستولى على « جميع عدّته وذخره » .

وهكذا أثبت عهد هشام بن معاوية أن المبادرة كانت لاتزال فى يد العرب ، وأنهم أكثر تفوقًا على الأسبان أو الفرنسيين .

على أن الحرب كانت سجالاً فى عهد الحكم بن هشام بينه وبين الأسبان والفرنسيين ، بسبب الثورات الخطيرة التى ثارت ضده ، والتى قضى سنين طويلةً من حكمه فى إخمادها ! . فقد أتاحت هذه الثورات والفتن الفرصة للممالك المسيحية فى شمالى أسبانيا وللفرنسيين الاستيلاء على برشلونة ، التى كانت ، بسبب حصانة موقعها فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، ووجودها على البحر المتوسط ، وقربها من فرنسا شوكةً فى جنب المملكة الفرنجية .

فكما يقول رينو ، كانت برشلونة قد أصبحت للمسلمين معقلاً حصينًا ، وكانت تصدر منها الغارات إلى بلاد المسيحيين ، لتعود محمّلة بالغنائم . وقد اتفق لويس ملك أكيتانيا ، فى جنوب فرنسا ، مع جيوم ، كونت تولوز ، مع أمراء الإقطاع فى هذه الجهات ، على ضرورة الاستيلاء

على برشلونة . وكان شارلمان فى ذلك الحين مشغولا بقضية تتويجه إمبراطورًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وقد قسم الفرنجة جيشهم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يهاجم برشلونة .

وقسم ثان يقوده جيوم ، كونت تولوز ، ويرابط فى الممر الذى تأتى منه جيوش العرب لنجدة أشبيلية من قرطبة .

أما القسم الثالث ، وكان يقوده لويس نفسه ، فقد رابط فى أعالى جبال البيرنيه ، يترصد قدوم الجيش العربى ليشن الهجوم عليه فى الوقت المناسب .

ويقول رينو إن الفرنجة تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من تولّى مهمّة نصب السلالم على الأسوار ، ومنهم من تولّى مهمة جلب المؤن والعدة ، ومنهم من أوكل إليه عمليات الحفر والنقب . واشتد الحصار على نحو لم يعهد من قبل . وقد وصلت جيوش إسلامية لنجدة برشلونة ، ولكنها – بفضل التنظيم السالف الذكر – لم تستطع الوصول إليها ، فتحوّلت إلى أشتورية لمهاجمتها وحمل الفرنجة على فك الحصار ، وألحقت بها الهزيمة فعلاً ، ولكن برشلونة ظلّت وحدها مع ذلك . وهكذا بينما كان جيش المسلمين يحقق انتصارات فى أشتورية ، كانت برشلونة تتعرض للحصار على يدى الفرنجة . ولم يجد أمير برشلونة بدًّا من الخروج عدّة مرات لقتال الفرنجة ، ولكنه فى إحدى المعارك وقع أسيرًا ، ثم حمل الفرنجة على المدينة الحملة الأخيرة فسقطت ! .

كان سقوط برشلونة سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) ، بعد أن بقيت فى يد العرب تسعين عامًا . ولكن الفرنجة لم يملكوا من التسامح ما كان يملكه المسلمون . لقد كانت طريقة المسلمين عند فتح بلد تحويل جانب من كنائسه إلى جوامع ، وعدم التدخل فى الشعائر الدينية لأهل الذمّة ، حتى أنهم فى الشام كانوا يتقاسمون بيت الله مع المسيحيين ، وكذلك فعلوا فى قرطبة ، فقد تقاسموا مع الأوروبيين كنيستهم الكبرى المعروفة « بشنت بنجنت » ثم تنازل المسيحيون عن نصيبهم فى هذه الكنيسة مقابل إعادة بناء كنيسة شنت أجلح فى سنة ١٦٩ هـ . ولكن الفرنجة بعد أن فتحوا برشلونة حوّلوا جوامعها إلى كنائس ! .

وعلى هذا النحو أصبح لفرنسا فى شمال أسبانيا معقلان : أحدهما كتالونيا ، وقاعدتها برشلونة ، والثانية غسقونيا Gascony ومن جملتها نافار وأراجون .

على أن استيلاء الفرنجة على برشلونة لم يلبث أن أجّج الصراع بين الأندلس وفرنسا . ويعبّر عن

ذلك المؤرخ رينو قائلا : « لم تسكن الحرب بين المسلمين والفرنجة فى بلاد أراجون وكاتالونيا ونافار ، وكانت سجالاً بين الفريقين ». ووفقا « لمارمول » فإن أمير سرقسطة لم يلبث أن استرد برشلونة ، ولكن لويس عاد ثانية فاستولى عليها سنة ٨٠٦ (١٩٠ هـ) . وبعد عامين ، أى فى ٨٠٨م (١٩٢ هـ) ، بعث الحكم ابنه هشام على رأس حملة إلى جليقية (غاليسيا) وحقق فيها بعض الانتصارات . وفى العام التالى ١٩٣ هـ ، جمع لويس بن شارلمان حشودًا كبيرة زحف بها لحصار طرطوشة الواقعة جنوب برشلونة ، ولكن الحكم وجه إليه جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه عبد الرحمن وانضمت إليه المتطوعة ، فاشتبك معه فى قتال شديد انتهى بانتصار المسلمين انتصارًا كبيرًا ، وألحقوا خسائر فادحةً فى الأرواح فى جيش لويس ، ولم يعد لويس بعد ذلك لمهاجمة طرطوشه ، فزال الخطر من امتداد الفرنسيين جنوبًا على الساحل الشرقى للأندلس .

على أن عودة الحكم إلى الانشغال بالخارجين عليه ، شجع الفرنجة ثانية على العودة إلى الاعتداء على الثغور مرّة أخرى ، لذلك خرج إليهم الحكم بنفسه فى العام التالى ١٩٦ هـ (٨١٢ م) فى حملة ردع ، فيقول المقرى فى « نفح الطيب » : إنه « أثخن فى القتل والسبى والنهب » ، وأنه « خرب النواحى » ! ويقول ابن عذارى : إنه أوغل فى بلاد المشركين ، وأوقع بهم ، وقفل (راجعًا) .

على أن كلاً من المؤرخين الغربيين لا يحددان الجهات التى قام فيها الحكم بحملته . وفيما يبدو أنها كانت فى شمال أسبانيا . فقد أورد المؤرخ الأسبانى كوندى أن حملة قامت فى تلك السنة (٨١٢ م) على رأسها عبد الرحمن بن الحكم إلى جنوب فرنسا . ومعنى ذلك أنه كان هناك جيشان خرجا فى ذلك العام ، أحدهما على رأسه الحكم نفسه ، واتجه إلى شمال أسبانيا ، والثانى على رأسه عبد الرحمن بن الحكم واتجه إلى جنوب فرنسا ! . ويقول كوندى إن عبد الرحمن عاد فاستولى على جيرونة من كتالونيا ، ووصل إلى ناريون فى جنوب فرنسا ، وعاد بغنائم وافرة .

وبعد ثلاث سنوات أخرى ، أى فى ٨١٥ م (١٩٩ هـ) أرسل الحكم بن هشام حملة كبرى على رأسها عمه عبد الله البلنسى ، لا سترداد برشلونة . ويطلق ابن عذارى على هذه الحملة اسم « الغزوة الشنيعة المشهورة » ! . ويفهم من كلامه أن عبد الله البلنسى عبأ جيشه تعبئة دينية كبيرة ، فقد رفض نصيحة قواده بالهجوم على الأعداء يوم الخميس ! ، وانتظر إلى ساعة الزوال من يوم الجمعة التالى للهجوم ، لأن الرسول ﷺ أوصى بالقتال فى تلك الساعة « فإن فيها تهبّ الأرواح وتفتح أبواب الجنة ، وتستجاب الدعوات » . وقد قاتل المسلمون قتالاً ضاريًا ، « فمنحهم الله

أكتاف المشركين ، وانهزموا وقتل عامتهم ، وفرق جمعهم » . وقد نصب عبد الله البلنسى بعد انتهاء القتال قناةً طويلةً ، وأمر بالرءوس فجمعت ، ثم طرحت حواليها ، حتى غابت القناة فيها » !

وقد مات الحكم سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) بعد أن وطد ملك بنى أمية فى الأندلس ، ليخلفه ابنه الأكبر عبد الرحمن ، الذى عرف باسم عبد الرحمن الأوسط ، وشهدةعهده ذروة عصر الإمارة ، وأصبحت الأندلس من دول العالم العظمى فى ذلك الحين ، إلى جانب الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، والإمبراطورية البيزنطية فى الشرق ، والإمبراطورية العباسية فى بغداد .

ويتضح مما ذكره « المقرى » أن عبد الرحمن الأوسط كان يجعل للصراع مع الأسبان والفرنسيين أولوية على كل الصراعات الداخلية . ولعله كان يرمى إلى أن يشغل المسلمين بهذا الميدان عن الفتن الداخلية فيقول المقرى : إن عبد الرحمن « غزا لأول ولايته إلى جليقية (غاليسيا) ، وأبعد وأطال المغيب ، وأثخن فى أمم النصرانية هناك ، ورجع » .

ولم يمض عام واحد حتى كان يرسل جيشًا بقيادة حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد ، إلى « ألبة والقلاع » ويقصد المؤرخون العرب بذلك قشتالة القديمة وألبا – وقد اقتحمها من فج يقال له « جرنيق » فى باب ألبة . ويرى الدكتور السيد سالم أن هذا الفج لعله الممر المعروف اليوم باسم Guernica بين سيرادى انثيا . **Sierra de Encia** وجبال أتوريتا **Iturrieta** .

ولم يمض عام آخر ، أى فى سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) حتى أرسل عبد الرحمن جيشًا آخر بقيادة عبيد الله بن عبيد الله البلنسى إلى اشتوريس (استوريا) حيث التقى بالأعداء فى موقعة عند جبل يقال له جبل المجوس ، وألحق بهم الهزيمة . وفى نفس السنة تمكن جيش آخر بقيادة العباس ابن عبد الله القرشى من مهاجمة جليقية (غاليسيا) والتوغل فيها حتى بازو **Vizeu** كما أرسل عبيد الله البلنسى فى العام التالى ٢١٣ هـ إلى برشلونة ، ويقول ابن عذارى إنه « جال فى أرض العدو حتى بلغ برشلونة وواصل « تدويخها » (أى قهرها) لمدة ستين يومًا ، ويرى بعض المؤرخين أن عبد الرحمن الأوسط خرج بنفسه فى العام السابق إلى برشلونة .

ولا تعطى الروايات العربية تفصيلات تتعلق بالأسباب ، كما لا تقدم تحليلات كثيرة . ولكن الروايات الإفرنجية تفيد أن المسيحيين فى شمال أسبانيا كانوا دائمى الثورة على الفرنسيين لشدّة عسفهم وظلمهم ، ولم يكونوا يتردّدون فى معظم الحالات فى استدعاء المسلمين لمساعدتهم فى

التخلص من الفرنسيين ! . فيذكر رينو أن مسيحيى نافار ثاروا على الفرنسيين فى ذلك الحين ، واتفقوا مع المسلمين ، وسلموهم مدينة « بنبلونة » ، وعندما أرسل إليهم الإمبراطور اثنين من مساعديه لتسكين الثورة ، قبض عليهما المسيحيون وأرسلوا أحدهما ، وهو الكونت ابل Eble إلى الأمير فى قرطبة ؛ لأنه فرنسى ، بينما عفوا عن الثانى لأنه من أصل غسقونى .

كذلك تمكن أحد القادة القوطيين واسمه إيزون Aizon من تحريك ثورة جماهيرية فى كاتالونية وأراجون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد الواقعة تحت احتلال الفرنسيين ، كما أرسل يستنجد بأمير قرطبة ، بل ذهب بنفسه لاستعجال هذه النجدات ، فأرسل معه عبد الرحمن الأوسط جيشا بقيادة عبيد الله البلنسى ، وصل إلى برشلونة وجيرونة ، واجتاحها ، ثم تقدّم إلى سردانة ، وملأ البلاد عيثًا وتدميرًا – كما جاء فى مجموعة الدون بوكية . على أن عبيد الله لم يتمكن من فتح برشلونة بسبب الدفاع المستميت عنها من جانب حاكمها برنارد بن جيوم ، دوق تولوز ، فاكتفى بالإغارة على نواحيها مدة ستين يومًا ! . وواضح أن هذه هى الإغارة التى أشار إليها ابن عذارى دون تفصيل .

على كل حال ، فعلى هذا النحو كانت الأندلس تقف على قدم المساواة مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت شارلمان وخلفائه ، وتخوض ضدّها الصراع ببسالة وعنف ، برغم أنها كانت تقف وحيدة ولا تستند إلى العمق المديد الذى كانت توفّره لها الدولة الأموية فى دمشق طوال مراحل الفتح .

١٦ - الصراع بين العباسيين والبيزنطيين

- سياسة العباسيين الخارجية بين آسيا وأوروبا .
- الصراع بين الأمويين والبيزنطيين فى آسيا الصغرى .
- موقعة أكرونيون ٧٣٩ م .
- الصراع بين العباسيين والبيزنطيين .
- حملة المعتصم على عمورية ٨٣٣ م .

١٦ - الصراع بين العباسيين والبيزنطيين

فى الوقت الذى كانت الدولة الأمويَّة فى الأندلس تخوض الصراع وحدها ضدّ إمبراطورية شارلمان ، أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فى غرب أوروبا - كانت الدولة العباسية فى بغداد تخوض بدورها الصراع ضدّ الإمبراطورية البيزنطية فى شرق أوروبا .

وقد وقف المؤرخون طويلاً فى تحليل السياسة الخارجية للدولة العباسية ، وإبراز الفروق بينها وبين الخلافة الأموية . فذكروا أن انتقال الخلافة إلى أيدى العباسيين لم يكن مجرد نقل من بيت ملكى إلى بيت آخر ، ولم يكن انتقال العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد انتقالاً من مكان يطلّ على الغرب إلى مكان يطل على الشرق - بل كان انتقالاً من عالم البحر المتوسط إلى العالم الآسيوى ، أو انتقالاً من العالم البيزنطى إلى العالم الفارسى ! . فلقد كان وجه الدولة الأموية إلى الغرب ، وكانت همومها هموماً بحرية غربية ، وبناؤها يعلو ويتكامل فى محيط يونانى رومانى . وأهلها كل يوم ينتزعون قطعةً من أرض الإغريق والرومان ويضيفونها إلى أرضهم ، وكان الهدف هو القسطنطينية ، والحلول محل القسطنطينية وروما فى آن واحد - أى محل الإمبراطورية المسيحية ، والسيادة على البحر المتوسط ! .

وقالوا إن العصر الأموى كان عصر تعريف الدولة الإسلامية بعالم البحر المتوسط ، وتملّكها إياه ، وأن الدولة الأموية كانت تنظر إلى الشواطئ على أنها أبواب وثغور يمكن الانتقال منها للسيطرة على البحر المتوسط والسيادة عليه ، ولكن الخلافة العباسية نظرت إلى هذه الشواطئ على أنها حدود ونهايات ينبغى حمايتها ! .

وقال المؤرخ ديمومبين **Demombynes** لقد ظهر التغيير فى الاتجاه المادى والمعنوى فى الخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة إلى بنى العباس . وتجلّى ذلك بنقل العاصمة من دمشق إلى العراق . لقد كانت الخلافة الأموية تميل لشئون البحر المتوسط ، أما الخلافة العباسية فكان وجهها إلى المشرق ! . وإذا صحّ ما يقال من أن البرامكة فكروا فى فتح القسطنطينية ، فإن هذا الاتجاه السياسى لم يقدّر له من العمر أكثر مما للبرامكة . وابتداءً من القرن التاسع الميلادى أصبح موقف الخلافة فيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية سلبيًّا دفاعيًّا ؛ وأصبحت الخلافة العباسية آسيويةً

خالصةً ، وأخذ نشاطها التجارى يتجه إلى الخليج الفارسى وبحار الهند . وتوسّعها فى آسيا الوسطى .

وفى الواقع أن هذا الرأى ، رغم جاذبيته وأهميته ، إلاّ أنه يحمل مبالغةً كبيرةً ، ويغفل أثر المتغيرات التى وقعت فى الموازين الدولية بقيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب سنة ٨٠٠ ، وانفصال الأندلس عن الدولة العباسية من جهة أخرى .

فالثابت من الحقائق التاريخية أن الدولة الأموية فى أواخر عهدها كانت قد عجزت ، بسبب الفتن والصراعات الداخلية عن حماية الثغور (مواقع الحدود مع الدولة البيزنطية) فانتقل زمام المبادرة إلى يد هذه الدولة ، واسترجعت كثيرًا من المواقع والحصون . وقد كان هذا هو الوضع الذى وجدته الخلافة العباسية . فلم تدر وجهها إلى الشرق كما يقول المؤرخون ، وإنما استأنفت الصراع مع البيزنطيين ، ونقلت إلى يدها زمام المبادرة ، ووصلت جيوشها إلى أسوار القسطنطينية للمرة الرابعة ! . وإذا كانت قد توقفت عن الاستمرار ، فلعوامل أخرى فرضتها الظروف ، ولم تختَرها طواعيةً ، وأحد هذه العوامل الرئيسية ، سقوط الخلافة تحت السيطرة التركية منذ عهد المعتصم . فوجه الخلاف فى الحقيقة لم يكن بين خلافة أموية وخلافة عباسية ، وإنما بين خلافة عربية ، وخلافة غير عربية من الناحية الفعلية ! .

وكنا قد توقفنا فى الصراع الدائر بين الدولة الأموية والبيزنطيين عند آخر حصار للقسطنطينية ، وهو الحصار الثالث ٩٦ – ٩٩ هـ (٧١٥ – ٧١٧ م) ؛ وانسحاب القوات العربية بأمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز . وقد اتبع عمر إزاء الدولة البيزنطية سياسة تختلف عن سياسة خلفاء الدولة الأموية السابقين له واللاحقين ، وتتفق لحدٍّ كبير مع سياسة الخلفاء الراشدين . فمن المعروف أن الخلفاء الأمويين كانوا يقودون «سياسةً إمبراطوريةً» تركّز على الفتح والغنائم ، أكثر مما تركز على الدين . وقد أعاد عمر بن عبد العزيز هذه السياسة إلى القاعدة الإسلامية ، فكان يدعو حصن الروم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال ، كما جعل الرباط فى الثغور ، (أى معاقل الحدود مع البيزنطيين) ، أربعين يومًا ، يرجع المرابط بعدها إلى أهله ليستجم . ودخل فى مفاوضات مع البيزنطيين لفداء الأسرى ، وكان يفدى المسلم بعشرة من الروم ! كما كان يكره قتل أسرى العدو .

وقد تقبل البيزنطيون هذه السياسة بتحفظ كما يقول بعض المؤرخين ، فلم تكن قد غابت عنهم ذكريات العداء الطويل وحصار العاصمة ، ولم يفهموا سياسة عمر بن عبد العزيز إلاّ على أنها ردّ فعل لفوزهم فى ردّ الحصار ! . ولذلك لم تحقق هذه السياسة أغراضها إزاء عدوّ غير متسامح ! .

وقد تخلى خلفاء عمر بن عبد العزيز عن سياسته فور وفاته ، ولكن الدولة البيزنطية كانت قد انتعشت فى تلك الأثناء بعد سقوط الأسرة الهرقلية وتولّى الأسرة الأيسورية ، خصوصاً بعد أن قام ليو الثالث بإصلاحات عسكرية هامّة ، فتوقفت سياسة الزحف على القسطنطينية ، ولكن استمرت الحملات على آسيا الصغرى ، وابتناء الحصون لمراقبة الحدود الغربية الأرمينية . وتعزيز جيش أرمينية لحماية الإقليم من غارات «الخزر» الذين تقع مملكتهم شمال بحر قزوين – فى الجبهة الشرقية ، والروم فى الجبهة الغربية ، والإغارة على الجيوش البيزنطية المجاورة لأرمينية لوضعها دائمًا فى موضع الدفاع .

وفى هذا الضوء يمكننا فهم الحملات التى شنّها على البيزنطيين على التوالى كلٌّ من عمر بن هبيرة ، وعباس بن الوليد ، والوليد بن هشام ، وعبد الرحمن بن سليمان الكلبى ، وعثمان بن حيان المرى ، فى السنوات من ١٠٢ – ١٠٤ هـ . وعندما شنّ «الخزر» هجومًا سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣م) وهى السنة الأخيرة من عهد يزيد الثانى ، اتجهت حملة من ثغور الجزيرة فى ملطية لمهاجمة البيزنطيين ، لمنعهم من الاستفادة من الهجوم الخزرى !.

ومنذ عهد هشام بن عبد الملك ، الذى ولى بعد يزيد ، انتقل ميدان العمليات الحربية إلى آسيا الصغرى . فقام هشام بغزوات كبيرة كلّ صيف ، بلغت فى إحدى المرات ثلاث حملات لتلتقى فى نقطة واحدة . وكان يقود الغزو ابنه معاوية ، وهو جدّ الأمويين فى الأندلس ، وابنه سليمان .

فتعرضت قيسارية لعدة حملات ابتداء من ١٠٧ هـ ، واستولى معاوية بن هشام على خنجرة ١٠٩ هـ / ٧٢٧م «وصمالا» ١١٠ هـ / ٧٢٨م ، وكانت خرشنة هدف حملة ١١٢هـ / ٧٣٠م ، وكانت بقيادة مسلمة ، وقد سارت من ملطية فأحرقت فرندية واستولت على خرشنة .

وفى كثير من هذه الحملات لعب عبد الله أبو الحسين الأنطاكى ، الذى اشتهر باسم « عبد الله البطال » والذى تقدّم ذكره فى حصار القسطنطينية ، وهو من الجند العرب وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك – أدوارًا بطولية جعلته يستحق لقب زعيم الأبطال ! وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص والروايات التى تناولت شجاعته باسم «السيد الغازى» !

وفى ١١٣هـ / ٧٣١م ، وجّه هشام حملةً هامّةً تقدمها البطال ومجموعته ، ولكنها اصطدمت بقوة أكبر عددًا ، فاستشهد عبد الوهاب بن بخت وبعض رفاقه أثناء تغطية إنسحاب

البطال . وفى العام التالى خرج البطال على رأس حملة ثأرية ، تمكنت من أسر قسطنطين ابن الامبراطور ليو الثالث ، ولكن فى أثناء عودتها تعرضت مؤخرتها لهجوم أبادها .

وقد أخذت المعارك بين العرب والبيزنطيين فى الفترة التالية تأخذ شكل حركة مدٍّ وجزر ، فبعد أربع سنوات من التوقّف النسبى من جانب العرب (١١٥ – ١١٨ هـ) . عادوا إلى اندفاعهم داخل آسيا الصغرى ..

ولكن فى عام ١٢٢ هـ /٧٣٩م استطاع البيزنطيون القضاء على جيش عربى من خمسين ألفًا لم يبق منه سوى عشرة آلاف ! . وذلك عند «أكروينون» (أكروينوم) Akroinon. وقد قتل فى هذه المعركة عبد الله البطال ، وكان على رأس الجيش البيزنطى ، طبقاً لما أورده «تيوفانيس» ، الإمبراطور ليو .

وقد شبّه بعض المؤرخين هزيمة أكروينون فى الجبهة الشرقية بهزيمة بواتييه فى الجبهة الغربية ، وإن كان الدكتور شعيرة يرى أنها لم تخرج عن صراع الحدود الذى ينتقل فيه زمام المبادرة من يد إلى أخرى ! . ولكن فتحى عثمان يذكر أن المسلمين اضطروا فى أعقابها إلى الجلاء عن غربى آسيا الصغرى والتراجع شرقًا فجنوباً .

وتحديد أهمية الموقعة على كل حال يأتى فى رأى البعض ، من تحديد هدف الحملات العربية على آسيا الصغرى : هل كان الهدف الفتح والضم ، أم كان الهدف ردع البيزنطيين ووضعهم على الدوام فى مركز الدفاع لا الهجوم . وإن كانت المعركة فى كلتا الحالتين تعدّ من المعارك الهامّة فى الصراع العربى البيزنطى ؛ لأنها أعادت ثقة البيزنطيين فى جيشهم ، وجعلتهم أكثر حرصًا على الاحتفاظ بما اكتسبوه من مميزات على حساب المتاعب التى كانت تأتى للدولة الأمويّة من الجبهة الشرقية .

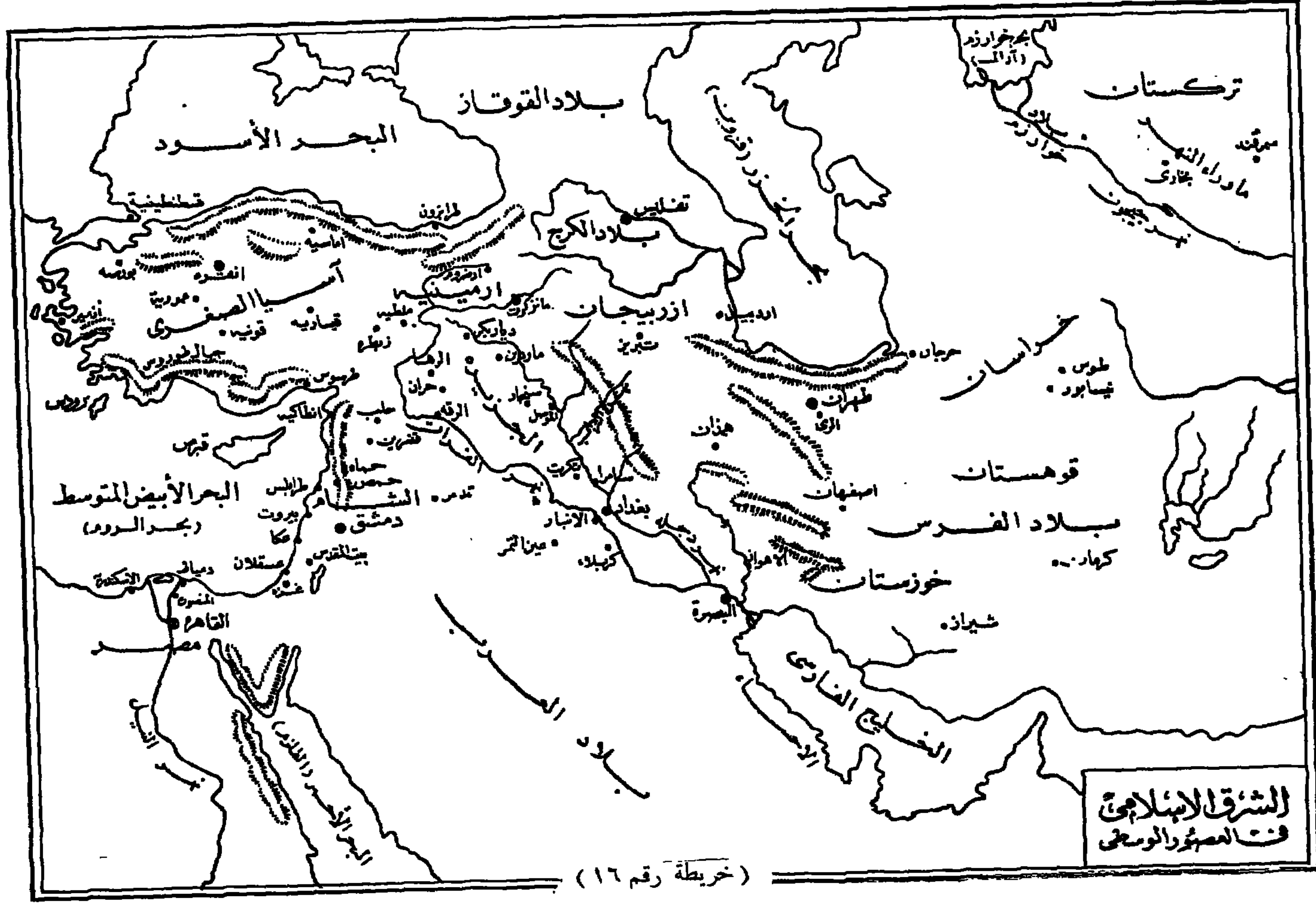
على أنها لم تمنع العرب من العودة إلى شنّ الهجمات وإرسال الغزوات فى قلب آسيا الصغرى ، مستفيدين بدورهم من الصراعات الداخلية فى بيزنطة ، كما حدث عام ١٢٤ هـ أثناء الصراع بين قسطنطين وخصمه «أرتا فاسد» Artavasde ، حين طلب كل من المتنازعين تأييد الخليفة ، ولكن الجيش العربى الذى أرسله الخليفة ، اكتفى بعدم الاصطدام بجيش قسطنطين ، وسار فى الأراضى البيزنطية حتى بافلاجونيا ، فكانت تلك هى المرّة الأخيرة التى يتوغل فيها الجيش العربى إلى هذا المدى داخل أراضى العدوّ حتى نهاية الدولة الأمويّة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م ، إذ سرعان ما التهمتها الصراعات الداخلية ، فانتقل زمام المبادرة إلى البيزنطيين .

ومعنى ذلك أن العرب يهزمون بخلافاتهم وتقاتلهم فيما بينهم بأكثر مما يهزمون على يد الأعداء ! . وهذا هو وجه الشبه الوحيد بين هزيمة أكروينون وهزيمة بواتييه ! . فكلاً منهما أعقبتها فتن وحروب داخلية بين العرب ، ترتّب عليها انحسارهم عن مناطق الغزو فى بلاد الأعداء ، فعزا المؤرخون هذا الانحسار إلى الهزيمة العسكرية ، وهى منها براء .

وفى الحقيقة أنه كان بسبب الصراعات الداخلية فى أواخر عهد الدولة الأمويّة ، أن أخذ البيزنطيون ينتقلون من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم ، فحين كان مروان الثانى ، آخر الخلفاء الأمويين مشغولاً بمحاربة حمص سنة ١٢٨ هـ/ ٧٤٥م ، حاصر البيزنطيون مرعش ، واضطروا أهلها إلى المصالحة على الجلاء عنها ، ثم خربوها ! . وقد استردها الوليد بن هشام فى سنة ١٣٠ هـ ، ولكن البيزنطيين عادوا إلى مهاجمتها . كذلك هاجموا « دلوك » و « زبطرة » ، وحاصروا فى عام ١٣٣ هـ/ ٧٥١م ملطية ، وصالحوا أهلها على الخروج منها ، ثم هدموها ! . كما هاجموا أيضاً مدينتى «قاليقلا» و «الحدث» وهدموا الأخيرة بعد أن أخرجوا منها أهلها . واستولوا بعد قليل على « المصيصة » . وشاع الاضطراب فى إقليم العواصم التى تلى الثغور ، وأخذ السكان فى إخلاء تلك الجهات . وبذلك نجح البيزنطيون فى تدمير النظام الدفاعى الذى بناه العرب . وظلت تحصينات الحدود على هذا الخراب لمدة ست سنوات . وامتد هجوم البيزنطيين إلى الميدان البحرى ، فقد هاجم الأسطول البيزنطى قبرص فى عام ١٢٩ هـ/ ٧٤٧م ، وفاجأ الأسطول الإسلامى على غرّة ، فلم تستطع النجاة سوى ثلاث سفن ! . ثم استرجعوا قبرص ، وصارت حالة الثغور والعواصم فى أواخر الدولة الأموية – كما يقول فتحى عثمان – خاتمةً أليمةً لتاريخ مجيد .

وقد كان هذا هو الحال عند قيام الخلافة العباسية . فلم تكد توطد دولتها ، وتقضى على معارضيها ، حتى أخذت فى حماية نفسها من أخطر عدوّ على حدودها ، وهى الدولة البيزنطية .

ذلك أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة الاضطرابات التى صحبت قيام الخلافة العباسية . فهاجمت المناطق الشمالية للدولة الإسلامية ، وهى منطقة الثغور والعواصم . لذلك أرسل الخليفة أبو العباس عمّه عبد الله بن على ، والى الشام ، على رأس حملة عسكرية لتأمين الحدود . ولكن الخليفة أبو العباس توفى بينما كان عبد الله بن على فى طريقه شمالاً لتنفيذ هذه المهمة سنة ١٣٦ هـ . فتوقف عن التقدم ، وأخذ يستعدّ بهذا الجيش لمحاربة الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور وانتزاع الخلافة منه ! ، ولكن المنصور تغلّب عليه ، كما هو معروف ، بالاستعانة بأبى مسلم الخراسانى ، ثم تخلص من أبى مسلم الخراسانى نفسه بعد ذلك ! وتغلب على ثورة العلويين ، فاستخلص لنفسه



الشرق الإسلامي في العصور الوسطى
البحر الأسود
بلاد القوقاز
تركستان
بلاد الكرج
تفليس
آسيا الصغرى
ارمينية
ازربيجان
قسطنطينية
قونية
قيسارية
انقرة
عمورية
طرابزون
ملطية
خراسان
طوس
نيسابور
قوهستان
بلاد الفرس
خوزستان
شيراز
اصفهان
همذان
طهران
الري
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
قبرص
انطاكية
حلب
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
عكا
عسقلان
غزة
بيت المقدس
الشام
تدمر
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
مصر
بغداد
الانبار
كربلاء
البصرة
الموصل
تكريت
ديار بكر
الرها
حران
الرقة
الخليج الفارسي
بلاد العرب
كرمان
جرجان

(خريطة رقم ١٦)

الخلافة دون منازع ، ولقب نفسه بالمنصور تخليداً لهذه الانتصارات .

وقد اتبع المنصور إزاء الدولة البيزنطية السياسة التى تتفق مع الوضع الهجومى . الذى انتقلت إليه منذ أواخر الدولة الأموية . وهى محاولة إيقاف هذا الهجوم عن طريق إعادة تحصين الثغور المخربة ، وتنظيم وسائل الدفاع عنها . وكانت هذه الثغور تتكون من الثغور الجزرية التى خصصت للدفاع عن «الجزيرة» ، أى شمالى العراق ، ومن أهم حصونها ملطية ومرعش والمصيصة (وقد رأينا أنها خربت على أيدى البيزنطيين) . ومنطقة الثغور الشامية ، ومن أهم حصونها طرسوس وأطنة . وقد أعاد المنصور تحصين هذه الثغور ، وحشد فيها آلاف المقاتلين والمرابطين ، ومنحهم الإقطاعات والمزارع ، كما أعاد بناء الثغور المخربة على يد البيزنطيين ، فأعاد عمران «المصيصة» سنة ١٣٩ هـ ، وأسكنها فى العام التالى وأسماها «المعمورة» ، وبنيت «أذنة» سنة ١٤١ هـ ، كما بنيت «ملطية» فى نفس العام تقريباً ، ثم بنيت «مرعش» وحصن «زبطرة» و «قاليقلا» .

ولم يلبث أن انتقل من الدفاع إلى الهجوم بفضل هذا النظام الثغرى ، الذى ازدهر فى عهد خلفائه ، فوجّه حملةً على رأسها معيوف بن يحيى الحجورى فى عام ١٥٣ هـ/ ٧٧٠ م ، سارت إلى حصن للروم ، ففتحته وأسرت من كان فيه من المقاتلة ، ثم توجهت إلى «اللاذقية المحترقة» Ladicea Combusta ، وتقع شمال قونية ، ففتحتها أيضاً . وتوالت الصوائف - أى الحملات الصيفية ، ما بين سنتى ١٥٤ - ١٥٨ هـ ، وبرز فيها من القادة إلى جانب معيوف بن يحيى ، كلٌ من زفر بن عاصم الهلالى ، ويزيد بن أسيد السلمى . وتجمع روايات الطبرى وابن الأثير واليعقوبى على أن صاحب الروم طلب الصلح من المنصور ، على أن يؤدّى إليه الجزية ! . ولكن فتحى عثمان يشكّك فى هذه الواقعة - ونوافقه على ذلك - على أساس أن ضغط هذه الهجمات الإسلامية على الجبهة البيزنطية لم يكن يكفى لبلوغ هذه النتيجة .

وفيما يبدو أن موت المنصور قد شجع البيزنطيين على إعادة الهجوم ، فقد ذكر بعض المؤرخين أنهم هاجموا سميسطا سنة ١٥٩ هـ ، وسبوا فيها خلقًا كثيرًا ، ولكن المهدى ، الذى تولى ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م ، اتبع سياسة أبيه ، فأرسل العباس بن محمد على رأس حملة فى نفس السنة وصلت ، وفقًا للطبرى ، إلى أنقرة . ثم عادت وبدأت الحملات البحرية تعود إلى الظهور فى حوليات المؤرخين العرب ، وفى عام ١٦٢ هـ . وجّه المهدى حملةً يبلغ تعدادها ثلاثين ألفًا ، على رأسهم الحسن بن قحطبة ، فبلغ «حمة أدرولية» . وقد اتبع هذا سياسة التخريب والتحريق دون أن يفتح حصناً ، وذلك لإرهاب البيزنطيين ! . ويقول المؤرخون إنه استطاع أن يلقى الرعب فى

قلوب الأعداء حتى أسماه الروم «التنين» ! ، «وثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه فى كنائسهم» ! وعلى أثر هذه الحملة ، بنى الحسن بن قحطبة «طرسوس» و «الحدث» .

ولم يكتف المهدى بذلك ، بل خرج بنفسه سنة ١٦٥ هـ . على رأس إحدى الحملات ، واصطحب معه ابنه هارون . ولكنه اضطر إلى العودة إلى بغداد بعد وصوله إلى بلدة «أبلستان» فى آسيا الصغرى ، تاركًا القيادة لهارون ، فواصل هذا زحفه مخترقًا آسيا الصغرى ، مدمّرًا حصون البيزنطيين ، حتى بلغ مضيق البسفور خريسو بوليس Chrysopolis (اسكدار) ، كما يذكر تيوفانس . واضطرت إيرين التى كانت تحكم باسم ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧ م) إلى توقيع معاهدة «فى غاية الإذلال لبيزنطة» ، تقضى بدفع جزية للخليفة مقدارها تسعون ألف دينار سنويًا ، وتسليم الأسرى . وعاد هارون سنة ١٦٦ هـ .

وقد كانت هذه الحملة هى التى أكسبت هارون شهرته ، كما يقول الدكتور «فيليب حتى» . وكانت هى المرة الرابعة التى تصل فيها الجيوش العربية إلى أسوار العاصمة البيزنطية . وقد دلّت على قدرة العرب الفائقة على هزيمة عدوهم إذا كانوا متحدين ومتماسكين ! .

وقد كان على أثر هذه الهزيمة والصلح أن مرّت فترة هدوء بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية . وفى تلك الأثناء كانت الاضطرابات قد نشبت فى الدولة البيزنطية ، منذ أزاحت أيرين ابنها قسطنطين السادس ، وحكمت منفردةً من ٧٩٧ – ٨٠٢م . وانتهز الفرصة نقفوروس Nicephorus ، فاستولى على التاج سنة ٨٠٢م ، واتجه همه إلى التخلّص من المعاهدة المذلّة لبيزنطة التى عقدتها ايرين مع هارون ، فنقض المعاهدة ، وطلب من الرشيد الذى كان قد تولى الخلافة منذ سنة ٧٨٦م/ ١٧٠ هـ ، ردّ الجزية التى دفعتها إيرين فى خطاب يفيض تحديا . قال فيه :

«من نقفوروس ملك الروم إلى هارون ملك العرب . أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها . لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصّل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك» !

وقد ردّ هارون الرشيد برسالة مشهورة يقول فيها : «بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه . والسلام» ! .

ويقول المؤرخون إنه جهز حملةً ضخمةً زحف بها على آسيا الصغرى ، فتوغّل فيها حتى بلغ

مدينة هرقلة ، المعروفة اليوم باسم «أركلى» ، فحاصرها واستولى عليها عنوةً . كما وجّه عدّة حملات بقيادة كبار قواده أمثال : داود بن عيسى ، وشراحيل بن معن بن زائدة ، ويزيد بن مخلد . وكان نقفوروس وقتها مشغولاً بإخماد ثورة باردانيس Bardanes ، فعرض الاستمرار فى دفع الجزية ثانيةً إذا ما انسحب الجيش الإسلامى من الأبواب القليقية إلى هرقلة . كما تعهّد بعدم ترميم الحصون التى دمرها الرشيد . وقد وافق الرشيد على ذلك مكتفياً بما خرّب من أرض العدوّ وألحق به من الخسائر .

ولم تكن هذه الحملة وحدها هى التى وجهها هارون الرشيد ، فيذكر المؤرخون حملات أخرى ، كان السبب فيها نقض نقفوروس لشروط العهد ! ولكن هارون الرشيد كان يواجه ذلك بحملات كثيفة ، مما اضطر نقفوروس إلى الالتزام بشروط المعاهدة ودفع الجزية !.

ويرى كثير من المؤرخين أن الضربات التى وجهها هارون الرشيد كانت من العنف بحيث أقنعت الدولة البيزنطية بعدم محاولة الاستفادة من الفتنة التى دبّت بعد ذلك بين الأمين والمأمون ، لاستعادة ما فقدته فى عهد الرشيد .

ولكن المصادر التاريخية توضح أن المأمون لم يكد يستتب له الأمر ، حتى استأنف سياسة العداء مع الدولة البيزنطية ، بتأييد ثورة تعرض لها ميخائيل الثانى ، مؤسس الأسرة العمورية Amorian Dynasty (٨٢٠ – ٨٦٧م) ، وقد حكم من ٨٢٠ – ٨٢٩ م . وقد تزعم الثورة توماس الصقلبى . ويقول فازيلييف إن «حلفاً حقيقيًّا كاملاً قام بين توماس والعرب» . وهى ثورة من أكبر الثورات التى قامت فى الإمبراطورية البيزنطية ، وتداخلت فيها الاتجاهات السياسية والدينية والاجتماعية ، ولكنها فشلت بعد هزيمة توماس على يد الإمبراطور ميخائيل سنة ٨٢٣ م . وكانت هذه الهزيمة هزيمةً للخليفة المأمون فى شخص توماس . ولذلك فقد بدأ فى توجيه نشاطه إلى غزو البيزنطيين وقيادة الجيوش بنفسه .

وتتفق كثير من المصادر التاريخية على أن ابتداء حملات المأمون العسكرية على أراضى الدولة البيزنطية كان فى سنة ٨٣٠ م/ ٢١٥ هـ . فقد قاد بنفسه أولى الحملات العسكرية ، وسلك الطريق الموصل إلى «منبج» ثم «دابق» ، فأنطاكية ، فالمصيصة ، فطرسوس ، ودخل من درب قليقية إلى أرض الروم ، فوقعت الاشتباكات فى كبادوكيا ، واستسلم حصن واجدة ، ثم حصن قرة ، كما وجه حملات أخرى إلى بعض المواقع البيزنطية .

وقد أراد تيوفيل الثأر لهذه الهزائم ، فقام بغارة على حصن خرشنة ، ولكن المأمون وجّه حملةً

ثانيةً فى المنطقة نفسها فى العام التالى ٢١٦ هـ/ ٨٣١م . واستولى على هرقلة التى كان الرشيد قد فتحها عام ٨٠٥م . واستردها البيزنطيون . كما وجّه أخاه أبا إسحق وابنه العباس على رأس حملات أخرى قامت بفتح عدد كبير من الحصون وتخريبها . ويرجح «بيورى» أن نجاح هذه الحملات قد شجّع المأمون على إخضاع الإمبراطورية البيزنطية نهائيًا . وقد أورد اليعقوبى أن المأمون فى حملته سنة ٢١٨ هـ . كان يستهدف الاستمرار فى الفتح حتى القسطنطينية ، ويحمل العرب على سكنى المدن التى يفتحها فى آسيا الصغرى . وإذا صح هذا فإن أحلام المأمون كانت تذهب إلى تعريب آسيا الصغرى كما حدث فى الشام وشمالى أفريقيا والأندلس !

على أن هذه الأحلام ماتت بوفاة المأمون فى آخر غزوة من غزواته فى الأراضى البيزنطية فى البندنون شمالى مدينة طرسوس ، فدفن بطرسوس سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣م .

* * *

انتهت أحلام تعريب آسيا الصغرى مع موت المأمون سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، ولكن ملحمة الصراع بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية كانت ما تزال تدخر صفحات مجيدة أخرى على يد الخليفة العباسى المعتصم ، الذى تولّى بعد المأمون .

وكان الخليفة المعتصم ، وهو أبو إسحق محمد ، وأخو المأمون ، من الشخصيات التى أحاطتها كتابات المؤرخين بهالات أسطورية من الشجاعة والقوة البدنية ، حتى قيل إنه يستطيع أن يحمل ألف رطل بسهولة ويمشى بها خطوات ! . أو أنه يلوى عموداً من حديد ويجعله طوقًا ! . وربما كان بسبب ما اتصف به من البأس والشجاعة أن قدّمه المأمون على ولده العباس فى ولاية العهد ! وأسرع العباس بمبايعة عمّه بالخلافة حسمًا لكل فتنة ! .

وفيما يبدو أن الإمبراطور البيزنطى تيوفيل الأول (٨٢٩ - ٨٤٢) ، ثانى أباطرة الأسرة العمورية Amorian Dynasty رأى فى وفاة المأمون فرصة سانحةً لانتزاع زمام المبادرة فى يد الدولة البيزنطية ، خصوصًا بعد أن سبق له أن حقق نصرًا فى حملته على «المصيصة» و «طرسوس» سنة ٨٣١م - التى أشرنا إليها فيما سبق ؛ لذلك انتهز فرصة انشغال المعتصم بقمع فتنة «الخرمية» بناحية أذربيجان ، وجهّز جيشًا كثيفًا بلغ مقداره نحو مائة ألف من البلغار والسلاف والفرس المتمردين ، ودخل الأراضى العربية بجيشه الكبير متجهًا إلى حصن «زبطرة» الحصين فى ثغور الجزيرة قرب الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين ، وقد اختار هذه المدينة لأنها مسقط رأس والدة الخليفة المعتصم وكان يعتزّ بها ! فاقتحمها بجيوشه وقتل الرجال وسبى الذرارى

والنساء . كما هاجم «شمشاط» Samosata وتركها على الفرات خرابًا ، وهاجم أيضاً ملطية ، Melitene وألحق بها الدمار !.

كانت هذه الحملة تحديا شخصيًا للخليفة المعتصم فوق أنها تحدٍّ للإمبراطورية العباسية ، وكان هذا ما فهمه المعتصم على كلِّ حال ، وكان عليه أن يقبل التحدّى ، فيقول المؤرخون إنه سأل الخبراء عن : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟. فقيل : «عمورية» ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهى عين النصرانية !. بل إن «عمورية» كانت فوق ذلك كلِّه موطن الأسرة البيزنطية ، كما أن «زبطرة» مسقط رأس والدة المعتصم !. ومن ثم فقد كانت الهدف المثالى الذى يضرب به المعتصم كبرياء الإمبراطور البيزنطى فى الصميم ويثأر لتدمير «زبطرة» .

هذا يفسر ذلك الجيش العرمرم الذى جمعه الخليفة المعتصم ، والذى يقدّر بعض المؤرخين عدده بخمسمائة ألف والبعض الآخر يقدره بمائتى ألف ! حتى ليذكر بعض المؤرخين أنه «تجهّز جهازًا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ..!. ولاول مرة نقش المعتصم على الألوية والتروس (الدروع) اسم «عمورية» !.

وقد خرج هذا الجيش الكبير من الثغور الشامية فى أبريل سنة ٨٣٣م (٢٢٣ هـ) وقسمه المعتصم إلى ثلاثة أقسام ، دخل أحدها آسيا الصغرى من درب الحدث ، والثانى من درب طرسوس ، والثالث على رأسه الخليفة ، وحدّد لقائديه المواعيد لتلاقى الجيوش الثلاثة عند أنقرة لفتحها .

على أن الإمبراطور تيوفيل علم بخروج هذا الجيش الإسلامى الكبير ، وعرف أنه يقصد عمورية ، فغادر عاصمته لمهاجمة جيش الخليفة شمالاً إلى أنقرة . وقد نصحه قواده بإخلاء عمورية ، ولكنه أصرّ على تحصينها ، وعهد بهذه المهمة إلى أيتيوس Aetius قائد جيش الأناضول ومقرّه عمورية . ولكنه فى تلك الأثناء علم بأن هناك جيشاً إسلاميًّا آخر دخل من الثغور الجزرية ، فقسّم جيشه إلى قسمين وسار لمواجهة هذا الجيش ، بينما ترك أحد أقربائه لمنع تقدم الخليفة ، وقد تلاقى مع هذا الجيش يوم ٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ (٢٢ يوليو ٨٣٣) ، ولكنه هزم وفرّ من الميدان إلى «خليو كومون» Chiliokomaon لمحاولة تجميع شتات جيشه !.

وعند أنقرة تلاقت الجيوش الإسلامية الثلاثة ، فأمر المعتصم بزحفها على عمورية ، وبين كل

جيش والآخر فرسخان ، كما أمر بتحريق القرى وتخريبها أثناء زحف الجيوش ، وأخذ السبايا فيما بين أنقرة وعمورية !.

وفى يوم ٦ رمضان أول أغسطس بدأ حصار عمورية من جانب الجيوش الإسلامية الثلاثة . ولم يجد الإمبراطور تيوفيل منقذاً سوى طلب الصلح من الخليفة ، وبشكل يحمل معنى الإذلال ، فيفهم من كلام اليعقوبى أن الإمبراطور أرسل وفداً إلى المعتصم يعلن تبرؤه مما جرى من تخريب لزبطره !. وينسبه لقواده قائلاً : «إن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا ، تعدّوا أمرى ، وأنا أبنيها بمالى ورجالى ، وأردّ من أخذ من أهلها ، وأخلى جملة مَنْ فى بلاد الروم مِنَ الأسرى ، وأبعث إليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة» . . إلخ .

على أن المعتصم رفض الصلح ، فتراجع الإمبراطور إلى دوريليون **Dorylaion** ، يتابع أخبار الحصار والمعركة . وكانت عمورية قد تحصّنت جيداً كما ذكرنا . ولذلك أمر المعتصم أن تكون الحراسة بالتناوب يحضرها الفرسان ويبيتون على خيولهم بالسلاح لئلا يخرج من عمورية إنسان ، كما أمر بتتابع القواد على القتال كلّ يوم . ويقول بيورى : إن وفداً خرج من عمورية يتألف من بطريقها وثلاثة من الضباط ، للتفاوض على التسليم ، ولكن المعتصم أصرّ على أن يكون استسلاماً دون قيد أو شرط !. فعاد الوفد أدراجه . وفى تلك الأثناء كان الجيش الإسلامى قد تمكن من فتح ثلمة فى السور ، ودخل العرب عمورية يوم ١٧ رمضان ٢٢٣ هـ (١٢ أغسطس ٨٣٣ م) ، فأمر الخليفة المعتصم بإحراقها وهدم أسوارها وأبوابها ، فكان انتقاماً رهيباً من جنس العمل الذى ارتكبه الإمبراطور تيوفيل !. وقد خلّد الشاعر أبو تمام هذا الانتقام فى قصيدته المشهورة التى قال فى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدّ الحدّ بين الجدّ واللعب

وقد انفتح الطريق بعد ذلك أمام المعتصم لمواصلة الزحف على القسطنطينية ، ولكن المؤرخين يختلفون ، فيقول المسعودى : إن المعتصم أراد السير إلى العاصمة والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها براً وبحراً . فأتاه ما أزعجه وأزاله عما عزم عليه ، من أمر العباس بن المأمون ، وأن ناساً قد بايعوه ، وأنه كاتب طاغية الروم ! » ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يرون أن الهدف من حملة عمورية كان هدفاً تأديبياً فقط وبقصد محدّد وغرض مؤقت . وعلى كل حال ، فإذا كان هناك من مغزى لهذه الحملة ، فهو أن المبادرة كانت لا تزال فى يد العرب ، وأنها كانت تواجه الإمبراطورية البيزنطية مواجهة الندّ للندّ ، على الرغم مما تعرضت له من فتن وانقسامات !.

١٧ - السيادة العربية فى شرق البحر المتوسط

- جهاد العباسيين فى شرق البحر المتوسط .
- أثر سيطرة الأتراك على الدولة العباسية على الصراع مع أوروبا .
- ظهور مجاهدة البحر العرب .
- استيلاء الثوار الأندلسيين على جزيرة كريت ٨٢٦ م .
- الدور النضالى لكريت فى البحر المتوسط .

١٧ – السيادة العربية فى شرق البحر المتوسط

على كل حال إذا كان قد ثبت أن الخلفاء العرب العباسيين لم يديروا وجوههم عن الدولة البيزنطية ، رغم انشغالهم بالمشرق ، وأنهم ظلّوا قرابة قرن كامل يمسكون فى أيديهم زمام المبادرة مع أوروبا ، فإن الرأى الآخر الذى يسوقه بعض المؤرخين الأوروبيين والعرب وهو عدم اهتمام الخلافة العباسية بالبحر المتوسط غير صحيح أيضاً .

ففى عام ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م نسمع فى عهد المنصور عن حملة بحريّة بريّة على رأسها ثمامة بن وقاص ، على شواطئ إقليم إيسورا بآسيا الصغرى ، لمهاجمة بعض المواقع الساحلية الهامة . وقد سارع الإمبراطور قسطنطين الخامس بإرسال جيشه وأسطوله لقطع خطّ الرجعة على ثمامه ، واستطاعت السفن البيزنطية قطع الاتصال بينه وبين سفن الشام ، باحتلالها سيس Syce ، بينما حاصر الجيش البيزنطى قوات ثمامة البرية ، ولكن ثمامة أفلت من الحصار .

وقد سعى المنصور لاسترداد قبرص ، التى استرجعها البيزنطيون فى عام ١٢٩ هـ فى أواخر أيام الدولة الأموية . ويقول البلاذرى إنه ردّ جزية أهل قبرص إلى ما كانت عليه أيام معاوية ، بعد أن كان عبد الملك بن مروان قد زادها عليهم ألف دينار .

فلما كان عهد هارون الرشيد ، قامت حملة بحرية فى سنة ٧٩٠م لاستعادة قبرص ، وقد أرسلت الإمبراطورة أيرين جزءًا من الأسطول البيزنطى لنجدتها ، ولكن الأسطول العربى أوقع به الهزيمة ، وأسر المسلمون قائده الذى تعجّل الهجوم ، فأمر الرشيد بقتله . على أن مركز قبرص لم يكن مستقرًا ، لأننا نجد فى سنة ١٩٠ هـ ./ ٨٠٦ م . حملةً بحريةً أخرى على رأسها حميد بن معيوف تتوجّه إلى قبرص ، وتهدم وتحرق وتسبى من أهلها ستة عشر ألفًا . وقد روى البلاذرى أن أهلها نقضوا العهود وتواطئوا مع العدو .

كذلك أرسل الرشيد حملة إلى جزيرة رودس ، عادت بالأسرى والغنائم . ويبدو أن هزيمة المعتصم للبيزنطيين فى عمورية سنه ٨٣٣ ، قد شجعت خلفاءه على المضى قدمًا فى تحدّى بيزنطة . وكنا قد أشرنا إلى رواية المسعودى عن نية المعتصم فى فتح قسطنطينية ، وفى عهد الواثق ٨٤٢ م / ٢٢٧ هـ تتحدث المراجع الأجنبية عن حملة بحرية كبيرة لغزو القسطنطينية ! ، على رأسها

أبو دينار . فتذكر أن المسلمين ظلّوا سنين يبنون أسطولاً كبيرًا حتى سنة ٨٤٢م ، حين توفى المعتصم وتيوفيل ، فقد خرج أبو دينار على رأس أسطول يتكوّن من ٤٠٠ سفينة **dromonds** إلى القسطنطينية ، وقد استعدّت العاصمة للدفاع عن نفسها ، ولكن عاصفةً هبّت وفاجأت الأسطول العربى فى موضع خطير قرب جزر خليودونيان **Chiliodonian** ، فحطمته ، ولم ينج سوى سبع سفن !. فتحطمت تمامًا مع هذا الأسطول آخر الآمال فى غزو القسطنطينية . وقد أولى البيزنطيون هذه الحملة أهمية كبيرةً ، وقرنوها فى الأهمية بانتصار النزعة الموالية للأيقونات وعودة الأرثوذكسية !.

ومع وقوع الخلافة العباسية شيئاً فشيئاً فى قبضة الأتراك ، أخذ الضغط العربى على الإمبراطورية البيزنطية يخفّ تدريجيًّا . وكان استخدام الأتراك قد بدأ فى عهد المأمون الذى عمد إلى استخدام المماليك الأتراك فى حرسه ، للتخلص من النفوذ الفارسى والعربى . فلما ولى المعتصم ، وكانت أمه تركية ، اهتم باقتناء الجند الأتراك وجلبهم من سمرقند وفرغانة وخوارزم وغيرها ، إما عن طريق النخاسة ، أى الشراء ، أو الأسر فى الحروب . وكان غرضه أيضًا التخلص من النفوذ الفارسى والعربى فى الجيش والحكومة على السواء !. إذ وجد أن سياسة الدولة صارت ، بسبب المنافسة الشديدة بين العرب والفرس ، أشبه برجل يركب جوادين !. وكان يعتقد أن الأتراك مجردون من الطموح الذى اتصف به الفرس ، ومن العصبية التى عرف بها العرب !.

ولكن هذا الاعتقاد ثبت خطؤه الفادح فيما بعد منذ مقتل المتوكل بن المعتصم ٢٤٧هـ/ ٨٦١م . إذ أخذ الأتراك يتدخلون فى شئون الدولة حتى صار الخليفة فى أيديهم كالأسير ، «إذا شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه» !. وبذلك فقدت الخلافة العباسية صبغتها العربية الأصيلة ، وفقدت كل ما ترتب على هذه الصفة من آثار سياسية داخلية وخارجية ، فخرجت تدريجيًّا من الصراع مع أوروبا ، وانتهى المدّ العربى فى أوروبا الذى تدفّق من شبه الجزيرة العربية مع ظهور الإسلام ، بالنسبة للدولة العباسية مع أواخر القرن التاسع الميلادى .

على أن انتهاء هذا المدّ المشرقى العربى فى الصراع مع أوروبا فى ذلك الحين ، لم يكن معناه انتهاء الصراع مع أوروبا !. لسبب بسيط هو أن المشرق لم يعد يمثل وحده الأمة العربية ، وإنما كان الأصل ، وكان البذرة التى نمت وامتدت على طوال الشمال الأفريقى والغرب الأوروبى . فكما قلنا فى الصفحات الأولى ، لم يكن الفتح العربى لهذه الجهات فتحًا عسكريًّا ، وإنما كان فتحًا

حضاريًا وجنسيًّا ودينيًّا ولغويًّا ، وبمعنى أدق كان «تعريبًا» ، بكلّ ما تحتويه هذه الكلمة من معنى لتلك الشعوب ، ولذلك لم يكد يضعف دور الخلافة العباسية فى المشرق ، حتى كان المغرب العربى يرث هذا الدور ، ويتولى مع الأندلس قيادة الصراع ضدّ أوروبا ، وفى هذا الصراع استكمل العرب سيادتهم على البحر المتوسط !.

على أن الجديد فى هذا الصراع هو ظهور جماعات عربية تعمل لحسابها الخاص دون اعتماد على الدولة العربية فى الأندلس أو المغرب !. ويفسر الدكتور حسين مؤنس اهتمام العرب فى المغرب بالنشاط البحرى ، بأن المغرب يختلف عن غيره مما دخل فى حوزة الإسلام من بلاد البحر المتوسط ، بأن النشاط البحرى يكوّن جزءًا لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادى والاجتماعى .

لهذا السبب أخذت جزر الباليار ، وهى : ميورقة ومينورقة ويابسة ، وجزيرتا سردينيه وكورسيكا ، تتعرض للغزوات العربية المتوالية . وفى سنة ٨٠٦م اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا ، فأرسل ببين ملك إيطاليا أسطولاً لمطاردتهم ، وقد انسحب العرب عندما شعروا بدنوّ الأسطول الفرنجى ، ولكن «أدمر» ، كونت جنوه ، طمع فيهم وتعقّبهم بأسطول ، فرجعوا إليه وهزموا أسطوله وقتلوه وأسروا ستين راهبًا باعوهم فى الأندلس !. وقد فكّهم شارلمان من الأسْر بفدية أدّاها عنهم !.

وبعد عامين ، أى فى ٨٠٨ م ، قامت حملة بحرية «خاصة» ! من الأندلس ، نزلت بسردينيا لاحتلالها ، ولكنها واجهت مقاومةً شديدةً ، فتوجهت إلى كورسيكا ، فووجهت بمقاومة من القائد بيرشارد **Burchard** ، وخسرت ثلاثة عشر مركباً ، واضطرت إلى الانسحاب . على أنه فى العام التالى مباشرة جاءت حملة خاصة من أفريقيا هذه المرة ، وأفلحت فى النزول فى كورسيكا ، وعاثت فيها ، وعسكرت فى الجهة الشرقية من الجزيرة بين أطلال مدينة آليريا ، وقد لقى الفرنسيون عناءً شديدًا فى إجلائها . ولكنها عادت مرةً أخرى سنة ٨١٣م، فأسرت وغنمت . وعند عودتها قطع عليها كونت أمبورياس **Amporias** الطريق بقوّة بحرية قرب مدينة برنيان ، وغنم منها ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير . وقد انتقم المسلمون لذلك باجتياح سواحل نيس ، وبروفانس ، وسيفيتا ، وفكشيا بقرب رومة !.

ويحمل المؤرخون الأوروبيون على هذه الغارات ، التى يطلقون عليها اسم غارات القراصنة المسلمين ! . وفى الحقيقة أن هذه الجماعات ظهرت كردّ فعل لجماعات مثيلة من الأوروبيين شمل نشاطها الحوضين الشرقى والأوسط للبحر المتوسط ، ولم تكن تفرّق بين البلاد الإسلامية وغيرها ! .

وستتعرض فيما بعد لغارات النورمانديين على سواحل الأندلس الغربية والشرقية . ويعترف رينو بذلك بطريقة مستترة ، فيذكر أنه «انضم إلى قرصان المسلمين قرصان النورمانديين . وأخذوا جميعًا يعيثون فى السواحل الجنوبية ، حتى أمر شارلمان ببناء الأبراج والحصون فى السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع اعتداءات القرصان . وجميع هذه الروايات وردت فى «مجموعة الدون بوكه» . ولكن بعد موت شارلمان استفحلت غزوات المسلمين البحرية ، وفى عهد ابنه لويس الحليم وقع أغرب غزو عربى لجزيرة كريت !.

فقد تعرضنا للثورات التى قامت فى عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وكان أخطر هذه الثورات ثورة أهل الربض بقرطبة عام ٢٠٢ هـ ؛ وكانت السبب فى تلقيبه بالحكم الربضى !. فقد قسم جيشه إلى قسمين . أرسل أحدهما لإحراق مساكن الثائرين ، وأبقى القسم الثانى لحماية القصر بقرطبة . فلما رأى الثوار ما حلّ ببيوتهم بادروا بالعودة لإنقاذ أولادهم ونسائهم ، فواجهتهم السيوف من أمامهم ، بينما كانت الفرقة الثانية من الجيش التى تحرس القصر تعمل سيوفها فيهم من الخلف !. وأسر ٣٠٠ من الثائرين أمر الحكم بصلبهم على نهر الوادى الكبير صفًّا واحدًا من المرج إلى المصارة . وعفا عن الباقين بشرط أن يخرجوا من قرطبة بأولادهم وأسرهم ، فذهب نحو من ثمانية آلاف إلى بلاد المغرب ، ونزلوا بمدينة فاس التى كان قد أسسها إدريس بن إدريس ، وبنوا حيًّا فيها يعرف اليوم باسم حى الأندلسيين . أما الفريق الآخر ، وتقدره المراجع بـ ١٥ ألفًا فقد توجّه بحرًا إلى الإسكندرية فى وقت كانت مصر تضطرم بالثورة ، فاستولى عليها واتخذها قاعدةً لغاراته على جزر بحر اليونان !.

على أنه لم يكد يصل عبد الله بن طاهر بن الحسين قائد المأمون لقمع الثورة ، حتى أرسل إلى هؤلاء الأندلسيين ينذرهم بالحرب أو الخروج ، فلما أحسّوا قوّته ، عقدوا معه صلحًا فى ربيع الأول ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م . تعهدوا فيه بمغادرة الإسكندرية ، وعدم النزول بأرض للدولة العباسية ، بل يستعمروا إحدى جزر بحر اليونان التابع للدولة البيزنطية !. وقد اختاروا كريت لتكون وطنًا دائمًا لهم !.

ويذكر المؤرخون فى سبب اختيار الأندلسيين لجزيرة كريت بالذات ، سبق إغاراتهم عليها ، وإدراكهم أهمية موقعها البحرى . فقد كانت هذه الجزيرة ، التابعة للإمبراطورية البيزنطية ، تتمتع بمركز هام فى تلك البقعة الهامة من البحر المتوسط ؛ إذ كانت تمتد عبر مدخل بحر إيجه ، وتقسمه إلى قسمين تتحكم فى كل منهما . وعندما احتلّ الأندلسيون الإسكندرية لم يركنوا إلى

الراحة ، بل بعثوا بسفنهم تجوب شرقى البحر المتوسط ، إرضاءً لنزعتهم البحرية ، وقد أغارت تلك السفن على كريت وعادت منها محملة بالغنائم والأخبار عن ثراء أهلها !.

وعلى هذا النحو لم يكد يتم الاتفاق على جلاء الأندلسيين عن الإسكندرية ، حتى خرجت هذه الجماعة المغامرة وكانت تبلغ نحو عشرة آلاف مقاتل ، فى نحو أربعين سفينة ، بقيادة أبى عمر حفص بن عيسى الأندلسى ، ورست على شواطئ كريت فى أواخر سنة ٢١٢ هـ (٨٢٦م) ، ففرّت الحامية البيزنطية ، ولم يقاوم الأهالى بسبب كراهيتهم للحكم البيزنطى . ولم يستطع الإمبراطور البيزنطى إرسال مدد إلى الجزيرة لانشغاله بقمع ثورة فى آسيا الصغرى .

وهنا تكرر الروايات التاريخية قصة حرق السفن ، التى نسبت قبل ذلك إلى طارق بن زياد !. فتقول إن أبا حفص أمر بحرق السفن حتى يقطع خطّ الرجعة على جنوده ، ويقضى على أية فكرة قد تراودهم فى العودة إلى الإسكندرية . وحين احتجّوا على ذلك قال لهم : «فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم إلى أرض تفيض باللبن والشهد . هذه أرضكم الحقّة ، فاستريحوا وانسوا أوطانكم المجدبة !.

على كل حال ، فقد استقر هؤلاء فى الجهة الشرقية من الجزيرة ، حيث أسسوا لهم عاصمةً أقاموا بها حصنًا وأحاطوها بخندق لحمايتها . ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها الحالى الذى تعرف به ، وهو «كانديا» Candia !. وقد سارعت بالاعتراف بالتبعية للخلافة العباسية ، وأصبحت جزيرتهم تابعةً لمصر من حيث التقسيم الإدارى ، وبذلك استندت إلى العمق الإسلامى فى المشرق .

على أن هذا الاستيلاء العربى على تلك الجزيرة الهامة ، هدد مخططات البيزنطيين فى شرق البحر المتوسط ، فأخذوا فى إرسال الحملات البحرية لإخراج الأندلسيين من الجزيرة ، ولكنها فشلت . وتبين المراجع حملات أرسلت عام ٨٢٨ ، بقيادة فوتينوس Photeinos أعظم أمراء البحر وقائد جيش الأناضول ، وكراتيروس Krateros قائد الأسطول البحرى بآسيا الصغرى ، وأوريفاس Oryphas أمير البحر . وقد لقيت الحملة الأولى الهزيمة أمام عرب كريت ، وفرّ «فوتينوس» إلى جزيرة ديا Dia شمال كانديا ، ومنها إلى القسطنطينية . وأما الحملة الثانية فقد جاءت فى سبعين سفينة كبيرة ، ورجحت كفّتها فى المعركة التى دارت على الشاطئ ، ولجأ العرب إلى داخل الجزيرة ، ولكن فى أثناء الليل عادوا إلى الشاطئ واستولوا على الأسطول البيزنطى !.

وفاجئوا معسكر الروم ، واضطر كراتيروس إلى الهرب إلى جزيرة كوس Cos ، ولكن العرب تتبعوه ، وقبضوا عليه ونقلوه إلى كريت حيث أعدم !.

ثم انتقلت الجزيرة من وضع الدفاع إلى الهجوم ، فاستولت على بعض جزر بحر إيجه ، بل أخذت تهاجم سواحل آسيا الصغرى نفسها سنة ٨٤١ م ، وأخذوا فى غزوها فى كاريا وأيونيا ، وتوغلوا إلى جبل لاتروس Latros المشهور بأديرته .

ويذكر فاسيلييف Vasiliev أنه حدث فى عام ٨٤٣م . أن أعدّ الوصىّ على الإمبراطور ميخائيل الثالث حملةً بحريةً لتصفية الوجود العربى فى كريت ، تمكنت من مهاجمة العاصمة وإلقاء حصار شديد عليها فى غياب الأسطول العربى ، ولكن قائد المدينة أشاع بين جنود البيزنطيين أن الإمبراطورة الأم ، عينت أحد منافسى القائد البيزنطى واسمه ثيوكيستوس Theokistos فى مجلس الوصاية ، وأبعدته ، فلما وصلت هذه الإشاعة إلى القائد البيزنطى ، أسرع عائدًا إلى القسطنطينية تاركًا جيشه وأسطوله ، فتمكّن العرب من إلحاق الهزيمة بهما .

وقد ظلّت الإمبراطورية البيزنطية عاجزةً عن فتح كريت لمدّة تزيد على قرن آخر من الزمان !. فى الوقت الذى أصبحت كريت بفضل نشاط أسطولها البحرى قاعدةً نضاليةً صلبةً تلهب المواقع البحرية البيزنطية والأسطول البيزنطى بالضربات والغارات حتى اضطر حكام هذه الدولة إلى خطب ودّ حكام كريت العرب . كما تجلى فى الخطاب الذى بعث به بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس فى أوائل القرن العاشر الميلادى قائلاً : «إلى الأمجد الأشرف الأعز أمير جزيرة كريت ، إن أعظم قوّتى العالم أجمع : قوة العرب وقوة الروم ، تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء . ولهذا يجب أن نعيش كإخوة ، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين» .

١٨ – السيادة العربية فى وسط وغربى البحر المتوسط

- تأسيس دولة الأغالبة فى تونس ٨٠١ – ٩٠٩ م .
- فتح صقلية ٨٢٧ – ٩٠٨ م .
- غزو جنوبى ايطاليا .
- فتح مالطة ٨٦٩ م .
- دق أبواب روما ٨٤٦ م .
- غارات النورمانديين على سواحل الأندلس ٨٤٤ م .
- حصار روما الثانى ٨٧٠ م .
- فتح جزر وسط وغربى البحر المتوسط .

١٨ – السيادة العربية فى وسط وغربى البحر المتوسط

على كل حال ، فى نفس الوقت الذى فتح فيه العرب الأندلسيون جزيرة كريت ، بل فى نفس العام ٢١٢ هـ . كان الأغالبة فى تونس يفتحون جزيرة صقلية . فى عملية عسكرية من أشق ما واجه العرب فى نشاطهم البحرى وأطولها أمداً . وكانت جزيرة صقلية من الجزر التى أولاها العرب أهمية كبيرةً منذ اتجهوا بفتوحاتهم إلى البحر المتوسط . ولم يفتئوا يغيرون عليها منذ ذلك الحين . فقد خرجت أول غزوة عليها من شواطئ الشام عام ٣٢ هـ . / ٦٥٢ م ، كما يقول تيوفانيس ، وتتابعت الحملات فى سنة ٤٨ هـ / ٦٦٨ م بقيادة عبد الله بن قيس ، وفى سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م استولى العرب على جزيرة قوصرة ، وهى جزيرة بنتلاريا **Pantellaria** الصغيرة الواقعة شرق تونس ، وهى على بعد ستين ميلاً من صقلية وأربعين ميلاً من تونس . وكانت القنطرة التى قفزوا منها على صقلية . وفى سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م ، ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ، ١١٠ هـ / ٧٢٨ م ، ١١٢ هـ / ٧٣٠ م ، ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م ، ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، تتابعت الحملات على صقلية . ولكنها كانت للغنم والأسر لا الفتح .

على أنه فى ذلك الحين كانت الظروف تتهيأ فى كلٍّ من تونس وصقلية لفتح الجزيرة . وبالنسبة لتونس فإن هارون الرشيد كان قد عيّن عليها إبراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٤ هـ ، بعد فترة طويلة من الاضطرابات والفتن ، وذلك لقمع البربر وغيرهم من جهة ، والوقوف فى وجه دولة الأدارسة التى أسسها إدريس العلوى . ولكن تزايد انشغال الخلافة العباسية بأمور الشرق ، شجع الولاة فى المغرب على الاستقلال شيئاً فشيئاً عن الدولة العباسية ، وتأسيس أسر حاكمة مستقلة أو شبه مستقلة . وكان إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء الولاة الذين أسسوا أسرةً حاكمة شبه مستقلة .

وسرعان ما أخذ فى الاستفادة من المميزات البحرية لولايته فى تكوين مركز مستقل لها فى البحر المتوسط . فقد كانت تونس قبل الإسلام تابعةً لأوروبا ، ثم أصبحت بعد الإسلام تابعةً لدمشق فبغداد ، فأراد ابن الأغلب انتزاع سيادة تونس فى نطاق إسلامى . ولذلك يذكر المؤرخون أنه أخذ وأولاده فى قيادة سياسة بحرية نشطة ، فقد فكروا فى الاستيلاء على صقلية وسردينية مرةً واحدة ، ولكن الظروف لم تمكنهم . وفى سنة ٨١٢ م . عقد عبد الله بن الأغلب صلحاً لعشر

سنوات . على أن هذا الصلح لم يلق رضاءً من كثير من الذين يحملون فى أذهانهم فكرة الجهاد .

ولم تلبث الظروف أن أخذت تتهيأ فى صقلية للفتح . فى ذلك الحين كان قد قام نزاع بين أحد القادة البيزنطيين يدعى يوفميوس **Euphemius** وبين الإمبراطور البيزنطى ترتب عليه محاولة إلقاء القبض عليه ، فذهب يستعين بالقيروان على فتح الجزيرة ، ولما كانت هناك هدنة بين تونس وصقلية ، فلذلك عقد زيادة الله بن الأغلب مجلساً من وجوه أهل القيروان وفقهائها ، وفيهم أسد بن الفرات القاضى والفقيه والفارس ! لاستشارته فى جواز نقض الهدنة ، وقد رأت الأقلية المعتدلة عدم الغزو ، وسأل أحدهم : كم بينها وبين الروم ؟ فقالوا : يروح الإنسان مرتين وثلاثة فى النهار ويرجع . قال : ومن ناحية أفريقية (تونس) ؟ . قالوا : يوم وليلة ! . قال : لو كنت طائراً ماطرت إليها ! . على أن رأى الأغلبية التى تنظر إلى الفتح من زاوية الجهاد الدينى قررت الفتح ، مرتكنةً إلى وجود أسرى مسلمين بالجزيرة . وأفتى أسد بن الفرات بالفتح بناءً على قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون » وقال : ونحن الأعلون .

وبناءً على ذلك عقد لواء القيادة لأسد بن الفرات ، فأقلع من ميناء سوسة يوم السبت منتصف ربيع الأول ٢١٢ هـ فى نحو مائة مركب ، سوى مراكب يوفيميوس ، وكانت تحمل تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل غير البحارة ، لتعيد دورة التاريخ دورةً كاملةً ، فقد سبق لجزيرة صقلية أن غزيت من تونس على يد الفنيقيين فى صراعهم مع الإغريق ، ثم استردتها أوروبا . وها هى ذى تغزى من جديد على يد العرب فى صراعهم مع البيزنطيين ! .

وقد نزلت الحملة على الجزيرة عند مازرة **Mazara** وفرضت الحصار على سيراكوزا **Syracuse** ورفض أسد بن الفرات اشتراك يوفيميوس وحلفائه البيزنطيين مع المسلمين فى القتال ، وآثر الاستقلال بعملياته .

على أن غزوات المسلمين السابقة للجزيرة كانت قد نبهت البيزنطيين إلى مدى أطماعهم فيها . ولما كانت الجزيرة تعد قاعدةً لحماية الإمبراطورية البيزنطية عند حدودها الجنوبية ، فلذلك عمدوا إلى تعميرها بالحصون والمعاقل ، حتى ليذكر المؤرخون أنهم لم يتركوا جبلاً إلا وبنوا عليه حصناً . وأقاموا نظام الدوريات البحرية بالأسطول للدفاع عنها عند اللزوم .

لهذا السبب لقيت الحملة متاعب جسيمة ، وقد وصل أسطول من القسطنطينية لنجدتها ، ووقع وباءٌ بين المسلمين قضى على حياة الكثيرين ، كما قضى على حياة أسد بن الفرات نفسه ، وكان قد ترك فى كل حصن غزاه حاميةً للسيطرة عليه ، فنقص عدد جيشه . وكادت الحملة تفشل

لولا وصول أسطول من الأندلس ، كما وصل أسطول أغلبى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م . ولكن المرض انتشر مرّةً أخرى فى الجيش الإسلامى . وكانت مثل هذه المحن والمصائب كفيلة ببثّ اليأس فى صدور العرب ، ولكنهم استمدّوا من هذه المتاعب قوةً ، حتى ليذكر بعض المؤرخين أن فتح صقلية يشبه أن يكون عنادًا مستمدًّا من القوّة النفسية التى خرج بها أسد بن الفرات فاتحًا ، أكثر منه سعيًا وراء مغنم أو كسب .

وقد أفلح تصميم العرب على الفتح فى سقوط بالريمو فى أيديهم سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ ، بعد حصار عام كامل . فكان هذا الفتح خطوةً هامّةً أكسبت العرب – كما يقول فازيلييف – قاعدةً قويّةً يمكن الاعتماد عليها فى فتح سائر أنحاء الجزيرة . وفى الحق إن العرب لم يعودوا فى حاجة إلى النزول فى معسكرات أو قلاع صغيرة ، وكانت بالرمو مدينةً بحريةً جيدة الميناء ، واتصالها بتونس سهل ، فأصبح فى وسع العرب الاعتماد عليها فى الحصول على مدد دائم منها ، كما أن المنطقة حولها كانت خصبةً يمكن أن تزوّد الجنود بالمؤن الكثيرة . ولذلك اتخذها العرب قاعدةً لهم كما فعل الفينيقيون من قبل ، وأخذوا يزحفون منها على أنحاء الجزيرة .

ويفهم من المصادر التاريخية أن العرب واجهوا مصدرين من مصادر المقاومة ! الأول ، ويتمثل فى القوات البيزنطية المحلية التى كان يقودها بطريق صقلية . والمصدر الثانى هو الأسطول البيزنطى والإمدادات العسكرية التى ترسلها حكومة القسطنطينية . ولكن أعنف مراكز المقاومة كانت قصريانة (كستروجوڤانى **Castrojiovanni** ، وطبرمين **Tauromenium** وكان التقدم بطيئًا بسبب وعورة الأرض واشتداد المقاومة . ولكن العرب استطاعوا الاستيلاء على مسينا سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م ، فانفتحت أمامهم الطريق إلى جنوبى إيطاليا ، وصار الأسطول العربى قريبًا من إيطاليا ، آخر مملكات البيزنطيين فى هذا الجزء الأوسط من البحر المتوسط .

فى تلك الأثناء كان العرب قد أسسوا فى الجزء الذى فتحوه من الجزيرة إمارةً يتولّى عليها الولاة ، وتنطلق منها الغزوات لفتح بقية الجزيرة . وقد أفلح العرب فى سنة ٢٤٥ هـ فى فتح قصريانة فى ولاية العباس بن الفضل ، مستفيدًا من النزاعات المحلية داخل المدينة . وقد اهتزت القسطنطينية لسقوط هذه المدينة ، وأرسلت أسطولاً للثأر لها ، ولكن العرب فاجئوه وقضوا عليه . فتعزّز مركزهم فى الجزيرة . وكان قد سبق لهم غزو إقليم اتنا (جبل النار) ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م . وغزا أسطولهم الجزر الأيونية المجاورة . وبقيت سيراكوزا آخر المعاقل البيزنطية الكبرى .

على أن هذه المدينة الباسلة سقطت هى الأخرى سنة ٢٦٥ هـ ، بعد عشرين عامًا من تاريخ

سقوط قصريانة . وذلك فى عهد أمير صقلية جعفر بن محمد . فكأنها ظلّت تقاوم العرب نصف قرن ، وظلّ العرب مصرّين على فتحها طوال هذه المدة ! . وكان جعفر بن محمد قد تمكن من الاستيلاء على بعض ضواحيها . مما دعا بيزنطة إلى إرسال أسطول لحمايتها ، ولكن العرب أصابوا هذه السفن ، وتمكنوا من حصار المدينة لمدّة تسعة أشهر ، عانى فيها السكان عناءً شديدًا . ويقول تيودوسيوس : إن العرب أعدوا لحصارها كل ما قدروا عليه من أدوات الحصار ، وفى النهاية استولوا عليها ، « وجعلوها تيهًا من الخرائب ، ولم تبق فيها نسمة حياة » بعد أن أخلوها من السكان ، ونقلوا الأسرى إلى باليرمو .

على أن القسم الشرقى من الجزيرة ظلّ عصيًّا على الفتح العربى ، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكةً فى جنب المسلمين ، بفضل ما كانت تتلقاه من بيزنطة من مساعدات ، ولكن إصرار العرب على فتحها أدّى إلى سقوط طبرمين بعد ثلاثين عامًا أخرى فى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م . وكان لسقوطها وقع الكارثة على الإمبراطور البيزنطى . وقد أراد إبراهيم بن الأغلب ، فاتح المدينة ووالى صقلية فتح منطقة دمنش ، ولكن المنية وافته ، فلم يتم فتح هذه المنطقة ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تمامًا بسلطان العرب ، فقنع منها الولاة بالجزية .

على كل حال ، فإن فتح جزيرة صقلية يُعدّ من أهم المعالم فى التاريخ البحرى العربى ، وقد أعاد التوازن الذى اختلّ بين العرب وأوروبا بسقوط الخلافة العباسية فى يد الأتراك وانصرافها عن شئون البحر المتوسط . ذلك أن سيطرة العرب على صقلية قد وضع فى أيديهم مفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط والغربى ، وقد عرفوا كيف يستفيدون من هذا المفتاح البحرى العظيم فى تهديد إيطاليا والسيادة على البحر التيرانى كله ، بل وفتح أجزاء كثيرة من إيطاليا كما سنرى .

وكنا قد ذكرنا كيف أن فتح العرب لمسينا فى عام ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م قد فتح أمامهم الطريق إلى جنوب إيطاليا . وقد كان وجودهم فى صقلية كقوة حافزًا على الاستعانة بهم من جانب بعض القوى السياسية المتصارعة فى إيطاليا . ومن المعروف أن إيطاليا فى ذلك الحين لم تكن أكثر من اسم جغرافى ، ولم تكن تمثل وحدةً سياسيةً من أىّ نوع ، بل كانت منقسمةً إلى إمارات متنافسة . وفى سنة ٨٣٦ م احتلّ العرب برنديزى **Brandisium** وملكوها أكثر من ثلاثين عامًا حتى سنة ٨٧٠ م . وهاجموا نابولى سنة ٨٣٦ ، واجتاحوا إقليم كلابريا **Calabria**. وهو أقصى جنوب إيطاليا ويطلق عليه العرب اسم قلورية أو الأرض الكبيرة أو البرّ الكبير . وخربوا كابوا Capua

سنة ٨٤٠ م . ، وكان هناك نزاع بين أميرين من أمراء لومبارديا على إمارة بنيفنتو Benevento قرب نابولى . فاستنجد أحدهما بأمير صقلية الفضل بن جعفر ، فأرسل حملةً احتلت بنيفنتو وحكموها خمس سنوات ٨٤٢ – ٨٤٧ م . ، وعادوا إليها بعد فترة قصيرة من تركها . كما استولوا على تارنتو Tarentum وحكموها أربعين عامًا ٨٤٠ – ٨٨٠ م . كما دخل أسطول الأغالبة البحر الأدرياتى ، واستولى على مدينة بارى Bari وظلّوا فيها ثلاثين عامًا من ٨٤١ – ٨٧١ م . وكانت تلك المدينة ذات موقع هام فى شبه جزيرة إيطاليا ، ومنفذها الرئيسى للاتصال بشرق البحر المتوسط . وكان أهالى إيطاليا يعتمدون عليها للوصول إلى اليونان أو آسيا الصغرى أو الشام للحج فى فلسطين .

كذلك فتح الأسطول الأغلبى مالطة سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م . وهو الاستيلاء الثابت ، وكانت قد سبقتها محاولات من إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٢٢١ هـ ؛ كما غزيت مرارًا ابتداءً من القرن الثانى الهجرى . وكان فتحها على يد أحمد بن عمر بن عبيد الله الأغلبى . ثم قام البيزنطيون بحصارها ، ولكن محمد بن خفاجة أمير صقلية تمكن من فك الحصار عنها ، وألحقها بصقلية . ودام حكم العرب لمالطة ٢٢١ عامًا . أى من ٨٧٠ – ١٠٩١ م ، أى أطول من حكمهم لصقلية . وكانت مالطة موقعًا بحريًا هامًا علّق عليه العرب الكثير من السيادة على البحر المتوسط ، بسبب موقعها المتوسط وتحكمها فى البواغيز .

ويذكر رينو أن العرب وصلوا فى غزوهم لإيطاليا إلى روما . ويرى بعض المؤرخين أنه ليس فى سير الحملات البحرية العربية أغرب وأمتع من غزو العرب لمدينة روما . وقد تعرضت المصادر الفرنجية فقط لأخبار هذا الغزو ، بينما صمتت المصادر العربية . ويتخذ المؤرخون من ذلك دليلاً على أن هذا الغزو لم تتم به الحكومات العربية ، وإنما مرابطة العرب ومجاهدة البحر . وكان عمل هذه الجماعات – كما ذكرنا – يكمل عمل الدول الإسلامية . ولا يوجد لدينا ما يحملنا على إغفال دور الدول العربية فى المغرب والأندلس كليةً فى هذه الغزوات ، فلابدّ أنها كانت تلقى التشجيع ، بدليل أنها كانت تخرج من موانى هذه الدول ، وبدليل ضخامتها وانتظامها . وبالنسبة للحملات على إيطاليا فكانت تخرج من موانى صقلية ، الأمر الذى يوضح موافقه حكومتها عليها . بل يرى بعض المؤرخين أن هذه الحملات كانت تعمل بوحى حكومة صقلية ، أو بوحى حكومة أفريقية (تونس) التى كانت صقلية تابعةً لها .

غارات النورمان
على الأندلس
٢٢٩ - ٢٤٥ هـ / ٨٤٤ - ٨٥٩ م

غارة النورمان الأولى ٢٢٩ هـ - ٨٤٤ م
غارتهم الثانية ٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م
طريق الغزال إلى دانيمرقة
طريق عودته

المحيط الأطلنطي
بحر الشمال
النورمان النرويجيون
الدانيون
البحر البلطي
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية

جزيرة قبطيل
قادس
المحيط الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط

(خريطة رقم ١٧)

وكانت روما فى ذلك العصر هى « ملكة العالم » كما يطلق عليها البعض . وكانت قد تعرضت من قبل للغزو من جانب بعض القبائل الجرمانية ، فقد غزاها القوط والوندال واللومبارد ، عدة مرات ، ولكنهم احترموا دائمًا أحياءها ومعاهدها المقدسة التى كانت تقع خارج أسوار المدينة . ولكنها فى عام ٢٣١ هـ/٨٤٦ م تعرضت لغزوة مروّعة من العرب هزّت قلب الشعب الرومانى فزعًا ورعبًا .

ويدرج المؤرخون غزو العرب لروما فى سلسلة الغزوات التى شنّها العرب على إيطاليا ، وإن كنا نربطها بغارات النورمانديين على سواحل الأندلس الغربية والشرقية التى وقعت قبل هذا الغزو بعامين . ففى سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م أغار النورمانديون من الشمال على ثغر لشبونة فى نحو ٥٤ سفينة نورماندية ، ولكنهم ووجهوا بمقاومة شديدة ، فاتجه قسم منهم إلى أشبيلية ، واتجه القسم الآخر إلى شذونة حيث احتلّ ثغر قادس . وقد تمكن القسم الأول من احتلال أشبيلية ، وأشعلوا النار فى المسجد الجامع ، ونهبوا المدينة وأقاموا فيها نحو أسبوعين يقتلون الرجال ويسبون النساء ويخطفون الصبيان ، كما احتلّوا قبطيل Captel المعروفة اليوم بالجزيرة الصغرى . وقد نقلوا إليها الأسرى والغنائم من أشبيلية ، وعادوا إليها ، فلم يجدوا من أهلها سوى جماعة من شيوخها قد احتموا فى مسجد فقتلوهم فيه ، ومنذ ذلك الحين سمى بمسجد الشهداء .

كان على الأندلس فى ذلك الحين عبد الرحمن الأوسط ، فجرد عليهم الجيوش العربية التى اشتبكت معهم وألحقت بهم الهزيمة فى صفر ٢٣٠ هـ / نوفمبر ٨٤٤ م ، وأحرقت ثلاثين مركبًا من أسطولهم ، وخرج النورمنديون من أشبيلية بعد احتلال دام ٤٢ يومًا .

هذه الغارة الوحشية من جانب النورمنديين لعلها كانت وراء الغزو العربى لروما فى العام التالى ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م . فمن الثابت أنها من الغزوات البحرية التى قامت بها مجاهدة البحر ولم يقم بها الأسطول الأندلسى أو المغربى ، إذ لم يرد عنها أخبار فى الروايات الإسلامية ، وإن كان محمد عبد الله عنان يرجح أنه كان لأمير صقلية الفضل بن جعفر الهمذانى يدٌ فى تنظيمها وتوجيهها .

وقد خرجت هذه الحملة فى ٢٣١ هـ – كما ذكرنا – ونزلت على الساحل الإيطالى ، وسارت بحذاء الشاطئ ، وعاثت فى ثغوره ، وحاصرت جايتا ، ونهبت فوندى ، وسارت فى نهر تيبر ، ورست عند مصبه . وكانت كنيستا القديس بطرس والقديس بولس وطائفة كبيرة من المعابد والقبور القديمة خارج أسوار مدينة روما ، فانقضت عليها الحملة العربية ، وجردت الهياكل

والتماثيل من حليها الثمينة ، وانتزعت هيكلاً فضيًّا من قبر القديس بولس ، وضربت الحصار على روما .

على أن روما فى ذلك الحين كانت تحت حماية دولة الفرنجة بعد أن توّج البابا شارلمان فى عام ٨٠٠ م إمبراطورًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فهب لويس الثانى ملك الفرنجة ولومبارديا بإرسال حملة لمواجهة العرب ، كما أرسلت ثغور نابلى وأمالفى وجايتا حملةً بحريةً لمطاردتهم . ولكن فى الوقت نفسه وصلت سفن إسلامية أخرى تشدّ أزر الحملة . ودارت معارك عنيفة بين العرب وبين قوات الإمبراطور وسفن الثغور الإيطالية . وتمكنت الحملة العربية من العودة إلى الجنوب محمّلةً بغنائمها وأسراها سنة ٨٥٠ م .

على أن فكرة غزو روما بقيت تراود العرب بعد ذلك أعوامًا طويلةً حتى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م . – أى بعد عشرين عامًا ، فى عهد خفاجة بن سفيان أمير صقلية . وكان أمير أفريقية (تونس) الأغلبى قد فتح مالطة فى العام السابق ، فسار خفاجة بن سفيان على رأس حملة بحرية اجتمعت فى بعض ثغور سردينيا ، وانطلقت إلى الشاطئ الإيطالى ، وصعدت فى نهر تفيرى (تيبر) ورست عند مصبه على بعد ستة عشر ميلاً من روما ، ولكن أساطيل نابولى وأمالفى وجايتا ، التى كانت قد عقدت محالفةً مع البابا ليون الرابع ، سارعت لحماية روما ، ونشبت معركة بحرية كبيرة فى مياه أوستيا ، ثغر روما ، ولعبت الظروف الجوية دورًا هامًّا ، فقد هبت عاصفةٌ كبيرة ردت الأسطول الفرنجى إلى الشاطئ ، واصطدمت سفن الأسطول العربى ببعضها البعض ، ولكن هذه الخسارة لم تمنع العرب من إتمام الحصار ! .

ولم يجد البابا يوحنا الثامن ، وهو الذى خلف البابا ليون الرابع ، بدًّا من التفاوض مع العرب على الجلاء عن روما . وتمّ الاتفاق على ذلك بالفعل فى مقابل أن يدفع بابا روما للعرب جزيةً سنويةً قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة ! .

فى ذلك الحين كان الأسطول العربى بالأندلس يمارس نشاطه لفتح الجزر القريبة منه فى البحر المتوسط ، وهى جزر البليار : Balearic Islands ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة (٨٥٨ م) ، بالإضافة الى جزيرتى سردينيا وكورسيكا . وقد سبق للأساطيل المغربية أن أغارت عليها دون فتحها ، ولكن هدف الأسطول الأندلس كان الفتح .

وكان عبد الرحمن الداخل ، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، هو أول من أنشأ الأسطول الأندلسى . ففى سنة ٧٩٣ م . أعاد الحياة إلى موانى الأندلس والترسانات البحرية فيه ، وأمر ببناء

سفن حربية فى مراسى طركونة ، وطرطوشة ، وقرطاجنة ، والمرية وغيرها ، وكلها تطل على غربى البحر المتوسط .

وعندما أغار النورمانديون على أشبيلية فى عام ٢٢٩ - ٢٣٠ هـ ، أراد عبد الرحمن الأوسط الاحتياط لأى غزو محتمل فى المستقبل ، فأمر بإنشاء ترسانة بحرية فى أشبيلية ، جلب إليها رجال البحر من سواحل الأندلس ، وأمدّها بالآلات والنفط ، حتى أصبحت أشبيلية هى الميناء الأولى فى الأندلس . وسرعان ما انتشرت الترسانات البحرية فى العهود التالية فى قرمونة ، والقنت ، ومرسية ، وبلنسية .

وعلى كل حال فقد كان على يد الأسطول الأندلسى فتح جزر ميورقة ومنورقة ويابسة سنة ٢٣٤ هـ ، وهذا الغزو يختلف عن الغارات السابقة ، فى أنه يحمل صفة الفتح . كما أنه كان انتقامًا من الغارة التى شنّها النورمانديون قبل أربع سنوات ؛ ولذلك يقول ابن عذارى : إنه فى سنة ٢٣٤ هـ أمر الأمير (أميرقرطبة) بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقه ، لنكايتهم ، وإذلالهم ، ومجاهرتهم بنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين . فغزَتْهم ثلاثمائة مركب . فصنع الله للمسلمين جميلاً ، وأظفرهم بهم . وفتحوا أكثر جزائرهم . وقد عرض أهل ميورقة ومنورقة على الأمير عبد الرحمن الأوسط دفع الجزية ، فقبلها منهم ، وكتب إليهم بذلك يقول : « بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمّته » . وهذا الكلام عن تجديد العهد بالطاعة يدلّ على أن هذه الجزر كانت واقعةً بالفعل تحت السيطرة الإسلامية ، ولكنها نقضت عهد الطاعة فكانت تلك الحملة فى عام ٢٣٤ هـ لإعادة إخضاعها .

ولما كانت كورسيكا قد استولى العرب عليها سنة ٨٢٨ م ، حيث بقيت تحت حكمهم أكثر من قرنين . كما دخلت سردينيا تحت سيطرتهم . ومن قبل فتحوا كريت ومالطة وصقلية ، وسيطروا على رودس وقبرص - فكأن القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) يعدّ بحق عصر السيادة العربية على البحر المتوسط . وقد كان لذلك تأثيره فى ظهور الدور الأخير من أدوار المدّ العسكرى العربى فى الأراضى الأوروبية ، الذى وصلوا به إلى الحدود الألمانية ! .

١٩ - السيطرة العربية على جبال الألب (٨٦٩ - ٩٧٥ م)

- المغزى التاريخي للسيطرة العربية على البحر المتوسط .
- الغارات العربية فى جنوبى فرنسا .
- السيطرة العربية على جنوبى فرنسا وسويسرا وبيدمونت .
- انتهاء الوجود العربى فى جنوبى أوروبا ٩٧٥ .

١٩ – السيطرة العربية على جبال الألب !

(٨٦٩ – ٩٧٥ م)

أصبح البحر المتوسط فى القرن الثالث الهجرى تحت السيادة العربية ، التى تسيطر على جزره وعلى مداخله ومخارجه ، وتنطلق منه إغاراتها على الأراضى الأوروبية . وكان هذا فى حدّ ذاته ثورةً وانقلابًا خطيرًا فى الموازين الدولية . فكما يقول بعض المؤرخين ، كان البحر المتوسط حتى ظهور الإسلام يشكل وحدةً تاريخيةً تدخل فى إطار العالم الأوروبى اليونانى واللاتينى ، ولم يكن له صلة بالعرب الذين يسكنون داخل شبه الجزيرة العربية . ولكن هؤلاء العرب باستيلائهم على شواطئ البحر المتوسط الشرقية أولا ، ثم الجنوبية ، ثم الغربية ، ثم الاستيلاء على جزره – كسروا وحدته التاريخية القديمة ، وحوّلوه من جزء لا يتجزأ من العالم اليونانى اللاتينى ، إلى حدٍّ فاصل يفصل بين العالم الأوروبى المسيحى والعالم العربى الإسلامى .

وفى الحق لقد كان وجه العرب قبل الإسلام مدفونًا فى رمال الصحراء القائظة ، ولكن الإسلام رفع هامتهم ، وشمخ برءوسهم ، وأطال أعناقهم ، وعزّز أنصارهم بكل الشعوب التى فتحوها فأسلمت وتعرّبت وتضخمت بها الأمة العربية وامتدت بها مساحتها من الخليج إلى المحيط ، وانطلقت تناطح أوروبا ، التى كانت قبل الإسلام تحت سيادتها ، وتذيقها من كأس النكال التى سبق أن ذاقتها ، وتغزو أراضيها ، وتخرب مدنها ، وتستعمر بلادها – وبمعنى آخر تخاطب أوروبا باللغة التى تفهمها ! ، وهى لغة القوّة : الغزو والفتح .

على كلّ حال ، فى الوقت الذى كان العرب يبسطون سيادتهم على البحر المتوسط فى القرن الثالث الهجرى ، كانت الأندلس تواصل جهادها ضدّ الدولة الرومانية المقدسة ، وتجعل من الأراضى الفرنسية حقلاً لنشاطها ، على الرغم من جلائها عن الجنوب .

وكانت الظروف السياسية فى فرنسا قد ساعدت على ذلك ، حين تقاسم جنوبى فرنسا ثلاثة ملوك : الإمبراطور لوثير ، والملك شارل الأصلع ، والملك ببن بن ببن الذى كان ملكًا على اكيتانيا . وفى الوقت نفسه ثار أحد الأمراء واسمه فولكراد Folcrade على الإمبراطور وسمى نفسه كونت آرل وبروفانس . وقد أخذ كل من المتصارعين يستعين بأمير قرطبة .

فنى سنة ٨٤٨ م . طلب الملك بين مساعدة قرطبة له فى صراعه ضدعمه الإمبراطور شارل الأصلع ، وأرسل كونت تولوز ، حفيد غليوم الذى اشتهر فى حربه ضدّ المسلمين ولقّب بالقديس ، رسولاً من عنده لهذا الغرض ، فأمده أمير قرطبه بقوّات تمكّن بها بين من إخراج قوات شارل الأصلع من برشلونة ومن مدن أخرى فى كتالونيا ، كما زحف جيش عربى يقوده موسى ، عامل سرقسطة ، وتقدم من جهة « أورجل » و « ريباجورسا » ، وتوغّل فى الأراضى الفرنسية ، حتى اضطر الإمبراطور شارل الأصلع إلى طلب الصلح من العرب ، ولم يحصل عليه إلا بعد أن قدّم هدايا ثمينه ! . كما ورد فى مجموعة الدون بوكه .

وفى سنة ٨٦٩ نزل العرب فى بروفانس فى موقع يقال له كامرجه Camargua وهى جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها تقع أملاك رئيس أساقفة آرل ، وقد وقعت اشتباكات عنيفة قتل فى خلالها ثلاثمائة من الفرنسيين ، وأسر المطران رولان . ويقول رينو : إن الإمبراطور شارل الأصلع كان ينوى فى عام ٨٧٦ الذهاب على رأس قواته إلى إيطاليا ، التى استولى العرب على جنوبها وعرضوا البابا فى روما للخطر . ولكنه مات قبل أن يحقق رغبته .

ومنذ عام ٨٨٩ انتقل العرب من مرحلة الهجوم على سواحل فرنسا إلى مرحلة غزو الأراضى الفرنسية الداخلية مرة أخرى ، والوصول إلى دوفينيه ، وإلى حدود ألمانيا ! وفى الوقت نفسه لم تعد الغارات عابرةً ، بل استندت إلى مركز ثابت مستقر ! .

فوفقًا لتاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى ، وتاريخ ديرنوفاليز Novalese ومجموعة الدون بوكه ، وتاريخ بروفانس لبوش Bouche وكما يذكر رينو – فإن الغزو يكاد يشبه مغامرة فريدةً مما يرد فى الأساطير القديمة ، قامت بها مجموعة صغيرة جدًّا من المجاهدين العرب ، وفرضت سيادتها على جنوبى فرنسا وبيمونت (بيدمونت) وسويسرا ! .

فنى عام ٨٨٩ أقلعت مجموعة صغيرة من البحارة العرب من سواحل الأندلس قاصدةً بروفانس فى جنوب فرنسا ، وقد ألقت بهم الريح فى خليج جريمو (سان تروبيز Sant Tropes) فأغاروا على المنطقة ، وتسلقوا سلسلة الجبال التى كانت تشرف على الخليج من الشمال ، وتقابل جبال الألب من الجهة الأخرى ، حيث أقاموا قاعدة قويّةً ، وفد إليها الكثيرون من عرب الأندلس والمغرب . ولم تكد تمضى بضعة سنوات حتى امتلأت تلك المنطقة بالمعاقل والحصون ، كان أهمها حصن فراكسينيت Fraxinet الذى يشرف على سهول بروفانس السفلى .

ومن هذا الموقع أخذ العرب يشنّون غاراتهم على المناطق المجاورة ، ويلقون الرعب فى قلوب

الجميع . وفى سنة ٩٠٦ اجتازوا ممرات دوفينيه Douphiné وعبروا جبال مون سينى Mon Cenis حتى وصلوا إلى دير نوفاليز على حدود بيمونت . ودارت اشتباكات ، سقط فيها بعض الجنود العرب أسرى حيث اعتقلوا فى دير القديس أندراوس ، ولكنهم – وفقًا للرواية الأوروبية « حطموا الاصفاد التى كانوا مقيدين بها ، وأحرقوا الدير ، وكادوا يحرقون جانبًا من المدينة » ! .

وفى تلك الأثناء قطعت قوات عربية المواصلات بين فرنسا وإيطاليا ، واحتلت جميع ممرات جبال الألب ، وأخذت فى شنّ الغارات على سهول بيمونت ومونفرات Montferrat بينما كانت مجموعات أخرى تنزل فى سواحل لنجدوك بقرب ايجمورت .

ويقول رينو : إن الفزع من العرب امتدّ فى بروفانس ودوفينيه وبلاد الألب ، وأخذ الأغنياء يجلون إلى الشمال . وكان من عادة الأهالى من فرنسا وأسبانيا وإنجلترا الحج إلى روما ، ولو مرةً فى العمر ، لزيارة قبور الرسل ، ولكن معابر الألب جميعها أصبحت فى يد العرب ! .

وقد روى مؤرخ دير نوفاليز أن العرب وصلوا إلى حدود « ليجوريا » ، على خليج جنوه . كما ذكر ليوتبراند ، الذى عاش فى الثلث الأوّل من القرن العاشر ، أن العرب أغاروا على مدينة آكى Aqui إحدى مدن مونتفرات ، ولكنهم هزموا . على أن قوات أخرى اكتسحت ڤاليه Valais فى سويسرا ، وتقدمت إلى أواسط منطقة جريزون Grisons وكانت سويسرا فى ذلك الحين تابعةً لمملكة بورجونى .

وقد تطلب الأمر فى ذلك الحين قيام تحالف بين ملك بروفانس والإمبراطورية البيزنطية ، على الرغم مما نعرفه من علاقات العداء بين القسطنطينية والإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب . فقد كانت هناك علاقات مصاهرة بين هوج Hugues ملك بروفانس والإمبراطور البيزنطى ، فطلب منه مساعدته على إخراج العرب من حصن فراكسينيت ، فأرسل إليه الإمبراطور أسطوله ، الذى فاجأ الأسطول العربى فى الخليج ، وسلط عليه النفاطات التى يقال لها « النار الإغريقية » ، فأحرق الكثير منها ، بينما كان ملك بروفانس يزحف على حصن فراكسينت بجيش جرار .

على أن الظروف خدمت العرب فى تلك اللحظات الحرجة . إذ وصل النبأ إلى هوج ملك بروفانس بأن غريمه ومنافسه على عرش إيطاليا ، وهو بيرانجيه Berenger قد غادر ألمانيا إلى إيطاليا بقوّاته ! ، فتحالف هوج مع العرب على أن يقطعوا الطريق على بيرانجيه فى ممّر سان برنار وبقية ممرات الألب ! . وهو ما حدث .

ويقول رينو : إنه بعد هذه الحادثة استقرت أقدام العرب فى البلاد ، وأصبحوا كأنما سيلبثون إلى الأبد فى قلب أوروبا ! . فقد أخذوا يتزوجون من أهل البلاد ، ويزرعون ويحرثون كسائر الفلاحين ! ، ويستعين بهم أمراء النواحى فى قتال بعضهم البعض . وقد سيطروا على نيس ، التى كانت تابعة لمملكة آرل ، واحتلوا مدينة جرينوبل Grenoble مع وادى جريزيڤودان Graisivaudan حوالى عام ٩٥٤ . وكانوا يجولون فى جميع أنحاء سويسره بلا معارض كأنهم فى ديارهم . وتقدموا حتى صاروا على أبواب مدينة سانجال وعلى ضفاف بحيرة كونستانز . وقد وصفهم أحد المعاصرين بأنهم «كانوا كالمعيز فى خفّة أقدامهم وسهولة سيرهم على حروف الجبال ! » وكانوا قد بنوا أبراجًا فى أماكن متعددة . وأصبحوا يسيطرون على بروڤانس ودوفينيه وجانبًا من جبال الألب ، بينما كانت الإمدادات تصل إليهم من البحر ! .

فى ذلك الحين كانت هذه القاعدة العربية فى جبال الألب تستمدّ الدعم والتأييد من الدولة العربية فى الأندلس . وهذا ما يؤكده المؤرخ ليوتبراند ، فهو يتحدث عن سفارة أرسلها الملك أوتو ملك ألمانيا ، الذى حمل فيما بعد لقب إمبراطور وأضيف له لقب « الكبير » – بغرض التوسط لدى الخليفة الأموى لوضع حدٍّ لغارات العرب فى فرنسا وإيطاليا ، وكان ذلك فى عام ٩٥٦ م .

على أن هذا الوجود العربى فى تلك المنطقة الأوروبية لم يلبث أن أخذ يقترب من نهايته منذ منتصف القرن العاشر ، حين تكونت جبهة قويّة فى جنوب فرنسا بزعامة أحد الأساقفة ، ويدعى إيزاردون ، وعد أفرادها من القادة والزعماء بالاستيلاء على ماكان يملكه العرب فى تلك الأنحاء من أخصب الأراضى ، وقد تمكنت هذه الجبهة من الدخول فى قتال مميت مع العرب أسفر عن إجلائهم عن جرينوبل ووادى جريزيفودان ، وتقاسمت العائلات المقاتلة أراضى العرب ، فكانت أصل ثروة بعض العائلات القديمة فى مقاطعة دوفينيه ، ومنها عائلة اينارد ، وأعلن الأسقف نفسه أميرًا على جرينوبل والوادى .

وبعد اثنى عشر عامًا ، أى فى ٩٦٨ ، أعلن الإمبراطور أوتو عزمه على استئصال شأفة العرب ، ولكنه مات قبل أن يحقق أمنيته ، على أن أحد الأساقفة ، ويدعى مايول Mayeul وقع فى تلك الأثناء أسيرًا فى يد العرب أثناء عودته من روما إلى بلدته فى بورجونى ، وكان العرب يحتلون البلاد الواقعة بين جاب Gap وامبران Embrun ويتمركزون فى أعالى وادى دراك Drac . وقد أثار أسره دويًّا كبيرًا فى عام ٩٧٢ ، واستغل هذه الفرصة بومون ، أحد النبلاء ، فهاجم على رأس قوات كبيرة أحد الحصون العربية على رأس جبل بترا –

امبيا **Petra-Empia** ، مستخدمًا عامل الخيانة ، وتمكّن من ذبح العرب داخل الحصن ، فرفعت الكنيسة اسمه إلى مصاف القديسين ! . وفى الوقت نفسه كان أهل جاب ، وهى مركز مقاطعة الألب العليا ، قد ثاروا بقيادة كونت بروفانس ، ويدعى غليوم ، وتمكنوا من هزيمة العرب ، وإجبارهم على الجلاء عن البلاد ، وبذلك تخلصت بلاد دوفينيه العليا من قبضة العرب .

وقد شجّعت هذه النتيجة على استنفار أهالى بروڤانس ودوفينيه السفلى ، بقصد مهاجمة العرب فى أقوى حصونهم : فركسينت . ولكن العرب نزلوا من الجبال وقاتلوا صفًّا واحدًا فى مكان يدعى تورتور **Tourtour** بمنطقة دراجينجمان **Dragengman** فلحقت بهم الهزيمة ، وبذلك سقط حصن فركسينت سنة ٩٧٥ ، بعد أن ظلّ فى يد العرب مدة ثمانين عامًا ! . ولما كان هذا الحصن هو القاعدة الرئيسية لجميع العرب المنتشرين فى فرنسا وشمالى إيطاليا وسويسرة ، فإن سقوطه قد أنهى الوجود العربى فى تلك البلاد ، وإن كان بعض المؤرخين الأوروبيين ، ومنهم « دلبين » **Delbene** يرى أن هذا الوجود ظلّ مستمرًّا إلى ما بعد سنة ١٠٠٠ م .

٢٠ – الأندلس بين المد والجزر

- التركيب الإجتماعى للأندلس ونشأة دويلات الطوائف .
- تكون الممالك المسيحية فى شمالى أسبانيا .
- غزوات عبد الرحمن الناصر فى شمال الأندلس .
- قرطبة فى عهد عبد الرحمن الناصر .
- الصقالبة فى الأندلس .
- أمجاد الحاجب المنصور الحربية .
- عصر المنصور ونظام الفروسية .
- جهاد عبد الملك بن المنصور ضد الممالك الأسبانية .

٢٠ – الأندلس بين المد والجزر

فى ذلك الحين ، أى فى الفترة التى استمرت فيها السيطرة العربية على جنوبى أوروبا ٨٦٩ – ٩٧٥ ، شهدت الأندلس تطوّرات سياسيّة خطيرة ، كان لها تأثيرها على الصراع العربى الأوروبى . فمنذ وفاة عبد الرحمن الأوسط فى عام ٢٣٨ هـ ، دخلت الأندلس مرحلةً مضطربةً تعرف فى التاريخ باسم عصر دويلات الطوائف الأولى ٢٣٨ هـ /٨٥٢ م – ٣٠٠ هـ/٩١٢ م ، وفيها ضعفت السلطة المركزية فى قرطبة إلى أقصى حدّ فى عهد خلفاء عبد الرحمن الأوسط ، وهم : محمد بن عبد الرحمن ، والمنذر بن محمد ، وعبد الله بن محمد ، وسقطت فى يد دويلات عديدة استقلّت عن قرطبة .

ويجب علينا أن ندرك أن التركيب الاجتماعى للأندلس كان من شأنه الوصول إلى هذه النتيجة . فلم يكن المجتمع الأندلسى مجتمعًا متجانسًا ، وإنما كان متنافرًا لحدٍّ بعيد . فإلى جانب السكان الأصليين ، الذين يكونون الغالبية العظمى فى البلاد ، كان هناك الفاتحون ، وينقسمون إلى أقلية عربية ، منقسمة بدورها إلى عرب جنوب وعرب شمال ! – وإلى أكثرية بربريّة يزداد عددها باستمرار بحكم اتصالها بموطنها الأصلى وهو المغرب . هذا بالإضافة إلى الشعوب الشمالية الأسبانية مثل الجلالقة ، وهم سكان غاليسيا أو جليقية كما يسميها العرب ، والباسك أو البشكنس سكان نافار ، والقطلان سكان كتالونيا . وغيرهم .

وقد انقسم السكان الأصليون فى الأندلس إلى قسمين : قسم اعتنق الإسلام ، ويعرف باسم المولدين ، والقسم الآخر استمر على مسيحيته ، ولكنه تعرّب ، ويعرف بالمستعربين. وقد قام هؤلاء المستعربون بدور هام فى اهتضام الحضارة العربية ونقلها إلى شعوب شمالى أسبانيا المسيحية ، بحكم اشتراكهم معهم فى الدين من جهة ، وبحكم امتلاكهم زمام اللغتين العربية والأسبانية من جهة أخرى ، فضلاً عن هجراتهم المستمرة إلى مملكتى قشتاله وأراجون فى شمالى أسبانيا .

وعلى هذا النحو ، لم تكد تضعف السلطة المركزية فى قرطبة على أيدى الأمراء الثلاثة السالفة أسماؤهم ، حتى أخذت الأطماع والعصبيات المحلية تأخذ شكل دويلات صغيرة مستقلة ، مستفيدة من الطبيعة الجغرافية للأندلس .

فبالنسبة للمولدين ، وهم السكان الأصليون المسلمون ، فقد تكونت منهم عدة دويلات ، نشأ بعضها فى منطقة سرقسطة ، التى كانت ثغرًا (موقع حدود) على حدود أراجون وكتالونيا فى شمال شرقى أسبانيا ، على يد بنى موسى . ونشأ البعض الآخر فى ولاية بطليوس Badajoz فى غربى أسبانيا على يد بنى مروان الجليقى . ونشأ البعض الثالث فى المرتفعات الجنوبية الأسبانية الممتدة بين مدينتى رنده ومالقه ، على يد بنى حفصون .

أما بالنسبة للبربر ، فقد استقل بنو ذى النون بطليطلة ، التى كانت ثغرًا على حدود غاليسيا وقشتالة فى شمال غربى أسبانيا . كما استقل عمر الملاحى بمدينة جيان ، وأخذ يغير منها على المناطق المجاورة .

أما الدويلات العربية فقد قامت إحداها فى أشبيلية على يد بنى حجاج ، وكانوا عربًا من قبيلة لخم اليمنية . وقد نافس أميرها إبراهيم بن الحجاج أمير قرطبة فى اجتذاب العلماء والشعراء ، وقد عاش فى كنفه أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب « العقد الفريد » المشهور .

كذلك قامت دويلة أخرى فى غرناطة على يد الأمير الشاعر سعيد بن جودى السعدى . وقامت دويلة ثالثة فى حصن منت شاقند **Montejicar**

وكان من الطبيعى فى ظلّ هذا التمزق . أن يختفى دور الأندلس فى الصراع مع أوروبا ، وإن كانت الحروب والاحتكاكات بين المولدين والعرب والبربر والمستعربين قد أدت ، فى رأى الدكتور أحمد مختار العبادى - إلى مزج هذه العناصر وخلط هذه الحضارات ، وصهرها فى البوتقة الأندلسية ، لتخرج حضارةً أندلسية وأمة أندلسيةً لها كيانها الخاص وشخصيتها المستقلة . فقد انتشرت ظاهرة اللغة المزدوجة العربية والأسبانية القديمة **Romance** وأخذ الأمراء والخلفاء والقضاة يتكلمون اللغة الأسبانية القديمة إلى جانب اللغة العربية .

على أن عصر دويلات الطوائف الأول انتهى على يد عبد الرحمن الثالث ، المسمى بعبد الرحمن الناصر ، الذى ولى عام ٣٠٠ هـ . / ٩١٢ م ، وحكم لمدّة خمسين عامًا ، فدبَّ النشاط من جديد فى علاقات الصراع بين الأندلس وأوروبا .

فى ذلك الحين كان المدّ الإسلامى فى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية قد توقف بفعل انقسام العرب ، وبدأ المدّ المسيحى الأوروبى . وكنا قد ذكرنا - فيما سبق - كيف أنه حين فتح العرب الأندلس ، وسحقوا دولة القوط ، تركوا جهة واحدة بدون فتح فى الركن الشمالى الغربى ، المعروف بغاليسيا (جليقية) استخفافًا بشأنها ! ، ولأنها منطقة جبلية وعرة ليس فيها ما يشجّع على الفتح .

على أن هذه البقعة أثبتت أنها بؤرة خطيرة تركزت فيها المقاومة الأسبانية بزعامة بلايو Pelayo أو بلاى ، الذى صمد لحصار المسلمين فى كوفادونجا ، وأخذ يوسع من نطاق المقاومة المسيحية فى غاليسيا حتى مات .

وقد تولّى خلفاؤه ، وخصوصًا حفيده ألفونسو الأول ، الامتداد بمملكته شرقًا ، فاستولى على مدينة ليون ، وسيطر على المنطقة الشمالية الغربية ، وأصبحت هذه المملكة تعرف باسم مملكة ليون .

ولما كانت إغارات العرب تهدد هذه المملكة بالفناء ، فقد أخذت تقيم على حدودها الغربية والجنوبية التى تفصل بينها وبين المسلمين ، سلسلةً من القلاع عرفت باسم كاستيلاز Castellas وقد اتّحدت هذه القلاع فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وتكونت منها إمارة عرفت باسم كاستلا Castilla وقد عرّب المسلمون هذا الاسم إلى قشتالة ! .

ولم تلبث المقاومة المسيحية أن امتدت بعد ذلك شرقًا على سفوح جبال البرنيه ، فتكونت مملكة أخرى هى مملكة نافار ، التى تحكمت بحكم موقعها فى معابر الجبال التى تؤدى إلى فرنسا وبقية أوروبا . وكانت عاصمتها بنبلونه .

وعلى هذا النحو حين تولّى عبد الرحمن الناصر الحكم ، كانت هناك ممالك مسيحية قد تكونت فى الشمال ، تستند إلى العمق الأوروبى ، وتفصل بين العرب وبقية أنحاء أوروبا . كما تكونت بين مملكتى ليون ونافار محالفة قوية ضدّ العرب ، استطاعتا عن طريقها احتلال بعض المدن العربية ، وألحقتا بالعرب خسائر كبيرة ، ثم أخذت المملكتان تتأهبان لمهاجمة سرقسطة ، الثغر العربى الأعلى على الحدود بين المسيحيين والمسلمين . ولكن عبد الرحمن الناصر كان فى تلك الأثناء قد فرغ من توحيد البلاد ، وأخذ يستعدّ لتأديب الدول الشمالية .

فى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م أرسل جيشًا كبيرًا على رأسه أحمد بن أبى عبده فى حملة تأديبية إلى الشمال ، استطاعت إنزال العقاب بتلك الدول ، وحققت كثيرًا من الغنائم ، ثم عادت . وفى العام التالى ٣٠٥ هـ ، أرسل جيشًا آخر بقيادة أبى عبدة ، حقق بعض الانتصارات ، ولكنه أصيب بهزيمة بينما كان يحاصر قاشترمورش وهو أحد الحصون ، وقتل ، وتمكن الجيش بصعوبة من العودة دونه إلى قواعده .

على أن هذه الهزيمة لم تمنع عبد الرحمن الناصر من إرسال حملة ثالثة فى العام التالى ٣٠٦ هـ ، على رأسها الحاجب بدر بن أحمد حشد لها حشدًا كبيرًا . فيقول ابن عذارى فى

« البيان المغرب » : « لما اتصل بأمير المؤمنين الناصر تطاول المشركين ، أحفظه ذلك وأذكى عزمه ، فأمر بالاحتفال فى الحشد وجمع الرجال ، والتكثير من الأجناد والفرسان الأبطال . وأرسل كتبه إلى أهل الأطراف والثغور يدعوهم إلى الخروج إلى أعداء الله والدخول فى معسكره ، فانثالت إليه العساكر من كلّ جهة ، ودخل بهم دار الحرب ، واعتصم المشركون بأمنع جبالهم ، وجرت بين الحاجب بدر بن أحمد وبينهم وقائع اشتفت فيها صدور المسلمين ، وانتصروا على أعداء الله المشركين ، وقتل فى هذه الغزوة من حماتهم وأبطالهم جملة عظيمة لا يأخذها عد » .

ولم يلبث عبد الرحمن الناصر أن خرج بنفسه على رأس جيش كبير فى أوائل عام ٣٠٨ هـ ، وهاجم ألبة والقلاع (قشتالة) ، وفتح عددًا من الحصون ، ثم توجّه إلى حصن قاشتر مورش الذى كان قد هزم عنده أحمد بن أبى عبده . للانتقام لمصرعه ، ولكن أهله أخلوا الحصن ، فخربه الناصر . ثم هاجم مدينة قلونية ، ولكنه وجدها خالية أيضًا ، فخربها . وتوجّه إلى ثغر تطيله Tudela لحماية سكانها من إغارات الممالك المسيحية ، واستولى على حصن قلهرة الذى كان شانجو ملك نافار يتخذه معقلاً . ولكن هذا أخلى الحصن بدوره قبل وصول عبد الرحمن الناصر . فقضى يومين فى تخريبه ، وحاول عبد الرحمن الالتقاء بشانجو فى معركة فاصلة ، ولكن الأخير كان يتراجع أمامه متخليا عن كل حصن ينسحب إليه ، ويقول ابن عذارى : إن الناصر استمر فى هذه الغزوة تسعين يومًا ! .

كان من الواضح أن الغرض من هذه الغزوات ليس الفتح ، وإنما الإغارة والانتقام ، واستعادة ما ضاع من مدن إسلامية سقطت فى يد هذه الممالك المسيحية . فكأنما قد أصبح هناك اعتراف من عبد الرحمن الناصر بما انتهت إليه حدود هذه الممالك . ويرجع ذلك إلى ما ترتب على عصر دول الطوائف الأول من حدوث توازن فى ميزان القوى بين الدولة الإسلامية فى الأندلس ، والممالك المسيحية الشمالية المدعومة بالعمق الأوروبى . وهذاما يتضح من تبادل الهزيمة والنصر . كما مرّ بنا فى هزيمة أحمد بن أبى عبده . ثم فيما بعد فى الهزيمة الكبيرة التى لحقت بجيوش المسلمين فى عام ٣٢٧ هـ عند مدينة شمنقه Simancas وكان على رأسها عبد الرحمن الناصر بنفسه . ولكن هذه الهزيمة لم تكن قاضية ، إذ استردّ الناصر بعدها قوته العسكرية سريعًا ، وأخذ يواصل حملاته على الممالك الشمالية ، ويحقق الانتصارات عليها ، ويكتسح أراضى ليون ونافار ثم ينحسر عنها ..

على أنه من المحقق أنه فى أواخر عصر عبد الرحمن الناصر كانت الدولة العربية قد أصبحت صاحبة الكلمة المطلقة على جميع أسبانيا ! . وهذا تطور هام تحقق بفضل وجود قوّة مركزية

واحدة فى قرطبة ، وانضواء العرب والمسلمين من العناصر الأخرى تحت لواء واحد . بل أصبح عبد الرحمن يتدخل فى العروش المسيحية بالخلع أو التعيين ! . ففى سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م لجأت الملكة توتا Tota (طوطه) إلى عبد الرحمن الناصر ، فى رفقة حفيدها سانشو (شانجه) ، الذى خلعه نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نافار وليون ، وولّوا مكانه أردونيو الرابع – وذلك لمساعدتها على استرجاع العرش لحفيدها . وقد أبدى الناصر شروطه التى تمثلت فى الحصول على عشرة حصون من مملكة سانشو ، ثم أرسل معه جيشًا خلع به أردونيو الرابع ، وأعاده إلى العرش سنة ٣٤٩ هـ ! .

وقد تابع ابنه الحكم المستنصر سياسته إزاء الممالك المسيحية . فحين نكث سانشو وعده فى تسليم الحصون العشرة ، أخرج إليه الحكم فى سنة ٣٥٢ هـ./٩٦٢ م ، وافتتح مدينة « شنت اشتبن دى غرماج » على نهر دويره . كما أرسل جيشًا آخر لمحاربة الباسك ، وتمكن من فتح مدينة قلهرة . ثم عاد فهاجم مرةً أخرى بلدة ألبة سنة ٣٥٤ هـ ! .

ولم تلبث الانقسامات أن تفشّت فى مملكة ليون بعد وفاة سانشو سنة ٩٦٦ ، فقد خلفه ابنه رودميرو الثالث ، ولكنه كان طفلاً لا يتجاوز الخامسة من عمره ، وتولّت عمّته الوصاية عليه ، فخرج كثير من الأمراء عليه ، وانقسمت ليون إلى إمارات صغيرة متصارعة . ولما كان الحكم المستنصر هو أكبر قوة سياسية وعسكرية فى شبه الجزيرة الأسبانية ، فلذلك أصبح ملجأً لهؤلاء الأمراء يتوافدون على قرطبة طلبًا لمعاونته على أعدائهم . وتوالت السفارات عليه منذ عام ٩٦٦ ، وبذلك أصبحت الدولة العربية فى الأندلس تبسط نفوذها على الشمال المسيحى الأوروبى ، ويدين لها الأمراء والملوك الأوروبيون بالولاء والاحترام .

وقد وصف المؤرخ رينو قرطبة فى عهد عبد الرحمن الناصر بقوله : «كانت أوروبا المسيحية مدهوشةً بعظمة قرطبة ، وكان عبد الرحمن مقصدًا لجميع ملوك العصر . وكان يراسله البابا وإمبراطور القسطنطينية ، وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبلاد الصقالبة . وكان ملوك المسيحيين – كما يقول مؤرخو العرب – يبسطون أيدى الخضوع للخليفة ، ويعدّون شرفًا عظيمًا أن يقدّم الخليفة يده لسفرائهم ليقبّلوها ! .

وقد مات الخليفة الناصر فى الثالثة والسبعين من عمره ، بعد حكم دام خمسين عامًا . وعندما زار الملك الأسبانى أوردونيو الرابع ، ملك ليون ، الأندلس فى أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر

(بن عبد الرحمن الناصر) – سأل عن قبر الناصر ، وزاره ، وركع أمامه فى خشوع مظهرًا احترامه لذكراه ! .

ولم يكن فى هذا التصرف ما يوجب الدهشة ، فقد كانت قرطبة فى ذلك العصر أكثر مدن أوروبا سكانًا ، فقد بلغ عدد هؤلاء السكان وفقًا للإحصائيات التى قام بها المستشرقون نحو نصف مليون نسمة ، وقد بلغت مستوى من الثراء والحضارة لم يكن له مثيل فى دول الغرب المعاصرة . التى كانت ترزح تحت الجهل والانحطاط ، كما شهدت تطورًا عمرانيًا لم تشهده أوروبا ، وأصبحت موطنًا للفلاسفة والشعراء ومركزًا للفنون والآداب . وقد وصف المقرى ، نقلاً عن بعض المؤرخين . حجمها العمرانى ، فذكر أنه كان بها ٢١٣,٠٧٧ دارًا خاصة ، و ٦٣٠٠ دار للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد ، بالإضافة إلى الحمامات والخانات ، وبلغ عدد حوانيتها ٨٠.٥٥٥ حانوتًا ، وعدد حماماتها ٩١١ حمامًا ، وعدد مساجدها ٣٨٧٧ مسجدًا ! .

وكانت قرطبة مركزًا حضاريًا هامًا يقصده الطلاب والعلماء من أوروبا للتعلم والتمدن ، كما كانت مركزًا سياسيًا متألقًا يقصده ملوك بيزنطة وأسبانيا المسيحية بالسفارات والهدايا . ففى عهد عبد الرحمن الناصر قدم وفد من قبل الأمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع فى عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، وقد استقبل ، كما تفعل الدول الكبرى اليوم عند استقبال عظيم من العظماء ، بمراسيم احتفالية ، وأحيط القصر الذى نزل فيه بحراسة مشددة ، واستقبل الخليفة الناصر هذا الوفد ، بعد شهر من نزوله بقرطبة ، فى قاعة الآستقبالات الكبرى فى قصر قرطبة ، وازدان قصر الخلافة بالزينات ، وبدت قاعة المجلس الزاهر مزينة بستائر الديباج وأنوار الثريات ، ووصل رسل الإمبراطور البيزنطى مبهورين حائرين ! . ولم يكن هذا إلا مثلاً واحدًا على السفارات التى وفدت إلى قرطبة ، فى عهد الخليفة الناصر أو ابنه الحكم المستنصر.

وقد أحرز أهل الأندلس فى ذلك العصر قصب السبق فى العلوم المختلفة ، من فلك ، ورياضة ، وطب ، وكيمياء ، وأدب ، وفنون . ويكفى الإشارة إلى أنه خرجت من قرطبة أولى محاولات الطيران على يد عباس بن فرناس ، الذى احتال على تطيير جسمه بجناحين وكساه بالريش ، وطار فى الجو مسافات بعيدة ، فأسس بذلك ميلاد فكرة الطيران فى الجو بل كان من قرطبة خروج أوائل المكتشفين فيما وراء بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى) للتحقق من وجود أرض تقع وراءه . وكان الظن أن الساحل الغربى للأندلس هو آخر المعمور !

فى ذلك الحين توفى الحكم المستنصر ، ابن عبد الرحمن الناصر ، فى سنة ٣٦٦ هـ ، بعد

حكم دام خمسة عشر عامًا ، تاركًا ولده هشام المؤيد دون العاشرة . ومع أنه أخذ له المبايعة من كبار رجال دولته ، إلا أنه لم يكد يتولى العرش ، حتى أخذ العسكريون يعملون على تنحيته ، وإقامة عمّه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر مكانه . ولكن رجال الدولة العرب دبروا مؤامرةً أفلحت فى اغتيال المغيرة ، وبذلك خلا الجوّ لهشام بن الحكم . ولكن نظرًا لصغر سنّه لم يكن له من الأمر شىء ، وانتهى الأمر بسقوط السلطة الفعلية فى يد حاجبه محمد بن أبى عامر ، بينما بقى هشام صاحب السلطة الشرعية ، فكان ذلك أوّل انقسام فى الدولة الأموية بالأندلس بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، وقام إلى جانب الخلافة الأمويّة فى ذلك الحين ما عرف باسم الدولة العامرية التى أسسها محمد بن أبى عامر ، الذى لقب نفسه بالحاجب المنصور .

وقد أثبت الحاجب المنصور ، وهو من أسرة عربية عريقة يمنية الأصل ، أنه من طراز الحكام العرب العظام والقادة العسكريين الموهوبين الخالدين فى التاريخ . فقد بدأ عمله بتنظيم الجيش على أساس جديد ، ليكون أداته فى تحقيق أهداف الدولة العليا فى وحدة البلاد والانتصار على أعدائها .

وكان هذا الجيش قبل عهده يتكون من نظامين : نظام عسكرى دائم فى قرطبة يتقاضى أفراده مرتبات ثابتة ، ويتمثل فى فرقة الحرس النظامية التى كانت تتكوّن من الصقالبة . ونظام إقطاعى عسكرى يتمثل فى القبائل العربية والبربرية التى وزعت على البلاد والمدن الأندلسية بعد الفتح .

وكان الصقالبة قد بدأ استخدامهم فى الأندلس فى عهد الأمير الحكم الربضى (الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل) — أى منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ، ثم أخذ عددهم يزداد حتى بلغ فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، أى فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ٣٧٥٠ من الرجال ، ٦٣٥٠ من النساء . وهم من سبى البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقًا إلى البحر الأدرياتى غربًا ، والمعروفين باسم الشعوب السلافية ، وقد أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة ، ثم توسّعوا فى استعمال هذا الاسم فأصبح يطلق على الرقيق الذى يجلب من سواحل البحر الأسود وإيطاليا وشمال أسبانيا . وقد جىء بأغلب هؤلاء الصقالبة أطفالاً ، ثم ربّوا تربيةً إسلاميةً ، ودُرّبوا على أعمال القصر والحرس والجيش ، واحتلّ الكثيرون منهم مكانةً عاليةً فى المجتمع القرطبى . فهم على هذا النحو مثل المماليك الأتراك فى المشرق الإسلامى . وقد استخدمهم الخلفاء الأمويون فى الأندلس لنفس الغرض الذى استخدمهم من أجله الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وهو الحدّ من نفوذ العناصر

الأخرى المسيطرة والمتنافسة ، وهم فى حالة الخلفاء العباسيين العرب والفرس ، وفى حالة الخلفاء الأمويين بالأندلس ، العرب والبربر ! .

على أن وجود الصقالبة فى الجيش فى الأندلس أدّى إلى خلق الحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقوّاده ، فقد كان من أسباب هزيمة شمنقه Simancas أو الخندق ، التى تعرضنا لها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر . إذ تغيرت نفوس العرب بسبب تقليد عبد الرحمن قيادة الجيش « لنجدة » الصقلبى ، فتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة ، مما أدّى إلى الهزيمة ، ومصرع نجدة الصقلبى ، وفرار عبد الرحمن الناصر بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا من المعركة بأعجوبة ، ولم تكن له بعدها غزوة بنفسه .

فى هذا الضوء يمكن فهم التغيير الذى أحدثه الحاجب المنصور فى نظام الجيش بالأندلس . فقد ألغى العنصرية فى ترتيب الجيش ، كما ألغى النظام الإقطاعى العسكرى ، وجعل الجيش كلّه نظامياً يتكوّن من فرق متعدّدة ، يتألف كلٌّ منها من جميع العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، ويتقاضى كل جندى راتباً من الدولة بدلاً من حصوله على إقطاع من الأرض يستغله ويجبى عطاءه ، كما هو معروف فى النظام الإقطاعى الإسلامى فى العصور الوسطى .

وبفضل هذا النظام الجديد . زالت العصبيات من الجيش ، وأصبح وحدةً نظاميةً متماسكةً تخضع لقيادة الحاجب المنصور . وبدأت بذلك صفحة جديدةٌ مجيدةٌ فى الصراع مع أوروبا .

ذلك أن الحاجب المنصور كان يدرك أن إحرازه الشعبية بين الناس وكسبه الشرعية فى الحكم — مع وجود الخليفة هشام فى السلطة الدينية ، لا يتأتى إلا عن طريق الجهاد فى سبيل الله ، أى النضال ضدّ الممالك المسيحية الشمالية .

لهذا السبب أخذ يقوم بغزوتين فى كل عام ، فى الربيع وفى الخريف (الصوائف والشواتى) حتى بلغت غزواته سبعاً وخمسين غزوة ! . باشرها كلها بنفسه ، رغم مرضه بداء النقرس ! . ولم يهزم فى غزوة منها طوال حكمه الذى دام خمسة وعشرين عاماً ! . فنحن هنا أمام بطل عربى من أبطال التاريخ الإسلامى العظام . ويقول ابن عذارى : إنه تعوّد أن يجمع ما علق بوجهه من غبار كل معركة ، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة ، كان يحملها فى كل أسفاره مع ما يحمل من أكفانه توقّعاً لحلول منيته فى أى لحظة ، وقد أوصى بدفن هذه الصرّة التى تحمل غبار المعارك التى خاضها ضدّ الدول المسيحية الشمالية معه فى قبره عند موته ! .

وقد كانت أول غزوة للحاجب المنصور فى سنة ٣٦٦ هـ فى غاليسيا (جليقية) ، واستمرت

ثلاثة وخمسين يومًا . وفى نفس العام قام بصائفته ، واستمر على هذا النحو كلّ عام حتى وفاته . واشتملت غزواته جميع الجهات الشمالية ، فى قشتالة وليون ، وفى نافار ، وفى كتالونيا .

وكانت غزوته سنة ٣٧١ هـ قد أثارت ضده حلفًا من ملوك شمالى أسبانيا ، حين هاجم مدينة سموره Zamora وهزم الملك ردميره الثالث ، واستباحها وهدمها . فقد شعر ملوك شمال أسبانيا بضرورة التحالف والتصدى لهذا الخطر ، فعقد حلف من ردميره الثالث ، وقومس قشتاله غرسيا Garcia Fernandez وسانشو ملك بنبلونه Sancho Abarca وكوّن الملوك الثلاثة جيشًا قويًّا أخذ يتجمع عند وادى دويره الأوسط ، ولكن المنصور سارع للقاء هذا الجيش قبل أن يزحف على الأراضى الإسلامية ، والتحم به فى أغسطس ٩٨١ م . فى رويدة جنوب غربى شنت مانكش Simancas فأنزل المنصور بجيوش أسبانيا مجتمعةً هزيمةً كبرى ، وسبى بضعة عشر ألفا منها ! . وعندما عاد إلى قرطبة تلقّب بلقب المنصور .

وتعتبر حملته على برشلونة وكتالونيا فى شمال شرقى أسبانيا سنة ٣٧٤ هـ . (٥ مايو ٩٨٥ م .) من أهم غزواته . وقد خرج فيها من قرطبة مارًّا بطريق ألبيره وبسطه ومرسيه ، ثم اتجه شمالاً فى الطريق الساحلى الشرقى المطل على البحر المتوسط ، حتى بلغ برشلونة بعد شهرين تقريبًا ، فاستولى عليها وأضرم فيها النيران . ولم يجرؤ حاكمها بوريل الثانى Borrell II على الدفاع عنها ! .

ويفهم مما أورده ابن عذارى أن حملة المنصور على غاليسيا فى عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، كان يصحبه فيها الأسطول البحرى . فيذكر أنه سار برًّا حتى وصل إلى مدينة غاليسيا ، بينما خرج الأسطول من ميناء قصر أبى دانس Alcacer do sal فى ساحل الأندلس الغربى (البرتغال) وهو يحمل المقاتلة والأقوات والعدد والأسلحة ، حتى وصل إلى نهر دويرة ، فدخل فى النهر والتقى بالمنصور ، وعقد منه جسرًا لعبور الجنود والأقوات والأسلحة . ثم زحف المنصور بفرسانه ومشاته متجها إلى سانتياجو Santiago التى يسميها المؤرخون العرب « شنت ياقوب » . أى القديس يعقوب ، أو سان جاك . وهو أحد الحواريين الاثنى عشر ، وقد دفن بهذه المدينة التى تعتبر فى أقصى غاليسيا ، وأصبحت الكنيسة التى دفن فيها مزارًا للأوروبيين من جميع الأنحاء . ويذكر الدكتور العبادى أن الأساطير الأسبانية القديمة كانت تصوّر القديس يعقوب فى شكل ملاك فارس يخرج لمعاونة المحاربين الأسبان على قتال المسلمين وفى يده سيف ويمتطى فرسًا أبيض حتى يكتب لهم النصر ! ، ولهذا أطلقوا عليه اسم Matamoros أى قاتل المسلمين ! . وقد استمدّوا من هذه الأساطير قوّةً فى محاربة المسلمين .

لهذا السبب أراد الحاجب المنصور إثبات فساد هذه الأسطورة عن طريق هدم كنيسة سانتياجو . وطعن الأسبان فى صميم زعامتهم الروحية والقومية . وسار بجيشه مخترقًا أرض العدو ، رغم وعورتها ، حتى ليذكر ابن عذارى أنه وصل إلى « جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق لم تهتد الأدلاء إلى سواه ، فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه » ، فقطعه العسكر وعبروا منه إلى وادى منيو ، واستمروا حتى وصلوا إلى المحيط الأطلنطى ، ثم تقدموا إلى مدينة سانتياجو « فوجدها المسلمون خاليةً من أهلها ، فحازوا غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها ! .

على أن المنصور لم يمس قبر القديس يعقوب ، بل إنه وفقًا لابن عذارى ، فرض عليه حراسة حماية له من الأذى ، احترامًا للتقاليد الإسلامية ! ، وعاد محمّلاً بالأسرى والغنائم التى كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها . فاستخدمت الأبواب فى تسقيف الجزء الذى زاده فى جامع قرطبة ، كما استخدمت النواقيس فى عمل قناديل علقت فى المسجد . ولكى يزيد المنصور فى إذلال الأسبان ، أجبرهم على حمل الأجراس المذكورة على ظهورهم من سانتياجو إلى قرطبة ، وهى مسافة تبلغ ثمانمائة كيلو مترًا ! . وقد وصل المنصور فى هذه الحملة إلى أماكن لم يخفق فيها علم إسلامى من قبل ! .

ويذكر رينو أنه فى أيام المنصور كاد الأمل فى بقاء المسيحية فى أسبانيا أن ينقطع ! . الأمر الذى دفع ملوك أسبانيا جميعهم إلى الاتحاد ونبذ كل خلافات بينهم ، فاتحد ملوك ليون ونافار وسائر المقاطعات الأسبانية ، وتسلّح الأساقفة والقساوسة وساروا فى مقدمة الجيوش – وفقًا لما ورد فى مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرّارة من الأسبان على حدود قشتالة ، فحشد المنصور كلّ ما عنده سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م ، واقتحم قشتالة من جهة مدينة سالم ، واشتبك مع الملوك الأسبان من بنبلونه إلى استرقه ، ومعهم سانشو (شانجة) ملك قشتالة ، فى موقعة جربيرة ، وهزمهم هزيمةً ساحقةً .

ويذكر المؤرخون أن علاقة المنصور فى تلك الأثناء بالدولة البيزنطية كانت ودّية ، جريًا على سياسة أمراء وخلفاء الأندلس الأمويين . وكان الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الحين هو باسيل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥ م) ، الذى كان عصره من أزهى عصور هذه الأسرة المقدونية . كذلك كانت علاقة المنصور سلميّة مع الإمبراطور أوتو الثالث ملك ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية الرومانية

المقدسة (٩٨٣ – ١٠٠٢ م) . كما توطدت العلاقات بينه وبين بعض ملوك أسبانيا الذين دخلوا تحت نفوذه ! .

وقد مات المنصور فى الميدان سنة ٣٩٢ هـ . / ١٠٠٢ م ، وذلك أثناء رجوعه من حملة بريشتر . وقد فرحت أسبانيا المسيحية لوفاته فرحًا شديدًا . وكتبت الحوليات اللاتينية فى الأديرة تقول : « وفى سنة ١٠٠٢ مات المنصور وذهب إلى جهنم ! » .

على أن بعض المؤرخين الأوروبيين قد أولوا المنصور إهتمامًا كبيرًا . فقد ذكر رينو أنه فى عهد المنصور انتشرت مبادئ الفروسية **Chevallerie** والحرص على حفظ الشرف ، والرفق بالمرأة ، ونجدة الملهوف ، وحماية الضعيف . بل ذهب فيريدو **Veiredot** فى كتابه : « مشاهد الأخلاق العربية فى أسبانيا فى القرن العاشر » . إلى أن العرب فى عهد المنصور هم الذين وضعوا نظام الفروسية كما عرف فيما بعد عند الفرسان الأوروبيين ! . وإن كان رينو يعترض على ذلك ، ويرى أن هذا النظام انتشر فقط فى عهد المنصور ولم ينشأ . ولكن كثيرًا من المؤرخين الأوروبيين الآخرين يوافقون فيريدو ، ويرون أن نظام الفروسية ، الذى عرف فى أوروبا فى العصور الوسطى ، تسرب عن طريق عرب الأندلس ! . ومن المحقق أن غزوات المنصور التى بلغت سبعًا وخمسين غزوةً ، كانت مدرسةً للفروسية العربية يقتدى بها فرسان أوروبا ! .

ويروى رينو فى أسباب موت المنصور ، أنه بينما كان يخوض المعركة ضدّ جيوش ملوك أسبانيا على نهر دويره ، وهى معركة دارت طول النهار وسالت فيها الدماء أنهارًا ، رجع إلى مخيمه بعد أن خيّم الظلام ، وانتظر مجيء قوّاده للتشاور ، فعلم أنهم سقطوا فى الميدان ، فامتنع عن أخذ علاج لجروحه ، فمات بعد أيام قلائل ، ودفن فى الثياب التى كانت عليه يوم المعركة ، وفى التابوت الذى يحمله معه دائمًا ليدفن فيه ! . وكان دفنه فى مدينة سالم ، وقبره معروف للآن .

على كل حال ، فقد تولّى الحجابة بعد المنصور ابنه عبد الملك ، الذى لقّب فيما بعد بالمظفّر . وأقرّه الخليفة هشام على ما كان عليه أبوه . وقد سار المظفّر على سياسة أبيه العسكرية . فقد ظنّ ملوك أسبانيا أن الفرصة قد سنحت لإحياء التحالف القديم وغزو الأراضى الإسلامية ، ولكنه سارع إلى المبادأة فى العام التالى لولايته مباشرةً ، أى فى سنة ٣٩٣ هـ ، فأعدّ حملةً كبيرةً خرجت من أبواب مدينة الزاهرة التى بناها أبوه ، يوم ١١ شعبان ، متجها إلى الحصن ممقصر **Manmagastre** من ثغر برشلونه . وقد بلغ من هيبته أن سارع ملك قشتاله وأليه ، وهو سانشو بن جارسيا **Soncho Garcia** إلى احترام العهد الذى عقده مع أبيه ، وأرسل إليه بفرسان يحاربون تحت

لوائه ! . كما فعل ذلك أيضًا الفونسو بن أردن ! ، ويقول ابن عذارى : إن هؤلاء الفرسان « حضروا للغزو بين يدى عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنعقد فى صدر هذه الدولة ، وافين بالعهد ، فأحسن عبد الملك قبولهم » ! .

وقد فتح عبد الملك المظفر حصن ممقصر بعد معركة حامية ، وانصرف يثخن فى أرض برشلونة « فدوّخ بلاد الكفرة ، وانبسط المسلمون يحرقون ويهدمون ويحطمون ! . ولما رأى الحاجب عبد الملك أنه قد بلغ الغاية من التدويخ لأرض العدوّ ، والوطء لها ، وإبادتها وتركها بلقعًا خرابًا – رحل بالعسكر منكفئًا نحو أرض الإسلام » ! .

وقد كان نتيجة لهذه الحملة المظفرة ، أن استعاد عبد الملك منزلة أبيه عند ملوك أسبانيا ، إذ نراهم فى العام التالى للحملة ، سنة ٣٩٤ هـ يحتكمون إليه فيما شجر بينهم من خلاف ، إذ كان سانشو بن جارسيا ، ملك قشتالة ، يريد إزاحة الوصى على ملك ليون الصغير الذى لم يكن يتجاوز عشر سنوات ، ولما تفاقم الخلاف احتكموا إلى عبد الملك المظفّر ، فأرسل بعض مسيحيى قرطبة الذين حكموا لصالح الوصى .

ويذكر المؤرخون أن هذا الحكم أغضب ملك قشتالة ، فنقض العهد مع المظفّر ، ولكن هذا سارع إلى الخروج إليه بجيشه ، وأوغل فى أرضه ، فلم يجرؤ سانشو على التصدى له ، بل إنه حين عاد المظفر إلى قرطبة ، أرسل إليه سانشو يلتمس السلم ووفد بنفسه إلى قرطبة ، وقبل أن يشترك معه فى الغزو ضدّ ليون ! .

وقد كانت تلك هى حملة ٣٩٥ هـ التى خرج فيها عبد الملك ومعه سانشو ، واقتحم مملكة غاليسيا (جليقية) ، وخرب سموره ، وأوغل فى الشمال الغربى حتى وصل إلى حصن منيع يسمى ليونا Luna وفيما يبدو أنه أراد أن يقلّد والده المنصور فى مواصلة الغزوات سنويًا ، لأننا نراه فى العام التالى ٣٩٦ هـ يقوم بغزوته الرابعة إلى بنبلونه ، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى بلاد الباسك (الباشكنس) سار إلى سرقسطة ، ثم وشقه ، ثم برشتر . ودخل أرض العدوّ ، فخرب حصن سان جوان (شنت يوانش) . كما خرج فى عام ٣٩٧ هـ فى غزوته الكبرى التى أكسبته لقب المظفر ، وهى الغزوة المعروفة باسم قلونية Clunia ، فى قشتالة . ويذكر ابن عذارى أنه لقى فى هذه الغزوة « جميع النصرانية على اختلافها » ! . الأمر الذى يشير إلى تحالف جديد بين ملوك أسبانيا ، وعلى رأسهم سانشو بن جارسيا ، الذى رأينا خروجه تحت قيادة عبد الملك المظفر عام ٣٩٥ ضدّ ليون ! . ولكن هذا يوضّح تقلب العلاقات بين ملوك أسبانيا وبين قرطبة . وعلى كل

حال فقد هزم عبد الملك هذه الجيوش مجتمعةً ! ، وعاد إلى قرطبة ليطلب إلى الخليفة هشام منحه لقب المظفّر ! .

ولم تنته حملات عبد الملك بعد هذه الحملة ، فني عام ٣٩٨ غزا قشتالة مرة أخرى ، واحتلّ حصن سان مارتين (شنت مارتين) بعد حصار دام تسعة أيام . كما خرج في العام التالى ٣٩٩ هـ في حملته الأخيرة ، التي يبدو أنها لم تكن موفّقة كما تذكر المصادر الأسبانية ، وقد أراد بعد عودته أن يجمع صفوفه من جديد ، ويفاجئ العدوّ بحملة فى الشتاء ، ولكنه أصيب بذبحة صدرية قضت عليه فى عام ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م .

وقد كان ذلك آخر ما توصّل إليه المدّ الإسلامى فى أسبانيا . إذ بعد ذلك يحدث الانحسار ، الذى سوف نرى أن ملوك أسبانيا لم يكن لهم يد فيه ، بل قام به العرب أنفسهم فى عمل انتحارى لم يشهد له التاريخ مثيلاً ! . ولكن يجب علينا أن نذكر أن هذا المدّ استمر فى المغرب الإسلامى لمدّة أطول من استمراره فى المشرق بقرن ونصف تقريباً من الزمان ! . ويرجع ذلك إلى أن العرب فى المغرب الإسلامى كانوا يحاربون فى أوروبا ذاتها وعلى قطعة من أرضها : فى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا . ولم يكونوا يحاربون فى آسيا أو أفريقيا . ومن ثم كان الصراع صراع حياة أو موت ، وجود أو فناء ! .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الحرب بين أسبانيا المسيحية والأندلس الإسلامية كانت حربًا ذات طبيعة خاصة . فلم تكن حربًا بين جيوش ، بقدر ما كانت حرب حصون وقلاع . وفى مثل هذه الحرب لا تقع معارك حاسمة ، وإنما يحدث كسب حصن أو خسارة قلعة فى هذا الجانب أو ذاك . ومن ثم فلم يكن فى مقدور الجيوش الإسلامية محاصرة هذه القلاع والحصون دفعة واحدةً وإنهاء صفحة الملكيات المسيحية فى شمال أسبانيا بمعركة واحدة ، وكذلك كان الحال بالنسبة للملكيات المسيحية ، حين اشتدّ عودها فى فترات الفتن العربية والحروب الداخلية فى الأندلس ، فلم يكن فى مقدورها اقتحام الحصون العربية دفعةً واحدةً وإنهاء الصراع بمعركة حاسمة ، بل كان عليها انتزاع حصن وراء آخر ، وهو ما أطال أمد الصراع ، وأطال المدّ والانحسار .

٢١ - البيزنطيون من الفر إلى الكر

- تحالف العرب مع البيالصة .
- جهاد ملطية وطرسوس فى آسيا الصغرى .
- تمزق الدولة العباسية .
- العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ٨٦٧ - ١٠٥٧

٢١ – البيزنطيون من الفر إلى الكر

رأينا كيف أن انتهاء مدّ الفتوح العربية فى المشرق منذ منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) لم يكن معناه انتهاء صراع العرب مع أوروبا ، لأن المشرق فى ذلك الحين لم يعد وحده هو الأمة العربية ، وإنما نمت الأمة العربية فى تلك الأثناء ، وامتدّت على طول الساحل الشمالى الأفريقى ، ثم زحفت على غرب أوروبا فى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا ، بل عرّبت البحر المتوسط الذى أصبح بحيرةً عربية ، فاحتل العرب الأندلسيون كريت عام ٨٢٦ ، واحتلّ الأغالبة فى تونس صقلية فى العام التالى ، كما احتلوا مالطة عام ٨٦٩ ، وغزوا إيطاليا فى سنتى ٨٤٦ ، ٨٧٠ . وفتح الأندلسيون جزر البليار سنة ٨٥٨ ، وغزا مجاهدة العرب جبال الألب واستقروا فى جنوب فرنسا من ٨٦٩ – ٩٧٥ ، ثم كانت غزوات عبد الرحمن الناصر فى شمال أسبانيا من ٩١٢ – ٩٦٣ ، وبعده المنصور ثم المظفر وهكذا عوّض المغرب العربى قصور المشرق العربى ، وحمل عنه الدور الذى ناء بحمله

فى ذلك الحين كان الصراع فى المشرق يدور على نحو متكافئٍ بين العرب والبيزنطيين . فقد ذكرنا كيف أحرق البيزنطيون فى سنة ٨٣٥ م فى عهد المعتصم زبطرة مسقط رأس والدته ، كما هاجموا سميساط « شمشاط » على الفرات وضربوها ، وفعلوا نفس الشيء بملطية ؛ وكيف ردّ المعتصم على ذلك بإحراق عمورية مسقط رأس الإمبراطور تيوفيل سنة ٨٣٨ م ! . وقد بنى العرب بعد ذلك أسطولاً كبيرًا تحت قيادة القائد أبى دينار ، حاولوا به عام ٨٤٢ م فى عهد الواثق الإغارة على القسطنطينية ، ولكنه تحطم تحت عاصفة بحريّة قويّة . وأخذت الحرب بين العرب والبيزنطيين بعد ذلك تدور سجالاً .

فنى ذلك الحين خدمت الظروف العرب باضطهاد البيزنطيين للبيالصة ، Paulician أتباع بولس – الذين كانوا يعيشون على الحدود العباسية البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وكانوا معادين للأيقونات (الصور) . فقد عاش هؤلاء البيالصة متعاونين مع البيزنطيين فى عهود الأباطرة المعادين للأيقونات منذ أيام قسطنطين الخامس (٧٤١ م) ، ولكن سرعان ما بدأ اضطهادهم منذ انتصار النزعة الموالية للأيقونات ، وتغيّر سياسة الأباطرة بالتالى منذ عهد ميخائيل الأول

٨١١ م) ، ثم فى عهد تيوفيل - مما اضطر هؤلاء إلى وضع أنفسهم بقيادة زعيمهم كاربياس Karbeas فى خدمة أمير ملطية . وتتابع هروبهم ، واستقرّوا فى ثلاث مدن رئيسية على حدود أرمينية . فى منطقة سيواس الجبلية ، وصارت تفريك Tephrike (إبريق عند العرب) مركزهم الرئيسى . وأثبتوا أنهم خصم عنيف للدولة البيزنطية ، وكانوا عونًا للعرب على قتالها والتصدى لها .

وقد تولّى عبء الصراع مع البيزنطيين فى ذلك الحين قائدان هامّان من القادة الإسلاميين ، هما : عمر بن عبد الله الأقطع ، أمير ملطية من ثغور الجزيرة ، وعلى بن يحيى ، أمير طرسوس من ثغور الشام ، وتحالف معهما كاربياس قائد البيالقة . وسنرى كيف لعب هذا الحلف دورًا هامًّا فى إيقاف المدّ البيزنطى إلى حين .

ففى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ شنّ البيزنطيون إغارة قوية من ناحية تفريك على سميساط على الفرات ، وانتهبوا عدّة قرى ، حتى قاربوا « آمد » وأسروا نحو عشرة آلاف من المسلمين ، ورجعوا إلى قواعدهم . وقد تتبعهم عمر بن الأقطع ، أمير ملطية ، وكربياس ، فلم يدركاهم .

ولكن هذه الإغارة البيزنطية كانت بدء فترة من الحرب المستمرة تميزت فى الجانب العربى بظهور عمر بن الأقطع وعلى بن يحيى ، أميرى ملطية وطرسوس ، وكربياس . وفى الجانب البيزنطى تميزت بظهور ميخائيل الثالث نفسه ، وإلى جواره عمّيه برداس وبتروناس .

فقد ردّ أميرا ملطية وطرسوس على غارة البيزنطيين بعدّة غارات على الأراضى البيزنطية ، كما أرسل المتوكّل جيشًا لغزو هذه الأراضى أفلح فى الاستيلاء على بعض الحصون أهمها حصن « صمالو » .

على أن البيزنطيين عادوا فى عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م بالإغارة مرّة أخرى على سميساط ، ولكن حامية المدينة استطاعت أن تفك الحصار بهجوم مفاجئ أثناء انشغال البيزنطيين بمراسم الأحد ، ففر الإمبراطور بصعوبة ، وسقط معسكره فى أيدى العرب . ثم غزا عمر بن الأقطع الأراضى البيزنطية فى صيف العام التالى ، وأسر سبعة آلاف ، كما غزا كاربياس أيضًا وأسر خمسة آلاف ، كما غزا على بن يحيى أمير طرسوس الصائفة . وربما حدث فى نفس العام غزو أسطول كريت العربى لجزر السكلاديز Cyclades

وقد حاول الإمبراطور الردّ على هذه الغزوات سنة ٨٦٢ ، ولكن بينما كان فى الطريق ، أخبره أوريناس قائد الأسطول الذى خلفه على القسطنطينية ، بظهور الروس أمام القسطنطينية ، فعاد إليها . واستغل العرب ظهور الروس ، فى القيام بغارات ناجحة ، فقد تحرّك عمر الأقطع أمير

ملطية بجيشه . ولكن الإمبراطور ميخائيل رجع بعد زوال الخطر عن العاصمة ، واجتاز الطريق الرئيسى المؤدى إلى الفرات الأعلى مارًّا بأنقرة وسبسطية ، وعسكر فى دازيمون Dazimon منتظرًا قدوم جيش الأقطع . ولكن هذا اجتاز طريقًا آخر ، فقاد قواته شمالاً ونزل بها إلى سهل دازيمون وأحرز به موقعًا ممتازًا عند كوناريون ، ودارت معركة كبيرة هزم فيها البيزنطيون ، وفرّ الإمبراطور إلى تل أنزن Anzen ولكنه حوصر بعض الوقت ، واضطر الأقطع إلى الانسحاب بقواته طلبًا للماء والمرعى ، ويقال إنه تقدم حتى وصل إلى سينوب Sinope

على أن عمر بن الأقطع عاد فى العام التالى سنة ٨٦٢ فقام بحملة بلغ بها قلب أرض البيزنطيين ، وارتاد المناطق التى ارتادها فى حملته السابقة فى لقائه مع الإمبراطور ، كما قام بتخريب فى قطاع الأرمنياق شمالاً ووصل إلى ساحل يوكسين Euxine واستولى على مدينة أميزوس Amysus على البحر الأسود ، وهى سمسون الحالية ، وكانت أكبر ميناء فى ساحل آسيا الصغرى الشمالى وكبادوكيا . ويعتقد بعض المؤرخين أن خطته كانت تهدف إلى الوصول إلى قلب آسيا الصغرى ، ثم العودة عن طريق أبواب كيليكيا ، ويذكر أنه بلغ من تأثير هذا الظهور غير المتوقع لأمير ملطية على ذلك الساحل ، أن عادت الحياة إلى الأسطورة القائلة بأن الأمير أمر بضرب البحر لأنه أوقف سيره ! ، كما فعل « أجزر كسيس » Yerxes ملك الفرس ! .

وعلى كل حال فإن هذه الغارة كانت مؤشرًا شديد الخطر للإمبراطور البيزنطى ، لما تحمله من معنى عودة المدّ الإسلامى ، فحشد قوات الجيش البيزنطى كلها تحت قيادة بتروناس أخى تيودورا ، ولم تقتصر هذه القوات على الفرق الموجودة فى آسيا الصغرى ، بل شملت قوات تراقيا ومقدونيا وفرق العاصمة . وقد تقدمت هذه القوات للاشتباك مع قوات عمر الأقطع ، وقد نصحه البعض بالعودة وعدم الاشتباك مع كل هذه الحشود ، ولكنه آثر تنفيذ خطته الأصلية ، فسار بمتابعة الشاطئ الغربى لنهر هليس إلى قلب آسيا الصغرى ، فلقيه الإمبراطور البيزنطى فى موضع اختلف فيه المؤرخون ، وإن اتفقوا على أن مكانه ملاكوبيا ، عند موضع يسمى بوزن Poson فحاصر بتروناس الجيش العربى من جميع الجهات ، وتقدمت الفرق البيزنطية فى قطاعات الأرمنياق والبوكلار وبافلاجونيا وكولونيا من ناحية الشمال ، بينما تجمعت فى الجنوب والجنوب الشرقى قوات قطاعى الأناضول والأوبسيق ، تعززها قوات سلوقية وخرشنة ، وظهر فى غربى خط مسير عمر الأقطع بتروناس على رأس فرق العاصمة Tagmata وتراقيا ومقدونيا .
وبذلك تم حصار القوات العربية ، ولما لم ينجح عمر الأقطع فى شق طريقه وسط الجيوش

البيزنطية صوب الشمال أو الجنوب ، آثر الاصطدام بجيش بترُوناس ، ولكن الجيوش البيزنطية أطبقت من الشمال والجنوب ، وكاد الجيش العربى يباد تماما ، وسقط عمر الأقطع فى المعركة بعد قتال باسل ، وأراد ابنه النجاة بجزء من الجيش ، فاجتاز الهليس ، ولكنه أسر وقواته فى خرشنة ، ومن الجائز أن كاربياس زعيم البيالصة قتل فى المعركة ، لأنه مات سنة ٨٦٣ ، أى نفس العام .

على أن البيزنطيين أكملوا انتصارهم فى هذا العام نفسه ، بالتخلص من عدوّهم الثانى على بن يحيى أمير طرسوس ، وكان قد عزل فى العام السابق سنة ٢٤٨ هـ ٨٦٢ م عن الثغور الشامية . وولى أرمينية وأذربيجان ، فعندما سمع بهزيمة جيش عمر الأقطع ، خرج إلى البيزنطيين للانتقام ، ولكنه قتل هو الآخر فى نحو أربعمائة من رجاله فى موقع يقال له مدينة الشهداء Martyropetis ، ولا يعرف هل كان على رأس الجيش البيزنطى بتروناس أو غيره . ولكن الهزيمة وخسارة قائدين إسلاميين هامَّين أحدثتا آثارًا بعيدة المدى فى قلب الدولة العباسية ؛ إذ أثارت ثورة شعبية فى بغداد ، احتجاجًا على تمكين الروم من أطراف ديار المسلمين .

ويذكر بعض المؤرخين أن انتصار البيزنطيين فى عام ٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م كان حاسمًا ، إذ تخلص البيزنطيون من عدوّين قويين ، هما : عمر الأقطع وعلى بن يحيى ، ولم يبق سوى البيالصة . ولكن هذا الانتصار لم يكن هو السبب فيما لحق ذلك من انحسار ، لأنه لم يحدث بسببه تغيير كبير فى الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى آسيا الصغرى . فقد كان فى يد المسلمين كثير من القلاع ، خصوصًا فى كبادوكيا شرقى الهليس ، كما كانت تعزز جهودهم معونة البيالصة على الحدود الإسلامية البيزنطية . وفى الوقت نفسه كان مايزال فى بغداد وسامرا من أهل اليسار من أخرجوا أموالهم للمساعدة على إنهاض الجيوش الإسلامية لمقاومة البيزنطيين .

والحقيقة أن السبب فيما تلا ذلك من انحسار المدّ الإسلامى ، هو التفكك الذى صارت إليه الدولة العباسية ، بعد أن أخذت الخلافة العباسية تفقد تأثيرها الوجدوى فى ربط العرب تحت سلطة مركزية واحدة ، منذ أن سقطت تحت نفوذ الأتراك ، حتى صاروا يعينون الخلفاء ويعزلونهم ويعذبونهم ويقتلونهم . فقد أوعزوا بقتل الخليفة المتوكل ، ابن المعتصم العظيم الذى خرب عمورية سنة ٨٣٢ ، فمات مسمومًا ، كما فرّ منهم الخليفة المستعين إلى بغداد ، فأقاموا فى الخلافة ابن عمه المعتز بن المتوكل ، وقامت حرب أهلية بين المستعين والمعتز دامت عدة أشهر . وقد انتصر المعتز ، ولكنه لقى نهايته على يد الأتراك ، الذين خلعوه وعذبوه وقتلوه سنة ٢٥٥ هـ وقد تولى بعده

المهتدى بن الواثق ، ولكنهم قتلوه قبل أن يمرّ عام على توليته . واستمر الخلفاء العباسيون ألعوبة فى يد الأتراك ، حتى أنه عندما أراد الخليفة المتقى الهرب إلى مصر سنة ٣٣٣ هـ ، اعتقله الأتراك وخلعوه من الخلافة وسملوا عينيه .

كان من الطبيعى فى مثل هذا الضعف الذى سقطت فيه الخلافة العباسية ، أن تنمو النزعات الاستقلالية فى الأقطار الاسلامية الخاضعة لسلطة الخلافة ، وتكثر الحركات الإنفصالية . وكان هارون الرشيد قد مهّد لذلك فى الحقيقة ، حين قسم إمبراطوريته بين ولديه الأمين والمأمون ، واتبع الخلفاء بعده سياسة ساعدت على التفكك حين أسندوا حكم الولايات النائية لأمراء يحكمونها من بغداد أو سامراء بواسطة نوّاب عنهم يدينون بالولاء لهم .

وفى الوقت نفسه أدّى إهمال الحالة الاقتصادية فى الولايات لحساب بغداد إلى ظهور الثورات الاقتصادية والاجتماعية التى هدّدت سلطة وكيان الدولة العباسية أكثر مما هدّدها الأتراك ، وقد تمثّل ذلك فى « ثورة الزنج » التى نشبت فى العراق ، وامتدّت من البصرة إلى أبواب بغداد ، واستولت على جزء كبير من العراق . كما تمثّل فى حركة « القرامطة » التى نشأت فى سواد العراق (أى فى قراه لا مدنه) وانتقلت إلى سوريا ، ثم إلى البحرين وبلغت مكة ، وانتزعت الحجر الأسود سنة ٣٤٧ هـ ، وأبقته فى حوزتها ثلاثين عاماً . وكانت دعوتها هى أصل الحركة الفاطمية التى استقرت فى المغرب فيما بعد ! .

وعلى هذا النحو أخذ المشرق يتفكّك تحت سلطة الخلافة العباسية ، وتظهر فيه الإمارات المستقلّة . فظهر الصفاريون بعد الطاهريين فى خراسان سنة ٢٥٤ هـ . وظهر السامانيون فى بخارى سنة ٢٥٠ هـ . وظهر الطولونيون سنة ٢٥٤ هـ ، ثم الإخشيديون سنة ٣٢٣ هـ فى مصر ، وظهر الزيديون فى اليمن ٢٤٦ هـ ، وظهر الحمدانيون فى الموصل وحلب سنة ٣١٧ هـ . واستمر ذلك طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) .

وبذلك تهيأت الظروف للدولة البيزنطية للكرّ من جديد ، بعد فرّ استمر قرنين ونصف من الزمان . وساعد على ذلك انتقال العرش فى بيزنطة إلى الأباطرة المقدونيين الذين حكموا من سنة ٨٦٧ إلى سنة ١٠٥٧ (٢٥٣ - ٤٤٨ هـ .) ويعدّ عصرهم من أزهى العصور التى شهدتها هذه الدولة ، فقد ساروا على خطى الدولة اليونانية القديمة ، وأرادوا أن يبعثوا مجدها . وكان العنصر

السلاف هو العنصر الرئيسى فيها . وقد أسّسها باسيليوس الأوّل ، وهو جندى ولد فى مقدونية ، وتمكن من الوصول إلى رتبة رئيس القصر عام ٨٦٥ ، ثم تبنّاه الإمبراطور ميخائيل الثالث وجعله ولىّ عهده ، ولكنه قتله وطلب من البطريرك تتويجه إمبراطورًا ، ففعل .

وقد أدرك باسيليوس أن الدولة العباسية قد دخلت فى دور انحلال وضعف ، فأراد استغلال هذا الظرف لصالح بلده ولأسرته ، فهبّ يحارب على طول الجبهة الإسلامية من شاطئ كيليكيا فى الجنوب حتى أرمينية وطرابزون . ونجح فى دفع المسلمين إلى الوراء فى عدّة حروب متتالية فيما بين سنتى ٨٧١ – ٨٨٢ م .

وقد استهل نشاطه باحتلال لؤلؤة Lulum غربى جبال طوروس ، ثم احتل الممرات الرئيسية لجبال طوروس ، وعمل على تصفية البيالصة المتحالفين مع المسلمين ، فحاربهم بين سبطية على الهليس غربًا وملطية على الفرات شرقًا ، ودمّر تفريك مركزهم الرئيسى سنة ٨٧٢ ، وذبح قائدهم خريسو خيروس وعرض رأسه فى موكب النصر فى القسطنطينية . وفى العام التالى ٨٧٣ احتل سميساط Samosata على الفرات ، وزبطرة ، وعزل ملطية Melitene عن الدولة العباسية باحتلاله المناطق المحيطة بها . ولم تكد تأتى سنة ٨٧٧ حتى كانت سلطته تمتد على مساحة شاسعة تشمل لؤلؤة وجميع ما يقع بين قيصرية فى الشمال الغربى لها إلى مرعش فى الجنوب الشرقى ، وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتيها وممراتها .

وسره أن الخليفة المعتمد اعترف سنة ٨٨٥ بدولة أرمينية مستقلة تحت حكم أشود Aschod ، فسارع إلى الاعتراف بدوره بالملك الجديد ، مقدمًا له تاجًا ، ومؤكدًا أن أرمينية سوف تظلّ أخلص حلفاء الإمبراطورية البيزنطية ، ولكنه فى نفس الوقت أبقى على اتصالاته بأمراء الأبساك والكرج حتى لا يستفحل أمر الملك الجديد .

وفى الوقت نفسه أخذ يسعى لتقوية موقف الدولة البيزنطية فى شرق البحر المتوسط ، الذى كان فى تلك الأثناء قد سقط تحت السيادة العربية بعد أن استقر العرب فى صقلية وفى بارى وتارنتو ، وأخذوا يغيرون على سواحل الأدرياتيك الشرقية وسواحل إيطاليا الجنوبية . فقد أدرك عجز أمراء سالرنو وكابوه وبنفتو عن الصمود فى وجه العرب ، وكذا عجز الإمبراطور الغربى لويس الثانى ، فهبّ لمساعدة إخوته فى المسيحية ، وأنفذ سنة ٨٦٨ م مائة سفينة حربية إلى الأدرياتيك استطاعت فك حصار راجوسة . وتعاون مع البنادقة ، وعادت مدن دلماشيا إلى حوزته ، واعترفت

دويلات العرب والكروات بسيادة القسطنطينية . وساعد لويس الثانى على احتلال بارى سنة ٨٧١ ، ثم قام باحتلالها سنة ٨٧٦ بعد وفاة لويس ، وفى سنة ٨٨٠ دخل تارنتو عنوةً ، ودخلت كابوه وسالرنو ونابولى وبنفتو فى حماية الدولة البيزنطية ، واعترف كثير من أمراء لومبارديا بسلطة هذه الدولة ، وأصبح باسليوس الأول صاحب النفوذ الأعلى فى جميع أنحاء إيطاليا الجنوبية .

٢٢ – الصراع بين الطولونيين والبيزنطيين

- إنتقال عبء النضال ضد أوروبا من الخلافة العباسية إلى الدول العربية المستقلة .
- تأسيس الدولة الطولونية ٨٦٨ .
- النشاط البحرى للدولة الطولونية .
- توحيد مصر والشام .
- الدولة الطولونية بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية.
- قيام الدولة الأخشيدية .

٢٢ - الصراع بين الطولونيين والبيزنطيين

على هذا النحو كانت الدولة البيزنطية تستعيد شبابها من جديد بعد قرنين ونصف من الهزائم والتراجع المستمر أمام الدولة الإسلامية ، بينما كانت الدولة العباسية تتراجع سلطتها حتى تقلصت فى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ - ٨٦٠ - ٨٨٣ م) إلى حدود الجزيرة والعراق .

على أن الدول العربية التى استقلت عن الدولة العباسية فى مصر والشام والموصل ، تصدّت لمواجهة هذا الخطر البيزنطى ، وحملت عن الخلافة العباسية أعباء النضال ضدّ البيزنطيين ، وقد تمكنت بالفعل من إيقاف هذا المدّ لمدّة تقرب من ثمانين عاماً .

فقد استطاع أحمد بن طولون فى مصر ، الذى تولى عام ٢٥٤ هـ/٨٦٨م ، تجديد قوة مصر ، التى ضعفت مع ضعف الخلافة العباسية إلى درجة أن تمكن الأسطول البيزنطى فى عام ٨٥٣ م (٢٣٨ هـ) من احتلال دمياط وتنيس ، فى عهد عنبسة بن إسحق ، بأسطول بلغ ثلاثمائة سفينة . واقتحام أشتوم التى تقع على مقربة من تنيس . وتخريب هذه المناطق والعودة إلى بلاده .

لقد ساعدت هذه الغارة على اتجاه أحمد بن طولون إلى تقوية وتدعيم القوة البحرية المصرية ، فجدّد بناء دور الصناعة البحرية ، ودبّ النشاط فى القواعد البحرية المصرية بدمياط والإسكندرية وغيرهما ، فصارت حافلةً بالوحدات البحرية ، حتى ليروى المؤرخون أنه عندما مات ترك لابنه خمارويه أسطولاً بلغت جميع سفنه الصغيرة والكبيرة والتجارية نحو ألف قطعة . وزاد من عدد الجيش حتى بلغ من ضخامته أن بنى له ثكنات جديدة ، وهى مدينة القطائع شمالى الفسطاط .

ثم اتّبع التقليد الذى تأسس منذ عهد معاوية بن أبى سفيان ، وهو توحيد مصر والشام . فانتهز وفاة حاكم الشام عام ٨٧٧ ، واحتل هذا الإقليم ، فصارت مصر والشام مرة أخرى وحدةً فى ميدان النشاط البحرى فى البحر المتوسط . وقد عمل أحمد بن طولون على تجديد حصون وأسوار عكّا ويافا وغيرهما من موانى الشام . واتخذ من هذه القواعد البحرية مركزًا للهجوم على جزر بحر إيجة ، وإعادة الأسطول البيزنطى إلى وضع الدفاع . وقد نجح فى ذلك إلى الحدّ الذى دعا الخليفة

العباسى إلى أن يسند إليه ولاية منطقة العواصم والثغور ، التى تضم المنافذ والممرّات التى تصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى ، لمنع هجمات البيزنطيين على شمال العراق . ولذلك نقل ابن طولون وحدات من أسطوله إلى طرسوس فى أقصى الشمال ، وجعلها قاعدةً حربيةً بحريّة تشدّ أزْر القوات البرية التى تهاجم معاقل البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

وقد أضطرت الدولة البيزنطية إلى مهادنة ابن طولون ، فأرسل إليه الإمبراطور البيزنطى فى عام ٨٧٨ م/٢٦٥ هـ وفدًا للصلح يحمل بعض الهدايا ويعيد بعض الأسرى العرب ، وعلى رأسهم عبد الله بن رشيد بن كاوس الذى كان حاكمًا على أحد الثغور (معاقل الحدود) . ولكن الحرب عادت من جديد ، فقام أمير طرسوس بشن غارة بحرية على جنوب آسيا الصغرى فى سنة ٨٨١ وتوغّل فى بحر إيجة حتى اقترب من الدردنيل .

وقد حاولت الخلافة العباسية فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون القضاء على الدولة الطولونية ، وأرسل الخليفة الموفّق جيشًا استولى على دمشق وانحدر جنوبًا إلى الحدود المصرية ، ولكن قائد الطولونيين سعد الأيسر تمكن من الانتصار على العباسيين ، وعاد خمارويه إلى الشام واستعاد دمشق ، وواصل فتوحاته إلى الجزيرة والموصل ، وأعاد حدود الدولة إلى ما كانت عليه أيام أبيه ، من حدود العراق شرقًا إلى برقة غربًا ، ومن شمال الشام إلى النوبة جنوبًا . . وتضمّن عقد الصلح بين خمارويه والخليفة ترك مصر والشام له ولأولاده من بعده لمدّة ثلاثين عامًا .

وقد شغلت هذه الحروب الدولة الطولونية عن البيزنطيين ، ولكن فى عام ٩٠٤ م . توجهت حملة بحرية من أساطيل مصر والشام وكريت لمهاجمة قاعدة الروم الحصينة فى سالونيكا ، وكانت أسوار هذه القاعدة البحرية الحصينة عالية ومزوّدةً بالمجانيق القويّة والنار الإغريقية ، ولكن السفن المصرية تمكنت من الاقتراب من هذه الأسوار ، وهيّأت الفرصة لبحارتها لتسلّقها وفتح الأبواب للسفن الأخرى . ووقعت حامية سالونيكا فى يد الأساطيل العربية .

على أن ظروف الانقسام داخل الدولة العباسية عادت تعطل النشاط ضدّ البيزنطيين . فقد انتشرت حركة القرامطة فى بلاد الشام الخاضعة للدولة الطولونية ، وحاصرت دمشق نفسها فى عام ٢٨٩ هـ . وضيقت الخناق على والى الشام من قبل الطولونيين ، وهو ابن طغج الإخشيد ، ولم ينقذه إلاّ جيش بقيادة بدر الكبير أرسله إليه هارون بن خمارويه . وفشلت الجيوش الطولونية فى القضاء على القرامطة فتنبهت الخلافة العباسية إلى ضعف الطولونيين ، وعملت على استرداد مصر من أيديهم قبل أن تقع فى يد القرامطة ، فأرسل الخليفة العباسى المكتفى جيشًا إلى مصر بقيادة

محمد بن سليمان المعروف بالكاتب ، اخترق الشام ومصر ، ودخل مدينة القطائع ودمرها تدميرًا تامًّا فيما عدا الجامع ، وأعاد مصر والشام إلى حكم العباسيين بعد أربعين عامًا من الحكم الذاتى ، واستمرت مصر ولاية عباسية تابعة للخلافة مباشرة من ٢٩٣ - ٣٢٣ هـ .

على أن استعادة الخلافة العباسية لسلطتها لم يستمر بعد حكم المكتفى ، وتقهقرت هذه السلطة مرة أخرى منذ عهد المقتدر فى ٢٩٥ هـ ، وحتى عام ٣٣٤ هـ . وبذلك لم تضف عودة مصر إلى السلطة المباشرة للخلافة العباسية أية قوّة لهذه الدولة . فعجزت عن الاستفادة من الظروف التى عانتها الدولة البيزنطية فى تلك الأثناء فى البلقان أثناء حروبها مع البلغار الذين دقّوا أبواب القسطنطينية سنة ٩٢٤ م بعد الاستيلاء على كلّ تراقيه وكلّ مقدونية ، وحاولوا الاستعانة بالمسلمين لحصار العاصمة من البحر ، ولكن المسلمين لم يلبّوا هذا الطلب .

وفى الفترة بين عام ٣٢٣ هـ/٩٣٥م وعام ٣٥٨هـ/٩٦٩ م ، عادت مصر إلى الاستقلال مرةً أخرى تحت حكم الإخشيديين ، كما قامت فى شمال الشام دولة الحمدانيين . وكان محمد بن طغج الإخشيد قد ولى مصر من قبل الخليفة العباسى فى سنة ٣٢٣ هـ ، وأخذ فى تأمين حدوده الشمالية بالاستيلاء على الشام ، وفقًا للسياسة التقليدية التى تقوم على وحدة مصر والشام . ولكن الخليفة سارع بتعيين محمد بن رائق وزيره وأمير الأمراء على جنوب الشام ، ثم استولى الحمدانيون أصحاب الموصل والجزيرة على شمال الشام . وأخذ الصراع يدور بين الإخشيديين فى مصر وبين ابن رائق فى جنوب الشام وسيف الدولة الحمدانى فى شماله ، وقد خرج بن رائق من هذا الصراع مقتولاً على يد الحمدانيين سنة ٣٣٠ هـ ، وتمكن الإخشيد من الاستيلاء على حلب واسترداد دمشق بواقعة قنسرين ، ولكنه تنازل عن حلب وشمال الشام لسيف الدولة الحمدانى لتمكينه من حماية ممتلكاته الشامية من غارات البيزنطيين ، بينما يتفرّغ هو لمواجهة الخطر الفاطمى القادم من الغرب . وهكذا وقع عبء النضال ضدّ البيزنطيين على عاتق قائد عربى عظيم هو سيف الدولة الحمدانى .

٢٣ – الصراع على الشام بين الحمدانيين والأباطرة المقدونيين

- بين مملكة الإسلام ومملكة الكفر.
- تأسيس الدولة الحمدانية.
- تصدى الحمدانيين للخطر البيزنطى.
- سقوط كريت ٩٦١ م.
- سقوط حلب ٩٦٢ م.
- سقوط كيليكيا وقبرص ٩٦٥ م.
- عودة البيزنطيين إلى الشام.

٢٣ - الصراع على الشام بين الحمدانيين والأباطرة المقدونيين

يجب علينا أن نوضح للقارئ حقيقة على جانب عظيم من الأهمية فى فهم الصراع بين العرب وأوروبا فى تلك المرحلة الجديدة بعد انقسام الدولة الإسلامية . وهى أن هذا الانقسام لم يؤدّ إلى ضيق فى معنى الإسلام أو فى الوطن الإسلامى ، فقد أصبحت هذه الدول جميعها ، فى المشرق الإسلامى ومغربه ، تؤلف وحدةً واحدةً – برغم أنها لاتخضع لسلطة مركزية واحدة – سميت دار الإسلام ، فى مواجهة دار الكفر . أو دار السلام فى مواجهة دار الحرب . ومعنى ذلك أنه قامت وحدة إسلامية لاتتقيّد بالحدود السياسية .

وفى الواقع أن الخلافة الاسلامية على الرغم من انهيار سلطاتها السياسية فى المشرق إلاّ أنها رمزًا يعترف له جميع حكام الممالك الإسلامية بالسيادة ، ويقدمون لها الدعاء على منابر المساجد ، ويشترون منها ألقابهم ، ويرسلون لها الهدايا فى كل عام . فعندما تمّ لعضد الدولة بن بويه فتح كرمان سنة ٣٥٧هـ ، وصله من الخلافة ببغداد عهد الخليفة وخلعه وتوليته على كرمان كلها .

بل إن معنى الخلافة لم يفقد ، برغم انهيار سلطتها ، ما كان له من القوة والسلطان ، حتى لقد تحرج بنو أمية فى الأندلس ، فلم يتخذوا لأنفسهم لقب الخلفاء أو التسمية بأمير المؤمنين زمنًا طويلاً ، واكتفوا بتسمية أنفسهم « بنى الخلائف » ولم يجرؤ على التسمى بلقب خليفة غير الفاطميين الذين خرجوا على هذه القاعدة لأسباب عقائدية تتصل باعتقادهم بأنهم الخلفاء الحقيقيون لرسول الله ، فأتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م كما سنبين فيما بعد. ومع ذلك فقد انتظر الأمويون فى الأندلس عشرين عامًا أخرى قبل أن يلقب عبدالرحمن الناصر نفسه بلقب خليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م ، عندما تبين ضعف الخلافة بالمشرق ، وأفتى العلماء بشرعية وجود إمامين فى وقت واحد ، إذا كانت بينهما مسافة كبيرة ، لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين .

على أن دار الإسلام احتفظت بوحدتها ، وكان المسلم يستطيع أن يسافر داخل حدود هذه الدار الشاسعة ، التى كانت تمتدّ من الهند إلى المحيط الأطلنطى ، فى ظلّ دينه وتحت كنفه . وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذى يعبده ، ويصلون كما يصلّى ، كما يجد شريعة واحدةً وعرفًا

وعادات واحدةً .. وكان يوجد فى هذه الديار قانون غير مكتوب ، يضمن للمسلم حقّ المواطنة ، بحيث يكون آمنًا على حريته الشخصية فلا تمس ، وبحيث لا يمكن لأحد أن يحوله إلى رقيق على أية صورة من الصور . ويقول آدم متز : إن ناصر خسرو قد طوّف فى هذه البلاد كلّها فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) دون أن يلقى فيها من المضايقات ما كان يلقاه الألمانى الذى كان يسافر فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، بعد ذلك بسبعة قرون .

وهذا أحد الأسباب التى تفسّر استمرار الصراع بين العرب وأوروبا بعد انحلال الدولة العباسية . لأن الدولة المستقلة التى قامت على أنقاضها كانت تنتمى لعالم يختلف عن العالم الذى تنتمى إليه أوروبا . كانت تنتمى إلى مملكة الإسلام ، بينما كانت أوروبا ، فى عين العرب ، تنتمى إلى مملكة الكفر . فقد حملت دول المغرب عبء النضال ضدّ أوروبا ، وفى الوقت الذى كان المدّ الإسلامى فى المشرق ينحسر عن الأراضى البيزنطية فى آسيا الصغرى ، كان هذا المدّ فى المغرب العربى ينتشر ويبسط ظلّه على البحر المتوسط وجنوب أوروبا ، بينما حملت الدول المستقلة التى قامت فى المشرق العبء عن الدولة العباسية ، فتولّت هذا الدور مصر تحت حكم الطولونيين ثم تحت حكم الإخشيديين ، وسوف تتولاه فى عهد الفاطميين كما سنوضح فيما بعد ، ولكن مايهمنا هو أنه عندما استولى الإخشيد على حلب ، واسترد دمشق من يد الحمدانيين ، عاد فتنازل عن حلب وشمال الشام لسيف الدولة الحمدانى ، لتمكينه من حماية ممتلكاته الشامية من زحف البيزنطيين ، وبذلك انتقل عبء النضال ضدّ البيزنطيين إلى عاتق سيف الدولة وإلى عاتق الدولة الحمدانية .

وكانت الدولة الحمدانية قد ظهرت كرد فعل عربى ضد النفوذ التركى الذى استفحل فى العصر العباسى الثانى ، وكمظهر ليقظة عربية كبيرة فى قبائل العرب . وقد حمل لواء هذه اليقظة بنو تغلب ، الذين ينتمى إليهم الحمدانيون . وكان قسم كبير من بنى تغلب قد اضطر إلى الهجرة إلى البحرين تحت ضغط ظروف الحالة المادية السيئة ، بينما بقى قسم منهم فى الجزيرة وفى شمال العراق ، وهذا القسم الأخير هو الذى قاد لواء اليقظة الفكرية والسياسية فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ، تحت رئاسة بنى حمدان الذين استقر الأمر لهم فى الموصل منذ عام ٢٩٢هـ ، وتقلد ناصر الدولة بن حمدان إمرة الأمراء فى عام ٣١٧هـ بينما وجد أخوه سيف الدولة أن مقامه بالموصل والجزيرة غير مُجد له ، فاتجه إلى حلب ، واستولى عليها من الإخشيديين عام

٣٣٣هـ . ثم تنازل له الإخشيد عنها وعن شمال الشام كما ذكرنا ، لتمكينه من التصدى للبيزنطيين ، وبذلك وقع عبء الصراع على عاتق سيف الدولة .

فى ذلك الحين كانت الدولة البيزنطية قد انتهزت فرصة الحرب بين الإخشيديين والحمدانيين ، فأغارت فى سنة ٣٣١هـ سنة ٩٤٢م . على دارا ونصيبين وميافارقين ، وقاربت حلب ، وقتل جنودها وسبوا كثيرًا من المسلمين ، ثم دخلوا فى السنة التالية (٣٣٢هـ/٩٤٣م) رأس العين ، المدينة الكبيرة المعروفة فى بلاد الجزيرة بين حران ونصيبين ، فى ثمانين ألفًا ، فقتلوا وسبوا خلقًا عظيمًا من المسلمين ثم أحرقوها ، وفى عام ٩٤٤م توج البيزنطيون انتصاراتهم بنقل « منديل السيد » (وهو منديل زعم أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه) من كنيسة الرها إلى القسطنطينية فى موكب كبير .

وعندما استقر سيف الدولة الحمدانى فى حلب وأصبحت عاصمة ملكه ، تحول القتال الرئيسى بين العرب والبيزنطيين من جبهة أرمينية إلى خط جديد يمتد من كيليكيا حتى ديار بكر . وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة غير محددة على الفرات فوق سميساط ، وتمر بين حصن منصور وزبطرة وفوق الحدث ومرعش ، متتبعة سلسلة جبال طوروس ، حتى أبواب كيليكيا والليموس . وتبدأ من النقطة نفسها على الفرات شمالاً إلى شرقى سميساط فأرمينية .

وتوضح المصادر التاريخية أن الحرب دارت سجالا بين سيف الدولة الحمدانى والبيزنطيين ، تبادلا فيها النصر والهزيمة . ففى ربيع عام ٣٣٧هـ/٩٤٨م . خرج البيزنطيون من ملاطية وسميساط ، واتجهوا إلى الجزيرة ليستولوا على ممر الحدث – مرعش ، ولكن سيف الدولة صمد فى وجههم فى معركة جلباط ، التى ورد اسمها فى إحدى قصائد أبى فراس الحمدانى . على أنه فى ربيع العام التالى ٩٤٩م ، حاصر البيزنطيون « الحدث » ودخلوها عنوة ودكوا حصونها ، ثم استولوا على مرعش ، ودقوا أبواب طرسوس ، وفى ربيع العام التالى سنة ٩٥٠ انقضوا على شمالى سوريا حتى مدخل أنطاكية .

على أن سيف الدولة سارع للأخذ بالثأر فى خريف ذلك العام ٣٤٩ هـ / ٩٥٠ م . فقد جمع ثلاثين ألفًا ، واصطحب معه ثلاثة من الشعراء : المتنبى ، وأبا فراس الحمدانى ، وأبا زهير المهلهل ، وخرج إلى مرعش واخترق طريق ملاطية – قيصرية ، فاحتل صارخة وقتل وسبى وأحرق ، وعندما أراد العودة إلى حلب لقدوم فصل الشتاء علم أن البيزنطيين ينتظرونه فى منطقة خرشنة ، فأوقف السير ، وعاد بصفوة رجاله فعبر الهاليس وأنزل بالبيزنطيين هزيمة كبيرة ، ثم عاد

إلى الجنوب مرةً أخرى ولكنه لم يستطع أن يتفادى كميناً منصوباً ألحق به الهزيمة ، واضطر إلى قتل الأسرى والهرب إلى حلب ، وقد عرفت هذه الغزوة بغزوة « المصيبة » .

على أن سيف الدولة عاد فى العام التالى للأخذ بالثأر ، وتتابعت غزواته للأراضى البيزنطية حتى يقال إنه غزا البيزنطيين أربعين غزوة . وقد تبادل فيها الفريقان الهزيمة والنصر ، وأدرك هو والبيزنطيون أن أحد الطرفين لن يستطيع التغلب على الآخر بشكل حاسم ، فأخذا يحصنان الحدود بينهما ويوزعان الجنود فى هذه الحدود ، ويقطعان الأراضى لهم ، ولكن الحرب كانت تحدث كل سنة بين الفريقين .

وقد تمكن البيزنطيون تحت قيادة الدمستيق (تزيميسكيس Tzimisces) من تكوين جيش كبير من الروس والبلغار والخزر أغاروا به على الشام وغزوا به نواحى أنطاكية ، ولكن سيف الدولة تصدّى لهم فى مرعش ، وألحق بهم الهزيمة وأسر قسطنطين بن الدمستيق وأحضره مكبلا إلى حلب ، فمات بها ، وقد خلّد أبو فراس هذه الواقعة فى شعره .

على أن هذه الحرب المتواصلة لم تلبث أن أنهكت قوة سيف الدولة ، الذى تحمل وحده هذا العبء . وتهيأ البيزنطيون لحرب كبيرة فى الشام والانتقام لموت قسطنطين . وفى عام ٣٤٨هـ/٩٥٩م شنوا هجومهم حتى بلغوا طرسوس ، وخربوا حصن « الهارونية » الذى بناه هارون الرشيد على مقربة من مرعش . وتوجهوا إلى ديار بكر ، ووصلوا إلى ميافارقين ، وعاثوا فى بلاد العباسيين والحمدانيين .

وفى عام ٣٥٠هـ/٩٦٠م وجد البيزنطيون الظروف ملائمة لغزو كريت ، فأعدّ القائد نيقفور فوكاس Nicephorus Phocas أسطولا كبيراً من ألفى سفينة حربية وثلاثمائة ناقلة هاجم بها كريت وحاصر مدينة الخندق ، وقد سارع حاكمها عبدالعزيز القرطبى إلى الاستنجاد بالمسلمين شرقاً وغرباً ، ولكن القليل الذى جاءه من طرسوس ومن أفريقية حطمه البيزنطيون قبل وصوله . واقتحم نيقفور فوكاس « الخندق » يوم ٧ مارس ٩٦١ م ، ثم استولى على الجزيرة بأسرها ، فعادت السيادة على شرقى البحر المتوسط للبيزنطيين .

وقد أراد سيف الدولة الانتقام لضياع الجزيرة فأعد حملة من ثلاثين ألفاً اخترق بها الحدود البيزنطية إلى خرشنة ، ولكن ليو فوكاس أخا نقفور . كمن له فى أحد ممرات جبال طوروس ، يسميه العرب مغارة الكحل ، فسدّ عليه طريق العودة ، وألحق به الهزيمة يوم ٨ نوفمبر ٩٦٠م . ولم يلبث نيقفور فوكاس أن استغل هذه الهزيمة ليفتح كيليكيا ، أكبر المعاقل البحرية العربية

بعد كريت وأقرب الطرق إلى سوريا . فأعدّ حملة من مائتى ألف خرج بها فى عام ٣٥٢هـ/٩٦٢م ، واستولى فى ٢٢ يومًا على خمسين بلدًا وحصنًا . وعاد إلى كبادوكيا ، ليعود فى خريف نفس العام ، فيعيد الكرة ، ويفتح عين زربا مفتاح سوريا .

وقد حاول سيف الدولة إيقاف زحفه فى ممرات الأومانوس ، ولكنه أخفق ، فتدفقت جيوش نقفور إلى سهول سوريا حتى منبج على الفرات ثم حاصر حلب سنة ٣٥٠ هـ لمدة أحد عشر يومًا (٢٠–٣١ ديسمبر ٩٦٢م)، وتمكن من اقتحام أسوارها واحتلالها ، وقتل عشرة آلاف من سكانها وخرب قصر سيف الدولة المسمى بالدارين بخارج حلب ، ولكنه لم يقو على القلعة واضطر إلى الانسحاب أمام مقاومة السوريين ونجدات الإخشيديين ، فعاد إلى القسطنطينية بغنائم هائلة ، بعد أن أحرق حلب . ويقال إنه فى عودته لم يتعرض لأهل القرى وقال لهم : ازرعوا فهذا بلدنا ، وعن قريب نعود إليكم ! .

وكان لسقوط حلب أثر بالغ فى نفوس المسلمين عامة وفى نفوس أهل بغداد خاصة ، حتى إنهم اجتمعوا وذهبوا للخليفة وويخوه ، وطلبوا منه أن يخرج بنفسه للغزو ويأخذ بالثأر .

وقد أصبح نقفور فوكاس إمبراطورًا بعد موت رومانوس . رابع أباطرة الدولة البيزنطية من الأسرة المقدونية ، إذ تزوجته أرملته . وانتهز سيف الدولة فرصة الاضطرابات فى القسطنطينية ، فعاد إلى حلب ، واستعاد عين زربا ومصيصة وغيرهما فى كيليكيا . وقد حاول يوحنا تزيميسكيس قائد قوات البيزنطيين فى الشرق الاستيلاء على مصيصة ولكنه فشل ، ولكن فى ربيع ٩٦٤ تولى نقفور قيادة الجيوش بنفسه ، فأنشأ قاعدة للتموين فى قيصرية كبادوكيا ، وزحف على كيليكيا ، فاقتحم عين زربا وأدنة ، واستولى على طرسوس عند مدخل سوريا ، وعاد فى ربيع العام التالى ٩٦٥ لحصار مصيصة ، وأنفذ أخاه ليوفوكاس لحصار طرسوس ، وقد تمكن من دخول مصيصة عنوة ، وعاد إلى طرسوس فسقطت ، وبذلك عادت كيليكيا بأسرها مرة أخرى إلى البيزنطيين ، بعد ثلاثة قرون فى يد العرب ، كانت فيها قاعدةً برّيةً وبحرية تنقضّ منها الجيوش والأساطيل العربية على الإمبراطورية . وفى شتاء نفس العام أكمل نقفور فوكاس انتصاره بتجهيز حملة بحرية كبيرة توجهت إلى قبرص ، فاستولت عليها ، واحتلت الجزيرة .

على هذا النحو فقدت الدولة الحمدانية مبرر بقائها ، بعد أن فشلت فى حماية الدولة العربية . ولذلك ثارت حلب وأنطاكية فى وجه سيف الدولة ، ولم يخضعها إلاّ بصعوبة ، ولكن هذه النكبات أثرت عليه حتى أصيب بالفالج وتوفى عام ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م .

على أنه فى تلك الأثناء كان نقفور فوكاس يستكمل انتصاراته فى العراق والشام مستغلا ضعف الدولة الاسلامية . فقد انتهز الفرصة ، وأغار فى شتاء عام ٩٦٦ م على الجزيرة (شمال العراق) ودخل دارا ونصيبين ووصل إلى الحدود التى كانت تفصل بين الدولة البيزنطية ودولة الفرس فى أوائل القرن السابع . ثم انقض على أنطاكية فى حملة إرهابية ، وعاد فى سنة ٩٦٨ بعد وفاة سيف الدولة ، ليحاصر حلب ، واتجه إلى حمص فدخلها ، وانحدر منها إلى عرقة فطرسوس فجبلة ، وأبقى فى هذه المدن حاميات بيزنطية ثم حاصر أنطاكية وأقام ابن أخيه بطرس فوكاس قائدًا عامًّا لقوات الحصار ، وعاد إلى القسطنطينية ليدخلها بموكب نصر عظيم فى أوائل سنة ٩٦٩ م . وكان قد أوصى ابن أخيه بعدم دخول أنطاكية قبل عودته ، ولكن نصارى أنطاكية طلبوا دخول البيزنطيين ، مؤكدين وقوع الفوضى فى صفوف المسلمين ، فاقتحمها الجيش البيزنطى ، وسقطت أنطاكية يوم ٢٨ أكتوبر ٩٦٩ ، بعد أن بقيت إسلامية عربية أكثر من ثلاثمائة سنة . وتقدم الجيش البيزنطى نحو حلب فسقطت المدينة فى يده فى ديسمبر ٩٦٩ ، بفضل خيانة قائدها فرغويه ، الذى أراد أن يكون صاحب الأمر فيها من دون سعد الدولة ابن سيف الدولة وطلب مساعدة البيزنطيين . ومع أن سعد الدولة تمكن بعد ذلك من دخول حلب ، إلاّ أنه صالح البيزنطيين على نفس شروط الإذلال التى وقعها الخائن فرغويه ، فصار على أهل حلب أن يدفعوا دينارًا عن كل ذكر كل عام ، وأن يمتنعوا عن جباية الجزية من المسيحيين ، مع إشراف لجنة مختلطة من البيزنطيين وأهل حلب على جباية الجمارك .

على أنه فى نفس الشهر الذى سقطت فيه حلب ،كان نيقفور فوكاس يسقط قتيلا فى القسطنطينية إذ ذبحه ابن أخته يوحنا تزيمسكيس Jean Tzimisces بمؤامرة مع زوجته التى كان قد تزوجها نقفور بعد موت زوجها رومانوس الثانى ، وتولى يوحنا تزيمسكيس العرش ، وكان يدعى بالأرمنية شمشقيق ، ومن هنا اسمه فى المراجع العربية .

وكانت خطة تزيميسكيس تستهدف إزالة الخلافة العباسية واحتلال فلسطين والاستيلاء على القدس ، فنحن هنا أمام إرهاصات الحروب الصليبية . ففى سنة ٩٧٤ م خرج على رأس قواته قاصدًا بغداد . فسلك الطريق الذى سبق أن سلكه هرقل (٦١٠-٦٤١م) واخترق وادى الفرات الأعلى ، ودخل أرمينية التى حالف ملكها أشوت . ثم اتجه جنوبًا ، واستولى على آمد ، وأحرق ميافارقين ، ودخل نصيبين ، وأدخل أمير الموصل الحمدانى فى طاعته ثم عاد إلى القسطنطينية بسبب تعسر تموين جيشه ، ومعه غنائم كبيرة .

وفى ربيع العام التالى ٩٧٥م . عاد يوحنا تزيمسكيس إلى الشام ، فانطلق من أنطاكية إلى بيت المقدس ، فاضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية وقبول حامية بيزنطية فى المدينة ، ثم سلمت طبرية وقيسارية ، ووصل إلى الناصرة ، وتسلق جبل الطور ، وهناك دخلت القدس والرملة وعكًا فى طاعته ، وأرسل إليها قوادًا عسكريين يقيمون فيها ، ثم اتجه إلى الساحل ، فاحتل صيدا وبيروت وجبيل ولكنه لقى الهزيمة فى طرابلس ، وعادت جيوشه إلى أنطاكية ، وعاد الإمبراطور نفسه إلى القسطنطينية .

ويقول المؤرخون : إن رعب الناس مما أذيع عن تزيميسكيس قد تفاقم ، حتى أن الخليفة العباسى المطيع لم يتمالك أن أعلن أن أسلحته وموارد دولته قد انتزعت من يده ، ولم يعد قادرًا على الدفاع عن بغداد ، وقد ذكر مسكويه فى كتابه تجارب الأمم ، أن المطيع ردّ على بختيار عندما طلب منه المال لمحاربة البيزنطيين قائلا : « إنما يلزمنى الغزو إذا كانت الدنيا فى يدى وإلى تدبير الأموال والرجال ، وأمّا الآن وليس لى منها إلاّ القوت القاصر عن كفانى ، وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف ، فما يلزمنى غزو ولا حجّ ولاشىء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم ، تسكّنون به رعاياكم . فإن أحببتم أن أعتزل ، اعتزلت عن هذا المقدار أيضًا ، وتركتكم والأمر كله » .

٢٤ – الفاطميون وأوروبا

- الدول الاسلامية فى المغرب العربى عند ظهور الدعوة الفاطمية .
- إصطدام الدولة الفاطمية بالأندلس الأموى .
- صمود صقلية الفاطمية فى وجه البيزنطيين ٩٦٤ م .
- الاتجاه الشرقى عند الفاطميين .
- الوجود الفاطمى فى مصر والشام .
- الصدام بين الفاطميين والبيزنطيين .

٢٤ – الفاطميون وأوروبا

على هذا النحو كان العرب يضيعون بتفرق كلمتهم ماجمعوه بتوحدهم تحت راية إسلامية واحدة ، وبدا فى ذلك الحين أن الشام قد عاد إلى القبضة البيزنطية ، لولا أن الأقدار كانت تهيئ ظهور قوة عربية جديدة تزحف من المغرب ، لتنقذ المشرق العربى من الخطر البيزنطى ، وهى قوة الدولة الفاطمية .

وكان قد سبق لنا عرض الدور المجيد الذى لعبه المغرب العربى فى الصراع مع أوروبا ، حين تسلم الراية الإسلامية من المشرق ، وزحف بها على البحر المتوسط ليحوله إلى بحيرة عربية ، ويقفز من جزره إلى إيطاليا وسويسرا وفرنسا ويسيطر على ممرات جبال الألب ، وذلك فى الوقت الذى كان المشرق يعانى الانقسام وتبعثر القوى والجهود . وقد كانت أهمية الدولة الفاطمية هى أنها الدولة التى وحدت المغرب والمشرق مرةً ثانيةً تحت راية واحدة ، ونقلت العاصمة من الأطراف إلى الوسط ، فلم تعد فى أقصى المغرب أو أقصى المشرق ، وإنما أصبحت مصر هى قلب هذه الدولة الإسلامية الكبرى .

وقد ظهرت الدولة الفاطمية أوّل ماظهرت فى القيروان كنتيجة للدعوة النشطة التى قام بها أبو عبدالله الشيعى بين قبائل كتامة وهى من قبائل البربر الكبرى ، التى كانت تسكن بين جبال أوراس والبحر المتوسط بنواحى قسنطينة شرق الجزائر ، التى تعرف حاليًا ببلاد القبائل .

وكان المغرب عندما ظهر عبد الله الشيعى ينقسم بين أربع دول :

أولاها : هى دولة الأغالبة ، فى المغرب الأدنى (تونس) وعاصمتهم الرسمية القيروان ، أما عاصمتهم الخاصة التى يقيمون فيها فهى مدينة رقادة جنوب القيروان بأربعة أميال ، وكان الأغالبة – كما رأينا فيما سبق – يمتلكون قوة بحريةً جبارةً تمكنوا بها من غزو صقلية ومالطة والسواحل الإيطالية الجنوبية .

أما الدولة الثانية : فهى الدولة الرستمية (١٤٤–٢٩٦هـ) ، وهى دولة خارجية قامت فى المغرب الأوسط (الجزائر) وعاصمتها مدينة تاهرت فى مقاطعة وهران الحالية غربى الجزائر . وكانت هذه الدولة على علاقة طيبة بالأمويين فى الأندلس .

أما الدولة الثالثة : فهى الدولة المدرارية ، أو دولة بنى واسول (١٤٠-٣٤٩هـ) وهى دولة خارجية أيضًا عاصمتها مدينة سجلماسة فى جنوب المغرب الأقصى ، فى منطقة تافيلالت الحالية .

أما الدولة الرابعة : فهى دولة الأدارسة (١٧٢-٣٦٣هـ) ، وهى دولة علويّة حسنية نسبة إلى الحسن بن على ، وقد تأسست فى المغرب الأقصى ، وعاصمتها فاس .

ويلاحظ أن ثلاث دول من هذه الدول الأربع كانت شيعية أو خارجية ، أى على غير المذهب السنّى ، مذهب الخلافة العباسية . ومن ثم كانت مهمة أبى عبدالله الشيعى فى الدعوة فى هذه الجهات مهمة سهلة ، إذ استغرقت ثلاث سنوات فقط (٢٨٨-٢٩١هـ) ولكنها أثارت اعتراضات بعضْ قبائل البربر ، فدارت حروب بينهم وبين كتامة انتهت بانتصار الأخيرة ، فكان فى هذا الانتصار انتصار للدعوة الفاطمية .

كانت الدعوة الفاطمية فى ذلك الحين تنتسب إلى إحدى فرق الشيعة التى تسمى الإمامية الإسماعيلية ، وهى تحصر الخلافة فى آل على ، فتسوقها بعد الحسين إلى ابنه على زين العابدين ، ثم إلى أبنائه وأحفاده من بعده : محمد الباقر ، وجعفر الصادق وإسماعيل ، وأبناء إسماعيل حتى عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب .

وقد بدأ أبو عبدالله الشيعى جهاده العسكرى بالنزول من جبال الأوراس إلى سهول الأغالبة فى تونس ، ومهاجمة حدودهم الغربية . وقد حاول آخر أمراء الأغالبة ، وهو زيادة الله الثالث مقاومة هذا الهجوم فأرسل ثلاثة جيوش متوالية ولكنها هزمت جميعها ، ودخل أبو عبدالله الشيعى مدينة رقادة ، ثم القيروان سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩م وأنهى بذلك حكم الأغالبة .

فى تلك الأثناء كان أبو عبد الله الشيعى قد أرسل إلى الإمام عبيد الله الفاطمى فى إحدى أعمال مدينة حمص بالشام ، بدعوة إلى الحضور إلى المغرب . فاخترق الشام ومصر ثم صحراء ليبيا وواصل السير إلى تونس ، ولكنها كانت لاتزال تحت حكم الأغالبة ، فتوجه إلى مدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار . ولكن أبا عبد الله الشيعى كان قد استولى فى تلك الأثناء على القيروان فأسرع بجيشه إلى سجلماسة لتخليص سيده ، وفى طريقه مرّ بالدولة الرستمية فى الجزائر ، فأسقطها واستولى على عاصمتها تاهرت ٢٩٦ ، ثم واصل سيره إلى مدينة سجلماسة فاقتحمها وأسقط الدولة المدرارية وأخرج الإمام عبيد الله المهدى من السجن وقال للناس وهو يبكى متأثرًا : « هذا هو إمامكم » .

وقد اتجه المهدى بعد ذلك إلى مدينة رقادة عاصمة الأغالبة ، فاتخذها عاصمة لملكه سنة

٢٩٧هـ ، واتخذ لنفسه لقب الخلافة ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين . وكان أوّل عمل قام به بعد ذلك هو قتل أبي عبد الله الشيعى نفسه ، الذى مهّد له إنشاء هذه الدولة . حين رآه يحاول الاستمرار فى إدارة شئون الدولة ، ثم بنى عاصمة جديدة لدولته على شاطئ البحر بالقرب من تونس ، لكى يعتمد على الأسطول فى حمايتها وتموينها .

على هذا النحو انقسم العالم الإسلامى بين ثلاث دول كبرى : أولاها : الخلافة العباسية فى الشرق ، والدولة الأموية فى الأندلس ، والخلافة الفاطمية فى المغرب . ومنذ اللحظة الأولى فكر الفاطميون فى غزو الأندلس غربًا ، وغزو مصر شرقًا . ولما كانت الأندلس ومصر هما الدولتان اللتان تتصديان لأوروبا فى ذلك الحين ، الأولى بحكم وجودها على أرض أوروبية بالفعل ، هى شبه الجزيرة الأيبيرية ، والثانية ، بحكم سيطرتها على الشام – فقد كان من شأن هذا التفكير والمحاولات التى بذلت لتنفيذه ، أن تؤثر على تطورات الصراع بين العرب وأوربا لمدة قرنين ونصف من الزمان .

وتشير الحقائق التاريخية إلى أن تأثير الفاطميين فى هذا الصراع بدأ سلبيًّا وانتهى إيجابيًّا . فمن المحقق أن ظهور هذه الدولة ، المختلفة مذهبيًّا عن الدولة الأموية فى الأندلس ، فى شمال أفريقيا ، كان من شأنه قيام صراع بين الدولتين الإسلاميتين ، لايستفيد منه سوى الأعداء . فقد رأى الفاطميون أن احتلالهم للأندلس سوف يجعل المغرب الإسلامى كله خاضعًا لهم ، مما يعزز قوتهم فى وجه الخلافة العباسية ، ولذلك بدءوا منذ أيام خليفتهم الأوّل عبيد الله المهدى فى إرسال الدعاة إلى الأندلس لاجتذاب الأنصار ، وقد أفلح بعض هؤلاء فى استغلال الظروف السياسية القائمة فيه وضم بعض الثائرين ، مثل الثائر الأندلسى عمر بن حفصون ، الذى ثار بجنوب أسبانيا ضد الحكم الأموى أواخر القرن الثالث الهجرى ، واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله الفاطمى .

على أن الدولة الأموية فى الأندلس لم تقف موقفًا سلبيًّا من أطماع الفاطميين ، بل هبت لحماية نفسها ، خصوصًا وقد واكب ظهور الدولة الفاطمية تولّى عبدالرحمن الناصر الحكم سنة ٣٠٠هـ وتوحيده الأندلس ، وإنهائه عصر دول الطوائف الأولى . فقد أعلن عبدالرحمن نفسه خليفة سنة ٣١٦هـ ، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين . كما اهتم بتقوية الأسطول الأندلسى فى مضيق جبل طارق وفرض حراسة مشددة ، وقام بتحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب ، خصوصًا فى « طريف » Tarifa والجزيرة الخضراء Algeciras ، وقد بنى فى الأخيرة ترسانة بحريةً نظرًا لقربها من برّ العدوة ، ومحاذاتها لمدينة سبتة . وكان أقوى ما اتخذه من إجراءات هو

احتلال بعض ثغور الساحل المغربى المواجهة للأندلس ، مثل مدينة مليلة سنة ٣١٤هـ/٩٢٧م ، ومدينتى سبتة وطنجة سنة ٣١٩ . واستطاع بذلك أن يسيطر على الملاحة فى مضيق جبل طارق ، وأن يتدخل فى سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضدّ السيطرة الفاطمية ، ويصطنع رؤساء بعض الدويلات والإمارات ، مثل دولة الأدارسة التى كان نفوذها بعد الغزو الفاطمى قد انحسر إلى المناطق الجبلية الشمالية .

بل لقد كانت أكبر السلبيات التى نشأت عن الصراع بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية بالأندلس ، أن عمدت الدولة الأموية بالأندلس إلى التحالف مع الدولة البيزنطية والدول الأوروبية المعادية للفاطميين . فقد تحالف الناصر مع ملك إيطاليا هوج دى بروفانس ، الذى كان يريد الانتقام من الفاطميين لتخريبهم ميناء جنوة . وتحالف مع قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية ، الذى كان يرغب فى استعادة جزيرة صقلية من الفاطميين . ويرى الدكتور أحمد مختار العبادى أن هذه التحالفات اتخذت شكل ترك الحرية للبيزنطيين فى قتال أعداء الدولة الأموية بالأندلس دون الارتباط معهم بعمل حربى مشترك .

على أن هذه التحالفات ، على كل حال ، ليست جديدة فى علاقات العرب مع أوروبا ! فقد سبق لنا أن تحدثنا فى الصفحات السابقة عن تحالف كلٍّ من الدولة العباسية فى الشرق والدولة الأموية فى الأندلس مع الدولة الأوربية التى تجاور غريمها ، فتحالفت الدولة العباسية فى عهد المهدى بن المنصور (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) مع شارلمان ، ضدّ عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، وفى المقابل تحالفت الدولة الأموية فى الأندلس مع الدولة البيزنطية ضدّ الدولة العباسية .

وكما أن النزاع بين الدولة الأموية فى الأندلس والدولة العباسية فى بغداد وصل إلى حدّ النزاع المسلح وإثارة الفتن والثورات داخل كل دولة ، كذلك وصل بين الدولة الأموية فى الأندلس والدولة الفاطمية فى المغرب إلى حد النزاع المسلح أيضا ، ففى سنة ٣٤٤هـ اعترض مركب أندلسى مركبًا فاطميًّا فيه رسول من صقلية إلى الخليفة المعز الفاطمى ، واستولى على الكتب المرسلة إليه ، فعمر المعزّ أسطولا سيره إلى الأندلس . واقتحم ميناء المرية ، وأحرق جميع مابه من سفن ، وقد ردّ الناصر على هذا الاعتداء بمهاجمة أسطوله بعض المدن الساحلية الفاطمية ، مثل سوسة ، وطبرقة ، ومرسى الخرز(حاليا Lacalle) . وكان الأخير قاعدة بحرية فاطمية ، فأضرم النار فى

بعض نواحيها . وسوف نرى أن هذه الاشتباكات كانت من الأسباب التى دفعت الفاطميين منذ مراحلهم الأولى إلى الاتجاه إلى المشرق وفتح مصر وما وراءها شمالا وجنوبا وشرقًا .

على كل حال فإن الظروف التى نشأت فيها الدولة الفاطمية كان من شأنها أن تجعل منها دولة بحريةً على جانب عظيم من القوة ، إذ ترعرعت فى بيئة بحرية خالصة شاهدت منذ أقدم العصور أقوى الأساطيل وأمهر القادة البحريين ، وقد ورث عبيدالله المهدى ، أوّل الخلفاء الفاطميين ، تركة بحريةً هائلة ممثلة فى أساطيل دولة الأغالبة ، التى أسس دولته على أنقاضها ، والتى كانت موجودة فى تونس وصقلية وقوصرة ، وقد أثبت التاريخ أنه كان أمينًا على هذه التركة . فقد استهل عهده ببناء قاعدة بحرية هامة فى تونس على بعد ستين ميلا جنوب القيروان ، أطلق عليها اسمه ، وعرفت بالمهدية ، كما عزز سلطانه فى صقلية ، التى رأى فيها قاعدة هامّةً لتدعيم سيطرته على البحر المتوسط.وكانت صقلية من ممتلكات دولة الأغالبة كما عرفنا ، فصار يحكمها ولاة باسم الخلافة الفاطمية ، سواء فى المهدية أو فى القاهرة فيما بعد ، وأصبح الفاطميون مسئولين عن حماية هذه الجزيرة وتوسعة الممتلكات الإسلامية منها .

وقد لعبت صقلية فى عصر الفاطميين دورًا نضاليًّا هامًّا فى الصراع مع الدولة البيزنطية فى أشد فترات ازدهار هذه الدولة عسكريًّا على أيدى الأسرة المقدونية (٨٦٧–١٠٥٧) ، وأشدّ فترات تمزق الدولة العباسية . وكان العرب قد أتموا فى سنة ٩٠٨م استيلاءهم على صقلية بأكملها ، وأعلن أمير القيروان أنه : « سوف يخرب مدينة الشيخ الهرم بطرس نفسها » .

وعندما ولى الخليفة المنصور الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى على صقلية سنة ٣٣٦هـ ، كان الصراع فى المشرق يدور على نحو متكافئ بين الدولة الحمدانية والدولة البيزنطية ، التى كانت فى ذلك الحين قد انتقلت من الدفاع إلى الهجوم ، ثم أخذت الدولة البيزنطية تتأهب لانتزاع السيطرة على البحر المتوسط وجنوب أوروبا من يد العرب ، فاستولت على كريت بأسطول ضخم تحت قيادة القائد نيقفور فوكاس ، وسقطت الخندق يوم ٧ مارس ٩٦١م . كما سيطرت على جميع أنحاء إيطاليا الجنوبية قبل ذلك ، وبذلك باتت صقلية هى الهدف التالى .

ويذكر المؤرخون أن الإمبراطور نيقفور فوكاس أعد أسطولا هائلاً تحت قيادة مانويل ، حشد فوقه خمسين ألف جندى لفتح صقلية ، ولكن خبر هذا الأسطول وصل إلى علم والى صقلية الحسن بن على بن أبى حسين الكلبى ، فأرسل إلى تونس يطلب المدد من الخليفة الفاطمى المعز

لدين الله ، فأعد أسطولا كبيرًا على عجل لتعزيز أسطول صقلية حيث وصلها سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م قبل وصول أسطول البيزنطيين .

وقد استطاع الأسطول البيزنطى الاستيلاء على مسينا وطبرمين ، ثم دارت اشتباكات هائلة ، تمكن فيها الأسطول العربى من قطع خطوط تموين البيزنطيين ، مما اضطرهم إلى التراجع وإخلاء مسينا ، وأخذ والى صقلية يطاردهم ، واشتبك معهم فى واقعة بحرية تعرف باسم معركة « المجاز » سقط فيها ألوف البيزنطيين قتلى ، بعد حرق مراكبهم ، وحُزّت منهم رءوس عشرة آلاف ، وأسر عدد كبير من كبار قادتهم وأرسلوا إلى سجن المهدية ، ويضيف المؤرخون أن الحسن بن على الكلبى ، اعتل لفرط فرحه بما أنعم الله عليه من نصر ، فتوفى بعد سبعة أيام .

على هذا النحو نجت صقلية من مصير كريت إلى حين ، ولم يكن ذلك بفضل تلك المعركة وحدها فى الحقيقة ، وإنما لأن الفاطميين فى ذلك الحين كانت تتزايد قوتهم باتجاههم شرقًا والاستيلاء على مصر وماوراءها .

ويختلف المؤرخون فى تفسير اتجاه الفاطميين إلى الشرق ، فيعزوه البعض إلى الرغبة فى التوسع ، بينما يعزوه البعض الآخر إلى إدراكهم أن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر ، بسبب قوة الدولة الأموية فى الأندلس وتقلبات البربر ووثباتهم . وإن كان من الثابت أن هذا الاتجاه كان منذ الأيام الأولى لدولتهم . فقد أرسلوا حملة سنة ٣٠١هـ ، أى بعد تأسيس دولتهم ٢٩٧هـ بأربع سنوات ، لفتح مصر ، وهى حملة برية وبحرية معًا ، أى أن الأسطول كان يسير بجوار الجيش ، وقد استولت هذه الحملة على برقة ثم على الاسكندرية ، وتوغلت فى الوجه البحرى . ولما كانت مصر وقتذاك تحت التبعية المباشرة للخلافة العباسية التى أسقطت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ/٨٦٨م . فلذلك أنفذ الخليفة المقتدر العباسى مؤنس الخادم لدفع المغيرين . ونجح فى صدّهم . على أن الخليفة الفاطمى أبا عبيد الله المهدى أنفذ حملة أخرى بعد ست سنوات أى فى سنة ٣٠٧هـ ، فاستولت على الاسكندرية دون عناء ، وسارت إلى الجيزة ، وتوغلت فى الوجه القبلى واستولت على الاشمونين والفيوم . ولكن مؤنس الخادم تصدى لهم مرة أخرى ، وانتصر عليهم واستولى على سفنهم وأحرقها ، وبذلك لحقت الهزيمة بالجيوش الفاطمية للمرة الثانية . على أن ذلك لم يثن عزم أبى عبيد الله المهدى ، فأرسل حملة ثالثة سنة ٣٢١هـ ، لقيت الهزيمة أيضًا على يد القائد العباسى محمد بن طغج الإخشيد ، أوّل أمراء الدولة الإخشيدية فى مصر . ثم توفى عبيد الله المهدى فتابع

ابنه أبو القاسم . الذى تسمى بالقائم ، إرسال حملة أخرى وصلت الإسكندرية فى أوائل عام ٣٢٤هـ ، ولكنها لقيت الهزيمة أيضًا على يد الإخشيد . وقد انشغلت الدولة الفاطمية طوال عهد المنصور بن القائم بضبط الأمور فى المغرب ، فى الوقت الذى تأسست فيه الدولة الإخشيدية فى مصر . وقد تركت هذه الدولة للحمدانيين مسئولية الدفاع عن الحدود الإسلامية ضدّ البيزنطيين فى شمالى الشام ، بينما احتفظت بجنوبه فى عهدى الإخشيد وكافور . أى من ٣٢٣هـ/٩٣٥م– ٣٥٧هـ/٩٦٨م . ولكن بعد وفاة كافور كانت جبهة الشام بأكملها ، شمالها وجنوبها ، قد ضعفت ، ففى الشمال أنهك الصراع الدائم مع الدولة البيزنطية قوة سيف الدولة الحمدانى . وتمكن البيزنطيون من دخول حلب ٩٦٢م ، وسقطت فى أيديهم كيليكيا بعد ثلاث سنوات ، وانقضوا على أنطاكية سنة ٩٦٦ ، وتفككت قوة الدولة الحمدانية بعد موت سيف الدولة ، ففقدت هذه الدولة مبرر بقائها . وفى جنوب الشام ضعفت قوة الإخشيديين بعد موت كافور ، وتغلبت بذلك قوة القرامطة سنة ٣٥٧ . فخلا هذا الميدان من قوة كبرى تقف فى وجه البيزنطيين فى أحرج فترات التاريخ .

على أن الدولة الفاطمية قدمت فى ذلك الحين إلى المشرق لشغل هذا الفراغ . ففى عام ٣٥٧ هـ جهز الخليفة الفاطمى المعز بن المنصور (٣٤١هـ/٩٥٢م– ٣٦٥هـ/٩٧٥م) حملة تحت قيادة جوهر الصقلى خرجت من القيروان يوم ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ ، واحتلت برقة ، ودخلت الإسكندرية دون مقاومة ، ثم الفسطاط ، وأزالت الدولة الإخشيدية ، وبدأ حكم الفاطميين لمصر ٩٦٨ م . وفرح المعزّ لهذا الفتح فرحًا شديدًا تجلى فى قصيدة شاعره ابن هانئ الأندلسى :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد سارع جوهر الصقلى فى العام التالى مباشرة إلى إرسال جيش بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى لفتح الشام : لأن الشام كان مكملاً لمصر ، وكليهما منطقة أمان للآخر ، كما تربطهما مصالح تجارية وحربية مشتركة بحكم وقوعهما على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، كما أن الشام مدخل للعراق مقر الخلافة العباسية التى تعتبر فى نظر الفاطميين خلافة مغتصبة للحكم غير شرعية . وقد تمكن هذا الجيش الفاطمى من الاستيلاء على دمشق سنة ٣٥٩ هـ/٩٧٠م ، ولكنه هزم أمام القرامطة ، الذين استغلوا هذا الانتصار فى الإغارة على مصر ذاتها ، مما دعا جوهر إلى استدعاء المعزّ للقدوم إلى مصر ، فقدم إليها فى رمضان سنة ٣٦٢هـ ./٩٧٣م . وأصبحت مصر بذلك دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلافة الفاطمية فى المغرب ، وصارت القاهرة عاصمة

للدولة الفاطمية لمدة مائتى عام أخرى . فكأن الخلافة الفاطمية لم تعش فى المغرب أكثر من ٦٥ سنة ، بينما عاشت فى مصر أكثر من مائتى سنة .

فى ذلك الحين كانت تحول بين الفاطميين والبيزنطيين قوة القرامطة فى جنوب الشام ، وقوة الحمدانيين فى شماله . وقد أثبت التاريخ أن هاتين القوتين كانتا ، فى تلك المرحلة التاريخية قوتين معوّقتين للنضال ضدّ الخطر البيزنطى .

فحين استولى جعفر بن فلاح على دمشق كان البيزنطيون على يد الإمبراطور نيقفور فوكاس قد احتلّوا مدينة أنطاكية مفتاح الشام سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م ، وتقدموا نحو حلب ، فسقطت فى أيديهم بفضل خيانة قائدها فرغويه الذى طلب مساعدتهم فى ديسمبر ٩٦٦م . وقد أرسل جعفر بن فلاح حملة لإجلاء البيزنطيين عن أنطاكية ، ولكنه شغل بخطر القرامطة تحت قيادة الحسن بن أحمد ، وقتل فى الاشتباك الذى وقع معهم . بل هدد القرامطة مصر ذاتها ، لولا دهاء المعزّ وحنكته ، فتفرّق جيش القرامطة ، واضطر الحسن بن أحمد إلى التقهقر إلى دمشق ، ثم رحل مع بعض جنوده إلى الأحساء ، ليعود مرّةً أخرى لمساعدة القائد افتكين التركى الذى استولى على دمشق ودعا فيها للخليفة العباسى سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م . مما اضطر الخليفة العزيز إلى الخروج بنفسه على رأس جيش عرمرم من مصر ، جعل جوهر الصقلى على مقدمته . ودارت رحى معركة كبيرة بين الفريقين بالرملة فى شهر محرم ٣٦٧هـ/٩٧٧م منى فيها القرامطة وقوات افتكين بالهزيمة ، وبذلك زال نفوذ القرامطة من هذه البلاد واضطروا إلى الجلاء عنها ، مما سهل للفاطميين الاستقرار بالشام .

ولم يلبث الفاطميون أن اتجهوا لإزالة الدولة الحمدانية الضعيفة العاجزة أمام الخطر البيزنطى ، ففى ذلك الحين كان الإمبراطور يوحنا تزيمسكيس (شمشيق فى المراجع العربية) قد انطلق فى عام ٩٧٥م . من أنطاكية إلى حمص ، ومنها إلى بعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية ، كما سلمت طبرية وقيسارية ، واستولى على بيروت وصيدا ، ولكنه لقى الهزيمة فى طرابلس بفضل مساعدة الأسطول الفاطمى لحماية المدينة واضطر إلى العودة إلى أنطاكية .

لذلك اتجه الخليفة العزيز الفاطمى إلى إزالة الدولة الحمدانية التى تحول بينه وبين البيزنطيين ، فأرسل حملة عسكرية استولت على بعض مدنها ، مثل حمص وحماة ، وحاصر عاصمتها حلب سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م واستمر الحصار مدة ثلاثة عشر شهرًا . ولكن الدولة الحمدانية سقطت سقطتها الكبرى حين أرسل أميرها أبوالفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى يستنجد

بالإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى قائلا : « متى سقطت حلب سقطت أنطاكية ، ومتى سقطت أنطاكية ، سقطت القسطنطينية » .

وقد أدرك باسيل الثانى صحة هذا القول . كما أدرك أن إزالة الدولة الحمدانية معناه إزالة دويلة صغيرة من جواره وإحلال دولة كبرى مكانها . فأرسل جيشًا بيزنطيًّا من أنطاكية لتعزيز الأمير الحمدانى ، وقد التقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاصى ، فدارت الدائرة على البيزنطيين ، مما اضطر الإمبراطور باسيل الثانى إلى ترك حروبه مع البلغار والتوجه بنفسه إلى الشام تقديرًا لأهمية هذا الميدان .

وقد استولى باسيل الثانى على حصن شيزر شمال حماة ، وفتح حمص ، وأخذ يتابع سيره حتى طرابلس ، فى الوقت الذى كانت مؤونة الجيش الفاطمى وأقواته أمام حصار حلب قد نفذت وانسحب إلى دمشق دون أن تأتى موافقة الخليفة العزيز ، وقد تعرض قائد الجيش الفاطمى أبو الحسن على بن الحسين المغربى للعزل نتيجة لهذا الانسحاب ، وقرر الخليفة العزيز تجهيز حملة برّية ، وأمر وزيره عيسى بن نسطوروس بإنشاء أسطول يسير إلى طرابلس . ولكن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس بالقاهرة لأسباب غامضة ، واتهم تجار الروم وعملاؤهم من مدينة أمالفى بتدبير الحادث ، حيث كانوا يقيمون على مقربة من الترسانة البحرية ، وهوجموا وقتل عدد منهم . وأمر الخليفة العزيز بإنشاء أسطول آخر ، أبحر إلى أنطرسوس (من أعمال لبنان) ، وخرج الخليفة بنفسه على رأس الحملة البرّية إلى الشام حاملاً توابيت آبائه ، ولكنه مات عند بانياس بالقرب من اللاذقية سنة ٣٨٦هـ .

ولم يتوقف الصراع فى عهد الحاكم بأمر الله ، وتمكن الفاطميون من إحراز انتصارين على البيزنطيين فى الشام : الأول فى البحر ، حيث انتصرت الأساطيل المصرية على الأساطيل البيزنطية فى مياه صور سنة ٣٨٨هـ ، والانتصار الثانى فى البر عند مدينة أفاميه Aphamea . وهى مدينة حصينة من كور حمص . حيث انتصر القائد الفاطمى حسين بن الصمصامة الكتانى على جيوش البيزنطيين ، وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية .

وعندما علم الإمبراطور البيزنطى بما حل بجيشه من الهزيمة ، أرسل فى طلب الصلح من الخليفة الفاطمى ، وجرى الاتفاق على عقد هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات ، وتوفير الحرية الدينية للمسيحيين الذين يقيمون فى أنحاء الدولة الفاطمية ، وتعهد الإمبراطور البيزنطى بإمداد مصر

بالحبوب والغلال من بيزنطة ، وقد أبرم هذا الاتفاق حسب المصادر الإسلامية سنة ٣٨٨هـ سنة ٩٩٨م .

على أن سياسة الحاكم بأمر الله الدينية أعادت الصراع مرة أخرى مع الدولة البيزنطية . ذلك أن سياسة التسامح التى اتبعها أسلافه ، والتى بلغت حدّ إيثار المسيحيين واليهود بالسلطة ومناصب الدولة ، قد أحدثت أثرًا عكسيًّا لدى المسلمين ، استجاب له الحاكم الذى أمر بهدم بعض الكنائس فى القاهرة ، واستجاب لإشارة وزيره منصور بن عبدون النصرانى بهدم كنيسة القيامة بالقدس سنة ٣٩٨ هـ سنة ١٠٠٨م . وقد كان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير فى إذكاء الدعوة الصليبية التى أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس فيما بعد .

فقد ترتب على هذه السياسة عودة الصراع . وقام البيزنطيون فى المقابل بهدم جامع القسطنطينية ، وكان هذا الجامع قد بنى فى عهد مسلمة بن عبدالملك عام ٩٦هـ/٧١٤م . فى خلافة الوليد بن عبدالملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب ينص على بناء مسجد فى القسطنطينية يصلّى فيه المسلمون من التجار وأرباب الحرف وغيرهم المقيمين أو المارّين بالعاصمة البيزنطية . وقد استغل البيزنطيون هذا الجامع فى مساوماتهم السياسية مع الدول الاسلامية المجاورة فصاروا يجيزون فيه الخطبة للعباسيين تارة وللفاطميين تارةً أخرى ، ويهدمونه أحيانًا ، ويعيدون بناءه حسب أحوال الرعايا المسيحيين ومؤسساتهم الدينية فى البلاد الإسلامية .

وقد رأت ست الملك ، الوصية على الظاهر بن الحاكم بعد وفاته ، تجديد الهدنة ، وانتهى الأمر فى عام ٤١٨هـ/١٠٢٨م بعقد معاهدة مع قسطنطين الثامن تقضى بالسماح للإمبراطور البيزنطى بإعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، مقابل إعادة بناء جامع القسطنطينية وإطلاق سراح الأسرى المسلمين الذين فى قبضة البيزنطيين ، مع العمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية . وتعهد الفاطميون بعدم مدّ يد المساعدة لأى عدوٍّ من أعداء الدولة البيزنطية .

وفى ذلك الحين كانت الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر الله قد استطاعت القضاء على الدولة الحمدانية ، والاستيلاء على مدينة حلب سنة ٤٠٤ هـ ، فأصبحت فى مركز يناوئ البيزنطيين فى أنطاكية . ولكن هذا الوضع السياسى لحلب لم يستمر طويلا فى عهد الخليفة الظاهر ، الذى أهمل الشئون الخارجية للدولة . مما ترتب عليه خروج كثير من الأمراء عليه فى

الشام ، واستطاع صالح ابن مرداس أن يحلّ محل الحمدانيين فى شمال الشام ويؤسس الدولة المرداسية فى حلب سنة ٤١٤ هـ .

على أن الدولة الفاطمية ظلت مع ذلك أكبر قوة إسلامية تقف فى مواجهة البيزنطيين فى ذلك الوقت ، وعلى نحو متكافئ . فكانت الهدنة تسود بينها وبينهم بعض الوقت ، ثم يعود الصراع والحرب ، فتتبادل الدولتان الهزيمة والنصر . فنى سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م . طلب الخليفة المستنصر من الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع إمداد مصر بالغلال لمواجهة المجاعة التى حلت بها . ولكن الإمبراطورة تيودورا ، التى خلفته بعد وفاته ، اشترطت على المستنصر أن يحالفها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد ، فرفض ، وأرسل العساكر بدلاً من ذلك لقتالها ونزلت جيوشه قريبًا من أفاميه ، وجالت فى أعمال أنطاكية فسبت ونهبت ، ودارت عدة معارك مع البيزنطيين انتهت بهزيمة القائد الفاطمى . وأبرمت الهدنة بين الدولتين مرة أخرى فى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٧م .

٢٥ – ظهور قوة المدن الإيطالية والنورمانديين فى البحر المتوسط

- الانقسامات الدينية بعد موت الحاكم بأمر الله .
- الغزوة الهلالية للمغرب وانهيار السلطة فيه .
- ظهور قوة المدن الايطالية .
- إستيلاء النورمانديين على جنوبى ايطاليا .
- الفتح النورماندى لصقلية .
- غزو النورمانديين للمهدية ١٠٨٧ م .

٢٥ - ظهور قوة المدن الإيطالية والنورمانديين فى البحر المتوسط

استطاعت الدولة الفاطمية بوصولها إلى الشام أن توقف المدّ البيزنطى ، الذى انطلق مع ضعف الخلافة العباسية ووصول الأسرة المقدونية فى بيزنطة إلى العرش (٨٦٧ - ١٠٥٧ م) ، وتجديدها شباب الدولة البيزنطية لقرن من الزمان. فقد كانت الدولة الفاطمية إمبراطوريةً ضخمةً امتدّ سلطانها على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال أفريقيا . وكان اسم الخليفة الفاطمى يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطى غربًا إلى البحر الأحمر شرقًا ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل . وقد امتدّ حكم الدولة الفاطمية فى العالم الإسلامى نحوًا من مائتين وسبعين عامًا ، منذ أول تأسيسها فى المغرب إلى تاريخ انقراضها . ومن هذه السنين نحو مائة وخمسة عشر عامًا تعتبر عصر العزّة والمتعة للدولة الفاطمية ، ونحو سبعين عامًا أخرى كانت الدولة الفاطمية على ضعف سياسى ، ولكن مع حضارة بلغت ذروتها . ثم خمسة وثمانون عامًا من التدهور حتى آلت إلى الانقراض .

وكانت بوادر الضعف قد ظهرت مع مقتل الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٤١١ هـ/١٠٢١ م ، مع ظهور الفرق والانقسامات الدينية والسياسية . فنى عهد الحاكم روجت بعض العناصر الفارسية ، وعلى رأسها الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى ، لفكرة ألوهيته (ألوهية الحاكم) ، واضطر الدرزى إلى الرحيل من مصر إلى بعض قرى بانياس تحت ضغط المصريين السنّيين والشيعيّين المعتدلين ؛ للدعوة لفكرته . وعندما قتل الحاكم ، رفض الدرزى وطائفته الاعتراف بمقتله ، وزعموا أنه رفع للسماء ، فتكونت الفرقة الدينية الدرزية .

وبعد موت المستنصر سنة ٤٨٧ انقسم الفاطميون على أنفسهم بين ولديه : نزار والمستعلى ، فتمسّك حسن الصباح بإمامة نزار ، وكوّن دعوةً فى فارس سنة ٤٨٨ هـ مركزها قلعة الموت بجوار بحر قزوين ، وقد عرفت باسم الإسماعيلية النزارية ، ومنهم فئة الحشاشين . وقد استمرت هذه الدولة حتى سقطت على يد هولاكو سنة ٦٥٤ هـ ، ولكن الدعوة انتقلت إلى الهند وعرف أتباعها باسم الأغاخانية (أتباع أغاخان) . أما الفرقة الثانية من الفاطميين فتمسكت بإمامة المستعلى ، وسميت بالمستعلية .

فى ذلك الحين كان الدور الفاطمى فى الصراع مع أوروبا يختفى فى المغرب وفى المشرق على السواء مع ظهور قوى أخرى . ففى المغرب بدأ النفوذ الفاطمى يضمحل على يد آل زيرى . وكان الخليفة المعز قد عين المعز بلكين بن زيرى الصنهاجى واليًا على أفريقية (تونس) عند خروجه إلى مصر ، وألحق طرابلس وسرت وبرقة بحكم مصر وولّى عليها عبد الله الكتامى . ولكن فى عهد العزيز بن المعز ، طلب منه بلكين أن يضم إلى إمارته المقاطعات الثلاث ، فاستجاب . وبذلك أصبحت ولاية أفريقية تضم طرابلس وبرقة . واستمر ذلك حتّى عام ٤٣٥ حين اجتاحت «أفريقية» ثورة ضدّ المذهب الشيعى ، وبدأ السكان يعودون إلى المذهب المالكى . وفى سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٥٠ م . قام المعز بن باديس (٤٠٨ – ٤٥٣ هـ) بإبطال الخطبة للفاطميين ، وإقامتها للخليفة العباسى . وقد انتقم الخليفة المستنصر لذلك انتقامًا ذريعًا ، فقد أرسل إليه القبائل العربية التى تعيش غير مستقرة فى مصر من بنى هلال وبنى سليم.، وقلّدهم أمر المغرب وملك المعز بن باديس . فاجتاز النيل إلى برقة سنة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٤ م . عدد عظيم من هذه القبائل، اجتاحت الولاية اجتياح النار للهشيم ، بعد أن كتب وزير المستنصر اليازورى إلى المعز رسالةً يقول فيها : «أما بعد ، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً ، وحملنا عليها رجالاً كهولاً ، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً» ! .

وقد ألحقت هذه الغزوة الهلالية الهزيمة بالمعز عدّة مرّات ، وأكثر من ذلك أحدثت انقلاباً كبيراً فى شمال أفريقيا من حيث الاقتصاد والسياسة والسلالات ، وشلّت نشاط المغرب كله ، وأشاعت فيه الفوضى ، وقوضت سلطان الحكومة المركزية . ومع أن بعض أفراد آل زيرى عادوا بعد هذا الحادث إلى الاعتراف بخلفاء القاهرة ، إلاّ أن سلطان الفاطميين كان قد أصبح ضئيلاً . فقد سقطت القيروان فى يد الهلاليين وخربوها ، وانتقل المعز إلى المهدية تاركًا عاصمة المغرب العربى تحت سلطة الهلاليين الذين أخلوا المدينة من سكانها الأصليين . وحاول المعزّ بعد ذلك وابنه تميم استرجاع القيروان دون نتيجة . واستنزف الصراع قوى الفريقين ، فلم ينتبها إلى الخطر القادم من الشمال على يد الإيطاليين والنورمانديين .

وكان الصراع الدائر فى إيطاليا فى تلك الأثناء بين المسلمين والبيزنطيين والإيطاليين قد انتهى لصالح قوتين برزتا فى ذلك الحين ، هما قوة المدن الإيطالية التى تمثلت وقتذاك فى مدينتى بيزا وجنوه ، وقوّة النورمانديين . وسيكون لهما دور عظيم فى تاريخ الصراع العربى الأوروبى .

فقد رأينا فى الصفحات السابقة كيف أخذ الأباطرة المقدونيون فى القسطنطينية يعزّزون موقف

الدولة البيزنطية فى شرق البحر المتوسط الذى كان تحت السيادة العربية ، حيث استقر العرب فى بارى وتارنتو وراجوزة من ثغور الأدرياتيك الشرقية ، وأخذوا يغيرون على سواحل إيطاليا الجنوبية . فقد أدرك باسيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) ، عجز أمراء سالرنو وكابوه وبنفنتوم عن الصمود فى وجه العرب ، وعجز الإمبراطور الغربى لويس الثانى عن نجدتهم ، فأنفذ مائة سفينة حربية إلى الأدرياتيك ، وفكّ حصار راجوزة ، وتعاون مع البنادقة على السيطرة على الأدرياتيك ، وعادت مدن دلماشيا إلى حوزته .

وقد استمر هذا فى عهد خلفائه ، حتى إذا ما كان عهد باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م) كانت الدولة البيزنطية قد بسطت سيطرتها على إيطاليا ، وأخذت تستعد لإخراج العرب من صقلية . وكانت البندقية تعترف بسيادة البيزنطيين ، وقد وعدت بوضع أسطولها تحت تصرف الإمبراطور لنقل جيوشه وعتاده إلى إيطاليا ، كما تودّد الإمبراطور إلى المدن الإيطالية البحرية ، وأهمها بيزا Pisa

على أن شخصية هذه المدن الإيطالية كانت قد برزت فى ذلك الحين . وكانت بيزا قد تعرضت للهجمات الإسلامية فى سنوات ٩٣٥ ، ١٠٠٤ ، ١٠١١م . فتحالفت مع جنوه Genoa لصدّ الغارات الإسلامية أولاً ، ومحاولة الاستيلاء على الجزر التى تأتى منها هذه الغارات ثانيًا ، وهى جزر سردينيا وكورسيكا والبليار . وقد لعبت البابوية دوراً هامًّا فى التشجيع على ذلك ، حين أعلن البابا سنة ١٠٠٤ أن جزيرة كورسيكا هى ملك لأية قوة مسيحية تستطيع أن تنتزعها من المسلمين . وقد وقعت هذه الجزيرة بالفعل فى يد الحلف البيزوى - الجنوى سنة ١٠١٥ .

على أن سلطة البيزنطيين فى إيطاليا تهدّدت بثورة «بارى» على حاكمها البيزنطى سنة ١٠٠٩م ، وامتداد هذه الثورة إلى جميع أنحاء مقاطعة أبولية . وقد استطاع البيزنطيون إخماد الثورة ، ولكن زعيمها فرّ إلى الإمبراطور الغربى هنريكوس الثانى ، حيث استعان سنة ١٠١٦م بالمرتزقة النورمانديين . فدخل بذلك عنصر جديد فى الصراع .

ذلك أن هذه القبائل الوثنية ، التى قدمت من السويد والنرويج ، واعتنقت المسيحية ، وجدت فرصتها التاريخية . ويقال إن البابا كان أوّل من استخدمهم لغايات عسكرية فى إيطاليا ، ثم استخدمتهم القوى المتمردة فى مدينة بارى سنة ١٠١٦ ضدّ البيزنطيين .. وقد أخذت جموع هؤلاء النورمانديين تتقاطر بعد ذلك على إيطاليا لانفتاح سبل العيش أمامها ، ودارت بينها وبين الدولة البيزنطية معارك كثيرة انتصرت فى بعضها وانهزمت فى الأخرى ، ولكن وجود هذه القوة

أصبح أمرًا واقعًا فى هذه البلاد ، وطرفًا هامًّا من أطراف الصراع العربى الأوروبى .

ذلك أن الدولة البيزنطية ذاتها لم تلبث أن أخذت تستعين بهذه القوّة الجديدة !. فنى عام ١٠٣٨ ظهر النورمانديون فى صقلية ، كفرق أجيرة تحت إمرة البيزنطيين . إلاّ أنهم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص فى جنوبى إيطاليا . وفى سنة ١٠٦٠ تمكن الأخوان رتشارد ورويرت جيسكار من إعلان نفسيهما أميرين لأوّل مرة ، الأول على «كبوا» ، والثانى على «كلابريا» . وكان النزاع فى إيطاليا بين البابا نيقولا الثانى والبابا بندكت العاشر فى عام ١٠٥٩ ، قد دفع البابا نيقولا الثانى إلى الاستعانة بالنورمانديين ، وكان الثمن إقرار البابا بشرعية مطالبتهما بكبوا وكلابريا . وقد أرسل الإمبراطور البيزنطى حملة للمحافظة على ممتلكاته فى جنوب إيطاليا ، ولكن الحرب التى دارت بين البيزنطيين والنورمانديين انتهت بسقوط «بارى» فى يد الأخيرين ، وخروج البيزنطيين من جنوبى إيطاليا بعد حكم دام ثلاثة قرون متتالية .

ولم تلبث الأوضاع فى صقلية أن أخذت تمهد لسقوطها فى يد النورمانديين . ففى ذلك الحين كانت صقلية ولاية تابعةً لسلطة الدولة الفاطمية فى مصر ، ولكنها تتمتع باستقلال داخلى تحت أسرة الكلبيين . وقد تداول ولاية صقلية أمراء هذه الأسرة إلى أن اختلف أفراد منهم على الإمارة بعد موت الأمير أبى الفتح يوسف ، وقامت الفتن الداخلية حتى طلب الصقليون من المعز بن باديس سنة ٤٣٧ هـ مساعدتهم على إنهاء هذا الانقسام ، وإلاّ سلموا الجزيرة إلى البيزنطيين !. وقد أرسل المعزّ جيشًا لإقرار النظام ، ولكنه فشل ، وانتهى عهد الكلبيين بإخراج الصمصام ، آخر والٍ من «بالرمو» ، وسيطرة المشايخ على المدينة . وتلا ذلك قيام فترة شبيهة بفترة ملوك الطوائف فى الأندلس ، حيث استأثر بكل جهة أحد الزعماء ، ثم ثار طامع يسمى محمد بن إبراهيم بن الثمنة ، فاستولى على سرقوسة وتلقّب بالقادر بالله !. وقد قامت حروب بينه وبين أحد الأمراء ، هزم فيها ابن الثمنة ، فذهب يستنجد بالنورمانديين سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٤ م !. فارتكب بذلك أكبر خيانة فى حق أمته ودينه !.

كان فتح صقلية فى ذلك الحين يعدّ حلمًا من أحلام النورمانديين ، نظرًا لخوفهم من مجاورة أملاكهم للمسلمين. فاستولوا على مسينا سنة ١٠٦٠ بمساعدة الخائن ابن الثمنة . فلما مات فى السنة التالية عجزوا عن فتح بالرمو . وقد استصرخ سكان الجزيرة المعزّ بن باديس ، فأرسل أسطولاً كبيرًا ، ولكن أكثره غرق فى البحر ، مما أضعف دفاعه ضدّ الهلاليين الذين أرسلهم

المستنصر لاخضاعه ، فاحتلوا القيروان ، وبذلك خرج المعز من الصراع . فلما تولى الحكيم بن ابن المعز سنة ٤٥٣ هـ - ١٠٦١ م ، أرسل أسطولاً إلى الجزيرة بقيادة ولديه على وأيوب ، ولكن انقسام أهل الجزيرة أجبر الأخويْن على العودة إلى أفريقية ، بعد أن حاربا النورمانديين وهزما .

وبعد عودة ابنى تميم ، اضطرب أمر المسلمين فى الجزيرة ولم يبق فيهم من يوحّد قوّتهم ، فى الوقت الذى استعان النورمانديون بأسطول من بيزا ، وأعدوا خمسين سفينة أخرى من بارى ومدن أبوليه ، وتقدموا بها لحصار بالرمو تحت قيادة جسكار Guiscard ، بينما كان روجر يسير من البر بجيش تعداده ثمانية عشر ألفا . ومع ذلك ظلت بالرمو تقاوم الحصار خمسة أشهر حتى نفذت المؤن وانتشر الوباء ، فسقطت « الخالصة » أوّلاً ، ثم سقطت « بالرمو » ودخلها روجر وفرسانه ، وحول مسجدها إلى كنيسة ، وكان ذلك سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧٢ م ! كما سلمت مازر .

وبذلك انتهى الدور الأول من فتح صقلية ، ولم يستول فيه النورمانديون إلاّ على بالرمو ومسينا ومازر وقطانيا . ولكنهم أحاطوا بذلك بمدن المسلمين فى سرقوسه وطرابنش ، وجرجنت وقصريانه .

على أن هذه المدن لم تسقط إلاّ بعد حروب دامت عشرين عامًا . فقد قاومت سرقوسة مقاومة باسلة تحت قيادة ابن عباد الذى نظم المقاومة فى ولاية نوطس برًّا وبحرًا ، وألحق الهزيمة بابن روجر ، ولم يكتف بالدفاع ، بل أغار على كلابربا فى جنوبى إيطاليا ، ونهب ريو ونقطر . ولكنه لقى حتفه فى معركة بحرية سنة ١٠٨٥ . واستسلمت سرقوسة ، فى أواخر عام ١٠٨٦ .

وكان روجر قد استولى فى تلك الأثناء على مدينة طرابنش سنة ١٠٧٧ ، وعلى طبرمين سنة ١٠٧٩ . ثم سقطت جرجنت وقصريانة ، ونوطس ، وتبعتها بثيرة سنة ١٠٩١ ، وبذلك انتهت عمليات الفتح النورماندى لصقلية بعد ثلاثين عامًا من الاستيلاء على مسينا .

فى تلك الأثناء تعرضت المهدية عاصمة آل زيرى فى ولاية أفريقية لهجمات الإيطاليين والنورمانديين . وفى سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٧ م . هاجمها أسطول مؤلف من ثلاثمائة سفينة حربية ، عليها ثلاثون ألف مقاتل . وكانت المدينة مفتوحةً غير محصّنة ، فتغلّبوا عليها ، وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلةً ذريعة ، وحرقوا وخربوا معالمها المشهورة . واضطر حاكمها تميم بن المعزّ بن باديس إلى توقيع اتفاقية تضمنت دفع مائة ألف دينار وما انتهبوه من الأموال وسبوه من النساء والذرارى . كما تضمنت إعفاء البضائع المحملة على سفن بيزا من الجمارك . واعتبرت تلك الحملة كتمرين أوّلى للحملة الصليبية الأولى .

٢٦ - إنتصار المسلمين فى مانزكرت (ملاذكرد) ١٠٧١ م

- نظرية ابن خلدون فى تجدد الأمم .
- تأسيس الدولة السلجوقية ١٠٣٧ م .
- إصطدام السلاجقة بالبيزنطينيين في أرمينية .
- موقعة مانزكرت Manzikert ١٠٧١ م .

٢٦ - انتصار المسلمين فى مانزكرت (ملاذكرد) ١٠٧١ م

على هذا النحو سقطت السيادة العربية عن البحر المتوسط بسقوط صقلية وبقية جزره فى يد الأوروبيين ، وتعرّى المغرب الأوسط من أى حماية بانفصاله عن الإمبراطورية الفاطمية ، بينما كانت الأندلس تحت حكم ملوك الطوائف توشك على السقوط فى يد الممالك المسيحية الشمالية .

على أن دار الإسلام فى ذلك الحين كانت تتأهب لميلاد قوتين إسلاميتين أخريين من أقوى ما شهد الإسلام ، إحداهما فى المشرق ، وهى الدولة السلجوقية ، والأخرى فى المغرب وهى دولة المرابطين . وقد مثلت هاتان الدولتان حركتى بعث إسلامىّ جديد جدّدتا شباب الدولة الإسلامية فى صراعها التاريخى مع أوروبا .

وللمؤرخ ابن خلدون نظرية فى التجدد يعتبرها قانونًا ، وقد صاغها بقوله : «إن الملك إذا ذهب عن بعض شعوب إحدى الأمم ، فلابدّ من عودته إلى شعب آخر منها مادامت لهم العصبية » . ويقول : « إن هذا التجديد يتكرّر بمقدار ما تملك الدولة الكبيرة من شعوب لم تستنفد قوتها بعد . ويحدث هذا التجديد عادة على يد شعوب أطراف الدولة ؛ إذ يستنفد القائمون على الدولة أتباعهم وأنصارهم فى إقامة الملك ، فيهرمون ، ويبقى الذين أبعدوا عن الأمر بمنجاة من الهرم ، فتسمو نفوسهم إلى الملك ، ويجدّدون قوّة الدولة » .

وقد ضرب ابن خلدون المثل بقبيلة كتامة فى المغرب التى نهضت بأمر الدعوة الفاطمية ، وجدّدت القوّة السياسية للمغرب بعد أن هرم أمر الأغالبة . ثم تكرّر ما حدث لكتامة بالنسبة للأغالبة على يد المرابطين بالنسبة لزناته المغرب الأقصى . فكانت دولة المرابطين دولة مجددة لقوى الدولة الإسلامية .

وما حدث فى المغرب بالنسبة للمرابطين ، حدث فى المشرق على يد السلاجقة ، وهم من شعوب الأطراف الشرقية ، فهم من قبائل الغز التركية فى أواسط آسيا ، تلك المناطق التى دأبت على مراحل التاريخ أن تدفع بأبنائها شرقًا وغربًا . فتحدث تغييرات عالمية . وقد تسمى هؤلاء باسم السلاجقة نسبة لسلجوق بن دقاق (القوس الحديدى) ، وقد هاجروا إلى بخارى حيث اعتنقو الإسلام على مبادئ المذهب السنّى فى أواخر القرن العاشر ، أى فى سنة ٩٩٢ هـ/١٠٠٢ م .

ودخلوا تحت إمرة مسعود الغزنوى سلطان إيران وأفغانستان – والهند ، ثم تمردوا عليه ، وأخذوا فى الاستيلاء على ممتلكات الدولة الغزنوية واحدةً وراء أخرى ، حتى تم لهم الاستيلاء على نيسابور عاصمة خراسان فى سنة ١٠٣٧ تحت قيادة طغرل بك حفيد سلجوق . وبذلك تأسست الدولة السلجوقية .

وسرعان ما اجتاحت الجيوش السلجوقية فارس ، وسحقت بها آل بويه ، وأصبح زعيمهم طغرل بك سيّد دولة تمتد من خراسان شرقًا حتى حدود العراق وأرمينية غربًا . وفى سنة ٤٤٨ هـ . ١٠٥٨ م استولى طغرل بك على الموصل ، وسار إلى بغداد ، فاستقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وقدّم الفاتح خضوعه لزعيم الإسلام ، وأعلنه الخليفة ملكًا على ما فى يده من بلاد . وقد ردّ طغرل بك الجميل للخليفة حين ثار عليه أرسلان البساسيرى ، وعزله عن الخلافة ، ودعا للخليفة الفاطمى المستنصر ! – فقد حاربه طغرل بك وهزمه ، وأعاد الخليفة إلى رياسته سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م ، فزوج الخليفة ابنته للفاتح المظفر . وبذلك بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة السلجوقية ، التى اتخذت مدينة « الرىّ » عاصمة لها .

ذلك أن السلاجقة اعتبروا أنفسهم وارثين للخلافة العباسية ، وأخذوا بالتالى يعملون على استعادة ما فقدته هذه الخلافة من البلاد ، سواء أكان على يد البيزنطيين ، أم كان على يد الفاطميين . وكان معنى ذلك الاصطدام بكلتا الإمبراطوريتين .

وبالنسبة للدولة البيزنطية ، فقد رأينا كيف استعادت هذه الدولة قوّتها على يد أباطرة الأسرة المقدونية ، وانتقلت من الدفاع إلى الهجوم ، ومن الفرّ إلى الكرّ أمام الدولة الإسلامية ، وكانت النتيجة أن أخذت تستردّ شيئاً فشيئًا ما فقدته منذ ظهور الإسلام فى آسيا الصغرى وفى أرمينيا . بل عادت إلى الشام ، واستردت أنطاكية ، وفرضت الجزية على كثير من الأمراء المسلمين فى شمالى الجزيرة وشمال الشام . وكادت تستمر فى حركة الاسترداد هذه لولا قيام الإمبراطورية الفاطمية ، فتصدّت لهذا الخطر ، وتمكنت من تجميد تقدّم البيزنطيين عند أنطاكية ، ولكنها لم تستعد ما استردته الدولة البيزنطية . ووقفت الإمبراطوريتان الفاطمية والبيزنطية على قدم المساواة حتى وفاة الحاكم بأمر الله ، ثم أخذت الدولة الفاطمية تتعرض للضعف بعد ذلك ، فأخذ الأمل فى زحزحة الإمبراطورية البيزنطية العتيدة عن شمالى الشام يضيع شيئاً فشيئاً .

على أنه قدّر لهذه الدولة أن تصاب بأكبر كارثة على يد السلاجقة ، وتلقى على أيديهم مالاقته على يد المسلمين فى صدر الإسلام . فلم يكد طغرل بك يوطّد ملكه فى فارس ، وتتصل حدوده

بأراضى الدولة البيزنطية فى أرمينية ، حتى عوّل على دفع فتوحاته غربًا . ففى سنة ٤٤٠ هـ – سنة ١٠٤٩ م . بدأ غاراته العسكرية على الجهات البيزنطية من نواحى أرمينية ، وغزت جيوشه ديار بكر ، التى كان أميرها المسلم يدفع الجزية للدولة البيزنطية . وما لبثت أن غزت أرمينية ووصلت إلى طرابيزون على البحر الأسود . وقد حاول أخوه إبراهيم إينال فتح أرزن ، فلما استعصت عليه ، أضرم فيها النيران بمن فيها ، وكانوا نحو مائة وأربعين ألفًا ، فاحترقوا . وأصبحت المدينة حطامًا ، فكان حريقاً من أكبر ماشهد التاريخ ، وكان دمار أرزن . التى كانت حتى ذلك الحين من أعظم مراكز التجارة فى آسيا الصغرى ، أعظم كارثة نزلت بأرمينية ، وكانت بداية انهيار الوطن الأرمنى . وقد سقط القائد البيزنطى ليبارتيس أسيرًا ، وعرض الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع افتداءه بمبلغ ضخم ، ولكن طغرل بك أعاده دون فديه ، فرد الإمبراطور المجاملة بإصلاح جامع القسطنطينية ، والدعاء فيه لطغرل بك .

على أن الصراع بين الدولتين الكبريين عاد على أشدّه من جديد ، فهاجم طغرل بك الأراضى البيزنطية ، وأغار على قارص ، وهزم الأرمن هزيمةً كبيرةً ، ثم زحف على مانزكرت سنة ١٠٥٠ ، وحاصرها حصارًا شديدًا ، ولكنها قاومت مقاومةً باسلةً ، فعاد إليها بعد ثلاث سنوات سنة ١٠٥٤ . وعندما علم باحتشاد البيزنطيين فى قوات عظيمة ومعهم كثير من الفرنج ، آثر العودة دون اشتباك ، استعداداً لحملات أخرى . ثم استولى فى عام ١٠٥٧ على ملطية .

وقد تولّى ألب أرسلان بعد عمّه طغرل بك ، وكانت الإمبراطورية السلجوقية تمتد غربًا إلى قلب أرمينية وهضاب آسيا الصغرى . فبدأ فى توسعة هذه الإمبراطورية على حساب البيزنطيين . وسار فى عام ١٠٦٤ م – سنة ٤٥٦ هـ إلى أذربيجان ، ثم إلى أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، ومعه ابنه وولى عهده ملكشاه ، ووزيره الشهير نظام الملك ، ففتح هذه البلاد وفرض عليها الجزية . كما تمكن من احتلال مدينتى آنى وقارص ، وتمثلان الخط الدفاعى الأوّل عن الإمبراطورية البيزنطية فى تلك الجهات .

على أن الإمبراطور رومانوس ديوجنيس Romanos Diogenes ، وكان جنديًّا عظيمًا ، أخذ يعدّ العدّة فى ذلك الحين لدحر السلاجقة ، فلما زحف ألب أرسلان إلى آسيا الصغرى فى عام ١٠٦٨ ، وقفت القوات البيزنطية تتصدّى لها ، ودارت رحى معارك عنيفة استمرت عامين ، وانتهت بهزيمة السلاجقة وردهم نحو الفرات سنة ١٠٧٠ م .

وهكذا تهيأت الفرصة للدولة البيزنطية للكرّ من جديد والقضاء على الإمبراطورية

السلجوقية ، وإعادة الأوضاع إلى ما صارت عليه بعد انقسام الدولة الإسلامية . ولم يتأخر رومانوس طويلاً عن استغلال هذه الفرصة . ففى أوائل سنة ١٠٧١ م . أعدّ جيشًا عرمرمًا ، يصفه المؤرخون بأنه أعظم قوّة جرّدتها الدولة البيزنطية على القوى الإسلامية ، إذ تقدره الروايات الإسلامية بمائتى ألف ، جمعها رومانوس من الروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والجورجيين . وسار الإمبراطور صوب أرمينية ، مخترقًا ولاية جالاتيا فى قلب الأناضول ، ودخل أرمينية ، واتجه إلى مدينة مانزكرت الحصينة على فرع نهر مرادسو بين مدينتى «إرضروم» و«وان» ، وضرب حولها الحصار .

وعندما ترامت أنباء هذا الزحف الهائل إلى ألب أرسلان وهو بمدينة خوى من أعمال أذربيجان ، أمر بنقل الغنائم والأثقال إلى داخل المملكة ، وهبّ للقاء الجيش البيزنطى فى جيش يتراوح بين خمسة عشر ألفًا حسب الرواية الإسلامية ، وأربعين ألفًا حسب الرواية الغربية ، والتقت طلائع جيشه بجيش البيزنطيين ، فأبدت من النظام والسرعة ما مكّنها من الانتصار على العدوّ وأسر قائده بازيلكوس . وأخذ الجيشان يستعدان للمعركة الفاصلة .

وهنا تذكر الرواية الإسلامية أن ألب أرسلان كان متوجّسًا من نتيجة المعركة ، حتى أنه أرسل بالفعل إلى الإمبراطور رومانوس يطلب عقد الهدنة ، ولكن الإمبراطور ردّ بأنه «لاسلام ولا هدنة إلاّ بالرّى» . فلم يجد ألب أرسلان بدًّا من خوض المعركة ، واختار الاشتباك مع الروم يوم الجمعة تبركًا ، وصلّى بجنده ظهرًا ، وبكى خشوعًا وتأثرًا ، وبكى الناس معه ، ثم امتطى صهوة جواده وقد لبس البياض ، وتحنط استعدادًا للموت ، وأعلن أنه إذا هزم ، فإن ساحة المعركة ستكون قبره .

وأغلب الظن أن ألب أرسلان قد طلب الهدنة من قبيل الخداع ، ولإشعار العدوّ بالثقة فى النصر ، ليستهين بالمعركة ، بينما جعل جنوده يشعرون بأن المعركة معركة حياة أو موت ليبذلوا جهدًا مضاعفًا . ذلك أننا نرى أنه لوكان ألب أرسلان يخشى المعركة ويريد الهدنة ، لطلب ذلك من قبل المعركة الأولى التى انتصرت فيها طلائع قواته على طلائع قوات العدوّ ، أما بعد هذا الانتصار ، فيستبعد تطرّق الخوف إلى قلبه . وقد يؤيّد هذا الرأى أن الجيش البيزنطى كان قد حدث فيه فى ذلك الحين بعض التمرد من جانب العشائر الروسية ، كما انسحبت الفرق الفرنجية ، وهى عوامل تدفع الخوف فى قلب الإمبراطور البيزنطى وليس فى قلب السلطان السلجوقى ، فأراد ألب أرسلان إدخال الطمأنينة فى قلب العدوّ ليستنيم ويستهين . وهو ما حدث تمامًا .

فقد التقى الجيش الإسلامى والجيش البيزنطى فى ظاهر «مانزكرت» على ضفاف نهر

أراكساس ، ودفع الإمبراطور رومانوس بجيشه دفعةً واحدةً ، بدلاً من نظام القوات المتلاحقة والاحتياطى المأثور فى النظم العسكرية البيزنطية . بينما اعتمد ألب أرسلان على براعة حملة السهام من فرسانه. ودام الاشتباك الهائل حتى مغرب الشمس، وكان المسلمون يقاتلون قتال حياة أو موت ، وعول رومانوس على الارتداد لاستئناف القتال فى اليوم التالى ، ولكن الجيش الإسلامى ، برغم ما حلّ به من تعب ، اغتنم هذه الفرصة ، فشدّد الضغط على القوات البيزنطية المتراجعة حتى تمكن من فتح ثغرة فى صفوفها ، وانطلق منها إلى قلب الجيش البيزنطى ، وأمطره بوابل من السهام المميتة ، فحصدهم حصداً ، وقتل جموعًا عظيمةً ، ونهب المعسكر الرومانى ، ثم أكمل انتصاره بأسر الإمبراطور البيزنطى رومانوس ، ونقله إلى المعسكر الإسلامى ! .

كان انتصار المسلمين فى مانزكرت من أعظم الانتصارات فى تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا ، وأبعدها تأثيرًا ، فقد أوقف تمامًا حركة البعث البيزنطية التى قامت على أيدى الأسرة المقدونية ، والتى رجحت بها كفتها على كفة الدولة الإسلامية ، وأعادت بها الدولة البيزنطية مرةً ثانيةً إلى أرمينية والشام حتى بدا كأنها سوف تبقى إلى الأبد . فلم يعد فى مقدور الدولة البيزنطية بعد هذه الهزيمة الساحقة الاحتفاظ بآسيا الصغرى ، أو مواجهة الأخطار الوثنية المتمثلة فى قبائل البشناق والكومان التى أخذت تنهال على الإمبراطورية من جهة الدانوب . فانقلبت موازين القوى بين الشرق المسيحى والغرب المسيحى ، وكان الأخير يرى فى الدولة البيزنطية سدًّا منيعًا ضدّ الخطر الإسلامى . فأصبح مطالبًا بتدعيم هذا السد أو الحلول محله . وكان الحل الأخير هو الذى آثره ، فكانت الحروب الصليبية ! .

كما انقلبت موازين القوى أيضًا بين الشرق الإسلامى والشرق المسيحى ، إذ مهدت هذه المعركة لعودة المدّ الإسلامى مرةً أخرى إلى داخل آسيا الصغرى وفى أعماقها ، بقيام دولة الروم السلجوقية فى قلب آسيا الصغرى ، واتخاذ قونية عاصمة لها ، والانطلاق منها للتوسع شمالاً فى جهات البحر الأسود ، وجنوبًا فى جهات البحر المتوسط . وفى الوقت نفسه عاد المدّ الإسلامى إلى الشام مرةً أخرى ، وتحرر من القبضة البيزنطية ، بل أصبح السلاجقة – نتيجةً لآثار هذه المعركة – فى الوضع الذى مكّنهم من التدخل فى الشئون البيزنطية .

وهكذا عادت الجبهة الشرقية إلى مناعتها وقوّتها فى الصراع العربى الأوروبى ، وبقيت الجبهة الغربية فى الأندلس التى كانت فى انتظار معجزة أخرى ، أو حركة بعث جديدة كتلك التى تحققت على يد السلاجقة ، وهذا يقتضى توجيه عناية خاصّة بها .

٢٧ - الصراع الانتحارى فى الأندلس وحركة الإسترداد المسيحى

- اختلاط العرب بالأوروبيين فى الأندلس .
- تفاقم المشكلة الطائفية فى المجتمع الأندلسى .
- فتنة عبد الرحمن شنجول .
- تدمير المهدى لمدينة الزاهرة .
- تدمير دور البربر بالرصافة فى قرطبة .
- مبايعة الرشيد خارج قرطبة وقتله .
- القضاء على البربر فى قرطبة ومبايعتهم لسليمان المستعين .
- إستعانة المهدى والمستعين بالممالك الأسبانية .
- هزيمة المهدى واغتياله بيد واضح الفتى .
- دخول البربر قرطبة ٤٠٣ هـ .
- غزو بن حمود الأندلس ومقتل سليمان المستعين ٤٠٧ هـ .
- مبايعة المرتضى بشرق الأندلس .
- الصراع بين أسرة بن حمود على قرطبة .
- مبايعة المستظهر ثم المستكفى ثم المعتد بالله .
- خلع المعتد بالله وإنهاء ملك بنى أمية بالأندلس ٤٢٢ هـ .
- تمزق الأندلس وبداية عصر ملوك الطوائف .
- حركة الاسترداد المسيحى للأندلس على يد فرناندو الأول وألفونسو السادس .
- سقوط طليطلة ١٠٨٥ م .

٢٧ – الصراع الانتحارى فى الأندلس وحركة الاسترداد المسيحى

فى عرضنا السابق للصراع بين العرب وأوروبا فى الأندلس . رأينا كيف استعاد عبد الرحمن الناصر وحدة الأندلس بعد عصر ملوك الطوائف الأول . فتغيرت موازين القوى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وتوقف زحف الممالك الأسبانية فى الشمال ، وعادت حركة المدّ الإسلامى إلى الانتعاش من جديد ، واستمر ذلك فى عهد عبد الرحمن الناصر وفى عهد ابنه الحكم المستنصر ، وبلغ قمته فى عهد الحاجب المنصور ، واستمر فى عهد ابنه المظفر ، وتحولت الممالك الأسبانية فى الشمال إلى توابع صغيرة تدور فى فلك الدولة الأموية ، ويدين ملوكها لحكام قرطبة العظام بالولاء والاحترام .

فى ذلك الحين ، ومنذ الفتح العربى للأندلسى ، كان الدم العربى قد اختلط بالدم الأوروبى ، عن طريق زواج العرب بالأسبانيات . وانتقلت الملامح الأوروبية إلى المسلمين ، كما انتقلت الملامح العربية إلى الأوروبيين ، ووصل هذا إلى القصر الملكى بقرطبة ، إذ أصبح هناك أمراء ، بل وخلفاء ينتمون من جهة الأم إلى أصل أوروبى ! فقد كانت أم الخليفة هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، من الباسك (بشكنسية) . وكانت أم عبد الرحمن شنجول . ابن الحاجب المنصور ، هى ابنة سانشو جارسيا (شانجه) ، ملك بنبلونة . وقد أهداها هذا الملك إلى المنصور ، فتزوجها ، وحسن إسلامها ، وكانت من خيّرات نسائه دينًا . وقد أنجب منها ابنه عبد الرحمن ، الذى كان قريب الشبه بجده سانشو ، حتى أسمته والدته فى صغره « سانشويللو » Sanchuelo ، وهو تصغير سانشو ، فعرف باسم « شنجول » (كان العرب ينطقون سانشو « شانجة ») . وقد حظى عبد الرحمن شنجول هذا بكراهية شديدة من المؤرخين الإسلاميين ؛ لأنه كان أساس الفتنة التى اندلعت فى الأندلس ، وعملت على تفجيره .

على أن عبد الرحمن شنجول لم يكن فى الحقيقة أكثر من عود ثقاب أشعل برميلاً مليئًا بالبارود . فقد سبق أن أشرنا إلى الأوضاع الاجتماعية فى الأندلس ، وأوضحنا أن المجتمع الأندلسى كان يتكون من أخلاط متنافرة من السكان ، بعضهم عرب ، وبعضهم بربر ،

وبعضهم صقالبة ، وبعضهم مولّدون ، أى من آباء مسلمين وأمهات أسبانيات ، والبعض الآخر مستعربون ، وهم نصارى الأسبان الذين يتكلمون العربية .

وكانت كلٌّ من هذه المجموعات السكانية تميل إلى التكتل فى مناطق خاصّة بها . فكان العنصر العربى هو الغالب فى قرطبة ، وكان عنصرا المولّدين هو الغالب فى أشبيلية وطليطلة ، وكان عنصرا البربر هو الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة . وقد ساعد امتداد سلاسل الجبال من الشرق أو الشمال الشرقى إلى الغرب أو الجنوب الغربى على تقسيم الأندلس إلى أقاليم شبه منفصلة ، فساعد هذا بدوره على نمّو النزعة الانفصالية .

وقد دخل عامل جديد منذ أيام عبد الرحمن الناصر . وهو إضعاف العنصر العربى الذى كان متفوّقًا فى الجيش ؛ ذلك أن الجند العربى الذى كان يجند فى الجيش كان يوزع حسب القبائل والأقاليم ، فكان ولاء هذا الجند يذهب لولاتهم بالدرجة الأولى . فعمد عبد الرحمن الناصر إلى إضعاف العصبية العربية فى جيشه وحكومته عن طريق الاستكثار من الصقالبة (وهم السلاف وغيرهم من العناصر الأوروبية الذين جئ بهم أطفالاً كرقيق وربوا تربيةً إسلامية ، على نحو ما كان يتم بالنسبة للمماليك الأتراك فى المشرق الإسلامى) ، وقد غلب هذا على العنصر العربى فى عهد الحاجب المنصور وولده عبد الملك المظفر واشتهر منهم أسماء معروفة فى تاريخ هذه الفترة ، مثل : واضح ، وبشير ، ونظيف ، ونجا ، وشعلة ، وزهير ، وطرفة ، وشفيع ، وخيران . وكانوا يعرفون بالفتيان ، فيقال : واضح الفتى ، وزهير الفتى . . إلخ .

وفى الوقت نفسه رأى المنصور الاعتماد على عنصر آخر ، هو البربر ، فجلب إلى قرطبة عددًا كبيرًا من بربر العدوة وأفريقية ، من رجال زناتة وصنهاجة ومكناسة وغيرهم ، حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها ! .

وقد أدّى ذلك إلى نتيجتين : الأولى ، إضعاف السلسلة الفقرية الاجتماعية العربية للدولة الأموية بالأندلس ، التى كانت تدعم السلطة المركزية برغم خلافاتها . والثانية إغضاب هذا العنصر العربى وشحنه بالأحقاد ضدّ العناصر الغالبة ، مما كان أساسًا للفتنة التى اشتعلت بين أهل قرطبة والبربر ، وأدّت إلى سقوط الخلافة الأموية .

على أنه يبقى أن عبد الرحمن شنجول ، ابن الحاجب المنصور العظيم ، كان من أسوأ الحكام الذين شهدهم تاريخ الأندلس . وكان قد تقلد حجابة القصر بعد وفاة أخيه عبد الملك المظفر ،

وخلع عليه الخليفة هشام المؤيد خلعًا سلطانية ، وأصبح يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة . ولكنه كان على خلاف أبيه وأخيه ، مغرورًا وفاسدًا ، وغرّته قوة السلطان فطمع فى الخلافة ذاتها ، وتحايل لإقناع الخليفة هشام المؤيد بتعيينه وليًا لعهده ، متوسّلاً بانتساب كلٍّ منهما إلى أم بشكنسية (من الباسك) ، وزاعمًا وجود نسب بينهما بالخئولة . واستدعى طبقات أهل قرطبة ، وأجلس لهم هشامًا ، وأشهدهم فيما أمضاه من ولاية العهد . وبعد أن اطمأن إلى ذلك ، انصرف إلى ملذاته فى الفسوق والزنا والاستبداد بالسلطان .

وقد جرّ عبد الرحمن شنجول بهذا السلوك على نفسه وعلى الدولة الأموية بالأندلس وبالاً عظيمًا ، ذلك أن فكرة اغتصاب الخلافة فى أسرة بنى أمية كانت فى حدّ ذاتها ، كما يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، كفيلة بإثارة أهل الأندلس عليه ؛ لذلك انتهز أهل قرطبة فرصة خروجه للغزو ، وثاروا عليه فى ١٤ جمادى الأول سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م ، بزعامة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر . وعندما أراد العودة لقمع الثورة ، تخلّى عنه جنده البربر فى الطريق ، بعد أن بلغهم سيطرة عدوّه الأموى على مدينة الزاهرة . وعندئذ تبرأ من ولاية العهد ، مقتصرًا على الحجابة ، أملاً فى قمع الثورة ، فلم يصغ له أحد ، ويقال إن رفيقه ابن غومس ، وهو قريبه من جهة أمّه ، نصحه بعدم الذهاب إلى قرطبة ، فقد سأله قائلاً : « أخبرنى عن هذا الرجل الذى بقرطبة ، أأنت أشرف أم هو؟ قال : بل هو ! . قال : الناس أميل إليك أم إليه ؟ قال ! ما أراهم إلاّ إليه أميل » ! . ونصحه ابن غومس بالعدول ، والذهاب بدلاً من ذلك إلى واضح الفتى ، صاحب طليطلة والثغر الأوسط للاستعانة به ، ولكن شنجول رفض ، على أمل أن ظهوره أمام قرطبة سوف يقسم أهلها بينه وبين محمد بن هشام بن عبد الجبار ، ولكن أمله خاب بعد أن انفضّ الجميع من حوله ، ثم قبض عليه ومعه ابن غومس ، بعد أن سيقت نساؤه ، وهن سبعون جارية –كما يقول ابن عذارى– إلى قرطبة ، وقطعت رأساهما ، وسمّرتا على خشبتين على باب السدّة من قصر قرطبة .

وقد كان من الممكن أن تنتهى الأمور بقتل عبد الرحمن شنجول ، وعودة الخلافة إلى بيت بنى أميّة ، لولا أن محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، كان لا يقلّ عنه سوءًا ! . وفى الحقيقة أننا سوف نشهد من الآن فصاعدًا سلسلة من الخلفاء الأمويين الأقزام ، المتصارعين على السلطة ، والمنتهين جميعًا إلى مصير واحد ، جاذبين معهم الأندلس إلى هاوية الدمار والانتحار .

وكان محمد بن هشام ، بعد أن نجح وأقاربه من بنى مروان فى الوثوب على السلطة ، قد أرسل بعض رجاله إلى سجن العامة ، فأطلقوا سراح من فيه من اللصوص والمجرمين . وفى تلك الليلة تنازل له هشام المؤيد عن الخلافة بعد محاصرة جموع الغوغاء للقصر الخلافى ، فتلقب منذ ذلك الحين بالمهدى .

وسرعان ما أرسل المهدى جموع مؤيديه إلى مدينة الزاهرة ، التى بناها الحاجب المنصور قبل ثلاثين عامًا (سنة ٣٦٨ هـ) . لحملها على الاستسلام . وكانت معقل العامريين ، وكانت تنافس قرطبة فى العظمة والبهاء بفضل ما انتقل إليها من الغنائم على يد الحاجب المنصور طوال غزواته السبعة والخمسين لبلاد العدو . فانقضت عليها هذه الجموع ، وانتشرت فى قصورها تنهب ما فيها من مال وتحف وروائع وعدة وسلاح وذخائر . ثم أمر المهدى بعد ذلك « بهدمها ، وحطّ أسوارها ، وقلع أبوابها ، وتشعيث قصورها ، وطمس آثارها » . فبلغ من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا تفعله الدهور المتعاقبة ، وأصبحت بلقعًا كأن لم تغن بالأمس . وفى ذلك يقول المقرى : « وخربت الزاهرة ، ومضت كأمس الدابر ، وتلاشى أمرها . فلم يرج لفسادها صلاح ، وصارت قاعًا صفصفًا ، وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء » وقد كان زوال هذه المدينة شاملاً لدرجة أنه لم يترك صدًى فى التقاليد المحلية ، وحتى أنه أدّى إلى توليد الشكوك والمتناقضات حول موضعها الافتراضى ! .

ولم تكن جريمة تخريب الزاهرة هى الجريمة الوحيدة التى ارتكبها المهدى محمد بن هشام ، فقد جاء الدور على قرطبة ذاتها ! . وكان ذلك فى جوّ التنفيس عن الحقد على البربر فى صدور السكان العرب ، الذين نقموا على هؤلاء ارتفاع الشأن فى عهد العامريين ، فقامت طائفة من العوام والأسافل بمهاجمة دور البربر بالرصافة فى الشمال الغربى من قرطبة ، وهى دور بنى ماكسن بن زيرى . وزاوى بن زيرى ، وانتهبها ! .

وقد أثبت هذا العمل الإجرامى أنه كان فاتحة الصراع السافر بين العرب والبربر ، الذى التهمت نيرانه الأندلس . فقد اتجه البربر بعد ذلك إلى اصطناع خلفاء من بنى أمية لإسقاط حكم المهدى محمد بن هشام ، بحثًا عن راية شرعية أموية يقاتلون تحتها . وكان أول هؤلاء هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وكان يلتف حوله مؤيدو وصنائع الحاجب المنصور ابن أبى عامر من الفتيان الصقالبة والبلديين . فبويع بالخلافة خارج قرطبة ، وتلقّب بالرشيد . ولكنه منى بهزيمة ساحقة على يد جيش المهدى ، وقبض عليه وأمر المهدى بقتله .

وقد تحوّل غضب المهدى على أثر ذلك إلى البربر ، فأمر العامّة فى قرطبة بتقتيلهم أينما وجدوا . وتسارع هؤلاء إلى التنفيذ ، فوثبوا على البربر ، وقتلوا عددًا كبيرًا منهم ونهبوا ديارهم . واضطر هؤلاء إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر ، بعد أن تخربت منازلهم . وقد وصف ابن حزم هذا الخراب بقوله : « وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية ، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد أمّحت رسومها وطمست معالمها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، ومآوى للذئاب ومخابئ للصوص ، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث . . إلخ . . »

وكان من الطبيعى أن يتزايد حقد البربر على العرب ، ولم يعدموا قزمًا آخر من البيت الأموى ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر . فعقدوا له الخلافة فى شعبان ٣٩٩ هـ وتلقب بالمستعين بالله . وقد أطلق عليه أهل قرطبة اسم « إمام البربر » ! . وهو الخليفة الأموى الثالث فى خلال شهرين تقريبا ! .

وسرعان ما اتجه كلٌّ من الخليفتين الأمويْين : المهدى ، والمستعين بالله ، إلى الاستعانة بالممالك المسيحية فى شمال أسبانيا فى تغليب كفّته على الآخر ! . فقد تقدم البربر قاصدين قشتالة للاستعانة بشانجة بن جارسيا بن فرذلند ، عاهل قشتالة ، ووصلوا إلى وادى الحجارة ، وهزموا جيش واضح الفتى صاحب طليطلة والثغر الأوسط ، ودخلوها عنوة ، واستباحوا أهلها ، ووصلوا إلى مدينة سالم . ولكن واضحًا تمكن من إبعادهم عنها ، فأرسلوا رسلهم إلى شانجة يطلبون مساعدته على أن يدخل سليمان بن الحكم قرطبة . فوجدوا عنده رسل المهدى محمد بن هشام ورسل واضح الفتى يسألانه المساعدة بدورهما « على أن يعطياه ما أحبَّ من مدائن الثغر » ! . وقد حملا إليه هدايا « منها خيل وبغال وكُسِيّ ، ومالا يحصى من الطرائف والتحف » .

وهكذا انقلبت موازين القوى فى العلاقات بين العرب والممالك المسيحية فى شمال أسبانيا . فبعد أن كان الملوك الأسبان يطلبون مساعدة الحكام الأمويين فى نزاعاتهم ، ويتيحون لهم بذلك التدخل فى الشئون الداخلية لبلادهم ، أصبح الحكام الأمويون هم الذين يطلبون من الأسبان المساعدة فى قتال بعضهم البعض ! .

وكان سانشو على مستوى الموقف فى الاستفادة من تلك الفرصة المتاحة ، إذ رأى القضاء على قوّة المسلمين بالاستعانة بالبربر ، ثم ينقض بعد ذلك على البربر ! . فعرض عليهم الاستجابة

لطلبهم « على أن يعطوه إذا ظفروا ما أحبّ من مدائن الثغر » . فقبلوا ذلك . وهنا ردّ رسل المهدى وواضح رافضًا مساعدتهم .

وسار شانجه على رأس جيش كثيف لمساعدة البربر والمستعين بالله ، واشتبك الجيشان الحليفان مع جيش واضح بالقرب من قلعة يقال لها « قلعة عبد السلام » فى وادى شرنبة فى محرم ٤٠٠ هـ وألحقا به الهزيمة . ثم سارا إلى قرطبة حيث كان المهدى يحفر الحفائر حول أرباضها ، وهو « لا يفيق من سكر ، وبعض الناس يهجونه ويتكلمون بقبيح أفعاله » - كما يقول ابن عذارى - وانتهت المعركة التى نشبت بين الجيشين بهزيمة جيش المهدى هزيمة نكراء ، وفرار واضح إلى الثغر . ووضع البربر السيف على أهل قرطبة ، فقتلوا منهم خلقًا عظيمًا ، وحرق كثيرون فى الوادى ، وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف فى رأى بعض الأقوال . . وهرب المهدى إلى طليطلة ليلحق بواضح فى أول جمادى الأولى سنة ٤٠٠ هـ .

على هذا النحو بدا أن الأمر قد استقر لسليمان المستعين فى قرطبة ، لولا أن المهدى المخلوع وفتاه واضحًا كانا ينويان مواصلة الصراع بالاستعانة بالممالك الأسبانية فى الشمال فقد خرج واضح من مدينة سالم إلى طرطوشة قريبًا من الحدود الفاصلة بين الثغر وإقليم كتالونيا ، وعقد حلفًا مع عاهل برشلونة ريموند بوريل الثالث ، وأخيه أرمنجول (أرمقند كما يطلق عليه العرب) مقابل التخلّى لهم عن مدينة سالم ، قاعدة الثغر الأوسط . فدخلها الأسبان بعد أن أخلاها واضح ممّن كان فيها من المسلمين ، ليقاتلوا البربر ، وقد كان أول ما فعلوا أن حوّلوا جامعه إلى كنيسة ، ووضعوا فيها الناقوس ، واشترطوا على واضح أن يصرف لكل رجل منهم دينارين يوميًّا فضلاً عن طعامه وشرابه ، وبالإضافة إلى مائة دينار لريموند بوريل الثالث ! ، « وعلى أن لهم ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكراع ومال ، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم » !

وتقدم جيش واضح وحلفائه الأسبان إلى سرقسطة ، فساموا أهلها سوء العذاب ، ومنها إلى طليطلة حيث انضم إليهم المهدى . وبذلك بلغ عدد هذا الجيش ٣٩ ألفًا ، منهم تسعة آلاف من الإفرنج . وزحف الجميع على قرطبة ، فألحقوا الهزيمة بسليمان المستعين وجيشه البربرى ، بعد أن ألحق البربر بأعدائهم خسائر جسيمة ، إذ قتلوا من الأسبان عددًا كبيرًا وعلى رأسهم الملك أرمنجول (أرمقند) . وعاد المهدى إلى قرطبة حيث أخذ لنفسه البيعة من جديد ! . وبدأت مرحلة جديدة فى الصراع الانتحارى فى الأندلس ! .

ذلك أن المهدى أراد استغلال النصر الذى حققه فى القضاء على البربر ، وزحف بجيشه

وبجيش واضح والجيش الأسبانى على البربر ف وادى آره Guadiaro بالقرب من رندة فى ٦ ذى القعدة ٤٠٠ هـ (٢١ يونيو ١٠١٠ م) . ولكنه تلقّى هزيمة ساحقة ، وقتل البربر من الأسبان وحدهم ما يزيد على ثلاثة آلاف ، وغرق منهم كثيرون ، وكان من بين القتلى وزير يهودى لملك الإفرنج ريموند بوريل . وعند ذلك امتنع الأسبان عن القتال ، وعادوا إلى بلادهم . وبات المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار يواجه البربر وحده فى قرطبة .

على أن واضحًا الفتى كفى البربر مهمة القضاء على المهدى ، خصوصًا بعد أن انصرف هذا فى إبان ذلك الخطر الجسيم إلى الفسق والفجور ! . فدبّر قتله عن طريق طائفة العبيد العامرية يوم ٨ ذى الحجة ٤٠٠ هـ . وبعث برأسه إلى سليمان المستعين ، طالبًا منه ومن حلفائه البربر الدخول فى طاعة هشام المؤيد الذى عزله المهدى . ولكن هؤلاء لم يستسيغوا خيانة واضح الفتى لمولاه . ودخلوا مدينة الزهراء فى ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ/ ٤ نوفمبر ١٠١٠ م ، وضربوا الحصار على قرطبة . وحاول واضح الهرب إلى الثغر ، ولكن الجند فطنوا له ، فقبضوا عليه ، واجتز ابن وداعة القرطبى رأسه يوم ١٥ ربيع الثانى/ ٤٠٢ هـ . ثم دخل البربر ضواحى قرطبة عنوةً ، وأعملوا السيف فى الرقاب ، ونثروا الخراب والدمار والنهب ، ودخل سليمان مقر قرطبة من جديد فى ٢٧ شوال سنة ٤٠٣ هـ ، حيث قتل هشام المؤيد وأشاع أنه فرّ لوجهه ، وعمل سقاءً بالمرية ! .

على هذا النحو خلا الحكم لسليمان بعد قتل المهدى وواضح وهشام المؤيد ، وبدأ حكم البربر من قرطبة ، فانتقل مع جماعة جيشه البربرى إلى مدينة الزهراء ، بينما أقام بنو حمود العلويون فى شقندة ، وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية إرضاءً لهم . الأمر الذى دفع العامريين إلى الهرب إلى شرق الأندلس خوفًا على أنفسهم من البربر ، وأقاموا لهم دولاً فى بلنسية ، وشاطبة ، ودانية ، ولورقة ، وميورقة ، والمرية . وأخذوا يدبرون المؤامرات لسليمان المستعين ! .

ولما كانت جميع القوى فى الأندلس قد اقتتلت ، فقد صار على العامريين الاستعانة بقوى من الخارج . فتطلعوا إلى على بن حمود ، أمير سبتة ، للقدوم إلى الأندلس ، والاستيلاء على الخلافة . ونجحوا فى إقناعه بذلك ، فلم يتوان عن المجاز إلى الأندلس بحجة الإفراج عن هشام المؤيد ، وواجهه سليمان المستعين بجيشه فى محرم سنة ٤٠٧ هـ . ولكن الهزيمة لحقته . ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ / يوليو ١٠١٦ م ، وأمر بإحضار سليمان المستعين . فضرب عنقه بيده . ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن ، ثم عنق أبيهما الشيخ ، وجعل رءوس

الثلاثة فى طست ، وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادى عليها : « هذا جزاء من قتل هشامًا المؤيد » ! .

وقد بويع لعلى بن حمود فى باب السدة من قصر قرطبة فى ٢٣ محرم سنة ٤٠٧ هـ ، وتلقب بالناصر لدين الله . وبذلك بدأ حكم بنو حمود ، وبدأت أيضًا مرحلة جديدة فى الصراع الانتحارى فى الأندلس . ذلك أن تعصب على بن حمود لحزبه البربرى ، قد أدّى إلى انصراف الناس عنه . فى الوقت الذى ظهر قزم آخر من البيت الأموى بشرق الأندلس يدعى عبد الرحمن ابن عبد الملك بن الناصر ، بويع بالخلافة وتلقب بالمرتضى ، ومال أهل قرطبة إلى الخليفة الجديد لكراهيتهم للبربر . وتبرم بعلى بن حمود خدمه وفتيانه من صقالبة بنى مروان فوثب عليه منهم ثلاثة هم : منجح ولبيب وعجيب ، وقتلوه فى حمام قصره فى أول ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ .

وقد خلفه أخوه القاسم بن حمود ، ولكن أمراء شرق الأندلس أعدّوا للخليفة المرتضى جيشًا كثيفًا لفتح قرطبة ، وإعادة الخلافة لأصحابها الشرعيين من المروانيين ، وتوجّه هذا الجيش إلى غرناطة لمحاربة بنى زيرى الصنهاجيين ، ولكن فى ذلك الحين اكتشف أمراء شرق الأندلس صرامة وحدّة فى طبائع المرتضى ، وخافوا من عاقبة تمكّنه من البربر ، فانهزموا عنه ببساطة شديدة ، وتركوه وحيدًا ! ، فلم يجد سوى الفرار ، ولكنه قتل بالقرب من وادى آش ، وبذلك خلص الأمر للبربر .

على أن الصراع الانتحارى استمر بين أسرة بنى حمود ذاتها ! . فقد اتفق كل من يحيى وإدريس ، ابنا أخى على بن حمود ، على خلع عمهما القاسم ! ، وجمع يحيى جيشًا فى مالقة من جيرانه البربر زحف به على قرطبة ، وأسقط حكم عمّه الذى فرّ إلى أشبيلية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ . وبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة فى أول جمادى الأولى سنة ٤١٢ هـ ، وتلقب بالمعتلى بالله ! . ولكنه لم يهنأ بالخلافة طويلاً ، إذ سرعان ما خلعه أهل قرطبة فى ١٢ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، واستدعوا القاسم من أشبيلية ، فدخل قرطبة بعد أن فرّ يحيى إلى مالقة ! ، وجددوا له البيعة فى ١٨ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ . ثم سرعان ما أجمعوا على خلعه فى ٢١ جمادى الآخر سنة ٤١٤ هـ ! ، وحاصروه فى قصره أيامًا ، حتى أرغموه على مغادرته إلى الربض الغربى منها فى جيشه البربرى ، وقاتلوا البربر قتال الموت ، وألحقوا بهم هزيمة شنيعةً . ففرّ القاسم إلى أشبيلية حيث كان يوجد بها ولداه محمد والحسن ، ولكن أهل أشبيلية أغلقوا أبواب مدينتهم فى وجهه ، لكراهيتهم للبربر ، وطردوا إليه ولديه . فلم يجد بدًّا من الرحيل إلى شريش . وكان يحيى يترقب

هذه الفرصة ، فزحف على شريش ، واستولى عليها ، وقبض على عمه ، وحمله مقيّدًا إلى مالقة ! .

على هذا النحو فشل بنو حمود فى البقاء فى قرطبة أكثر من سبع سنوات . ورأى أهل قرطبة أن يعيدوا الخلافة إلى البيت الأموى ، فاختاروا من أمراء المروانية ثلاثةً هم : سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراق ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار . واجتمع الناس فى جامع قرطبة فى ٤ رمضان لاختيار واحد ، وكان الاتجاه إلى سليمان بن المرتضى ، لولا قدوم عبد الرحمن بن هشام فى شرذمة من رجاله شاهرين سيوفهم ، فبويع له على الفور ، وتلقّب بالمستظهر بالله ! . ومع أنه كان أفضل الأقزام من بنى مروان الذين ظهروا على مسرح الحوادث منذ مقتل شنجول ، إلاّ أنه لم يستمر طويلاً (شهرًا واحدًا) فقد حاصره أهل قرطبة فى القصر ، وأجلسوا فى الخلافة محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر فى ٣ ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ ، الذى تلقّب بالمستكفى بالله ! . وقد حمل إليه المستظهر المخلوع ، فأمر بقتله ، كما قتل محمد بن العراق الذى كان مرشحًا للخلافة بين المروانيين الثلاثة ، السالف ذكرهم ، برغم أنه ابن عمه ، وكان القتل خنقًا سنة ٤١٥ هـ .

وهكذا أثبت المستكفى أنه أكثر أسلافه القريبين دمويّةً وسوءًا . وفى الواقع أن المؤرخين الإسلاميين ينعتونه بأنه كان « عاطلاً من الخصال والفضائل » ، ويشبهونه بالمستكفى بالله العباسى ، فى « الفسق واعتداء كلّ واحد منهما على ابن عمه ، واتفاقهما فى الأخلاق والعهر واللعب ، وأن كلّ واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنةً ، وكلّ واحد ملك سنة ونحو خمسة أشهر ، وتوافق فى اللقب . وبالجملة فهما رذلى قومهما » . وفى أيامه امتدّ الدمار إلى قصور عبد الرحمن الناصر فى قرطبة وقصور الزاهرة ! .

ولم يلبث المستكفى أن لقى جزاءه . ففى ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ ، طلب منه وزراؤه الخروج لمقاتلة يحيى بن على بن حمود ، الذى زحف من مالقة يريد العودة مرة أخرى إلى قرطبة ، فتظاهر بالقبول ، ثم فرّ متنكرًا فى زى غانية بين غانيتين « لم يميّز منهن ! » – كما يقول ابن عذارى – ويبدو أنه اختلف مع رجاله فى الطريق على مال ، فقتلوه فى بلدة أقليج .

وعلى هذا النحو استعاد يحيى بن على الخلافة فى ١٦ رمضان ٤١٦ هـ . وأقام بقرطبة أربعة أشهر ، ثم عاد إلى مالقة تاركًا وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة . ولكن العامريّان الموفق مجاهد وخيران انتهز الفرصة للزحف على قرطبة ، ونجحا فى ذلك فآثر يحيى البقاء بمالقة خشية أن

يبطش به أهل قرطبة ، ولكنه قتل خارج أبواب قرمونة فى محرم سنة ٤٢٧ هـ على أيدى رجال إسماعيل بن عباد . واستمر خيران ومجاهد العامريّان فى قرطبة نحو شهر ، ثم اختلفا ، وتنازعا ، وانسحب خيران من قرطبة فى أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ ، بينما بقى مجاهد فترةً من الوقت وغادرها إلى دانية .

وقد أجمع أهل قرطبة بعد رحيل الفتيْن العامريْن على تنصيب هشام بن محمد بن عبد الملك أخى المرتضى خليفة ، وتلقب بالمعتد بالله . ولكن لم يطل عهده هو الآخر بقرطبة ، إذ أخذ أحد الأمراء المروانيين واسمه أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان ، يحرص على خلعه طمعًا فى الجلوس على كرسى الخلافة مكانه ! . وثار أهل قرطبة وراء أمية فى ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وحاصروا قصر الخلافة ، وأخرجوا هشامًا من قصره هو ونساؤه وولده ، واجتمع شيوخ قرطبة ووزراؤها برئاسة أبى الحزم بن جهور لبحث المسألة فقرروا خلع المعتد بالله ، وإبطال الخلافة ذاتها ، ونودى فى الأسواق بألاّ يبقى بقرطبة أحد من بنى أمية ، وألاّ يستضيفهم أحد ، فانتهى بذلك ملك بنى أمية بالأندلس .

وقد انتهت أيضًا الأندلس وقتذاك كدولة موحدة مهابة ، يدين لها الملوك الأسبان فى الشمال بالخضوع والولاء . ولم يكن لواحد منهم فضل فى هذه النهاية المأساوية الفريدة ، التى انتهت بتخريب الزاهرة ، وانهيار قرطبة وسقوط الدولة الأموية ، وتمزق المملكة أشلاء .

كان تمزق دولة الأندلس بأيدى بنيها على النحو الذى مرّ بنا ، من أكبر المآسى التى أصابت الأمة الإسلامية ؛ إذ كان بداية الطريق إلى ضياع هذه القطعة الغالية من الأرض الإسلامية وسقوطها فى يد الممالك المسيحية أسبانيا ، بعد أن كانت هذه الممالك تدور فى فلك الدولة الإسلامية ، وتدين لها بالولاء والخضوع . وهكذا يصاب العرب بانقسامهم بأكثر مما يصابوا بتألّب الأعداء ضدهم .

ويمكن فهم الآثار المدمّرة التى ترتبت على هذا الصراع الانتحارى الذى اندلع فى الأندلس بعد موت عبد الملك المظفر ، إذا عرفنا أنه أخّر الأندلس قرنًا من الزمان ! . فقد استمرت الفتن أولاً فى الأندلس حوالى ربع قرن ، أى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول عام ٣٩٩ هـ سنة ١٠٠٩ م ، حتى إعلان أبى الحزم بن جهور انتهاء الخلافة وسقوط ملك بنى أمية بالأندلس عام ٤٢٢ هـ . وقد رأينا كيف أخذت الفرق المتصارعة تستعين بالقوى المسيحية فى الشمال ضدّ بعضها

البعض ، مما أتاح لتلك القوى التدخل فى شئون الأندلس الداخلية بعد أن كان حكام قرطبة هم الذين يتدخلون فى الشئون الداخلية للمالك المسيحية الأسبانية .

ولم يكد يعلن ابن جهور انتهاء الخلافة ، حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعاتهم ، حتى أصبح فى الأندلس نحوًا من عشرين أسرة حاكمة ! . واستمر ذلك من سنة ٤٢٢ هـ إلى ٤٨٤ هـ . وكان السلطان بصفة عامة للبربر فى الجنوب ، وخضع الشرق الأندلسى للصقالبة ، وانتثر فى المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون . بينما كانت الممالك المسيحية تتوحّد فى الشمال ! .

وقد صوّر المؤرخ ستانلى لين بول **Stanley Lane-Poole** أوضاع الأندلس فى تلك الفترة تصويرًا دقيقًا فقال :

« تمزّقت الدولة إلى إمارات صغيرة ، فى الوقت الذى كان ألفونس السادس يوحّد تحت إمرته استورياس وليون وقشتالة . وقد عرف ألفونس ما ينبغى عمله تمامًا ، لقد عرف أنه ليس عليه إلاّ أن يمدّ الحبل لملوك الطوائف ليشنقوا به أنفسهم ، لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا فى العواقب ، ولم يهتموا إلا بأنفسهم ، ولم يدّخروا أى جهد فى سبيل إضعاف منافسيهم . وكانوا يجثون عند قدمى ألفونس يستجدون معونته ضد إخوانهم المسلمين . وتقرّبت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونس عن طريق تقديم الإتاوات . وكان ألفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته ؛ لأنها ثمن عطفه وحمايته ! . وقد دفع ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونس ضدّ بعضهم البعض ! وكان ألفونس ينقل خطوطه إلى الأمام فى كل فرصة ، ويستولى على الحصون والقلاع واحدةً وراء الأخرى ، حتى وثب وثبته التى استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ . فدبّ الفزع فى صفوف المسلمين بأسبانيا » ، وأحس ملوك الطوائف بالخطر على إمارتهم من السقوط .

وأغلب ملوك الطوائف لا يستحقون الذكر ، وأكثرهم جاء وليد الضعف أو المصادفة . وإن كان يبقى أن أهم هؤلاء هم بنو عباد فى أشبيلية . وقد كوّن هذه الأسرة القاضى محمد بن عباد ، الذى تغلب على القاسم بن حمود حين أراد أن يضم أشبيلية إلى مالقة التى مكن لنفسه فيها . واستمرت إمارة بنى عباد بأشبيلية من سنة ٤١٤ هـ إلى نهاية عهد ملوك الطوائف ، وأخذت تتوسع على حساب جاراتها ، فضمت إمارات بنى حمود بالجزيرة ورونده وموردن وأركس ونبلة وإمارة بنى جهور بقرطبة .

على أنه وجدت إمارات أخرى مستقلة عن حكم بنى عباد ، مثل إمارة بنى حمود بمالقة ، وبنى زيرى بغرناطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى ذى النون

بطليطلة ، والعامريين ببلنسية ، وبنى هود بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب .

فى ذلك الحين كانت قد تكونت ثلاث ممالك مسيحية فى الشمال الأسبانى هى : مملكة كتالونيا ، ومملكة أرجون ، ومملكة قشتالة . وكان يفصل بينها وبين الأندلس مجرى نهر التاجة من مصبه إلى منبعه ، ثم يتجه خطّ الحدود بعد المنبع شمالاً إلى سرقسطة ، ثم إلى الشرق حتى يصل إلى البحر المتوسط عند مدينة طركونه .

وقد قسّم العرب خطّ الحدود هذا إلى ثلاثة أقسام : القسم الشرقى ، وقد سمى بالثغر الأعلى ، والقسم الأوسط وقد سمى بالثغر الأوسط . ثم القسم الغربى . وقد عرفنا من الصفحات السابقة أن الثغور هى مناطق الحدود مع العدّو ، وهى عبارة عن سلسلة من الحصون تقام بعد نهاية كل فتح ، لحماية هذا الفتح . وليست مهمتها الغزو . وإنما يقوم بالغزو الجند داخل البلاد فيما عرف باسم الصوائف والشواتى ، ومهمتها الحماية أيضًا وليست التوسع . الحماية عن طريق الهجوم لا الدفاع ، وضرب العدو فى داخل أرضه بدلاً من الانتظار حتى يتقدم العدّو داخل الأرض الإسلامية .

مناطق الثغور إذن هى مناطق ثابتة لا تتغير إلاّ كل بضعة قرون حين تتغير الظروف تغيُّرا جذريًّا ، فتتحرك لحساب هذا الطرف أو ذاك ، أى لحساب المسلمين أو لحساب الأوروبيين . فقد ظلت منطقة الثغور بين العرب والبيزنطيين فى المشرق ثابتة بعد الفتوح الإسلامية عند جبال طوروس لمدة أربعة قرون ، حتى أزاحتها الدولة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية جنوبًا وشرقًا ، على حساب العرب ، ثم عاد السلاجقة فأزاحوها غربًا على حساب الدولة البيزنطية . ويرى الدكتور عبد الهادى شعيرة أن أمراء البيزنطيين أنفسهم بعد معركة مانزكيرت ، هم الذين أتاحوا هذه الظروف باستعانتهم بالسلاجقة فى حروبهم الداخلية ، فاستقدموهم وأنزلوهم فى قلاعهم الداخلية حتى على سواحل بحر الأرخبيل وعلى سواحل البوسفور ذاته ، فأقام السلاجقة لأنفسهم ممالك فى آسيا الصغرى .

وقد أخذت مناطق الثغور فى الأندلس تتحرك جنوبًا على يد الممالك الأسبانية الشمالية فى أيام ملوك الطوائف . وكان أهم ملوك الأسبان فى ذلك الحين ألفونسو السادس ملك قشتالة . وهو ملك تطبّع بالخشونة فى قفار قشتالة وجبالها ، فهو على النقيض تمامًا من ملوك وفرسان المسلمين الذين كانوا قد بلغوا فى ذلك الحين ، على الرغم من الضعف السياسى ، ذروة الترف والأناقة والعناية بالثياب الغالية والآلات الحربية المزخرفة بفصوص الذهب والفضة ، فضلاً عن آداب المعاملة

وأساليب الشهامة والفروسية . ولذلك حظى ألفونسو باحتقار الفرسان المسلمين كهمجى ، رغم دفع ملوكهم الجزية له . فقد ذكر ابن بسام أنه عندما دخل عليه فرسان المسلمين وجدوه « يمسح الكرى عن عينيه ثائر الرأس ، خبيث النفس ! . وقد جعلوا ينظرون إليه فى غرابة ، وهو يضعث ثغامة رأسه (أى يحكّ شعرًا قد ابيض حتى صار شبيهًا بالزهر الأبيض فى نبات الثغام !) فما نسوا ذفر أطماره (أى رائحة ثيابه البالية !) ، ودرن أطفاره (أى قذارتها) ! .

على أن ألفونسوا السادس ، مع ذلك كان يقود فى ذلك الحين حركة الاسترداد ، أى استرداد الأندلس Reconquista التى بدأت على يد جدّه سانشو (شانجة) سنة ١٠٠٠ م ، واستمرت فى عهد والده فردناندو الأول .

كان سانشو الكبير هو الذى مهّد فى الحقيقة الطريق لوحدة القوى المسيحية سنة ١٠٠ ، فقد استطاع أن يجمع بين نافار وقشتالة وليون وأرجونه وبرشلونه عن طريق المصاهرات ، وبسط بذلك سيطرته من جبال البرانس إلى ما وراء سانتياجو (شانت ياقب) ، ومن بحر بسكونس حتى نهر دويره فيما يلى هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر . فبعث بذلك الحركة الكبيرة التى سميت باسم « حركة الاسترداد » . وعندما تولى ولده فرناندو الأول ، كانت ظروف الانقسام والصراع الانتحارى فى الأندلس مناسبة تمامًا للانطلاق بحركة الاسترداد ، ولكنه رأى أوّلاً ضرورة تقوية الوحدة المسيحية فى شمال أسبانيا عن طريق الضم ، فخاض حربًا ضدّ ليون ، وتمكن من ضمها إلى أملاكه بعد معركة تمارون ، كما حارب الباسك وتغلب عليهم ، فوحّد بذلك بين ليون وقشتالة ، ثم استولى أيضًا على مملكة نافار على الضفة اليمنى لنهر الإيبرو ، وحارب ملك أرجونة ، ووحّد الممالك الأسبانية تحت رايته . وعمل فى الوقت نفسه على الاستعانة بالدول الأوروبية وبالبابوية لشدّ أزره فى قتاله ضدّ المسلمين ، فاستجاب البابا إسكندر الثانى سنة ١٠٦٣ ونظم حملةً اشترك فيها فرسان وأمراء فرنسيون ونورمانديون وإيطاليون حاصرت بربشتر لمدة أربعين يومًا ، واقتحمتها وقتلت من الأسرى المسلمين ما يقرب من ستة آلاف .

وقد كان هذا هو الطور الثانى فى حركة الاسترداد ، حيث اتخذت صفة دوليّة لا أسبانيةً فقط . ومن هذا المركز الدولى اتخذ فرناندو الأوّل لنفسه لقب « إمبراطور » ! ولم يعد يكتفى بالتغلب على المسلمين فى الأندلس فقط ، بل طالب بطردهم من شبه الجزيرة الأسبانية . فقد روى ابن عذارى قوله : « إنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديمًا فى أوّل أمركم . فقد سكنتموها ما قضى لكم . وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم ! . فارحلوا إلى عدوتكم ، واتركوا

لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم ! . ولن نرجع عنكم ، أو يحكم الله بيننا وبينكم » .

وفى عهد فرناندو دفع الجزية له أمراء طليطلة ، وأشبيلية ، وبطليوس ، وسرقسطه . ومع ذلك فحين كان يجد الفرصة للهجوم لم يكن يتردّد فى ذلك . فقد هاجمت قواته مدينة قلمرية . واستولت عليها . واتجه نحو الشرق فهاجم سرقسطة . ثم نزل إلى الجنوب ، فحاصر طليطلة ، بل هاجم أشبيلية ذاتها ، وحاصر بلنسية . وبذلك لم تعد حدود قشتالة تنتهى عند جبال وادى الرملة ، بل اتسعت شرقًا وغربًا ! .

فى ذلك الحين بدا للمسلمين فى الأندلس أن أيامهم فى شبه الجزيرة أصبحت معدودة ، ولولا وفاة فردناندو الأول سنة ١٠٦٥ ، وتفرّق شمل مملكته عقب ذلك ، لزالت دولة الأندلس نهائيًا ! .

وقد سنحت الفرصة بعد وفاة فردناندو للمسلمين للاتحاد واستعادة ما ضاع منهم ، ولكن كلمتهم ظلّت متفرقة ، حتى انتهى تصارع الإمارات الأسبانية فيما بينها ، واستطاع الملك ألفونسو السادس أن يجمع أطراف ملك أبيه ، فاستولى على لبون بعد وفاة أخيه سانشو الصغير ، وانتزع غاليسيا ، وبسط سيطرته على الأقاليم الواقعة وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر تاجه ، واستطاع أن يجمع كلمة أرجونه ونافار على نبذ الخلافات واستئناف حركة الاسترداد ، واتجه إلى البابا لتجنيد القوى المسيحية خلفه ، وفى سبيل ذلك ألغى الطقوس القوطية من الكنيسة الأسبانية ، وأدخل محلها الطقوس الرومانية ، ووضع الكنيسة الأسبانية تحت لواء روما ، فأصبحت حركة الاسترداد فى أسبانيا على هذا النحو جزءًا من الحركة الصليبية التى كانت فى ذلك الحين تظهر فى الغرب ، وظهر ذلك . بصورة جلية حين دعا البابا أوربا إلى إيفاد حملة صليبية إلى الشرق ، وأحب بعض الفرسان والأمراء الأسبان الاشتراك فيها ، فأبى البابا ، لأنهم يحاربون بالفعل فى الأندلس ! فهم جزء من الجهود الصليبية ! .

على أن ألفونسوا السادس مع ذلك كان محكومًا بظروف عصره ، وهو العصر الإقطاعى فى أوزوبا ، حيث الحرب حرب قلاع وحصون ، تحتمى داخلها الحاميات أو تنطلق منها الجيوش . ولم يكن فى مقدوره محاصرة الحصون الإسلامية فى الأندلس دفعة واحدةً ، فكان يفرض عليها الحصار واحدًا وراء الآخر ، بينما يتلف جنوده الزرع والضرع حول الحصن ، حتى يضطر الأمير المسلم إلى دفع الجزية أو يرفع راية التسليم ! . وكان من أثر هذه السياسة أن سقطت مدينة

طليطلة ، فقد أثقل صاحبها بالجزية ، وانتزع منه بعض الحصون حوله ، ثم انقض على المدينة وضرب عليها حصارًا طويلاً ، فسقطت فى يده فى ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ .

وقد كان لسقوط طليطلة دوىّ عظيم فى ذلك الحين . فقد كانت عاصمة القوط القديمة ، وكان فتحها إرهاصًا بعودة ملك القوط القديم ، وطرد المسلمين من الأندلس . وقد سما مركز ألفونسو السادس فاتخذ لنفسه لقب إمبراطور ، وأصبح يكاتب أمراء المسلمين باسم ، الإمبراطور ذى الملتين ، الملك المفضل أذفونش بن شانجه » (الفونسو بن سانشو) ، وتفتحت أمامه الآمال ، فاستولى على بلنسية ، وضرب الحصار على سرقسطة وحاصر غرناطة ، واستولى على حصن لييط Aledo بإقليم مرسية ، وسيطر على المرية ، وبات الناس يعتقدون أن حركة الاسترداد سوف تمضى كالتيار الجارف تقتلع فى طريقها كلّ شىء ! .

٢٨ – وثبة المرابطين فى الأندلس

- التوسع الاسلامى فى الصحراء الكبرى وغربى أفريقية .
- الملثمون تحت قيادة قبيلتى لمتونة وجدالة .
- نشأة الرباط الأول فى السنغال على يد عبد الله بن ياسين .
- الدور الصحراوى من توسع المرابطين واتخاذ أجمات عاصمة .
- تولية يوسف بن تاشفين على المغرب ٤٥٣ هـ واتخاذه مراكش عاصمة .
- إمبراطورية يوسف بن تاشفين الكبرى .
- دعوة المرابطين لإنقاذ الأندلس .

٢٨ – وثبة المرابطين فى الأندلس

كادت حركة الاسترداد تقتلع الأندلس على يد ألفونسو السادس ، لولا أن ما جرى فى المشرق من ظهور السلاجقة ضِد البيزنطيين ، وقلبهم موازين القوى – قد حـدث فى المغرب بصورة متشابهة ! . فنى ذلك الحين كانت تظهر فى المغرب الإسلامى قوّة أخرى قدّر لها أن تلعب دورًا تاريخيًّا هامًّا فى تجديد قوة الإسلام فى مواجهة أوروبا كما فعلت من قبل قوة الأغالبة ، وبعدها قوّة الفاطميين ، وهذه القوة هى قوة الملثّمين التى تستحق اهتمامًا خاصًّا لعظمة دورها .

وكان الإسلام – كما رأينا فى الصفحات السابقة – قد فاض فيضانًا عامًّا فى المغرب الأقصى حتى بلغ مستوى مدينة الرباط الحالية ، وأخذ يتوسّع فى الجنوب بطريق الدعوة حتى وصل إلى الصحراء فى شكل المذهب الخارجى الأباضى ، وفى شكل المذهب الزيدى الإدريسى القريب من أهل السّنة ، ثم فى صورته الفاطمية ، وأخيرًا فى شكل المذهب السّنى المالكى ، وبذلك حمل إلى الصحراء صدى المذاهب الدينية التى انتشرت فى الشمال . وكان من القبائل التى اعتنقت الإسلام ما عرفت باسم « قبائل الملثّمين » (لاتخاذها القناع أو اللثام شعارًا يميزها عن سائر قبائل المغرب) وهى التى تكوّنت منها دولة المرابطين .

وكانت هذه القبائل بعد اعتناقها الإسلام فى القرن الثالث الهجرى ، قد اتحدت بقيادة أقوى قبيلة فيها ، وهى قبيلة لمتونة ، وأخذت تتوسع فى الجنوب على حساب مملكة غانا ، لنشر لواء الإسلام ، حتى وصلت قريبًا من منحنى النيجر ، ووضعت يدها على مدينة أوداغوشت ، واتخذتها عاصمة لدولتها ، ولكن الغانيين تمكنوا من طردهم منها ، وقد حاولت الاستيلاء عليها مرةً ثانية سنة ٤٣٢ هـ ولكنها فشلت ، فضاعت الزعامة من يد لمتونة وانتقلت إلى يد رئيس قبيلة جدالة ، فكانت تلك هى بداية الطريق إلى قيام دولة المرابطين .

فنى ذلك الحين كان أمير جدالة هو يحيى بن إبراهيم الجدالى ، وهو أمير مستنير كان يعرف انقطاع الصحراء عن مصادر العلم والعلماء ، فاستقدم فقيهًا مالكيًّا يعلم الناس حقيقة دينهم . وكان هذا الفقيه هو عبد الله بن ياسين الذى قدّر له أن يكون المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين .

فقد قدم ابن ياسين إلى « أزقى » مركز لمتونة ، ولكن شروحه وإصلاحاته ألّبت عليه بعض

الفقهاء المحلّيين والأعيان ، وطردوه وأتباعه ، فوقع اختيارهم على مهجر بعيد فى حوض السنغال الأدنى . اتخذوا فيه « رباطًا » هو عبارة عن حصن ، أو مكان محصّن ، للعبادة والعلم والتدريب على الفروسية ، وكان المؤسسون تسعةً : اثنان من لمتونة ، وسبعة من جدالة ، بالإضافة إلى عبد الله بن ياسين . ولكن بعد بضعة سنوات كان الناس قد تسامعوا بقوّة هذا الرباط ، فتوافدوا عليهم ، حتى بلغوا مئات ، ثم بلغوا ثلاثة آلاف . وعندئذ بدأ دور إدخال العالم الخارجى فى الرباط ، وبدأت بالتالى مرحلة الفتح والتوسع ! .

وترجح الدراسات التاريخية أن عبد الله بن ياسين اتجه جنوبًا لتصفية الخطر الغانى من وراء ظهره قبل أن يتجه إلى الشمال لتوحيد قبائل الملثمين ، وسعيًا وراء نصر يسهل له مهمة جمع القبائل تحت رايته ، وقد تمكن بالفعل من مهاجمة غانة ، واسترداد أوداغوشت بعد معركة قاسية سنة ٤٤٧ هـ وكانت أوداغوشت ضمن مملكة غانة ، ولكن الإسلام كان دينها ودين قومها ، وهى وطن عبد الله بن ياسين نفسه . ثم أوغل جنوبًا فى بلاد السودان الغربى ، فدخلت بلاد التكرور Tucolor فى حلف معه .

وبعد هذا النصر فى الجنوب ، توجّه عبد الله بن ياسين إلى توحيد قبائل الملّثمين طوعًا أو كرهًا ، فحارب جدالة وأدخلها فى الدعوة كرهًا . وسارعت لمتونة وغيرها من القبائل إلى الانضمام للنظام الجديد . وبذلك استكمل النظام عصبيته وكانت لمتونة لها الصدارة ، ولذلك كانت الدولة تسمى باسم الدولة اللمتونية وكان ذلك حوالى سنة ٤٤٨ - ٤٤٩ هـ .

وفى السنوات التالية أخذت دولة المرابطين تتسع شمالاً مقتربة من الأندلس فأغارت على سجلماسة بدعوة فقهائها ، ونازلت أميرها وهزمته ، وفى الطريق إلى سجلماسة أخذت درعة وشمل تقدمها وادى السوس قاصدة عاصمتها الاقتصادية « تارودانت » فاستسلمت ثم تقدم المرابطون عقب ذلك إلى إقليم وادى تنسفت قاصدين مدينته الأسطورية الكبرى « أجمات » وقد فرّ أميرها إلى « تادلا » فاقتحموها سنة ٤٤٩ ، واتخذوا من « أجمات » هذه عاصمة للدولة الجديده فكانت هى العاصمة الأولى فى الشمال ، وكانت علامة على انتهاء الطور الصحراوى من توسع المرابطين .

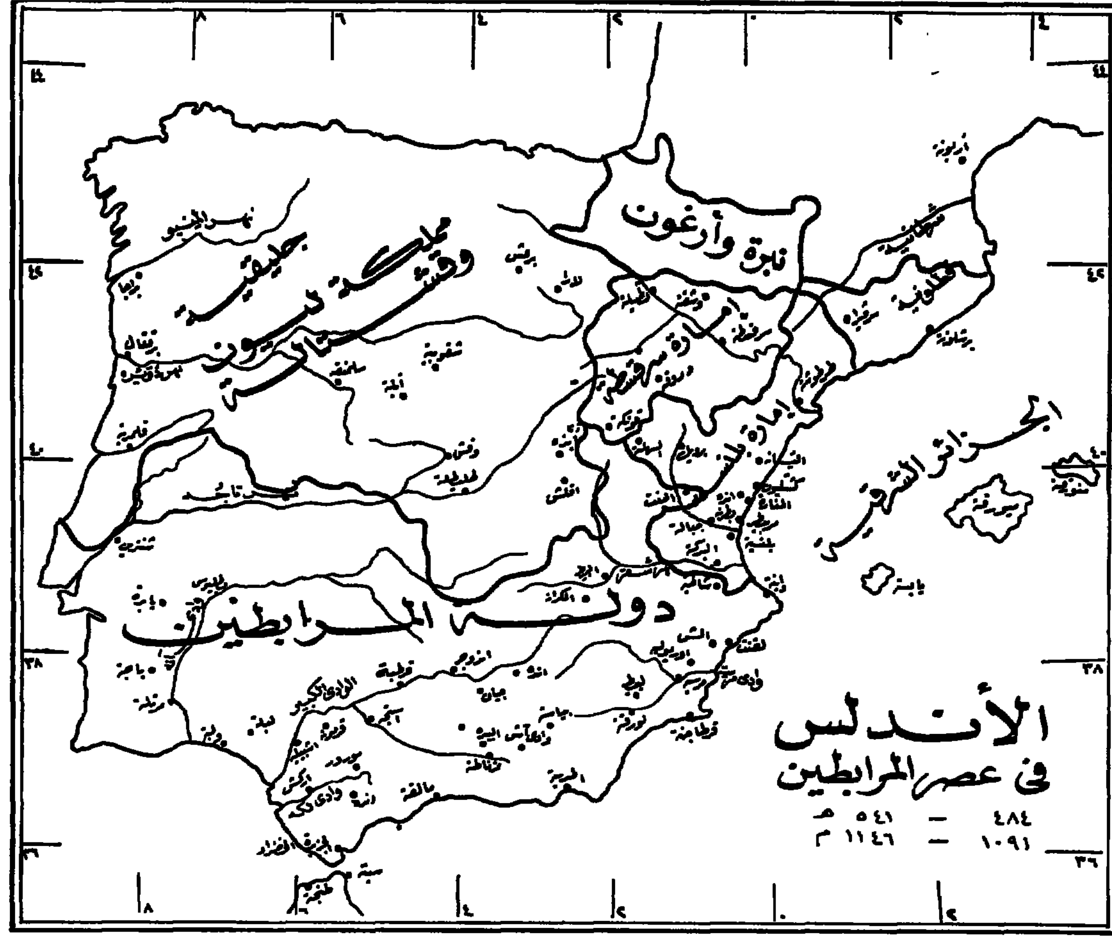
وقد استجاب المرابطون بعد ذلك لمنطق الوضع الجديد ، فغيّروا طريقتهم فى الحرب من الإبل إلى الخيل ، وأخذوا يشيّدون المدن ، وواصلوا الزحف شمالاً للاشتباك مع قبيلة برغواطة القوية ، فدفع عبد الله بن ياسين حياته سنة ٤٥٢ فى ميدان القتال وتولّى مكانه سليمان بن عدو ، الذى استشهد أيضًا فى القتال فجمع أبو بكر بن عمر رئيس الملثّمين فى يده دفّة الشئون السياسية والدينية

(وكانت السلطتان منقسمتان حتى ذلك الحين) ، تم استخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٢ هـ على الشمال ، وتوجه بنفسه إلى الجنوب للجهاد فى السودان الغربى . ثم ما لبث أن تنازل له عن ولاية المغرب ليفرغ للسودان . وبذلك أصبح يوسف بن تاشفين أميرًا على المغرب بصفة رسمية سنة ٤٥٣ هـ وبدأ ميزان القوى يتغيّر فى المغرب .

كانت قبائل برغواطة فى ذلك الحين تنتشر على ساحل المحيط الأطلنطى ، وتسيطر على الطرق التى تؤدى إلى إقليم طنجة . كما أسست إمارة بمنطقة سبتة وطنجة بعد سقوط الخلافة الأموية . وقد تمكن يوسف بن تاشفين من احتلال مناطقها على الساحل وفى الجنوب ، واختطّ فى سنة ٤٥٤ هـ مدينة مراكش عاصمة جديدة لملكه ، وأخذ يتجه لإخضاع الشمال .

وقد قامت خطة يوسف بن تاشفين على أساسين : الأول مواجهة الأعداء جميعًا دفعةً واحدةً ! ، لأنه حتى إذا انصرفت قوّاته إلى ناحية واحدة ، انبعث الخطر من النواحى الأخرى . ولهذا الغرض قسم القيادة على فرسان قومه الذين يثق بهم . أما الأساس الثانى ، فهو ما عرف باسم تكتيك « التقرّى » ، ويقوم على عدم الوقوف أمام حصار مدينة معينة ، والاكتفاء بالمكاسب الممكنة ، وعدم إراحة الخصم . وهذا التكتيك مأخوذ من أسلوب الصيد عندما يراد أخذه بعد إجهاده ، وهو من الأساليب التى تطول فيها العمليات ، ولكن نتيجته محققة . وباختصار شديد ، فقد بدأت العمليات عام ٤٥٦ هـ فى إقليم فازاز بمحاصرة قلعة مهدى (تامهاديت) ثم سقطت فاس عام ٤٦٢ هـ ، ووقعت الحصون التى تحكم منطقة غمارة عام ٤٦٥ هـ ، ووقعت منطقة تازا فى شرقى فاس عام ٤٦٧ هـ .

وعلى هذا النحو تمّ ليوسف بن تاشفين الاستيلاء على كل المغرب الأقصى الشمالى والجنوبى ، الأمر الذى دعاه إلى اتخاذ لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » ثم أخذ يتطلع إلى مدّ حدوده إلى الجزائر ، فغزا تلمسان سنة ٤٧٢ هـ ، وفتح الريف فى العام التالى ، وفى عام ٤٧٤ دخل مدينة الجزائر بعد أن قطع فى طريقه وهران وتنس وجبال الونشريش ووادى الشلف . ووصل إلى حدود مملكة بجاية . وبذلك حقق يوسف بن تاشفين ما وقف دونه المسلمون الأوائل ومن قبلهم الرومان . وأهل البلاد أنفسهم ! ، وصاغ وحدة إسلامية تمتد إلى ضفاف نهرى السنغال والنيجر ، ثم فى أرجاء المغرب الشمالى من الجنوب إلى الشمال ، ثم فى المغرب الشمالى من غربية إلى شرقية ! . وقد انفرد يوسف بن تاشفين بالفخر وحده لهذا العمل على رأس شيوخ المرابطين ، حيث قاد ووجّه منذ عملية تامهديت إلى عملية الجزائر ، وأقام مجتمعًا جديدًا فى هذه المناطق جميعها على نمط المثال


الأندلس
فى عصر المرابطين
٤٨٤ — ٥٤١ هـ
١٠٩١ — ١١٤٦ م
دولة المرابطين
مملكة ليون وقشتالة
جليقية
نابرة وأرغون
إمارة سرقسطة
إمارة بلنسية
الجزائر الشرقية
قرطبة
قرطاجنة
طليطلة
ميورقة
يابسة
سبتة

(خريطة رقم ١٨)

المالكى ، الأمر الذى رفع المالكية من مستوى المذهب إلى مستوى الدين ، وأثبت مدى استجابة المغرب لدواعى حضارته الإسلامية ، وإمكانياته المدخرة فى خدمة الإسلام .

على كلّ حال فبوصول الدولة المرابطية إلى هذا الامتداد على طول ساحلى البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى ، تكون قد تهيأت تمامًا للقيام بدورها فى الصراع مع أوروبا .

ولعل القارئ قد لاحظ كيف كانت الأقدار تمهّد لهذا اللقاء بين المرابطين والممالك الأسبانية ، منذ سقطت الأندلس فى هوّة الانقسام والصراع الانتحارى ، وتمزقت بين ملوك الطوائف . فبينما كانت حركة الاسترداد المسيحى للأندلس تجرى على يد سانشو الكبير ثم على يد ولده فرناندو الأوّل ، ومن بعده ألفونسو السادس – كان عبد الله بن ياسين يظهر بين قبائل الملثّمين فى « أزقى » مركز قبيلة لمتونة ، ثم يخرج منها ليؤسس رباط السنغال ، ثم يتوسع من هذا الرباط جنوبًا فشمالاً ، ويتولى القيادة بعده يوسف بن تاشفين ، فيمدّ حدود الدولة شمالاً وشرقًا فى الوقت الذى كان ألفونسو السادس يقوم بهذا العمل على حساب الدويلات الطائفية جنوبًا ! . فكأن كلاً من الخصمين كان يقترب من الآخر على غير تدبير ! حتى إذا ما استكمل يوسف بن تاشفين فتوحاته شرقًا فى الجزائر حتى وجدة سنة ٤٧٤ هـ ، كان ألفونسو السادس يثب وثبته التى استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ . وبذلك أصبح الخصمان وجها لوجه ! .

ذلك أن سقوط طليطلة كان نذيرًا لكل ملوك الطوائف بالمصير الذى سوف ينتهون إليه . وفى الوقت نفسه ملأ النفوس رعبًا « حتى انقطع الرجاء من استيطان الأندلس » ! . وعندئذ هبّ الجميع للبحث عن منفذ ، وتركزت الأبصار على المرابطين طلبًا للإغاثة .

ويختلف المؤرخون فى تحديد من طلب الإغاثة : هل هم الفقهاء أم الأمراء ؟ فترى بعض المصادر أن المعتمد بن عباد ، أمير أشبيلية ، حين أدرك ألا قِبَلَ له بالوقوف فى وجه الزحف المسيحى الذى يقوده ألفونسو السادس ، قرّر الاستعانة بالمرابطين . وقد حذّره ابنه الراشد من أن يطمع المرابطون فى ملكه وينتزعونه منه ، فردّ قائلاً : « لأن أكون سائق جمال فى صحراء أفريقية ، خير من أن أرعى الخنازير فى قشتالة » .

على أن المصادر الأخرى تذكر أن طلب النجدة إنما فرضته الجماهير الأندلسية على حكامها ، فتبناه الأمراء مداراة لجماهيرهم . إذ تروى أن اجتماعًا عقد فى قرطبة دعا إليه فقهاء الأندلس ، وقرّر الاستعانة بالمرابطين . وكلّف الفقهاء أبا الوليد الباجى بالطواف على أمراء الطوائف يدعوهم إلى هذه الفكرة . وكان ضغط الفقهاء أمرًا لا يسهل التغاضى عنه .

على أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من دعوة المرابطين للقدوم إلى الأندلس ، وكانوا يحتجون بأن « السيفين لا يجتمعان فى غمد واحد » - أى أنه لا يمكن اجتماعهم مع المرابطين فى غمد واحد هو الأندلس . ونصحوا المعتمد بن عباد بمداراة ألفونسو ومصانعته وإجابته إلى ما يطلب ! .

ويذهب بعض المؤرخين فى تفسير هذا الموقف إلى أن الإحساس بالوطن الأندلسى كان يجمع بين المسيحيين والمسلمين برغم اختلاف الدين ! ويرون أن هذا الشعور هو الذى دفع الأندلسيين إلى عداوة المرابطين . وهؤلاء ينسون أن غرض ألفرنسو السادس كان طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد شبه الجزيرة الأيبرية من أيديهم ، وبالتالى لم يكن هناك مثل هذا الإحساس ليربط بين الفريقين ، ولكن الاستعانة بالممالك الأسبانية كان أمرًا اعتياديًّا من جانب أمراء الطوائف فى ذلك الحين ، بل إن المعتمد بن عباد سبق له أن حالف الملك ألفونسو ضدّ زميله ملك طليطلة ! على أنه بعد أن أحسّ بأن ملكه ذاهب إلى يده ، فضّل -كما قال - « أن يكون راعى غنم فى أفريقية ، ولا يرعى الخنازير فى قشتالة » .

وعلى كل حال ، فإن ضغط الفقهاء نجح فى حمل أمراء الطوائف على الاستعانة بالمرابطين ، وكان الذين أوفدوا وفودهم سنة ٤٧٩ هـ إلى يوسف بن تاشفين من الأمراء أربعة فقط ، هم : المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، وابن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، وأخوه صاحب مالقة .

وعندما وصلت الدعوة إلى ابن تاشفين استشار إخوته وبنى عمّه ، فأجمع رأيهم ، الذى كان أشبه بفتوى دينية ، على أن « من واجب المسلم إغاثة أخيه المسلم » . ثم استشار ابن تاشفين فقهاء المغرب فأفتوا « بأن مجاهدة الإفرنج فريضة » . وبذلك بدأ فصل جديد فى الصراع بين العرب وأوروبا وهو فصل مجيد .

٢٩ – معركة الزلاقة

- عبور المرابطين إلى الأندلس ١٠٨٦ م .
- أهمية دولة المرابطين فى التاريخ الاسلامى .
- احتشاد أوروبا ضد يوسف بن تاشفين .
- معركة الزلاقة ١٠٨٦ م .
- ميزان القوى فى الأندلس بعد الزلاقة .
- غزوة لييط ١٠٨٨ م .
- إنهاء حكم الطوائف وتوحيد الأندلس .
- هزيمة القوات القشتالية عند حصن الحدود .
- الصراع فى شرق الأندلس وظهور الخطر على بلنسية .

٢٩ - معركة الزلاقة ١٠٨٦ م

كان عبور المرابطين إلى الأندلس عام ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م حدثًا من أحداث التاريخ الكبرى، وعلامةً بارزةً فى تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا، إذ سينهى عهدًا من التمزق والضعف والاضمحلال فى الأندلس امتدّ نحو قرن (٨٠ عامًا)، ويعيد الأندلس إلى سابق عهدها، قلعةً عربية موحدةً تقف فى وجه أوروبا على مستوى متكافئ، وتنتزع منها الاحترام، وتكيل لها الضربات وتلحق بها أفدح الهزائم.

وتعتبر قوة المرابطين من قوى التجديد فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين. وهى تمثل فى المغرب الإسلامى مامثلته دولة السلاجقة فى المشرق الإسلامى من نهضة وبعث، وتتفق فى ظهورها مع ظهور تلك الدولة، وقد لعبت نفس الدور الذى لعبته أيضًا، مع فارق واحد، هو أن دولة السلاجقة حاربت إمبراطورية هرمة، هى الإمبراطورية البيزنطية حينما كانت فى إحدى مراحل ازدهارها، فقربت نهايتها، بينما حاربت دولة المرابطين قوة بازغة ودولة فتيةً هى قشتالة، التى هدّدت بإنهاء صفحة المسلمين فى الأندلس، فأزالت خطرها، وأضعفت قوتها، ثم تصدّت للدولة الأخرى المسيحية التى رفعت لواء الزعامة، وهى أرجونة، فألحقت بها الهزائم، وأعادت الثقة للمسلمين فى قدرتهم على إحراز الانتصارات على أوروبا مرةً أخرى، بعد أن نسى الناس هذه الانتصارات فى ظل الانقسام وملوك الطوائف.

ولعل القارئ قد لاحظ من عرضنا السابق لنشأة دولة المرابطين أن هذه الدولة قد دانت بمبدأين هامّين هما: مبدأ الوحدة، ومبدأ الجهاد. وبالنسبة للمبدأ الأول فقد حققت هذه الدولة ماوقف دونه المسلمون الأوائل، ومن قبلهم الرومان. وأهل المغرب أنفسهم، إذ صاغت وحدةً إسلاميةً تمتدّ إلى ضفاف نهرى النيجر والسنغال جنوبًا، وإلى ساحل المحيط الأطلنطى غربًا. وتشتمل على أرجاء المغرب الشمالى من غربية إلى شرقية. أما بالنسبة لمبدأ الجهاد، فنحن أمام دولة قدست الرباط منذ نشأتها، وغيرت بيئتها عدة مرات، من الصحراء إلى جبال المغرب، ثم إلى جبال الأندلس، بكلّ ما كان يتطلبه هذا التغيير من تكيّف مستمر، وكان الجهاد ركنًا من أركان

مذهبها ، وقد أملى عليها مواقفها السياسية جميعها . وهو مصدر إعجاب المؤرخين بها ، ومصدر إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء .

وقد كان مبدأ الجهاد الدينى بالشكل الذى دانت به دولة المرابطين ، من الأسباب التى جعلت هذه الدولة امتداداً للدولة الإسلامية الأولى ، التى اتصفت بالدين والطهر ؛ إذ اتصف ملوك دولة المرابطين بالتقوى والورع والخشوع والأقبال على التفقه فى الدين ، والاعتماد على الفقهاء والقضاة اعتمادًا عظيمًا ، وتوسعهم بالتالى فى تطبيق مبدأ الشورى . وقد بلغ من استقامة هؤلاء الملوك واستقامة دولتهم ، أن أطلق بعض الباحثين على دولة المرابطين اسم « الدولة القديسة » ولا يوجد من أرّخ لها دون أن يعجب بها فى قرارة نفسه ويحمل لها الاحترام والإعجاب والتقدير .

وقد رأينا كيف فرضت الجماهير الأندلسية على أمرائها الاستعانة بالمرابطين للتصدى لخطر قشتالة ، وكيف انقسم هؤلاء الأمراء فى شأن هذا الاستدعاء ، خوفًا على إماراتهم من الوقوع فى النهاية تحت سيطرة المرابطين . وقد حسم المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية هذه القضية بكلمته المشهورة : « لأن أكون سائق جمال فى صحراء أفريقية خير من أن أرعى الخنازير فى قشتالة » ، وكيف اتفق أصحاب بطليوس وغرناطة ومالقة معه على دعوة يوسف بن تاشفين .

على أن هناك بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى أن يوسف بن تاشفين كان يعدّ العدّة للتدخل فى الأندلس حتى ولو لم يستنجد به ملوك الطوائف ! . ولا شك أن فكرة الجهاد الدينى التى كانت تمتلئ بها جوانح يوسف بن تاشفين كان من شأنها أن تنقل جيوشه إلى الأندلس ، سواء استدعاه ملوك الطوائف أم لا ، فقد نقل عنه قوله : « لئن عشت ، لأعيدنّ جميع البلاد التى ملكها الروم إلى المسلمين ، ولأملأنّها عليهم خيلاً ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولاعلم عندهم برخاء العيش » (والروم كلمة كان يطلقها المسلمون على الأوربيين فى المشرق والمغرب على السواء) .

ولهذا السبب حين أخذ المعتمد بن عباد يماطل فى تنفيذ الاتفاق الذى أبرمه مع يوسف بن تاشفين ، وكان يقضى بتسليم المرابطين « الجزيرة الخضراء » لتكون قاعدة لهم — فوجئت قوات أشبيلية بقوات المرابطين تحدق بهم بعد عبور المضيق ، وتستولى على الجزيرة ! . وعندما عارض الراضى بن المعتمد فى ذلك العمل ، ردّ عليه داود بن عائشة قائد الجنود : « وعدتمونا بالجزيرة الخضراء . ونحن لم نأت لأخذ بلد ، وإنما أتينا للجهاد . فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا ، وإلاّ فالذى نقدر عليه نصنع » ! . فلم يجد أمير أشبيلية بدًّا من التسليم بالأمر الواقع .

على هذا النحو اتخذت طلائع المرابطين من الجزيرة الخضراء معسكرًا كبيرًا وقاعدة عسكرية

تتدفق عليها قواتهم ، ثم اتجهت بقيادة ابن سليمان داود بن عائشة صوب أشبيلية ، فانضمت إليها قوات المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وبعض قوات ابن صمادح صاحب المرية ، وصاحب غرناطة . والثغر الأعلى ، وابن ذى النون ، وابن عزون « حتى لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلاّ من بادر وأعان وخرج وأخرج » .

ومن الطريف أن منظر المرابطين فى البداية كان صدمة لأهل الأندلس المتحضرين الذين يعيشون عيشة مترفة ، والذين لم يرقهم من قبل خشونة وجلافة ألفونسو السادس وجنوده ، وهزأوا بقذارة أظفاره ورائحة ثيابه . فعندما هرعوا لرؤية المرابطين من كل أفق ، تعجبوا لهيئاتهم . واحتقروا زيهم ونغماتهم ، واستصغروهم ، وقدروا أنهم سيكونون « طعما للسيوف وغرضًا للحتوف ، وهدفا للرماح ونهبًا للسلاح » . وفى الوقت نفسه لم يرق للمرابطين البذخ الذى يعيش فيه الأندلسيون ! فقد وصف يوسف بن تاشفين الترف الذى يعيش فيه المعتمد بن عباد ، وقصوره الكثيرة الفخمة بأنه « مضيع لما فى يده من الملك ، لأن هذه الأموال بهذا القدر ، قد أخرجت فى الترهات ، وإن هذا لمن أفحش الاستهتار » ! مع أن المعتمد بن عباد كان أفضل الملوك ، وكان مفخرة عصره ثقافةً وفروسيةً ، وقد دلّ على بعد نظره بالاستنجاد بالمرابطين .

على أن صدمة هذا اللقاء بين مجتمع البداوة والحضارة ، لم تمنع الجميع من الشعور بالحماس لعودة الوحدة إلى صفوف المسلمين ، ووصْل ما انقطع من تاريخ الأندلس ، منذ وفاة المنصور بن أبى عامر الذى ألقى الفزع واليأس فى صدور جميع الملوك الأسبان .

وأحسّ المعسكر المسيحى بالخطر ، وكان ألفونسو السادس يشدّد الحصار فى ذلك الحين على سرقسطة ، فاضطر إلى رفع الحصار ، وبدأ يحشد القوى الأوروبية كلّها وراءه ، ودوت أصوات استغاثته فى أرجاء أوربا ، فرفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم ، وخفّ الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرجونة وغاليسيا وليون وبسكونيا واستورياس ورفع ألفونسو الحصار عن بلنسية وأخذت قواته تتقدم جنوبًا لملاقاة المسلمين .

وهكذا كانت قوى العرب وأوروبا تحتشد لهذه المعركة التاريخية العظيمة التى جرت فى رجب سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦ م ، ودخلت التاريخ تحت اسم « معركة الزلاقة » . ويتفق المؤرخون على أن ألفونسو السادس هو الذى بدأ بالهجوم ، اعتدادًا بقوته من جهة وليأخذ العرب على غرّة من جهة أخرى . وكانت قوات المسلمين قد اتجهت إلى بطليوس وعسكرت فى منطقة يقال لها « فحص الزلاقة » وهو اسم حرفه المسلمون بتقديم اللام على القاف ؛ إذ أصله الأندلسى « أزقالة » ويسميه

الاسبانيون أيضًا « سكرالياس » وهو اسم يحمل معنى بلاط الشهداء – كما يقول الدكتور محمد عبدالهادى شعيرة – وقد انقسمت القوات الإسلامية إلى معسكرين : معسكر الأندلسيين ، ومعسكر المرابطين ، وفقًا لأمرائهم كما كان المتبع .

وكانت خطة ألفونسو التخلص أولاً من الأندلسيين ، الذين كان يراهم أضعف الطرفين الحليفين ، فإذا قضى عليهم أضعف قوة الطرف الثانى المتمثل فى المرابطين ! وبالفعل استطاع أن يلحق الهزيمة بالقوات الأندلسية وأخذت تتقهقر إلى أسوار بطليوس ، فأرسل إليها يوسف بن تاشفين فرقة من القوات المرابطية بقيادة داود بن عائشة لشدّ أزرهم ، كما أرسل فرقةً أخرى بقيادة سير بن أبى بكر تتكون من جنود زناتة ومغراوة ، وأخيرًا سار بنفسه على رأس جيش لمتونة ، فهاجم معسكر العدو من الخلف ، وأضرم فيه النار ، فاضطرت قوات ألفونسو إلى الارتداد لإنقاذ المعسكر من الوقوع فى يد المرابطين ، وعندئذ انقلب الأندلسيون من الفرّ إلى الكرّ ، وأصبح جيش ألفونسو بين شقى الرحى .

وقد لعب الفن الحربى المرابطى دوره فى تقرير مصير المعركة . فبينما اعتمد جيش ألفونسو على الفرسان فى الزرد والدروع ، تحركهم روح الشجاعة الفردية والفروسية – اعتمد المرابطون على حيل حربية أخرى ، فقد أقاموا صفًّا من الإبل بمثابة درع يتقدم قواتهم المهاجمة ، ويوقع الرعب فى صفوف الأعداء ، ويثير الاضطراب فى خيلهم . واستعانوا بالقذائف من السهام والرماح يصوبونها إلى الخيول فتسقط بالفرسان ، حتى صار كل فارس أوروبى مشغولا بفرسه يجر عنانه ، والخيول منتصبة على أقدامها الخلفية !. وقد روى الأستاذ عبدالله عنان ، الذى شهد ميدان المعركة حديثًا ، أنه لكثرة ما أطلق من سهام فى أثناء المعركة ، مازال الكثير منها باقيًا إلى الآن ! بحيث يستطيع أى سائح إذا حفر الأرض بيديه أن يحصل على سهم . وقد وقع عبدالله عنان فعلا على بعض هذه السهام فى أرض المعركة .

أما الحيلة الأخرى التى استخدمها المرابطون فهى الطبول ! فيذكر المؤرخ بيدال Pidal أنهم استعانوا بطبول هائلة لم تكد تدقّ حتى صمت الآذان بدويها المزعج ، وألحقت الرعب فى قلوب الفرسان والخيل على السواء !. ولاشك أنهم أقتبسوا فكرة الطبول من القبائل الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال كما يرى بعض المؤرخين ؛ لأن الطبول تلعب فى الفن الحربى عند الزنوج دورًا كبيرًا .

وقد انتهت المعركة بهزيمة جيش ألفونسو السادس ، وأصيب ألفونس نفسه فى إحدى ركبتيه ،

وقتل الكثيرون ، وهرب إلى تل قريب نحو ٥٠٠ فارس كلهم جرحى ، فقدوا خيولهم ، وعليهم الدروع وألواح السيقان تثقل حركاتهم ولا يستطيعون خلعها والفرار خفافًا خوفًا على حياتهم ! – بينما كان المسلمون يجمعون الغنائم تحت أبصارهم ! . وأخيرًا تسللّت فلول الجيش القشتالى تحت جنح الظلام ، مخلفةً للمرابطين نصرًا عظيمًا .

ولم يتتبع يوسف بن تاشفين الجيش القشتالى لأسباب وقف عندها المؤرخون بالجدال ، ولكن من الواضح أن الأحوال فى المغرب حتمت عودته ، بسبب وفاة أمير الملثّمين الأكبر أبى بكر بن عمر . فقد كان يوسف عامله على المغرب ، وهو أحق بأن يخلف أبا بكر بن عمر فى زعامة دولة المرابطين .

ترتبت نتائج هامة جدًّا على نصر الزلاقة كان لها تأثيرها فى مجرى الصراع المقبل بين العرب وأوروبا . فقد استرد الأندلس ثقته بنفسه ، وأحس بأن أيام المنصور بن عامر الزاهرة قد عادت من جديد ، وفى الوقت نفسه استقرت هيبة الملثمين فى نفوس الناس ، بعد أن كانوا يستهينون بهم فى البداية ويتوقعون أن يصبحوا طعمًا للسيوف . بل استقرّت هيبة المرابطين أيضًا فى نظر الأسبانيين ، « فأشربوا منذ تلك الواقعة خوفًا وانكماشًا » كما تدعمت هيبتهم أيضًا فى المغرب ، حيث قرئت رسائل النصر من فوق منابر المغرب حتى مدينة المهدية والقيروان . وترددت أصداء النصر فى المشرق أيضًا ، إذ يقال ان تهنئةً وصلت من الإمام الغزالى . وقد حمل يوسف بن تاشفين بعد هذا النصر لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » ، واستتبع هذا اللقب الاتصال بالخلافة العباسية طلبًا لصحة شكل الإمارة من الناحية الشرعية ، لأن المرابطين كانوا مالكيّة يحتم مذهبهم استمداد الشرعية من الخلافة . وقد وصلت فتوى من الإمام الغزالى بأنه من حق كل أمير داعٍ إلى الخير العام أن يعتبر نفسه نائبًا عن الخلافة .

على كل حال فقد عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب ، بعد أن جمع أمراء الأندلس غداة الزلاقة فى مجلس عام ، وأوصاهم بالاتفاق والائتلاف وتوحيد الكلمة ، لأن المسيحيين لم يتجرأوا على المسلمين « إلا للذى كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض » .

كما ترك بالأندلس ثلاثة آلاف مقاتل للمرابطة فى الثغور وحماية الأندلس . وأسند قيادة هؤلاء الجنود إلى أحد قادة الزلاقة وهو سير بن أبى بكر .

على أن الأمور أخذت تسير بعد ذلك فى الأندلس وفقًا لميزان القوى الجديد الذى أحدثته عودة المرابطين . فصحيح أن نصر الزلاقة كان نصرًا ساحقًا ، ولكن عودة يوسف بن تاشفين إلى

المغرب جعلت هذا النصر غير حاسم . ويجب علينا أن نتذكر أن عبور المرابطين إلى الأندلس لم يكن بغرض الفتح ، وإنما كان بغرض الإنقاذ . وكان الاتفاق بين ملوك الطوائف ويوسف تاشفين على أن يأتى بغرض الجهاد فقط ، « وألا يتعرض لأحد من رؤساء الأندلس ، وألاّ يقبل من رعاياهم أحدًا ولا قولا ولا يأخذ منهم بلدًا » ، ثم كان على يوسف بن تاشفين التعجيل بالعودة إلى المغرب لظروف وفاة أمير الملثمين الأكبر .

وقد ترتب على ذلك أن وجود المرابطين فى الأندلس بعد الزلاقة لم يكن بالحجم أو الثقل الرادع للممالك المسيحية فى الشمال ، فى الوقت الذى أحست فيه هذه الممالك بالخطر على نفسها ، وأخذت تنظم قواها من جديد لإزالة آثار الزلاقة ، بينما استنام ملوك الطوائف اعتمادا على المرابطين ، وانصرف كل أمير إلى بلده ، وانصرفوا أيضًا عن الجهاد إلى منازعاتهم الإقليمية . واضطر قائد جيوش المرابطين فى الأندلس سير بن أبى بكر إلى الكتابة إلى يوسف بن تاشفين يشكو من الأوضاع التى يعانيها الجنود المرابطون فى الثغور ، ويقول : « إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق عيش وأنكده ، وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه » ! . وأصبحت البلاد فى الواقع فى حالة لاتمكنها من الدفاع عن نفسها .

فى تلك الظروف أخذ ألفونسو السادس يعاود الكرة من جديد . فخرج غازيًا حتى وصل إلى قرب أشبيلية ، وأخذ الأسبان فى حصن لييط ، المعروف فى اللغة الأسبانية باسم حصن أليدو ، وهو واقع فى أرض الإسلام بين مرسية ولورقة – يعيثون فى منطقة مرسية ، ويهددون المعتمد بن عباد فى أشبيلية من الشرق .

وهكذا عادت الظروف تحتم من جديد عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس مرّةً أخرى . وكان المعتمد بن عباد هو الذى استدعاه للمرة الثانية ، فقد عبر إلى المغرب ، وقابله قائلا : « جئتك احتسابًا واجتهادًا واعتصامًا للدين ، وقد اشتد خطر النصارى من حصن لييط وعظم أذاهم ، ولاجهاد أعظم منه ، ولا أثقل فى الميزان » .

وعبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة أخرى سنة ٤٨١ هـ ونزل بقاعدته التى تنازل له عنها المعتمد ابن عباد ، وهى الجزيرة الخضراء ، وكتب إلى ملوك الطوائف لإرسال جيوشهم ، ثم غادر الجزيرة إلى مالقة ، ثم إلى المرية ، ودخل لورقة ، وهناك لحقت به قوات المعتمد ، واتجهت القوات المتحالفة إلى حصين لييط على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة ، حيث فرضت عليه

الحصار . وتوافدت فى تلك الأثناء قوات غرناطة ومالقة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ومرسية . واستمر الحصار أربعة أشهر حتى جاء الشتاء ، فارتد يوسف بن تاشفين إلى لورقة ، وفى تلك الأثناء تقدم ألفونسو السادس إلى الحصن ، فأنقذ المحاصرين فيه ، ثم دكّ الحصن دكًّا ، وانسحب إلى طليطلة حتى لايشتبك مع المرابطين فتتكرر هزيمة الزلاقة . وبذلك انتهى خطر هذا الحصن على أشبيلية وعلى المعتمد بن عباد .

على أنه فى أثناء الحصار تبين يوسف بن تاشفين ضرورة إزالة حكم ملوك الطوائف ، وتوحيد الأندلس تحت حكم المرابطين . ذلك أن المنازعات تجددت بين هؤلاء الملوك أثناء الحصار ، « وتكشفت العداوات ، فلم يزد الرؤساء إلا توحشًا ، ولا الرعية إلاّ تسلطًا ». وقد اتهم المعتمد بن عباد أمير مرسية ابن رشيق بمؤازرة الأعداء ، فاعتقله ابن تاشفين ، فانسحب جنوده . وفى تلك الظروف رأى ابن تاشفين الارتداد إلى لورقة ، ولكن خوف ألفونسو السادس من الاشتباك مع ابن تاشفين مرة أخرى ، دعاه إلى العودة إلى طليطلة كما ذكرنا بدلا من التقدم إلى لورقة . فكأن انتصار لييط هو أثر من آثار معركة الزلاقة وما بثته من رعب فى قلوب الأسبان من لقاء المرابطين .

وقد عمد ابن تاشفين على أثر ذلك إلى خلع ملوك الطوائف ، واستخلاص السلطة فى يده . وكانت جماهير الأندلس وفقهاؤها يلحّون عليه فى ذلك . فلم يكن المرابطون – كما ذكرنا – دعاة جهاد فقط ، بل كانوا دعاة إصلاح أيضًا . وكانوا امتدادًا للدولة الإسلامية الأولى ؛ ومن ثم كانت إصلاحاتهم الاجتماعية والاقتصادية تسير فى أعقاب جيوشهم . فكانوا يقومون بإلغاء الضرائب الظالمة ولايفرضون إلا ما أمر به الكتاب والسنّة ؛ ولذلك كانت الرعية فى الأندلس تتردد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمةً طالبةً العدل والإنصاف الذى يتمتع به المسلمون فى المغرب . وعندما كان ابن تاشفين يحاصر حصن لييط ، كانت الرعية تتوافد عليه شاكية من جور أمرائها وتعسفهم ، وكان ينصت إليهم فى عطف ، مما أوغر صدور الأمراء عليه .

على أن يوسف بن تاشفين أراد قبل خلع ملوك الطوائف إرهاب القوى الإسبانية فى الشمال . حتى لا تنتهز فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك ، فتوجه له ضربةً من الخلف . فأطبقت جيوشه على طليطلة وحاصرتها ، وعاثت فى نواحيها ، ووصلت فى زحفها إلى مدن الحدود الشمالية ، كما حاصرت قلعة رباح التى تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة .

ثم زحفت هذه القوات إلى غرناطة لاتصال أميرها عبدالله بن بلكين بالأسبان ودفع الجزية لهم ، فعزلته فى عام ٤٨٣ هـ . كما استولت على ألبيرة ، وجيان ، ومالقة ، والمنكب ، فقضت

بذلك على ملك بنى زيرى بالأندلس . وأحسّ المعتمد بن عباد بالخطر ، فقام بتحصين أشبيلية ، وطلب معونة الأسبان ، فاستفتى المرابطون الفقهاء فى خلعه ، فأفتوا بذلك ، واستولت قوات المرابطين على أشبيلية فى رجب ٤٨٤ هـ . كما استولت على قرطبة ، وقرمونة ، ورندة ، والمرية ، وبطليوس ، وشلب ، ويابرة ، والسهلة ، ودانية ، وشاطبة ، وبياسة ، وأبدة ، وحصن لييط ، وشقورة ، وأخذوا يهددون بلنسية وغيرها . وبذلك تم توحيد الجبهة الجنوبية فى الأندلس تحت حكم المرابطين .

وفى تلك الأثناء ظن ألفونسو السادس أن الفرصة سانحة للانتقام لهزيمة الزلاقة ، فحين استنجد المعتمد بن عباد به ، أرسل جيوشه بقيادة البرهانس لنجدته ، ولكن المرابطين سارعوا إلى لقاء هذه الجيوش بقيادة الأمير إبراهيم بن إسحاق اللمتونى ، عند حصن المدور ، ودارت رحى معركة كبيرة انتهت بهزيمة القوات القشتالية وتبديدها ، وكانت لهذه الهزائم تأثيرها فى إضعاف مملكة قشتالة .

ولم يلبث المرابطون أن تهيئوا للنضال فى ميدان آخر هو شرق الأندلس .

وكان الشرق الأندلسى فى ذلك الحين قد أوشك على السقوط فى يد القوى المسيحية ، بسبب تفتته بين أمراء صغار من أمراء المسلمين ، استقل كل منهم ببلد أو حصن ، وأقام لنفسه دولة متسميًا باسم كبير . فكان هناك من أمثال هؤلاء « تأييد الدولة » صاحب لاردة ، و « سيد الدولة » صاحب طرطوشة ، و « حسام الدولة » صاحب شنت برية ، و « نظام الدولة » صاحب ألبونت ، و « حسام الدولة بن رزين » صاحب السهلة ، وابن طاهر صاحب مرسية ، ولم يكن بشرق الأندلس من الكيانات الإسلامية الكبيرة غير دولة بنى هود فى سرقسطة ، وقد تعاقب عليها ثلاثة أمراء على جانب كبير من الأهمية هم المقتدر بالله ٤٤١ — ٤٧٤ هـ ، الذى وحدّ الإمارة وعقد أحلافًا مع جيرانه الأسبان أعانت دولته على البقاء ، ثم المؤتمن ٤٧٤ — ٤٧٦ هـ ، والمستعين ٤٧٨ — ٥٠١ هـ ، وقد تمكن من هزيمة قوات ألفونسو السادس أكثر من مرة ، كما اكتسب ودّ يوسف ابن تاشفين ، فلم يعزله كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، بل كتب إليه خطاب أمان من العزل .

على أنه فى تلك الأثناء كانت القوى المسيحية قد أخذت منذ معركة الزلاقة ، تتقدم صوب حوض الايبرو ، وتشدد الضغط على بنى هود بسرقسطة بينما كانت سفن جنوة وبيزا تغير على موانى

الشرق الأندلسى . ولم يتنبه يوسف بن تاشفين . الذى كان مشغولا بالجهاد فى الجنوب ، إلا والخطر قد أحدق بهذا الإقليم ، ليتهدد بلنسية فى الصميم .

وقصة بلنسية تثير فى المؤرخين الإسلاميين كوامن الحزن ، لأنها مأساة هزت العالم الإسلامى فى ذلك الحين ، وأفزعت المسلمين فى المغرب والأندلس ، فقد كانت ضحية مؤامرة بين ألفونسو السادس والقادر بن ذى النون صاحب طليطلة (التى كان سقوطها سبباً فى استدعاء المرابطين لإنقاذ الأندلس) . ذلك أن الاتفاق كان قد تم بين الملك الأسبانى وأمير طليطلة على أن يسلمها الأخير له ، مقابل تعويضه عنها ببلنسية . بعد انتزاعها من أميرها المسلم عثمان بن عبدالعزيز . وقد استطاع ألفونسو السادس هزيمة ابن عبدالعزيز وتوليه القادر بن ذى النون عليها برغم إرادة أهلها .

وقد ظلّ القادر أميرًا على بلنسية حتى تقدم المرابطون صوب مرسية واستولوا عليها ، وتدفقوا صوب دانية وشاطبة ، فأصبحت قواتهم تطأ إقليم الشرق وتجاور إمارة بلنسية من الجنوب . وبذلك نشأ موقف جديد .

ذلك أن أهالى بلنسية انتهزوا فرصة وجود المرابطين فى الشرق ، فأعلنوا دخولهم فى طاعتهم ، ثم ثاروا على القادر فقتلوه ، وولوا عليهم القاضى جعفر بن جحاف ، فصار أميرًا على بلنسية . ورمزًا لتطهير المدينة من الخيانة

على أن هذه الثورة كانت بمثابة تحدٍّ للقوى الأسبانية التى أعانت القادر بن ذى النون على بلنسية . وقد هبت هذه القوى لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه والانتقام من أهل المدينة ، وكان على رأس هذه القوى فارس أسبانى من أشهر من يعتز بهم تاريخ أسبانيا السياسى ، ويحيطهم بهالات أسطورية ، وهو الذى عرف باسم السيد القمبيطور ، وكان هذا الفارس هو الذى تصدى له يوسف بن تاشفين .

٣٠ - الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور.

- السيد القمبيطور في التاريخ الاسبانى .
- الصراع بين الممالك الأسبانية .
- السيد القمبيطور فى خدمة بنى هود .
- مطامع القمبيطور فى بلنسية .
- سقوط بلنسية فى يد السيد القمبيطور ١٠٩٤ م .
- الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور ووفاة السيد ١٠٩٩ م .
- إستعادة المرابطين لبلنسية ١١٠٢ م .
- هزائم ألفونسو السادس أمام المرابطين .
- إنتصار المرابطين فى واقعة إقليش ١١٠٧ م .
- وفاة ألفونسو السادس ١١٠٨ م .

٣٠ – الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور

على طول ملحمة الصراع بين العرب وأوروبا على المسرح الأسبانى ، برز أبطال عظام أنضجتهم الظروف الدينية والاجتماعية التاريخية التى نشئوا فيها ، وقد ظهر هؤلاء الأبطال فى كلا الجانبين العربى والأوروبى على السواء ، فرأينا فى الجانب العربى ، موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، والسمح بن مالك الخولانى ، وعبد الرحمن بن عبدالله الغافقى . وعبدالرحمن الداخل ، والحكم بن هشام الربضى ، وعبدالرحمن الأوسط ، ثم عبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبى عامر ، وغيرهم ، أما الجانب الأوروبى . فرأينا فيه شارل مارتل ، وبلايو ، وشارلمان ، وسانشو الكبير ، وفرناندو الأول ، وألفونسو السادس .

على أن أهم من اهتم به تاريخ أسبانيا القومى ، وأحاطه بهالات الأساطير ، هو من عرف باسم السيد القمبيطور ! ومن ثم فلا يتأتى لمن تعرض بالدرس لتاريخ الصراع بين العرب وأوروبا فى الأندلس أن يغفل شأن هذا الفارس أو يهمل أمره ، ليس فقط لأنه بطل من أبطال الاسترداد المسيحى لأسبانيا ، وإنما لأنه قطع شطرًا من حياته فى القتال فى صفوف المسلمين !

والاسم الأصلى للسيد القمبيطور هو لذريق (رودريجو) . وقد تعرف القراء المتتبعون لهذه الدراسة على هذا الاسم عند الفتح العربى لأسبانيا ، لأن صاحبه كان ملك القوط الذى انتزع منه العرب الأندلس ، ومن هنا نسب المؤرخون إلى الأخير القول بأن الأندلس ضاع على يد لوذريق ، وسيعود إلى المسيحيين على يد لوذريق آخر ! وطبعًا أثبت التاريخ أنه كان مغاليًا فى التفاؤل ، لأنه مات بعد أن أثخنه القتال ، والأندلس مازال فى يد المرابطين !.

ومن الطريف أن السيد القمبيطور لم يكن ملكًا على جهة من الجهات ، وإنما كان مجرد فارس من الفرسان . ذلك أنه فى اثناء الحروب الطويلة التى دارت بين ملوك أسبانيا النصرانية وبين بعضهم وبين المسلمين – ظهرت فى صفوف جيوشهم طائفة من الفرسان ذوى القدرة والكفاءة الفردية ، ساعدت على ظهورهم ظروف المجتمع الإقطاعى السائد فى ذلك الحين ، وقد نسجت حولهم الأساطير . فظهر فى الجانب الإسلامى على الحدود الإسلامية فى آسيا الصغرى « السيد البطال » وفى المغرب أبو زيد الهلالى و« الزناتى خليفة » ، وفى الجانب الأوروبى ظهر الإنجليزى

جون هوكود ، والأسبانى ريموند القرطبى ، والقشتالى لذريق أو السيد القمبيطور .

وهؤلاء يمثلون قادة مجموعة مستقلة من الفرسان ، منفصلة عن التبعية لملك من الملوك ، وتطلق عليهم المراجع العربية اسم « رؤساء الحرب » . ويعرفون فى المراجع الإفرنجية باسم « كوندتيورى » Condottiori وقد كثرت مجموعاتهم فى أسبانيا وإيطاليا وفرنسا فى العصور الوسطى ، والتحموا بأحد جوانب الصراع بين البابوية والإمبراطورية وبين المرابطين والممالك المسيحية فى أسبانيا ، فهم مرتزقة العصور الوسطى .

ولم تعرف أسبانيا المسيحية نظام الفرسان إلا متأخرًا عن قيامه فى غرب أوروبا ، وقد درج ملوكها على اختيار الفرسان من أولاد المزارعين وصغار الناس ، لا من أبناء النبلاء كما كان الحال فى غالة (فرنسا) مثلا ، ولذلك كان النبلاء يحتقرونهم ، وكان السيد القمبيطور من أبناء الأصاغر ، وقد عاداه الفرسان النبلاء لهذا السبب ، وكان لذلك أثر بعيد فى تاريخه .

وقد بدأ القمبيطور حياته فى بلاط الملك فرناندو الأول كفارس من فرسان ابنه الأمير سانشو ، الذى رسمه فارسا ١٠٦٣ م . وكانت قشتالة فى ذلك الحين فى نزاع وحروب مع جارتها أرجونة ، فاشترك فى هذه الحروب . وعن طريق هذه الحروب المعقدة ، التى كانت أحيانًا تأخذ شكل أحلاف مسيحية إسلامية ضدّ أحلاف مسيحية أو مسيحية إسلامية أخرى – حارب القمبيطور إلى جانب المسلمين فى أوّل معركة يذكرها له التاريخ .

ذلك أن دولة بنى هود فى سرقسطة فى ذلك الحين كانت قد تمكنت من الحفاظ على بقائها عن طريق استغلال الصراعات بين الممالك المسيحية ، فدخلت فى محالفات مع هذا الطرف ضد الطرف الآخر لتضمن الدفاع عنها عند تعرضها لأى هجوم . فقد تحالفت فى البداية مع مملكة أرجونة ، وكانت تدفع لها الجزية ، ثم تحولت إلى حلف قشتالة – ليون ، فتعرضت بذلك لعداء أرجونة . وقد انتهزت هذه الأخيرة فرصة سير فرناندو الأول نحو أشبيلية فى سنة ١٠٦٣ م ، فسيرت جيوشها لمهاجمة سرقسطة ، ولكن فرناندو عجل بإرسال ابنه سانشو لمساعدة سرقسطة ، وكان فى فرسانة السيد القمبيطور ، فدارت عند بلدة « جراوس » معركة حامية بين الجيش الإسلامى المسيحى لسرقسطة وقشتالة ، وكان على رأسه المقتدر أحمد بن هود وسانشو والقمبيطور – وبين جيش أرجونة ، وعلى رأسه الملك راميرو (أو رذمير) . وانتصر الجيش الإسلامى القشتالى على جيش أرجونة انتصارًا كاملاً حتى ليقال إن راميرو قتل فى المعركة . وهكذا كان أوّل قتال للقمبيطور فى صفوف المسلمين .

وفى الفترة التالية دخل الصراع بين الممالك الأسبانية وبعضها البعض طوراً آخر. ذلك أن فرناندو الأول مات بعد معركة جراوس بعامين ، بعد أن قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، فتولى سانشو عرش قشتالة ، وتولى ألفونسو السادس عرش ليون ، وتولى جارسيا عرش جليقية (غاليسيا) . وسرعان ما نشبت الحرب بين الإخوة ، ولكن سانشو ، بمساعدة القمبيطور ، هزم أخويه وضم إليه أملاكهما ، ولجأ ألفونسو السادس إلى أمير طليطلة المسلم المأمون بن ذى النون ، فأكرم لجوءه وعاش عنده مكرماً حتى سنة ١٠٧٢ م .

وقد ردّ ألفونسو هذا الجميل فيما بعد بالاستيلاء على طليطلة ! ، ذلك أن وجوده فى هذه الإمارة طوال عامين قد مكنه من معرفة عوامل الضعف والقوة فيها ، وقد انتفع بهذه المعرفة عندما آل إليه ملك قشتالة وليون ، ففى سنة ١٠٧٢ م قتل سانشو الثانى عند أسوار سمورة ، ولم يجد رجال قشتالة وليون بدًّا من استدعاء ألفونسو السادس من منفاه فى طليطلة وتوليته العرش طبقًا للقانون . فاستدعاه القمبيطور ، وجعله يقسم بين يديه ، فى جمع حافل من رجال مملكة قشتالة وليون ، أنه لم يكن له ضلع فى قتل أخيه سانشو الثانى . ولكن ألفونسو السادس لم يكد يستقر على العرش ، حتى عزل القمبيطور من قيادة الجيش ، لما لاقاه على يديه من الهزيمة أثناء قتاله تحت لواء أخيه الملك سانشو .

ومنذ ذلك الحين أخذ القمبيطور ينزع إلى الاستقلال فى تصرفاته ، فمع أن ألفونسو السادس استبقاه فى خدمته ، إلاّ أنه دخل فى الصراع الدائر بين أشبيلية التى كان يحكمها المعتمد بن عباد ، وبين غرناطة وعلى عرشها عبدالله بن زيرى ، وانتصر لأشبيلية على الرغم من أن غرناطة هى التى كانت متحالفة مع ألفونسو السادس ، بل حارب فى صف المعتمد بن عباد ضدّ جيوش بلده قشتالة !. وانتهى الأمر بغضب ألفونسو السادس عليه ، وإصدار قرار بنفيه من البلاد .

وقد كان هذا القرار بالنفى قرارًا قاسيًا ؛ إذ كان يتعين على المنفى ترك أملاكه والخروج مع أتباعه ومحاولة الالتحاق بخدمة سيد آخر ، وهذا مافعله القمبيطور ، إذ خرج من قشتالة سنة ١٠٨١ م ومعه نحو ٣٠٠ فارس من أتباعه وعرض نفسه على المؤتمن يوسف بن هود أمير سرقسطة ، فقبل . وبذلك بدأت صفحة جديدة فى الصراع المعقد بين الدويلات الأندلسية وبين الدول المسيحية لعب فيها القمبيطور دورًا هامًا .

ذلك أن القمبيطور أدى خدمات كبيرة لبنى هود طوال السنوات الخمس التى قضاها فى خدمتهم ولم يتردد فى محاربة أرجونة وبرجلونة لحسابهم . وكانت إمارة سرقسطة حين دخلها

القمبيطور بين شق الرحى بين صاحب كتالونيا وبرشلونة وأرجونة من جهة ، وبين صاحب قشتالة من جهة أخرى . وقد قاد القمبيطور جيوش يوسف المؤتمن بن هود إلى النصر ، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب كتالونيا عند المنارة وأسره ، ثم أطلق سراحه ، فعلا نجمه وتناقل الناس قصص بطولته ، وفى الوقت نفسه فإن وجوده فى سرقسطة جعل ألفونسو السادس يتجنب الهجوم عليها ليذيقها ما أذاق طليطلة فيما بعد .

وقد كان فى أثناء خدمته لبنى هود أن تسمى باسم « السيد » فقد كان أفراد الجيش العربى ينادونه « بياسيدى » . وقلدهم فى ذلك جنده الأسبان ، فصاروا يخاطبونه بميوثيد Mio Cid أى ياسيدى ، فلزمته هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها فى التاريخ .

أما تسميته بالقمبيطور ، فقد نالها فى أعقاب مبارزة بينه وبين فارس نافارى حين كان فى خدمة سانشو ، فقد تلقب بالكامبيادور Campeador ومعناه الفارس النبيل . وبذلك عرف باسم السيد القمبيطور وفقًا لتعريب المؤرخين لهذه الكلمة .

على أن القمبيطور مالبث أن أخذ ينزع إلى العمل لحسابه ، وأطلق لنفسه العنان فى شرق الأندلس كله ، فزادت ثروته وتزايد أتباعه ، وأخذ يتطلع إلى بلنسية ، التى كانت فى حال من الضعف دفعت صاحبها عبدالعزيز إلى الدخول فى حماية صاحب طليطلة المأمون بن ذى النون ، خوفًا من بنى هود فى سرقسطة وحليفهم القمبيطور . ولكن المأمون نفسه كان من الضعف بدوره إلى حدٍّ دفعه للانضواء تحت حماية ألفونسو السادس . ولما كان ألفونسو السادس قد عرف طليطلة جيدًا منذ لجوئه إليها فقد طمع فى الحصول عليها . وجرى بينه وبين القادر الاتفاق المشئوم الذى يقضى بأن ينزل له المأمون عن طليطلة فى مقابل تأييده فى الحصول على بلنسية من صاحبها ابن عبد العزيز ، واستولى ألفونسو بذلك على طليطلة ، قلب معاقل الأندلس الإسلامى ، وأهم دويلاتها ، وامتدت رقعة مملكته بهذا الضم من شمال نهر تاجة إلى ضفاف الوادى الكبير .

وقد ارتج الأندلس الإسلامى لهذه الكارثة ارتجاجًا عنيفًا – كما ذكرنا – الأمر الذى ترك أثره فى استدعاء المرابطين ، وانقلاب الموقف السياسى فى شبه الجزيرة الأيبيرية . فقد ألحق يوسف بن تاشفين الهزيمة بجيوش ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م كما رأينا ، وأخذت جيوشه تطأ إقليم الشرق وتجاور إمارة بلنسية من الجنوب .

على أن السيد القمبيطور كان فى ذلك الحين قد انتقل من خدمة بنى هود إلى خدمة ألفونسو السادس من جديد ، ذلك أن هزيمة الزلاقة قد هزت نفسه على الرغم من أنه لم يشترك فيها إلى

جانب إخوته المسيحيين ، فترك خدمة بنى هود ، وصالح ألفونسو السادس فى أواخر سنة ١٠٨٦ م ، وجعله هذا قائدًا على فرقة قشتالية مهمتها العمل فى شرق الأندلس . فبدأت مرحلة نضالية جديدة .

فقد اتجه القمبيطور إلى تحقيق أطماعه فى السيطرة على بلنسية متمردًا مرةً أخرى على ألفونسو ، وفرض حمايته على القادر . ولكن أهل بلنسيه حين تسامعوا بوجود جيش المرابطين فى مرسية على مقربة منهم ، خلعوا القادر وولّو مكانه قاضيهم جعفر بن جحاف . فكان فى هذا العمل تحديًا للسيد القمبيطور ، فحاصر المدينة حصارًا شديدًا ، ولكن المرابطين أرسلوا جموعًا كبيرة تحت قيادة الأمير أبى بكر بن إبراهيم اللمتونى ، وأدزك القمبيْطور الخوف من قوة المرابطين ، فبعث يستنجد بألفونسو السادس ، واقترب المرابطون من بلنسية ، وتراءت لأهلها طلائع الإنقاذ فازداد دفاعهم عن بلدهم .

على أنه فى تلك ، اللحظات الحاسمة ، ولسبب غير معروف ، عاد أبوبكر اللمتونى أدراجه نحو مرسية ! وإن كان بعض المؤرخين العرب وبعض المؤرخين الأسبان يرون أن السبب فى ذلك هو أن السماء أمطرت مطرًا غزيرًا فى أمسية المعركة ، وأصبحت الطرق غير مأمونة المسالك ، مما دفع أبابكر إلى الانسحاب إلى مرسية ، وكتب ابن عائشة إلى بنى طاهر أنصار المرابطين يذكر أنهم لم يتراجعوا جبنًا وخورًا ، ولكن لوعورة الطريق ونقص الأقوات . على أن يوسف بن تاشفين لم يقبل بهذه الحجة ، بل كتب إلى أبى بكر يؤنبه لما اعتبره تخاذلاً ، وذهب فى غضبه عليه إلى حدّ عزله عن ولايته .

على أن انسحاب القائد المرابطى على هذا النحو كان سببًا فى سقوط بلنسية فى يد السيد القمبيطور . فقد أيقن أهل بلنسية بالهلكة فى الوقت الذى زادت المجاعة داخل المدينة ، ولم يجد القاضى ابن جحاف بدًا من التسليم على شرط ألا يؤذى القمبيطور أهل المدينة ، ودخل السيد المدينة فى مايو – يونية ١٠٩٤ م ، ليخطب فى أهلها باللغة العربية ! معلنا عزمه على أن يحكم بالعدل والإنصاف : « قررت أن أقعد لسماع ظلاماتكم يومين فى الأسبوع : الاثنين والخميس . وإذا وجد أحد منكم نفسه مظلومًا فليأتنى أى يوم أراد ، فسيجدنى سميعًا . ذلك لأننى لا أنفق وقتى مع النساء أو على الشراب وسماع الغناء كما يفعل أصحاب الأمر فيكم ! أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم إذا مست حاجتكم إلى ذلك . وأريد أن أكون لكم رفيقًا ، أحميكم

كما يحمى الصديق صديقه والقريب قريبه ، ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضى بينكم بالحق » .

على هذا النحو أصبح القمبيطور أميرًا على بلد إسلامى ! وكوّن إمارة من العسير تكييفها ، فلم يكن رئيس « دولة » لها كيان ونظام ، إنما كان قائد جماعة مرتزقة فيها القشتالى والليونى والمسلم والمسيحى . ولم يكن داخلاً فى نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها ، بل كان يعمل لحسابه الخاص ! وإن كان بعض المؤرخين يرى أنه أصبح أمير طوائف آخر استبدّ بناحية بلنسية ! ، وإن كان أميرًا مسيحيًّا « وهو أمر فى ذاته طريف فى ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى الأندلس » .

على كل حال ، فإن سقوط بلنسية فى يد القمبيطور كان إيذانًا بمرحلة جديدة من الصراع بينه وبين المرابطين ، دخلت التاريخ تحت عنوان : « الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور » ذلك أن صراعًا عنيفا لم يلبث أن نشب بين المرابطين فى دانية ومرسية وبين القمبيطور فى بلنسية ، وهو صراع اصطبغ بالأساطير . فقد صورت المراجع الإفرنجية المواقع التى خاضها القمبيطور على أنها انتصار كلها ، وصورت كفاح المرابطين بأنه هزائم متلاحقة ! . فقد ذكر المؤرخان بيدال ودوزى أن محمد بن عائشة حاول أن يسترد بلنسية بجيش تعداده ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل وعسكر عند مدينة كويرتة Cuerta ، ولكن القمبيطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام وكبده خسائر فادحة . وقد تصدى المؤرخون العرب لهذه القصة بالتشكيك ، فقد ذكر البعض أنه ليس من المعقول أن يهزم القمبيطور جيشًا قوامه ١٥٠ ألفًا من فرسان المرابطين وثلاثة آلاف راجل ، بقيادة ابن عائشة ممدوح ألفونسو السادس ! وأنه لو حدث ذلك فعلا ، فما الذى كان يمنع القمبيطور بعد ذلك من الانقضاض على دانية ومرسية ؟ بل وإخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائيًّا وفرض سيطرته الكاملة عليه ؟

من الواضح إذن أن القوات المرابطية التى اقتربت من بلنسية كانت قوات قليلة العدد بقيادة أحد رجال ابن عائشة ، بدليل أنه عندما أراد القمبيطور بعد ذلك أن يتوسع خارج بلنسية ، لقيته قوات المرابطين بقيادة ابن عائشة فناوسته وقاومته — كما يقول دوزى — الأمر الذى يبين أن هذه الحروب كانت مجرد اشتباكات ومناوشات فقط ، تبادل فيها الطرفان الهزيمة والنصر ، وليست معارك فاصلة .

فقد حصل القمبيطور على نصر فى « بيرين » سنة ١٠٩٤ م حين سير يوسف بن تاشفين قوةً كبيرةً من قواته إلى شاطبة شمال مرسية ، ولكن القمبيطور استنجد ببدرو ملك أرجونة وعقد معه

تحالفاً ، واستطاع بفضل هذا التحالف إلحاق الهزيمة بالقوات المرابطية عند بلدة بيرين Beiren ثم الاستيلاء على قصبة « مربيطر » فى سنة ١٠٩٨ م .

على أن المرابطين لم يلبثوا أن انتقموا لهذه الهزيمة بمعركة كونسويجرا Consuegra سنة ١٠٩٨ م، حين أطبقت قوات محمد بن الحاج على قوات ألفونسو عند هذا الموقع ، وأنزلت بها هزيمة ساحقة وقتلت دييجو بن القمبيطور ، الذى كان فى التاسعة عشرة من عمره ، وملأت قلب أبيه المغامر بمرارة الألم الذى لم يعرفه من قبل .

ولم تلبث القوات المرابطية أن ألحقت بالقمبيطور هزيمة على مقربة من جزيرة شقر Alcira . فكانت فجيعة السيد فى ابنه ثم هزيمته فى جزيرة شقر من الأسباب التى عجلت بوفاته سنة ١٠٩٩ م بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات .

على أن وفاة القمبيطور أعفته فى الحقيقة من تلقى ألم الصدمة الثالثة بضياع بلنسية ذاتها ! . إذ سار محمد بن مزدلى أعظم قواد المرابطين إلى بلنسية لاستعادتها . وقد حاولت « خيمينا » زوجة القمبيطور الدفاع عنها ، ولكنها لم تستطع ، وبعثت تستنجد بألفونسو السادس ، فأقبل لنجدتها بقوات كبيرة ، ولكنه عندما رأى حجم قوات المرابطين ، أدرك أنه لافائدة من قتالهم ، فنصح خيمينا بالانسحاب من البلد ، وعاد إلى طليطلة . وتبينت القوات المدافعة عن المدينة قلة جدوى المقاومة ، فأحرقت البلد حتى جعلتها كومة رماد ، وخرجت ، ودخلت قوات المرابطين المدينة فى منتصف رجب ٤٩٥ هـ (أوائل يوليو ١١٠٢م) . واعتزلت خيمينا فى دير سان بدرودى كاردينا الذى دفنت فيه رفات القمبيطور ، وعاشت بعد زوجها خمس عشرة سنة .

وبانتهاء المرابطين من أمر السيد القمبيطور ، بطل الملاحم الأسبانية ، على هذا النحو ، وباستردادهم بلنسية ، بقى أمر ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وبطل حركة الاسترداد المسيحى للأندلس ، وقد كان حظّ هذا الملك مع المرابطين هو الهزيمة على الدوام . فقد رأينا هزيمته فى الزلاقة سنة ١٠٨٦ م ، ومع أن المرابطين شغلوا بعدها بالجهاد فى الشرق ضدّ السيد القمبيطور ، إلا أنهم لم يغفلوا عن أمر ألفونسو السادس ، بل وقفوا له بالمرصاد ، وبينما كانوا يوطدون أقدامهم فى منطقة مرسية ودانية ، ويتطلعون إلى استعادة بلنسية ، اشتبكت قواتهم مع قوات قشتالة عند بلدة « جيان » ، وأوقعت بألفونسو الهزيمة ، ومزقت قواته شرّ ممزق سنة ٤٨٥هـ سنة ١٠٩٢م فكانت « زلاقة » أخرى فى آثارها العسكرية . ثم ألحقت الهزيمة بقوات ألفونسو مرة أخرى عند كونسويجرا – كما ذكرنا – عام ١٠٩٨ م ، وواصلت انتصاراتها فاشتبكت فى معركة حامية مع

قوات ألفونسو عند كاونكة (قونكة) وقتلت قائده الفارهانيز Alvar Hanez الذى تسميه المراجع العربية « البرهانس » وهو فارس ليونى كبير .

وفى عام ٥٠٠هـ/١١٠٧م . توفى يوسف بن تاشفين ، بعد أن ثبت لواء الإسلام فى أرض الأندلس ، وأجج الحرب المقدسة التى خبت جذوتها فى عهد ملوك الطوائف ، وأعاد الوحدة الإسلامية التى كانت قد تمزقت ، وأعاد الأندلس مرة أخرى إلى وضع القوة فى التعامل مع أوروبا ، وكسر المدّ الاسترّدادى الذى قادته قشتالة تحت ملكها ألفونسو السادس ، وأضعف مملكته . ولكنه لم يقدر له أن يرى نهاية عدوه ألفونسو السادس ، بل قدر لولده على بن يوسف بن تاشفين أن يجنى ثمرة هذا النضال وهو ماحدث عند أقليش .

فلم يكد يوسف بن تاشفين يختفى من المسرح السياسى ، حتى ظن ألفونسو السادس أن انتصار المرابطين كان بفضل يوسف ، وليس بفضل النظام السياسى والاجتماعى الذى أرسوه ، فأخذ يتجرأ على الحدود .

على أن على بن يوسف سارع بعد تلقيه البيعة فى المغرب ، إلى الانتقال بسرعة إلى الأندلس لإشعار العدو بأنه قائم فى الميدان ، وأسند أمر الأندلس إلى أخيه أبى الطاهر تميم ، وأمره بالغزو .

وقد اختار أبو الطاهر حصن اقليش الذى كان العدو قد استولى عليه فى أعقاب استيلائه على طليطلة من يد أسرة ذى النون . وكان هذا الحصن قد سقط فى يد العدّو مع أكثر الحصون الداخلة فى حوزة طليطلة ، وقد اتجه إليه الطاهر فى ١٠ رمضان وضرب الحصار حوله فى ١٤ شوال وشلت المفاجأة العدو ، فانهارت مقاومته ، واقتحم الملثمون السور ودخلوا المدينة ، وسارع فرسان العدّو إلى الاحتماء فى قصبة المدينة .

وقد لعب « المدجنون » (وهو الاسم الذى يطلق على المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى فى الأراضى الأندلسية المحتلة ، ويقابل الاسم الذى كان يطلق على المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية فى الأندلس وهو اسم المستعربين) لعبوا دورًا هامًّا فى مساعدة القوات المرابطية ، كما كان يفعل المستعربون فى مساعدة القوات المسيحية فى حركة الاسترداد الأسبانية .

وعندما علم ألفونسو السادس بسقوط مدينة اقليش ، حشد قوات كبيرة استعد بها لإنقاذ القصبة واسترداد المدينة ، ولكن فتًى صغيرًا من المدجنين كان أسيرًا ، هرب إلى جيش أبى الطاهر ، وأبلغه بأخباره ، وهنا وكما يقول الأمير أبو الطاهر تميم فى رسالته إلى أخيه على بن

يوسف : « استدنيت القائدين المجربين ابن عائشة وابن فاطمة ، وعبأنا الجيش ، وتحركنا مع الفجر يوم الجمعة ، وكان العدو فى دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى ، كأنما سجنوا فى الحديد ، واشتبكت الطوالع ، ثم تواقف القوم ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارسًا منهم ، فأذراه من مركبه . ثم اختلطت الخيل فما نجا من العدّو إلا أقلهم ، وملأنا الأيدى بالسلب خيلاً وبغالاً ، وسلاحًا ومالاً ، مما طرحه العدّو ساعة الفرار ، أما الحامية التى كانت اعتصمت بالمدينة ، فإنها استسلمت بحيلة دبرناها ، فإننا أظهرنا إخلاء المدينة ، ووضعنا كمينا ، فخرجت الحامية من القلعة ، فأخذوا ، وقتلوا » .

كانت واقعة اقليش زلاقة أخرى بطلها الأمير أبو الطاهر تميم ، وهى تشبه واقعة كونسويجرا فى تأثيرها على الملك ألفونسوا السادس . ففى كونسويجرا – كما رأينا – قتل الملثمون « دييجو » ابن السيد القمبيطور ، وفى اقليش قتل سانشو بن ألفونسو السادس وقتل معه سبعة من الكونتات الذين كانوا يقومون بحراسته . وكانت أم سانشو هى التى اقترحت خروج ابنها بدل أبيه ، لكى يكون مقابلا للأمير أبى الطاهر تميم ، فيكون ابن الملك فى مواجهة أخ الملك . وكان معه مؤدّبه وسبعة من الكونتات هم حاشيته ، على أن الفتى سرعان ما وجد نفسه فى وسط الملثمين ، فجرح فرسه ، ووقع على الأرض ، فنزل مؤدّبه وغطاه بجسمه لحمايته ، فقتل ، وفرّ الكونتات السبعة ، ولكن القوات المرابطية تمكنت من أسرهم وقتلهم .

وقد فجع ألفونسو السادس فى ولده كما فجع السيد القمبيطور ، فمات بعد عام واحد غمًّا وكمدًا ، وفقدت حركة الاسترداد بطلها الثانى ألفونسو السادس ، بعد أن فقدت بطلها الأوّل السيد القمبيطور ، وافتتح على بن يوسف بن تاشفين عهده بهذا الانتصار الرائع الذى أحرزته قواته بقيادة أخيه وثبتت هيبة الدولة المرابطية بعد أن كان العدّو الأسبانى يتوقع زوالها بموت يوسف بن تاشفين .

على أن خطورة انتصارات المرابطين فى المغرب الإسلامى ، أى فى الأندلس ، هى أنها تمت فى مناخ اندلاع ما اصطلح على تسميته باسم الحروب الصليبية ، التى اشتعلت فى المشرق الإسلامى فى ذلك الحين ، فأعادت التوازن إلى ميزان القوى إلى حين .

٣١ - الحروب الصليبية فى التاريخ

- التطورات التى لحقت بالعامل الدينى فى الصراع بين العرب وأوروبا .
- الخلافات حول بداية الحروب الصليبية .
- معاملة المسيحين فى الدول الإسلامية قبل الحروب الصليبية .
- فكرة تأمين طرق الحج .
- الحروب الصليبية حركة من حركات المد والجزر بين العرب وأوروبا .

٣١ - الحروب الصليبية فى التاريخ

فى الوقت الذى كان يجرى صراع هائل على أرض الأندلس بين المالك والإمارات المسيحية وبين المرابطين ، كانت قد بدأت فى المشرق ما عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية. وهذا المصطلح ، وهو الحروب الصليبية ، مصطلح حديث استحدثه المؤرخون ، ويقصدون به الحروب التى نتجت بسبب الحملات الأوروبية على المشرق العربى ابتداءً من سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١٢٩١ - فى بعض الآراء - أو حتّى شطر كبير من القرن الخامس عشر وفقاً لآراء أخرى !.

وهذه التسمية ، وهى تسمية الحروب الصليبية ، تسمية مضلّلة ؛ لأنها توحى إلى الأذهان بأن العامل الدينى ، هو العامل الأوّل فى هذه الحروب ، وهو أمر غير صحيح باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم كما سنبين فيما بعد .

ولعل القارئ المتتبع لهذه الدراسة قد لاحظ كيف بدأ الصراع فى المشرق العربى منذ ظهور الإسلام ، بين الدولة العربية الإسلامية التى أرسى أسسها الرسول ﷺ ، وبين الدولة البيزنطية وحلفائها الصغار من الغساسنة والمناذرة ، حين أحست الإمبراطورية البيزنطية بالخطر من ظهور الدعوة الجديدة ، وأخذت تتحرش بالدولة العربية بهدف تصفيتها والقضاء عليها . وقد واجه العرب هذا الخطر تحت قيادة الرسول بخطة الهجوم خير وسائل الدفاع ، واستمر ذلك فى عهد خلفاء الرسول ، واتخذ صورة المدّ والانسياح على أراضى الإمبراطورية البيزنطية فى الشام ومصر وشمال أفريقيا ، فضلاً عن أراضى الإمبراطورية الفارسية فى الشرق ، وبلغ ذروته بعبور قوات طارق بن زياد من شمال أفريقيا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، والانسياح منها إلى أراضى فرنسا وإيطاليا وسويسرة ، واحتلال جزر البحر المتوسط وتحويله إلى بحيرة عربية بحتة.

وفى خلال هذا المدّ العربى الإسلامى الكاسح ، تعرضت الدولة العربية الإسلامية لما تتعرض له أية دولة من تغييرات سياسية ، فسقطت الخلافة الأموية فى دمشق على يد العباسيين ، وتأسست الخلافة العباسية فى بغداد ، بينما تأسست الدولة الأموية بالأندلس ، وتحولت إلى خلافة ، ودب العداء والخصام بين الدولتين . كما قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب ، التى دخلت

فى علاقات تنازع وصراع مع الدولة الأموية فى الأندلس من جهة ، ومع الدولة العباسية فى المشرق من جهة أخرى .

وفى نفس الوقت كانت أوروبا تمر بتغييرات سياسية مماثلة تقريباً . فقد ظهرت إمبراطورية شارلمان فى الغرب الأوروبى ، التى عرفت باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعد معركة بواتييه أو بلاط الشهداء ، حين بسط شارل مارتل سيطرته المطلقة على المملكة الميروفنجية فى شمال فرنسا ، وعزز قبضته على أمراء الإقطاع فى الجنوب ، ثم استكمل أبناؤه من بعده ، خصوصًا شارلمان ، بناء هذه الإمبراطورية ، وتوّج إمبراطورًا عليها عام ٨٠٠م . وبذلك أصبحت فى أوروبا إمبراطوريتان ؛ الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق ، والإمبراطورية الكارولنجية ، أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب .

وبحكم علاقات الجوار بين كل من الإمبراطوريتين الأوروبيتين والدولتين العربيتين فى كلٍّ من بغداد وقرطبة ، وهى علاقات عداء وتصارع بحكم اختلاف الدين.وتاريخ الصراع الطويل منذ بدايات الفتوح الإسلامية ، وبحكم العداء بين الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية المقدسة على المستوى الأوروبى . ثم بحكم العداء بين الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الأموية فى قرطبة على المستوى العربى الإسلامى - فقد نشأت علاقات ودٍّ وتحالف بين كلٍّ من الإمبراطوريتين الأوروبيتين وكل من الخلافة الإسلامية البعيدة عنها !. فنشأ محور الدولة البيزنطية - الدولة الأموية بالأندلس ، كما نشأ محور الدولة العباسية - دولة شارلمان . وظهرت علاقات دبلوماسية بين طرفى كل محور لم تكن معروفة منذ ظهور الإسلام ، وقد تعرضنا لها فى حينها . وعندما ظهرت الخلافة الفاطمية المعادية للخلافة الأموية بالأندلس . سرى مفعول المحور الأندلسى - البيزنطى ضدها ، واتخذ شكل ترك الحرية للبيزنطيين فى قتال الفاطميين أعداء الدولة الأموية بالأندلس !.

وعلى هذا النحو لم يعد العامل الدينى هو الذى يتحكم فى الصراع بين العرب وأوروبا كما كان الحال فى المرحلة الأولى من الصدام العربى ، الأوروبى . بل رأينا نشوب الصراع بين الدول العربية الإسلامية المختلفة ، وتحالفاتها مع بعض الدول الأوروبية ، ورأينا نشوب الصراع بين الدول الأوروبية المسيحية ، وتحالفاتها مع الدول الإسلامية . ونشأت مصالح مختلطة ومشتركة عربية - أوروبية ، أصبحت العامل الرئيسى المحرك للصراع بين العرب وأوروبا .

على أن الدين - مع ذلك - ظلّ شعارًا صالحًا ولواءً موحدًا لقوى الطرفين فى مواجهة أحدهما

الآخر ، ولكن بعد أن اتسع مفهومه ، فلم يعد مجرد مسيحية ضد إسلام ، بل أصبح أيضًا كاثوليكية ضد أرثوذكسية ، وشيعية ضدّ سنّية ، بل تغلغل بعد ذلك إلى فروع هذه المذاهب !.

وهذا العرض التاريخى ، الذى استقيناه من واقع هذه الدراسة المطولة لملحمة الصراع بين العرب وأوروبا يوضح لماذا قلنا إن تسمية الحروب الصليبية هى تسمية مضلّلة ؛ لأنها تصوّر الصراع فى إطار دينى ، بينما هى بعيدة عن ذلك كل البعد . وإذا كانت قد تمت تحت علم الصليب ، فلم يكن هذا العلم أكثر من مظلّة تضم تحتها كل المصالح المختلفة البعيدة كل البعد عن الدين ، ولم يكن يفترق عن العلم الذى خاضت أوروبا تحته الصراع ضد العرب قبل ما عرف باسم الحروب الصليبية .

وعلى كل حال فإن هذه الحقيقة توضح لماذا دخل المؤرخون والباحثون فى خلافات متشعبة حول مفهوم هذه الحروب . فقد رأى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية قد بدأت فى الحقيقة منذ انتشار الإسلام ، واصطدامه بالإمبراطورية البيزنطية شرقًا ، ثم الفرنجة غربًا فى العهدين الميروفنجى والكارولينجى . وأن الفرنجة أخذوا على عاتقهم مسئولية الدفاع عن المسيحية فى الجهات الغربية فى أوروبا ضدّ مسلمى الأندلس فى عهد شارل مارتل ، الذى تمكن من إيقاف الزحف الإسلامى سنة ٧٣٢م فى معركة بلاط الشهداء ، ثم نهض الفرنجة الكارولنجيون بأعباء الدفاع عن أوروبا والأراضى المقدسة .

وهؤلاء المؤرخون ، يولون العامل الدينى الاهتمام الأكبر ، فيتصوّرون أن الحروب التى دارت كانت حروبًا دينية بين مسيحية وإسلام ، وينسون ما اتضح لنا فى خلال حلقات هذه الدراسة من أن الحروب لم تكن على هذا النحو ، فقد كانت بين مسلمين ومسيحيين ، كما كانت بين مسلمين سنّيين ومسلمين شيعيّين ، كما كانت أيضًا بين مسيحيين ومسيحيين . بل لقد وقعت بين تحالفات إسلامية مسيحية ضدّ تحالفات إسلامية مسيحية . وقد حارب كثير من المسيحيين تحت علم الإسلام ، كما رأينا بالنسبة للفارس الأسبانى السيد القمبيطور فى إحدى فترات حياته ، وكما رأينا بالنسبة لبعض ملوك أسبانيا الذين حاربوا فى صفوف المسلمين ضدّ إخوانهم المسيحيين فى الممالك الأسبانية الأخرى . وحتى لو تمشينا مع هؤلاء المؤرخين فى القول بأن الحروب الصليبية تعود إلى انتشار الإسلام ، لأسميناها حروبًا إسلامية وليست حروبًا صليبية ؛ لأن المسلمين فى تلك المرحلة كانوا هم الذين يشنون الهجوم على العالم الأوروبى المسيحى . وبالتالى لا يمكن تقبل الرأى بأن الحروب الصليبية بدأت منذ انتشار الإسلام .

على أن هناك من المؤرخين من نظر إلى الحروب الصليبية على أنها حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وهو الصراع التقليدى القديم الذى تمثل فى العصور القديمة فى الصراع بين الفرس واليونان ، ثم بين الفرس والرومان ، ثم بين الفرس والبيزنطيين ، ثم بين العرب وأوروبا على جبهتين : الجبهة البيزنطية فى الشرق ، والجبهة الأسبانية – الفرنسية – الإيطالية فى الغرب . وبالتالى – فى رأى هؤلاء المؤرخين – فإن هذا الصراع لا يمكن ربطه بأى عامل دينى ، حيث إنه دار فى عصور كان الشرق والغرب كلاهما وثنيّان . ومن الأرجح ربطه بالعامل الحضارى ، بوصفه صراعًا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين وأسلوبين فى الحياة متباعدين . وقد ظلّ هذا الصراع بين الشرق والغرب كالبركان يهدأ حينًا ويثور أحيانًا ، حتى كانت نهاية القرن الحادى عشر ، فاشتدّ غليانه وثورانه ، ووجد فى الحروب الصليبية متنفسًا بعد أن وجد سببًا جديداً قويًّا للخلاف بين الشرق والغرب ، هو الخلاف الدينى بين الإسلام والمسيحية .

وهذا الرأى يغفل حقيقةً هامةً ، هى أن الإسلام لم ينتشر ويمتد لواؤه فى الشرق فقط ، بل انتشر وامتدّ فى الغرب أيضاً . فلا يمكن وصف الصراع الذى دار بين الأندلس وبين فرنسا وإيطاليا وسويسرا والممالك الأسبانية المسيحية فى الشمال بأنه صراع بين شرق وغرب ؛ لأنه كان فى الحقيقة صراعًا بين غرب وغرب . ولم تكن الحضارة الإسلامية حضارة شرقية بحتة ، فقد رأينا كيف سادت هذه الحضارة بعد أن احتضنت التراث اليونانى والرومانى القديم ، وكانت معبرًا انتقلت عبره الحضارة إلى أوروبا بعد امتزاجها بالفكر الإسلامى ، كما رأينا كيف امتزجت فى الأندلس الدماء العربية بالدماء الأوروبية حتى فى قصور الخلفاء ! .

وقد نظر بعض المؤرخين إلى الحروب الصليبية على أنها هجرة فى سلسلة الهجرات الكبرى التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م ، والتى قام بها المواطنون فى بلاد الإمبراطورية الغربية ، وتفاوتت فى مداها الزمنى واتجاهاتها وآثارها ؛ ذلك أن سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية جاء مصحوبًا بتدفق جموع الجرمان وقبائلهم داخل أراضى الإمبراطورية واعتناقهم المسيحية وتجديدهم العالم الرومانى ، مما ظهر أثره فى كثير من الهجرات التى اتجهت إلى انجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا .

وهذه الفكرة لهؤلاء المؤرخين تشبه الفكرة التى تصورت حركة الفتوحات الإسلامية عند ظهور الإسلام وانتشاره بأنها إحدى الهجرات الكبرى التى انطلقت من شبه الجزيرة العربية . وعيب هذه النظريات يتمثّل فى المدى الزمنى الواسع الذى يشمل هذه الظواهر ، والذى يغفل بالضرورة

العوامل والأسباب المحركة لتلك الهجرات ، والتى تختلف بالضرورة فى كل حالة عن الأخرى ، ويخضعها لعوامل وأسباب عامة لا تصلح وحدها لتحريك المجموعات البشرية فى هذا الشكل من الهجرات ، مما يمثل تبسيطًا لفهم العلل المحركة للأحداث ، خصوصًا وأنها لا تنطلق مـن فلسفة معينة لفهم حركة التاريخ .

ذلك أنه حتى إذا ثبت لنا أن الحروب الصليبية كانت بالفعل هجرةً عارمةً من الغرب إلى الشرق ، إلاّ أنه لا يمكن أن نسلكها فى إطار سلسلة معينة للهجرات الكبرى ، لاختلاف الأسباب الموضوعية التى حركت كلاً منها ، واختلاف الأزمنة والعصور .

وهناك فريق من المؤرخين يرى فى الحروب الصليبية حركة حجٍّ جماعى إلى بيت المقدس . ذلك أن الحج وزيارة قبور الأولياء والتصدق والصوم والاعتراف بالخطايا ، هى من مظاهر التوبة التى تعتبر عند الكاثوليك إحدى الأسرار السبعة التى تستند إليها العقيدة . ولذلك لقى الحج إلى القدس اهتمامًا بالغًا من الأقطار الأوروبية التى تتبع الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وبدأ ذلك منذ الاعتراف بالديانة المسيحية فى عهد قسطنطين الكبير ، إذ ينسب إلى والدته هيلانة تشييد كنيسة القيامة ، كما اهتم شارلمان بذلك ووهب أموالاً لرئيس أساقفة القدس لإقامة مؤسسات خيرية للحجاج فى مطلع القرن التاسع ، ولكن انحلال الإمبراطورية الكارولنجية (إمبراطورية شارلمان) شغل أوروبا عن الاهتمام بالحج ، كما ظلّت مشاريع الحج مشاريع فردية ، وإذا خرجت جماعة من غرب أوروبا للحج كان عدد أفرادها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة .

على أن عدد الحجاج أخذ يتزايد فى القرن الحادى عشر ، حتى تحول إلى حج بالجملة ، فكان يخرج بضعة مئات تحت زعامة أسقف أو نبيل ، ويتجهون سويًّا من غرب أوروبا إلى الأراضى المقدسة بالشام فى مظاهرة دينية سلمية. ثم ما لبث الحج الجماعى أن أخذ يتحول من الصفة السلمية إلى الصفة الحربية !. وتحولت جماعات الحجاج من جماعات مسالمة إلى جماعات مسلحة !. وبدأ ذلك فى عام ١٠٦٤ فى الجماعات التى خرجت من نورمانديا بزعامة رئيس أساقفة مينز الذى يسمى «جونثر» ، وبلغت سبعة آلاف ، وقد حملوا معهم السلاح للدفاع عن أنفسهم !. ويدلّل هذا الفريق من المؤرخين على رأيه بأن الوثائق تثبت أن عدد الحجاج الذى خرج من غرب أوروبا إلى القدس كان ستةً فى القرن الثامن ، وأصبح اثنى عشر فى القرن التاسع ، ثم ستة عشر فى القرن العاشر ، ومائة وسبعة عشر فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، ثم أصبح سبعة آلاف فى قافلة رئيس أساقفة مينز السالفة الذكر سنة ١٠٦٤م .

ويعزو هذا الفريق ظاهرة تحوّل قوافل الحجاج المسيحيين من قوافل عزلاء إلى قوافل مسلحة ، إلى الهجمات التى كان يشنها عليهم المسلمون ، والاضطهادات التى كانت تلقاها فى الأراضى الإسلامية .

وإذا نحن تجاوزنا عن الأخطاء الواردة فى هذه النظرية ، حيث أصبح من الثابت أن العوامل التى حركت قوافل الحجاج فى تلك الفترة تختلف كل الاختلاف عن العوامل التى حركت الجيوش الصليبية ، فالأولى دينية بحتة ، والأخرى مادية رئيسية تتخفّى تحت الستار الدينى- فإن ما يهمنا قوله هو أن الزعم بأن تحوّل جماعات الحج من جماعات مسالمة إلى جماعات مسلحة ثم إلى جيوش صليبية إنما كان سببه الاضطهادات التى تعرض لها المسيحيون – هو زعم باطل ؛ إذ يثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائمًا فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئةً هانئةً . تشهد عليها رسالة ثيودوسيوس بطريق بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله اجناتيوس بطْريق القسطنطينية ، وفيها يمتدح المسلمين ويثنى على قلوبهم الرحيمة ، وعلى تسامحهم المطلق ، ويقول إنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس ، ولم يتدخلوا فى شئونهم الخاصة . وذكر بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد فى رسالته : «إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذًى أو تعنت» ! .

وإذا كانت قد وقعت اضطهادات قليلة شذّت عن هذه القاعدة فى بعض العهود ، كما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، الذى أمر سنة ١٠٠٩ بهدم كنيسة القيامة – إلاّ أنه من الثابت أنه عدل عن ذلك ، وأخذ يتقرب إلى المسيحيين ، وعادت الأمور طبيعية بين الفاطميين والبيزنطيين ، وسمح بترميم كنيسة القيامة ، كما سمح بإقامة مستشفى لتمريض الحجاج فى القدس سنة ١٠٧١ عرفت باسم مستشفى القديس جون ، وقد تحولت فيما بعد إلى مركز فرقة الاسبتارية (الداوية) العسكرية . ومعنى ذلك أنه لا يمكن أن نعزو الحروب الصليبية التى قامت فى أواخر القرن الحادى عشر ، إلى أحداث قامت قبل ذلك بتسعين عامًا فى أوائل ذلك القرن ! . ومن الثابت أن الحاكم بأمر الله كان يحتضن المسيحيين ويعتمد عليهم على النحو الذى أثار غيرة المسلمين ! . وقد أثبتنا ذلك فى صفحات الدراسة فى موضعها .

ثم إن المؤرخين الأوروبيين هم آخر من يندّد بتلك الاضطهادات الشاذّة ، والحالات الفردية ، أو يتّخذ منها دليلاً على تعسّف حكام المسلمين مع المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ؛ لأنهم يعرفون جيدًا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر ، بدأت منذ القرن الرابع للميلاد ، واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . ويكفى ما هو معروف مما قام به خلفاء

الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بالقوة ، حتى إنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة «فردن» الشهيرة أكثر من أربعة آلاف جملةً واحدة !. وما ارتكبه أيضًا الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة ، فى محاولاتهم نشر المسيحية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطئ البحر البلطيق ، هذا فضلاً عما قامت به محاكم التفتيش ضد المسلمين والمسيحيين المخالفين على السواء ، وما قام به المبشرون الجزويت فى القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية فى الهند !.

وحتى إذا ما قبلنا جدلاً فكرة تأمين طرق الحج عن طريق تخليص الأراضى المقدسة من السيطرة الإسلامية ، فإن وقائع الحروب الصليبية ذاتها تثبت أن عداء الصليبيين لم يتجه فقط إلى المسلمين ، فقد اتجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ذاتها ، عاصمة الدولة البيزنطية ، وقامت بنهب كنائسها ، وسرقة أديرتها ، والاعتداء على أهلها بالقتل والضرب ، وهم جميعًا إخوتهم فى الدين !. الأمر الذى يستبعد تمامًا فكرة تأمين الحج فى تفسير الحروب الصليبية .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نثبت وجهة نظر مؤرخى البروتستانت فى الحروب الصليبية ، فقد اعتبروها «بدعة استغل فيها البابوات الكاثوليك الأوهام ليوسعوا سلطانهم» !. واعتبرها أنصار الفلسفة العقلية فى عصر التنوير ، «مجرد اندفاعات عاطفية أفرزتها جاهلية العصور الوسطى» !. ورأى مؤرخو المدرسة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر أنها تعد مظهراً من مظاهر عصر الفروسية وبطولاتها . وفهمها المؤرخ الكبير جيبون على أنها «مظهر من مظاهر العناد تستحق الرثاء والإعجاب فى وقت واحد !. إذ جازف فيها الناس بكل ما يملكون على اختلاف مراتبهم الاجتماعية على مدى ستة أجيال متعاقبة . ومن أجل ماذا ؟ لمحاولة الاستيلاء على جدث تباعدهم عنه مسافة ألفى ميل» !.

على أن فهم الحروب الصليبية لا يمكن أن يتم بطريقة سليمة إلاّ فى ضوء ظروف ميزان القوى بين القوى العربية الإسلامية والقوى الأوروبية المسيحية فى ذلك الحين . فلعل المؤرخين الإسلاميين الذين عاشوا الفترة الصليبية قد فهموا هذه الحروب على حقيقتها ، حين اعتبروها «ردّ فعل للفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام» !. وكان ابن الأثير محقًا فى قوله إنها «حرب ثأرية» !. وفى الحقيقة إنها لا تعدو أن تكون حركةً من حركات المدّ والجزر فى ملحمة الصراع بين العرب

وأوروبا منذ فجر الإسلام . وقد شهدنا كيف انطلق المدّ العربى الإسلامى عارمًا فى البداية مكتسحًا فى طريقه كل ما تملكه أوروبا من أراضٍ خارج القارة ، ثم غزاها فى معقلها ، واستمر هذا المدّ ثلاثة قرون كاملة بصفة مطلقة ، وكان القرن الثالث الهجرى بالذات عصر السيادة البحرية الإسلامية . وفى القرن الرابع الهجرى حدث توازن فى القوى بين العرب وأوروبا بسبب تفكك الدولة العباسية وظهور الأسرة المقدونية فى بيزنطة ، وظهور قوى إسلامية تجديدية حملت لواء مواجهة أوروبا فى المشرق والمغرب على السواء ، واستمر هذا فى القرن الخامس الهجرى ، فكانت موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١م فى الشرق ، وموقعة الزلاقة فى الأندلس سنة ١٠٨٦م شاهدين تاريخيين لا يكذبان على توازن القوى بين القوى العربية الإسلامية والقوى الأوروبية المسيحية .

على أنه منذ أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أخذ ميزان القوى يميل إلى صالح أوروبا ، وبدأت حركة المدّ الأوروبى المسيحى كردّ فعل لحركة المد العربى الإسلامى الذى توقف ، وكان مظهر هذا المد الأوروبى هو ما أطلق عليه الحروب الصليبية .

وقد جرى الوضع فى كتب التاريخ على أمرين : الأول ، تحديد المدى الزمنى للحروب الصليبية بين سنتى ١٠٩٥ - ١٢٩١م . ثانياً ، تحديد عدد الحملات الصليبية بثمانى حملات . وقد تصدّى بعض المؤرخين بالتفنيد لهذين التحديدين .

فبالنسبة للتحديد الأوّل ذكروا أن الدراسة السليمة الوافية للحركة الصليبية تثبت أن هذا التحديد غير صحيح . لأن التيار الصليبى لم يتوقف بعد سقوط عكّا سنة ١٢٩١م ، وإنما استمر بعد ذلك ، الأمر الذى ترتب عليه عدم توقف الحروب الصليبية طوال القرن الرابع عشر وشطر كبير من القرن الخامس عشر !

أما بالنسبة للتحديد الثانى ، فقد لاحظ هذا البعض أنه ليس من الصحيح أن عدد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى المدة الواقعة بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر ، كان ثمان فقط . لأنه منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧م ، لم يمرّ عام واحد دون مجىء جموع صليبية جديدة ! . وبعض هذه الجموع فاقت ، فى كثرة عددها ، وفى أهمية ما حققته من نجاح ، الحملات الصليبية المعروفة .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هى أسباب شهرة هذه الحملات الصليبية الثمانية ؟ إن هذه الأسباب ترجع فى رأى البعض إلى خروج بعضها تحت زعامة كبار ملوك الغرب ، مثل الحملات

الثانية ، والثالثة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة . كما ترجع إلى ما حصل بعضها عليه من نجاح في الأراضى المقدسة ، مثل الحملة الأولى ، أو ما كان لها من اتجاه غير مألوف فى غيرها من الحملات الصليبية ، مثل الحملة الرابعة التى اتجهت ضدّ القسطنطينية ، والخامسة التى اتجهت ضدّ مصر .

٣٢ - توحد أوروبا تحت عباءة الصليب

- المسرح السياسى فى المشرق عند بدأ أول حملة صليبية .
- قيام سلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول .
- قيام الدولة الأرمينية فى آسيا الصغرى وأطراف الشام .
- انقسام دولة السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية .
- الظروف الإقتصادية فى غربى أوروبا .
- أزمة المجتمع الإقطاعى .
- دور المدن الإيطالية التجارية .
- أوضاع الكنيسة الغربية ودورها فى الدعوة الصليبية .
- لغة الدين والدنيا فى خطاب البابا أوربان الثانى Urban II فى مؤتمر كليرمونت Clermont ١٠٩٥ م .

٣٢ - توحد أوروبا تحت عبادة الصليب

بعد هذا العرض لآراء المؤرخين فى تفسير الحروب الصليبية ، وبعد مناقشة وتمحيص هذه الآراء - يهمنا الآن دراسة المسرح السياسى فى الشرق والغرب الذى مهّد بصورة مباشرة لأوّل حملة صليبية على العالم الإسلامى فى المشرق ، والذى تمثل نقطة البداية فيه العلاقات بين الدولة السلجوقية والدولة البيزنطية بعد معركة مانزكرت سنة ١٠٧١ .

وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية هذه المعركة التاريخية التى منيت فيها الإمبراطورية البيزنطية بأكبر كارثة عسكرية فى ذلك العصر المتأخر من تاريخها . وقد كانت هذه الكارثة هى نقطة التحول فى مستقبل هذه الإمبراطورية العظيمة ، وبداية انحلالها وسقوطها فى النهاية . كما أنها تعتبر فى نظر كثير من المؤرخين من الأسباب التى أدت إلى دعوة الحروب الصليبية فى الغرب الأوروبى ؛ لأنها أنهت دور الدولة البيزنطية فى حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزو القوى العربية والإسلامية ، وصار على الغرب تبعًا لذلك أن يقوم بدوره فى هذا المضمار ، ويتحمل المسئولية التى حملتها هذه الإمبراطورية منذ ظهور الإسلام .

وفى الحق أن الهزة التى أصابت الدولة البيزنطية بعد هذه الهزيمة ، لم تلبث أن ضاعفت من تأثيرها ونتائجها ، فقد قامت الحروب الأهلية داخل الدولة عندما وصلت أنباء الهزيمة ، فاعتلى ميخائيل السابع العرش البيزنطى بدلاً من الإمبراطور رومانوس المهزوم ، واعتبر الأخير مسئولاً عن الهزيمة ، واتهمه بالخيانة العظمى ، وقبض عليه بعد مقاومة ، وسمل عينيه حتى توفى . وما لبثت أن قامت حرب أهلية جديدة مهدت الطريق لاستيلاء السلاجقة على فريجيا وبيثينيا حتى بحر مرمرة ؛ إذ خرج نقفور حاكم إقليم عمورية فى فريجيا على الإمبراطور ميخائيل السابع ، واستعان بالسلاجقة ، الذين تدفقوا على غرب آسيا الصغرى ، واستولوا باسم الحاكم الثائر على كثير من المدن ، مثل : نيقية ، ونيقوميديا ، وخلقدونيا ، والبسفور . وكانت هذه أوّل مرة يحتل فيها السلاجقة نيقية بوصفهم حماة الإمبراطورية ، ثم ما لبثت ظروف الصراع داخل الإمبراطورية أن مكنت للسلاجقة من البقاء فى الأراضى التى احتلوها فى آسيا الصغرى ، وأصبحت مدينة نيقية

أوّل عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول ، حتى حلّت محلّها قونية فيما بعد – أى من ١٠٨١ – ١٣٠٢ . ثم احتلوا مدينة أزمير على بحر إيجه ، ففقدت الدولة البيزنطية الأمل فى استرداد آسيا الصغرى . وهكذا كان السلاجقة عند قيام الكسيوس كومنين إمبراطورًا على الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ ، هم السادة الحقيقيون فى آسيا الصغرى ، من الفرات شرقاً حتى بحر مرمرة غربًا !.

على أن حركة التوسع السلجوقى فى آسيا الصغرى اتخذت اتجاهًا أفقيًا ، من الشرق إلى الغرب ، عبر أرمينية ، وكبادوكيا ، وفريجيا ، وبيثينيا ، وأيونيا ، حتى شملت جميع الجهات الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة . أما الأقاليم الجنوبية والشرقية من آسيا الصغرى التى تقع حول طوروس وملطية ، ثم الرها وأنطاكية ، فلم يتجه إليها السلاجقة فى أوّل الأمر ، مما أدّى إلى عزلها عن بقية بلاد الإمبراطورية البيزنطية ، ووقوعها بين شقّى رمى الصراع بين السلاجقة والدولة البيزنطية ، ثم أصبحت مركزًا لحركة إحياء أرمينيَّة على جانب كبير من الأهمية ، تفسر فى رأى بعض المؤرخين ، السهولة التى تمكن بها الصليبيون بعد ذلك من الوصول إلى الجزيرة والشام وغزو الرها وأنطاكية ؛ إذ تكونت دولة أرمينية جديدة فى طوروس ، دخل فى حمايتها المسيحيون فى أنطاكية والرها وغيرهما من المدن والأقاليم الشرقية . بعد أن قطع السلاجقة الطريق بينهم وبين القسطنطينية ، وكوّنوا إمارات صغيرة مستقلة تحت حماية الأرمن . وقد استطاع السلاجقة استرداد أنطاكية سنة ١٠٨٧ ، ولكن الأرمن احتفظوا بملطية ومدينة الرها حتى وصول الصليبيين . وهكذا مهّد الحكم الأرمنى فى أسيا الصغرى الشرقية وأطراف العراق والشام لحكم الصليبيين الغربيين .

على أن دولة السلاجقة لم تلبث أن أخذت فى التفكك بعد وفاة السلطان ملكشاه ، فلم تحلّ سنة ١٠٩٦ حتى كانت قد انقسمت إلى خمس ممالك مستقلة متنافسة هى : سلطنة فارس (أصبهان) ، ومملكة خراسان وما وراء النهر ، ومملكة حلب ، ومملكة دمشق ، وأخيرًا سلطنة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى . وبذلك تفككت هذه القوة وتفتتت عند فجر الحركة الصليبية ؛ بل دخلت فى صراع وحروب بين بعضها والبعض الآخر !.

ولم تلبث السيادة السلجوقية أن أخذت تنحسر عن بلاد الشام ، وتظهر وحدات سياسية صغيرة عرفت باسم الأتابكيات على أنقاض دولة السلاجقة فى الشام . وفى الوقت نفسه كان الفاطميون فى صراع دائم مع السلاجقة ، وقد انتهزوا فرصة تعرض السلاجقة لغزو الصليبيين ، فخرج من مصر جيش فاطمى بقيادة الوزير الأفضل ، حاصر بيت المقدس ، واستولى عليها ، وما لبث أن

سقطت فى يده بقية فلسطين ، واستغل الفاطميون تفوقهم البحرى على السلاجقة ، فسيطروا على سواحل الشام ، فيما عدا طرابلس ، التى أصبحت إمارة مستقلة تحت حكم القاضى الشيعى ابن عمار . وبذلك تفتتت بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين والقوى العربية المحلية .

ولم تكن مملكة السلاجقة فى الأناضول أقل تفتتًا ؛ إذ عمل الأمراء المحليون على الاستقلال عمليًا فى نيقية وأزمير وكبادوكيا ، وتوقف توسع السلاجقة جهة الغرب حوالى سنة ١٠٩٥ ، مما أتاح الفرصة للدولة البيزنطية لاسترداد سيادتها على الجهات الساحلية فى بيثينيا وأيونيا ، ولكنها كانت قد فقدت قدرتها على طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ؛ إذ أصبح وجودهم أمرًا واقعًا .

فى ذلك الوقت الذى ضعفت فيه القوى العربية والإسلامية فى المشرق العربى ، وضعفت أيضاً الدولة البيزنطية ، كان الغرب الأوروبى يستعد للقيام بالحملة الصليبية الأولى . وكانت الظروف الاقتصادية والسياسية فى غرب أوروبا قد نضجت لهذه الحملة . فى ذلك الحين كان غرب أوروبا ، وبخاصة فرنسا ، قد تعرض لأزمات اقتصادية عنيفة ، حتى ليؤكد بعض المؤرخين أن فرنسا كانت تعانى مجاعةً شاملةً قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، إذ ندرت الغلال ، وارتفعت أسعارها ارتفاعًا فاحشًا ، ولعب التجار ، وجلّهم من اليهود ، دورًا كبيرًا فى زيادة حدّة الأزمة ، وبلغ الأمر بهذه الأزمة الاقتصادية فى بعض جهات الغرب حدّ التجاء الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش . وكانت أوضاع الإقطاع بما تفرضه من قيود على التجارة وانتقالها من مكان لمكان مما ساعد على انتشار الأزمة ، وجاءت الحروب بين الأمراء الإقطاعيين لتضر بالزراعة وحقولها ضررًا كبيرًا .

وهذا يفسر ما سوف نراه فى الحملة الصليبية الأولى من خروج ما يمكن أن نسميه جيش الجوْعى ، أو ما يطلق عليه بعض المؤرخين اسم الجيش الشعبى غير النظامى ، أو المرحلة الشعبية غير النظامية من الحملة الصليبية ! . وتتكوّن من حشود المعدمين والفقراء والمساكين وطريدى القانون ، الذين جاءت الدعوة الصليبية لتفتح أمامهم بابًا جديدًا للهجرة والخلاص من أوضاعهم الاقتصادية المستحيلة داخل أوطانهم . وقد خرج هؤلاء تحت العلم الصليبى بدافع من بطونهم لا بوحى من دينهم ، باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم ! . وبغرض عتق أنفسهم من عبودية الإقطاع ، لا الدفاع عن الدين ! .

على أنه فى الوقت نفسه كانت هناك أسباب أخرى لا تقل إلحاحًا ، تتعلق بالإقطاعيين أنفسهم ؛ وتتمثل فى ضيق الأرض بهؤلاء الإقطاعيين ! . ولتفسير هذا الكلام فإن النظام

الإقطاعى ارتبط دائماً بالأرض ، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً بقدر ما تكون مكانة الأمير الإقطاعى . على أن طبيعة هذا النظام فى غرب أوروبا أدّت إلى وجود عدد كبير من الأمراء والفرسان بدون إقطاعات ؛ لأن الابن الأكبر وحده هو الذى كان يرث الإقطاع ، وبالتالى فقد وجد عدد كبير من هؤلاء لا يملكون أية إقطاعات ، الأمر الذى كان يجعلهم عديمى الأهمية ، مسلوبى النفوذ ، ويؤثر على وضعهم الاجتماعى أشد تأثير ، كما أدّى إلى كثرة النزاعات فيما بينهم للحصول على إقطاعات . وقد جاءت الدعوة الصليبية لتقدم لهؤلاء الأمراء والفرسان المحرومين فرصة واسعةً للحصول على إقطاعات فى الشرق تعوضهم عما فاتهم فى الغرب !. ومن الضرورى ملاحظة هذا العامل ، لأنه سوف يفسر لنا نزاعات أمراء الحملة الصليبية فيما بعد ، وكيف أخذوا يقسمون الغنيمة وهم فى طريقهم للشام قبل الحصول على هذه الغنيمة فعلاً !. وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الحروب تعدّ أوّل تجربة فى الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوروبية فى العصور الوسطى خارج حدود بلادها ، لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة ..!

ولعلّ الدور الخطير الذى لعبته المدن الإيطالية التجارية ، ونقصد بها جنوة وبيزا والبندقية ؛ ويسميها بعض المؤرخين «الثلاثة الكبار» !. مما يفسّر تأثير العامل الاقتصادى فى الحروب الصليبية ، ذلك أن هذه المدن ، أو الدويلات الصغيرة النشطة ، اعتبرت الدعوة الصليبية وسيلةً للسيطرة على الطرق التجارية البحرية إلى الشرق واحتكار الأسواق !. وفى ذلك يقول المؤرخ الفرنسى «شالندون» : «إن المتبصر فى تاريخ أوروبا القرن الحادى عشر وتطوراته الاقتصادية ، وخاصة المدن الإيطالية ، يدرك سر اهتمام تلك المدن بإمداد الصليبيين بالسفن لنقلهم إلى الشرق !». ومن الثابت أن المساعدات التى قدمتها حكومات جنوة وبيزا والبندقية إلى الصليبيين ، كانت لقاء امتيازات اقتصادية حصلت عليها بمعاهدات عقدتها مع القوى الصليبية ؛ ولم تكن لمرضاة الله أو إكراماً للكنيسة !. ولذلك فى معظم موانى الشام ومدنه الكبرى التى استولى عليها الصليبيون فيما بعد ، تمتعت هذه المدن الإيطالية بإعفاءات خاصة ، فضلاً عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجارها !. وكذلك كان الحال بالنسبة لمارسيليا فيما بعد !. وهذا كله يوضح العامل الاقتصادى المتخفى تحت عباءة الصليب !.

فى ذلك الحين كانت الكنيسة الغربية – كنيسة روما – قد أصبحت قوّةً محركةً للأحداث ، بعد حركة إصلاحات شاملة عرفت باسم «الحركة الكلونية» . وقد بدأت بإصلاح الأديرة فى القرن العاشر ، واتسع نطاقها فى القرن الحادى عشر لإصلاح الكنيسة بوجه عام . ولم تلبث البابوية أن

دخلت فى صراع مع الإمبراطورية لانتزاع السيطرة العلمانية إلى جانب السيطرة الدينية !. وأخذت تتطلع إلى فرض زعامتها الروحية على العالم المسيحى بأسره ، على حساب كل من الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية من جهة ، وعلى العالم المسيحى الشرقى الواقع تحت السيادة الإسلامية من جهة أخرى !.

ومن سخرية الأقدار أن كارثة «مانزكرت» قد لعبت دورًا فى زيادة نفوذ البابوية فى الغرب ؛ إذ استنجد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع بالبابوية على أثر هذه الكارثة ، راجيًا منها التوسط لدى أمراء أوروبا لتكوين فرق عسكرية أجيرة ، لمقاومة السلاجقة . ولما كان الاعتقاد السائد فى أوروبا المسيحية أن القسطنطينية تمثل خطّ الدفاع الأوّل من جهة الشرق ، فلذلك هبّ البابا جريجورى السابع إلى إرسال خطابات إلى أمراء الإقطاع يدعوهم إلى مدّ يد المساعدة للبيزنطيين ، وانتقل هذا الدور بعده إلى البابا أوربان الثانى لتحريك الغرب الأوروبى تحت قيادة الكنيسة ، وانتزاع الزعامة الدينية والدنيوية .

وبطبيعة الحال لم يتصور الإمبراطور البيزنطى أن تؤدّى هذه الدعوة إلى مساعدته إلى قدوم جحافل الصليبيين على نحو ما تم بعد ذلك !. فقد شبّه المؤرخ الكبير «جيبون» موقف الإمبراطور البيزنطى من هذه الجحافل بذلك الراعى الذى رفع يديه إلى السماء يستجدى القطر لينبت المرعى ، فجادت عليه بالطوفان !. ولكن الدعوة فى الحقيقة وصلت إلى البابوية فى الظروف الاقتصادية والسياسية السالفة الذكر ، فأمكنها تعبئة تلك الحشود بأيسر الجهود . وسوف نرى أن الدولة البيزنطية ذاتها سوف تقاسى من الحملات الصليبية كما قاسى المشرق العربى ذلك أن بدء هذه الحملات كان يعنى فى الحقيقة انتهاء الدور التاريخى للدولة البيزنطية ، وابتداء دور الغرب الأوروبى فى الصراع بين العرب وأوروبا فى المشرق العربى .

وقد كان الدور السياسى فى هذه الحروب فى يد البابوية فى البداية كما ذكرنا ، وهذا يناسب ظروف العصر الإقطاعى . فمن الثابت أن ملوك الغرب لم يكونوا من المتحمسين للحرب الصليبية ، فيما عدا لويس التاسع ملك فرنسا الذى عرف بتدينه وحماسه الدينى . فلم يكن لدى هؤلاء الملوك من دافع للاستجابة للدعوات العديدة التى دأب البابوات على إرسالها إليهم للخروج على رأس جيوشهم لمحاربة المسلمين ، فلم تكن لديهم أطماع سياسية يريدون تحقيقها كتلك التى كانت تحرك الأمراء الصغار والفرسان سعيًا وراء تأسيس إمارات فى الشرق تعوضهم عمّا حرموه فى الغرب !.

ولهذا السبب لم يخرج هؤلاء الملوك مثل فردريك بربروسا ، وريتشارد قلب الأسد ، وفيليب

أوغسطس ، وفردريك الثانى ، للاشتراك فى الحروب الصليبية إلاّ مرغمين تحت تهديد البابوية . فلم يكن واحد منهم ليستطيع أن يعصى أمرًا للبابوية وإلاّ تعرض لعقوبة الحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه بعد ذلك . وقد كان الإمبراطور فردريك الثانى مثالاً على ذلك . فقد رفض جميع الدعوات التى وجهها إليه البابوات واحدًا وراء الآخر للخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ، حتى أصدرت البابوية ضدّه قرارًا بالحرمان ، وعندئذ خرج مكرهًا . على رأس فصيلة قليلة من رجاله قاصدًا الشام ، وبادر فور وصوله إلى الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبى ليشرح له موقفه قائلاً إنه « ماله غرض فى القدس ولا غيرها يسعى لتحقيقه ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج » حسب تعبير المقريزى ! .

وعلى كل حال فإن دعوة الإمبراطور البيزنطى للبابوية للمساعدة قد لقيت فى عهد البابا أوربان الثانى حظ التنفيذ ؛ لأسباب تتصل بأطماع البابوية أكثر مما تتصل بالناحية الدينية المتمثلة فى الخطر على المسيحية ! .

فالمفارقة الغريبة أن الحملة الصليبية التى شنّها البابا لإنقاذ المسيحية من الخطر ، تمت فى وقت لم يكن هناك أى خطر من ناحية المسلمين ! . إذ ابتعد هذا الخطر وتراجع تمامًا فى تلك الأثناء ، فقد تدهورت الأوضاع الداخلية للسلاجقة وانقسمت دولتهم وتصارعت فيما بينها ، واشتد الصراع بينهم وبين الفاطميين ، هذا بالإضافة إلى الانتصارات البحرية الغربية التى حققتها أوروبا فى الميادين الأخرى ، وهى انتصارات كل من بيزا والنورمانديين على القوى الإسلامية فى الجناح الغربى للبحر المتوسط ، وانحسار السيادة الإسلامية البحرية فى تلك الجهات ! .

ومن هذا المنظور يجب أن نفهم انتصار الدعوة للحرب الصليبية ، فلم تكن بسبب قوة المسلمين ، وإنما كانت بسبب ضعفهم ! . ولذلك فشلت هذه الدعوة حين وجهها البابا جريجورى السابع بعد موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ ؛ لأن قوّة المسلمين كانت رادعة لأية قوة صليبية تفكر فى الخروج ، ولكنها نجحت بعد ربع قرن من هزيمة مانزكرت ، وبعد ضعف القوى الإسلامية وتفككها ! .

وفى هذا الضوء يمكننا أن نفهم لماذا استغلت دعوة المساعدة البيزنطية إلى حدّ خداع الناس . فقد اتخذ البابا أوربان الثانى خطوتين لتحريك الجماهير : الأولى فى مؤتمر « بيازينزا » فى شمال إيطاليا فى مارس سنة ١٠٩٥ ، والثانية فى مؤتمر كليرمونت فى فرنسا فى نوفمبر ١٠٩٥ م . وقد حضر المؤتمر الأول وفد بيزنطى « مزيف » — حسب قول المؤرخ بلجريف . إذ جنّد أفراده الأمير النورماندى

بوهيمند ، وألبسهم أزياء بيزنطية ، لإثارة الحماس فى المجتمعين ! . وكانت للأمير مآرب يريد تحقيقها من وراء الاشتراك فى هذه الخدعة . وعندما فشلت الاستجابة للدعوة فى هذا المؤتمر ، واصل البابا تجواله فى مسقط رأسه فرنسا ، ونجح فى عقد مؤتمر آخر فى كليرمونت ، استغل فيه فكرة الخطر المزعوم على المسيحية فى خطابه المشهور ، ونجح فى هذه المرة فى تفجير الحرب الصليبية بسبب بلاغته ولعبه على وتر العاطفة الدينية .

ولا يستطيع مؤرخ أن يتعرض للحروب الصليبية دون التعرض لهذا الخطاب ؛ لأنه يوضح أنه لم يكن من وحى بديهة البابا ، وإنما كان مرسومًا بعناية فائقة ، من قبل إلقائه ، بحيث يحدث التأثير المطلوب . وقد أورد المؤرخ وليم أوف مالمسبورى الخطاب على النحو التالى :

«يا أمة الفرنج ، يا أبناء السلالة التى أحبها الله واصطفاها . وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية (!) أنباء مفجعة مفادها أن أمة من الأمم اشتطّت عن السبيل ، فعاثت فى ديار المسيحية سلبًا وحرقًا وقتلاً ! . وقادوا جموعًا منهم أسرى ، وأهلكوا آخرين بالتعذيب المبرح ، ودمروا بيوت الله ، واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الأرجاء ، لا تقطع بمسيرة شهرين ! .

« فعلى من تقع تبعية الثأر واستعادة الديار ؟. ألا تنهضوا أنتم بهذا الأمر ؟ يا من شرفكم الله بفضله ، وأسبغ عليكم العزّة والسؤدد ، وحباكم من نصره على أعدائكم ؟. لتكن مآثر الأجداد ، ومآثر شارلمان ومن سار بسيرته ، حافزًا لكم . وليكن استعادة القبر المقدس سببًا لاستنفاركم .

« ابعدوا الهواجس المثبطة لهممكم عن أفكاركم ، فلا خوف على أموالكم ومن تعولون ! .

«إن الأرض التى تعيشون عليها الآن ، المحصورة بين البحار والجبال ، هى أضيق من أن تستوعبكم ! . وهذا هو ما يجعلكم تقتلون بعضكم بعضاً ، ويهلك منكم الكثير . فاربأوا بأنفسكم عن الضغائن ، وانزعوا الحقد من قلوبكم .

« اسلكوا سبيل الله حيث يوجد البيت ، وأنقذوا تلك الأرض ، وامتلكوها لأنفسكم . فإن القدس هى من أكثر بلاد الدنيا ثمارًا ، وهى جنّة الأفراح ومركز الدنيا . إنها اليوم تناشدكم المساعدة ، فاقصدوها بكل شوق ، تغفر لكم ذنوبكم ، وجزاؤكم دار الخلود ! » .

ثم حدد البابا موعد سفر الحملة فى ١٥ أغسطس ١٠٩٦ ، وأن تكون القسطنطينية نقطة التجمع والانطلاق ، ووعد بغفران الذنوب لمن يحمل السلاح ، وهدّد بعقوبة الحرمان لمن يحجم عن الذهاب ! . وأشار إلى فرص الثراء التى تنتظرهم فى الشرق .

ومن ذلك الخطاب يتضح أن البابا قد استخدم لغة الدين والدنيا على السواء !. ففى حين وعد بالجنة والخلود لمن يحارب المسلمين ، فقد وعدهم أيضًا بالثراء وامتلاك الأرض !.

لذلك حرك الخطاب عواطف المستمعين ، فدوّى الجمهور بالصيحة المعهودة ؛ «إنها مشيئة الله» . ووفقًا للخطة الجديدة ، فقد جثا أدهمار ، أسقف بوى Puy ، أمام قدمى الباب راجيًا أن يكون له شرف المساهمة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين . وبذلك صار ذلك الأسقف أوّل من افتتح قائمة المتطوعين ، واختاره البابا – وفقًا لتوزيع الأدوار – مندوبًا بابويًّا فى الحملة الأولى ، إذ كان من الضرورى أن يكون للحملة مندوب من قبل البابا لتحقيق سيطرة الكنيسة وإشرافها على الحركة الصليبية وعلى الأراضى التى سيفتحها الصليبيون ، وهو ما حدث فعلاً ، إذ نادى المطران دايمبرت Daimbert ، عقب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، بأن هذه المدينة هى من نصيب البابوية !.

ولم يلبث البابا أن أخذ يعمل على إزالة أية عراقيل قد تحدّ من فعاليات الحركة . فقد حرّر الأقْنان عبيد الأرض ، وكذلك الأتباع ، من يمين الولاء والطاعة لسادتهم الإقطاعيين ، طيلة مدة اشتراكهم فى الحروب !. ثم أنعم على الصليبيين بامتياز المرافعة فى المحاكم الدينية بدلاً من المحاكم الإقطاعية ، ووضع أملاك المحاربين تحت حماية الكنيسة أثناء غيابهم لمدّة ثلاث سنوات .

وبطبيعة الحال فقد رحب الجميع بهذه الدعوة المدروسة المخططة . فقد رحّب بها المتدينون طمعًا فى ثواب الآخرة . ورحب بها الأقنان طمعًا فى تحررهم من عبودية الأرض ، ورحبت بها المدن الإيطالية التجارية طمعًا فى الثراء ، ورحب بها المدينون لتعطيل الدعوة إلى استيفاء الأرباح ، ورحب بها المجرمون لأنها حولت عقوبة الموت إلى جهاد مدى الحياة فى فلسطين !. ورحب بها المغامرون طمعًا فى الكسب «فى أرض الحليب والعسل» !

على أن البابا أعفى الأسبان من الاشتراك فى الحملة الصليبية ؛ لأنهم كانوا فى رأيه يخوضون هذه الحرب بالفعل فى أوروبا منذ وقت طويل !. فقد وجه إليهم رسالةً طلب فيها من ملوكهم مواصلة الكفاح ضد المسلمين ، وإعادة ما تهدم من دور العبادة هناك ، بدلاً من الاشتراك فى الحملة الموجهة إلى الأراضى المقدسة . وبذلك أبقى الأسبان للدفاع عن الجناح الأيسر لأوروبا . كما أعفى الروس من الاشتراك فى الحملة ، لصمودهم أمام القبائل الوثنية المنهالة عليهم من الجهات الآسيوية منذ منتصف القرن الحادى عشر ، وحتى يحافظوا على الجناح الأيمن لأوروبا .

وبذلك تهيأ المسرح لأخطر صراع وقع فى ذلك الحين بين العرب وأوروبا . وكانت خطورة هذا الصراع هو أن أوروبا الغربية خاضته مجتمعةً متآلفة متحالفةً تحت علم الصليب ، بينما خاضه العرب والمسلمون منقسمين متفرقين .

٣٣ – زحف الجياع على المشرق الاسلامى

- قادة الحملة الصليبية الشعبية .
- نهب بلاد البلقان على يد الحملة الشعبية .
- اصطدام قوات والتر المفلس Walter the Penniless بالبيزنطيين .
- جرائم قوات بطرس الناسك Peter the Hermit فى الأراضى البيزنطية .
- إبادة الحملة الشعبية فى آسيا الصغرى على يد السلاجقة .
- حملة الأمراء الصليبية .
- جرائم حملة الأمراء فى البلقان .
- أسس الاتفاق بين الإمبراطور البيزنطى والأمراء الصليبيين .

٣٣ - زحف الجياع والأقطاعيين على المشرق الإسلامى

كان اتجاه البابوية إلى المعدمين من عبيد الأرض الأقنان والفقراء والمساكين ، جنبًا إلى جنب مع أمراء الإقطاع وملوك أوروبا ، للزحف على المشرق الإسلامى تحت عبادة الصليب - هو أبرز حدث فى أوروبا العصور الوسطى ، التى درجت على تقسيم عمليتى الإنتاج والحرب ، فيتولى العملية الأولى الأقنان ، ويتولى العملية الثانية الفرسان والإقطاعيون .

وهذا يفسّر كيف أن هؤلاء الفقراء كانوا أسبق من الأمراء إلى التجمع والزحف على العالم الإسلامى ، رغبة فى الانعتاق من عبودية الأرض ومن الولاء للإقطاعيين من جهة ، وأملاً فى حياة أفضل على حساب الشعوب العربية فى المشرق وانتهاب أراضيها ! .

ولكن هذه الرغبة من جانب فقراء أوروبا أفرزت أغرب حملة فى التاريخ ، هى حملة الجياع على المشرق العربى ، أو ماعرفت باسم الحملة الشعبية ، تمييزًا لها عن حملة أمراء أوروبا ، التى عرفت باسم الحملة الأرستقراطية أو النظامية ! .

وكانت خطبة البابا أوربان إلى شنّ الحرب الصليبية ، والتى تحدّث فيها بلسان الدين والدنيا ، ووجهها إلى الأمراء والفقراء ، قد ألهبت حماس الفقراء - حسب قول المؤرخ جيبير - « فلم يعد أحد منهم يفكر فى رقة حاله ، وما إذا كان من الحكمة أن يترك أهله ومزرعته ، وأخذ الناس يبيعون مايملكون بأثمان زهيدة ليدفعوا ثمن حريتهم حتى هبطت الأسعار لكثرة المعروض فى الأسواق ، وحتى بيعت سبعة خراف بمايعادل خمسة دنانير ، مما لم يسبق له من قبل مثيل » !

وكانت الظروف القاسية التى يعيش فيها هؤلاء الفلاحون الأقنان ، وماكانوا يعانونه من فقر وحرمان وخوف دون أن يجدوا أى ضمان لحماية أرواحهم وممتلكاتهم وأرزاقهم . وراء هذا الإقبال على التطوع . وكما يقول أحد المؤرخين الأوروبيين : « لم يكن لديهم مايدعوهم إلى الخوف من الموت ومن حرب المسلمين ؛ لأنهم كانوا فى حال أقرب إلى الموت فعلاً ، وكان لسان حالهم إنهم بدلاً من أن يموتوا على أرضهم محملين بما ارتكبوه من ذنوب ، فمن الأفضل لهم الموت فى حرب مقدسة تغفر فيها ذنوبهم ويدخلون الجنة » !

وهذه الظروف هى التى استغلها عدد من الأفاقين وقطاع الطرق والزهاد لتعبئة هؤلاء الناس

وتحريكهم لخدمة مآربهم فى المشرق العربى . وكان البابا أوربان الثانى قد دعا الأساقفة إلى الدعوة للحرب المقدسة ، فلم يقتصر الأمر عليهم ، وإنما ظهرت إلى جانبهم طائفة جديدة من الدعاة اختلط فيهم الصالح والطالح ، واختلطت فيهم الدوافع الدينية بالدوافع الدنيوية . ومن هؤلاء الدعاة الذين قادوا الحملة الشعبية ألمانى يدعى « إميكو » Emico ، اشتهر طيلة حياته ، كما يقول بعض المؤرخين الغربيين « بقطع الطرق سالبًا ناهبًا ، وقد وافته الفرصة الصليبية فراح يجمع السلاح من بنى قومه ، بعد أن أقنعهم بقدسية رسالته ، وبأن الله قد وهبه معجزة بنقش الصليب على جسمه ! كما وعده الله بأن يكون إمبراطورًا على القدس » . ومن الطريف أن الناس ظلّوا يصدقونه حتى بعد مماته ، ونسبوا إليه المعجزات ! .

وبطبيعة الحال فلم يكن « إميكو » متدينًا ، وإنما همّه الأوحد نهب الأموال بحجة الإغارة على أعداء الدين . ولما كان قليل الصبر لا يستطيع الانتظار حتّى يصل إلى القدس ، ولما كان اليهود فى المدن الألمانية على جانب كبير من الثراء . فقد أقنع جيشه بالهجوم عليهم فى مدن شباير ، وورمز ، ومينز ، وتحولت الحملة الصليبية بفضله من حملة ضد المسلمين ، إلى حملة ضد أعداء المسيحية من المسلمين واليهود !

وقد شارك إميكو فى تاريخه الأسود عدد آخر من القادة الشعبيين الذين ينتمون لنفس سجل السوابق . يذكر المؤرخون الأوروبيون منهم فولكمار وجوتشالك . وبفضل هذين لم تعد الحملة الشعبية الصليبية موجهة ضدّ المسلمين واليهود فقط ، بل وضد المسيحيين أيضًا ! . فنى أثناء سير الجموع الصليبية الشعبية فى البلاد المجرية ، هاجمت مدينة براغ وغيرها من الجهات . فلم يجد الملك المجرى كولمان بدًّا من إعطاء الأوامر بإبادتهم ، وهو ما حدث بالفعل . وهلك القسم الأعظم من الفرق الشعبية الألمانية على يد الجيش المجرى ، وسقط جوتشالك فى الأسر ، وفرّ فولكمار وإميكو ، ووليم النجار ، بفضل سرعة جيادهم ! ، ولم يقدر لأفراد تلك الفرق الألمانية الوصول إلى الأراضى البيزنطية !

على أن الفرق الشعبية من البلاد الأخرى تمكنت من اجتياز الأراضى المجرية . والوصول إلى القسطنطينية ، وأهمها الفرق التى زحفت بقيادة «والتر المفلس» و« بطرس الناسك» .

ويذكر المؤرخون أن والتّر المفلس قد لقب « بالمفلس » لتواضعه ! ، ولكن فرقه التى جمعها فى فرنسا لم تكن أقل رغبة فى النهب والسرقة من الفرق الألمانية ! فمع أن الملك كولمان ملك المجر سمح له ولفرقه بحرية المرور والتموين فى بلاده ، إلا أنه لم تكد تصل هذه الفرق إلى الحدود المجرية

البيزنطية حتى انطلق بعض الجنود لنهب مدينة « سملين » على نهر سيف ، وقد قاومتهم القوات المجرية وجردتهم من السلاح ، والملابس أيضًا ! وطردتهم عبر الحدود عراة !

لم تكن بقية الفرق التى كان يقودها والتر المفلس أفضل من الجنود الذين نهبوا مدينة سملين ، فيذكر « برنود » فى كتابه عن الحروب الصليبية أن هذه الفرق انقضت على ضواحى مدينة براغ فنهبتها . فاصطدمت بها القوات البيزنطية وقتلت عددًا منها ، بل أحرقت بعضهم فى كنيسة المدينة ! وبذلك اضطرت تلك الفرق إلى التزام النظام ، وواصلت السير إلى مدينة نيش حيث ساعدهم القائد البيزنطى على الوصول إلى القسطنطينية .

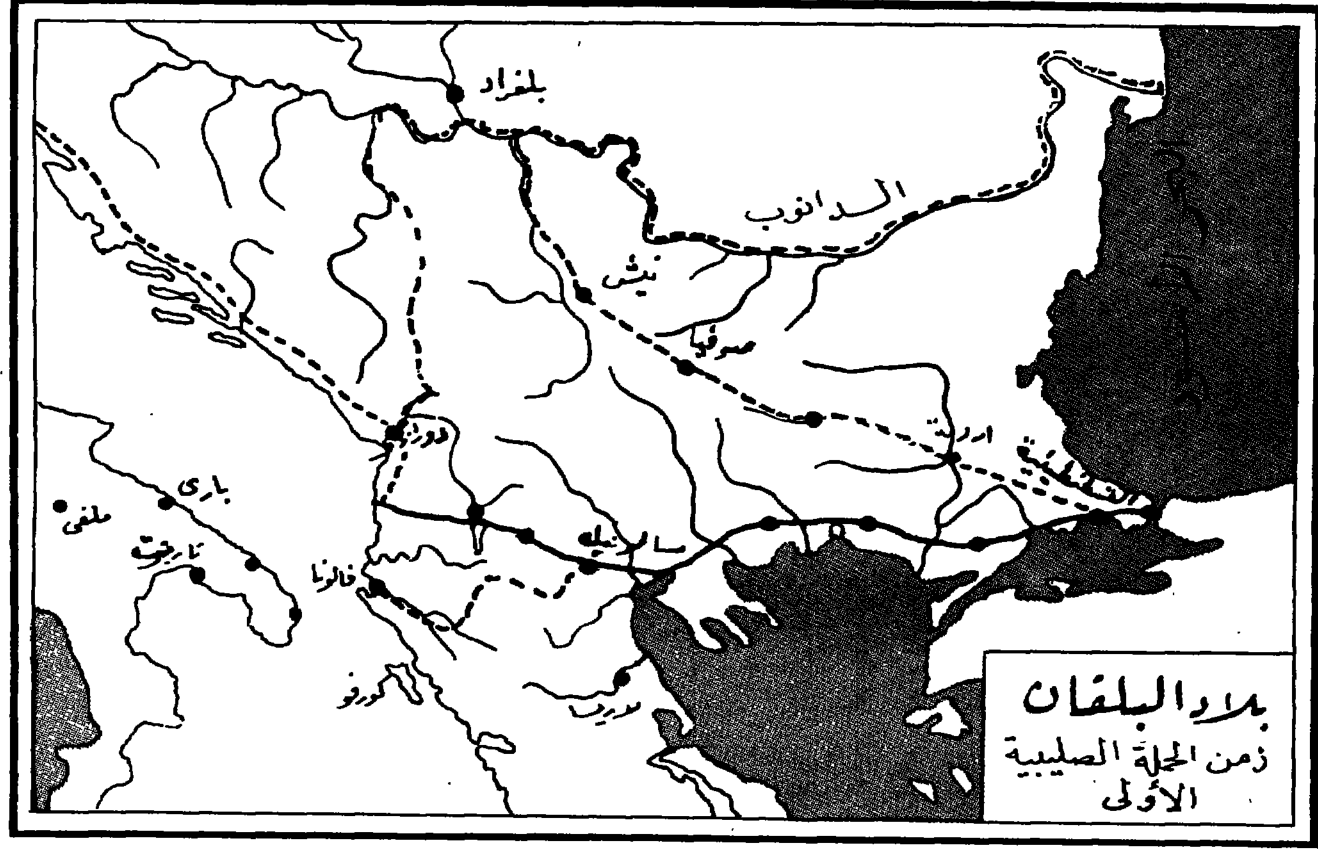
فى ذلك الحين كانت فرق بطرس الناسك فى طريقها إلى القسطنطينية . وكان بطرس الناسك شخصية فريدة عرف بثيابه الرثة ، وحماره الأعرج ، وفصاحته ، وكان قد طاف بمختلف أقاليم فرنسا مثل : أورليان ، وشامبانى ، واللورين ، وجمع منها نحو خمسة عشر ألفًا ، اصطحب بعضهم نساءهم وأطفالهم . وقد اعتمد على ترويج إشاعة بأن المسيح زاره فى المنام ، وسلمه رسالةً إلى البابا أوربان الثانى ، وقال له « إن الوقت قد حان لتنظيف مدينتى وإنقاذ شعبى »– وذلك بينما كان يحج فى القدس – فركب البحر إلى مدينة بارى الإيطالية ومنها إلى روما حيث قابل البابا .

على أن المؤرخين الأوروبين فندوا هذه القصة تاريخيًّا ، فقد اكتشفوا أن بطرس الناسك لم يزر روما قبل مؤتمر كليرمونت ، ولم يلتق بالبابا اطلاقًا ! وقد علقت المؤرخة زيو أولدنبرك على الرسالة بقولها : « تبدو القصة لنا وكأنها من بنات أفكار الناسك » ! واعتبره كثير من المؤرخين غوغائيًّا ومخرفًا .

وعلى كل حال فقد اكتسب بطرس الناسك فى ذلك الحين شهرةً علت على البابوية وأمراء أوروبا ؛ لأنه كان يوجه الكلام للفقراء لا للأمراء . ويقول بعض المؤرخين : « إن الكثيرين من الناس كانوا يتسابقون إلى الاستماع إليه ، وأن المحظوظ منهم من تمكن من اختلاس شعرة من حماره للاحتفاظ بها تبركًا » !

على أن جيوش بطرس الناسك لم تكن أفضل من جيوش إميكو قاطع الطريق أو فولكمار ، أو جوتشالك ، إذ على الرغم من أنه كان على وجه التحقيق أفضل من هؤلاء الأفاقين ، إلاّ أنه لم تكن له دراية بالحروب أو ضبط الجيوش ، ولذلك لم تلبث جيوشه أن نسيت مهمتها « الصليبية » وأخذت فى نهب الأراضى المسيحية التى تمر بها ! .

وفى ذلك يقول المؤرخ جيبير : « لقد جمع بطرس الناسك جيشًا ضخمًا من الدهماء ،


بلاد البلقان
زمن الحملة الصليبية
الأولى
بلغراد
الدانوب
نيش
صوفيا
ادرنة
القسطنطينية
البحر الأسود
دورازو
بارى
ملفى
تارنت
فالونا
كورفو
سالونيك

(خريطة رقم ١٩)

ولكنهم لم يكادوا يمرون خلال الأراضى المجرية . حتى أغراهم ثراء البلد ، فهاجموا السكان الوديعين ، وشنوا عليهم الحرب بلا مبرر ، وأشعلوا النيران فى أهراء الحبوب وسط الحقول » !

ولم تلبث الأمور أن تفاقمت عند وصول هذه الفرق الصليبية إلى مدينة سملين ، وشاهدت ملابس جنود والتر المفلس، الذين طردوا عراة من المجر، معلقة على الأسوار. ويقال إن نزاعًا حدث بين بائع مجرى وأحد الصليبيين بسبب شراء زوج من الأحذية ، فاشتبك الصليبيون مع أهل المدينة ، وتدخلت قوات الأمن . ودارت رحى معركة سقط فيها أربعة آلاف مجرّى قتلى واستولى الصليبيون على المدينة بعد هذه المذبحة المروعة !

على أن حكمة بطرس الناسك اقتضته دعوة قواته إلى الخروج بسرعة من المدينة قبل أن يدركهم إنتقام الملك كولمان المجرى ! . فعبرت هذه القوات نهر سيف حيث كررت المأساة فى مدينة بلغراد ! . فع أن أهل بلغراد هجروا المدينة خوفًا من تكرار مأساة سملين ، إلا أن القوات الصليبية لم ترحم مع ذلك هذه المدينة المسيحية ، فقامت بنهبها ، ثم أضرمت فيها النيران وغادرتها إلى مدينة نيش !

وفيما يبدو أن الذنوب والآثام التى ارتكبتها قوات بطرس الناسك كانت من الكثرة ، وهى فى طريقها لأداء مهمتها المقدسة ، إلى الحدّ الذى أصبح يتعينّ عليها التكفير عنها بأرواحها ! ففى مدينة نيش ، حين أرادت تكرار إضرام النيران فى طواحين الهواء فى ضواحى المدينة ، تصدت لها القوات المجرية بأمر حاكم المدينة البيزنطى نيكيتا ، ودارت معركة هائلة سقط فيها نحو اثنين وعشرين ألفًا من الصليبيين قتلى ! ، ولم يبق لبطرس الناسك من جيشه المكون من ثلاثين ألفًا سوى سبعة آلاف فقط ! وهرب فى نحو خمسمائة من أتباعه بعيدا فى الهضاب . وقد اكتفى نيكيتا فيما يبدو بإفناء ثلاثة أرباع جيش بطرس ، فترك الباقين يواصلون السير إلى صوفيا ثم إلى القسطنطينية !

على كل حال ، ففى ذلك الحين كانت قد تجمعت فى القسطنطينية الجيوش التى قدمت من الجهات الأخرى . فقد وصلت الجيوش الإيطالية ، كما وصلت جموع والتر المفلس وقد أحسن الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين وفادتها ، كما أحسن وفادة بطرس الناسك حيث دعاه إلى قصره وأكرمه ماديًا ومعنويًا ، كما أصدر مرسومًا يخوّل فيه للصليبيين ابتياع مايحتاجون إليه . ونصحهم بعدم العبور إلى آسيا الصغرى نظرًا لقلة عددهم بالنسبة للسلاجقة .

على أن الجيوش الصليبية مع ذلك لم ترع حرمة القسطنطينية ، البلد المضيف ، فكما يشير

المؤرخ جيبير ، فسرعان ماهاجموا قصور المدينة وأنزلوا بها الدمار وأشعلوا النيران فى المبانى العامة ، بل انتزعوا الرصاص من سقوف الكنائس !

وعلى ذلك لم يجد الإمبراطور الكسيوس بدًا من إصدار الأمر لهذه الجموع بعبور البوسفور بدون إبطاء . فلم يسعها سوى الصدوع بالأمر . وتم عبورها إلى الشاطئ الآسيوى فى ٦ أغسطس ١٠٩٦ م إلى نيقوميديا ، ومنها إلى معسكر كيبوتوس .

وهناك على الجانب الآسيوى انقسمت جموع الصليبيين إلى قسمين ، تألف الأول من الفرنسيين ، بما فيهم بطرس الناسك ووالتر المفلس ، وتألف القسم الآخر من الألمان والإيطاليين ، ولكن الفريقين أخذا يتباريان – وفقًا لما أورده رانسيمان – فى السلب والنهب والقتل فى القرى المجاورة ، بلا تمييز فى الفوارق الدينية ! . ولم تلبث أقدام الفريقين أن قادتهم إلى حتفهم . فقد أخذوا يوسعون دائرة نشاطهم التخريبى حتى اقتربوا من « نيقية » العاصمة السلجوقية ، وقاعدة السلطان قلج أرسلان ، إذ احتل الألمان والإيطاليون قلعة « زريجوردون » بينما كان الفرنسيون فى كيبوتوس . وهنا سارع السلاجقة بفرض الحصار على القلعة ، وقطعوا عنها التموين والمياه ، حتى ساءت حالة الصليبيين فى القلعة ، واضطروا إلى امتصاص دماء الخيل والحمير لإطفاء الظمأ ، ورمى الآخرون بالخرق فى مجارى القاذورات لترطيبها وامتصاصها ، وشرب آخرون أدرار بعضهم البعض ! – كما يقول بعض المعاصرين – ولم تلبث القوات الألمانية والإيطالية أن اضطرت إلى الاستسلام للسلاجقة ، فكان مصيرهم القتل أو العبودية .

أما القوات الفرنسية فى كيبوتوس ، فإن المناوشات التى أجروها مع السلاجقة كانت قد شجعتهم على الإغارة على أراضيهم دون أن يدركوا العاقبة ، فلما وصلت إليهم أنباء الكارثة التى منيت بها القوات الألمانية والإيطالية ، قرروا الخروج للقاء السلاجقة ، وكانت عدتهم خمسة وعشرين ألفًا ، منهم خمسمائة فارس فقط . والباقون من المشاة المعدمين الذين لايربطهم نظام أو قيادة . ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد عند خروجهم للزحف على نيقية ، فباغتوهم ، وأعملوا فيهم القتل والذبح ، فسقط والتر المفلس والآلاف من الناس ، ولم يكن بطرس الناسك حاضرًا المعركة ، إذ ذهب إلى القسطنطينية للقاء الإمبراطور البيزنطى فنجا بحياته ، ولم ينج من الخمسة والعشرين ألفًا سوى ثلاثة آلاف فقط ! . وقد أسرع الإمبراطور الكسيوس كومنين بإرسال بعض سفنه الحربية التى تمكنت فقط من إعادة الأحياء من كيبوتوس إلى القسطنطينية ، وكتبت

المؤرخة أنا كومنين ، ابنة الإمبراطور ، تقول : «كانت عظام القتلى أكواماً هائلة كالروابى والتلال والجبال» . .

وعلى كل حال ، فقد انتهت بهذا المصير ، الحملة الصليبية الشعبية التى تعلقت بها آمال الفقراء والجياع فى أوروبا ، وانتهت بها آمال هؤلاء الفقراء أيضًا ! . وقد وصفها بعض المؤرخين الأوروبيين ، مثل «جروسيه» ، بأنها كانت «وصمة سوداء فى تاريخ الحركة الصليبية»!. وبذلك بات الأمل معقودًا على الحملة الأرستقراطية ، أو الحملة النظامية .

وقد شرعت جيوش هذه الحملة فى التحرك من مختلف الأنحاء فى أغسطس ١٠٩٦م متوجهة إلى القسطنطينية ، بعد جهود مكثفة قام بها البابا أوربان الثانى بعد مؤتمر كليرمونت ، ولعب فيها ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس دورًا هامًّا . فقد كان ريموند أوّل من أعلن عزمه من الأمراء على الاشتراك فى الحملة الصليبية ، ويرجع ذلك إلى أن المنطقة التى كانت يحكمها شهدت غزوات العرب من قبل . كما أن الصراع بينه وبين العرب فى الأندلس كان مستمرًّا ، إذ سبق له أن اشترك فى الحرب ضدهم . وقد اصطحب البابا فى مجمع «نيم» الذى عقد فى يولية ١٠٩٦ م ، كما نبّه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة بحرية لتنفيذ مشروع الحملة الصليبية ، فأرسل البابا إلى جنوة طالباً مشاركتها ، فاستجابت وقدمت اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة . وسرعان ما أقبل الأمراء والفرسان على الاشتراك فى مشروع الحملة ، ليس فقط من البلدان القريبة مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، بل أيضا من البلدان الأوروبية البعيدة مثل سكوتلندا والدنمرك وغيرهما .

على أن ملوك أوروبا لم يشتركوا فى الحملة . فقد كان الإمبراطور هنرى الرابع الجرمانى فى صراع مع ابنه ومع البابوية فى آن واحد ، وكان فيليب ملك فرنسا معاقبًا بعقوبة الحرمان لارتكابه الفاحشة ! ، وكذلك الأمر بالنسبة لوليم الثانى ملك انجلترا لاختلافه مع رئيس أساقفة انجلترا .

وقد تكونت الحملة من عدة جيوش ، وفقًا للأوضاع الإقطاعية ، فكان هناك جيش وسط فرنسا بقيادة هيو الكبير أخى ملك فرنسا . وقد سلك الطريق البحرى إلى القسطنطينية ووصلها قبل زملائه فى أكتوبر ١٠٩٦م ، وجيش شمال فرنسا الذى كان تحت ثلاث قيادات حسب الإمارات فى تلك الجهات ، وهى «نورماندى» تحت قيادة روبرت بن وليم الفاتح وأخى وليم الثانى ملك انجلترا . وقد سلك البحر أيضًا ، ووصل إلى القسطنطينية فى مارس ١٠٩٧م ، ثم فلاندر «بقيادة روبرت الثانى الذى كان معروفًا بالشراسة والطمع ، ونظرته إلى الحروب الصليبية كمشروع

٢٠
اوربا والحرب الصليبية الأولى

+ + + طريق الصليبيين الى الشرق

٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠

بحر بنطش
البلغار
القسطنطينية
قورشقة
دولة المغرب
دولة الخلافة الفاطمية
الاسكندرية
القاهرة
القدس
عكا
دمشق
اقريطش

(خريطة رقم ٢٠)

استثمارى ، ثم « اللورين » بقيادة جود فرى ، وهو من أنصار الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع وكان معاديًا للبابا جريجورى السابع ؛ ولذلك اشترك فى الحملة ليكفر عن سيئاته ! وكان معه أخوه بلدوين . وقد سلكا طريق المجر ووصلا فى ديسمبر . وقد خرج جيش جنوب فرنسا بقيادة ريموند الرابع أمير تولوز ، وقد سلك الطريق البرى ووصل إلى القسطنطينية فى إبريل ١٠٩٧ م . أما الجيش الأخير فهو الجيش الإيطالى النورماندى تحت قيادة بوهيمند أمير صقلية ، وأخيه تانكريد Tancred ، وقد وصلا إلى القسطنطينية بالطريق البحرى فى إبريل ١٠٩٧ م أيضًا .

ومع أن هذه القوات كانت قوات نظامية ، إلا أنها ألحقت بالدولة البيزنطية من المتاعب ما ألحقته القوات الشعبية !. ولم يكن الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، يتوقع هذه الجموع الهائلة . فقد كان تحت قيادة جودفرى أمير اللورين السفلى وحده نحو ثمانين ألف راجل وعشرة آلاف فارس !. وقد وصفت آنا كومنينا ، ابنة الإمبراطور ألكسيوس هذه الجيوش بأنها « هجرة كاسحة ، إنهم البحر بأمواجه المتلاطمة ، أيخطر على البال حدوث تحركات هائلة كهذه ، إنه العالم الغربى بأسره وسكانه » ! .

وتقول : « إن الإمبراطور عندما سمع بأن جيشًا عظيما من الفرنج أخذ يقترب من البلاد انتابته الوساوس ، لأنه يفهم نياتهم الخبيثة ، وتقلبات أمزجتهم ، ونتائجها المتوقعة . إن ثراء الإمبراطورية يحرك أطماعهم ولاتجدى معهم المواثيق والعهود على احترام البلاد !. وقد عبأ الإمبراطور قواته استعدادًا للطوارئ » . وقد وصف المؤرخ الكبير « جبون » شعور ألكسيوس قائلا : إن أوربان قدم إلى الإمبراطور البيزنطى كل مايخشاه ويبغضه . لقد أراد الأخير فرقا يسند بها جيشه ، فجاءته موجات كاسحة متمردة !. وأصبح لسان حاله يقول : اللهم قنى شرّ أصدقائى .

وفى الحق لقد عاثت جيوش جودفرى وبلدوين وريموند الرابع أمير تولوز فى الأراضى البيزنطية ، كما فعلت جيوش الجياع الصليبية قبلها ، وقد عبر شاهد عيان هو رئيس أساقفة بلغاريا عن مشاعره لتصرفات قوات جودفرى وأخيه عند عبورهم بلغاريا التابعة للدولة البيزنطية قائلا : « جمدت الكلمات على شفتى من هول الصدمة التى وقعت علينا كالصاعقة ، ولم أدر ماذا أقول ؟ هل أقول إنها مسيرة فرنجية أم هى غزو لبلادنا ؟. لم نعد نشعر بوجود أنفسنا لأن الغزو جرّعنا الأمرّين » .

وقد اشتبك ريموند الرابع مع الحاميات البيزنطية فى الجهات الغربية من الإمبراطورية واستولى

على مدينة روسة ورفع علمه عليها ، كما قضى على ثلة عسكرية بيزنطية فى مدينة رودوستا ، وهاجم جودفرى جهات أدريانوبل Adrianople .

وقد عبر الإمبراطور ألكسيوس عن مشاعره إزاء الحملة الصليبية النظامية فى وصيته إلى ولده قائلا : « هل تذكر ماحصل لى من حركة الغرب ، التى جاءت إلى هذا البلد ؟. تلك الحركة التى تمثل أبد الدهر وصمة عار فى جبين روما الجديدة وإهانة للعرش ؟ يلزمك التفكير مليًّا يابنى لإيجاد ماتلقم به أفواه هؤلاء البرابرة التى تنفث علينا سموم الكراهية والبغضاء » .

ويرى الدكتور اليوسف أن الصليبيين قد كرهوا البيزنطيين إمبراطورًا وشعبًا ، منذ أن داست أقدامهم أرض البلاد ، وقد نقل عن مؤرخ صليبى معاصر قوله فى وصف الإمبراطور ألكسيوس : « لقد شغل عرش القسطنطينية يونانى مزيف خائن اسمه ألكسيوس كومنينوس » . ويرجع كره الصليبيين للبيزنطيين إلى اختلاف الحضارتين والأيديولوجيتين (العقيدتين) . فقد كان الشعب البيزنطى فى قمة حضارته ، بينما كانت أوروبا اللاتينية لاتزال تتخبط فى القيم البربرية . وقد نظر البيزنطى إلى الصليبى على أنه مجرد بربرى خشن الطباع ، بينما نظر الصليبى إلى البيزنطى على أنه لا رجولة له ! . وقد تعجب البيزنطيون حين رأوا رئيس أساقفة غربيًّا ممتطيًا صهوة جواده وعلى رأسه الخوذة والسلاح فى يده متوجهًا لساحة القتال ! فقد كان الازدواج بين الدين والحرب من الأمور المتناقضة بالنسبة للبيزنطى .

وقد أشارت أنا كومنينا ، ابنة الإمبراطور ألكسيوس ، إلى حادث يوضح جلافة الفارس الغربى وغطرسته فى ذلك الحين . فبينما كان الجميع يقسمون يمين الولاء للامبراطور ، امتلك أحد النبلاء الجرأة ليجلس إلى جانب الإمبراطور !.. وقد انتزعه بلدوين من مكانه ، موبخًا إياه قائلا : إن عادة الأباطرة لاتسمح لرعاياهم باختيار أماكن جلوسهم » !. على أن ذلك النبيل صوب نظرات حادة إلى الإمبراطور مدمدمًا : « ياله من شخص مزعج يجلس بمفرده بينما القادة الشجعان وقوف حوله » !. وهذا يوضح نظرة المن والاستعلاء إلى الإمبراطورية البيزنطية التى اعتقد الصليبيون أنهم جاءوا لإنقاذها ! .

وعلى كل حال فهذه العلاقة المتصارعة بين الصليبيين والدولة البيزنطية منذ البداية ؛ هى ماجعل خطة الإمبراطور البيزنطى تقوم على أساسين : الأول ، وضع الأمراء الصليبيين تحت لوائه عن طريق مطالبتهم بحلف يمين الولاء له . والثانى استخدام هؤلاء فى استعادة الأراضىَ التى فقدتها الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى والمشرق العربى !

وفى تنفيذ هذه الخطة، فقد أوقع الأمراء الصليبيين فى مأزق، نظرًا لاختلاف المذهب والكنيسة التى ينتمى إليها الطرفان، ولعدم جواز الولاء لسيدين فى آن واحد. ولكن الإمبراطور أصر على هذا المطلب، حتى يتأكد من عودة الأراضى التى كانت فى يد الإمبراطورية قبل موقعة مانزكرت إليه فور تخليصها من قبضة السلاجقة. واعتبره شرطًا لتقديم المساعدة للجيوش الصليبية. وقد قبل الجميع، لهذا السبب، تأدية قسم الولاء، فيما عدا جودفرى وريموند الرابع أمير تولوز. وكان مما قاله ريموند إنه لم يحمل الصليب ليخضع لسيد غير السيد المسيح! . ولم يغادر بلاده ليحارب من أجل سيد غير السيد المسيح. ثم عرَّض ببقاء الإمبراطور فى القسطنطينية بينما الجيوش الصليبية تخوض الحرب المقدسة! فأعلن أنه مستعد أن يعلن تبعيته للإمبراطور البيزنطى إذا خرج الإمبراطور على رأس الصليبيين بنفسه، وتولى قيادتهم فى الحرب الصليبية!. وكاد النزاع على يمين الولاء يهدد بصدام مسلح بين الطرفين، ويقسم الجيوش الصليبية، لأن بوهيمند النورماندى أعلن أنه سيقف إلى جانب الإمبراطور فى حالة وقوع صدام مسلح، وكان السبب فى هذا الموقف أن الإمبراطور وعده بمنطقة حول أنطاكية «طولها مسيرة خمسة عشر يومًا وعرضها مسيرة ثمانية أيام» لتكون إمارة له!. وقد حدّد هذا الوعد ميلاد إمارة أنطاكية النورماندية التى صار لها شأن كبير فيما بعد فى تاريخ الصليبيين.

وبحلف الأمراء الصليبيين يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى، وبتعهدهم بتسليم الأراضى التى استولى عليها السلاجقة، والتى كانت ملكًا للإمبراطورية قبل موقعة مانزكرت فى أطراف الشام والعراق - بدأ التعاون بين البيزنطيين والصليبيين وتوحدّت أوروبا الكاثوليكية مع أوروبا الأرثوذكسية فى الهجوم على العالم العربى الإسلامى المنقسم!

٣٤ - إنجازات حملة الأمراء الصليبية فى آسيا الصغرى

- تأسيس دولة النورمانديين فى إيطاليا وصقلية .
- سقوط نيقية Nicaea السلجوقية فى يد البيزنطيين .
- هزيمة السلاجقة فى ضورليوم Dorylaeum فى أواخر يونية ١٠٩٧ .
- التنافس بين بولدوين Baldwin وتنكرد
- الصراع بين البيزنطيين والصليبيين حول طرسوس وأذنة والمصيصة .
- تأسيس بلدوين إمارة الرها County of Edessa ١٠٩٧ م .
- توسع إمارة الرها .

٣٤ – انجازات حملة الأمراء الصليبية فى آسيا الصغرى

كان توحد أوروبا اللاتينية مع أوروبا اليونانية ، واتحاد كنيسة روما الكاثوليكية مع كنيسة بيزنطة الأرثوذكسية لغزو المشرق العربى الإسلامى تحت علم الصليب ، علامة بارزةً فى تاريخ العصور الوسطى ، الذى درج المؤرخون على تحديد بدايته بانقسام أوروبا إلى هذين العالمين – « أى انقسام أوروبا إلى الأمبراطورية الرومانية الغربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) . ولكنه لم يعن زوال الانقسام ، وإنما كان إشارة إلى انتقال علم القيادة من يد الدولة البيزنطية إلى أوروبا الغربية ، وانطواء صفحة بارزة من الصراع العربى الأوروبى فى المشرق ، كان نجماها البارزان هما الدولة البيزنطية فى الجانب المسيحى ، والخلافة الإسلامية فى دمشق ثم بغداد فى الجانب العربى .

وككل حدث من أحداث التاريخ الكبرى ، فإن انتهاء الدور التاريخى للإمبراطورية البيزنطية لم يتم فجأة ، وإنما مهّدت له قوّتان عظيمتان ، الأولى فى الشرق الإسلامى ، وتتمثل فى قوة السلاجقة ، والثانية فى الغرب الأوروبى وتتمثل فى قوة النورمانديين . وكلتا القوتين ضغطتا ضغطًا شديدًا على الدولة البيزنطية ، وكانتا سببًا فى خروجها من المسرح العالمى .

فنى الوقت الذى تعرضت فيه الجيوش البيزنطية لكارثة « مانزكرت » على أيدى السلاجقة ، كان النورمانديون ينتزعون من البيزنطيين آخر معاقلهم فى إيطاليا ، مثل أوترنتو وبرنديزى سنة ١٠٦٢ م ، ثم بارى عاصمتهم سنة ١٠٧١ م .

وكنا قد التقينا بالنورمانديين منذ مرحلة مبكرة على مسرح الأندلس ، فى بداية ظهور هذه القوة فى وسط وجنوب أوروبا قادمة من الشمال الإسكندنافى ، والتى عرفت تارة باسم الفايكنج – أى سكان الخلجان – لما عرفت به شبه جزيرة اسكنديناوة من كثرة الخلجان ، أو باسم النورمانديين ، أى سكان الشمال . وكانت إحدى مجموعاتهم وهى المجموعة الدنماركية قد أخذت فى مهاجمة سواحل فرنسا وانجلترا ، ثم سواحل المسلمين فى الأندلس والمغرب بأشرعتها السوداء فى منتصف القرن التاسع (٨٤٤م) وحققت بعض النجاح فى الأندلس عن طريق المفاجأة ، حتى استولوا لبعض الوقت على مدينة أشبيلية وضواحيها وعاثوا فيها تخريبًا ، وقد سارع عبدالرحمن

الثانى للقائهم ، وألحق بهم الهزيمة ، وأسر منهم عددًا كبيرًا اعتنقوا الإسلام وتكونت منهم جالية نورماندية فى الأندلس ، ولكن بعد أن تركت الغارة النورماندية آثارًا ظلّ صداها مسموعًا فى الأدب الأندلسى لوقت متأخر ! ، وكان لها تأثيرها فى زيادة الاهتمام ببناء الأسطول البحرى الأندلسى ! .

وفى الفترة التالية تمكن النورمانديون من تأسيس دوقية نورمانديا فى غرب فرنسا ، وانطلقت فى القرن الحادى عشر جموع منهم إلى جنوب إيطاليا الذى كانت الدولة البيزنطية قد استعادته من أيدى العرب ، وتمكنت هذه الجموع من خلال العمل تحت إمرة البيزنطيين أوّلا ثم عن طريق محاربتهم ثانيًا ! – من استخلاص هذا الجزء وإخراج البيزنطيين من جنوب إيطاليا بعد حكم دام ثلاثة قرون . وكان الاستيلاء على بارى سنة ١٠٧١م نقطة فاصلة فى الصراع بين بيزنطة والنورمانديين .

على أنه فى تلك الأثناء كان النورمانديون يفتحون انجلترا على يد وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م ، أى قبل فتح جنوب إيطاليا بخمس سنوات . ويشتبكون مع العرب فى صقلية منذ سنة ١٠٦٠ تحت قيادة جيسكار وروجر ، ويستولون على بالرمو ومسينا ومازر وقطانيا على مدى اثنى عشر عامًا – أى حتى سنة ١٠٧٢ . وبذلك تأسست دولة النورمانديين فى إيطاليا وصقلية . وتمكن هؤلاء فى سنة ١٠٩١م ، أى قبل خروج أوّل حملة صليبية على المشرق العربى بخمس سنوات ، من إخراج العرب نهائيا من صقلية .

على أن ضغط النورمانديين على الإمبراطورية البيزنطية لم ينته بوراثة ممتلكاتها فى جنوب إيطاليا . فبعد انتزاع صقلية من يد المسلمين ، اتجهت أبصارهم إلى الشاطئ الشرقى للبحر الأدرياتى للاستيلاء على أبيروس ومقدونيا ، بل لقد طمعوا فى القسطنطينية ذاتها . ثم باتوا يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين فى الشرق إتمامًا لحربهم ضد المسلمين فى صقلية .

ومع أن انتصار السلاجقة فى مانزكرت قد أنهى أحلام النورمانديين فى مواصلة الحرب ضد المسلمين ، إلا أنه فتح شهيتهم لوراثة الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى . فقد حاول بعض المغامرين منهم من جيوش المرتزقة إقامة إمارة مستقلة فى المناطق المحيطة بقونية وأنقرة ، وألحقوا الهزائم بالجيوش البيزنطية ، بل شقت جيوشهم البسفور فى مواجهة القسطنطينية !.

ولكن الإمبراطور البيزنطى تمكن بالتحالف مع السلاجقة ! ، من القضاء على هذا الخطر سنة ١٠٧٤ مؤقتًا ، إذ حاول جيسكار فى عام ١٠٨١ إقامة دولة نورماندية فى الأناضول على حساب

آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى

- ـ . ـ . ـ حدود الدولة البيزنطية سنة ١٠٦٠
- ـــــ طريق الحملة الصليبية الأولى

نيقية
دوريليوم
أنقرة
جانجرا
أماسيا
نكسار
أرضروم
مانزكرت
قيصرية
كومانا
كوكسون
مرعش
الرها
الطوانة
قونية
هرقلية
قبرص

(خريطة رقم ٢١)

البيزنطيين ، واستولى على فلونا ودوراز بعد هزيمة الجيش البيزنطى ، وزحف مباشرة على القسطنطينية ، واستطاع ابنه بوهيمند – الذى أصبح فيما بعد بطلا من أبطال الحملة الصليبية الأولى – أن يستولى على مراكز هامة فى أبيروس ومقدونيا وتساليا ، وكادت الإمبراطورية البيزنطية تسقط فى يد النورمانديين ، لولا عودة الإمبراطور البيزنطى إلى الاستنجاد بسليمان بن قتلمش أمير سلاجقة الروم ! ، وتمكن بذلك من إلحاق الهزيمة ببوهمند فى تساليا سنة ١٠٨٣ ، ولكن جيسكار وابنه بوهيمند أعادا الكرة وطالت الحرب على سواحل ابيروس حتى توفى جيسكار عام ١٠٨٥ فانسحب النورمانديين من البلقان عائدين إلى إيطاليا ! .

هذا العرض المختصر لظهور النورمانديين ، وانتشارهم من انجلترا غربًا إلى إيطاليا وصقلية شرقًا ، كان ضروريًا لتوضيح أهمية هذه القوة الأوروبية التى حققت إنجازاتها على حساب طرفى الصراع العربى الأوروبى التقليديين فى العصور الوسطى المتقدمة ، وهما الدولة البيزنطية والدولة العربية الإسلامية . ذلك أن الحملة الصليبية كانت بالنسبة لبوهيمند تجديدًا لحملة ١٠٨١ ، ومحاولة لتأسيس مملكة نورماندية فى المشرق ، وهو ماتحقق فعلا باستيلاء النورمانديين فى الحملة الصليبية على أنطاكية وإقامة إمارة لهم فيها .

وكان بوهيمند قد حصل من الإمبراطور ألكسيوس كومنين على وعد بذلك – كما رأينا فى الصفحات السابقة – مقابل قسم يمين الولاء للإمبراطور ، إذ كان يرى فى إنشاء مملكة له فى الشرق مايغنيه عن المنازعات التى دبت فى إيطاليا وصقلية بين أفراد البيت النورماندى عقب وفاة أبيه جيسكار . وهكذا كان الصليبيون يقتسمون أرض المشرق العربى قبل الاستيلاء عليها !

على كل حال ، فبإبرام الاتفاقات بين أمراء الحملة الصليبية والإمبراطورية البيزنطية على نحو ما مر بنا بدأت المرحلة التالية ، من الحملة ، وهى مرحلة الزحف على آسيا الصغرى ، فقد أخذت الجيوش الصليبية فى العبور إلى الشاطئ الآسيوى فى فترات متفاوتة ، حتى تجمعت كلها فى صيف عام ١٠٩٧ م قرب أزمير . وهناك لحق بهم بطرس الناسك مع فلول جيشه ، وتم الاتفاق على الهجوم على نيقية ، العاصمة السلجوقية لقلج أرسلان الأول نظرًا لأن ترك هذه القلعة خلف الجيوش الصليبية كان من شأنه تهديد خط مواصلاتهم ، وقد ساهمت الدولة البيزنطية فى الحملة بآلات الحصار والطعام والمؤن ، ولكنها لم تقدم سوى فرقة صغيرة من قواتها .

وتدل الدلائل على أن قلج أرسلان ، الذى كان متغيبًا عن نيقية فى ذلك الحين ، قد اعتبر الحملة الأرستقراطية صورةً مكررةً من حملة الجياع التى قضى عليها بسهولة ! ، فلم يهتم بها كثيرًا .

وفى الوقت نفسه فإن جواسيسه قد أعطوه صورة مبالغًا فيها للخلافات بين الإمبراطور البيزنطى والأمراء الصليبيين . حتى اعتقد أن الحملة لن تصل بحال إلى نيقية ، ودفعه بالتالى إلى ترك زوجته وأولاده وأمواله فى المدينة دون محاولة نقلهم منها ! وقد دفع ثمن هذا الخطأ فى التقدير غاليًا !

ففى يوم ٦ مايو كان الصليبيون قد أدركوا نيقية وفرضوا الحصار عليها ، وأخذوا فى مهاجمتها . وعندما أرسل قلج أرسلان قوة للدفاع عن المدينة وصلت بعد الأوان . فحضر بنفسه على رأس قواته يوم ٢١ مايو ، وشرع فى مهاجمة الصليبيين ، وألحق بهم خسائر فادحة ، ولكنه أدرك أنه من الخير له أن ينسحب ، لأن قوة الصليبيين أكبر مما كان يتوقع ! .

وعلى هذا النحو أصبحت المعركة بين المدينة وبين الصليبيين ! وعندئذ برز دور الإمبراطور ألكسيوس كومنين ، ذلك أن أهل نيقية طلبوا مفاوضة الإمبراطور على التسليم له لا للصليبيين . خشية تنكيل الأخيرين بهم ، ولما كانت المدينة صائرة إلى يده بحكم الإتفاق ، فقد قبل التفاوض على أساس تأمين أرواح أهل المدينة . وفوجئ الصليبيون بأعلام الإمبراطور ترفرف فوق المدينة دون أن يكونوا قد علموا شيئا من المفاوضات السرية ! . وبذلك عادت « نيقية » إلى يد البيزنطيين بعد ستة عشر عامًا من سقوطها فى يد السلاجقة !

وقد وقع الشقاق بين الصليبيين والإمبراطور عقب ذلك . ذلك أن تسامح الإمبراطور مع الأسرى واستعداده لإطلاق سراح زوجة قلج أرسلان وأولاده دون فدية ، فضلا عن مفاوضاته السرية مع أهل نيقية ، قد لقى استياءً عامًّا من الصليبيين . وعبثًا حاول الإمبراطور إقناعهم بأهمية العفو عند المقدرة فى التعامل مع المسلمين ، وعندما فشل أسرع بجمعهم قبل أن يأذن لهم بالتوغل فى آسيا الصغرى وطلب منهم تجديد يمين الولاء . ولم يملك هؤلاء سوى الإذعان . نظرا لإدراكهم أهمية المساعدة العسكرية والإمدادات البيزنطية لهم فى مواصلة الزحف ، ولم يشذّ عنهم سوى تنكرد وريموند .

على كل حال فإن سقوط نيقية كان له دوىٌّ فى الغرب لما كان يحمله من معنى إسقاط خرافة الفكرة القائلة بأن السلاجقة لا يهزمون ! ، وبالتالى فقد تشجع من كان متردداً فى الاشتراك فى الحملة ، وأخذت « المدن الإيطالية » بالذات تسهم إسهاما فعليًّا فى الحرب .

وقد تقاسم الصليبيون والبيزنطيون بعد ذلك عملية الغزو ، فانصرف البيزنطيون إلى غزو الشواطئ الغربية لآسيا من أقاليم مسيا وأيونيا وليديا ، وانصرف الصليبيون إلى غزو ضورليوم وقونية . فقد غادر الصليبيون نيقية فى أواخر يونية سنة ١٠٩٧ عبر فريجيا ، وانقسمت فرقهم إلى

قسمين : قسم اتخذ الاتجاه الشمالى الشرقى ، والآخر اتخذ الاتجاه الجنوبى الشرقى ، على أن يلتقيا فى ضورليوم .

وكان القسم الأول يضم النورمانديين جميعا ، أى نورمان إيطاليا وصقلية وعلى رأسهم بوهيموند وتنكرد ونورمانديى فرنسا بزعامة روبرت . وقد كاد هذا القسم أن يواجه خطر الفناء على يد السلاجقة !

ذلك أن سقوط نيقية ، قد دفع السلاجقة وبنى دانشمند – وهما أكبر بيتين إسلاميين فى آسيا الصغرى – إلى التحالف لمواجهة الخطر الصليبى الزاحف ، وبذلك اجتمعت جميع القوى الإسلامية التى كانت مبعثرة وأخذت تستعد لطرد الصليبيين . على أن بوهيمند حين أدرك حجم الخطر ، سارع إلى الاستنجاد بالقوى الصليبية الأخرى ، ودارت رحى معركة هائلة فى سهول ضورليوم فى أواخر يونية ١٠٩٧ ، انتهت بهزيمة القوى الإسلامية أمام الحشود الصليبية الضخمة ، وانفتح الطريق للصليبيين للمضى قدمًا إلى قونية .

وقد اتبع السلاجقة فى أعقاب هذه المعركة خطة الانسحاب إلى الداخل ، وفى الوقت نفسه عملوا على إخلاء المدن ، ولذلك لم يلق الصليبيون مقاومة فى « قونية » التى وجدوها خاوية الوفاض من الناس والزاد ، وقد حدثت اشتباكات عند « هرقلة » انتهت باحتلال المدينة .

وبعد هرقلة عادت الجيوش الصليبية إلى الانقسام إلى قوتين مرة أخرى ، فاتجه « تنكرد » و« بلدوين » إلى « كيليكيا » فى الركن الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى ، بينما اتجهت بقية القوى الأخرى وعلى رأسها بوهيمند وريموند وجود فرى والمندوب البابوى إلى الشمال الشرقى متّبعةً الطريق الطويل حول كبادوكيا وقيصرية ومرعش .

وقد كان لهذا الانقسام – الذى ترتبت عليه نتائج كبرى – صلة بالصراعات بين الصليبيين والبيزنطيين ، وفيما بين الصليبيين أنفسهم ! ذلك أن الأميرين تنكرد وبلدوين لم يكونا يعترفان بالاتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين على مساعدة الإمبراطورية البيزنطية على استعادة سيطرتها على أراضى آسيا الصغرى ، مخالفين بذلك إجماع الصليبيين الآخرين الذين نفذوا إلى ذلك الحين ذلك الاتفاق . ومن المعروف أن تنكرد وبلدوين كانا أكثر الأمراء الصليبيين صراحة مع أنفسهم ، فلم تكن الحملة الصليبية فى نظرهما حملة مقدسة ، وإنما مغامرة عسكرية لاستعمار المشرق ، سواء كان هذا المشرق عربيًا إسلاميًا أو بيزنطيًا مسيحيًا ! .

وهذا نفسه يفسر الصراعات بين الأميرين الذين أخذا يتسابقان إلى تحقيق أطماعهما فى تأسيس

الإمارات الخاصة على حساب كل من البيزنطيين والمسلمين ، بعد أن اختارا الطريق الأقصر ، واتجها مباشرةً إلى سهول كيليكيا الخصبة ، التي كانت فى تلك الأثناء تسكنها كثرة أرمينية رغم خضوعها لحكم السلاجقة – فيما عدا ملطية ومدينة الرها ، اللتين احتفظ بهما الأرمن حتى وصول الصليبيين كما سبق أن ذكرنا .

وقد كان لوجود أكثرية مسيحية فى كيليكيا أثره فى تسهيل مهمة تنكرد وبلدوين فى محاربة السلاجقة ، فقد أسرع سكان مدينة طرسوس إلى دعوة تنكرد إلى دخول مدينتهم ، حينما انسحبت الحامية السلجوقية ، فدخلها معتزمًا الاحتفاظ بها برغم الاتفاق الصليبى البيزنطى بعودتها إلى السيادة البيزنطية ! ولكن بلدوين نازعه عليها ، فتركها متجهًا إلى أدنة ، تاركا وراءه ثلاثمائة من أتباعه ، فرفض بلدوين السماح لهم بدخول المدينة ، مما أدى إلى مبيتهم فى ضيعة مكشوفة ، حيث دهمهم السلاجقة أثناء الليل وأبادوهم عن آخرهم !

وما لبث الصراع بين الأميرين أن تكرر أمام « المصيصة » ، التى دخلها تنكرد بمساعدة أهلها الأرمن ، واستولى عليها من يد السلاجقة ، فقد ظهر بلدوين مرة أخرى أمام المصيصة لينافس تنكرد فى الاستيلاء عليها ، ولكن الأخير أغلق أبوابها فى وجهه ، وهنا وقعت الحرب بين الأميرين الصليبيين ! ، وانتهت سريعا بالصلح خوفًا من السلاجقة !

على أن الخطر على أطماعهما جاء هذه المرة من الدولة البيزنطية ! ، لأن تلك الأراضى كانت تحت السيادة البيزنطية من قبل ، وكان من الضرورى عودتها إليها وفقًا للاتفاق بين الصليبيين والإمبراطور البيزنطى ، ولذلك سرعان ما أرسل الإمبراطور ألكسيوس كومنين حملة فى سنة ١١٠٠ استعادت المدن الثلاث « طرسوس » و« أدنة » والمصيصة ، وبذلك بدأ الصراع على هذه المدن بين الصليبيين والبيزنطيين ، الذى استمر طويلا ، وساعدت صراعات الأمراء الصليبيين أنفسهم على انتهائه لصالح الأرمن ، الذين تمكنوا من إقامة دولة قومية لهم فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، هى مملكة أرمينية الصغرى !

على أن هذا لم يمنع بلدوين من تحقيق أطماعه على حساب أرض أرمينية – بيزنطية أخرى ، تقع فى المنطقة الممتدة من كيليكيا غربا إلى الجزيرة وشمال الفرات ، أى فى الجهات المحيطة بملطية وسميساط ومرعش وعين تاب وتل باشر والرها – وتأسيس إمارة الرها فى شمال الجزيرة ، التى كانت أولى الإمارات الصليبية فى تلك المنطقة الهامة .

على أن تأسيس هذه الإمارة تم عبر سلسلة من الخيانات والانتهاكات من جانب كل من

الأرمن وبلدوين على السواء ! فقد رأينا كيف أن أمراء الأرمن المحليين فرحوا بمجئ الصليبيين ، واعتبروا قدومهم علامة من علامات العناية الإلهية (وسوف تثبت لهم الأيام بعد ذلك عكس ذلك) ولذلك اتصلوا ببلدوين أثناء وجوده فى كيليكيا للقدوم إليهم . واستطاع هذا بفضل مساعدتهم الاستيلاء على كثير من المواقع والقلاع فى شمال الجزيرة ، ولم يجد صعوبة فى احتلال تل باشر والرواندان . ولما كان النجاح يؤدى إلى نجاح آخر ، فإن سمعة بلدوين وصلت إلى أسماع حاكم الرها الأرمنى ودعته إلى دعوته للحضور إلى الرها لمساعدته ضد السلاجقة .

وهنا نلاحظ أن الكثيرين من الأرمن والمسلمين على السواء لم يدركوا فى ذلك الحين طبيعة الحملة الصليبية ، وهى أنها حملة استعمارية للاستيطان والبقاء ، وليست حملة تحريرية لطرد المسلمين من القدس أو استعادة بيت المقدس ! فقد كان حاكم الرها واسمه « طوروس » يعتقد أنه يمكنه أن يجعل من الصليبيين جندا مرتزقة ، ويجعل من بولدوين قائد الجيش . وهذا هو الأساس الذى أقام عليه استنجاده به . ولكن كل شىء تغير فى أعقاب وصول بلدوين !

فقد أسرع هذا إلى الرها فى ثمانين فارساً ليستقبل استقبالا حافلاً ، بعد أن كاد يسقط فى قبضة حامية سميساط السلجوقية . ولذا رحب كثيراً بمهاجمة سميساط عندما طلب إليه طوروس ذلك ، وتلقى فى ذلك مساعدة جيش من الأرمن ، ولكن بينما كان المحاربون الأرمن مشغولين فى نهب الضياع المكشوفة التابعة لسميساط ، خرج عليهم جيش من السلاجقة قتل منهم نحو ألف ، واضطرهم إلى الفرار ! . وقد دفع ذلك بلدوين إلى التعجيل ببسط سيطرته على الرها ، فقد اشترط على حاكمها أن يتبناه ويتخذه وريثاً وشريكاً له فى الرها ، إذا أراد مساعدته ! ولما كان « طوروس » ليس له أبناء يرثونه ، فقد قبل ذلك ونادى ببلدوين وريثاً له فى حكم الرها ، وتمت مراسيم التبنى وفقاً لتقاليد الكنيسة الأرمنية سنة ١٠٩٨ .

ولم يعرف طوروس أنه بهذا الإجراء كان يكتب صك وفاته ! . إذ قامت فى الشهر التالى (مارس) ثورة من أهل المدينة ضده ، انتهت بعزله وقتله ! . وقد حاول المؤرخون المعاصرون تبرئة بلدوين من الاشتراك فى تحريك هذه الثورة ، ولكنهم لم يتمكنوا من تبرئته – فى كل الأحوال – من التفريط فى دم طوروس وحياته ، وعدم أداء واجبه فى حمايته ! .

وعلى كل حال ، فقد أدت ثورة مارس ١٠٩٨ إلى أن أصبح بلدوين سيد الرها وصاحب السلطان فيها ، فكان أول أمير من الأمراء الصليبيين يؤسس إمارة لنفسه ينفرد بحكمها . ومع أن الرها لم تكن فى الأراضى المقدسة إلا أن موقعها فى شمال الجزيرة ، جعلها على جانب كبير من

الأهمية فى حماية ممتلكات الصليبيين فى الشام ضد أى هجوم إسلامى من الشرق .

على أن تخلّص بلدوين من طوروس لم يعن سوى تخلصه من خطر واحد ، أما الخطر الثانى فكان من جانب الإمبراطور البيزنطى صاحب السيادة على الرها ، والذى كان حاكمها السابق طوروس يدين له بتبعية واضحة . ولكن الكسيوس كومنين لم يكن فى ذلك الحين فى مركز يسمح له باستعادة حقوقه فى الرها ، نظرًا لموقعها النائى عن مركز الإمبراطورية ؛ ولذلك فضل التغاضى مؤقتًا عن بلدوين حتى تتيح له الظروف الفرصة للتدخل بصورة عملية .

وسرعان ما اتجه بلدوين بعد ذلك إلى التوسع على حساب مدينة سميساط ، ومن الطريف أن أميرها السلجوقى حين أدرك صعوبة الدفاع عنها بعد قبول الأوضاع فى الرها . عرض على بلدوين شراءها بعشرة آلاف دينار من الذهب ! ، فقبل ذلك بلدوين ليتفادى الحرب ، وساعدته أحوال خزانة طوروس التى خلفها له على دفع المبلغ .

ومالبث حاكم سروج أن أتاح لبلدوين الفرصة لتوسيع إمارته على حسابه . وكان هذا الحاكم يظن أن بلدوين لايعدو أن يكون مغامرًا من المغامرين ، فأرسل إليه يستعين به ضدّ رعاياه الذين رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم ! ، فزحف بلدوين بآلات الحصار واستولى على سروج وعزل حاكمها ، وضمها إلى أملاكه . وبذلك لم يعد أمامه سوى « البيرة » لإكمال سيطرته على المنطقة ، وقد استولى عليها سنة ١٠٩٩ . وحقق بذلك ماكان يبغيه حين خرج من غرب أوروبا تحت عباءة الصليب بحجة تحرير بيت المقدس ! .

وقد كان على الأرمن فى الرها أن يتذوقوا طعم الاستعمار الصليبى الجديد ، ويدفعوا غاليًا ثمن مساعدتهم لبلدوين . إذ سرعان ما اجتذب إلى الرها عددًا كبيرًا من الصليبيين الغربيين ليكون منهم عموده الفقرى الاجتماعى الذى يستند إليه فى الحكم . وبذلك تكونت أرستقراطية غربية استولت على الضياع الزراعية التابعة للرها ، وأجبرت الفلاحين الأرمن على العمل تحت سيطرتهم كعبيد أرض فى إطار النظم الإقطاعية المعروفة فى الغرب . وعندما أفاق الزعماء الأرمن على ماحدث ، وأرادوا تصحيح خطئهم بمؤامرة للتخلص من ذلك الحكم ، أحبطت هذه المؤامرة وعوقبوا عقابًا شديدًا فى ٢٦ ديسمبر ١٠٩٨ .

على كل حال ، فى الوقت الذى كان بلدوين يؤسس لنفسه « إمارة الرها » عبر سلسلة المؤامرات والخيانات . كانت بقية الجيش الصليبى الكبير تتجه صوب الشمال الشرقى كما ذكرنا . وقد استطاعت الاستيلاء على قيصرية فى ٢٧ سبتمبر ١٠٩٧ . ثم اتجهت إلى الجنوب الشرقى ،

حيث استولت على « بلاكنتيا » ، وهى قلعة أرمنية هامة فى جبال طوروس ، وسلمتها للقائد البيزنطى المرافق للصليبين تنفيذًا للاتفاق مع الإمبراطور . ثم اخترقت جبال طوروس إلى مرعش ، ولما كان معظم سكان هذه المدينة من الأرمن ، فقد رحبوا بالصليبيين عند وصولهم إليها فى ١٣ أكتوبر ١٠٩٧ . على اعتبار أنهم حماة ومنقذون . ومن مرعش إتجهت الحملة جنوبًا إلى أنطاكية ، فوصلت جسر الحديد على نهر العاصى شرق أنطاكية فى ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ . وبذلك بدأ غزو الصليبيين للشام ودار التاريخ دورةً كاملة قطرها نحو خمسمائة عام ! .

٣٥ - الإستيلاء على الشام وسقوط بيت المقدس

- محنة الصليبين أمام أنطاكية .
- محاولة بطرس الناسك ووليم النجار الهرب .
- انسحاب البيزنطيين من أمام أنطاكية Antioch .
- المشروع الفاطمى للتحالف مع الصليبين ضد السلاجقة .
- سقوط حارم فى يد الصليبين .
- سقوط أنطاكية فى ٣ يونية ١٠٩٨ .
- حصار كاربوغا لأنطاكية .
- خطأ كاربوغا القاتل .
- نبوءة بارتلميو .
- فشل حصار عرقة .
- المواجهة بين الفاطميين والصليبيين .
- قرارات مجلس الحرب الصليبى فى الرملة .
- سقوط بيت المقدس فى ١٥ يولية ١٠٩٩ .

٣٥ - الاستيلاء على الشام وسقوط بيت المقدس

كان وصول الصليبيين إلى أبواب الشام فى أكتوبر ١٠٩٧ م ، بداية مرحلة خطيرة فى تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا ، تميزت باحتدام النزاع بينهما لعدة مئات من السنين . ذلك أن الشام ظلّ بمنأى عن الصراع بين الطرفين طوال الفترة السابقة ، بفضل تفوّق القوّة العربية ، وسيطرة العرب على البحر المتوسط . ولم يكن إلاّ فى عهد الأسرة المقدونية ، التى تولت عرش بيزنطة فى الثلث الأخير من القرن التاسع (٨٦٧ - ١٠٥٧ م) ، حين دخل الشام فى الصراع بسبب انحسار القوة العربية ، ثم ابتعد مرةً أخرى مع انتعاش القوة الإسلامية على يد السلاجقة .

وقد أحدث وصول الصليبيين إلى الشام رجّة كبيرةً فى نفوس الأهالى . لأن كثرة أعدادهم وطبيعة زحفهم جعلت الناس يشعرون بأنهم أمام خطر غير عادى . وقد عبر ابن القلانس عن ذلك بقوله : إن الصليبيين وصلوا « فى عالم لا يحصى عدده كثرة ، وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها » .

ومع ذلك فإن بعض القوى الإسلامية فى المنطقة لم تتصور حجم هذا الخطر تمامًا ، وظلت غافلة عن طبيعته البعيدة المدى ، وتصوّرت أنه خطر زائل مثله فى ذلك مثل الأخطار السابقة ! . بل إن بعض القوى ، مثل الفاطميين ، رأوا انتهاز فرصة ظهور هذه القوة الجديدة فى المنطقة ضدّ السلاجقة ، لتحقيق انتصارات عليهم فى جنوب الشام ! بل فكروا فى مشروع للتحالف مع الصليبيين تعطى بمقتضاه أنطاكية لهم ، ويكون بيت المقدس للفاطميين ! وشجعهم على ذلك السوابق التاريخية ، لأن الدولة البيزنطية فى عصر انتعاشها على يد الأسرة المقدونية لم تتعدّ أملاكها فى الشام مدينة أنطاكية ، ولم يتصوروا أن الصليبيين أخطر بكثير من نقفور فوكاس Nicephorus ويوحنا تزمسكيس Tzimiskes (شمشقيق) ! ، لأنهم يمثلون استعمارا استيطانيا لا عسكريا . وسنرى تأثير هذا العجز عن تقدير الخطر الصليبى فى تمهيد الطريق لاحتلال الشام ! .

وكان الصليبيون قد وصلوا بقيادة بوهيمند إلى مدينة أنطاكية فى ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ ، وهم يظنون أنهم سيواجهون مهمةً سهلة ! . فاتخذ بوهيمند ومن معه من النورمانديين موقعهم فى شمال المدينة عند باب بولس . وعندما وصل روبرت أمير فلاتدرز وروبرت أمير نورماندى . اتخذا

مواقعها بين باب بولس وباب الكلب ، أما ريموند والمندوب البابوى أدهمار ومعهم فرسان بروفانس ، فاستقروا على مقربة من باب الكلب إلى الجهة الغربية منه ، وأخيرًا جودفرى الذى استقر فى الجهة الشمالية الغربية . وبذلك تم حصار المدينة .

على أن أنطاكية كانت من أقوى مدن العصر تحصينًا ، إذ يذكر المؤرخون أنه لم يكن يضارعها فى المنعة وقوة التحصين سوى القسطنطينية ! ، إذ أحاطت الجبال العالية بها من جهتى الجنوب والشرق . كما كان يحدها من الغرب مجرى نهر العاصى ، ومن الشمال مستنقعات وأحراش ، فضلاً عن قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها . وبالتالى كان على الصليبيين أن يخوضوا تجربة جديدة ! .

ومن المحقق أن مصير الحروب الصليبية كلها تحدّد عند أنطاكية ، فمن الثابت أن دفاع هذه المدينة الباسلة كاد يقلب الخطط الصليبية رأسًا على عقب ، لولا تمزق القوى الإسلامية ، وعجزها عن إدراك كنه الخطر الصليبى ، مما أتاح للصليبيين تحقيق انتصار صنعته الانقسامات العربية الإسلامية أكثر مما صنعته القوة الصليبية ذاتها ! .

وقد كان حاكم أنطاكية فى ذلك الحين هو ياغى بسان ، الذى عرف فى المصادر المعاصرة باسم ياغى سيان ، وكان على شقاق مع سيده رضوان بن تتش ملك حلب . مما حرمه من مساعدة هذه القوة عندما تدفّقت الجيوش الصليبية ! ، ولكنه حاول تعبئة القوى الإسلامية الأخرى فى دمشق وحمص والموصل ، فضلاً عن سلاجقة فارس والخليفة العباسى ، كما أعدّ العدّة لحصار طويل عن طريق اختزان الأطعمة والمؤن الكافية .

وقد أبقى هذا الاستعداد الصليبيين أمام أسوار أنطاكية حوالى تسعة أشهر من ٢١ أكتوبر ١٠٩٧ إلى ٣ يونية ١٠٩٨ ، جرت فيها أحداث هائلة فقد تناقصت المؤن سريعًا من يد الصليبيين ، حتى بات يهددهم شبح المجاعة . وقد حاولوا الإغارة على القرى والضياع القريبة فى حوض نهر العاصى لنهبها والحصول على الطعام ، ولكن ياغى سيان انتهز فرصة ابتعادهم للخروج والهجوم عليهم ، ولولا مهارة ريموند لأفلح فى طردهم ! .

وفى الوقت نفسه تجمعت قوة إسلامية قرب شيزر لإنقاذ أنطاكية ، مكونة من حاكم دمشق السجلوقى ، وأمير حمص العربى جناح بن ملاعب ، وهاجمت الصليبيين بقيادة بوهمند النورماندى وروبرت أمير الفلاندرز عند بارة فى أواخر ديسمبر ١٠٩٧ ، وحققت الانتصار عليهم . ولكنه لم يكن انتصارًا حاسمًا ، وقد أدرك الصليبيون مغبّة المغامرة والابتعاد عن مراكزهم ، فبقوا أمام أسوار أنطاكية . وبرغم المعونات المتقطعة التى كانت تأتيهم من قبرص

والغرب أحيانًا ، إلاَّ أن الجوع أخذ يهدّد صفوفهم ويشيع الانقسام والتفكك فيهم .

وقد كان فى تلك الظروف العصيبة أن آثر بطرس الناسك ووليم النجار الهرب ! . ولكن الفرسان تعقبوهما وأتوا بهما إلى المعسكر وسط احتقار الجند ، وقد وبخهما بوهمند بكلمات قاسية ، ولكنه عفا عن بطرس الناسك ، أما وليم النجار فأبقاه واقفًا على قدميه فى خيمته ليلةً كاملةً عقابًا ! . وأخذ عليهما تعهدًا بعدم ترك الجيش الصليبى حتى سقوط بيت المقدس . على أن هرب بطرس الناسك ووليم النجار شجع الكثيرين من الجند على الهرب ، فأخذوا يفرون من المعركة ويتسللون خلسةً ، مما أثر فى معنوية الجيش تأثيرًا سيئًا .

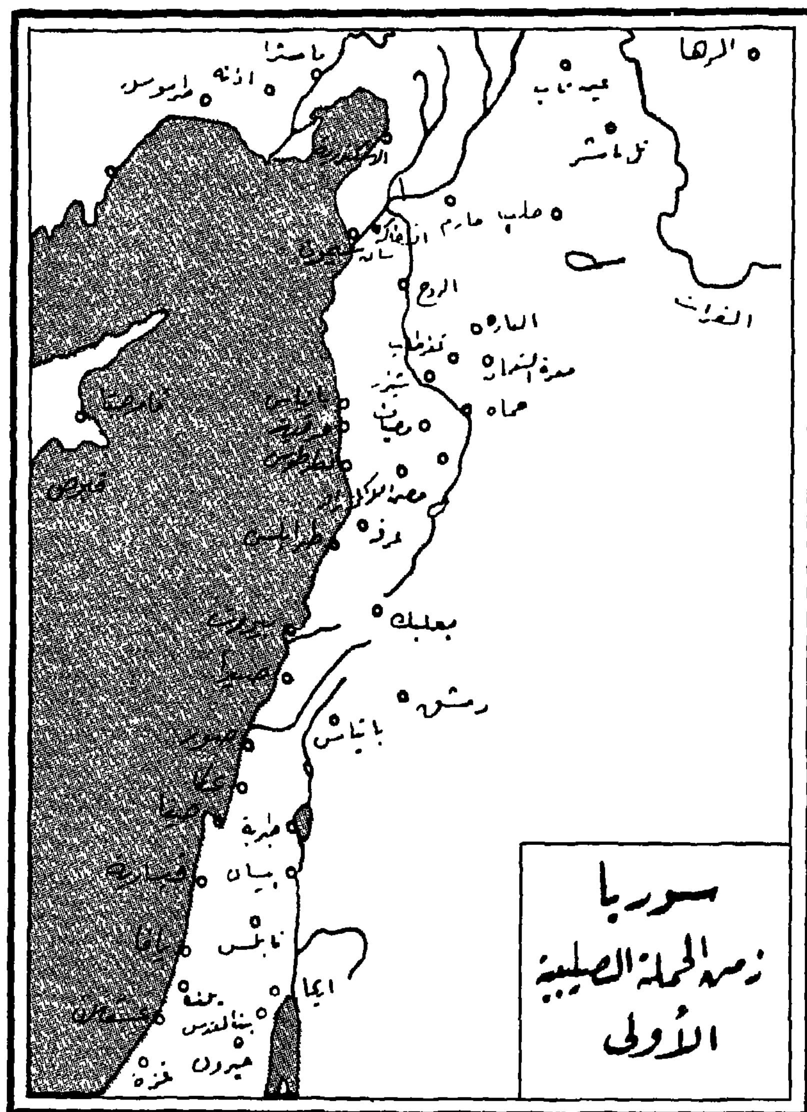
ولم يلبث الصليبيون أن تعرضوا لمحنة حين أعلن بوهمند فى أوائل يناير ١٠٩٨ عزمه على الانسحاب والعودة إلى إيطاليا ، وعدم استطاعته الاستمرار فى تلك العملية الحربية الطويلة التى لم يكن مستعدًّا لها . وأنه لا يستطيع تحمل رؤية رجاله وفرسانه وخيوله يتساقطون صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية ! .

ولما كان بوهمند وجنوده قد أصبحوا بمثابة العمود الفقرى للقوى الصليبية المحاصرة ، فقد سارع الأمراء الصليبيون إلى مناشدته عدم تركهم أمام أنطاكية ، ووعدوه بتسليمهم إياها فور الاستيلاء عليها . ولما كان كما ذكرنا تواقًا للاستئثار بها ، فقد قبل البقاء ! .

وفيما يبدو أن القائد البيزنطى تاتيكيوس **Tatikios** أراد تكرار حادثة مدينة نيقية التى استسلمت صلحًا للقائد البيزنطى بوتومايتس من وراء ظهر الأمراء الصليبيين . فأخذ يتفاوض مع القوى الإسلامية دون علم الصليبيين ولكنهم اكتشفوا هذه المفاوضات ، واتهموه بخيانة القضية الصليبية فى الخفاء ، وأخذ سخطهم يتزايد على الإمبرطور البيزنطى لتقاعسه عن إمداد القوات الصليبية بمايسدُّ رمقها ، وأخذوا يتآمرون على حياة القائد البيزنطى ، مما دعاه إلى الانسحاب والعودة إلى القسطنطينية عن طريق قبرص بحجة إمدادهم بالمؤن .

وقد كان انسحاب القائد البيزنطى نقطة تحول فى موقف الصليبين من الدولة البيزنطية.فحتى ذلك الحين حافظ الصليبيون على اتفاقهم مع الإمبراطور البيزنطى على تسليمه كل ما استولى عليه المسلمون من بلاد فى آسيا الصغرى . وكانت أنطاكية من البلاد التى فقدها البيزنطيون منذ سنة ١٠٨٥ ، وبالتالى كان على الصليبين ردّها إليهم ، ولكن هذا الانسحاب فضلاً عن تهمة التآمر مع المسلمين ، جعلت الصليبيين يتنكرون لاتفاقهم مع الإمبراطور الكسيوس كومنين .

وفى تلك الظروف العصيبة التى كان يمرّ بها الصليبيون أمام أنطاكية ، لعبت الانقسامات



سوريا
زمن الحملة الصليبية
الأولى
الرها
عين تاب
تل باشر
الفرات
اذنه
طرسوس
حلب
حارم
البارة
معرة النعمان
حماه
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
بانياس
صور
عكا
حيفا
طبرية
قيسارية
بيسان
نابلس
يافا
بيت المقدس
عسقلان
حبرون
غزة

(خريطة رقم ٢٢)

والصراعات بين القوى الإسلامية دوراً خطيراً فى ترجيح كفتهم. فقد انتهز الفاطميون فى مصر فرصة انشغال السلاجقة بالصراع مع الصليبيين لتحريك جيش تمكن من فتح بيت المقدس فى أغسطس سنة ١٠٩٨ وكانت قد وفدت إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية فى يناير – فبراير ١٠٩٨ بعثة فاطمية للتفاوض على عقد تحالف ضدّ خصومهم من أهل السنة (أى الخلافة العباسية فى بغداد والسلاجقة فى الشام) . وقد سعد الصليبيون بهذه السفارة الفاطمية لأنها أكسبتهم وضعاً سياسياً معترفاً به فى هذا الركن الهام من أركان العالم العربى والإسلامى ، وأخذوا يموهون على الفاطميين لإخفاء مشروعاتهم فى الشام وعلى رأسها الاستيلاء على بيت المقدس ! .

على أن القوى الإسلامية السلجوقية كانت قد أخذت تتجمع فى تلك الأثناء لفكّ الحصار عن أنطاكية ، فاجتمعت جيوش حلب وديار بكر وحماه وحمص وإقليم الجزيرة فى حارم ، التى تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا شرقى أنطاكية ، ورسمت خطتها على مهاجمة الجيوش الصليبية فى الوقت الذى تخرج جيوش ياغى سيان من أنطاكية لمهاجمتها من الجانب الآخر ، فيقع الصليبيون بين نارين ، ولكن السريان والأرمن فى حلب وحارم سارعوا بنقل خبر تلك الخطة إلى الصليبيين فى أوائل فبراير ١٠٩٨ ، فقرر بوهمند ترك المشاة يحرسون معسكر الصليبيين حول أنطاكية ، وخرج بجيشه للقاء الجيوش الإسلامية فى موقع حصين بين بحيرة العمق ومجرى نهر العاصى ، وانتهت المعركة باندحار المسلمين وتراجعهم إلى حارم يتبعهم الصليبيون ، بينما فرّت حامية حارم بعد أن أشعلت النار فى الحصن . واستولى الصليبيون على حارم بمساعدة السوريان والأرمن ، فسقطت بذلك القلعة التى كانت تحمى أنطاكية من ناحية حلب . وعاد الصليبيون إلى أنطاكية يحملون رءوس ضحاياهم فى معركة العمق ، وقذفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم المدافعون بما حلّ بحلفائهم ! .

على أن ذلك لم يفت فى عضد حامية أنطاكية ، بل أرسل ياغى سيان إلى كربوغا أتابك الموصل ليعمل على نجدته ، فخرج بالفعل قاصداً أنطاكية لانقاذها ، الأمر الذى سبب ذعراً للصليبيين ، فعاد كثيرون إلى التسلل مرة أخرى والعودة إلى بلادهم ! . ومن هؤلاء اتين دى بلوا ، الذى اتجه إلى اسكندرونة يوم ٢ يونية على رأس عدد كبير من رجاله الفرنسيين بعد أن ملّوا الحصار دون جدوى ! .

ولكن فى تلك الأثناء خدمت الظروف الصليبيين ، لأن كاربوغا بدلاً من الاتجاه مباشرةً إلى أنطاكية ، فرض الحصار على الرها لتخليصها من الصليبيين . وفى الوقت نفسه شيّد الصليبيون

قلعةً على تل قريب من أنطاكية فأحكموا الحصار عليها ، كما وفد عدد من السفن الإنجليزية والجنوية تحمل المؤن والسلاح وآلات الحصار ، وعمدوا إلى التآمر مع أحد الأرمن فى أنطاكية ممن أسلموا وعهد إليهم باغى سيان بحراسة أبراج المدينة فى الجنوب . ففتح لهم أبواب الأبراج التى يقوم بحمايتها ، فتدفقوا منها سريعًا ، حتى إذا طلع نهار يوم ٣ يونية ١٠٩٨ م ، كانت أنطاكية فى قبضة الصليبيين ! . وكانت نكبة فظيعة ، فكما يذكر ابن القلانسى فى كتابه « ذيل تاريخ دمشق » فقد تطرف الصليبيون فى قتل من وجدوه بأنطاكية من المسلمين ، حتى قتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركه حصر » .

وقد أثار سقوط أنطاكية ضجّة كبرى فى البلاد الإسلامية القريبة ، كما كان له دوىٌّ فى العالم المسيحى ، نظرًا لأهميتها التاريخية ، فقد كانت ثالث مدن العالم فى عصر الإمبراطورية الرومانية ، كما كانت المدينة التى أطلق فيها على أتباع المسيح اسم « المسيحيين » لأوّل مرة . وقد أسّس فيها القديس بطرس أوّل أسقفية له . وكانت ملتقى الحضارتين العربية واليونانية منذ استيلاء المسلمين عليها فى العقد الرابع من القرن السابع الميلادى .

على أن استيلاء الصليبيين على أنطاكية لم يلبث أن وضعهم فى قبضة كاربوغا ، الذى كان فى تلك الأثناء قد ترك حصار الرها وأخذ يزحف فى طريقه إلى أنطاكية بعد أن ضمّ إليه بعض الجيوش الإسلامية الأخرى ، خصوصًا جيش الأمير العربى جناح الدولة حسين ، صاحب حمص . ولم يلبث أن وصل إلى جسر الحديد شمال شرقى أنطاكية ، فقضى على الحامية الصليبية . ثم ظهر أمام أسوار أنطاكية ، التى كانت قلعتها ما تزال فى أيدى المسلمين ، وفرض الحصار على المدينة ! .

على هذا النحو انقلب الموقف ! فبعد أن كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية أصبحوا محاصرين فيها ! . وكانت خطة كربوغا تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها ، ولذلك عيّن على قلعة أنطاكية أحمد بن مروان . وأخذ يشدّد قبضته شيئًا فشيئًا عليها .

وسرعان ما أخذت تنضب موارد الصليبيين داخل أنطاكية ويعانون من وطأة الحصار وعدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة ، وبلغ سعر رغيف الخبز الصغير دينارًا والبيضة الواحدة دينارين ، واضطر الكثيرون إلى العيش على أوراق الأشجار فضلاً عن « الميتات والدواب » — كما يقول ابن العديم فى « زبدة الحلب » ! .

وقد كان فى تلك الظروف أن أخذ الكثيرون من الصليبيين يعبّرون عن ندمهم لترك بلادهم والحضور إلى الشرق ، بل جاهر بعضهم بأن اتين دى بلوا كان على حق فى الانسحاب والعودة إلى بلاده أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية .

ومن الطريف أن الإمبراطور البيزنطى استجاب لنداء الصليبيين لتخليصهم من تلك المحنة ، وخرج على رأس جيشه قاصدًا أنطاكية ، ولكنه قابل اتين دى بلوا ورفاقه ، الذين أخبروه بأن السلاجقة استردوا أنطاكية وأبادوا الصليبيين ! ، فقفل بدوره راجعًا إلى بلاده للدفاع عنها ! . وبذلك بدأ اليأس ينتاب الكثيرين داخل أسوار أنطاكية ، وخارت قواهم ، وأخذوا يتسللون من مواقعهم إلى مساكن المدينة للاحتماء بها ، مما دعا بوهمند إلى حرق مساكن المدينة فى ١٢ يونية لإجبار الصليبيين داخلها على الخروج إلى مواقعهم الأمامية .

وقد كان على الصليبيين تقبل الأمر الواقع والتفكير فى الاستسلام . ودخلوا فى مفاوضات مع كاربوغا ، ولكنه أصرّ على الاستسلام دون قيد ولا شرط ، وقال لهم : « لا تخرجون إلاّ بالسيف » ! .

وعلى هذا النحو لم يعد مفر أمام الصليبيين من القتال . وفى ٢٨ يونية ١٠٩٨ أمر بوهمند رجاله بالخروج للدخول فى معركة فاصلة مع المسلمين . وكان فى وسع كاربوغا القضاء عليهم تدريجيًا كجماعات صغيرة أثناء خروجهم ، فقد أشار عليه قواده بالوقوف على الباب فنقتل كل من خرج ، فإن أمرهم «الآن وهم متفرقون سهل » . ولكنه ، لأسباب سوف يقف عندها التاريخ طويلاً بالحيرة ! ، رفض هذه المشورة قائلاً : « أمهلوهم حتّى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، وبذلك أضاع كاربوغا آخر فرصة لهزيمة الصليبيين . إذ لم يكد يتكامل عددهم حتّى خاضوا معركة حياة أو موت ، وحلّت الهزيمة بجيش كربوغا وانفض عنه كثير من الأمراء .

ومن الطريف أن أحد الأسباب الهامة فى حماس الصليبيين فى القتال يرجع إلى نبوءة لفلاح فى الجيش الصليبى يدعى بارتلميو ، زعم أن القديس أندرياس ظهر له فى المنام عدّة مرات ، وأخبره بأن الحربة التى اخترقت جنب المسيح مدفونة فى إحدى زوايا كنيسة القديس بطرس بأنطاكية . وقد تم العثور على قطعة حديد بالية فى إحدى الحفر بحضور المندوب البابوى . فاعتبر ذلك علامة على رعاية المسيح للصليبيين وهدايته لهم ! . ويعلّق « رنسمان » على هذه الحادثة ساخرًا : « يبدو أن بارتلميو قد قام بدفن هذه الحديدة أو أن له الموهبة الإلهية فى الكشف عن المعادن ! » .

وعلى كل حال فعلى هذا النحو حقق الصليبيون انتصارًا على سلاجقة الروم وسلاجقة الشام

وفارس ، وبذلك أصبح الطريق مفتوحًا لهم إلى بيت المقدس ، لأن أنطاكية هى مفتاح الشام .

على أن الصليبيين أضاعوا خمسة عشر شهرًا فى صراعات داخلية حول مصير أنطاكية ، خصوصًا بين بوهمند وريموند ، بينما أخذوا يقومون بغزوات صغيرة على البلاد المجاورة . فقد حاصر جود فرى « جبلة » التابعة لطرابلس . كما حاصر ريموند « عرقة » .

ومن الطريف أن ريموند كان مدفوعًا فى حصاره « لعرقة » برؤيا أخرى لبارتلميو ، الذى زعم أن المسيح قد أوصى بذلك ! . على أن صمود عرقه دعا الزعماء الصليبيين فى جيش جود فرى إلى التشكيك فى صحة هذه الرؤيا . بل شكوا فى أنه أداة مسخرة لريموند ، وأن الحربة المقدسة ما هى إلا قطعة حديد قام بدفنها بنفسه ! . وبلغ اللغط أشدّه حول هذه المسألة بين الصليبيين تحت أسوار عرقه . وأخيرًا تفتّق ذهن أحد رجال الدين عن اختبار صحة رؤيا بارتلميو عن طريق النار ! حسب الاعتقادات الشائعة فى ذلك الحين ، وذلك بأن يقتحم بارتلميو النار الملتّهبة حاملاً معه الحربة المقدسة ، فإذا كانت نبوءته صحيحة لم تمسّه النار ، وإذا كانت كاذبة أحرقته ! . وبطبيعة الحال فقد أحرقت النار بارتلميو جزاء كذبه ومزاعمه ، ومات بعد اثنى عشر يومًا من الأختبار متأثرًا بحروقه . وهنا انصرف الناس عن رواية الحربة المقدسة ، ورفع الحصار عن عرقة فى ١٣ مايو ١٠٩٩ تحت إصرار جود فرى ، وفشل ريموند فى تأسيس إمارة لنفسه فى الشام كما فعل بوهيمند فى أنطاكية .

ولم يلبث أن غادر الصليبيون إقليم طرابلس فى ١٦ مايو ١٠٩٩ متجهين إلى القدس ، حيث وصلوا إلى بيروت فى ١٩ مايو . وبذلك أصبحوا على أبواب الهدف الدينى الذى اتخذوه ذريعة لتحركهم من أوروبا ، ولكنهم أصبحو أيضًا وجهًا لوجه أمام الفاطميين .

وكان الفاطميون كما ذكرنا قد نظروا إلى قدوم الصليبيين على أنه فرصة لتخليص العنصر العربى من الأتراك السلاجقة ، ولم ينتبهوا إلى أن العلم الذى قدم الصليبيون تحته ، وهو علم الصليب ، يقتضى وحدة القوى الإسلامية بدورها تحت علم واحد هو علم الإسلام ، حتى دهمهم الزحف الصليبى على بيت المقدس ! .

وتروى المصادر التاريخية أن الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه ، حاكم مصر الفعلى وقتئذ (١٠٩٥ - ١١٢١ م) أرسل إليهم سفارةً تحمل هدايا نفيسة وعرضًا من الخليفة الفاطمى بأن يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مائتى أو ثلاثمائة حاج ، بشرط ألا يكونوا مسلّحين . ولكنهم ردّوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً ، ولكن بمعونة الله ! . وعندئذ

أصبحت الحرب أمرًا لا مندوحة عنها بين الفاطميين والصليبيين على بيت المقدس .

فى ذلك الحين كان الفاطميون يبسطون سيادتهم على فلسطين وساحل الشام جنوبى نهر الكلب . وقد اتخذ افتخار الدولة ، حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل ، كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين، فسمّم الآبار، وقطع موارد المياه، وأخفى المواشى وطرد المسيحيين من المدينة ، كما اهتم بتقوية التحصينات معتمدًا على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودانيين ، وأصبح على أهبة الاستعداد للحصار . على أنه لم يتلق مساعدات من جهات أخرى ، لأن الفاطميين لم يتركوا حاميات كافية فى تلك المناطق للدفاع عنها ، باستثناء حامية بيت المقدس ، وبعض المراكز الساحلية والموانى .

وقد كانت هذه المراكز الساحلية هى أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم عليها بعد مغادرتهم طرابلس . ولكنها آثرت مسالمة الصليبيين نظرًا لتفوقهم ، فقد تعهد أهل بيروت بالدخول فى طاعة الصليبيين ، والاعتراف لهم بالتبعية إذا نجحوا فى احتلال بيت المقدس . على أن صيدا أبدت بعض المقاومة ، مما دفع الصليبيين إلى إتلاف مزارعها . كما مرّ الصليبيون بصرفند وصور ، والتزموا طريق الساحل ، فمروا بعكا التى تعهد حاكمها أيضًا بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس ، كما مروا بقيسارية وأرسوف ، واتجهوا مباشرة إلى بيت المقدس دون المرور على يافا ، ولكنهم احتلوا الرملة التى هجرها أهلها .

وفى الرملة عقد الأمراء الصليبيون مجلس حرب ناقشوا فيه خطة الهجوم ، وقد ظهر فى هذا المجلس رأى يطالب بمهاجمة مصر ! . وكانت الذريعة لهذا الرأى هى أن مفاتيح بيت المقدس موجودة فى الحقيقة فى القاهرة . فإذا استولى الصليبيون على الدلتا ، أمنوا موقفهم وحياتهم واستقرارهم فى بيت المقدس .

وقد كان الصليبيون محقون بالفعل فى هذا التصور العام لأوضاع المنطقة . ولذلك يذكر بعض المؤرخين أن هذه الفكرة ظلّت مسيطرة على عقولهم طوّال عصر الحروب الصليبية ، حتّى وضعت موضع التنفيذ أكثر من مرة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

على أن أوضاع الصليبيين فى اجتماع مجلس الحرب الذى عقد فى « الرملة » فى أوائل يونية ١٠٩٩ لم تكن تسمح لهم بالإقدام على هذه المغامرة . فلم تكن أقدامهم قد استقرتّ بعد فى فلسطين ، ولم تتكون لهم بالتالى نقطة ارتكاز قوية فى تلك المنطقة على حدود مصر .

وعلى هذا النحو فقد تقرر الزحف على بيت المقدس مباشرةً ، وتم فرض الحصار عليها فى ٧

يونيه ١٠٩٩ . ولم يتمكن افتخارالدولة ، والى القدس الفاطمى ، من الصمود أمام الحصار الصليبى أكثر من أربعين يومًا ، فقد اقتحم الصليبيون المدينة يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ ، ولم يسع الجند المدافعون سوى الفرار للاحتماء بالمسجد الأقصى ، فتتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة ، واندفعوا إلى كل مكان وبيت فى القدس يذبحون كلّ إنسان يرونه ، حتى بلغ عدد القتلى عشرات الألوف ، وكتب مؤرخ معاصر يقول : « خاض رجالنا إلى ركبهم فى الدماء ! » .

وبذلك وقف المشرق العربى على حافة أحرج المواقف فى تاريخه .

٣٦- الصليبيون فى فلسطين

- مذبحة القدس فى التاريخ .
- اعتلاء جودفرى Godfrey حكم بيت المقدس .
- إقامة بطرق كاثوليكى فى بيت المقدس .
- هزيمة الفاطميين فى عسقلان فى ١٢ أغسطس ١٠٩٩ .
- سقوط الجليل فى يد تنكرد .
- فشل الصليبيين فى الاستيلاء على عسقلان والموانى الفلسطينية .
- انتقال تجارة الشام من يد الفلسطينيين إلى المدن الإيطالية .
- وصول أسطول البندقية فى يونية ١١٠٠ .
- سقوط حيفا فى أغسطس ١١٠٠ .
- دور رئيس الأساقفة دايمبرت Dagobert فى بيت المقدس .
- سقوط بوهمند Bohemund أسيرًا فى يد الملك غازى كمشتكين .
- إعلان بلدوين ملكًا على بيت المقدس .

٣٦ – الصليبيون فى فلسطين

كانت مذبحة المسلمين بالقدس فى يوليو ١٠٩٩ على يد الصليبيين لطخة عار فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى . باعتراف المؤرخين المحدثين من أمثال « جروسيه » وغيره ، فلم يحدث فى تاريخ القدس منذ فتحت فى مطلع الإسلام أن ارتكب المسلمون مثل هذه المذبحة الوحشية فى حق المسيحيين ، بل ظل هؤلاء يواصلون ممارسة شعائرهم الدينية فى أمان وسلام . ولقد تعرضوا فى بعض الفترات إلى بعض الاضطهاد ، ولكنه لم يتعد هدم كنيسة أو نحوها كما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله ، ثم سارع إلى استرضائهم ! . ولكن فى يوليو ١٠٩٩ ارتكب الصليبيون تلك المذبحة المروعة ، التى تناولها مؤرخو الحملة الصليبية أنفسهم بالتنديد ، فكتب وليم الصورى يقول إن البلد أصبح « مخاضة واسعة من دماء المسلمين ، أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » ! . وكتب مؤرخ صليبى آخر يقول إنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة ، « لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلاّ بصعوبة بالغة ، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه » ! . وأورد المؤرخون المسيحيون الشرقيون أيضًا أخبار هذه المذبحة، فكتب ابن العبرى الملطى يقول: «ولبث الفرنج فى البلد أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا » ! كذلك ذكر متّى الرهاوى أن عدد القتلى من المسلمين فى تلك المذبحة زاد على خمسة وستين ألفا ! . وكل ذلك تحت علم الصليب وباسم الصليب ! .

لذلك لم يكن عجيبًا أن ظلّت تلك المذبحة تثير الحزن والأسى فى قلوب المسلمين حتّى تم طرد الصليبيين من الشام نهائيًّا . وعندما وصل نبأ الكارثة إلى بغداد فى رمضان يحمله قاضى دمشق إلى الخليفة العباسى ، « اجتمع أهل بغداد فى الجوامع ، واستغاثوا ، وبكوا ، حتّى أنهم أفطروا فى رمضان من عظم ما جرى عليهم » ! . وقد سخر الشاعر المظفر الأبيوردى من هذا البكاء مطالبًا بالاستنفار قائلاً :

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

وقد أخذ الصليبيون فى أعقاب ذلك ، وبعد الانتهاء من ذبح جميع المسلمين فى بيت المقدس ، فى تنصيب زعامة لهم فى القدس . ولم يكن قد بقى فى الحملة فى ذلك الحين سوى

جودفرى ، وريموند وتنكرد ، وروبرت النورماندى ، وروبرت أمير فلاندرز . وكان هؤلاء الأمراء الخمسة هم الذين دخلوا كنيسة القيامة يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ ، وأيديهم ملطخة بدماء المسلمين ، ليبتهلوا إلى الله ويطلبوا حسن ثواب الدنيا والآخرة – حسب قول ميشو ! .

وقد أسفرت نتائج المناقشات التى جرت عن إسناد الإمارة إلى جود فرى بعد استفسارات شكلية عن سلوكه ، وقد زكّاه رجل الدين الملازم له بأسلوب يصور روح العصر ، فذكر أنه « يمكث فى الصلاة طويلاً حتى يضطر أهله إلى تناول الطعام باردًا أو مطهوًا أكثر من اللازم » ! . على أن جود فرى لم يكن بهذه الطهارة فقد عرف بالطموح والاستئثار ، وقد أضاع وقتًا فى طرابلس للحصول على أملاك فيها أثناء مسيرة الحملة من أنطاكية ، كما لعب دورًا فى مذابح القدس لا يستهان به ، « إذ أقسم أن يطهر الدين بدماء المسلمين » ! . ولكنه كان من الذكاء والقدرة على مخاطبة الجماهير إلى حدّ رفض لبس التاج الذهبى حين عرض عليه ، فقد ردّ بأنه لا يستطيع أن يلبس التاج الذهبى فى المكان الذى لبس فيه المسيح التاج الشوكى » ! وفضل أن يلقب باسم « حامى القبر المقدس » . ولكنه سارع إلى مطالبة ريموند الجيلى **Saint-Gilles** بتسليمه قلعة داود فى القدس قائلاً إنه لا يستطيع أن يكون أميرًا على مدينة فيها قوّة تفوق قوته . واضطر ريموند إلى تسليمه القلعة بالفعل .

ولم يلبث أن استبدل الصليبيون بالبطرق الارثوذكسى بطرقًا كاثوليكيا هو أرنولف مالكورن ، الذى يذكر المؤرخون الأوروبيون أنه عرف بكل صفة ما عدا التديّن ! ، وكان معروفًا بحياة السفه . وقد وصل إلى رئاسة القدس الروحية بمساندة روبرت أمير نورماندى . وسرعان ما عمد إلى مصادرة الأملاك الدينية الأرثوذكسية ، ثم أمر باضطهاد زعمائهم حينما أبوا تسليمه الصليب المقدس ! . وبذلك –كما يقول « أولدنبرج » – انقلبت أفراح مسيحيى الأراضى المقدسة أتراحًا ، بعد أن استقبلوا الجيوش الصليبية بالدموع والدماء » ! .

وقد كان على الصليبيين ، بعد أن استقرت أمورهم فى القدس على هذا النحو ، أن يواصلوا الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، فاحتلوا نابلس دون مقاومة ، إذ سارع أهالى المدينة إلى دعوتهم لتسلمها نظرًا لخلوها من وسائل الدفاع ، وقد تسلم تنكرد المدينة فى أواخر يوليو ١٠٩٩ .

على أن الفاطميين كانوا فى ذلك الحين قد أفاقوا على الخطر الصليبى ، الذى حاولوا التفاهم معه دون جدوى متوهمين أنهم يستطيعون إلهاءه بشمال الشام ! . ويشير بعض المؤرخين مثل ابن ميسر ، إلى أن الاستعداد لمقاتلة الصليبيين بدأ مبكرًا حين سمع الوزير الأفضل فى مصر بزحفهم على

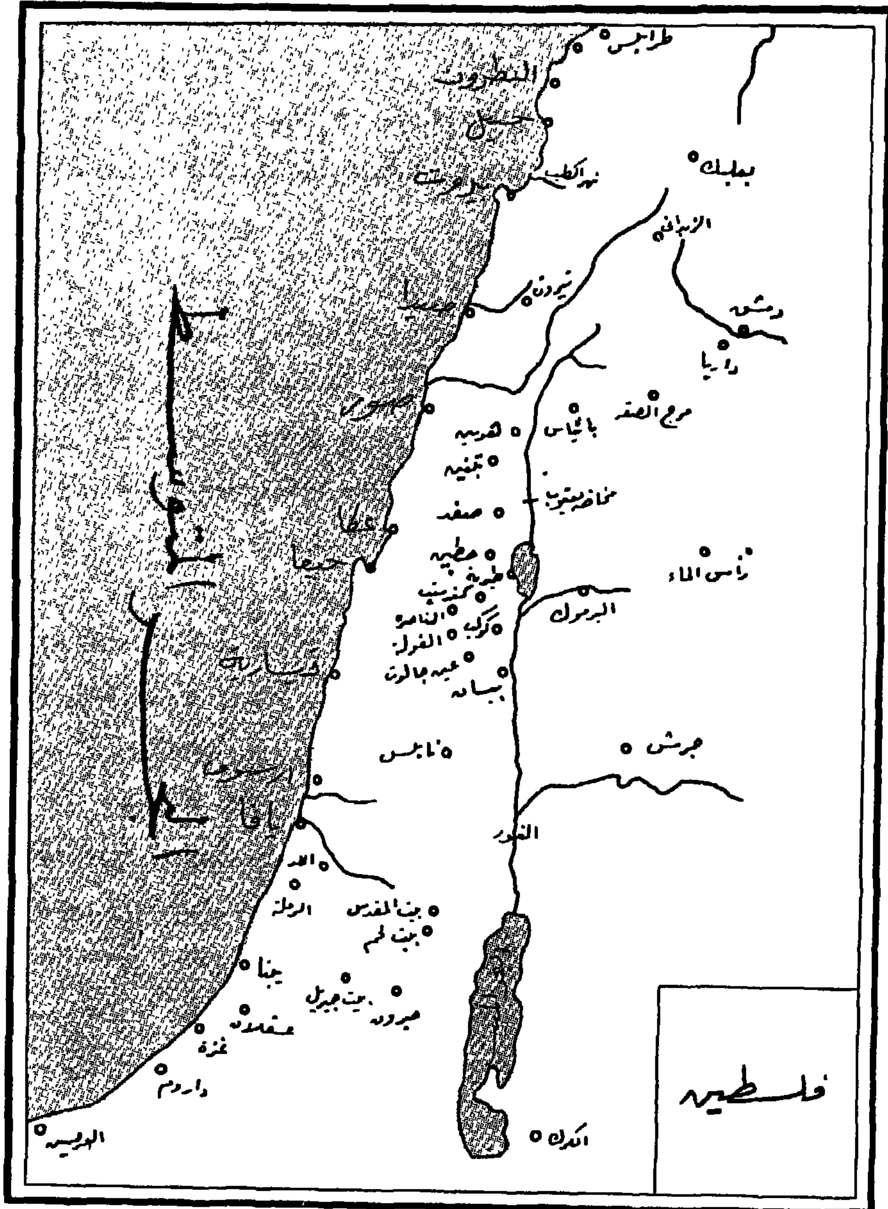
بيت المقدس . فقد جهّز جيشًا وخرج به من مصر ليحول دون الاستيلاء عليه ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس ، بعد أن استولى الصليبيون على القدس بعشرين يومًا ! .

وهذا الكلام ينقض كلام بعض المؤرخين الذين يتّهمون الدولة الفاطمية بأنها تلقت أخبار سقوط القدس « فى برود ، وظلت تغطّ فى سباتها العميق » ! ذلك أن الخطر الصليبى كانت قد اتضحت أبعاده فى ذلك الحين ، وإذا كانت الدولة الفاطمية قد خاضت الحرب ضد السلاجقة المسلمين لاستّرداد القدس التى سقطت فى أيديهم عام ١٠٧١ ، وذهبت فى ذلك إلى حدّ التفاهم مع الصليبيين – فلم يكن ليتوقع منها السكوت على سقوطها فى أيدى الصليبيين . وسوف نرى تتابع الحملات من جانبها عليهم .

على كل حال فقد عسكر الأفضل بجيشه فى عسقلان ، وأرسل فى استدعاء الأسطول المصرى وبعض القوات الأخرى . ولكن الصليبيين اكتشفوا أمره بفضل تنكرد ، الذى تلقى بعد استيلائه على نابلس رسالة من جودفرى فى ٤ أغسطس يدعوه إلى التوجه إلى البحر للتأكد من صحة الأخبار بوجود حملة فاطمية ، فسارع إلى قيسارية ، ومنها اتجه جنوبًا إلى الرملة حيث تأكد من ذلك عن طريق القبض على عدد من الكشافين الفاطميين فيما بين يافا والرملة ، وأرسل إلى جودفرى يستدعيه « ومعه كافة المقاتلين الصليبيين » ، فجاء ومعه أرنولف وروبرت أمير فلاندرز ، ولحقه روبرت النورماندى وريموند الصنجيلى .

وقد وجد الصليبيون أن الهجوم خير وسائل الدفاع ، فلم ينتظروا إلى حين استكمال قوة الأفضل ، بل سارعوا إلى مهاجمته فزحفوا من الرملة جنوبًا فى اتجاه عسقلان ، وفاجئوا الأفضل فى ١٢ أغسطس ١٠٩٩ ، حيث دارت معركة غير متكافئة انتهت بهزيمة الفاطميين وتشتيت شملهم ، وتمكن الوزير الأفضل من الهرب إلى مصر مع بعض كبار رجاله . « وهكذا » – كما يقول القلانسى – « تمكنت سيوف الإفرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوّعة وأهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر » ! .

وقد بالغ « جروسيه » فى تقدير نتائج معركة عسقلان ، فذكر أنها أخرجت الفاطميين من فلسطين مثلما أخرجت الهزيمة التى حلت بكربوغا سنة ١٠٩٨ السلاجقة من معركة الشام ! . وقال إن الفاطميين لم يجرؤوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين ، وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة وراء الأخرى فى أيدى الغزاة . وبذلك أصبحت أيدى الصليبيين طليقة فى


طرابلس
البطرون
جبيل
بعلبك
نهر الكلب
بيروت
الزبداني
صيدا
دمشق
داريا
صور
مرج الصفر
بانياس
تبنين
مخاضة يعقوب
صفد
عكا
حيفا
حطين
طبرية
رأس الماء
كفر كنا
الناصرة
كوكب
اليرموك
الفولة
عين جالوت
بيسان
قيسارية
نابلس
جرش
أرسوف
يافا
الغور
اللد
الرملة
بيت المقدس
بيت لحم
يبنا
بيت جبريل
حبرون
عسقلان
غزة
الداروم
العريش
الكرك
فلسطين

(خريطة رقم ٢٣)

فلسطين منذ انتصارهم فى عسقلان ، مثلما صارت أيديهم طليقة فى شمال الشام عقب انتصارهم على كربوغا .

على أن الفاطميين لم يكفّوا – فى الحقيقة – عن إطلاق الحملات من مصر على الصليبيين ! ، إذ إنهم سيتابعون إرسال الحملات فى سنوات ١١٠١ – أى بعد عام ونيف تقريبًا – ثم فى ١١٠٢ ، وفى ١١٠٥ ، ولم يكفّوا عن شنّ الغارات فى ١١٠٦ و١١٠٧ ، ١١١٠ . ثم واصلوا شّن الغارات فى الفترة من ١١١٣ – ١١١٥ ! .

وعلى كل حال فقد كان من نتائج هزيمة عسقلان احتلال الجليل من جانب الصليبيين وكان هذا الإقليم قبل وصول الصليبيين إلى فلسطين موضع نزاع وتنافس بين دقاق أمير دمشق والفاطميين ، وعندما لحقت الهزيمة بالأخيرين فى عسقلان ، حاول أمير دمشق احتلاله . ولكن الصليبيين كانوا أسرع منه ، فقد عهد جود فرى إلى تنكرد بفتح هذا الإقليم واحتلاله ، على أن يعطيه إياه ويصبح أميرًا عليه تابعًا له . وقد تمكن تنكرد من فتح الجليل بسرعة ، فاحتل طبرية فى سهولة بعد أن هرب منها أهلها ، وحصّنها تحصينًا قويًّا ليتخذها مقرًّا لإمارته ، ثم اتجه إلى الجنوب الشرقى من الجليل فاحتل بيسان التى تشرف على الضفة الشرقية لنهر الأردن .

وقد كان احتلال الجليل قصارى ما حققه الصليبيون نتيجة معركة عسقلان ، ويرجع ذلك فى الحقيقة إلى الانقسام الذى دبّ فى صفوفهم بسبب تنازع أمرائهم على الغنيمة ، بأكثر مما يرجع إلى المقاومة العربية والإسلامية التى لم تكن قد تجمعت أو استعدت فى ذلك الحين (أول حملة فاطمية بعد هزيمة عسقلان كانت فى ١١٠١) .

فقد سارع جود فرى ، حامى بيت المقدس ، إلى حصار عسقلان نفسها فى أعقاب هزيمة الفاطميين . ولم يكن هناك بدٌّ أمام أهالى المدينة من التسليم دون مقاومة ، ولكنهم أرادوا التسليم لريموند الصنجيلى ، نظرًا لأنه كان الأمير الوحيد الذى وفى بوعده لافتخار الدولة ، القائد الفاطمى الذى كان يدافع عن بيت المقدس وقت هجوم الصليبيين عليه ، وأمنه ورجاله حتى خرجوا من محراب داود سالمين إلى عسقلان – فأرسلوا إليه يطلبون تسليم بلدهم بشرط تأمينهم على أرواحهم وحرياتهم . على أن جود فرى خشى أن يؤسس ريموند الصنجيلى إمارة لنفسه على شاطئ فلسطين فى مواجهة بيت المقدس ، فيحرم بذلك الدولة الناشئة فى القدس من شاطئها الطبيعى على البحر ، ويقطع الصلة بينها وبين الغرب ، فطلب إلى جود فرى التخلى عن عسقلان لأنها ستكون تابعة لبيت المقدس . وعندئذ آثر ريموند الصنجيلى بقاء المدينة فى يد المسلمين عن أن تكون فى يد

جود فرى ! . فلم يكتف بالانسحاب ، بل حرص بقية الأمراء الصليبيين على الانسحاب معه ، وأوعز إلى أهالى عسقلان بالدفاع عن مدينتهم والثبات والمقاومة ! .

وعلى هذا النحو وجد جود فرى نفسه وحيدًا أمام عسقلان ، فى الوقت الذى اشتد أهلها فى المقاومة ، فاضطر إلى الانسحاب بدوره من أمامها . وبذلك أفلتت عسقلان من الاحتلال الصليبى بعد أن كانت ناضجة للسقوط ، ولم يتمكن الصليبيون بعد ذلك من احتلالها إلا بعد نصف قرن من الزمان ! أى فى عام ١١٥٣ ! . وطوال تلك السنوات ظلّت عسقلان قاعدة للقوات المصرية تخرج منها الحملات لشن الغارات على الصليبيين .

وكما حدث أمام عسقلان حدث أيضًا أمام أرسوف، حين انصرف إليها ريموند الصنجيلى للاستيلاء عليها عن طريق تأمين أهلها ، فقد أصرّ جود فرى أيضًا على أن أرسوف تتبع بيت المقدس . فانسحب ريموند إلى الشمال بعد أن حرص أهل أرسوف على المقاومة وعدم الاستسلام لجود فرى . وهكذا أدّى انقسام الصليبيين إلى عدم تمكنهم من الاستيلاء على موانى فلسطين . فظلّت هذه الموانى الهامة مثل عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس ، فى أيدى المسلمين ، وقد سيطر الفاطميون على هذه الموانى ، فيما عدا طرابلس التى كانت فى قبضة بنى عمار .

وقد كان فى أعقاب ذلك أن أخذ كثير من الصليبيين يعودون إلى بلادهم بحجة أنهم أوفوا بقسمهم الصليبى وانتهت مهمتهم بالاستيلاء على القدس ، ومن هؤلاء روبرت النورماندى وروبرت أمير فلاندرز ، كما عاد ريموند الصنجيلى فى صيف ١١٠٠ إلى القسطنطينية للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين على القيام بعمل مشترك ضد بوهميند فى أنطاكية .

وعلى الرغم من أن عودة هؤلاء الأمراء قد أراحت جود فرى فى القدس من المنافسة ، إلا أن تناقص الصليبيين يومًا بعد يوم جعل موقف جود فرى وتنكرد خطيرًا ، إذ لم يبق لديهما سوى بضعة مئات من الجند ، وقد تمكنا بالكاد من وضع حاميات صغيرة فى المدن الرئيسية مثل بيت المقدس ، وبيت لحم ، والخليل ، والرملة ، واللد ، ونابلس ، ويافا ، وبيسان ، وطبرية ، والناصرة ، التى ظلّت أشبه بجزر صغيرة وسط محيط من الأعداء .

ومن الغريب أنه فى تلك الفترة من ضعف الصليبيين لم تظهر قوّة إسلامية ، سواء فى بغداد أو مصر ، تنتهز هذه الفرصة للقضاء عليهم ، واسترداد بيت المقدس ! . ولا يقدم المؤرخون أسبابًا كافيةً لذلك . وحين أعدّ الفاطميون أوّل حملة لهم بعد هزيمة عسقلان فى سنة ١١٠١ ، كانت أوضاع الصليبيين قد تحسنت ! .

وفى الواقع أنه على الرغم من ضعف القوة الصليبية ، إلا أنها اتخذت خطة الهجوم على الأراضى العربية المجاورة ! . فقد أرسل جود فرى حملة للاستيلاء على أرسوف فى ديسمبر ١٠٩٩ ، ولكنها فشلت بسبب افتقاره إلى أسطول يحكم الحصار عليها من ناحية البحر . على أنه ترك فى الرملة بضعة مئات من جنوده لشّن الإغارات على المدينة . ولما كانت تابعة للفاطميين ، فقد أرسلت فى طلب معونتهم ، ولكن الأفضل أرسل إليها قوّة صغيرة من ثلاثمائة جندى عن طريق البحر حاولت مع الأهالى القيام بهجوم مضاد فى مارس ١١٠٠ ، ولكنها وقعت فى كمين نصبه الصليبيون ، وحين أدرك أهل أرسوف عدم جدوى المساعدة الفاطمية ، لم يجدوا بدًّا من عرض الدخول فى تبعية الصليبيين ودفع جزية مالية رمزًا لهذه التبعية ! .

وقد استغل الصليبيون وضعهم فى يافا أحسن استغلال ، فعمل جود فرى بمساعدة الأسطول البيزى على تحصين هذه المدينة ، حتّى أصبحت تفوق فى قوّتها مينائى عكا وعسقلان الفاطميين . كما أصبحت مركزا لنشاط حربى ضدّ الممتلكات التابعة للدولة الفاطمية فى جنوب فلسطين .

ولما كانت الدولة الفاطمية قد أبدت عجزها عن حماية هذه الممتلكات ، فلم يجد أهالى هذه المدن بدًّا من الدخول فى تبعية الصليبيين ، وهذا ما فعله حكام عسقلان وقيسارية وعكّا . كما سارع كثير من مشايخ العرب فى الجهات الداخلية إلى عقد الاتفاقات مع حكومة القدس الصليبية لتأمين قوافلهم وتجارتهم ، مما جعل البضائع المختلفة تتدفق على القدس ويافا ، وتوفر للدولة الصليبية فى فلسطين قدرًا من الاستقرار .

على أن هذه الاتفاقات أثبتت ضررها الفادح على العرب ، وساعدت على إضعافهم ، لأن الدولة الصليبية ، بنصيحة الجمهوريات الإيطالية مثل البندقية وبيزا ، حرمت على عرب فلسطين التجارة مع العالم الإسلامى عن طريق البحر ، مما حرم هذه الموانى من الحصول على ما يلزمها من إمدادات ومؤن من دمياط والإسكندرية ، وأدى إلى إضعافها وسقوطها فى النهاية . وفى الوقت نفسه أتاح للتجار الإيطاليين الفرصة للاستيلاء على تجارة الشام .

وسرعان ما اتجه الصليبيون إلى السيطرة على إقليم السواد (سواد طبرية) فخرج تنكرد فى مايو ١١٠٠ على رأس مائتين من الفرسان وألف من المشاة ، وأخذ يقوم بإغارات مدمرة على إقليم السواد ، استمرت ثمانية أيام . وقد أرسل حاكم السواد إلى دقاق أمير دمشق يطلب النجدة . فأمدّه بنحو خمسمائة فارس ، وقد استطاعت هذه القوة مهاجمة مؤخرة الصليبيين وإطلاق سراح المسلمين . ولكنها لم تتمكن من مواصلة هجومها ، فانسحبت إلى دمشق . وقد شجع هذا تنكرد

فعاد إلى الإغارة على إقليم السواد حتى اقترب من دمشق ذاتها ! .

ومن الطريف أنه أرسل إلى دقاق سفارة من فرسانه تتكوّن من ستة ، ينذره باعتناق المسيحية أو ترك دمشق فورًا . وقد ردّ دقاق على ذلك الإنذار بإنذار الرسل باعتناق الإسلام أو يقتلوا ! . . وقد وافق أحدهم ، وأعدم الخمسة الآخرون ! .

ولم يلبث أن وصل إلى يافا فى يونية ١١٠٠ أسطول من البندقية من مائتى سفينة ، وقد أتت هذه الحملة الضخمة لعرض خدماتها على دولة القدس فى مقابل الحصول على ثلث كل مدينة يتم الاستيلاء عليها لاتخاذها حيًّا تجاريًّا للبنادقة ! . وقبل جود فرى ذلك ، وبدأ البنادقة فى محاصرة عكّا من ناحية البحر ، بينما حاصرها تنكرد وبطرق بيت المقدس من البر .

على أن جود فرى مات فى ١٨ يوليه ١١٠٠ ، فحوّل البنادقة جهودهم من عكّا إلى حيفا ، التى كانت تابعة للفاطميين ، نظرًا لقربها من بيت المقدس ، وقد سقطت فى أيدى الصليبيين فى أغسطس ١١٠٠ ، وبذلك اكتملت إمارة الجليل ، وأصبح لها ثغر على البحر ! .

وقد دخلت دولة القدس الصليبية بموت جود فرى مرحلة جديدة وهامّة فى تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا . ففى تلك الأثناء كانت بطرقية القدس قد سقطت فى يد مندوب البابا أوربان الثانى ، وهو دايمبرت ، الذى عينه خلفًا لأدهمار الذى توفى فى أنطاكية ، ولم يكن دايمبرت رجل دين إلاّ اسمًا ، فقد كانت له أطماعه التى جعلته ، وقد كان رئيس أساقفة بيزا ، يخرج إلى الشام فى أسطول بيزى من مائة وعشرين سفينة فى صيف ١٠٩٩ لكى يسبق الصليبيين إلى فتح بيت المقدس ، فلما تبين أن المدينة قد سقطت ، حوّل أطماعه إلى اللاذقية المسيحية البيزنطية بالاتفاق مع بوهمند أمير أنطاكية ، وحين فشل فى ذلك ألقى المسئولية على بوهمند بقوله إن الأخير غرّر به وأخبره أن البيزنطيين حلفاء المسلمين ، ثم اتجه إلى بيت المقدس حيث عمل على الفور على الحلول محل أرنولف بطرقها ، فأعلن أن انتخابه كان باطلاً ! ، ولم يتورع عن إرشاء بوهمند وبلدوين أمير الرها وجود فرى لقبولهم به بدلاً من أرنولف، وبذلك أصبح بطرقًا على بيت المقدس فى أواخر ديسمبر ١٠٩٩ ، وركع أمامه جود فرى وبوهمند طالبين منه تقليدهم حكم بيت المقدس وأنطاكية على التوالى . وبذلك أصبح بطرق بيت المقدس السيد الأعلى على البلاد المقدسة وممثل المسيح فيها ، وتغيّر وجه الدولة الصليبية فأصبحت دولة دينية .

فلما مات جود فرى ، أراد دايمبرت دعوة حليفه بوهمند لتولى عرش مملكة بيت المقدس والوقوف فى وجه بولدوين أمير الرها . ولكن بوهمند كان فى ذلك الحين يتلقى هزيمةً قاسيةً على يد

الملك غازى كمشتكين بن الدانشمند ، بينما كان فى طريقه إلى ملطية لنجدة أميرها ضد المسلمين . وسقط أسيرًا فى يد الملك المسلم حيث نقله عبر سيواس إلى « نيكسار » قرب شاطىء البحر الأسود ، ليظل بها أسيرًا مدة ثلاث سنوات .

وبذلك خلا الجو لبولدوين للاستئثار بعرش بيت المقدس ، فقد أرسل له أنصاره يخبرونه بموت أخيه جود فرى ويطلبون منه الحضور بسرعة لتسلم مقاليد الحكم فخرج فى ٢ أكتوبر ١١٠٠ من الرها قاصدًا بيت المقدس ، ولكنه كاد يسقط بدوره أسيرًا فى يد دقاق أمير دمشق ، الذى خرج وبصحبته جناح الدولة أمير حمص العربى لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب فى مكان ضيق بين الجبال والبحر . لولا أن ابن عمار قام بتحذيره ! ، وانتهت المعركة بهزيمة الدماشقة ، ونجاح بلدوين فى الوصول إلى بيت المقدس فى نوفمبر ١١٠٠ ، حيث نودى به ملكًا عليها فى يوم عيد الميلاد .

وعلى هذا النحو انتهت سريعًا الحكومة الدينية فى بيت المقدس التى كان يمثلها دايمبرت مندوب البابا ، فقد أراد هذا الانفراد بالقدس ورام الله ويافا ، ولكن بلدوين استصدر أمرًا من المجلس الروحانى بإقالته فى ١١٠٢ ، وأعاد إلى البطرقية أرنولف ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ مملكة بيت المقدس ، هى المرحلة العلمانية .

ذلك أن بلدوين لم يلبث أن وضع مخططًا يستهدف ضم جميع شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته لتنشيط تجارته مع أوربا ، وتدعيم قوة دولته الاقتصادية ، وقد تطلبت هذه الخطة الاعتماد على القوى البحرية الإيطالية من جهة ، وعلى البابوية لتزويده بقوى صليبية أخرى من جهة أخرى . وقد استطاع بلدوين بفضل وصول أسطول من جنوه فى مارس ١١٠١ الاستيلاء على أرسوف فى أواخر أبريل ١١٠١ ، ثم قيسارية فى ١٧ مايو ١١٠١ ، فى مقابل اتفاق يقضى بحصول الجنويين على ثلث الغنائم من المنقولات ، وعلى شارع من شوارع السوق فى كل مدينة لاتخاذه مركزًا تجاريًا . وقد ارتكب الصليبيون فى قيسارية مذبحة وحشية أخرى ، فقتلوا كثيرًا من أهلها الأبرياء ، ولاحقوا من احتمى منهم فى الجامع ، وقتلوهم عن آخرهم حتى تحول الجامع إلى بركة كبيرة من الدماء ! .

أما الإمدادات من أوروبا عن طريق البابوية لتعويض النقص فى الرجال واستئناف سياسة التوسع ، فقد وجه البابا بسكال الثانى سنة ١١٠٠ الدعوة للجهاد فى الأراضى المقدسة ، فتكونت حملة صليبية ثانية شرعت فى التحرك شرقًا فى نهاية سبتمبر ١١٠٠ ولكن هذه الحملة قدر لها أن تواجه كارثة فظيعة على أيدى السلاجقة .

٣٧ – الصليبيون بين السلاجقة والفاطميين

- طبيعة الاحتلال الصليبى لسوريا وفلسطين .
- حملة ١١٠٠ م الصليبية .
- إبادة الحملة اللومباردية فى أغسطس ١١٠١ .
- إبادة الحملة الفرنسية فى أواخر أغسطس ١١٠١ .
- إبادة الحملة الفرنسية الألمانية فى سبتمبر ١١٠١ .
- الآثار التاريخية لهزيمة حملة ١١٠٠ – ١١٠١ الصليبية .
- حملات الفاطميين لإنقاذ فلسطين .
- أسباب فشل التعاون بين مصر ودمشق .

٣٧ - الصليبيون بين السلاجقة والفاطميين

على الرغم من أن تأسيس الإمارات الصليبية فى الشام وفلسطين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كان يمثل أخطر ما واجه المشرق العربى ، منذ انتزاع هذا الجزء من العالم من أيدى البيزنطيين فى بداية الفتوح الإسلامية - إلاّ أنه لم يكن على مستوى التغيير الذى أحدثته هذه الفتوح الإسلامية . فقد استولى المسلمون على كل المنطقة الواقعة فى شمال شبه الجزيرة العربية ، وحولوها برمتها إلى منطقة عربية إسلامية ، ولكن الغزو الصليبى لم يفلح إلاّ فى إقامة معاقل وقلاع على نمط العصور الوسطى وسط محيط إسلامى عربى عريض ومتلاطم . ولم يكن فى وسع أية قوة أخرى تأتى فيما بعد ، (كما فعل اليهود بعد المسيحيين بتسعة قرون) أن تحدث أكثر من هذا القدر من التغيير ، ثم لا تلبث أن تزول إن آجلاً أو عاجلاً كما زال الصليبيون !.

وهذا وحده يفسّر أحداث الملحمة الهائلة التى جرت بين الصليبيين والمسلمين على طول الحروب الصليبية وعرضها .. فقد تعرضت القوى الإسلامية لفترات من الجزر ، ولكنه كان جزرًا فى داخل المنطقة العربية ذاتها ، ولكن حين تعرضت القوى الصليبية للجزر كان هذا يعنى انحسارها حتى الشاطىء الأوروبى !. لأنها كانت قوى طارئة وليست مقيمة !.

وعلى هذا النحو فإن الغزو الصليبى لم يستأصل شأفة الدول الإسلامية التى كانت قائمة فى المنطقة عند مجيئه ، بل ظلت كما كانت تستعد لانتزاع الأراضى التى فقدت منها ، وتعمل على مواجهة أى خطر جديد ، وتخوض الصراع ضد القوى الصليبية ، فتحقق الانتصار أحيانًا وتمنى بالهزائم أحيانًا أخرى . ولكنها ظلت تمثل القوى الرئيسية فى الصراع . وكان على رأس هذه القوى : السلاجقة والفاطميون .

وفى هذا الضوء يمكن فهم الكارثة التى حلت بالحملة الصليبية الثانية سنة ١١٠٠ على يد السلاجقة . ذلك أن نجاح الحملة الصليبية الأولى فى انتزاع الأراضى المقدسة من المسلمين ، كان قد شجع الكثيرين من الأمراء الغربيين ، الذين لم يشاركوا فى هذه الحملة ، على الذهاب إلى الشام للحصول على نصيبهم من الغنائم والأسلاب على حساب المسلمين ، وكان الصليبيون فى الشام فى حاجة ماسة إلى دم جديد يعوض مافقد فى الحروب التى دارت مع المسلمين ، ويساعد

على استئناف التوسع فى أراضيهم ، ويحمى الدويلات الصليبية من السقوط .

وعلى هذا النحو تكونت الحملة الصليبية الثانية فى عام ١١٠٠ ، وهى غير ما اشتهرت « بالحملة الصليبية الثانية » فى المراجع المعروفة سنة ١١٤٧ . فلعل القارئ المتتبع لهذه الدراسة قد وقع على الملاحظة القائلة بأن الحملات الصليبية الثمانية المعروفة لم تكن وحدها هى كل الحملات الصليبية ، إذ لم يمر عام واحد دون تحرك جموع صليبية جديدة ، وبعضها فاقت فى كثرة عددها وأهميتها ماحققته بعض الحملات الصليبيه الثمانية من نجاح . وعلى كل حال ، فقد تألفت الحملة الصليبية الثانية من ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : وتعرف باسم المجموعة اللومباردية ، إذ تتألف فى غالبيتها من اللومبارديين ، وقد تألفت فى سبتمبر ١١٠٠ ، وسارت عبر طريق الدانوب تحت قيادة « أنسلم » رئيس أساقفة ميلان ، وألبرت . وجيوبرت ، وهيو من الأمراء . وفى طريقها إلى القسطنطينية أتت من أعمال السلب والنهب والاشتباكات مع الجند الإمبراطورى ماجعل الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين يصر على عدم بقائهم فى القسطنطينية ، وضرورة عبورهم إلى آسيا الصغرى !. وقد اعترض هؤلاء على أساس أنهم فى انتظار بقية إخوانهم القادمين من فرنسا وألمانيا ، ولكنهم اضطروا إلى الإذعان ، وتم عبورهم البسفور فى إبريل ١١٠١ حيث انتظروا إخوانهم على الشاطىء الآسيوى ، وسرعان ما وصلت بقية القوات من فرنسا وألمانيا ، حيث عيّن عليها الامبراطور الكسيوس كومنين ريموند الصنجيلى لتوجيهها إلى الأراضى المقدسة ، فاكتملت بذلك الحملة ، وبلغت عدتها نحو مائتى ألف كما تقول المصادر الأوروبية .

على أنه لم يلبث أن دبّ الخلاف بين زعمائها . فقد كان الرأى الغالب ، الذى كان يؤيده ريموند والإمبراطور الكسيوس ، أن تسلك الحملة طريق ضوروليوم وقونية ، لأنه أقصر الطرق ، للوصول سريعًا إلى الشام . ولكن اللومبارديين رأوا البدء بتخليص بوهيمند من أسر الملك غازى ابن دنشمند فى كبادوكيا ، وهو رأى خاطىء لأن الملك غازى كان قد نقل بوهيمند إلى قلعة نيكسار على حافة البحر الأسود . على أن اللومبارديين أصّروا عليه قائلين إنه إذا لم يمكن الوصول إلى بوهميند ، فيمكنهم الانتقام له عن طريق تدمير « أماسية » « وسيواس » وهما أكبر مدينتين فى مملكة بنى دنشمند . ولما كان اللومبارديون يكونون الأغلبية ، فقد أذعن ريموند الصنجيلى لرأيهم الخاطىء ، وانحرف بحملة ١١٠١ عن طريقها الطبيعى . وسرعان ماستولت الحملة على أنقرة فى أواخر يونية ١١٠١ ، واتجهت منها شمالاً شرقيًّا إلى كنغرى ، فعجزت عن الاستيلاء عليها ،

فاتجهت شمالاً إلى قسطمونى على ساحل البحر الأسود للاستيلاء عليها . حيث أخذ التعب والإرهاق يحلاّن بها ، نظرًا لصعوبة البلاد وجدبها وطول الطريق .

وقد اتبع قلج أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، خطة الانسحاب من أمام الحملة مدمّرا وراءه كل شيء يمكن أن ينتفع بالصليبيون فى التموين . وفى الوقت نفسه ، ولما كانت أغراض الحملة هى ضد الممالك الإسلامية جميعها فى تلك الانحاء ، فلذلك تم عقد حلف إسلامى للتصدى لها من الملك غازى كمشتكين ، ورضوان ملك حلب ، وقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم . وتوافدت جيوش هذا الحلف الإسلامى بين أماسية وسيواس فى أواخر يولية سنة ١١٠١ .

وسرعان مانشبت المعركة فى أوائل أغسطس . ولم يصمد اللومبارديون فكانوا أوّل من ولى الأدبار !. وتبعتهم القوات الفرنسية والألمانية والبيزنطية . ولم يلبث ريموند الصنجيلى أن فرّ إلى البحر الأسود ، وحذا حذوه بقية الأمراء الصليبيين تاركين فى أيدى المسلمين نساءهم وأولادهم ومتاعهم !. وأخذ المسلمون فى مطاردة فلول الصليبيين ، حتى قتلوا منهم عددًا هائلاً يقدره المؤرخون الصليبيون بمائة وستين ألفا !.. وقد ذكر ابن الأثير أنه لم يفلت أحد من هذه المعركة من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف هربوا ليلاً من ثلاثمائة ألف !

كانت هذه هى الحملة اللومباردية ، وكان هذا مصيرها . ويذكر بعض المؤرخين أن الهزيمة الساحقة التى منيت بها محت الأثر الرنان الذى تركه الصليبيون بانتصارهم على السلاجقة فى ضوروليوم سنة ١٠٩٧ . وكان هذا بعد مرور أربع سنوات فقط من معركة ضوروليوم .

ثانيا : كانت الحملة الثانية هى الحملة الفرنسية . وكانت بقيادة وليم الثانى أمير نفرزNevers وقد غادرت الأراضى الفرنسية فى فبراير ١١٠١ ووصلت إلى إيطاليا ومنها إلى ساحل البلقان عبر الأدرياتيك ، ووصلت إلى القسطنطينية فى منتصف يونية سنة ١١٠١ ، وتكونت من خمسة عشر ألفا من الفرسان والمشاة الفرنسيين .

وقد عبرت هذه الحملة البسفور إلى الأراضى الأسيوية قاصدة اقتفاء أثر اللومبارديين واتجهت إلى قونية مباشرة بعد أن وصلت أنقرة . وفرضت الحصار عليها ، ولكنها فشلت فى الاستيلاء عليها بسبب قوة تحصنيها . وفى تلك الأثناء كان الحلف الإسلامى قد تمكن من إبادة الحملة اللومباردية ، فتقدم قلج أرسلان والملك غازى بن دنشمند لمقابلة الحملة الجديدة . والتقى الجيشان عند مدينة « هرقلة » فى أواخر أغسطس ١١٠١ وتمكن الجيش الإسلامى فى هذه الموقعة أيضا من إبادة الحملة الفرنسية إبادة شبه تامة . وتمكن أمير نفرز وليم الثانى بصعوبة من الهرب والالتجاء إلى

إحدى القلاع البيزنطية ، ومن هناك أخذه بعض البيزنطيين إلى أنطاكية ، فوصلها فى حال أشبه بحال المتسولين ! .

ثالثا : أما الدفعة الثالثة ، فهى الدفعة الفرنسية الألمانية . وقد وصلت إلى القسطنطينية فى أوائل يونية ، وكانت بقيادة وليم التاسع دون أكوتين ، وولف الرابع دوق بافاريا . وكانت تتألف من ستين ألفا ، وقد عبرت البسفور على سفن بيزنطية . وقد اتبع السلاجقة مع هذه الحملة الثالثة نفس ما اتبعوه مع الحملتين السابقتين ، فتراجعوا أمامها مدمرين خلفهم كل ما يمكن أن ينتفع به الصليبيون من أقوات وغيرها ، حتى بلغ التعب والظمأ والجوع مبلغه من أفرادها ، وعندما وصلت إلى قونية وجدتها خالية من أهلها . فواصلت زحفها حيث كان يتربص بها الجيش الإسلامى بقيادة قلج أرسلان وغازى بن دنشمند وقراجا أميرحران . ولم يكد الصليبيون يصلون إلى هرقلة حتى انقض عليهم المسلمون فى أوائل سبتمبر ، وأبادوهم عن آخرهم . سوى قلة قليلة ، منها وليم التاسع وولف الرابع . وقد توجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية يجرران أذيال الخيبة والهزيمة ! .

وهكذا انتهت هذه الحملات الصليبية الثلاث بالإبادة بفضل وحدة القوى الإسلامية فى آسيا الصغرى وشمال سوريا . وكانت الكارثة من الضخامة بحيث أخذ الصليبيون يتبادلون التهم ، فقد ألقوا بمسئولية هذه الكوارث الثلاث على الإمبراطور الكسيوس كامنين ، واتهموه بالتآمر مع السلاجقة على تلك الحملات ، ووصفوه بأنه «كالعقرب لا يقاتل وجها لوجه ، وإنما يلدغ بمؤخرته» ! بينما وصفت المصادر البيزنطية الصليبيين بالتهور والعناد وفقدان الانضباط العسكرى والجهل بالتكتيك السلجوقى . وكتبت ابنة الإمبراطور الكسيوس تقول : «إنهم لا يسمعون النصيحة ، ولا يتقيدون بالانضباط العسكرى ، ولا يلقون اهتماما للخطط الاستراتيجية . وهم يقاتلون بضراوة والحقد يغلى فى قلوبهم . ولكن حين ينصب لهم عدوهم الكمائن تنقلب شجاعتهم إلى جبن غريب» ! .

على أن هذه الكوارث الثلاث كان لها تأثير بالغ فى الروح المعنوية للسلاجقة ، إذا أعادت إليهم الثقة بأنفسهم بعد هزيمة ضوروليوم . وفى الوقت نفسه سدت طريق آسيا الصغرى مرة أخرى فى وجه الصليبيين لعدة عشرات قادمة من السنين ، أى حتى أيام فردريك بارباروسا فى أواخر القرن الثانى عشر . فلم تجرؤ حملة صليبية على اختراق هذا الطريق . وازداد بذلك الاعتماد على القوة البحرية لمدن إيطاليا التجارية فى جلب مزيد من الصليبيين إلى مملكة القدس ، الأمر الذى ضاعف من مكاسب البندقية وجنوه وبيزا وغيرها .

ولقد كان جديرًا بالقوى الإسلامية فى آسيا الصغرى وشمال الشام بعد هذا الانتصار الساحق على الصليبيين سنة ١١٠١ ، أن تضع يدها فى يد الفاطميين فى مصر ، لاستئصال شأفة الصليبيين من فلسطين وبيت المقدس ، ولكنها عجزت عن تحقيق هذا الإنجاز فى ذلك الحين . وبذلك صار على الفاطميين مواجهة القوى الصليبية فى فلسطين وحدهم ، وهو ما حدث بالفعل ، ولكن حظهم كان أقل توفيقًا من حظ السلاجقة .

فنى تلك الأثناء كان الوزير الأفضل قد قرر إرسال حملة كبيرة إلى فلسطين لاستخلاص القدس من يد الصليبيين . وقد تجمعت هذه الحملة فى القاعدة الفاطمية فى عسقلان ، التى ذكرنا أنها أصبحت نقطة تجمع وانطلاق للحملات الفاطمية ضد الصليبيين فى فلسطين . ولكنها أضاعت وقتًا طويلاً فى انتظار بقية الإمدادات ، مما أتاح للعدو الصليبى الاستعداد .

وكانت الخطة الفاطمية تقوم على الوصول إلى الرملة لتهديد كل من يافا والقدس ثم غزو القدس ذاتها قاعدة الدولة الصليبية . ولكن ثقة الفاطميين بأعدادهم جعلتهم يستهينون بالعدو . وفى الوقت نفسه فإن إحساس الصليبيين بقلة عددهم إزاء الفاطميين جعلتهم يتماسكون لعبور هذا الخطر . فيذكر المؤرخون أن بلدوين خطب فى جنوده مذكرًا إياهم بأنهم إذا انتصروا ، أدوا للمسيح وكنيسته خدمة لا تقدر بثمن ، وإذا ماتوا لحقوا بالشهداء والقديسين .

ويختلف المؤرخون فى تقدير حجم الهزيمة التى لحقت بالفاطمين ، وإن اتفقوا على الهزيمة ذاتها . فيذكر أبو المحاسن أن الفاطميين حملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية ويقال إنهم هزموا من الفرنج ثلثمائة ألف . ولم يقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواس ونفر يسير . أما ابن الأثير فيذكر أن الصليبيين تقدموا يحملون صليب الصلبوت وعلى رأسهم بلدوين ورجال الدين ، حيث التقى الجيشان فى صباح ٧ سبتمبر فى السهل الواقع إلى الجنوب الغربى من مدينة الرملة . ولم يلبث أن تصدع الجيش الفاطمى الكبير فى هذه الموقعة ، وانتصر الصليبيون بفضل تماسكهم ووحدة صفوفهم وإحكام خطتهم . وقد قتل من المسلمين عدد كبير ، فى حين فر الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة سعد الدولة القواس صريعًا فى المعركة واستمر الصليبيون فى مطاردة الفاطميين إلى أسوار عسقلان ، وعادوا لتوزيع الغنائم الكبيرة من سلاح ومؤن ومعدات « فملك الفرنج جميع ما للمسلمين » .

ويرجح الدكتور سعيد عبد الفتاح قصة ابن الأثير ، ولكنه يورد فى نفس الوقت أن قوة بلدوين كانت قوة محدودة لم تتجاوز مائتين وستين فارسًا وتسعمائة من المشاة ، بالمقارنة بأعداد

الفاطميين الغفيرة من العرب والسودان ، ويستند فى ذلك إلى المؤرخ الفرنسى « ألبير ديكس » Albert d'Aix وهذه المقارنة ليست فى صالح ترجيح قصة ابن الأثير التى تبالغ كثيرًا فى حجم الهزيمة . اللهم إلا إذا كان الجيش الصليبى يفوق هذا العدد الذى ذكره ألبير ديكس بكثير . فمن المعروف أن المؤرخين الأجانب يميلون إلى تصوير ضخامة حجم الانتصارات الصليبية عن طريق عقد مثل هذه المقارنات . ولكن مؤرخًا مثل ستفنسون Stevenson أورد أن بقاء الجيش الفاطمى فى عسقلان عدة أشهر بدون عمل « أتاح فرصة كافية لبلدوين استعد فيها وجمع قواته ووضع خطته » ! الأمر الذى يوضح الاستعداد . ويرجح أن رواية أبى المحاسن كانت صحيحة فى المرحلة الأولى ، ثم تغلب الصليبيون لأخطاء ارتكبها الفاطميون . وإن كان من الثابت أن الصليبيين لم يملكوا ذلك العدد من الجيوش الذى أورده أبو المحاسن .

على كل حال فإن الفاطميين لم يتوانوا عن إعداد حملة ثانية فى العام الثانى سنة ١١٠٢ للانتقام لهزيمة الرملة . وقد بلغت وفقًا لما أورده ابن الأثير عشرين ألفا تحت قيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل . وقد اجتمعت أيضًا فى عسقلان فى منتصف شهر مايو ١١٠٢ ، واتبعت نفس الخطة السابقة لتهديد القدس ويافا . وهى الاتجاه إلى الرملة واللد ويازور .

وقد قلبت الموقعة الثانية التى دارت عند الرملة أيضًا نتائج الموقعة الأولى لنفس الأسباب . فإن الهزيمة التى لحقت بالفاطميين فى الموقعة الأولى جعلتهم أكثر حرصًا على تجنب الأخطاء والاغترار بأنفسهم ، بينما اغتر بلدوين بانتصاره الأول واستخف بأمر الفاطميين

فقد انطلق بلدوين على رأس جيشه للقاء الفاطميين ، وبينما كان يقطع الطريق بين يازور والرملة ، انقض عليه الجيش الفاطمى مباغتًا ، وألحق به هزيمة ساحقة « وقتل منهم مقتلة عظيمة » . ولم يملك من نجا من القتل سوى الفرار ، حيث اتجه البعض إلى يافا ، واتجهت البقية وعلى رأسها بلدوين نفسه إلى الرملة فى ١٧ مايو ١١٠٢ ، يتبعها الجيش الفاطمى . ولكن حلول الليل أجل الهجوم الفاطمى إلى الصباح . وفى خلال الليل أدرك بلدوين أنه مقتول لا محالة فى الصباح ، فتنكر بمساعدة البعض ، وفرّ ليلاً من الرملة . وفى الصباح سقطت الرملة فى يد الجيش المصرى فى ١٩ مايو ١١٠٢ ، « فقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا بصحبة بلدوين ، وكانوا سبعمائة وفقًا لابن الأثير ، فقتل منهم أربعمائة ، وأرسل الثلاثمائة الباقون إلى مصر . »

وقد اتجه بلدوين إلى يافا للاحتماء بها ، ولكن الجيش الفاطمى سارع إلى حصارها قبل

وصوله ، بينما كان البحث عنه يجرى فى كل الانحاء . ولم يملك بلدوين سوى الاتجاه إلى أرسوف شمال يافا ، بعد أن انتشرت الاشاعات بمقتله !. فقوبل من جانب الصليبيين بفرح بالغ .

وسرعان ماأخذ المسرح العسكرى بين الصليبيين والفاطميين يستعد لجولة أخرى .

ذلك أن الظروف لم تلبث أن قادت مائتى سفينة صليبية تحمل عدداً كبيرًا من الجنود والحجاج الإنجليز للرسو بميناء يافا فى أواخر مايو ١١٠٢ ، فأتاحت هذه القوة غير المتوقعة لبلدوين وضعًا جديدًا كان قد فقده بهزيمة الرملة . وسرعان ما عمد إلى الاستفادة منها على الفور ، فانطلق إلى يافا حيث دخلها عن طريق البحر ، وفى يوم ٢٧ مايو خرج منها على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية التى كانت تحاصر المدينة . وكان من الطبيعى أن يحدث هذا التغيير المفاجىء فى مراكز القوى تأثيره فى نتائج المعركة ، فانهزم الجيش الفاطمى وفرّ إلى عسقلان .

على أن المعركة كانت مازالت مستمرة من قبل القيادة الفاطمية فى مصر ، فلم تكد تصل الأنباء إلى الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى حتى أرسل حملتين أخريين ، إحداهما بحرية بقيادة القاضى ابن قادوس ، والأخرى بّرية بقيادة المملوك تاج العجم . وسارع بلدوين إلى طلب مساعدة تنكرد الوصى على أنطاكية ، وبلدوين دى بورج أمير الرها الجديد ، فوصلته نجدة من خمسمائة من الفرسان وألف من المشاة على رأسها أميرا أنطاكية والرها .

على أنه حدثت فى ذلك الحين ظروف غريبة فى كلا المعسكرين منعت نشوب المعركة !. فمن الجانب الفاطمى لم يحدث التعاون المطلوب بين الجيش البرى بقيادة تاج العجم والجيش البحرى بقيادة ابن قادوس ، إذ أقام الجيش البحرى على يافا عشرين يومًا دون أن يأته الجيش البرى . وفى الوقت نفسه أرسل الأفضل إلى دقاق ملك دمشق طالبًا المساعدة ضدّ الصليبيين ، ولكنه « اعتذر ولم يحضر » ! . وفيما يبدو أن ابن قادوس كان يريد الهجوم على الصليبيين ، ولكن الجيش البرى كان ينتظر مساعدة جيش دمشق بأمر الأفضل ، فلما لم يصل هذا الجيشْ امتنع تاج العجم عن الاستجابة لطلب ابن قادوس . وهذا يفسرّ رواية ابن الأثير ، فهو يذكر أن تاج العجم رفض القدوم إلى ابن قادوس قائلاً : « مايمكننى أن أنزل إليك إلاّ بأمر الأفضل !. ولم يحضر عنده ولا أعانه !. فأرسل القادوسى إلى قاضى عسقلان وشهودها وأعيانها ، وأخذ خطوطهم بأنه أقام على يافا عشرين يومًا واستدعى تاج العجم فلم يأته ولا أرسل رجلاً » !.

أما فى الجانب الصليبى فإن وصول تنكرد وبلدوين أثار مع الملك بلدوين الأوّل مشكلة تحديد العلاقة بين إمارتى أنطاكية والرها من جانب ، وبين مملكة بيت المقدس من جانب آخر . وقد

اشتد الخلاف على النحو الذى دفع الأميرين الصليبيين تنكرد وبلدوين دى بورج إلى الانسحاب إلى إمارتيهما حوالى ١٠ أكتوبر ١١٠٢ دون أن يعترفا للملك بولدوين بالتبعية . وبذلك لم تقع المعركة بين الجيش الصليبى والجيش الفاطمى !.

على هذا النحو أدّى فشل التعاون بين مصر ودمشق إلى بقاء الصليبيين فى القدس . رغم انقسام صفوفهم !. وهذا العجز عن التعاون قد يبدو محيّرا ، وقد يفسّره البعض بأنه خلاف بين عرب فى مصر (الفاطميين) وتُرك فى دمشق (السلاجقة) . على أن هذا التفسير خاطئ ، لأن الوعى على العروبة أمر حديث جدًّا يرجع إلى أوائل القرن العشرين ، ولم يكن موجودًا فى القرن الثانى عشر . وإنما كان الوعى فى ذلك الحين وعيًا إسلاميًّا ، بمعنى أنه لم تكن هناك قومية سوى قومية الإسلام ! .

وفى الواقع أن ما كان يقسم المسلمين فى آسيا الصغرى والشام من جانب ، والمسلمين فى مصر من جانب آخر ، إنما كان الخلاف المذهبى والمصالح المحلية ، فقد كان السلاجقة ينتمون إلى المذهب السنّى ، بينما كان الفاطميون ينتمون إلى المذهب الشيعى . وقد كان لهذا الخلاف المذهبى نفس ما للخلاف المذهبى فى عالمنا المعاصر بين رأسمالية واشتراكية من قوة وتأثير ، فلما انحسم هذا الخلاف المذهبى فيما بعد لصالح المذهب السنّى على يد صلاح الدين الأيوبى ، تمت وحدة مصر والشام ، مما كان له تأثيره فى مصير الحروب الصليبية .

٣٨ – طرابلس والصليبيون

- الدور الذى لعبته أساطيل بيزا والبندقية وجنوه فى الحروب الصليبية .
- سقوط عكا ١١٠٤ وآثاره التاريخية .
- سقوط صيدا فى ديسمبر ١١١٠ تحت حصار الأسطولين النرويجى والبندقى .
- سقوط بيروت فى مايو ١١١٠ تحت حصار الأسطولين الجنوى والبيزى .
- فشل ريموند الصنجيلى فى الاستيلاء على طرابلس .
- تسليم طرابلس للفاطميين ١١٠٨ .
- توحد الجبهة الصليبية .
- سقوط طرابلس فى يولية ١١٠٩ .
- تأسيس امارة طرابلس الصليبية .

٣٨ - طرابلس والصليبيون

لم يكن زرع الكيان الصليبي فى المشرق العربى سوى نقطة ارتكاز تتوافد عليها القوى الصليبية من جميع أنحاء أوروبا ، من الأمراء الطامعين فى تأسيس إمارات ، والتجار الطامعين فى الاستيلاء على التجارة بين الشرق والغرب ، والفقراء والأقنان الطامعين فى الانعتاق من ذل الاقطاع الأوروبى فى العصور الوسطى . وهذا يفسر تلك الحقيقة ، وهى أن الحملات الصليبية لم تنقطع عامًا واحدًا عن المشرق العربى منذ الحملة الأولى سنة ١٠٩٦ ، بل ظلت أساطيل المدن الإيطالية تنقل كلّ عام ألوفًا من «التجار والأجناد والحجاج وغيرهم» ، فى سيل لا ينقطع . فإما أن يصلوا بأمان ويزودوا القوى الصليبية فى الرها وأنطاكية والقدس بالمقاتلة اللازمة لحرب المسلمين ، وإما أن يسقطوا فى يد الأساطيل المصرية المترصدة أمام موانى فلسطين ، فيقتلوا أو يؤسروا وينقلوا إلى القاهرة .

وقد لعبت هذه الأساطيل دورًا هامًّا فى مساعدة وتثبيت الإمارات الصليبية فى تلك الفترة الهامة ، وغذت أطماع الأمراء الصليبيين بما كانت تقدمه لهم من إمكانيات عسكرية كبيرة . ولعلنا قد تابعنا معًا الدور الذى لعبه الأسطول البيزى فى صيف عام ١٠٩٩ ، حين خرج دايمبرت ، مندوب البابا أوربان الثانى ، على رأسه ، وتعاقد مع بوهيمند النورماندى أمير أنطاكيه على تحقيق أطماعه فى الاستيلاء على اللاذقية ذات الموقع البحرى الهام . فقاما بحصارها ، ثم اضطرا إلى رفع الحصار تحت ضغط ريموند الصنجيلى وروبرت دى فلاندرز وروبرث النورماندى ، خوفًا من تعكير صفو العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية . وكيف استند دايمبرت بعد ذلك على هذا الأسطول فى انتخابه بطريقًا على بيت المقدس فى أواخر ديسمبر ١٠٩٩ ! فغير بذلك وجه الدولة الصليبية الجديدة فى بيت المقدس وأنشأ حكومة دينية ! . كما استعان جودفرى بوايون ، حامى بيت المقدس - كما كان يسمى فى ذلك الحين - بهذا الأسطول البيزى فى تحصين يافا فى أوائل ١١٠٠ للوقوف فى وجه المسلمين .

وفى سنة ١١٠٠ وصل إلى المشرق العربى أسطول إيطالى جديد قادم من البندقية هذه المرة ! ، وقد عرض على دولة بيت المقدس المساعدة فى حرب المسلمين فى مقابل الحصول على ثلث كل

مدينة يتم فتحها ، على أن تكون طرابلس كلها لهم ، مع دفع ضريبة سنوية رمزًا للتبعية لدولة بيت المقدس . وقد بدأ هذا الأسطول فى حصار عكا من ناحية البحر ، ولكن موت جودفرى وصلابة دفاع عكّا نقلا اهتمام دايمبرت وتنكرد إلى حيفا . فسقطت فى يد الصليبيين فى أغسطس ١١٠٠ كما أوضحنا ، واكتملت إمارة الجليل التى يحكمها تنكرد ، فأصبح لها ثغر على البحر ، وهو أوّل مدخل للصليبيين فى فلسطين .

هذا الدور الهام للأساطيل الإيطالية ، جعل الحاجة إليها شديدة بين الصليبيين ، خصوصًا مملكة بيت المقدس ، التى أصبحت أهم الإمارات الصليبية بحكم المركز الدينى الذى تحتله فى فلسطين . ولذلك كانت هذه المملكة تشعر بضرورة تأمين اتصالها بأوروبا عن طريق الاستيلاء على موانى فلسطين ، حتى تتزود عن طريقها بالإمدادات البشرية والمادية . ومع أنها كانت تحتل بالفعل عددًا من هذه الموانى ، وهى يافا وحيفا وأرسوف وقيسارية - إلا أنها طمعت فى الاستيلاء على بقية الموانى ، مثل عسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت وكلها تابعة فى ذلك الحين لمصر - كما ذكرنا .

وفى ربيع عام ١١٠٣ حاول بلدوين الأوّل - كما حاول سلفه جودفرى بوايون - الاستيلاء على عكا ، وقام بحصارها عن طريق البرّ . ولكن النجدات وصلتها من سائر الموانى العربية ، وجاءت إليها السفن المصرية من صور وصيدا ، فاضطر بلدوين ، الذى لم يكن يملك قوة بحرية تسانده من البحر ، إلى رفع الحصار والجلاء عنها .

على أن الظروف لم تلبث أن خدمت بلدوين وخدمت جميع الأمراء الصليبيين ، بوصول أسطول جنوى كبير فى شتاء عام ١١٠٣ بقيادة أمير البحر هيوا إمبرياتشى **Embriaci** يحمل حملة صليبيةً جديدةً . وقد لعب هذا الأسطول دورًا لا يقل أهمية عن سابقيه : الأسطولين البيزى والبندقى فى عامى ١٠٩٩ ، ١١٠٠ .

فقد سارع بلدوين إلى الاستعانه بهذا الأسطول الجنوى فى حصار عكّا مرة أخرى فى أواخر مايو ١١٠٤ من البحر والبر . وقد دافع عن المدينة حاكمها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى ، ولكنه لم يقو على الصمود طويلاً بسبب الحصار المحكم فاضطر إلى التسليم «وملك الفرنج البلد بالسيف قهرًا» ! . وعند ذلك أثبت الجنويون أنهم لا يعرفون الشرف أو الذمة ، فمع أن بلدوين كان قد أعطى العهد لأهل المدينة ، إلاّ أنهم نكثوا هذا العهد ، فاعتدوا على الأرواح والممتلكات على

النحو الذى أثار غضب بلدوين نفسه !. ولكنه لم يملك إلاّ تسليم ثلث المدينة لهم ليقيموا فيها تجارتهم !.

على كل حال ، فان سقوط عكّا حرم الفاطميين فى مصر من أهم قواعدهم فى الشام . فى الوقت الذى جعل للصليبيين السيادة على شواطئ فلسطين . الأمر الذى سيكون له تأثيره فى مجرى الصراع . وقد ترك هذا السقوط أثرًا محزنا فى المسلمين تردّد صداه فى كتابات المؤرخين الإسلاميين الذين نددوا بالخلافة الفاطمية ، ووصفوها بالتهاون فى أمر الغزو والجهاد . وقد هاجم المؤرخ أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » الخليفة الآمر الفاطمى ، واتهمه بأنه « لم ينهض لقتال الفرنج ألبتة ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرًا فهو كلاشىء » !.

على أننا رأينا أن الفاطميين لم يتوانوا عن محاربة الصليبيين منذ تكشفت لهم نواياهم . وقد تمثل ذلك فى الحملة الفاطمية الأولى سنة ١٠٩٩ ثم فى الحملة الفاطمية الثانية سنة ١١٠١ ، لذلك فقد أدّى سقوط عكّا إلى تجهيز حملة فاطمية ثالثة سنة ١١٠٥ . ففى صيف ذلك العام جمع الوزير الأفضل فى عسقلان جيشًا كبيرًا من خمسة آلاف تحت إمرة ابنه سناء الملك حسين . وذلك لطرد الصليبيين من الشام ، كما أقدم مرة أخرى على طلب المساعدة من خصومه السلاجقة السنيين فى دمشق ، إذ عرض على ظغتكين ، الذى آلت إليه السلطة فى دمشق بعد موت دقاق فى صيف عام ١١٠٤ ، أن يساعده فى قتال العدو المشترك . فقبل هذا نداء الفاطميين – الأمر الذى يوضح المدى البعيد لتقدير الفاطميين للخطر الصليبى ، واستعدادهم لنسيان الخصومة المذهبية – مع عظم أهميتها فى ذلك العصر – لتوحيد القوى الإسلامية فى وجه الصليبيين !.

على أن القوة التى أرسلها طغتكين لم تكن بالدرجة الكافية لتعزيز الجيش المصرى . فقد أرسل ألفًا وثلاثمائة فارس ، بينما تجمعت القوى الصليبية تحت قيادة بلدوين الأوّل الذى خرج من يافا إلى الرملة ، ولحقته بقية الجيوش المسيحية تحت قيادة الأمراء الصليبيين .

وقد دارت المعركة يوم ٢٧ أغسطس ١١٠٥ دون حسم حسبما يفهم من كلام ابن الأثير. إذ يذكر أنه « لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى : فقد قتل من المسلمين ألف ومائتان ، ومن الفرنج مثلهم . وقفل الأسطول المصرى عائدًا إلى صور وصيدا وطرابلس ، ولكن فى أثناء عودته ، فاجأته عاصفة هوجاء قذفت بنحو عشرين سفينة إلى الموانى الصليبية ، فأسرها الصليبيون !.



دولة
الإمارات اللاتينية
في سوريا
البحر المتوسط
الدولة
الفاطمية
السلاجقة
حلب
انطاكيه
سلوقيه
اللاذقية
حماه
طرابلس
جبيل
(بيبلوس)
بيروت
بعلبك
صيداء
صور
عكا
دمشق
قيسارية
ارسوف
يافا
غزه
بصرى
مملكة اوروشليم حسب معاهدة ١٢٢٩

(خريطة رقم ٢٤)

على أن الفاطميين لم يكفوا عن مناوأة الصليبيين فوفقا « لرانسيمان » فقد اتخذوا من عسقلان قاعدة تنطلق منها الهجمات والغارات على أعدائهم . فأغارت القوات المصرية فى سنة ١١٠٦ على قافلة صليبية بين يافا وأرسوف ، كما أغارت فى العام التالى سنة ١١٠٧ على الخليل ، بل لقد وصلت غارات المصريين سنة ١١١٠ إلى أسوار القدس ذاتها .

ومن الواضح أن أحد الأسباب الهامة التى كانت تحبط عمل الفاطميين ، هو عدم انقطاع الحملات الصليبية ، ووصولها باستمرار من أوروبا ، واستغلال الأمراء الصليبيين هذه الجموع المتجددة فى التوسع والامتداد على ساحة المشرق العربى ، ففى ربيع سنة ١١٠٦ قدمت حملة صليبية جديدة مكونة من الإنجليز والفلمنكيين والدانيين تحت اسم الحج إلى بيت المقدس. وقد استغّل بلدوين وجود هذا العدد الكبير فى بيت المقدس لمساعدته فى الاستيلاء على صيدا ، توطئةً للاستيلاء على عسقلان وصور . ولكن حاكم صيدا سارع إلى تقديم الجزية لبلدوين لكف يده عن المدينة . وبذلك نجت المدينة من الاحتلال الصليبى مؤقتًا .

وفى أغسطس سنة ١١٠٨ وصلت حملة صليبية جديدة مكونة من عدد كبير من السفن من بيزا وجنوة والبندقية وأمالفى. فكرر بلدوين محاولته للاستيلاء على صيدا، وشرع فى حصارها برًّا وبحرًا مستعينًا بالأسطول الجديد . ولكن الفاطميين بادروا بإرسال الأسطول المصرى فدارت معركة بينه وبين السفن الإيطالية ، تمكن فيها من إلحاق الهزيمة بها . وفى الوقت نفسه أرسل طغتكين قوة برّية لنجدة حاكم صيدا ، فلم ير بلدوين بدًّا من الانسحاب إلى عكا .

على أن الظروف خدمت بلدوين حين وفدت حملة صليبية جديدة فى صيف ١١١٠ مكونة من النرويجيين تحت قيادة سيجورد **Siguard** ملك النرويج ، فاستعان بها بلدوين فى حصار صيدا بحرًا ، بينما كان يحاصرها برًّا فى أكتوبر ١١١٠ . وفى تلك الأثناء جاءت حملة صليبية أخرى مكونه من أسطول بندقى كبير تحت قيادة أمير البندقية نفسه . فاشترك الأسطولان النرويجى والبندقى فى فرض الحصار على صيدا ومهاجمتها من البحر ! . ولم ير قاضى صيدا وشيوخها بدًّا من التسليم على شرط الأمان ، فقبل بلدوين فى ٤ ديسمبر ١١١٠ . وتلقى البنادقة امتيازات كبيرة مقابل هذه المشاركة فى عكا . بينما عاد النرويجيون إلى بلادهم .

وكان بلدوين قد تمكن فى نفس العام من الاستيلاء على بيروت ، بالاستعانة بأسطول جنوى — بيزى . واستمر الحصار من فبراير إلى مايو ١١١٠ . وفشلت جهود الفاطميين فى إرسال نجدات من البحر ، فسقطت المدينة فى يد بلدوين على شرط الأمان ، ولكن الجنوية والبيزيين لم

يأبهوا كعادتهم لهذه العهود ، فأحدثوا مذبحة رهيبة فى أهل بيروت المسلمين ، ولم يستطع بلدوين استعادة الأمن والنظام إلا بصعوبة بالغة كما يقول المؤرخون .

يتضح من ذلك مدى أهمية الدور الذى لعبته الحملات الصليبية المتوالية التى لا تنقطع عامًا بعد عام ، والتى كانت تتعدّد فى بعض الأعوام تحت اسم الحج ! ، فى تعزيز القوى الصليبية فى مواجهة المسلمين ، فى الوقت الذى واجه فيه المسلمون الصليبيين ، منقسمين متنازعين متخاصمين متحاربين ! .

وربما كان الدور الذى لعبته الأساطيل الإيطالية فى مساعدة ريموند الصنجيلى **Saint-Gilles** على تأسيس إمارة طرابلس الصليبية من أخطر الأدوار فى تاريخ الحروب الصليبية .

وكنا قد رأينا كيف أصيب ريموند الصنجيلى بهزيمة ساحقة وهو يقود الحملة اللومباردية سنة ١١٠١ ، وكيف تمكن من الفرار إلى البحر الأسود ثم القسطنطينية ، وتمكن معظم الفارين من الأمراء من الوصول إلى القسطنطينية ، حيث أعد لهم الإمبراطور كومنين فى أوائل عام ١١٠٢ سفنًا حملتهم إلى المشرق العربى . وقد صحب ريموند الصنجيلى هؤلاء إلى الشام ، فوصلوا إلى السويدية ، وهى الميناء الطبيعى لأنطاكية ، ولكن أحد الفرسان قبض عليه متهمًا إياه بخيانة الصليبيين فى الأناضول ! وسلمه إلى غريمه تنكرد الذى اعتقله فى قلعة أنطاكية بتهمة التواطؤ مع البيزنطيين ضدّ الصليبيين الغربيين ! ، ثم أطلق سراحه تحت ضغط الأمراء الصليبيين بشرط التخلّى عن مطالبه فى أنطاكية واللاذقية ، فانتهى الخلاف والتنافس بين النورمانديين بزعامة بوهيموند وتنكرد من ناحية ، وبين أبناء بروفانس بزعامة ريموند الصنجيلى من جهة أخرى ، وضمنت إمارة أنطاكية اعترافًا جديدًا بوجودها .

وقد كان على ريموند الصنجيلى بعد هذه الخيبة ، أن يعتمد على نفسه فى تأسيس إمارة ، وكان من الواضح أنه يطمع فى تأسيس هذه الإمارة فى طرابلس ! . فقد سبق له أن استولى على طرسوس سنة ١٠٩٩ ثم فى سنة ١١٠٠ ، وكانت تابعة لبنى عمار. ولكن بنى عمار سارعوا إلى استردادها وقت غياب ريموند مع الحملة اللومباردية فى آسيا الصغرى . وبذلك صار هدف ريموند الاستيلاء مرة أخرى على هذه المدينة . وقد بدأ فى حصارها فعلاً مستعينًا ببقايا حملة سنة ١١٠١ الفاشلة ، ولكن الحصار تعسّر لعدم وجود قوة بحرية تحكم الحصار من البحر ، فتأخرت مشروعات ريموند بعض الوقت ! .

على أنه سرعان ما قدم أسطول جنوى إلى الشام فى عام ١١٠٢ ، فاستعان به ريموند الصنجيلى

فى حصار المدينة من البحر ، فسقطت فى يده فى فبراير ١١٠٢ ، وبذلك أصبح يرتكز على قاعدة هامة لمواصلة مشروعاته فى فتح طرابلس ذاتها .

ولقد كانت تلك هى اللحظة التى صار على بنى عمار أن يدفعوا فيها ثمن مهادنتهم للصليبيين ، فقد رأينا كيف اتبعوا سياسة مرنة فى معاملتهم ، وذهبوا فى ذلك إلى حدّ محالفة بلدوين الأوّل ملك القدس وتحذيره من الكمين الذى نصبه له سلاجقه دمشق . ولكن استيلاء ريموند على طرسوس ، واتجاهه إلى الاستيلاء على طرابلس ، جعل بنى عمار لا يجدون مفرًّا من الإلقاء بأنفسهم فى أحضان القوى الإسلامية المحيطة بهم . فأرسل فمر الملك أبو على بن عمار يستنجد بدقاق ملك دمشق ، وبجناح الدولة أمير حمص ، فسارعا إلى نجدته ، وبذلك أمكن إنقاذ المدينة بصعوبة من السقوط ، رغم ما يذكره بعض المؤرخين من هزيمة الجيوش العربية أمام جيش ريموند ، فقد تم الاتفاق على أن يدفع صاحب طرابلس جزية من المال والخيل . وبناءً على ذلك انسحب ريموند إلى طرسوس (مارس – أبريل ١١٠٢) .

على أن رغبة ريموند الصنجيلى فى الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام ، مثل أنطاكية أو بيت المقدس ، دفعته إلى محاولة فتح طرابلس مرة أخرى ! . وفى هذا الوقت أسعفه مجيء الحملة البحرية الجنوية السالفة الذكر بقيادة أمبرياتشى ، فاستغل هذه الحملة فى محاصرة طرابلس مرة أخرى ، ولكنه فشل مرة أخرى أيضًا بفضل دفاع المدينة القوى . وبدا أن أحلامه فى تكوين إمارة قوية قد تحطمت على أسوار طرابلس .

على أن ريموند كان ذا عزيمة قوية تؤججها أطماعه الاستعمارية ! . ولذلك فقد اتجه بالحملة إلى محاصرة « جبيل » وهى قلعة صغيرة تقع على الساحل بين طرابلس وبيروت ، تابعة لبنى عمار ، حتى يحيط طرابلس من طرسوس فى الشمال وجبيل فى الجنوب ! . ولم تستطع جبيل بحكم إمكانياتها الصمود فى وجه الحصار البحرى البرى ، فسقطت فى أواخر سنة ١١٠٤ . وهنا برهن الجنويون مرة أخرى على عدم احترامهم للعهد . فقد روى ابن الأثير أنهم لم يوفوا بالأمان الذى منحوه لأهل جبيل ، فأخذوا أموالهم ، واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب . وقد حصل الجنويون على مكافأتهم المعهودة ، وهى ثلث المدينة ، مما مهّد لأن تصبح جبيل ذاتها بعد ذلك مستعمرةً جنوية تحت إشراف أسرة امبرياتشى ، قائد الحملة ! .

على هذا النحو أصبحت طرابلس بين شقّى الرحى . على أن المدينة كما يقول المؤرخون كانت محصنةً تحصينًا طبيعيًّا يجعل من الصعب انتزاعها ، إذ أنها قائمة على شبه جزيرة داخلة فى البحر ،

مما يتيح لها التزود بالمؤن عن طريق البحر فى حالة الحصار . وقد كان ذلك مادفع ريموند الصنجيلى ، فى سعيه المستميت للاستيلاء على المدينة ، إلى إنشاء قلعة فى مواجهتها مباشرة ، أطلق عليها العرب اسمه « قلعة صنجيل » . وقد أعانه الإمبراطور البيزنطى بالأخشاب والمعدات من جزيرة قبرص ! . وبذلك لم يعد أمام بنى عمار من سبيل للاتصال بالعالم الخارجى سوى البحر . وهذا ما دعاهم ، فى صراعهم العنيد مع ريموند الصنجيلى ، إلى محاولة هدم القلعة عن طريق إشعال النار فى أغسطس – سبتمبر ١١٠٤ ، وفى هذه المرة أفلحوا فى التخلص من عدوهم الصليبى اللدود . فمع أن القلعة لم تهدم ، إلاّ أن ريموند سقط تحت بعض الأجزاء المشتعلة المتساقطة ، فأصيب بجروح نقلته إلى العالم الآخر فى نهاية فبراير ١١٠٥ ، قبل أن يشهد اكتمال آماله ، وتحقيق السعى الذى قدم لأجله من أوروبا تحت عباءة الصليب .

وبموت ريموند الصنجيلى بدأت صفحة جديدة فى الصراع بين الصليبيين والعرب على طرابلس . لعبت فيها الخلافات العربية والمنافسات بين الممالك الإسلامية دورًا هامًّا ، كما انكشف فيها انحلال الخلافة العباسية ! . ولكن بقى نضال أهالى طرابلس يضىء هذه الصفحة بنور مشرق ، ويشهد على مدى الصلابة التى يمكن لشعب عربى أن يبديها وسط كل هذا الانحلال للأنظمة الحاكمة فى ذلك الحين ! .

فقد سارع خليفة ريموند الصنجيلى وابن خالته ، وليم جوردان ، إلى مواصلة سياسة سلفه إزاء طرابلس ، فأحكم عليها الحصار عن طريق قلعة صنجيل ، مستعينًا بالإمبراطور البيزنطى ، الذى أمر بإرسال المؤن من قبرص إلى الفرنجة . ومع أن الطرابلسيين نجحوا فى بعض الأحيان فى أسر بعض هذه السفن التى تحمل المؤن إلى الصليبيين واقتيادها إلى ميناء طرابلس ، إلا أن المدينة لم تلبث أن شعرت بضرورة الاستعانة بالمسلمين حولها ، بعد أن ساءت حالتها الاقتصادية ، حتى اضطر أهلها إلى بيع مالديهم من الحلىّ وغيرها لشراء القوت ، ومن الطريف أن هذا القوت كان يأتى إلى المدينة مهربًا من جزيرة قبرص البيزنطية ، ومن إمارة أنطاكية الصليبية ، ومن جزر البنادقه ، طلبًا للأثمان الباهظة التى كان يدفعها أهل طرابلس !

لذلك ، وبعد ثلاث سنوات من الحصار الصليبى للمدينة ، لم يجد فخر الملك بن عمار بدًّا من السفر فى ربيع عام ١١٠٨ إلى بغداد ، لطلب النجدة من زعيمى العالم الإسلامى فى المشرق العربى . وهما الخليفة المستظهر العباسى (١٠٩٤ – ١١١٨) والسلطان محمد السلجوقى (١١٠٤ – ١١١٧) حاملاً معه أفخر الهدايا ، ولكنه لم يجد – كما يقول ابن الأثير – سوى

الكلمات المعسولة . والسؤال عن حاله وما يعانيه من مجاهدة الكفار وما يقاسيه من ركوب الخطر فى قتالهم .

وحين اضطر ابن عمار إلى العودة إلى إمارته فى أغسطس ١١٠٨ فاشلا ، كانت الإمارة قد سقطت ، ولكن فى يد الفاطميين ! . فنى ذلك الحين وتحت تأثير وطأة الحصار ، طلب أهالى طرابلس من الفاطميين فى مصر الحماية على أساس تسليم المدينة لهم للدفاع عنها . ولم يتأخر الفاطميون عن الاستجابة لهذا الطلب ، فأرسلوا المؤن إلى المدينة ، وعينوا عليها واليا من قبلهم .

وبنفس الطريقة سقطت « عرقه » فى يد دمشق . فقد كان عليها أحد رجال ابن عمار ، ولكنه حين شعر بأنه لن يستطيع الصمود فى وجه وليم جوردان ، عرض على طغتكين أتابك دمشق تسليمها قائلاً : « أرسل لى من يتسلم هذا الحصن منى ، فقد عجزت عن حفظه . ولأن يأخذه المسلمون خير لى فى الدنيا والآخرة من أن يأخذه الفرنج » ! . لذلك أرسل ظغتكين ثلاثمائة من رجاله استولت على الحصن . على أن دمشق لم تستطع حماية عرقه ، فسقطت فى يد وليم جوردان بعد حصار ثلاثة أسابيع فى إبرايل ١١٠٨ .

وقد سقطت طرابلس ذاتها بعد ذلك ، أى فى يولية ١١٠٩ . بعد دفاع أسطوريّ استمر ستّ سنوات . ولكن ذلك حدث فى ظروف خاصّة توحّدت فيها القوى الصليبية . فقد حدث نزاع بين وليم جوردان وبين برتراند بن ريموند الصنجيلى الأكبر ، الذى جاء من فرنسا على رأس جيش من أربعة آلاف فارس يحملهم أسطول قويّ من أربعين سفينة ، للمطالبة بتركة أبيه ، وحصل على مساعدة أسطول جنوى من ثمانين سفينة . ولكن وليم جوردان رفض تسليم التركة على أساس أنها حقّه بعد أن ظلّ يدافع عنها بعد وفاة ريموند قرابة الأربع سنوات ! . ثم تحالف مع تنكرد أمير أنطاكية لطرد برتراند ، بينما تحالف الأخير مع بلدوين ملك بيت المقدس على طرد وليم جوردان ، وانتهى النزاع بعقد صلح على أساس تقسيم تركة ريموند بين المتنازعين ، فأخذ وليم جوردان عرقه وطرسوس ، وأخذ برتراند قلعة صنجيل وجبيل ، علاوة على طرابلس عندما يتم فتحها . وبذلك توحدت جهود الصليبيين ضدّ طرابلس .

ولم يكن بوسع طرابلس هذه المرة أن تقاوم طويلاً القوى الصليبية مجتمعةً ، بعد أن تحالفت قوات بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية والرها ، بينما كان الأسطول الجنوى يفرض الحصار من البحر ! ، وقد شعر الفاطميون بالخطر ، فأرسلوا الأسطول المصرى لنجدة طرابلس ، ولكنه وصل متأخرًا ، فقد ساءت أحوال أهل طرابلس فى تلك الأثناء وأسقط فى أيديهم ، وذلّت نفوسهم ،

وزادهم ضعفًا تأخر الأسطول المصرى عليهم بالنجدة والميرة . فلم يجدوا بدًّا من التسليم .

ويقول المؤرخون : إن الطرابلسيين طلبوا أن يكون تسليمهم للملك بلدوين الأوّل والأمير برتراند . بشرط عدم الاعتداء على حياة من يرغب فى الخروج من المدينة وعلى ممتلكات من يرغب فى البقاء فيها . وقد قبل بلدوين هذه الشروط . ودخل طرابلس يوم ١٢ يوليو ١١٠٩ ، فاحترم وعده ، وسمح للقائد الفاطمى بمغادرة المدينة ومعه فريق من رجاله ، ولكن الجنويين ارتكبوا ماتعودوا عليه من سلب ونهب يذكره المؤرخون المسلمون بالسخط والاستنكار !.

وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس سقوط ما تبقى من المعاقل العربية على شاطىء الشام . فقد سقطت مدينة بانياس فى يدتنكرد بينما كان عائدًا من حصار طرابلس ، كما سقطت فى يده أيضًا جبله فى يوليو ١١٠٩ ، ثم استولى على حصن الأكراد سنة ١١١٠ ، وتنازل عنه بعد ذلك لابن برتراند الذى خلف أباه فى حكم طرابلس سنة ١١١٣ . كما استولى هذا فى سنة ١١١٥ على رفنية شرق طرسوس . وظلت إمارة طرابلس الصليبية فى نمو حتى بلغ امتدادها فى سنة ١١٣٢ م من المرقب شمالاً إلى نهر الكلب جنوبًا ، ومن شاطئ البحر المتوسط غربًا حتى بعرين ورفنية وحصن الأكراد وعكار شرقًا .

على أن إمارة طرابلس الصليبية لم يقدّر لها البقاء فى المنطقة العربية إلى الأبد ، لقد كانت حقًّا آخر الإمارات الصليبية التى تأسّست فى ذلك الحين ، ولكن حين تكاتفت القوى الإسلامية على إسقاطها فيما بعد ، لم نستطع مغالبة تيار التاريخ ، فسقطت وكانت خاتمة الإمارات الصليبية التى سقطت .

٣٩ – الصليبيون بين البيزنطيين والمسلمين

- أصول الصراع بين البيزنطيين والصليبيين .
- أطماع بوهمند فى الأملاك البيزنطية .
- توسع بوهيمند فى الأراضى الإسلامية .
- وقوع بوهيمند فى أسر الملك غازى كمشتكين فى أغسطس ١١٠٠ .
- وصاية تنكرد على أنطاكية أثناء أسر بوهيمند .
- توسع تنكرد على حساب البيزنطيين .
- الإفراج عن بوهيمند مقابل فدية .
- مشروع بلدوين دى بورج وبوهيمند لفصل العراق عن الشام .
- موقعة حران فى مايو ١١٠٤ ووقوع بلدوين أمير الرها وجوسلين حاكم تل باشر فى أسر المسلمين .
- نهاية بوهيمند على يد البيزنطيين .
- انتعاش أنطاكية تحت حكم تنكرد .
- تحالف بولدوين دى بورج مع جاولى ضد تنكرد ورضوان .
- دخول بلدوين دى بورج الرها .

٣٩ – الصليبيون بين البيزنطيين والمسلمين

استطاعت عباءة الصليب أن تخدع بسطاء الناس فى أوروبا ، فخرجوا ليلقوا حتفهم فى خدمة أطماع الأمراء ، كما حدث بالنسبة لحملة الجياع ١٠٩٦ ، التى أبيدت بأكملها على يد السلاجقة ! ، أو بالنسبة للحملة اللومباردية عام ١١٠١ التى أبيدت بدورها على يد السلاجقة أيضا ! ولكن هذه العباءة لم تخدع الدولة البيزنطية التى أدركت ماوراءها من أطماع أمراء الاقطاع . ولم تخدع أيضا ، وبطبيعة الحال ، الأمراء أنفسهم الذين رأينا تسابقهم وتنافسهم ، بل وتحاربهم ، من أجل إنشاء الإمارات فى الشام والعراق ! .

ويتضح من ذلك أن الفكرة السائدة بأن الحروب الصليبية هى الحروب التى دارت بين الصليبيين والمسلمين ، هى فكرة خاطئة لأن الحروب الصليبية هى الحروب التى دارت بين الصليبيين والبيزنطيين ، وبين الصليبيين والمسلمين ، وفيما بين الصليبيين أنفسهم ! ! – الأمر الذى يوضح للقارئ حجم الفكرة الدينية فى هذه الحروب .

وكنا قد رأينا كيف بدأت أولى الحملات الصليبية بنهب بلاد شرق أوروبا ! فارتكبت من الجرائم فى بلاد المجر ما اضطر الملك المجرى كولمان إلى إبادة القسم الألمانى من هذه الحملة . وكيف اصطدمت فرقة بطرس الناسك بهم أيضًا ، واستولت على مدينة سملين وقتلت أربعة آلاف مجرى . ثم مضت قُدمًا فى ارتكاب جرائمها ، فقامت بنهب وإضرام النار فى مدينة بلغراد ، واشتبكت مع القوات البيزنطية عند مدينة صوفيا . وهاجمت القصور فى القسطنطينية ودمرتها وأشعلت النار فى الأبنية العامة ، بل إنتزعت الرصاص من سقوف الكنائس ! إلى آخر هذه الجرائم التى أصابت المسيحيين قبل المسلمين .

ولم يقتصر ذلك على الحملة الشعبية بل قامت الحملة الارستقراطية بما هو أنكى ، فعاثت جيوش جودفرى وبلدوين وريموند الصنجيلى فى الأراضى البيزنطية ، واشتبكت فى سلسلة من المعارك مع الحاميات البيزنطية ، بل واستولت على بعض المدن . ثم دخلت فى مساومات مع الإمبراطور البيزنطى لتقسيم أراضى المسلمين قبل فتحها ! وتعهدت بردّ الأراضى التى كانت فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية فى سنة ١٠٧١ قبل سقوطها فى يد السلاجقة إلى الإمبراطور ، على أن

يستولى الصليبيون على ماعدا ذلك من أراضى المسلمين ، وحصل بوهيمند على وعد من الإمبراطور بأن تكون له منطقة واسعة حول أنطاكية « طولها مسيرة خمسة عشر يوما وعرضها مسيرة ثمانية أيام » . وأقسم الجميع قسم الولاء للإمبراطور البيزنطى فيما عدا قليل منهم على رأسه تنكرد ، وفى ذلك الحين كتبت كومنينا ، ابنة الإمبراطور البيزنطى تقول : « لقد استنفر البسطاء من أجل القبر المقدس والحج ، ولكن الناس الفطنين من الأمراء لهم أسبابهم الخفية » !

وقد حافظ الأمراء الصليبيون على وعودهم فى بداية الأمر ، ولكن أطماعهم سرعان ماتغلبت عليهم ، فأسس بلدوين – الذى أصبح ملك القدس بعد ذلك – إمارة الرها ، رغم تبعيتها للإمبراطور البيزنطى ! ، بينما ابتلع بوهيموند النورماندى أنطاكية ، وبذلك توضحت معالم الصراع بينهم وبين المسلمين من جهة ، وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى . ذلك أن البيزنطيين لم يستطيعوا أن يتناسوا حقوقهم فى هاتين الإمارتين ، ولكن لما كانت إمارة الرها بعيدة عن مركز الإمبراطورية ، فقد فضل « الكسيوس كومنين » إمبراطور بيزنطة التغاضى مؤقتا عما يجرى فيها حتى تمكنه الظروف فى المستقبل من تأكيد حقوق الإمبراطورية فيها .

أما أنطاكية ، فقد اختلف الأمر . ذلك أن أنطاكية كانت أغنى المدن جميعًا فى الشرق الأدنى ، بفضل ما امتازت به من موقع فريد جعلها واسطة التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من جهة ، والغرب الأوروبى من جهة أخرى ، فضلا عما اشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف . لذلك يصح القول بأن هذه الإمارة الصليبية لم تقم رغم إرادة السلاجقة المسلمين وحدهم ، بل وأيضا رغم إرادة الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ..

على أن وجود البيزنطيين فى اللاذقية كان يشكل خطرًا كبيرًا على إمارة أنطاكية . إذ كان فى استطاعة البيزنطيين الأشراف من هذه المدينة الهامة على وادى نهر العاصى كله . وتهديد مطامع بوهيمند النورماندى فى البقاء والتوسع . لذلك لم يتردد بوهيمند فى صيف ١٠٩٩ فى حصار هذه المدينة ، وساعده الحظ بمجيء الأسطول البيزى إلى أنطاكية برئاسة رئيس الأساقفة دايمبرت ، فاستخدمه فى إحكام الحصار ، حتى كادت تسلم الحامية البيزنطية ، لولا عودة ، ريموند الصنجيلى بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، فوجه إنذارًا إلى بوهيمند لرفع الحصار ، وحين أراد هذا مساندة دايمبرت تخاذل وتخلّى عنه . فاضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى أنطاكية .

على أن أطماع بوهيمند فى أملاك البيزنطيين لم تهدأ ، فقد اتجه للاستيلاء على مدينة مرعش منهم ، وكانت هذه المدينة فى جبال طوروس قد سقطت فى يد الصليبيين فى سنة ١٠٩٧ وسلموها

للبيزنطيين . فقام بوهيمند بحملة عليها لاستردادها ، ولكنه فشل ولم ينجح إلا فى السيطرة على الأراضى المكشوفة المحيطة بها .

وفى تلك الأثناء كان بوهيمند يعمل على توسيع إمارته على حساب المسلمين فيما وراء نهر العاصى . ولكنه اصطدم بالعرب والسلاجقة ، فقد حاول الاستيلاء على قلعة فامية فى حوض نهر العاصى من يد صاحبها الأمير العربى سيف الدولة بن ملاعب ، ولكنه فشل ، فقفل راجعا بعد أن أفسد زراعتها . كما استولى على « كلا » فى منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب ، ولكن رضوان صاحب حلب تمكن من طرده .

على أن قوة سلاجقة حلب فى ذلك الحين كانت تنحل تحت حكم رضوان السلجوقى ، الذى وصفه المؤرخ أبو المحـــاسن بأنه كان « بخيلا شحيحاً ، قبيح السيرة ، ليس فى قلبه رأفة ولا شفقة على المسلمين » ، وكانت الفرنج تغادر وتسبى وتأخذ من باب حلب ، ولا يخرج إليهم ! لذلك استطاع النورمانديون تحت حكم بوهيمند الاستيلاء على عدد من القلاع فى تلك المنطقة ، أخذوا يغيرون منها على رضوان ، حتى أنزلوا به الهزيمة فى ٥ يولية ١١٠٠ م ، واحتلوا برج الحاضر ، قرب قنسرين ، وكفر طاب ، شمال شيزر فى منتصف الطريق بينها وبين معرة النعمان . ثم عسكر بوهيمند فى أواخر سنة ١١٠٠ م على ضفاف نهر قويق بغرض تحويل الكثبان المحيطة بحلب إلى حصون تحيط بالمدينة وتحكم الحصار عليها ، لولا أن ساقت الأقدار إليه قوة إسلامية أخرى أكثر منه قوة بقيادة الملك غازى كمشتكين ابن الدانشمند ، أمير سيواس ، لتوقع به وتمرغ كرامته فى تراب الهزيمة ! .

وكان الملك غازى فى تلك الأثناء قد دأب على مهاجمة ملطية ، على أطراف الفرات ، يعبث فى أراضيها تخريبا . وكانت تحت حكم أحد زعماء الأرمن واسمه جبريل . فلما علم الأخير بوجود بوهميند عند مرعش أثناء حملته عليها ، استنجد به ضد الأتراك المسلمين . وأدرك بوهميند أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه الأرمن فى الصراع بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية ، فسارع إلى نجدة المدينة على رأس جيشه ، ولم يعرف أنه يتجه إلى كارثة ! .

ففى تلك الأثناء كان الملك غازى بن الدانشمند ينصب له كمينا فى الطريق إلى ملطية ، فقامت معركة شرسة انتهت بهزيمة بوهميند وذبح رجاله ووقوعه فى الأسر فى أوائل أغسطس سنة ١١٠٠ م . وحمل الملك أسيره متجها إلى بلاده حيث سجن بوهيموند فى قلعة نيكسار قرب شاطئ البحر الأسود !

شمال سوريا في القرن الثاني عشر

حدود امارة انطاكية سنة ١١٢٠م

حدود امارة الرها سنة ١١٢٠م

سلاجقة الروم

هرتبرت

ملطية

ابلستين

ميافارقين

ديار بكر

حصن كيفا

نصيبين

ماردين

سيس

كيسوم

الرها

سروج

حران

دلوك

عينتاب

عزاز

ارتاح

حارم

حلب

كفرطاب

البارة

افامية

حماة

انطاكية

سان سيمون

الجزيرة

الفرات

هرقلية

طرسوس

اذنة

(خريطة رقم ٢٥)

على هذا النحو سقط بوهيمند النورمندى فى شرك أطماعه ، وأصبح على أنطاكية أن تبحث عن أمير آخر . وسرعان ما وجدت ضالتها فى تنكرد للوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله . وجاء هذا العرض فى وقت اشتد فيه النزاع بين تنكرد وبلدوين الأول ملك القدس ، فسارع إلى قبوله ، وترك إقطاعه فى الجليل فى أواخر مارس ١١٠١ واتجه إلى أنطاكية لمباشرة مهمته الجديدة .

ولم يكن تنكرد أقل طمعا من بوهيمند ، وكان يأمل فى الاستئثار بأنطاكية الغنية ، لولا أنه وجد أهاليها شديدى التعلق ببوهيمند ، فتظاهر بالزهد والعفة ، ولم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية .

على أنه لما كان مصير بوهيمند مجهولا فى يد الملك غازى يقرره وفق إرادته . ، فلذلك أخذ تنكرد يتصرف كما لو كانت أنطاكية سوف تقع فى يده فى النهاية . وقد أتبع فى ذلك خطة بوهيمند ، وهى التوسع على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء !.

ففى أواخر عام ١١٠١ شرع فى التوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية ، وقام بغزو كيليكيا ، واستطاع فى مدّة قصيرة الاستيلاء على المدن الرئيسية الثلاث فيها ، وهى المصيصة وأذنه وطرسوس !، ثم شرع بعد ذلك فى غزو اللاذقية وقام بفرض الحصار عليها .

على أن اللاذقية كانت قوية التحصين ، وكانت بها فرقة من رجال ريموند الصنجيلى وبعض قطع الأسطول البيزنطى للدفاع عنها . فاستمر حصارها نحو عام ، وفى تلك الأثناء خدمت الظروف تنكرد بوقوع ريموند الصنجيلى فى قبضته ، حين عاد الأخير إلى ميناء السويدية بعد هزيمته فى شمال شرقى الأناضول على رأس الحملة اللومباردية . فاعتقله تنكرد ، ولم يفرج عنه إلا بعد تخلى ريموند عن ادعاءاته فى شمال الشام . وقد مرّ ريموند بعد الإفراج عنه على اللاذقية ، وأمر رجاله بالانسحاب لمرافقته فى تنفيذ مشروعه الخاص بالاستيلاء على طرابلس وتأسيس إمارة لنفسه فيها ، وهو مانجح فيه فى النهاية كما مرّ بنا .

وعلى هذا النحو حين وجدت الحامية البيزنطية نفسها وحيدةً فى اللاذقية ، فى الوقت الذى شدّد تنكرد هجومه بالاستعانة بحلفائه الجنويين من البحر – أضطرت إلى التسليم فى أوائل عام ١١٠٣ وبذلك أصبح لإمارة أنطاكية ميناء رئيسى يربطها بأوروبا ، وهو أمر كان بالغ الأهمية للصليبيين فى ذلك الحين كما رأينا فى مملكة بيت المقدس .

وقد كان على أثر ذلك أن عاد بوهيمند إلى أنطاكية بعد أن أطلق الملك غازى سراحه فى مقابل فدية قدرها مائة ألف دينار جمعت من الصليبيين بالشام ! ، وارتكب بذلك خطأ فادحًا ؛

ذلك أن الإمبراطور البيزنطى كان قد عرض على الملك غازى تسليمه بوهيمند مقابل مائتين وستين ألف دينار ، لينزل به العقاب جراء حروبه ضدّه ! . وهنا طلب قلج أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، من الملك غازى الحصول على نصف المبلغ ، باعتباره أحد أعضاء الجبهة التى تكونت فى أسيا الصغرى وقضت على الحملة اللومباردية . ولكن الملك غازى رفض ، وقبل عرض بوهيمند الذى جمع المبلغ من صليبى الرها وأنطاكية وأتباعه فى صقلية ، الأمر الذى أوقعه فى نزاع مرير مع قلج أرسلان ، وأدّى إلى تفكك الجبهة الإسلامية فى آسيا الصغرى ! .

وقد استفاد بوهيمند من ذلك فور عودته إلى أنطاكية بعد غيبة ثلاث سنوات ، فقد أقطع خاله تنكرد اقطاعًا صغيرًا فى إمارة أنطاكية . ثم استأنف الحرب ضدّ البيزنطيين والمسلمين . فزحف ، بالاشتراك مع جوسلين ، نائب أمير الرها بلدوين دى بورج ، على مرعش ، فاستولى عليها جوسلين باسم أمير الرها سنة ١١٠٣ ، واستولى بوهيمند على مدينة الأبلستين شمالى مرعش .

وفى الوقت نفسه أخذ فى مهاجمة البلدان التابعة لسلاجقة حلب ، وفرض الجزية على قنسرين . واشترك مع الرها فى مهاجة « المسلمية » على نهر قوين شمال حلب . وفرض الإتاوات على تلك الجهات وعلى رضوان السلجوقى أمير حلب ، لكى يسترد الأموال – التى سبق أن اقترضها لدفع الفدية – من المسلمين ! .

على أن هذه الموجة التوسعية الجديدة التى قادها بوهيمند لم تلبث أن لقيت نهايتها على يد تحالف القوى الإسلامية من جديد فى الموصل وماردين فى دياربكر . وكانت أحلام التوسع الصليبى قد قادت أمير الرها بلدوين دى بورج إلى القيام بحملة على حران فى ربيع عام ١١٠٤ بالاشتراك مع بوهيمند أمير أنطاكية . وكان الغرض من الاستيلاء على حران قطع الصلة بين المسلمين فى العراق وفارس وبين إخوانهم فى الشام ، ثم الاستيلاء على الموصل نفسها ، وتأمين مركز الصليبيين فى إقليم الجزيرة والشام . وكانت حران تقع على الطريق الموصل إلى بغداد ، قلب العالم الإسلامى فى المشرق .

على أن هذه الخطة الطموحة لم تلبث أن أدّت إلى تجمع القوى الإسلامية فى شمال إقليم الجزيرة . فتناسى كل من أتابك الموصل شمس الدولة جكرمش وأمير مردين فى ديار بكر معين الدولة سكمان الأرتق خلافاتهما ، واتفقا على الوقوف فى وجه هذا الغزو . وكان مع شمس الدولة ثلاثة آلاف فارس .. ومع معين الدولة سبعة آلاف فارس .

وفى مايو ١١٠٤ دارت المعركة بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية على ضفة نهر البليخ ،

وكانت خطة الجيش الإسلامى تقوم على التظاهر بالهزيمة والتراجع إلى الخلف . وقد ابتلع الصليبيون الخدعة ، فتبعوا المسلمين نحو فرسخين ، ولكن هؤلاء عادوا فانقضوا عليهم « فقتلوهم كيف شاءوا » وامتلأت أيدى المسلمين من الغنائم . وسقط أمير الرها بلدوين دى بورج ومعه جوسلين حاكم تل باشر . أسيرين فى يد المسلمين ، بينما تمكن بوهيمند ومعه من بقى من جيشه من الفرار ، والذعر والاضطراب يتملكهم ، حتى ليروى أن برنارد ، بطريق أنطاكية ، قطع ذيل فرسه حتى لايجذبه منه أحد المسلمين ويفتك به !

وقد كانت تلك الموقعة نقطة تحول فى تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية . فقد أوقفت وقتذاك توسع الصليبيين جهة الشرق على حساب المسلمين ، وأتاحت للمسلمين فى الشام الانقضاض من جديد لاسترداد ما ضاع منهم . فمع أن رضوان لم يشترك فى معركة حران ، بل وقف على رأس جيشه قرب الفرات ليتابع سير المعركة ، إلا أنه لم يكد يعلم بهزيمة القوى الصليبية ، حتى سارع إلى استرداد « معرة مصرين »« وسرمين » وغيرها من القلاع والمدن القريبة من حلب . بينما هبّ شمس الخواص ، أمير رافنية لاسترداد « صوران » شرقى شيزر ومهاجمة القلاع الصليبية القريبة ، وبذلك اضطرت الحاميات الصليبية فى البارة ومعرة النعمان وكفر طاب ولطمين إلى الانسحاب والفرار إلى أنطاكية ، وتمكن رضوان صاحب حلب من الاستيلاء على قلعة ارتاح ذات الموقع الهام لأنطاكية . وبذلك ضاعت المكاسب التى حققتها إمارتا أنطاكية والرها فى الشام وعادت حدود إمارة أنطاكية إلى القويق وبحيرة العمق ، بعد أن كانت تلك الحدود قد قاربت مشارف حلب ذاتها ! .

ولم تلبث الدولة البيزنطية أن تقدمت للاستفادة من هذه الفرصة ، واسترداد ما سلبته منها القوى الصليبية ، والثأر من بوهيمند ، فقد استردت طرسوس وأذنة والمصيصة عقب ثورات أشعلها البيزنطيون فى هذه المدن بالاشتراك مع الأرمن . ثم أرسل الإمبراطور البيزنطى أسطولا بيزنطيًّا إلى اللاذقية ، فاجأ حاميتها واستولى على معظمها ، وانطلق منها ينتزع من النورمان المراكز الأخرى على الساحل فيما بين اللاذقية وانطرسوس ، بالإضافة إلى قلعة المرقب . وهكذا كان على بوهيمند أن يدفع ثمن محاربته للبيزنطيين والمسلمين معًا ، فأصبح بين نارين .

وقد كان عندئذ أن قرر بوهيمند السفر إلى أوروبا لاستثارتها ضدّ الدولة البيزنطية ! فأبحر إلى إيطاليا فى أواخر سنة ١١٠٤ حاملاً معه كلّ ما استطاع حملة من الأموال والمجوهرات والتحف ، لخدمة أغراضه الدعائية ضدّ الدولة البيزنطية ! ، وأخذ يقوم بتصوير هذه الدولة فى صورة حليفة

الإسلام والعقبة الحقيقية فى وجه الصليبيين بالشام ، واستطاع بالفعل عن طريق مقابلته مع البابا بسكال الثانى ومع ملك فرنسا أن يجمع نحو ٤٣ ألفًا من الصليبيين من مختلف أنحاء أوروبا الغربية من الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين والأسبان والألمان وعاد إلى أبوليا فى أواخر سنة ١١٠٦ لمهاجمة الدولة البيزنطية ! .

على أن نجم بوهيمند كان قد أفل على يد المسلمين فى موقعة حران !. لقد اختار مهاجمة دورازو فى أكتوبر ١١٠٧م ، وهى أقوى قلعة بيزنطية عند مدخل الأدرياتيك ، ومفتاح مقدونيا ، ولكن المدينة قاومت مقاومة باسلة ، فى الوقت الذى عبأ الإمبراطور الكسيوس جيشه وهاجم به جيش بوهيمند برًّا وبحرًا . ولم يملك بوهيمند بعد أن تعرض رجاله للجوع والأمراض إلا أن يطلب من الإمبراطور البيزنطى الصلح بشروطه !. وهنا كانت فرصة ألكسيوس كومنين ، الذى رأينا كيف حاول دفع مائتين وستين ألف دينار لشراء بوهيمند من الملك غازى ، ففرض عليه هنا صلحا شديد الإذلال ، عرف باسم صلح ديفول **Devol** أو ديابوليس Deabolis سنة ١١٠٨ ، وبمقتضاه تعهد بوهيمند بأن يصبح تابعًا أمينا للإمبراطور ، وأن يعيد للإمبراطورية كل أملاكها القديمة ، وتعود مدن كيليكيا والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية إلى الإمبراطور ، وتقتصر إمارة أنطاكية على أنطاكية وميناتها السويدية ، ثم المنطقة الممتدة فى الشمال الشرقى حتى مرعش . وتعهد بوهيمند بأن يحارب تنكرد إذا رفض تنفيذ شروط هذا الصلح !

وعلى هذا النحو استطاع الإمبراطور البيزنطى القضاء على بوهيمند من الناحية الأدبية ، بعد أن عجز عن القضاء عليه شخصيًّا ! وبالفعل لم يتمكن بوهيمند من العودة إلى أنطاكية ، فذهب إلى إيطاليا حيث قضى نحبه فى سنة ١١١١ .

على أنه فى تلك الأثناء كانت ظروف الصراع داخل المعسكر الإسلامى فى شمال الشام ، تهيئ لإمارة أنطاكية الصليبية تحت حكم تنكرد ، الفرصة للانتعاش من جديد ، واسترداد مافقدت ، والعودة إلى التوسع !

فبسبب ضعف رضوان ملك حلب ، تمكن تنكرد من استرداد أرتاح وأن يقلب الموقف مرة أخرى فى جبهة العاصى ، ويسترد المواقع التى فقدها فى أعقاب هزيمة حران . كما استولى على « فامية » مستغلاً الصراع فيها بين حاكمها والباطنية فسقطت فى سبتمبر ١١٠٦ ، ثم استرد كفر طاب ، شرقى فامية بين معرة النعمان وشيزر ، مما أتاح له شن الهجمات على القلاع الإسلامية القريبة وخصوصًا مدينة شيزر سنة ١١٠٨ ولم تستفد القوى الإسلامية من درس انتصار حران ، فتعلم أنها

إذا اتحدت لم تستطع القوى الصليبية الصمود أمامها ، بل استمرت على انقسامها وتجاهلها لمايدور !

وقد كانت قمة المهارة من جانب تنكرد حين انتهز فرصة تهديد بوهيمند فى الجبهة الغربية للامبراطورية البيزنطية بحملته الصليبية السالفة الذكر ، واضطرار الإمبراطور البيزنطى لاستدعاء معظم جيوشه فى اللاذقية وكيليكيا ، فاستعان تنكرد بأسطول البيزيين وأخذ فى محاصرة اللاذقية .

وهنا اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى تسوية خلافاته مع السلاجقة . فكاتب السلطان السلجوقى محمد ، سلطان فارس والعراق ، للتحالف ضدّ مشاريع تنكرد التوسعية التى امتدت إلى جهات الفرات . كما طلب إلى قلج أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، المعونة لمواجهة بوهيمند فى الغرب . فأمده هذا « بجمع كثير من عسكره » ! وقد استطاع الإمبراطور البيزنطى إلحاق الهزيمة ببوهمند فى الميدان الغربى كما ذكرنا ، ولكن فى الميدان الشرقى وقفت ظروف الصراع بين السلاجقة الأتابكة فى وجه تقديم المعونة اللازمة . فسقطت اللاذقية فى يد تنكرد فى منتصف ١١٠٨ . وكافأ البيزيين بإعطائهم شارعًا فى أنطاكية وحيًّا فى اللاذقية يقيمون فيه تجارتهم ! .

وعلى ذلك ، ففى الوقت الذى كان بوهيمند يوقع شروط الاستسلام فى ديڤول ، التى تقضى بتقليص حدود إمارة أنطاكية ، كانت الإمارة تحت قيادة تنكرد تهاجم الممتلكات البيزنطية فى المشرق وتحرز الانتصارات على البيزنطيين ، ولم يلبث تنكرد أن توج انتصاراته على البيزنطيين بالاستيلاء على المصيصة وأذنة وطرسوس فى كيليكيا فى عام ١١٠٩ ، فاسترد بذلك معظم مافقدته الإمارة عقب هزيمة حران ! .

عند هذا الحدّ كانت أطماع تنكرد قد قادته إلى محاولة السيطرة على إمارة الرها وجعلها تابعة لإمارة أنطاكية ، منتهزًا فرصة توليه أمورها بعد أسر أميرها بلدوين دى بورج فى معركة حران . فقد ردّ جاولى (حاكم الموصل المطرود) إلى هذا الأمير حريته سنة ١١٠٨ ، كجزء من صفقة يتحالف فيها الاثنان ضدّ السلطنة السلجوقية ، ودفع فدية قدرها سبعون ألف دينار . ولكنه حين أراد العودة إلى إمارة الرها ، اشترط عليه تنكرد أن يقسم له يمين الولاء ! . فلم يجد بلدوين بدًّا من طلب مساعدة جاولى ضدّ تنكرد ، فى الوقت الذى تحالف تنكرد مع رضوان ملك حلب .

وعلى هذا النحو تشكل المسرح السياسى فى شمال الشام والعراق تشكلا غريبا ، فلم يعد بين مسلمين وصليبيين ، بل بين جبهة إسلامية صليبية فى مواجهة جبهة إسلامية صليبية أخرى !. وسرعان مادارت الحرب بين الجبهتين فى نهاية سبتمبر ١١٠٨ وانتهت بانتصار جبهة تنكرد —

رضوان ولكن بعد أن خسر الصليبيون فى كلا الجبهتين ألفى مقاتل ! وفقا لما أورده ابن الأثير.

وهنا حاول تنكرد وضع يده على إمارة الرها بعد هزيمة بلدوين دى بورج ، ولكن الأخير حصل على مساعدة أمراء الأرمن فى الجهات الواقعة شرقى آسيا الصغرى وأطراف الجزيرة ، فلم يجد تنكرد بدًّا من سحب نائبه ريتشارد دى سالرنو من الرها . فدخلها بلدوين دى بورج ظافرًا .

على أن تنكرد وجه اهتمامه بعد ذلك للسيطرة على إمارة طرابلس الصليبية . فأخذ يتدخل فى شئونها منتهزًا الخلاف بين برترام ، ابن ريموند الصنجيلى ، ووليم جوردان ، الذى أشرنا إليه فيما سبق . فقد حاول فى البداية التأثير على برترام ، حين قدم هذا من فرنسا إلى الشام سنة ١١٠٨ ، يسانده أسطول جنوى ضخم والامبراطور البيزنطى ، للمطالبة بحقه فى تركة أبيه ، واستلامها من وليم جوردان الذى خلف ريموند فى حكم طرابلس – وحين رفض برترام الدخول مع تنكرد فى تحالف ضدّ الدولة البيزنطية ، طرده ووقف إلى جانب خصمه وليم جوردان الذى اعترف بالتبعية له !. ولكن برترام تحالف مع بلدوين الأول ملك القدس لإحباط مخطط تنكرد فى السيطرة على طرابلس . وانتهى النزاع باعتراف تنكرد نفسه بزعامة مملكة بيت المقدس على كل الإمارات الصليبية فى الشام وشمال العراق . واستمر ذلك حتى وفاته فى ١٢ ديسمبر ١١١٢ !

وعلى هذا النحو كان الصليبيون تحت علم الصليب يتقاتلون ويتحاربون ؛ بل ويتحالفون مع المسلمين ضد بعضهم البعض !. وباسم الصليب كانوا يستبيحون كل شىء فقد استباحوا نهب وتخريب بلاد شرق أوروبا المسيحية ! ، واستباحوا القتال ضدّ الدولة البيزنطية المسيحية ! ، واستباحوا النكث بالعهد فى قتال المسلمين ! ، واستباحوا المذابح التى ارتكبوها فى القدس وغيرها من مدن الشام وفلسطين والعراق ، « حتى خاضت ركبهم فى الدماء » – باعتراف مؤرخيهم !. فكم من الجرائم ارتكبتها أوروبا باسم الصليب ! .

٤٠ – امتداد الحروب الصليبية إلى مصر ١١١٨ م

- الحروب الصليبية حروب بين شعوب لا دول .
- مسئولية القوى الإسلامية عن إستفحال الخطر الصليبى .
- ثورة العالم الإسلامى ضد حكامه لتراخيهم فى طرد الصليبيين .
- حملة مودود الفاشلة على الرها ١١١١ .
- موقعة الصنبره فى ٢٠ يونية ١١١٣ .
- مقتل مودود بيد الباطنية وتفكك الجبهة الإسلامية .
- حملة برسق على الشام وهزيمته على يد الحلف الإسلامى الصليبى فى ١٤ سبتمبر ١١١٥ .
- غزو بلدوين الأول إيلات فى ١١١٦ وفصل مصر عن المشرق العربى .
- حملة بلدوين الأول على مصر ١١١٨ م .
- موت بلدوين الأول فى مصر قرب العريش .

٤٠ – الحملة الصليبية على مصر

ربما كان أبرز ماتميزت به الحروب الصليبية فى المشرق العربى هو أنها لم تكن حروبًا بين « دول » أوروبية مسيحية و « دول » عربية إسلامية ، وإنما كانت حروبًا بين « شعوب » أوروبية مسيحية و « شعوب » عربية واسلامية . فهى حروب شعبية بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى فقد رأينا كيف خرج فقراء أوروبا وأوساطها وأثرياتها فى حملات لاتنقطع منذ عام ١٠٩٦ لغزو العالم العربى ، وإنشاء الإمارات والممالك والإقطاعيات ، على حساب الشعوب العربية والاسلامية ، وقد اتخذت هذه الحملات من الصليب راية وشعارًا وعلمًا ، والصليب براء ! وإنما كانت مشاكل العصر الاقطاعى الاقتصادية هى التى أفرزت هذه الهجرة الأوروبية الشعبية ودفعت بها من جميع أنحاء أوروبا لتصبّ فى الشرق العربى ، ولذلك لم تكن جموع الصليبيين فى يوم من الأيام نماذج للاخلاق المسيحية التى دعا إليها المسيح ، وإنما كانت نماذج لأحط ما عرفته أوروبا من نوازع النهب والسلب والحنث فى العهد والقسوة والوحشية وسفك الدماء ! ولذلك أيضًا لم تفرق هذه الجموع فى كثير من الأحيان بين مسلم ومسيحى ، بل عانت منها الدولة البيزنطية المسيحية بقدر ما عانت الدولة الإسلامية ، مما شهدنا نماذج له فى الصفحات السابقة ، وسوف تشهد الصفحات القادمة على مدى الحروب الصليبية نماذج أخرى ، بل سوف تكون الدولة البيزنطية إحدى ضحايا الحروب الصليبية كما سوف نرى .

ومن الغريب أن الدول الإسلامية فى المشرق العربى أو فى آسيا الصغرى لم تكن أضعف من الصليبيين !. بل كانت أقوى بإمكاناتها الاقتصادية والبشرية والعسكرية ، ولكنها كانت منقسمة متنازعة متحاربةً يخشى بعضها بعضًا . وكانت الروح المعنوية التى بثتها التعاليم الإسلامية فى المسلمين الأوائل ، ودفعت بهم ، وهم فئة قليلة ، لاكتساح الغرب والشرق على السواء – قد ضعفت واضمحلت . ولذلك تركت الخطر الصليبى يزرع أقدامه فى الأرض الاسلامية ، حتى استفحل وكون إمارات وممالك !. ثم وجدت الدول العربية نفسها تواجه دولاً يصعب تحطيمها ، وليست غارات شعبية يسهل تبديدها ! – دولاً أوروبية لا توجد فى أوروبا ، وإنما تكونت على أرض المشرق العربى !

ولقد رأينا نماذج فى الصفحات السابقة توضح كيف ساعدت السياسات العربية الإسلامية الصليبيين على زرع أقدامهم فى المشرق العربى ، وهم بعد جموع شعبية لم تتحول إلى دول ترسخ فوق قلب العالم الإسلامى لعدة قرون . فقد رأينا كيف أخطأ الفاطميون فى إدراك أبعاد الخطر الصليبى ، وأرادوا الاستفادة به واستخدامه فى القضاء على خصومهم السلاجقة المسلمين !

وكان فى إمكانهم لو وضعوا أيديهم فى أيدى السلاجقة القضاء على الخطر الصليبى فى مراحله الأولى قبل استقراره واستفحاله ، وحين أدركوا خطأهم وأرادوا تداركه بدعوة السلاجقة إلى التعاون باسم الإسلام ، كانت دولة الصليب قد تأسست فى المشرق العربى بالفعل . وصارت لها قواعد وموانى ومرافئ تفد إليها الأساطيل الأوروبية تحمل المؤن والسلاح والمقاتلين ، تعزز بها سطوتها ، وتستخدمها فى التوسع وبسط نطاق سيطرتها ونفوذها .

كما رأينا كيف أخطأ بنو عمار فى طرابلس فى فهم أبعاد الخطر الصليبى ، فهادنوا هذا الخطر ، بل لقد حالف صاحب طرابلس القاضى فخر الملك أبو على بن عمار الملك بلدوين ، وحذره من الكمين الذى نصبه له سلاجقة دمشق ! . وعندما أفاقوا على هذا الخطر جاء ذلك متأخرًا ، بينما جيوش الصليبيين تحاصر طرابلس لانتزاعها من أيديهم . وقد صمدوا صمودًا بطوليًا ، ولكنهم سقطوا فى النهاية .

كذلك رفض رضوان ملك حلب الاشتراك فى الحلف الإسلامى الكبير تحت قيادة كربوغا ، للعمل على استرداد أنطاكية ، وامتنع عن المشاركة فى الحصار الذى فرضه الجيش السلجوقى الكبير على هذه المدينة ، والذى كاد يكون نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية ، وذلك بسبب عدائه لأخيه دقاق صاحب دمشق ، برغم أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه هذا الاشتراك ؛ لأن حلب كانت واقعة بين الرها فى الشرق وأنطاكية فى الغرب وكلاهما سقط فى يد الصليبيين !

أما الخليفة العباسى المستظهر فى بغداد فقد تراخى فى مقاومة الصليبيين ، وماطل فى الجهاد . ولم يستطع أن يقوم بين المسلمين بالدور الذى قام به البابا أوربان الثانى بين الأوروبيين ! ففقدت الخلافة بهذا الموقف دورها التاريخى فى الصراع بين العرب وأوروبا .

فى ذلك الحين أخذ العالم الإسلامى يضج بالدعوة إلى الجهاد والتوحدّ لطرد الصليبيين ، وأرسل أهالى حلب إلى الخليفة العباسى وسلطان سلاجقة فارس يشكون من سياسة الاستكانة التى يتبعها حاكمهم رضوان إزاء تنكرد حاكم أنطاكية ، ويطلبون الجدّ فى جهاد الصليبيين !

وبلغت الأمور ذروتها المأساوية حين اشترك الإمبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين نفسه – كما رأينا – فى مطالبة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى بالتصدى للصليبيين فى أنطاكية !.. فقد وصلت إلى بغداد سفارة من الإمبراطور البيزنطى لاستثارة الخليفة والسلطان ضدّ هؤلاء ، وتدعو إلى « الإيقاع بهم والاجتماع على طردهم وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجدّ والاجتهاد فى الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم » – حسب قول ابن القلانسى !

وقد أدّى ذلك إلى اشتعال الثورة فى بغداد ضد الخليفة المستظهر والسلطان محمد السجلوقى ، فكما يقول ابن الأثير : « صاح الناس فى السلطان : أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام ، حتى أرسل إليك فى جهادهم ؟ » –

إزاء هذه الثورة أرسل الخليفة إلى السلطان السلجوقى محمد فى أصفهان يدعوه إلى القيام بعمل ضدّ الصليبيين . فكلف السلطان محمد مودودًا ، أتابك الموصل ، بالخروج على رأس حملة لهذا الغرض ، وكان ذلك فى إبريل ١١١١ . وكان مودود معروفًا بالتقوى والورع والتمسك بفكرة الجهاد الدينى . فسارع إلى تنفيذ هذا الأمر مستعينًا بأمراء ميافارقين ومراغة وأربل وهمدان وغيرهم .

وقد أحدث خروجه الفزع فى صفوف الصليبيين ، فسارع بلدوين دى بورج أمير الرها إلى تحصين إمارته ، وتخزين الميرة والطعام توقعًا لحصار طويل ! وكذلك فعل أمير « تل باشر » الصليبى بينما سارع تنكرد ، وكان يحاصر شيزر بالشام ، إلى الانسحاب عائدًا إلى فامية للدفاع عن أنطاكية ، وأرسل إلى الملك بلدوين الأوّل طالبًا النجدة .

وهنا أظهر الصليبيون التماسك فى وجه الجيش الإسلامى . فقد تحالفت قوات بيت المقدس وطرابلس وأنطاكية والرها ، وزحفت للتجمع قرب فامية فى الجزء الأوسط من حوض نهر العاصى ، حيث يمكنها من ذلك الموقع الإشراف على شمالى الشام وشاطئ لبنان وفلسطين .

وحاول مودود عقد حلف مماثل مع رضوان ملك حلب ، ولكنه رفض التعاون وأغلق باب مدينته فى وجه مودود ، فدعا مودود طغتكين أتابك دمشق للتحالف ، فقبل على خوف وشكّ من الجيش السلجوقى الكبير ! . ولذلك يقول ابن الأثير : « وبقى مودود فى نهر العاصى مع طغتكين حليفه غير الوفى ! » . فى حين توفى سكمان صاحب ميافارقين فجأة ، فانسحبت قواته عائدةً بجثمانه ، وكذلك اختار أحمد بك الثانى صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية ! .

وهكذا رأى مودود حلفاءه ينفضون عنه ، وكان قد دخل مدينة شيزر على رأس جيوشه ، بينما كانت تواجهه قوات الصليبيين التى تزايد عددها حتى بلغت نحوًا من ستة عشر ألفًا . وأحّس مودود أنه لايقوى على منازلة الجيش الصليبى الكبير بمفرده ، فلم يتعد الأمر بعض الاشتباكات التى خاضها فرسانه لمنع الصليبيين من الوصول إلى مياه الشرب ، ثم عاد مودود الى الموصل ، وعاد طغتكين إلى دمشق دون معركة كبيرة .

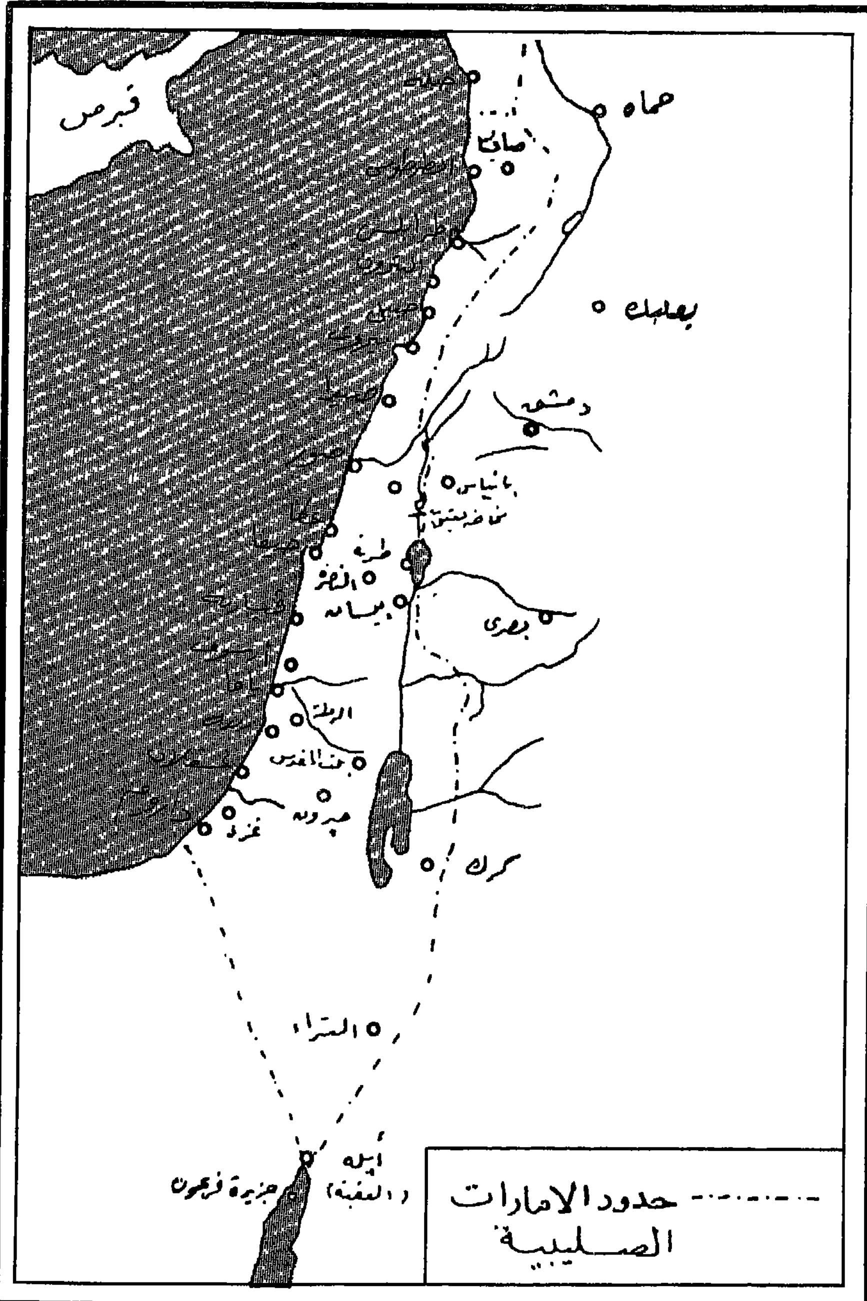
وكما يقول بعض المؤرخين ، فإن هذه الحملة أظهرت تفكك الجبهة الإسلامية ، وترابط الجبهة الصليبية ، فقد جمعت صفوف الصليبيين فى شمال الشام وجنوبه ، وحققت لبلدوين الأوّل ملك القدس نوعًا من الزعامة والأفضلية على بقية الأمراء الصليبيين ، فصار يتصرف بوصفه القائد الأعلى لقوات الصليبيين الذى يدين له أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس بالطاعة !

على أن ظروف الجبهة الاسلامية لم تلبث أن تغيرت فى عام ١٠١٣ حين وقع الصراع على « صور » بين بلدوين الأول وطغتكين أتابك دمشق . فقد سارع إلى الاستنجاد بمودود أتابك الموصل . ولم يكن مودود فى حاجة إلى تحريض لمواصلة الجهاد ، فعبر الفرات فى منتصف مايو ١١١٣ وتبعه أمراء بعض الإمارات فى إقليم الجزيرة وتجمعت الجيوش السلجوقية عند سلمية . ثم اتجهت مباشرة إلى بحيرة طبرية ، حيث فرضت مع جيش طغتكين الحصار على مدينة طبرية المنيعة وأخذت فى الوقت نفسه تدمر الممتلكات الصليبية المجاورة .

وسرعان ما استنجد الملك بلدوين الأول بأمراء أنطاكية وطرابلس . ولكنه سارع مغترًا بنفسه إلى الخروج للقاء الجيش السلجوقى ، دون أن يعتبر بما حلّ به عند الرملة عام ١١٠٢ من هزيمة ، حين اضطر إلى الاحتماء فى « أجمة قصب » ، فأحرقها المسلمون ولحقت النار بجسده ! .

وكان عليه أن يدفع الثمن أيضًا هذه المرة . فقد نصب له مودود وطغتكين الكمين عند جسر الصنبرة ، إلى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية فى ٢٠ يونية ١١١٣ ، ووقع بلدوين بجيشه فى الكمين . وسقط جميع المشاة ، ومعهم متاع الملك نفسه ، فى يد السلاجقة ، هذا عدا من غرق من الصليبيين فى نهر الأردن أو فى بحيرة طبرية . وقدرت خسائر الصليبيين فى موقعة الصنبرة بألف ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان . وقد وقع الملك بلدوين نفسه أسيرا فى تلك المعركة ، ولكن المسلمين لم يعرفوه ، فأخذوا سلاحه وأطلقوا سراحه !

ومع أن جيشى أنطاكية وطرابلس وصلا بقيادة كل من روجر الصقلى ، الذى خلف عمه تنكرد بعد وفاته سنة ١١١٢ ، وبونز Pons الذى خلف أباه برترام – إلاّ أن تفوق الجيش



جنوب سوريا فى القرن الثانى عشر

(خريطة رقم ٢٦)

السلجوقى ألجأ الصليبيين إلى الاحتماء بالمرتفعات الواقعة غربى بحيرة طبرية فقبعوا فيها متجمدين ستة وعشرين يومًا ، « والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب ومنعوا الميرة عنهم ، لعلهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرج أحد » ! .

وتحرج موقف الصليبيين . فقد انتهز الجيش السلجوقى هذه الفرصة لتخريب المراكز الصليبية فى إقليم الجليل ، حتى وصلوا إلى بيسان ونابلس ، وحتى « لم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة » . كما قامت حامية عسقلان بهجوم على بيت المقدس نفسها مستغلة فرصة تجمد بلدوين الأول والجيش الصليبى فى مرتفعات طبرية ، فخرج الجيش المصرى من عسقلان يكتسح المنطقة مدمرًا مخربًا يقتفى أثر الصليبيين حتى وصل إلى أسوار القدس ، ولكن قلة عدده ويقظة حامية القدس الصليبية دفعته إلى العودة إلى عسقلان .

على أنه سرعان ما انقلب الموقف لصالح الصليبيين حين وصلت حملة جديدة إلى عكا قدرتها المراجع بستة عشر ألفًا ، تحت اسم الحج ، فتقوى موقف الصليبيين . ثم ما لبث مودود أن قتل فى الجامع الأموى فى دمشق بينما كان يستعد لاستئناف الحرب ضد الصليبيين ، وذلك على يد أحد الباطنية المسلمين ، ففقدت الأمة الإسلامية بمصرعه مناضلا صلبًا . وقد اتهم الرأى العام الإسلامى طغتكين بتدبير قتله خوفًا من سيطرته على دمشق ، فلم يجد هذا حليفًا يطمئن إليه سوى الصليبيين !

وهكذا انقلب الموقف بتفكك الجبهة الإسلامية ، وتمثل ذلك فى حملة السلطان محمد السلجوقى عام ١١١٥ ، حين وقع زلزال كبير دمر ممتلكات الصلبيين من أنطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . فانتهز السلطان السلجوقى الفرصة وأرسل حملة بقيادة برسق إلى الشام لمحاربة الصليبيين ، ولكن هذه الحملة لقيت مقاومة من الإمارات الإسلامية والصليبية على السواء ! . فقد قاومها ايلغازى بن أرتق أمير ماردين ، ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب ، وطغتكين أمير دمشق . بينما قاومها من الجانب الصليبى روجر الصقلى أمير أنطاكية . وبونز أمير طرابلس !

فوفقا لما أورده المؤرخون ، فإن حملة برسق أدت إلى نوع من التقارب بين الأمراء المسلمين والصليبيين بالشام ، مما أدى إلى عقد إتفاقية بين أتابك دمشق والوصى على حلب من جهة ، وبين ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية ، « وغيرهما من شياطين الفرنج » من جهة أخرى – حسب قول ابن الأثير – واستهدف ذلك الحلف الإسلامى الصليبى مقاومة سلاجقة برسق ومنعهم من غزو بلاد الشام . واحتشدت بالفعل قوات دمشق وقوات حلب جنبا إلى جنب مع قوات بيت المقدس

وانطاكية عند أفامية التابعة لإمارة أنطاكية الصليبية .

وقد قام برسق بخدعة ، فانصرف عائدا إلى الجزيرة ، ثم عاد ليفاجئ أعداءه ، ولكنه منى بالهزيمة مع ذلك فى ١٤ سبتمبر ، وتمكن من الفرار بصعوبة ، ولكنه مات بعد عدة أشهر حزنا على الهزيمة . ولم يفكر السلطان محمد السلجوقى بعدها فى القيام بحملة أخرى على الشام .

فى تلك الظروف من تفكك العالم الإسلامى وانقسامه ، رأى بلدوين الأول تنفيذ مشروعاته لتوسيع حدود مملكته . لقد تخلص من سلاجقة فارس والعراق ، وتحالف مع أمراء الشام ، وبقى الفاطميون فى مصر يهددون مملكته من ناحية الجنوب الغربى عن طريق البحر المتوسط وسيناء ، ومن طريق الجنوب الشرقى عن طريق البحر الأحمر وايلات ووادى عربة . فضلا عن حامياتهم فى صور وعسقلان . لذلك عزم على حماية نفسه من هذا الخطر بمدّ حدود دولته ما أمكن فى تلك الأنحاء .

وقد كانت الخطة التى وضعها هى الوصول إلى البحر الأحمر . عن طريق الاستيلاء على وادى عربة جنوبى البحر الميت ثم احتلال إيلة (إيلات) على ساحل خليج العقبة ، ليقطع بذلك الطريق البرى بين مصر وبين الشام والعراق والحجاز ، ويقسم العالم العربى إلى قسمين يفصلهما الكيان الصليبى .

ونلاحظ أن هذه الخطة هى التى اتبعها الإسرائيليون فيما بعد بحذافيرها أثناء الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى ١٩٤٧ ، وترتب عليها إنشاء ميناء ايلات والنفاذ إلى البحر الأحمر ، وفتح أبواب أفريقيا وآسيا والشرق الأقصى !

ففى عام ١١١٥ تقدم بلدوين الأول فاستولى على وادى عربة وشيد حصن الشوبك كقاعدة للسيطرة على المنطقة بأسرها . وفى العام التالى ١١١٦ تقدم بقواته حتى وصل إلى إيلات على ساحل خليج العقبة ، فاستولى عليها ، وشيد فيها قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام . ثم استولى على جزيرة فرعون أمام إيلات فى خليج العقبة ، وشيدّ فيها قلعة أخرى ، وبذلك أصبح الصليبيون فى الوضع الذى يمكنهم من تهديد قوافل الحج إلى الحرمين ، والسيطرة على الضفة الشرقية للأردن وإقامة حاجز برى بين القاهرة والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية !

ثم أراد بلدوين بعد ذلك التخلص من الجيوب المصرية فى صور وعسقلان لقطع الصلة البحرية عن طريق البحر المتوسط . فهاجم مدينة صور التى كانت مأوى للسفن المصرية التى تهدد

مملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر

(خريطة رقم ٢٨)

الأساطيل الصليبية التى لاتنقطع من أوروبا على الشام . ولما عجز عن اقتحامها شيد قلعة حصينة جنوبها لإحكام الحصار عليها سنة ١١١٦ .

وبعد أن فرغ بلدوين من ذلك ، وجه همه إلى مصر ذاتها . فخرج على رأس حملة عليها عام ١١١٨ ! . وهنا يختلف المؤرخون . فالبعض يرى أنه استهدف من هذه الحملة إجبار الفاطميين على استدعاء حاميتى صور وعسقلان ، وتجريد هاتين المدينتين من دفاعها . فيتمكن من الاستيلاء عليها فى غير عناء . ويستدل هؤلاء على صحة رأيهم بأن بلدوين لم يخرج على رأس جيشه كله . وإنما خرج على رأس مائتين فقط من الفرسان وأربعمائة من المشاة — أى أن كل قوة جيشه لم تتجاوز ستمائة مقاتل ، الأمر الذى يثبت أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربى واسع النطاق ، ويرى بعضهم أن بلدوين الأول إنما أراد أن يشعر الفاطميين فى مصر بقوته بعد أن أحسّ هو بضعفهم ، فاتبع خطة الهجوم كخير وسيلة للدفاع !

على أن البعض الآخر ، وعلى رأسه ابن الأثير ، يرى أن بلدوين إنما قام بحملته على مصر « قاصدا ملكها والتغلب عليها وقوى طمعه فى الديار المصرية » !

ونلاحظ فى هذا الصدد ماذكرناه فيما سبق عن الاجتماع الذى عقده الأمراء الصليبيون فى الرملة فى أوائل يونية ١٠٩٩ ، قبل استيلائهم على بيت المقدس ، لمناقشة الرأى القائل بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة مصر أولاً ! . فقد قام هذا الرأى على فكرة أن مفاتيح القدس موجودة فى القاهرة ! ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى القدس . فعليهم أن يؤمّنوا أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا أوّلا ! . وقد رفضت هذه الفكرة فى ذلك الحين ، على أساس أن الصليبيين لايملكون القوة أو القاعدة القوية التى تمكنهم من تحقيق هذا الغرض ؛ ولذلك ترك الأمراء هذه الفكرة وقرروا الزحف على بيت المقدس مباشرة .

على أنه فى عام ١١١٨ كانت قد توفرت للصليبيين عدة قواعد قوية ينطلقون منها لغزو مصر ، وهى الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس . كما وصلت دولة بيت المقدس الصليبية إلى حدودها التاريخية المعروفة فيما عدا صور وعسقلان ، فقد اشتملت على كل فلسطين تقريبا ، وتمتعت بشاطئ طويل على البحر المتوسط يحقق لها اتصالا آمنا مستمرا بالعالم الأوروبى الغربى ، كما سيطرت على وادى عربة ، ووصلت إلى البحر الأحمر ، وأقامت القلاع فى إيلات وجزيرة فرعون ! فهل اعتبر بلدوين الأوّل أن الوقت قد حان لتنفيذ فكرة اجتماع الرملة العسكرى ، والاستيلاء على مصر؟

أغلب الظن أن بلدوين الأول لم يقصد من غارته الفتح . فلم تكن الدولة الفاطمية فى ذلك الحين بالضعف الذى يشجع على الفتح ، ولم تكن دولة بيت المقدس الصليبية بالقوة التى تحدو بها إلى الطمع فى فتح مصر !.. ولوكانت الدولة الفاطمية بالضعف الذى يشجع على الفتح ، لتمكن بلدوين من فتح صور وعسقلان ، وبهما مجرد حاميتين مصريتين ، وليس جيشًا مصريا كاملاً ! . وقد رأينا كيف أن هاتين الحاميتين كانتا من القوة بحيث لم تكتفيا فقط بالدفاع ، بل قامتا بدور الهجوم البحرى والبرى أيضا !. وكان أقرب مثل لذلك فى عام ١١١٣ ، حين انتهزت حامية عسقلان انشغال بلدوين الأوّل والجيوش الصليبية فى مرتفعات طبرية أمام جيش مودود . فخرجت للإغارة على الأراضى الصليبية حتى وصلت إلى أسوار القدس !

ونرى أن بلدوين الأوّل لوكان يريد غزو مصر وفتحها ، لعبأ لذلك كل جيوش الصليبيين فى الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس ، وخرج على رأسها لتحقيق هذا الغرض ، ولكنه لم يفعل ذلك . ولم يكن فى وسعه أن يفعل ذلك ، فلم يكن الشام والعراق تحت الاحتلال الصليبى ، وإنما كانت الإمارات الصليبية تمثل جزرًا صغيرًة متفرقة فى محيط إسلامى قوى وغلاب ومترصدّ !. ولو خرجت الجيوش الصليبية من الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس لغزو مصر . لخلت تلك الإمارات من المقاتلة التى تحميها ، ولسقطت فى يد السلاجقة والقوى الإسلامية الأخرى فى الشام والعراق وفارس !

ولهذا السبب لم يستطع بلدوين الأوّل أن يخرج بجيش كبير للإغارة على مصر ، حتى لايجرد مملكته من جيش يحميها أثناء غيابه !. ومن الواضح أن ستّمائة فارس وجندى صليبى قوة غيركافية لفتح دولة كبيرة مثل مصر !.

وأغلب الظن أن هذا مافهمه الفاطميون فى مصر. إذ نلاحظ أنهم لم يلقوا بالاً كبيرًا إلى هذه الحملة ، وعلى نحو يدعو إلى الدهشة !. بل لقد دعا إلى دهشة الصليبيين أنفسهم !

فقد عبر بلدوين الصحراء الممتدة من غزة حتّى العريش والفرما دون مقاومة حتّى وصل إلى الفرما فى ٢١ مارس ١١١٨ وهى أول المراكز الأمامية فى الأراضى المصرية ، فوجدها خالية تماما من السكان الذين هجروها ! فأحرق جامعها ومساجدها ، واتجه منها غربا نحو مصب النيل ، حتى وصل إلى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة . ويقول بعض المؤرخين الصليبيين إنه وصل فعلا إلى مصب النيل !

ولكن كان على بلدوين أن يعود أدراجه بعد ذلك مضطرًا بإرادته !.. فلم يكن يملك قوة

كافية تمكنه من وضع حاميات فى البلاد التى يحتلها . ولم يكن فى وسعه البقاء طويلا بعيدا عن مملكته فيعرضها للأخطار ، ولذلك قرر العودة دون أن يحقق أىّ غرض !.

على أنه لم يقدر له العودة إلى القدس أبدًا ! ، فقد دفع حياته فى هذه الغارة ، وتوفى قرب العريش فى ٢ إبريل ١١١٨ ، واختلف المؤرخون فى سبب وفاته ، فذكر ابن الأثير أنه سبح فى النيل عند تنيس ، « فانتقض جرح كان به » . فمات متأثرا به !. بينما ذكر أبو المحاسن أنه مات بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة !. وقد شقّ أصحابه بطنه وقاموا بتحنيطه ، ورموا بأحشائه هناك ، فعرف المكان « بسبخة بردويل » أو « البردويل » قرب بورسعيد الحالية (بردويل=بلدوين) . وقد اعتاد الناس أن يرجموها إلى أيام أبى المحاسن !. وهكذا قادت بلدوين أطماعه إلى حتفه ! . لقد اختار أن ينهى حياته فى مصر !

٤١ – معركة سهل الدماء ومصرع روجر الأنطاكى

- الأوضاع السياسية فى إمارتى الرها وأنطاكية .
- الصراع بين إمارة الرها والأراتقة وموقعة حران .
- إضطهاد بلدوين دى بورج للأرمن فى إمارة الرها .
- الصراع حول حلب .
- معركة سهل الدماء يوم ٢٨ يونية ١١١٩ ومصرع روجر الأنطاكى .
- موازين القوى بين المسلمين والصليبيين بعد معركة سهل الدماء .
- تمزق إمارة الأراتقة بعد موت إيلغازى .

٤١ – معركة سهل الدماء ومصرع روجر الأنطاكى

رأينا فى الصفحات السابقة كيف لعب العامل الدينى دور الإداة لتنفيذ أطماع أمراء أوروبا فى تأسيس إمارات لهم فى المشرق على حساب الشعوب الإسلامية ، ولتحقيق أطماع المدن الإيطالية التجارية مثل بيزا وجنوه والبندقية فى الاستيلاء على التجارة بين الشرق والغرب من التجار المسلمين ؛ ولذلك رأينا أساطيل هذه المدن الإيطالية لاتنقطع عن المجىء إلى مدن الشام الساحلية حاملة جيوش « الحجاج » من المقاتلة ! لتعزيز قوة الأمراء الصليبيين فى حروبهم مع المسلمين وتغيير موازين القوى بين الجانبين لصالح القوى المسيحية .

وقد كان من حسن حظ الصليبيين أن تأسست فى شمال الشام والعراق إمارتا أنطاكية والرها الصليبيتان على يدى بوهيمند وبلدوين البولونى . إذ يعترف المؤرخون الأوروبيون بأنه لو استمر الصليبيون فى زحفهم على الشام وبيت المقدس ، دون حماية كافية من الخلف ، لتمكن السلاجقة المسلمون من ملاحقتهم ، واسترداد كل ما أخذوه من مدن فى الشام والعراق ، ولحصروا الجموع الصليبية فى القدس ، وقضوا عليهم فى النهاية !

وقد كان على هاتين الإمارتين الصليبيتين أن تدفعا ثمن التصدى للقوى الإسلامية . فقد رأينا كيف سقط بوهيمند النورماندى ، أمير أنطاكية ، أسيرا فى يد الملك غازى فى أوائل أغسطس ١١٠٠ ، وظل فى الأسر مدة ثلاث سنوات ، حتى أطلق سراحه بفدية ضخمة . وسرعان ما لحقه أمير الرها بلدوين الثانى . الذى تولى الإمارة بعد أن دعى سلفه بولدوين البولونى لتولى عرش مملكة بيت المقدس فى سنة ١١٠٠ .

وكانت إمارة الرها قد امتدت على ضفتى الفرات ، ولكنها ظلت تعانى من عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتكسبها المناعة ، كما تعرضت لخطر داهم تمثل فى المسلمين الذين تركزوا فى مدن بأكملها داخل تلك الإمارة ، مثل سروج ، فضلا عن موقعها المحصور بين سلاجقة حلب وسلاجقة فارس .

وعندما تولى بلدوين دى بورج إمارة الرها ، منح ابن عمته جوسلين دى كورتناى حكم جميع أراضى الإمارة غربى الفرات ، بما فيها حصن تل باشر ودلوك وعينتاب . فأصبح جوسلين

شريكه فى حكم هذه الإمارة . كما أقطع سروج ، وهى المدينة الثانية فى الإمارة إلى فارس اسمه فوشيه دى شارتر . وسرعان ما بدأت المتاعب مع الأراتقة .

ذلك أن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا ، لم يلبث أن انتهز فرصة تولى بلدوين الثانى حكم الرها ، فسارع إلى مهاجمة سروج . وقد تصدى له بلدوين وفوشيه دى شارتر ، ولكن الصليبيين منوا بهزيمة ساحقة ، وقتل فوشيه فى المعركة ، واستولى المسلمون على سروج ، ولم يبق فى يد الصليبيين سوى قلعتها . وتمكن بلدوين دى بورج من العودة إلى الرها ، حيث اتجه إلى أنطاكية لطلب المعونة من تنكرد . وبفضل تحالف جيشى الرها وأنطاكية تمكن بلدوين من إلحاق الهزيمة بجيش الأراتقه فى أول فبراير ١١٠١ ودخل سروج ، وعاقب أهلها المسلمين لمساندتهم الأراتقة . ثم أخذ يغير على المدن والقلاع الاسلامية فى إقليم الجزيرة ، منتهزًا إنحلال السلطة المركزية فى سلطنة سلاجقة فارس وسقوط السلطة فى يد الأتابكة والحكام المحليين ، الذين انشغلوا بالقتال فيما بينهم عن الصليبيين فى الرها وغير الرها !

وسرعان ما طمع فى الاستيلاء على حران ، إلى الجنوب الشرقى من الرها ، بالاشتراك مع أنطاكية ، فهاجمها فى ربيع سنة ١١٠٤ على رأس جيش يضم تابعه جوسلين دى كورتناى صاحب تل باشر ، وبوهيمند أمير أنطاكية بعد إطلاق سراحه ، وابن أخته تنكرد ، فضلا عن عدد كبير من الأمراء الصليبيين .

على أن هذا الهجوم على حران ألف بين خصمين هما جكرمش أتابك الموصل ، وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا . وفى القتال الذى دار على ضفاف نهر البليخ فى ٧ مايو ١١٠٤ ، أبيد جيش الرها تقريبا ، وقتل المسلمون من الصليبيين عشرة آلاف ما بين راجل وفارس ! وسقط كل من بلدوين دى بورج وتابعه جوسلين دى كورتناى فى الأسر ، وتقاسم كل من جكرمش وسقمان بن أرتق الغنيمة فأخذ جكرمش بلدوين دى بورج ، وأخذ سقمان جوسلين دى كورتناى !

ومن الطريف أن أحد كبار السلاجقة سقط فى أسر بوهيمند ، وقد عرض جكرمش على بوهيمند مبادلة ذلك الأمير ببلدوين دى بورج ، أو دفع مبلغ ١٥ ألف دينار كفدية للأمير السلجوقى . ولكن بوهيمند فضل الحصول على المال لحاجته إليه ، وبذلك بقى بلدوين دى بورج أمير الرها فى الأسر !

على أن جوسلين دى كورتناى لم يلبث أن حصل على حريته مقابل عشرين ألف دينار ،

وسارع إلى تحرير سيده بلدوين دى بورج مقابل فدية قدرها سبعون ألف دينار ، دفع مقدمها وهو ثلاثون ألف دينار ، وقد عاد بلدوين دى بورج إلى إمارة الرها ، ولكن تنكرد الذى تولى حكمها أثناء غيابه لمدة أربع سنوات رفض تسليمها له ، فاضطر إلى استرداد إمارته بالقوة بمساعدة جوسلين دى كورتناى والأرمن فى إمارة كيسوم فى ١٨ سبتمبر ١١٠٨ .

على أن بلدوين دى بورج لم يحفظ للأرمن المسيحيين فى الرها ، مساعدة زملائهم فى كيسوم له ! فلم يتورع عن إذلالهم واضطهادهم وسلبهم ممتلكاتهم والاعتداء على حرياتهم الدينية وغير الدينية ، حتى لقد سمل عينى الأسقف الأرمنى ! وأخذ يعتمد فى حكم الرها على رجاله من الصليبيين ، الأمر الذى جعل الأرمن يرون فى الصليبيين أعداء يفوقون الأتراك المسلمين فى تطرفهم – كما يقول جروسيه – ! ولذلك لم يكن غريبًا حين قام مودود أتابك الموصل . بحملته السالفة الذكر على الصليبيين فى سنة ١١١٢ ، أن عرض عليه الأرمن استعدادهم لتسليم الرها ! وقد عرضهم ذلك لانتقام بلدوين دى بورج ، إذ طرد من الرها جميع أبنائها الأرمن المسيحيين ! بعد أن أمر بذبح وإحراق عدد غير قليل منهم ! ثم سمح بعودتهم لما أحس به من الخسارة !

ومن الغريب أن بلدوين دى بورج لم يلبث أن انقلب على جوسلين دى كورتناى ، صاحب الفضل فى إطلاق سراحه ! فقبض عليه وحبسه . ثم أطلق سراحه وعزله عن حكم تل باشر ، فلجأ إلى بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، الذى أقطعه إمارة طبرية والجليل .

ولم يلبث بلدوين دى بورج أن توّج ملكًا على القدس فى ١٤ إبريل ١١١٨ بعد وفاة بلدوين الأول ، واتخذ لقب بلدوين الثانى . وبذلك خلا عرش إمارة الرها ، وقد عين عليه بلدوين جوسلين دى كورتناى نظرا لأنه لم يسئ إليه بعد طرده ! وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ كل من مملكة بيت المقدس وإمارة الرها .

فى ذلك الحين كان الخطر على الإمارات الصليبية يأتى من الأراتقة فى حصن كيفا وآمد وماردين وخرتبرت وميافارقين ، أى إلى الشرق والشمال الشرقى من إمارة الرها ، وكان على رأسها إيلغازى الأرتقى ، ثم من دمشق التى كانت تحت حكم طغتكين ، ومن الفاطميين فى مصر وعسقلان وصور . أما حلب فان أحوالها كانت قد اختلت بعد وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، ومقتل ابنه ألب أرسلان فى سبتمبر سنة ١١١٤ ، ولم تكد تحل سنة ١١١٨ حتى أصبحت تحت رحمة النورمان فى أنطاكية ، وفى سنة ١١١٩ استولى روجر الأنطاكى ، الذى خلف تنكرد فى حكم أنطاكية ، على بزاعة . فأصبحت حلب محاصرة من نواح ثلاث .

وعندئذ اتفق الأراتقة والدماشقة على إنقاذ حلب ، خصوصا بعد أن طلب الحلبيون من إيلغازى الأرتقى حمايتهم من روجر الأنطاكى، فتكون حلف إسلامى من العاهلين ، إنضم إليه بعض الأمراء مثل أسامة بن المبارك الكلابى ، وطغان أرسلان ، وأبى العساكر سلطان بن منقذ ، أمير شيزر الذى أعلن استعداده لمهاجمة إمارة أنطاكية من الجنوب . وبلغت قوة الجيش الإسلامى أربعين ألفا تحت قيادة إيلغازى الذى إتجه بجيشه إلى الفرات أوّلا ، فهاجم تل باشر والرها ، وعبر الفرات إلى قنسرين لإنقاذ حلب .

ولما كان روجر الأنطاكى متزوجًا من أخت بلدوين الثانى ، كما أن أخته كانت متزوجة من جوسلين دى كورتناى ، فلذلك تكون بفضل هذه المصاهرة حلف من أنطاكية والرها وبيت المقدس ، ولذلك حين طلب روجر الأنطاكى من بلدوين الثانى ملك بيت المقدس إنجاده ، أرسل إليه بلدوين يخبره بأنه قادم على وجه السرعة ، وخرج على رأس جيش بيت المقدس ومعه صليب الصلبوت قاصدا الشمال !

على أن روجر الأنطاكى تعجل لقاء الجيش الإسلامى دون أن ينتظر وصول الإمدادات الصليبية ، فخرج يوم ٢٠ يونية ١١١٩ إلى جسر الحديد على نهر العاصى قرب أرتاح قاصدًا مفاجأة المسلمين ، ولكن إيلغازى تقدم من قنسرين للقائه فى أواخر يونية ، ودارت معركة كبيرة يوم ٢٨ يونية ، انتهت بإبادة الجيش الصليبى إبادة تامة – أو على حدّ قول المؤرخين – « أوّلا عن آخر ! » ، وسقط روجر الأنطاكى نفسه قتيلا ، وبلغ من كثرة عدد القتلى الصليبيين أن أطلقوا على السهل الذى دارت فيه المعركة اسم « سهل الدماء » ! .

وقد كانت الكارثة التى أصابت أنطاكية الصليبية بسبب هذه الهزيمة كارثة فادحة ؛ إذ أصبحت هذه الإمارة التى تعد الباب الشمالى للأملاك الصليبية فى الشام فجأة بلا أمير ولا فرسان ولا جيش ! ويذكر ابن العديم أنه لو أسرع إيلغازى إلى أنطاكية لما امتنعت عليه ! .

على أن إيلغازى اتجه مع طغتكين أتابك دمشق لمحاصرة الأثارب ، فاستوليا عليها فى أغسطس ١١١٩ ، ثم اتجها إلى زردنا فسقطت فى أيديهما بعد مقاومة عنيفة . وفى ١٤ أغسطس ١١١٩ دارت معركة بين كل من إيلغازى وطغتكين من جهة وبلدوين الثانى من جهة أخرى ، انتهت نهاية غير حاسمة . ولكن فى أواخر ١١٢٠ ، أخذ إيلغازى يجدد حملاته ضد الصليبيين فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر وكيسوم ، ولم تفلح المقاومة الشديدة التى بذلها جوسلين دى كورتناى أمير الرها . ثم غادر إيلغازى إقليم سميساط وتل باشر واستولى على عزاز من إمارة الرها .

على أن كل هذا النشاط الإسلامى كان – كما رأينا – محدودًا ويتخذ شكل إغارات وحملات ، وكرّ وفر ، ولايشكل حركة تحرير كبرى لطرد الصليبيين كما سيحدث فيما بعد . ولذلك ظلت موازين القوى بين المسلمين والصليبيين دون تغيير كثير . فالصليبيون يحتلون أجزاء متفرقة من البلاد لاتربط بينها رابطة وتفصل بينها إمارات ومدن إسلامية . والمسلمون يسيطرون على الإمارات التى تحت أيديهم ، ويتعاملون مع الصليبيين معاملة الند للند ، ويلحقون بهم الخسائر ويشنون عليهم الإغارات ويأسرون ملوكهم ثم يفرجون عنهم مقابل فدية ! ويحررون بعض المدن الإسلامية من يد الصليبيين ، ثم لايلبث أن يستردها الصليبيون عند ما تتغير أوضاع العلاقات بين الإمارات الإسلامية من التحالف إلى التنازع والتحارب . أو يتغير الحكام بموت أحدهم أو مصرعه على يد خصومه !

وقد خدمت الظروف الصليبيين فى حروبهم مع إيلغازى . فقد توفى فى أوائل نوفمبر ١١٢٢ ، فذهبت ميافارقين ، أى الجزء الشمالى من ديار بكر إلى ابنه شمس الدولة سليمان ، وذهبت ماردين والجزء الجنوبى من ديار بكر إلى ابنه الثانى دمرداش ، واحتفظ بلك بن بهرام الأرتقى ، وهو ابن أخ إيلغازى ، بمنطقة خرتبرت فى أقصى الشمال ، وأضاف إليها حران فى الجنوب . وآلت حلب إلى ابن أخ آخر للأمير إيلغازى هو بدر الدولة سليمان . وبذلك تمزقت إمارة الأراتقة .

وكما هى العادة من عدم الاستقرار فى علاقات القوى بين المسلمين والصليبيين فى الحروب الصليبية فإن الصليبيين لم يستفيدوا طويلا من هذا التمزق فى إمارة الأراتقة ؛ كما سوف نرى ! .

٤٢ – سقوط ملك بيت المقدس فى الأسر

- أبطال المسلمين فى الحروب الصليبية .
- ظهور بلك بن بهرام الأرتقى .
- سقوط جوسلين دى كورتناى فى أسربلك فى ١٣ سبتمبر ١١٢٢ م .
- سقوط بلدوين الثانى ملك بيت المقدس فى أسربلك فى ١٨ أبريل ١١٢٣
- هزيمة الجيش الفاطمى فى سهل عسقلان فى ٢٩ مايو ١١٢٣ .
- استيلاء بلك الأرتقى على حران وحلب وهجومه على أنطاكية .
- هرب جوسلين من الأسر.
- مقتل بلك الأرتقى يوم ٦ مايو ١١٢٤ .
- إطلاق سراح بلدوين الثانى فى أواخر يونية ١١٢٤ .
- ظهور أقسنقر البرسقى ، أتابك الموصل ، وضمه حلب .
- الصراع بين أقسنقر والصليبيين .
- مصرع أقسنقر بيد الباطنية فى ٢٦ نوفمبر ١١٢٦ .
- ظهور الأمير غازى بن الدانشمند أمير ملطية .
- معركة سهل عين زربة فى فبراير ١١٣٠ ومصرع بوهيمند الثانى .

٤٢ - سقوط ملك بيت المقدس فى الأسر

أفرزت الحروب الصليبية أبطالاً إسلاميين حملوا علم الجهاد ضدّ الصليبيين ، وألحقوا بهم الهزائم ، وحققوا الانتصارات ، وأبادوا جيوشًا ، وأسروا ملوكاً . ومرّوا فى تاريخ الحروب الصليبية سريعًا كما تمرّ الشهب . فقد مرّ بنا من هؤلاء الأبطال ياغى سيان ، بطل صمود أنطاكية الذى أبقى الصليبيين أمامها سبعة أشهر ! . وكربوغا أتابك الموصل ، وبطل حصار أنطاكية بعد أن استولى عليها الصليبيون . وغازى كمشتكين بن الدانشمند ، الذى أسر الأمير الصليبى بوهيمند النورماندى صاحب أنطاكية ، وقلج أرسلان ، سلطان سلاجقة الروم ، وبطل التحالف الإسلامى الذى أباد الحملة الصليبية الثانية . وشرف المعالى ابن الوزير الأفضل الفاطمى ، وبطل معركة الرملة الثانية ١١٠٢ . وفخر الدين بن عمار ، بطل صمود طرابلس فى وجه الصليبيين مدّة ست سنوات ! . وإيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وبطل معركة سهل الدماء التى قتل فيها روجر الأنطاكى . ومودود أتابك الموصل ، بطل الجهاد الدينى وبطل معركة جسر الصنبرة . وجكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين ، اللذان أسرا كلاً من بولدوين دى بورج أمير الرها ، وجوسلين دى كورتناى أمير تل باشر . وغير هؤلاء من الأبطال الإسلاميين الذين لمعوا فى سماء الحروب الصليبية .

وقد رأينا كيف تمزقت إمارة الأراتقة بعد موت إيلغازى ، وتنفس الصليبيون الصعداء . ولكن سرعان ما برزت شخصية إسلامية أخرى هى شخصية بلك بن بهرام الأرتقى ، صاحب خرتبرت وحران ، لتحمل علم الجهاد ضدّ الصليبيين ، وقد نال بلك الأرتقى من الفخر ما لم ينله أمير إسلامى آخر ؛ إذ سقط فى يده أميران من أمراء الإمارات الصليبية الأربعة (بيت المقدس ، أنطاكية ، الرها ، طرابلس) .

وكان جوسلين دى كورتناى Josselin de Courtnay قد تولى إمارة الرها بعد انتخاب بلدوين دى بورج ملكًا على بيت المقدس سنة ١١١٨ ، على أن يكون تابعًا للأخير فى حكم هذه الإمارة . وسرعان ما نشط لمهاجمة المسلمين فى الجزيرة ، فتصدى له بلك الأرتقى ، ودارت معارك حامية بين الجانبين تغلبت فيها كفّة الصليبيين فى البداية ، ولكن هذا التفوّق انتهى

حين سقط جوسلين أسيرًا فى يد بلك يوم ١٣ سبتمبر ١١٢٢ ، فبدأت الدائرة تدور على الصليبيين . ويقول ابن الأثير إن بلك وضع جوسلين فى جلد جمل وخيط عليه ، وطلب منه أن يسلم الرها ، ولكن جوسلين رفض ، وعرض فداء نفسه بفدية طائلة ، ولكن بلك رفض الفدية ، وحمله إلى قلعة خرتبرت فى أقصى الشمال ، ومعه ابن خالته وليم وجماعة من فرسانه المشهورين .

ولم يلبث بلدوين الثانى ، ملك بيت المقدس ، أن تبع جوسلين فى الأسر ، حين عبأ جيشه لإطلاق سراحه ، ولكن بلك بن بهرام كان له بالمرصاد ، فقد تربّص له عند موضع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجة ، وانقض عليه بجيشه ، فسقط بلدوين الثانى أيضًا فى الأسر فى ١٨ ابريل ١١٢٣ ، وحمله بلك إلى قلعة خرتبرت « ليأتنس به جوسلين فى وحدته » حسب قول بعض المؤرخين ! .

وعلى هذا النحو أصبح فى يد بلك الأرتقى نصف ملوك الصليبيين ! . وقد انتهزت الدولة الفاطمية الفرصة لمعاودة الهجوم على الصليبيين ، فحشد الفاطميون فى مايو ١١٢٣ حملةً كبيرةً فى عسقلان اتجهت لحصار يافا ، بينما خرج الأسطول الفاطمى لمهاجمتها من البحر ، وأصبحت مملكة بيت المقدس مهدّدة .

ويقول المؤرخ وليم روبسون ، نقلاً عن كتّاب الحوليات الصليبيين ، إن سكان القدس المسيحيين شعروا بأن ما جرى يعتبر علامةً على غضب السماء عليهم ، فعمدوا إلى الصلاة والصيام « حتى امتنعت الأمهات عن إرضاع أطفالهن » ! . ودقت نواقيس أورشليم معلنةً الحرب ، وخرج جيش القدس وعلى رأسه يوستاش جرنييه Eustache Grenier أمير صيدا وقيسارية ، الذى اختير للوصاية على مملكة بيت المقدس ، وكان الجيش يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل ، ويتقدمه صليب الصلبوت – أى الصليب الأصلى .

وتقابل الجيش الصليبى مع الجيش المصرى فى سهل عسقلان ، وبدأت المعركة على الفور . وسرعان ما أحاط المصريون الذين بلغ عددهم وفقًا للمصادر الصليبية أربعين ألفًا ! بالجيش الصليبى . ويبدو أن اليأس دفع الصليبيين إلى الاستبسال ، بينما دفعت الكثرة العددية الفاطميين إلى الاستهتار ، لأن المعركة انتهت بانتصار الصليبيين فى ٢٩ مايو ١١٢٣ ! .

على أن كتّاب الحوليات الصليبيين يسوقون سببًا غريبًا للهزيمة . فيذكرون أنه فى الوقت الذى بدت هزيمة الصليبيين فيه مؤكدة ، نزلت صاعقة من السماء على الجيش الإسلامى ، فاعتبره الصليبيون معجزةً من السماء ، بينما اعتبره المسلمون ، الذين لم يكونوا يقلّون عن الصليبيين إيمانًا

بالخرافات ، علامة على الغضب ، فتملكهم الرعب ، وفقدوا الشجاعة على القتال ، فأصيبوا بالهزيمة !.

على أن بلك بن بهرام الأرتقى كان فى ذلك الحين يحقق الانتصارات على الصليبيين فى الشمال . ذلك أن وقوع ملكين صليبيين فى قبضته قد جعله يحسّ بقدرته على توحيد ملك الأراتقة من جديد ، فاستولى على حران ، وأعقبها بحلب التى انتزعها من ابن عمه سليمان عقابًا له على تسليمه قلعة الأثارب إلى الصليبيين ، ومن هذا المركز الجديد ، شرع فى مهاجمة أنطاكية ، فاستولى على البارة ، غربى معرة النعمان ، واتجه إلى حصار كفر طاب فى أغسطس ١١٢٣ .

على أنه فى ذلك الحين كانت تجرى محاولة من جانب الأرمن لإطلاق سراح جوسلين دى كورتناى الذى كان متزوجًا من أميرة أرمينية . وكانت خرتبرت تقع فى منطقة أرمينية . ويقدر كتّاب الحوليات الصليبيون عدد الذين اشتركوا فى المحاولة بخمسين أرمينيا . وقد أفلحت محاولتهم فى فك أسر جوسلين ، ولكنها فشلت فى إطلاق سراح بلدوين الثانى . فقد عاد بلك إلى خرتبرت فجأةً ، وقبض على الذين اشتركوا فى المحاولة ، ونكل بهم تنكيلاً ، وبقى بلدوين الثانى فى الأسر ، حيث نقله بلك إلى قلعة حران ، ثم قلعة حلب .

وقد سارع جوسلين عقب فراره إلى القدس لطلب النجدة ، ولكنها كانت تتعرض فى ذلك الحين لهجوم المصريين . ولذلك برغم أن بقية الأسرى فى خرتبرت «حلفوه على ألاّ يغير ثيابه ، ولا يأكل لحمًا ، ولا يشرب إلاّ وقت القربان ، حتى يجمع الجموع الفرنجية ويصل بهم إلى خرتبرت لتخليصهم» — إلاّ أن أحدًا فى القدس لم يهتم بتخليص بلدوين الثانى ، فقد انصرف اهتمامهم لمواجهة الخطر المصرى القادم من الخلافة الفاطمية .

وفى خلال المدة التالية انصرف جوسلين إلى الانتقام لأسره بالتخريب والتدمير فى شمال الشام وإقليم حلب بوجه خاص ، حتى اضطر بلك إلى العودة إلى حلب فى أوائل ١١٢٤ ، وعقد تحالفًا مع طغتكين أتابك دمشق ، ثم هاجم منبج التى كانت فى يد حسان البعلبكى وحاصرها وقبض على صاحبها . وقد سارع الصليبيون إلى مهاجمته حتى لا يقوى شأنه بالاستيلاء عليها ، ولكنه هزمهم وطردهم ، وعاد إلى منبج لاستئناف الحصار ، ولكنه أصيب بسهم طائش قتله يوم ٦ مايو ١١٢٤ . وبذلك فقد النضال الإسلامى ضدّ الصليبيين بطلاً من أهم أبطاله .

وقد آلت حلب بعد وفاة بلك إلى دمرداش بن إيلغازى ، الذى يصفه ابن الأثير بأنه «كان رجلاً يحبّ الدعة والرفاهية» !. وقد قبل إطلاق سراح بلدوين الثانى مقابل فدية ضخمة تقدر

بثمانين ألف دينار، يُدفع منها عشرون ألفًا مقدمًا، وبشرط أن يتعهد، بوصفه وصيًّا على إمارة أنطاكية، بإعادة عزاز والأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب، إلى إمارة حلب. وقد أطلق سراح بلدوين الثانى فى أواخر يونية ١١٢٤، بعد أن ترك عددًا من الرهائن فى حلب، منها ابنته نفسه، وكانت طفلةً فى الخامسة من عمرها، وجوسلين الثانى بن جوسلين دى كورتناى أمير الرها، وعشرةً من زهرة شباب الصليبيين.

على أن بطرق أنطاكية برنارد دى فالنس رفض ردّ المدن والقلاع السابقة للمسلمين؛ لأن ملك بيت المقدس، بوصفه وصيًّا على إمارة أنطاكية، كان ينبغى أن يرعى الأمانة ولا يفرط فى أملاكها. وعندئذ كتب بلدوين الثانى إلى صاحب حلب يستعطفه أن يعفيه من شرط تسليم هذه الأملاك، ولكن دمرداش بن إيلغازى رفض، فكوّن بلدوين جبهةً ضدّه، راعى فيها التفرقة بين صفوف المسلمين، بضرب العرب بالأتراك، والشيعة بالسنة، وأشرك فيها دبيس بن صدقه الشيعى وبنو مزيد وسلطان شاه بن رضوان السلجوقى الذى عزله الأراتقة من ملكه فى حلب. وفرض الحصار على حلب بينما كان دمرداش فى ماردين. ولكن أهالى حلب استنجدوا بنجم إسلامى بازغ جديد هو اقسنقر البرسقى، أتابك الموصل، فأسرع بتكوين حلف إسلامى من دمشق وحمص، ولم يكد يظهر أمام حلب، حتى انفض عن بلدوين الثانى حلفاؤه، ودخل آقسنقر حلب حيث جمع بينها وبين ملكه فى الموصل، فصار على هذا النحو خطرًا على الصليبيين فى شمال الشام.

وسرعان ما برز آقسنقر البرسقى، وبدا فى صورة زعيم القوى الإسلامية فى بلاد الشام، بعد أن اعترف له كلٌّ من طغتكين أتابك دمشق وخيرخان بن قراجا بالسيادة والزعامة، كما تمتع بتأييد السلطان محمود السلجوقى.

وفى شهر مارس زار شيزر حيث سلّمه أميرها سلطان بن منقذ رهائن الصليبيين وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثانى وجوسلين الصغير ولى عهد الرها. وشرع بعد ذلك فى مهاجمة إمارة أنطاكية، فحاصر كفر طاب وانتزعها من الصليبيين فى أوائل مايو ١١٢٥، ثم شرع فى حصار زردنا بالاشتراك مع طغتكين وخيرخان، وانتقل منها إلى حصار عزاز.

على أن بلدوين الثانى عبّأ جميع القوى الصليبية فى الشام لمقاومة هذا الوضع الخطير الذى أصبح آقسنقر البرسقى يمثله بحلفه. فزحف ومعه بونز على رأس جيش طرابلس، وجوسلين دى كورتناى على رأس جيش الرها. وتقابل مع البرسقى عند عزاز فى أواخر مايو وأوائل يونية

١١٢٥ ، وتمكن من إلحاق الهزيمة به . وفى المفاوضات التى دارت مع البرسقى تم الاتفاق على تسليم الرهائن لبلدوين الثانى ، وأن يحتفظ المسلمون بكفر طاب .

على أن استيلاء أمير طرابلس الصليبية على قلعة رفنية بمساعدة بلدوين الثانى فى مارس ١١٢٦ أشعل النزاع مرةً أخرى مع آقسنقر البرسقى ، فبالإضافة إلى الموقع الهام الذى كانت تتمتع به رفنية بحكم إشرافها على أطراف وادى نهر العاصى فيما بين حماة وحمص ، فقد استنجد حاكمها شمس الخواص بآقسنقر أتابك حلب والموصل . وعند ذلك خرج البرسقى من الموصل إلى بلاد الشام عن طريق منبج ، فأرسل ابنه عز الدين مسعود إلى حمص لإبعاد الصليبيين عنها ، واتجه بنفسه إلى إمارة أنطاكية ، حيث حاصر الأثارب واستولى على بعض أطرافها . وقد جرى ذلك بينما كان هناك أسطول مصرى يهاجم موانى فلسطين الصليبية ، وهنا عرض بلدوين الثانى على آقسنقر البرسقى إعادة رفنية مقابل الانسحاب والعدول عن حصار الأثارب . فقبل البرسقى ذلك ، وتجددت الهدنة بين الفريقين ، وعاد آقسنقر إلى الموصل بعد أن قام ببعض الإغارات المحلية فى مناطق سرمين ودانيث . ولكنه قتل يوم عودته فى ٢٦ نوفمبر ١١٢٦ بيد أحد الباطنية !. وبذلك انطفأ نجم آخر من نجوم الجهاد الإسلامى .

على أن التربة الإسلامية كانت قادرة على تقديم المزيد من الأبطال ، ففى ذلك الحين برز الخطر على القوى الصليبية من ناحية بنى الدنشمند ، تحت قيادة الأمير غازى بن الدنشمند أمير ملطية ، وقد تعرضت أنطاكية بالذات لهذا الخطر .

وكان عرش أنطاكية قد انتقل إلى بوهيمند الصغير بعد وفاة أبيه بوهيمند الكبير . وعلى الرغم من تعاقب كل من تنكرد ثم روجر الأنطاكى ثم بلدوين الثانى فى الوصاية على أنطاكية ، إلاّ أن أحدًا منهم لم يعمل على اغتصاب العرش لنفسه ، برغم وجود بوهيمند الصغير فى إيطاليا فى كنف أمه . فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره خرج من أوترانتو على رأس أسطول من أربع وعشرين سفينة وتسلم أمور إمارته سنة ١١٢٦ . وأراد أن يثبت جدارته ، فشرع فى مهاجمة المسلمين ، حتى وصفه أسامة بن منقذ بأن مجيئه كان «بليةً عظيمةً» على المسلمين !. وتمكن بالفعل من استرداد كفر طاب التى سبق أن انتزعها آقسنقر فى العام السابق . كما استولى على حصن القدموس سنة ١١٢٩ ، واتجهت أطماعه للاستيلاء على حلب ، التى ساءت أحوالها بعد مقتل أقسنقر البرسقى ، وما لبث أن اصطدم بالأمير إيلغازى بن الدانشمند ، صاحب ملطية حول إحدى الإمارات الأرمينية فى كيليكيا . وجاء اللقاء بين الجيشين فى سهل عين زربة ، حيث دارت فى فبراير ١١٣٠

معركة هائلة ، انتصر فيها إيلغازى على الجيش الصليبى ، وسقط بوهيمند الثانى نفسه قتيلاً ، ولم يكن قد مضى على توليه إمارة أنطاكية سوى ثلاث سنوات وثلاثة أشهر . وبذلك فقد الصليبيون أميرًا كان يبشر بأمل كبير لهم فى القتال ضد المسلمين ، حتى اعتبروا مصرعه كارثةً كبيرة !.

على أن بلدوين الثانى نفسه مالبث أن توفى فى العام التالى يوم ٢١ أغسطس ١١٣١ ، وخلفه فى ملك بيت المقدس فولك الأنجوى ، الذى رشحه لويس السادس ملك فرنسا فى حياة بلدوين الثانى وبناء على رغبته ليكون وليًّا للعهد ، وفى نفس العام مات جوسلين دى كورتناى أمير الرها ، وخلفه ابنه جوسلين الثانى ، الذى كان يفتقر إلى شجاعة أبيه ، وذلك فى الوقت الذى كان يبزغ فى الشرق نجم عماد الدين زنكى الذى جمع بين حكم الموصل وحلب ، وبذلك أخذ المسرح السياسى والعسكرى فى الشام والعراق يتهيأ لعصر صلاح الدين .

٤٣ - عماد الدين زنكى والصليبيون

- ظهور عماد الدين زنكى .
- توسع عماد الدين زنكى فى العراق والشام .
- عماد الدين زنكى وأنطاكية .
- حروب الوراثة السلجوقية .
- غزو سيف الدين سوار لإمارة أنطاكية فى ١١٣٦ م .
- غزو برواش لإمارة طرابلس فى أوائل ١١٣٧ ومصرع بونز .
- إنتصار عماد الدين زنكى فى معركة بعرين ومحاصرته فولك ملك بيت المقدس .
- نشأة الحلف البيزنطى الصليبى .
- انتهاء حصار شيزر وانتهاء الحملة البيزنطية فى مايو ١١٣٨ .
- إسترداد زنكى فتوحات الحملة البيزنطية الصليبية .

٤٣ - عماد الدين زنكى والصليبيون

منذ أن استقرت أقدام الصليبيين فى المشرق العربى أدرك قادتهم أن الخطر الماحق عليهم سوف يأتى من مصدرين : الأول وحدة مصر والشام ، والثانى وحدة الشام والعراق . ولذلك اتجهت سياستهم إلى الحيلولة دائماً أبداً دون حدوث مثل هذه الوحدة . وكانت نظرتهم فى هذا الشأن ثاقبةً ، لأن القضاء عليهم سوف يأتى من هذه الوحدة كما سنرى .

وكنا قد رأينا كيف وحد القائد الإسلامى آقسنقر البرسقى ، أتابك الموصلى ، بين الموصل وحلب تحت حكمه ، فكان ذلك نواةً لتوحيد قوى المسلمين فى أطراف العراق والشام ، وتكوين الجبهة الإسلامية الموحدة مع مصر فيما بعد . ولكن البرسقى قتل يوم ٢٦ نوفمبر ١١٢٦ بيد أحد الباطنية ! ، بعد أن بدا فى صورة زعيم القوى الإسلامية ، فانتهت هذه الإرهاصة ، ولكنها وضعت الأساس للوحدة .

ذلك أن حلب لم تلبث أن وقعت فى حالة من الفوضى الشديدة بعد البرسقى ، مما استفاد منه الصليبيون فائدةً كبيرة ، فوجّه إليها كلٌّ من بوهيمند الثانى أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها الهجمات ، بل إن بلدوين الثانى ملك بيت المقدس هدّد دمشق ذاتها فى سنة ١١٢٩ . وكان ذلك مما دفع أهل حلب ، وقد شعروا بأن إمارتهم سوف تسقط فى أيدى الصليبيين ، إلى الاستنجاد بعماد الدين زنكى ، أتابك الموصل ، فأخذ المسرح السياسى والعسكرى فى الشام والعراق يتهيأ لعصر صلاح الدين !.

ذلك أن عماد الدين زنكى يعدّ من أكبر الأبطال الإسلاميين الذين اهتضموا تلك الحقيقة التى غابت عن القوى الإسلامية فى ذلك الحين بشكل يدعو إلى الأسف ، وهى أن اقتلاع جذور الكيان الصليبى من أرض المشرق العربى لن يتحقق إلا بوحدة القوى الإسلامية . ولما كانت مثل هذه الوحدة لا تتحقق فى ذلك العصر إلاّ بالقوة ، فلم يتردد عماد الدين زنكى فى اتباع أساليب القوة لتحقيق هذه الوحدة !.

وكان عماد الدين زنكى قد نشأ نشأةً عسكريةً على يد كاربوغا ، والى الموصل الذى حاصر أنطاكية حصاره المعروف فى بداية الحملات الصليبية ، وخاض أولى معاركه وهو لم يتجاوز

الخامسةَ عشرة من عمره ! . كما خاض المعارك ضد الصليبيين فى جيش مودود ، وذاع صيته لشجاعته النادرة ، حتى لُقّب بالشامى ! . ودخل فى خدمة أتابكة الموصل : جاولى ثم البرسقى ، حتى وصل إلى حكم البصرة ، وعندما خلا منصب أتابك الموصل بوفاة عز الدين مسعود بن البرسقى ، اختاره السلطان حاكمًا على الموصل سنة ١١٢٧ .

وسرعان ما نشط زنكى لتوحيد القوى الإسلامية بالسيف . فاستولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم اتجه للاستيلاء على حران ، التى كانت تتعرض لهجمات الصليبيين من الرها وسروج والبيرة ، وتمكن من دخولها ، وفرح أهلها لذلك وشعروا أن مدينتهم صارت فى يد أمينة . ثم اتجه إلى حلب ، فاستخلصها فى ١٨ يونية ١١٢٨ ، واستقبله أهلها بترحاب شديد ، فكما يقول ابن الأثير : «أظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى . ولولا أن الله منّ على المسلمين بولاية زنكى ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه» ! . وفى العام التالى ١١٢٩ منحه السلطان السلجوقى ولاية الجزيرة والشام .

وسرعان ما اتجه إلى الاستيلاء على بقية الشام ، متّبعًا فى ذلك الأساليب المكيافيلية ، فانقض على حماه واستولى عليها فى سبتمبر ١١٣٠ ، وباعها مقابل مبلغ كبير لصاحب حمص قيرخان ، ولم يكد الأخير يدفع المبلغ المتفق عليه ، حتى حبسه زنكى فى قلعة حلب ، واتجه للاستيلاء على حمص مثلما استولى على حماه . ولكن مقاومة حمص العنيدة عطلت مشروعاته الوحدوية فى شمال الشام .

على أن زنكى لم يوقف مشروعاته فى مجاهدة الصليبيين فقد كادت أنطاكية الصليبية تقع فى يده حينما طلبت الأميرة إليس ، ابنة بلدوين الثانى ، منه المساعدة للوصول إلى حكم أنطاكية . ولكن بلدوين أسرع إلى أنطاكية لإحباط المؤامرة . وقد ردّ زنكى على ذلك بمهاجمة الحصون التابعة لأنطاكية ، فهاجم الأثارب وحارم ومعرة مصرين . ويذكر ابن الأثير وابن واصل أن زنكى استولى على حصن الأثارب فعلاً فى سنة ١١٣٠ ، «وجعله دكًا ، وبقى إلى الآن خرابًا !

ولم تلبث حروب الوراثة السلجوقية أن صرفت عماد الدين زنكى عن ميدان الشام . ذلك أن وفاة السلطان محمود السلجوقى سنة ١١٣١ كان قد أعقبها انقسام خطير فى دولة السلاجقة : إذ تعرض ابنه داود ، الذى ورثه فى السلطنة ؛ لثورة أعمامه الثلاثة : سلجوق ومسعود وطغرل . وقد تورط زنكى مع مسعود ، ولكنه تعرض لهزائم شجعت أتابك دمشق إسماعيل بن بورى على مهاجمة أملاك زنكى فى الشام ، فحاصر حماه واستولى عليها قهرًا سنة ١١٣٣ ، كما تشجع

الصليبيون فهاجموا حلب ، وألحقوا الهزيمة بالأمير سوار ، نائب زنكى فى حلب ، فى موقعة قنسرين عام ١١٣٢ — ١١٣٣ . وبذلك أخذ البناء الذى أقامه زنكى يتداعى .

على أن انتهاء حرب الوراثة السجلوقية بانتصار السلطان مسعود ، ومصرع الخليفة العباسى المسترشد بالله على يد الباطنية فى نهاية أغسطس ١١٣٥ ، ثم تحسن العلاقات بين زنكى والخليفة المتقى بالله — أتاح الفرصة لزنكى للانصراف إلى ميدان الشام ، فأخذ منذ ربيع ١١٣٥ فى مهاجمة القلاع الصليبية شرقى نهر العاصى ، ونجح فى تلك السنة فى الاستيلاء على الأثارب ، وزردنا ، وتل أغدى ، ومعرة النعمان ، وكفر طاب .

وفى إبريل ١١٣٦ انتهز نائبه فى حلب ، سيف الدين سوار ، فرصة الاضطراب الذى كانت تعانيه إمارة أنطاكية ، وأراد الانتقام لهزيمة قنسرين ، فغزا أراضيها حتى وصل إلى اللاذقية ، وأغار فى هذه الغزوة على مائة قرية صليبية ، وعاد ومعه ما يزيد على سبعة آلاف أسير ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير ، ووصف بعض المؤرخين هذه الغزوة بأنها ليس لها نظير فى عنفها فى تاريخ تلك الإمارة منذ قيامها ! .

وقد شجعت هذه الهزائم التى لحقت بالصليبيين الدماشقة ، فغزا «بزواش» إمارة طرابلس الصليبية فى أوائل عام ١١٣٧ ، ودارت معركة كبيرة بين الدماشقة وبونز أمير طرابلس على مقربة من قلعة صنجيل ، ولقى فيها الصليبيون هزيمةً ساحقة ، وقتل بونز وأسر عدد كبير من أتباعه . وبذلك ساء موقف الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس .

ولم يلبث أن جاء دور الملك فولك ، ملك بيت المقدس ، ليتلقى هزيمةً قاسيةً على يد عماد الدين زنكى ، وكان هذا قد أراد ضم حمص فى سلسلة عملياته لتوحيد القوى الإسلامية بالقوة ، وأحس فولك أن نجاح زنكى فى ضم هذه الإمارة سوف يضيف إلى قوته الشىء الكثير ، فتقدم بجيشه ، ومعه ريموند الثانى أمير طرابلس الجديد ، لصد زنكى عند بعرين . ولكن زنكى فك الحصار عن حمص ، واتجه لملاقاة الصليبيين عند قلعة بعرين ، حيث دارت رحى معركة كبرى ، سقط فيها معظم الجيش الصليبى ما بين قتيل وأسير ، وتمكن الملك فولك من الفرار إلى قلعة بعرين بصعوبة . ولكن عماد الدين زنكى حاصره فيها ، مما أثار الفزع فى العالم المسيحى ، «فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكى إنْ أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج ، ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت ، وأن هِمّة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس» ! . على أن زنكى أبرم اتفاقًا

مع الملك فولك قبل بمقتضاه إطلاق سراحه وبقية الأسرى مقابل خمسين ألف دينار ، والاستيلاء على بعرين ، فضلاً عن المراكز التى سبق أن استولى عليها زنكى شرق نهر العاصى ، وهى زردنا ومعرة النعمان وطاب !.

فى ذلك الحين كان زنكى قد أصبح من الخطورة على القوى المسيحية ، بحيث أدّى إلى قيام حلف بين البيزنطيين والصليبيين ضدّه !. وكانت العلاقات بين الإمبراطور حنا كومنين والصليبيين فى تلك الأثناء قد ساءت حول أنطاكية إلى الحد الذى دعا «الإمبراطور إلى الخروج بجيشه لاستردادها فى يوليو ١١٣٧ !» أى فى الوقت الذى كان زنكى يحاصر فولك فى قلعة بعرين . وعند ذلك أدرك حنا كومنين أن تحطيم قوّة الصليبيين فى الشام ستكون وخيمة العاقبة على القسطنطينية ذاتها على المدى البعيد ، فجرت مفاوضات بين ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية والإمبراطور انتهت بالاعتراف بسيادة الإمبراطورية على أنطاكية ، على أن يحكمها الصليبيون نيابةً عن الإمبراطور ، ووافق الملك فولك على ذلك ليكسب ودّ البيزنطيين ومعونتهم ضدّ زنكى .

ولم يلبث هذا التحالف الجديد أن أدّى إلى اتفاق بين الصليبيين والبيزنطيين على إعداد حملة صليبية مشتركة فى الربيع التالى ، بهدف تحطيم قوّة زنكى فى حلب ، وإمارة بنى منقذ فى شيزر ، وانتزاع حمص من أتابكة دمشق ، وإقامة إمارة صليبية جديدة فى هذه الجهات ، يتولاها ريموندى بواتيه ، ويترك إمارة أنطاكية للإمبراطور البيزنطى !. ولإبقاء الاستعدادات لهذه الحملة سرًّا ، تمّ القبض فى أنطاكية على جميع التجار والرعايا المسلمين حتى لا تتسرب أخبار الاستعدادات الصليبية إلى زنكى .

وسرعان ما بدأ تنفيذ الخطة فى أواخر مارس ١١٣٨ ، حين جاء الإمبراطور حنا كومنين إلى أنطاكية فقد انضمت إليه قوات الصليبيين فى أنطاكية والرها ، وزحف الجميع متجهين إلى حلب ، بينما كان عماد الدين زنكى عند حمص يعمل لطرد الدماشقة منها !. وفى الطريق إلى حلب استولى الصليبيون على حصن بزاعا بين حلب ومنبج بعد قتال شديد ، وقد فقدوا بسبب ذلك من الوقت ما أتاح لعماد الدين الاحتياط والتأهب ، فقد أرسل قسماً من قواته للدفاع عن حلب تحت قيادة الأمير سيف الدين سوار ، وبذلك عجزت القوات المسيحية عن الاستيلاء عليها ، ولكنها استولت على الأثارب فى ٢١ إبريل ١١٣٨ ، واتجهت إلى معرة النعمان بعد أن تركت حاميةً ضعيفةً فى الأثارب ، فعاد سوار إليها واستردها !.

ولم تلبث القوات المسيحية أن استولت على كفر طاب فى ٢٧ إبريل ، التى كان عماد الدين

زنكى قد انتزعها من الصليبيين سنة ١١٣٥ ، ثم اتجهت إلى شيزر ، المدينة الإسلامية الكبرى التى كانت تسيطر على نهر العاصى ، وأخذت تشدّد عليها الهجوم منذ ٢٩ إبريل ١١٣٨ ، وعند ذلك قدم زنكى مسرعًا لنجدتها ، ونصب عسكره على نهر العاصى .

وفى هذا الموقع ظهرت مواهب عماد الدين زنكى الحربية من جوانبها المختلفة . فنظرًا لتفوّق قوات العدو من الناحية العددية ، فقد أثر عدم الاشتباك معها مباشرة ، وأخذ يشنّ عليها حرب الأعصاب ، مستغلاً معرفته بالخلافات بين البيزنطيين والصليبيين ، فكان يرسل إلى الإمبراطور البيزنطى يخوّفه من التحالف مع الصليبيين ، ويتنبأ له بانفضاضهم عنه ، ويرسل إلى الصليبيين يخوفهم من الإمبراطور كومنين ، ويقول لهم إنه إن ملك بالشام حصنًا واحدًا ، فسيملك بلادكم جميعًا !.

وقد نجحت خطة عماد الدين زنكى لحدّ كبير ، فقد عدل كلٌّ من أمير الرها وأمير أنطاكية عن الاشتراك مع الإمبراطور البيزنطى فى مهاجمة شيزر !. بينما أخذ ريموند يعيد حساباته فيما لو أصبح أميرًا على حلب وشيزر حسب الاتفاق ، وترك أنطاكية لحنا كومنين ، حيث سيصبح فى موقف متطرف على خط النار أمام المسلمين . بينما كره جوسلين الثانى أن يرى ريموند قريبًا منه فى حلب !. وعندما تبين حنا كومنين انسحاب الصليبيين ، قبِل ما عرضه عليه أبو العساكر سلطان صاحب شيزر من دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية ، فسحب قواته فى مايو ١١٣٨ . وكانت هذه نهاية الحملة البيزنطية الصليبية المشتركة .

وسرعان ما انقلب التحالف إلى عداء !. وبمعنى أدق ، عادت من جديد علاقات الخلاف والتخاصم بين البيزنطيين والصليبيين !. فقد أراد حنا كومنين معاقبة أنطاكية لموقفها السلبى من حصار شيزر ، فدخل المدينة على رأس جنوده مطالبًا ريمونددى بواتييه وجوسلين الثانى بتسليم قلعة أنطاكية ، بينما سيطر جنوده بالفعل على المدينة ، ولم يجد هؤلاء بدًّا من التآمر ضد الإمبراطور ، فحركا ثورةً شعبيةً عارمةً ضدّه ورجاله ، فى الوقت الذى سمع حنا كومنين بأن السلاجقة فى أسيا الصغرى قد غزوا قليقية ، وأغاروا على «أذنه» بإيحاء من عماد الدين زنكى ، فانسحب من أنطاكية عائداً إلى القسطنطينية لمواجهة الخطر الجديد !.

ولم تكد القوات المسيحية تنسحب من إقليم شيزر حتى استأنف عماد الدين زنكى جهاده ضدّ الصليبيين ، فاستولى على كفر طاب مرةً أخرى فى ٢١ مايو ١١٣٨ ، ثم استولى فى شهر سبتمبر على

حصن بزاعة ، ثم على الأثارب فى أوائل أكتوبر . وبذلك انهار كل ماكسبه التحالف البيزنطى الصليبى ! .

وسرعان ما اتجه عماد الدين زنكى إلى استكمال مشروعه الكبير فى توحيد قوى المسلمين فى الشام بالقوة . ولكن دمشق كانت فى ذلك الحين تقف عقبةً فى سبيل هذه الوحدة بتمسكها باستقلالها الذاتى ، ولم يدرك حكامها أن وحدة القوى العربية هى شرط تاريخى لطرد أى كيان غريب يدخل المنطقة ، فكان موقفهم مما عطّل مشروعات عماد الدين زنكى الوحدوية ، ولكنه لم يعطل مشروعات زنكى تجاه الصليبيين ؛ إذ ستسقط فى يديه أوّل إمارة صليبية أنشئت فى الشرق ، وهى إمارة الرها ! .

٤٤ – سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد المسلمين

- تحالف دمشق مع بيت المقدس وتجميد الجبهة الإسلامية .
- العداء بين ريموند دى بواتييه ، أمير أنطاكية ، وجوسلين الثانى أمير الرها .
- حصار زنكى للرها فى ٢٨ نوفمبر ١١٤٤ .
- سقوط إمارة الرها فى يد زنكى فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٤ .
- صدى سقوط إمارة الرها فى العالم الإسلامى .
- فتنة الموصل ١١٤٧ وأثرها فى خطة عماد الدين زنكى .
- توطين زنكى لليهود فى الرها .
- حصار زنكى لقلعة جعبر .
- اغتيال عماد الدين زنكى بيد أحد غلمانه فى ١٤ سبتمبر ١١٤٦ .
- غزو الصليبيين للرها بعد مقتل عماد الدين زنكى .
- استرداد نور الدين زنكى الرها فى ١١٤٦ واستباحتها .

٤٤ – سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد المسلمين

رأينا فى الصفحات السابقة كيف برز بطل من أبطال الإسلام ، هو عماد الدين زنكى ، على مسرح الصراع مع الصليبيين فى الشام ؛ وكيف جمع بين حكم الموصل وحلب ، فوحد بذلك بين العراق والشام ، واتجه لتوحيد القوى الإسلامية عن طريق القوة ، إيمانًا منه بأن الوحدة الإسلامية وحدها هى التى يمكن أن تخرج الصليبيين من الشام ، وبذلك بدأت صفحة جديدة فى الصراع بين العرب وأوروبا .

فى ذلك الحين كان عماد الدين زنكى قد تمكن من ضم جميع المناطق السورية الإسلامية ، بعد استيلائه على بعلبك عام ١١٣٩ ، فيما عدا دمشق ، وقد حاول ضمها بالأساليب الدبلوماسية والعسكرية فلم يوفق ، بل إن محاولاته لضمها عام ١١٤٠ أدت إلى نتيجة عكسية ، هى تحالف مُعين الدين أنر ، المسيطر على دمشق ، مع فولك ملك بيت المقدس ، ضدّ زنكى ، مما جمّد الموقف فى بلاد الشام ، وشلّ حركة زنكى إلى أبعد مدى .

على أن ظروف الصراع بين الصليبيين أنفسهم لم تلبث أن أخذت تعوّض عماد الدين زنكى عن تحالفهم مع دمشق ! . فنى ذلك الحين كان التنافس بين ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية ، وجوسلين الثانى أمير الرها ، قد تحول إلى عداء مكشوف خصوصًا بعد أن اختفت شخصية فولك ملك بيت المقدس بموته فى نوفمبر ١١٤٣ ، وخلفه ابنه الصغير القاصر بلدوين تحت وصاية أمه مليزاند . وكانت شخصية ملك بيت المقدس هى التى فرضت من قبل التعاون على الأميرين كما رأينا .

عندئذ نهض عماد الدين زنكى لتوجيه ضربته . واختار إمارة الرها – أوّل إمارة أسسها الصليبيون ، لإنهاء الحكم الصليبى فيها ، وطرد الصليبيين منها . وكانت هذه الإمارة تشكل خطرًا كبيرًا على خطوط المواصلات الإسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، على الرغم من إحاطتها من جميع الجوانب بالقوى الإسلامية ، حيث كان يفصلها نهر الفرات عن بقية الإمارات الصليبية ، وكان قد أسسها بلدوين البولونى ، ثم دعى لتولى عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٠٠ ، فتولى بلدوين دى بورج الإمارة مكانه ، حتى إذا ما توّج هذا

بدوره ملكًا على مملكة القدس سنة ١١١٨ ، تحت اسم بلدوين الثانى ، عين جوسلين دى كورتناى على إمارة الرها . وقد مات جوسلين فى عام ١١٣١ ، أى فى نفس العام الذى مات فيه بلدوين الثانى ، وخلفه ابنه جوسلين الثانى ، الذى لم يكن يملك شجاعة وحماسة وصلابة أبيه ، فأخذت الإمارة فى الضعف ، فى الوقت الذى كان عماد الدين زنكى يتصاعد نجمه بجمعه بين حكم الموصل وحلب ، ثم فقدت الإمارة سندًا قويًا بموت فولك ملك بيت المقدس ، وتولى ابنه القاصر مكانه . وبذلك نضجت إمارة الرها للاقتطاف على يد عماد الدين زنكى .

وقد مهّد عماد الدين زنكى لغزو الإمارة بإحدى خدعه ! . فقد بدأ بمهاجمة بنى أرتق فى ديار بكر ، وانتزع منهم عدة قلاع ، ليوهم الصليبيين فى الرها أنه مشغول عن مهاجمتهم ! . وبالفعل فقد غادر جوسلين الثانى الإمارة إلى بلاده الغربية فى تل باشر ، على الضفة الغربية للفرات ، وفى الحال شرع عماد الدين زنكى فى فرض الحصار على الرها فى ٢٨ نوفمبر ١١٤٤ .

وتشير الدلائل إلى أن هيبة زنكى كانت قد بلغت فى قلوب الصليبيين قدرًا كبيرًا ، فعندما أرسل هيو الثانى ، رئيس أساقفة الرها ، إلى جوسلين الثانى استغاثة يدعوه فيها إلى القدوم بقواته لإنقاذ الرها والدفاع عن الإمارة — آثر جوسلين الثانى البقاء معتقدًا أن قواته لن تكفى لمنازلة عماد الدين ! ، واكتفى بإرسال طلب للمساعدة إلى كلٍّ من أمير أنطاكية والوصية على عرش مملكة بيت المقدس ! ولكن أمير أنطاكية —كما رأينا —كان على خلاف مع جوسلين ، فلم يرسل أية نجدة ، بينما أرسلت مليزاند الوصية على عرش القدس قوّةً عسكرية ، ولكنها وصلت بعد الأوان .

ذلك أن سقوط إمارة الرها فى يد عماد الدين زنكى لم يستغرق وقتًا طويلاً ، فقد استمر الحصار لمدة أربعة أسابيع استسلمت المدينة بعدها فى ٢٣ ديسمبر ١١٤٤ ، برغم ما كانت عليه من مناعة . ثم سقطت قلعتها فى ٢٥ ديسمبر ١١٤٤ ، وبذلك كانت أوّل إمارة صليبية تأسّست فى المشرق العربى هى أوّل إمارة أيضًا سقطت فى يد المسلمين ! .

وقد اعتبر المسلمون سقوط الرها فتح الفتوح ، وتبارى الشعراء فى تقديم تهانيهم ، فأنشد القيسرانى قصيدة مطولة جاء فيها :

« فتح الفتوح مبشرا بتمامه
كالفجر فى صدر النهار الآيب
أترى الرها الورهاء يوم تمنّعت

ظنت وجوب السور سورة لاعب

شدا إلى أرض الفرنجة بعدها

أن الدروب على الطريق اللاحب »

ويظهر من هذه الأبيات أن المسلمين اعتبروا فتح الرها بمثابة طلوع الفجر بعد ليل طويل من الاحتلال الصليبى ، وبداية نهار طويل تتحرر فيه الأراضى العربية والإسلامية من حكم الصليبيين ، وخطوة على الدرب الموصل إلى خروج الفرنجة من أرض الشام .

وقد حيكت الأساطير حول فتح الرها . فقد روى ابن الأثير أن فتح الرها قد غفر لعماد الدين زنكى كل ذنوبه إذ روى فى هذا الشأن أن عماد الدين قد رآه أحد الزهاد فى المنام ، فسأله الزاهد : كيف يعاملك الله ؟ فأجاب : بكل مغفرة ! . فسأله الزاهد : ومن أجل ماذا ؟ . فأجاب عماد الدين زنكى : بسبب الرها ! » .

وكان من الطبيعى أن يواصل عماد الدين زنكى ، بعد سقوط الرها ، جهاده للاستيلاء على بقية المعاقل الصليبية شرقى الفرات . فسقطت فى يده سروج فى يناير ١١٤٧ وشرع فى محاصرة « البيرة » ، ولكنه علم بمقتل نائبه فى الموصل ، فرفع الحصار ، وعاد إلى الموصل للسيطرة على الأمور فيها ، وعندئذ آثرت الحامية الصليبية فى البيرة تسليم القلعة إلى الأراتقة ، الذين كانت لهم مصلحة فعلية فى الحدّ من نفوذ زنكى الذى كان يهددهم فى الشمال ، ولكن من الواضح أن استيلاء الأراتقة على البيرة جعل ملكية هذه القلعة الهامة تنتقل من يد الصليبيين إلى المسلمين ، وبذلك لم يبق فى يد الصليبيين فى شرق الفرات شىء من ممتلكاتهم ، بينما بقى فى يد جوسلين الثانى من الجهات الأخرى تل باشر ، وسميساط ، ومرعش ، ودلوك وعينتاب ، وقورس ، وعزاز ، والراوندان . وسنرى كيف ستسقط هذه الممتلكات أيضًا فى يد المسلمين ! .

على كل حال ، فإن الاضطرابات التى حدثت فى الموصل قد أثرت على مشروعات عماد الدين زنكى فى مجاهدة الصليبيين ، ويبدو أنها أشعرته بضرورة وحدة القوى الإسلامية أوّلاً ، فلم يكد يفرغ من استعادة السيطرة على الموصل ، حتى أعدّ حملةً كبيرةً للاستيلاء على دمشق ، التى كانت وقتذاك تقف عقبةً فى وجه وحدة القوى الإسلامية . ومن الطريف أنه استخدم فى هذه الحملة نفس الخدعة التى استخدمها فى مهاجمة الرها . فقد أوهم الدمشقيين فى هذه المرّة أنه أعدّ حملته ضدّ الصليبيين ! . إذ زوّد الحملة بآلات الحصار برسم محاربة الصليبيين . ولكنه علم فى تلك الأثناء بتآمر الأرمن فى الرها مع جوسلين الثانى – وكانت أمه أرمنية – للتخلص من الحامية الصغيرة التى

تركها عماد الدين بالمدينة ، فتوجّه إليها ، وأعدم المتآمرين ، وطرد جزءًا من أهلها ، وقام بعملية توازن غريبة ، فقد أحلّ محل المطرودين ثلاثمائة أسرة من اليهود ، لعدائهم الشديد للمسيحيين ، وليكونوا عينًا له فى الرها ! . ثم اتجه لإخضاع قلعة جعبر على الفرات ، وهى قلعة كانت محشورةً داخل أملاكه الجديدة .

على أن عماد الدين زنكى لم يلبث أثناء مرابطته أمام جعبر أن قتل فجأة فى ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦ م ، ليس بيد أعدائه ، وإنما بيد أحد غلمانه . فكانت ميتةً هزيلة لبطل عظيم . ويقال إن فداحة الخسارة أصابت أهل جعبر نفسها ، الذين كان يحاصرهم عماد الدين زنكى ! ، حتى لقد صاحوا فى القاتل : « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله » ! .

ولم يلبث أن انقسم الجيش الإسلامى الكبير الذى كان تحت قيادة زنكى ، فقد عاد الحلبيون إلى حلب ، ومعهم نور الدين زنكى ، ابن عماد الدين البكر ، وبصحبته شيركوه ، فى حين عادت قوات الموصل إليها ومعها سيف الدين غازى الابن الثانى لزنكى ، وبصحبته الوزير جمال الدين الأصفهانى . وقد ثبّت نور الدين زنكى قدمه فى حلب ، بينما ثبت سيف الدين غازى قدمه فى الموصل ، وبذلك انقسمت دولة الموصل وحلب مرةً ثانيةً إلى دولتين ! .

وكان من الطبيعى أن يهبّ أعداء الدولة للاستفادة من هذه الفرصة ، وتساوى فى ذلك المسلمون والصليبيون ! فاسترد معين الدين أنر ، حاكم دمشق ، بعلبك ، وأخضع حكام حمص وحماه ، بينما استرد الأراتقة المدن التى فتحها زنكى فى ديار بكر ، وأخذت تتفكك وحدة المسلمين من جديد .

وسرعان ما نشطت القوى الصليبية ، فقام ريموند أمير أنطاكية بحملة وصلت إلى أسوار حلب ، بينما هبّ جوسلين الثانى لاسترداد الرها بالاستعانة بالأرمن فيها . وقد نجح بالفعل فى استردادها ومعه بلدوين حاكم مرعش فى أواخر أكتوبر ، بينما بقيت الحامية الإسلامية فى القلعة تدافع عنها .

على أن نور الدين زنكى لم يلبث أن تقدم بجيشه لمحاصرة المدينة بينما كان جيش جوسلين الثانى داخلها ، فأصبح هذا محاصرًا بين القلعة من جهة وقوات نور الدين من جهة أخرى ! . ولم يجد جوسلين الثانى بدًّا من محاولة الفرار بجيشه من المدينة ، ولكن قوّات نور الدين زنكى لاحقته وقضت على نحو ثلاثة أرباع الجيش ، وسقط بلدوين أمير مرعش قتيلاً ، بينما جرح جوسلين الثانى فى رقبته ، ووصل إلى سميساط بصعوبة بالغة ! . وهكذا أثبت نور الدين زنكى أنه قدير على

حمل علم الجهاد الذى سقط من يد والده .

وسرعان ما أخذ يلقّن الأرمن فى مدينة الرها درسًا لا ينسى ، فأعمل السيف فى رقابهم ، ولم يفرق فى هذه المرة – كما فعل والده من قبل – بين الصليبيين والسكان المحليين ، بل أعمل السيف فى الجميع ، وساق النساء والأطفال أسرى إلى حلب ، حتى « خلت الرها من أهلها تقريبا ! .

والغريب أن الرها كانت تتبع أملاك سيف الدين غازى ، ابن زنكى الثانى ، إذ امتلك الموصل وما يتبعها شرق الفرات ، وبالتالى لم تكن خاضعةً لنور الدين ، الذى هبّ – كما رأينا – لاستردادها من يد الصليبيين ، مما يدل على أن انقسام الدولة الزنكية كان انقسامًا شكليًّا ، أو إداريًّا ، بالتعبير الحديث . وبالفعل فحين سارع سيف الدين غازى بدوره لإنقاذ الرها عندما علم باستيلاء جوسلين الثانى عليها ، وجد أخاه نور الدين قد سبقه إليها وتمكن من إنقاذها ، فتركها له « ولم يعارضه فيها » ! .

على أن سقوط الرها مرةً ثانيةً فى يد المسلمين سنة ١١٤٦ ، والكارثة التى حلت بها ، تركت من الأثر فى العالم المسيحى ما فاق وقع السقوط الأوّل ١١٤٤ ، إذ تأكد لأوروبا أن الصليبيين فى الشرق عاجزين عن استرداد ما ضاع منهم ، ومن ثم بات على الوطن الأم للإمارات الصليبية أن تهب لإنقاذ بنيها ، فنتج عن ذلك الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ .

٤٥ – حملة الملوك الصليبية
(الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ م)

- ردود فعل سقوط إمارة الرها فى أوروبا .
- الأوضاع الإقتصادية والسياسية فى أوروبا ١١٤٧ م .
- الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية وتكوين الحملة .
- جنوح سفن الجيش الإنجليزى على الشاطئ الأسبانى واشتراكه فى مهاجمة لشبونة .
- كارثة الجيش الألمانى فى اسكى شهر وفرار الإمبراطور كونراد الثالث Conrad III الى نيقية
- العلاقات بين الجيش الفرنسى والبيزنطى .
- لويس السابع والأمراء الصليبيون فى الشام .
- المجمع الصليبى فى عكا فى ٢٤ يونية ١١٤٨ يقرر مهاجمة دمشق .
- حصار الصليبيين الفاشل لدمشق فى يولية ١١٤٨ .
- عودة كونراد الثالث ولويس السابع إلى أوروبا .

٤٥ – حملة الملوك الصليبية

(١١٤٧)

أحدث سقوط إمارة الرها الصليبية إرتجاجًا شديدًا فى أوروبا . وثارت الروح الصليبية من جديد بعد أن وجهت حكومة بيت المقدس استغاثةً للبابا يوجين الثالث فى خريف ١١٤٥ ، فقرر البابا الدعوة لحملة صليبية جديدة . وبذلك بدأ المشرق الإسلامى يستعدّ لغزو أوروبى جديد ، بعد أن مضى على الغزو الأوّل نصف قرن كامل !

فى ذلك الحين كانت الظروف مهيأة فى أوروبا للاستجابة لدعوة البابا يوجين الثالث ، ففى ذلك العام كانت قد حدثت مجاعة فى ألمانيا ألحقت الخراب بفقراء الناس ، فرأوا فى الحملة خلاصًا من أوضاعهم المزرية وأملاً فى عيش أفضل فى المشرق – كما يقول المؤرخ برنهاردى Bernhardi – وفى الوقت نفسه برزت شخصية كنسيّة ذات قدرة هائلة فى التأثير فى نفسية الجماهير ، تشبه شخصية بطرس الناسك فى الحملة الصليبية الأولى ، وهى شخصية برنارد كليرفو ، الذى كان يعتبر الشخصية الثانية ذات المقام السامى فى العالم الأوروبى الغربى وقتذاك بعد البابا ، ولكنه كان أكثر ديماجوجية ! . فقد ترأس مؤتمر فزلى Vezelay فى فرنسا ، الذى عقد بأمر لويس السابع سنة ١١٤٦ ، وقرأ على المجتمعين رسالة البابا فى إعلان تشكيل الحملة ، ثم ألقى خطابًا حماسيًّا دعا فيه الناس إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل « ملك الملوك » . فتعالى هتاف الحضور بالمطالبة بشارات الصلبان رمز التطوع ، ولما نفذت هذه الشارات ، شرع برنارد كليرفو فى تمزيق ملابسه ليوزعها كشارات صليبية ! .

كان لويس السابع ملك فرنسا متحمسًا للدعوة الصليبية ، إذ كان معروفًا بورعه وتقواه ، حتى ليقال إن الفكرة نشأت فى بلاطه عام ١١٤٥ ، ثم تأكدت فى مجمع فزلى . أما كونراد الثالث ، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فقد حاول الاعتذار فى البداية ، ولكنه رضخ تحت إحراج برنارد كليرفو ومواعظه الدينية .

وهكذا اكتسبت الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ طابعا مختلفًا عن طابع الحملة الصليبية

الأولى ، فلم تكن حملة أمراء أو هجرة جماعية ضخمة كتلك التى قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس أو أميكو الألمانى قاطع الطريق ووليم النجار ! - وإنما كانت حملة ملوك تتألف من أكبر جيوش أوروبا الغربية ، ويقودها أكبر عاهلين فى العالم الكاثوليكى ، هما : كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا . وكان كل جيش يتألف من نحو سبعين ألف جندى ! .

على أنه تكون إلى جانب هذين الجيشين جيش ثالث إنجليزى خرج من إنجلترا فى أواخر ربيع سنة ١١٤٧ ، ولم يقدر له الوصول إلى الشرق ، وإنما قذفت سفنة العواصف إلى الساحل البرتغالى . وهناك تفاوض الأمير البرتغالى ألفونسو هنرى مع قادة الجيش الإنجليزى على الاشتراك معه فى الحرب ضد المسلمين للاستيلاء على لشبونة ، وكانت حجته أنه لا فرق فى قتال المسلمين بين الميدان الأسبانى والأراضى المقدسة ، فكلاهما يؤدّى إلى ملكوت السماء ، فوق أنه يؤدّى إلى ملكوت الأرض لما سوف يغنمونه من أملاك وأسلاب ! . وكانت الحجة الثانية حاسمة ، فاشترك الجميع فى حصار لشبونة حتى سقطت فى ١١٤٧ ، ولم يذهب منهم إلى الأراضى المقدسة سوى أنفار قلائل ! .

أما الجيش الألمانى الذى قاده الإمبراطور كونراد الثالث ، فقد شرع فى التحرك فى أواخر شهر مارس ١١٤٧ ، سالكًا الطريق البرى نحو القسطنطينية . وكما حدث فى الحملة الصليبية من اعتداء الصليبيين على الشعوب المسيحية فى شرق أوروبا أثناء زحفها - حدث فى الحملة الثانية كما يروى مؤرخ معاصر . فمن الأمثلة التى يرويها أن بعض الجنود الألمان دخلوا إحدى الحانات فى مدينة هليوبوليس ، وكان أحد الحواة يقوم بحيل سحرية ، إذ أخرج من جيبه ثعبانًا وضعه فوق كأس . فأخذ الثعبان يتحرك حركات مسلية ، فما كان من الجنود الألمان الآ أن هجموا على الحاوى وقطعوه إربًا ، بحجة أنه جاسوس بيزنطى ! وقد حدث من جراء ذلك هياج ، وأراد حاكم المدينة تهدئة الحالة ، فانهال عليه الألمان الصليبيون وعلى أتباعه بالسيوف ، ثم راحوا يعيثون فسادًا فى القرى المجاورة .

لهذا السبب قام الإمبراطور مانويل كومنين بتجهيز الحملة الألمانية بالسفن للعبور إلى الشاطئ الأسيوى بأسرع ما يمكن . ولم يبخل على الإمبراطور كونراد بالنصائح والإرشادات ، فأوصاه باتباع الطريق الساحلى وتجنب التوغل فى داخل الأناضول حتى لا يصطدم بالسلاجقة ، وزوده بالأدلاء الخبراء فى معرفة الطرق . ولكن الإمبراطور كونراد تجاهل نصائح مانويل كومنين ، وبدلاً

من اتخاذ الطريق الجنوبى المحاذى للشاطئ ، ليحتمى بالقلاع والمدن البيزنطية الواقعة عليه ، اختار أن يشق جوف البلاد فى أرض السلاجقة ! .

وكانت النتيجة محتومة . فقد دب النزاع بين الألمان ودليلهم البيزنطى ، فتركهم فى ٢٥ أكتوبر ، وفى اليوم التالى ، ولم تكد تقترب الحملة من اسكى شهر ، حتى دهمهم السلاجقة المسلمون بجيش عرمرم ، وأعملوا فيهم القتل والأسر ، ولم يتمكن كونراد من التراجع إلاّ بصعوبة بالغة نحو نيقية ومعه فلول جيشه ، وغنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم ، ووصل كونراد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى نيقية فى حالة يرثى لها من الإنهاك والإذلال ! .

أما الجيش الفرنسى ، فكان قد وصل إلى حدود الدولة البيزنطية فى صيف ١١٤٧ ، بعد أن ارتكب الجنود الفرنسيون فى طريقهم ما ارتكبه سلفاؤهم منذ نصف قرن ، وكان لويس السابع قد اصطحب معه زوجته اليانور ، وسار معه أمراء تولوز وفلاندر ، « وسارت تلك الجموع الغفيرة فى وسط أوروبا وفى مقدمتهم نساء مسلحات بالسيوف والحراب ، ومتسربلات بالدروع ، متوهمات أن الحرب نزهة » ! .

وكانت سمعة الجيش الفرنسى الصليبى قد سبقته إلى القسطنطينية ، مما ترتب عليه أن اتخذ السكان موقفًا حذرًا ومعاديًا يصفه الراهب أودو كالآتى :

أخذنا نشعر بالإهانات من جانب البيزنطيين بمجرد اقترابنا من القسطنطينية ، فقد أوصدوا الأبواب دوننا ، ورفضوا بيع أى شىء لنا إلاّ بعد الحصول على ثمنه مقدمًا ! . وكانوا ينزلون لنا المشتريات بالحبال من أعلى الأسوار ! . ونظرًا لأن هذه الطريقة بطيئة فى الاستلام والتسلم ، فقد اضطر الصليبيون إلى أن يسدّوا حاجاتهم عن طريق نهب القرى والمزارع المجاورة » ! .

فى ذلك الحين كان الإمبراطور مانويل كومنين قد استعدّ للمتاعب مع الصليبيين عن طريق عقد الصلح مع السلاجقة فى قونية ، بعد أن كان فى حالة حرب معهم فى ١١٤٤ — ١١٤٦ . وقد اعتبر لويس السابع هذا العمل خيانةً عظمى ، وقد ظهر موقف كومنين سافرًا حين عبر لويس السابع البوسفور إلى شاطئ آسيا الصغرى ، فقد أمر كومنين بوقف الإمدادات لهم إلاّ إذا أقسم جميع الامراء الفرنسيين فى الحملة يمين الولاء والتبعية له وإعادة الأراضى التى يستولون عليها من السلاجقة إلى الإمبراطورية البيزنطية !

ولم تلبث أن جاءت الأنباء بالكارثة التى حلت بالحملة الألمانية ، ثم وصل كونراد إلى نيقية ، حيث التقى بفلوله مع الجيش الفرنسى ، وسار الجيشان معًا بعد أن اختار لويس السابع الطريق

الساحلى الجنوبى تجنبًا للاشتباك مع السلاجقة . فاتجه إلى أزمير ومنها إلى أفسوس فى نوفمبر ١١٤٧ . حيث تمارض كونراد نظرًا لما أحسّ به من قلّة قيمته بعد فقده معظم جيشه ، فعاد إلى القسطنطينية للاستشفاء ! . بينما لحقت بالجيش الفرنسى خسائر كبيرة على يد السلاجقة فى جهات قونية . وعندئذ قرر لويس السابع ركوب البحر مع عدد من فرسانه تاركًا بقية جيشه يشّق طريقه برًّا إلى الأراضى المقدسة . وقد وصل إلى أنطاكية مع زوجته اليانور حيث استقبل استقبالاً حافلاً باعتباره قائد حملة الإنقاذ ! .

على أن لويس السابع لم يلبث أن نسى الهدف الذى قامت الحملة الصليبية الثانية لأجله ، وهو استرداد الرها والقضاء على قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام . فقد عرض عليه ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية الاشتراك معه فى القضاء على قوّة نور الدين زنكى فى حلب ، وبالتالى تأمين الأوضاع الخاصة بإمارتى الرها وأنطاكية . ولكن لويس السابع رفض ، لاشتباهه فى وجود علاقات مريبة بين زوجته وريموند أمير أنطاكية ! مما أدّى إلى سوء العلاقات بينه وبين زوجته التى اتهمته بالجبن وأخذت تطالب بالطلاق . على أن لويس أخذ زوجته عنوة وغادر أنطاكية سرًّا تحت جنح الظلام ، متجهًا إلى بيت المقدس ! ، بناء على دعوة ملكها .

كذلك رفض لويس السابع عرضًا من جوسلين الثانى للاشتراك معه فى حملة على الرها لاستردادها من المسلمين . رغم أن الحملة – كما ذكرنا – قامت لهذا الغرض . كما رفض طلب ريموند أمير طرابلس مساعدته على استرداد قلعة بعرين من المسلمين . بحجة أنه إنما قبل أن يحمل الصليب ويأتى إلى الأراضى المقدسة للحج وزيارة بيت المقدس والدفاع عن تلك المدينة ، لا لغزو حلب ! .

ويبدى المؤرخون حيرتهم لهذا الموقف من جانب لويس السابع ، الذى يُعدّ انحرافًا عن الغرض الأصلى الذى قدمت من أجله الحملة الصليبية الثانية ، وهو استرداد الرها وتحطيم قوّة زنكى . وفى الواقع أن السبب واضح ، وهو خشية لويس السابع من الاصطدام بالزنكيين بعد أن تعرض الجيش الألمانى للكارثة على يد سلاجقة الروم المسلمين ، ولم يبق سوى جيشه فى الميدان ! .

ويتأكد هذا السبب بدراسة نتائج المجلس الصليبى الكبير الذى عقد فى عكا فى ٢٤ يونية ١١٤٨ ، وحضره كلٌّ من لويس السابع ملك فرنسا ، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا الذى كان قد وصل من القسطنطينية ، والملك القاصر بلدوين الثالث ومعه أمراء المملكة ، فضلاً عن عدد كبير من كبار رجال الدين والأمراء الصليبيين فى الشرق . وكان الغرض منه دراسة خطة العمل

ضدّ المسلمين . فقد أغفل المؤتمرون قضية الرها وخطر نور الدين والزنكيين ، وقرروا مهاجمة دمشق ، برغم أن معين الدين أنر كان الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام ! .

وقد أفاق معين الدين أنر على نتائج الخيانة التى ارتكبها فى حق أمته الإسلامية ، وأراد التكفير عنها ، فطلب النجدة من عدوه اللدود نور الدين زنكى فى حلب ، بينما أخذ يستعد للقتال . وقد بدأ الصليبيونَ بمهاجمة الغوطة فى ٢٤ يولية ١١٤٨ ، واحتلّوا بعض المراكز والقرى الأمامية خارج سور دمشق مثل المزة والربوة ، ولكن الدمشقيين أخذوا فى مهاجمة القوات الصليبية فى الجهة الغربية للمدينة التى أطلق عليها المؤرخون اسم الميدان الأخضر ، مما اضطر كونراد ولويس وبلدوين إلى سحب قواتهم إلى الجهة الشرقية الخالية من الأشجار ، حتى لايحتمى المسلمون بأشجار فى زحفهم عليهم ، وقد تمت هذه الخطوة يوم ٢٧ يوليو ١١٤٨ ولكنها لم تكن موفقة ، نظرًا لعدم وجود مياه شرب فى تلك المنطقة وبذلك ساء موقف الصليبيين .

ولم تلبث النجدات الإسلامية أن أخذت تتوافد تباعًا على دمشق ، مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع ، « وأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار » – على حد قول ابن القلانسى ! .

عند ذلك فقط أدرك الصليبيون أنهم أخطأوا الوجهة الصحيحة ، وأن حلب وليست دمشق هى التى كانت أولى بجهودهم ! . وعندما وجدوا أنفسهم مهدّدين بين وقت وآخر بانقضاض قوات الزنكيين . فى الوقت الذى ساء موقفهم فى الموضع الجديد شرق دمشق ، قرّر لويس السابع وكونراد الثالث الانسحاب ورفع الحصار عن دمشق ، بعد أيام قليلة من قدومهم إليها .

وسرعان ما عاد كونراد الثالث إلى أوروبا فى ٨ سبتمبر ١١٤٨ مبحرًا من عكّا ، ثم لحقه لويس السابع إلى أوروبا بعد ستة أشهر أخرى ! . وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثانية ، بالفشل الذريع ، ولم تفلح فى تحقيق هدف واحد من أهدافها ، الأمر الذى أدّى إلى انحطاط هيبة الصليبيين فى الشام لحدٍّ بعيد ، وتشجيع القوى الإسلامية فى المشرق على الإغارة على ما جاورها من أملاك الصليبيين ، واسترداد ما فقدته على أيديهم . وهذا ما دعا بعض المؤرخين ، مثل رنسمان ، إلى القول بأن فشل الحملة الصليبية الثانية يعتبر « نقطة تحوّل خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ الصليبيين » ! .

٤٦ – توحيد الشام تحت قيادة نور الدين زنكى

- استيلاء نور الدين زنكى على حمص عام ١١٤٩ م .
- هزيمة الصليبيين فى إنب ومصرع ريموندى بواتييه أمير أنطاكية .
- سقوط جوسلين الثانى أمير الرها فى قبضة التركمان ١١٥٠ م .
- شراء مانويل كومنين بقايا إمارة الرها فى ١١٥٠ م لحمايتها .
- تصفية إمارة الرها على يد القوى الإسلامية فى يوليو ١١٥١ .
- استيلاء نور الدين على دمشق فى ٢٥ ابريل ١١٥٤ .
- سقوط عسقلان آخر الممتلكات الفاطمية فى يد بلدوين الثالث فى ١٩ أغسطس ١١٥٣ .
- التسابق بين الزنكيين والصليبيين على احتلال مصر .
- تحالف بيت المقدس والدولة البيزنطية ضد الزنكيين .
- ظهور رينو دى شاتيون (أرناط) ١١٥٣ .
- الإمبراطور البيزنطى يعيد سلطته فى كيليكيا وأنطاكية ١١٥٨ – ١١٥٩ م .

٤٦ - توحيد الشام تحت قيادة نور الدين زنكى

كانت هزيمة الحملة الصليبية الثانية التى قادها ملوك أوروبا علامةً بارزةً فى تاريخ الحروب الصليبية ، وبداية تحوّل المسلمين من الدفاع إلى الهجوم . وكان قد مهّد لهذه النتيجة -كما رأينا - ظهور بطل عظيم من أبطال الجهاد الإسلامى ، وهو عماد الدين زنكى ، ثم خليفته وابنه نور الدين زنكى ، اللذان كان ظهورهما بداية توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين تحت زعامة صلاح الدين .

وتشير الدلائل إلى أن نور الدين زنكى لم يتأخر طويلاً عن الاستفادة من الوضع الذى هيأه فشل الحملة الصليبية الثانية ، فى توحيد الشام تحت قيادته ، على حساب الصليبيين وحلفائهم حكام دمشق الخونة لدينهم .

ففى عام ١١٤٩ ، أى بعد أشهر من عودة كل من الإمبراطور كونراد الثالث والملك لويس السابع إلى أوروبا ، تقدم نور الدين زنكى للإستيلاء على حمص ، فخطا بذلك خطوة جديدةً فى توحيد بلاد الشام . وما لبث أن أخذ يستفيد من هذا الوضع فى مهاجمة إمارة أنطاكية ، أملاً فى أن يلحقها بزميلتها إمارة الرها ! . فأغار فى صيف ١١٤٩ على الإقليم المحيط بقلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاصى ، ودمر ما حولها من ضياع . ثم انطلق مباشرةً إلى محاصرة قلعة إنب قرب معرة النعمان .

وقد أحسّ عندئذ ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية بضرورة التصدى للخطر قبل استفحاله ، وخرج على رأس جيشه لصدّ نور الدين ، مصطحبًا معه على بن وفا زعيم الباطنية . ودارت معركة هامة قرب إنّب فى ٢٩ يونيه ١١٤٩ ، تمكن فيها نور الدين زنكى من إنزال هزيمة ساحقة بالجيش الصليبى . وسقط ريموندى بواتييه قتيلاً ، كما قتل رينو صاحب كيسوم ومرعش ، وسقط أيضًا على بن وفا . وأرسل نور الدين زنكى رأس ريموند وذراعه اليمنى إلى الخليفة العباسى فى صندوق من فضة ! ، وفقًا لعادات ذلك العصر .

ولم يلبث نور الدين أن أكمل انتصاره بالتوغل فى إمارة أنطاكيه حتى وصل إلى السويدية ، ميناء أنطاكية ، وهدّد أنطاكية ذاتها ، حتى عرض أهلها عليه متاعهم وأموالهم فى مقابل ترك

مدينتهم ، وعندئذ ترك فرقة من جيشه لتبقى على حصارها ، واتجه إلى حصار حارم شرقى نهر العاصى ، حيث صالحه الصليبيون على نصف أعمالها ، ثم تقدم إلى « فامية » حيث تمكن من الاستيلاء عليها فى أواخر الشهر ذاته ، وبذلك أكمل نور الدين زنكى استيلاءه على جميع ممتلكات إمارة أنطاكية شرقى نهر العاصى .

فى ذلك الحين كانت القوى الإسلامية الأخرى تتقدم للمشاركة بنصيبها فى القضاء على الصليبيين . وتتمثل هذه القوى فى سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان . وكان ميدان عملهم فيما تبقى من إمارة الرها وحطام أنطاكية ! .

ففى سبتمبر ١١٤٩ انتهز مسعود ، سلطان سلاجقة الروم ، فرصة انتصار نور الدين زنكى على أنطاكية ، واستولى على مرعش ، ثم حاصر تل باشر نفسها . وفى العام التالى توجه قرا أرسلان الأرتقى إلى الأجزاء الشمالية من إمارة الرها ، فاستولى على كركر شمالى سميساط ، وحصن منصور .

ولم يلبث جوسلين الثانى نفسه أن سقط فى قبضة التركمان فى ٤ مايو ١١٥٠ ، ففرح المسلمون لأسره « لأنه كان شيطانًا عاتيًا شديدًا » ! . وقد سلّمه التركمان لنور الدين زنكى ، فسجنه فى حلب ، وظل فى الاعتقال تسع سنوات كاملة ، حتى توفى سنة ١١٥٩ ! .

وقد كان عند سقوط جوسلين الثانى فى الأسر أن تقدم مسعود سلطان سلاجقة الروم للاستيلاء على ماتبقى من إمارة الرها . فقام بغزو كيسوم فى صيف ١١٥٠ ، ثم استولى على بهسنى ورعبان ، وفرض الحصار على تل باشر نفسها . فى الوقت الذى تقدم نور الدين ، للاستيلاء على قلعة عزاز التابعة لإمارة أنطاكية ، وهكذا كان المسلمون يقضون على نصف الإمارات الصليبية فى المشرق الإسلامى بشكل حثيث .

عند ذلك تقدم الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين لإنقاذ الموقف بطريقته الخاصة ! . فعرض على زوجة جوسلين الثانى والوصية على عرش الرها ، أن يشترى كل ما تبقى من الإمارة ، أى شراء تل باشر وسميساط وقلعة الروم ودلوك وعينتاب والراوندان ، فضلاً عن حقوقها فى البلاد التى استولى عليها المسلمون ، أملاً فى انتزاعها منهم ! . وعندما اعترض بلدوين الثالث ملك بيت المقدس على الصفقة ، أقنعه رسل الإمبراطور بأن سقوط . هذه الممتلكات الصليبية فى يد البيزنطيين أفضل من سقوطها فى يد المسلمين ، وأنه طالما أن الصليبيين عاجزون عن حماية ممتلكاتهم ، فإن الإمبراطورية البيزنطية قادرة على ذلك ! . وقد تمت بالفعل الصفقة فى عام

١١٥٠ ، واستولت القوات البيزنطية على المدن بعد أن انسحبت منها الفرسان والسكان الصليبيون ! .

عند ذلك لقنت القوى الإسلامية الإمبراطور مانويل كومنين درسًا قاسيًا ، فقد تحالف كلٌّ من نور الدين محمود صاحب حلب ، ومسعود سلطان سلاجقة الروم ، وتمرتاش الأرتقى صاحب مادرين ، على انتزاع الممتلكات الجديدة من يد البيزنطيين ! ، منتهزين فرصة بُعد هذه الممتلكات عن مركز الإمبراطورية فى القسطنطينية . وفى عام ١١٥١ استولى مسعود على عينتاب ودلوك ، كما استولى تمرتاش الأرتقى على سميساط والبيرة ، واستولى نور الدين زنكى على الرواندان وتل باشر التى استسلمت فى يوليو ١١٥١ . وبذلك لم يعد لإمارة الرها الصليبية وجود فى المشرق الإسلامى ! .

على هذا النحو تعرض الصليبيون عند منتصف القرن الثانى عشر الميلادى لضربات قاصمة على يد المسلمين . فقد سقطت مدينة الرها ، وفشلت الحملة الصليبية الثانية ، ولقى ريموندى بواتيه أمير أنطاكية مصرعه ، وأسر جوسلين الثانى أمير الرها ، وضاعت كل الممتلكات الصليبية ، التابعة لإمارة أنطاكية شرق نهر العاصى ، واستولى المسلمون على بقية ممتلكات إمارة الرها ولم يعد لهذه الإمارة وجود ! .

ولم يلبث نور الدين زنكى أن تقدم لإزالة حكم البيت البورى الخائن المتحالف مع الصليبيين فى دمشق . وقد لجأ إلى الحيلة فى هذه المرة بعد فشله فى المرات السابقة ، فأوقع بين أتابك دمشق مجير الدين وأمرائه ، ومنع تموين دمشق من الشمال مما أحدث بها مجاعةً شديدةً ، وتآمر مع حرس المدينة وبعض رجالها ، ثم زحف على دمشق فى ١٨ إبريل ١١٥٤ ، فدخلها يوم ٢٥ إبريل ، وبذلك أنهى الوصاية الصليبية على دمشق ، ووحّد بلاد الشام تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوبًا . حيث قامت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى فى تكوين الجبهة التى أمتدّت من الفرات إلى النيل لتتصدّى لتصفية الخطر الصليبى .

وفى السنوات التالية أخذت الأمور تجرى سراعًا . ذلك أن القوى الإسلامية فى المشرق العربى كانت تتكوّن من قسمين : القسم الأول فى شمال العراق والشام ، والقسم الثانى فى الجنوب ، أى فى مصر وعسقلان . وفى القسم الأول ظهرت قوة الزنكيين التى وحّدت بين حلب وحماه وحمص ودمشق . وفى القسم الثانى كانت قوّة الفاطميين التى أخذت تتدهور وتتحلّل سريعًا وفى مرحلة الاحتضار .

وهكذا أخذت تتكوّن منطقة فراغ فى الجنوب ، تسابقت عليها أكبر قوتين فى ذلك الوقت ، وهما قوة الزنكيين فى الشام ، التى كانت تعمل حثيثا من أجل توحيد القوى الإسلامية فى الشرق العربى عن طريق القوة . وقوّة الصليبيين فى مملكة بيت المقدس ! .

وكان بلدوين الثالث ، ملك بيت المقدس ، قد تمكن فى ١٩ أغسطس ١١٥٣ – أى فى العام السابق على استيلاء نور الدين على دمشق – من دخول عسقلان بعد حصار دام بضعة شهور . وقد عجز نور الدين زنكى فى ذلك الحين عن تقديم المساعدة التى طلبها منه الفاطميون ، بسبب التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، وخوفاً من الوقوع بين فكيها ! . فحين أرسل إليه الوزير الفاطمى ابن السلار أسامة بن منقذ لطلب المساعدة ، اعتذر قائلاً : « أهل دمشق أعداء ، والإفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » ! .

وكان هذا هو مادعا نور الدين زنكى فى العام التالى مباشرةً لإسقاط البيت البورى الحاكم فى دمشق ، والاستيلاء عليها ، حتى لا تبقى دمشق شوكة فى ظهره كلما اشتبك مع الصليبيين فى مملكة بيت المقدس ! . وليحقق التوازن بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام . فإذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان قد ضمنوا لأنفسهم السيطرة على جميع سواحل بلاد الشام ، من الإسكندرونة حتى غزة ، فإن استيلاء نور الدين على دمشق قد حقّق له السيطرة على داخل بلاد الشام ، من الفرات حتى بردى ! .

وبذلك أصبحت مصر محور الصراع بين الصليبيين والزنكيين ، فالصليبيون يريدون الاستيلاء عليها لتوسيع نطاق دولتهم واكتساب قوّة كبرى تمكنهم من التصدّى للزنكيين فى الشام ، والزنكيون يسعون للاستيلاء عليها لتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشام ومصر ، والقضاء بضربة قاضية على الصليبيين وطردهم من المشرق العربى .

على أنه لما كان هناك توازن بين قوّة الزنكيين وقوة الصليبيين ، فقد كان على كل طرف منهما أن يستعين بقوّة خارجية ليغلّب بها كفته ، ويغيّر التوازن لصالحه . وكانت لدى الصليبيين قوة الإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية ، بينما كانت لدى الزنكيين قوة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ! .

وقد إتجه الصليبيون إلى محالفة البيزنطيين فى وقت مبكر ، فكسبوا بذلك نصف المعركة ! . لأن التفوق الذى أحرزوه بهذا التحالف حرم الزنكيين من التحالف مع سلاجقة الروم ، وفوق ذلك أنه استخدم بذكاء من جانب الإمبراطور البيزنطى لمنع قيام هذا التحالف ، بل وإضعاف

قوة سلاجقة الروم ! والتخلص من الخطر الذى كان يهدّد دولته من جانبهم ! .

وكان بلدوين الثالث هو مهندس التحالف الجديد مع بيزنطة ، إذ كان يعرف إهتمام الإمبراطور البيزنطى بأنطاكية ، فرأى تقديمها هدية للإمبراطور . وكانت الأوضاع السياسية فى أنطاكية قد مهدت لذلك ، إذ وليها منذ عام ١١٥٣ فارس فرنسى شاب تخلف فى فلسطين بعد فشل حملة لويس السابع ، وتزوج من أرملة ريموند دى بواتيه الذى قتل فى المعركة مع نور الدين زنكى ، واسمه رينودى شاتيون ، وقد عرفه العرب باسم « أرناط » ، وسوف يكون له دور مشهور مع صلاح الدين الأيوبى . على أن أرناط هذا كان على جانب كبير من الأخلاق المنحطة والقسوة وحب سفك الدماء ! . وقد اشترك مع الأرمن فى القيام بحملة ضد الممتلكات البيزنطية فى أطراف آسيا الصغرى ، برغم أن أنطاكية تعتبر تابعةً للقسطنطينية من الناحية الاسمية ، وأغار على جزيرة قبرص للنهب سنة ١١٥٦ . وجدع أنوف رجال الكنيسة وقطع أذانهم وألسنتهم ، مما أثار استنكار المسيحيين بوجه عام ، سواء فى بيزنطة أو فى بيت المقدس . ومهّد للتحالف الصليبى البيزنطى .

ذلك أن بلدوين الثالث رأى فى البيزنطيين قوةً كبرى تساعده فى التصدى للزنكيين من جانب ، وتؤدّب أرناط من جانب آخر ، فعرض مصاهرة الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية ، فى مقابل مساعدة الإمبراطور البيزنطى حربيًّا ضدّ نور الدين ! .

وبالفعل ، ففى الوقت الذى كانت الأميرة تيودورا ، ابنة أخ الإمبراطور ، تغادر القسطنطينية إلى بيت المقدس فى صيف ١١٥٨ لتتزوج بلدوين الثالث ، كان الإمبراطور البيزنطى يخرج على رأس جيشه إلى المشرق الإسلامى ، فأعاد سلطته فى كيليكيا على حساب الأرمن ، واستدعى أرناط لمحاسبته على فعلته فى قبرص ، ولم يملك هذا إلا أن يذهب لمقابلة الإمبراطور فى المصيصة حافى القدمين عارى الرأس ليقدم ولاءه ! . ثم دخل الإمبراطور أنطاكية فى إبريل ١١٥٩ ومن ورائه بلدوين الثالث بدون تاج على رأسه ! . وتكونت حملة صليبية بيزنطية كبرى ، استفادت من دروس الحملة السابقة ، فتوجهت بقوتها إلى حلب لانتزاعها من يد نور الدين زنكى ، ووضعت بذلك الدولة الزنكية الموحّدة بالشام على حافّة الخطر ، وهدّدت كل مشروعات نور الدين زنكى فى توحيد القوى الإسلامية فى الشام ومصر ضدّ الصليبيين ، لطردهم من المشرق العربى ! .

٤٧ - التسابق على غزو مصر بين نور الدين وعمورى الأول

- الحملة البيزنطية الصليبية على حلب ١١٥٩ م وسياسة نور الدين .
- تحالف نور الدين مع مانويل كومنين ضد قلج أرسلان .
- فك التحالف بين البيزنطيين والصليبيين .
- تدهور أحوال الدولة الفاطمية فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى .
- حملة عمورى الأول الفاشلة على مصر فى سبتمبر ١١٦٣ م .
- حملة أسد الدين شيركوه الأولى على مصر فى ابريل ١١٦٤ م .
- استعانة ضرغام بعمورى الأول .
- حصار الصليبيين والفاطميين لشيركوه فى بلبيس فى أغسطس ١١٦٤ م .
- ضغط نور الدين زنكى على الصليبيين فى الشام .
- سقوط جميع ملوك الصليبيين أسرى فى يد نور الدين فى سهل أرتاح فى أغسطس ١١٦٤ م .
- استيلاء نور الدين على بانياس وحارم .
- انسحاب كل من الصليبيين والنوريين من مصر .

٤٧ - التسابق على غزو مصر بين نور الدين وعمورى الأول

رأينا كيف أصبحت مصر محور صراع بين الزنكيين والصليبيين ، بعد أن وحد نور الدين زنكى الشام تحت قيادته ، وأصبح يهدّد القوة الصليبية فى فلسطين . وكيف لجأ بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إلى التحالف مع البيزنطيين لمساعدته على التصدى للزنكيين ، وقبل الإمبراطور البيزنطى هذا التحالف لاستعادة نفوذه فى كيليكيا وأنطاكية ، ومنع قيام أى تحالف بين الزنكيين فى الشام وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى قد يهدّد القسطنطينية . وقد أثمر التحالف بين بلدوين الثالث والإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين حملةً ضخمة اتخذت وجهتها مدينة حلب مباشرةً ، وهدّدت بذلك كل مشروعات نور الدين زنكى فى توحيد الجبهة الإسلامية لطرد الصليبيين .

وقد كان على نور الدين زنكى فى ذلك الحين أن يوازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية ، أو الإطاحة بالتحالف المحتمل بينه وبين سلاجقة الروم . ولما كانت معركته أصلا ضدّ الصليبيين وليست ضد البيزنطيين ، فقد فضّل إنقاذ حلب على حساب سلاجقة الروم ، فعرض على الإمبراطور عقد هدنة وإطلاق سراح جميع من لديه من أسرى الصليبيين ، وعددهم يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف . وقبل التحالف مع الإمبراطور البيزنطى ضدّ سلاجقة الروم ! . وبذلك أمر مانويل كومنين بإيقاف الحملة فى الحال فى نهاية مايو ١١٥٩ ، برغم الحلف المعقود بينه وبين الصليبيين ! .

وعلى هذا النحو تمخضت الحملة الصليبية البيزنطية عن النتائج الآتية :

استبعاد قوة سلاجقة الروم من الصراع ، إذ قام الإمبراطور البيزنطى فى العام التالى ١١٦٠ بحملة ضدّ قلج أرسلان سلطان السلاجقة ، واشترك نور الدين فى مهاجمة السلاجقة ، فنزلت الهزيمة بقلج أرسلان ، ولم يلبث أن زار بنفسه القسطنطينية سنة ١١٦٢ حيث قدم ولاءه للإمبراطور البيزنطى ، وأعلن تبعيته له ، قبل أن ينقضى قرن على موقعة مانزكرت ! .

أما النتيجة الثانية فهى فكّ التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين ، وحرمان الصليبيين من الاستعانة بهذه الدولة فى التصدّى بعمل مشترك ضدّ نور الدين زنكى ، ولم يبق أمامهم بالتالى سوى الاعتماد على أنفسهم ، وعلى ما قد يصل إليهم من مساعدات من غرب أوروبا ! .

أما النتيجة الثالثة ، وهى الأهم بالنسبة للصراع بين العرب وأوروبا ، فهى حفظ وحدة الشام ، التى تعدّ أساس أىّ وحدة مع مصر . وبالتالى أساس أى عمل فعال لطرد الصليبيين من المشرق العربى .

ولما كان التوازن قد عاد من جديد بين الزنكيين والصليبيين بفشل تجربة التحالف الصليبى البيزنطى ، فمن هنا اشتد الصراع على مصر من جانب الطرفين . فقد أراد الصليبيون الاستيلاء عليها للاستفادة منها حربيًا وماديًا فى التصدّى لنور الدين . بينما كان نور الدين يجاهد للحيلولة دون حدوث ذلك . ويسعى بدوره للاستيلاء على مصر لاستكمال الوحدة الإسلامية ، ووضع الصليبيين فى فلسطين بين فكى الكماشة الإسلامية فى الشام ومصر .

وكانت الدولة الفاطمية فى مصر فى ذلك الحين فى حالة احتضار كما ذكرنا . منذ انتزع الوزراء كل ما كان للخليفة الفاطمى من سلطان ، وعندما يئس الخليفة الحافظ من هؤلاء الوزراء . عين ابنه وزيرًا له . ولكن الابن تآمر على أبيه ! ، مما جعل الأب يدسّ السم لابنه للتخلّص منه ! . وفى عهد الخليفة الظافر ، الذى خلفه . استبدّ الوزير العادل بن السلار بالسلطان حتى قتل سنة ١١٥٣ . ثم ما لبث أن قتل الخليفة الظافر أيضًا فى العام التالى ١١٥٤ بسبب شذوذه الخلقى ، فاستبدّ بالأمر الوزير الأرمنى طلائع بن رزيك ، واستمر هذا يلهو بالخلفاء الصغار بعد توفى الخليفة الفائز بن الظافر ، حتى قتل على يد الخليفة العاضد ! . وقد تولّى بعده ابنه الوزير العادل ، ولكنه لم يلبث أن قتل بعد خمسة أشهر على يد شاور حاكم الصعيد . الذى تولى الوزارة بدله فى يناير ١١٦٣ ! . ولكن شاور نفسه لم يلبث بدوره أن طرد فى نفس العام على يد ضرغام ، الذى أخذ بدوره يسىء أيضا الحكم ، ويقتل كثيرًا من الأمراء المصريين ، ويستبدّ بالرعية لتخلو له البلاد بلا منازع . وهكذا بدت مصر فى ذلك الحين بدون نظام حكم يحميها ! .

فى تلك الظروف قرر ملك بيت المقدس الجديد عمورى الأول **Amaury** الذى خلف بلدوين الثالث سنة ١١٦٣ بعد وفاته ، غزو مصر ! . فتقدم على رأس جيش كبير اخترق سيناء ، حتى وصل إلى بلبيس ، والتقى بالجيش الفاطمى وألحق به الهزيمة فى سبتمبر ١١٦٣ ، ثم شرع على الفور فى غزو الدلتا ! . على أن الوزير ضرغام استغل فرصة فيضان النيل ، فكسر السدود وأغرق الدلتا ، فلم يجد عمورى الأوّل أمامه بدًّا من العودة إلى بيت المقدس فاشلاً .

وقد قرر نور الدين زنكى عندئذ تنفيذ مشروعه فى توحيد الجبهة الإسلامية عن طريق ضم

مصر ، حتّى لا تتكرر المحاولة الصليبية مرة أخرى ، وقد تفلح فتضيع فرصة خروج الصليبيين من الشام وفلسطين إلى الأبد ! .

ويورد المؤرخون دور شاور ، الوزير الفاطمى المطرود ، الذى لجأ إلى بلاط نور الدين زنكى ، فى إقناعه بإعداد حملة على مصر ، على أساس أن يكون نائبًا له فيها ! . ويذكرون أن نور الدين تردّد بسبب وجود أعداء أقوياء له فى الشام ، ولكنه استخار القرآن ، وقرر إرسال هذه الحملة ! . ومعنى هذه الرواية أن شاور كان وراء الحملة الزنكية على مصر ، مع أن منطق الحوادث نفسه ، وهو الأقوى ، كان يقضى بإرسال هذه الحملة ، سواء أكان شاور موجودًا فى بلاط نور الدين أم لم يكن موجودًا ؛ لأن مصر كانت قد أصبحت فى ذلك الوقت محورًا رئيسيًّا فى الصراع بين الزنكيين والصليبيين ، وأصبح الإستيلاء عليها من جانب أى من الطرفين ضرورةً أساسيةً لتغليب كفّته على الطرف الآخر . ولم يكن فى مقدور نور الدين زنكى البقاء مكتوف اليدين حتّى تسقط مصر فى يد الصليبيين بحملة أخرى ، فتضيع أحلامه فى الجهاد ضد الصليبيين عن طريق توحيد الجبهة الإسلامية .

وعلى كل حال ، فقد كان فى ابريل سنة ١١٦٤ أن أرسل نور الدين زنكى حملة كبيرةً يقودها أسد الدين شيركوه ، نائبه فى دمشق ، للاستيلاء على مصر ، وبصحبته شاور .

على أن شيركوه اصطحب معه أيضًا ابن أخيه صلاح الدين ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يدر أنه بذلك يبدأ صفحةً جديدةً فى تاريخ الصراع بين العرب والصليبيين ! .

وفيما يظهر أن خطر الزنكيين قد بدا فى عين ضرغام ، الوزير الفاطمى ، أكبر من خطر الصليبيين ؛ إذ كان يرافقهم شاور الذى طرده ، لأننا نراه يعمد إلى تصرف غريب ، فهو يعود إلى الاستنجاد بعمورى الأوّل ملك بيت المقدس ، ويدعوه إلى مساعدته مقابل عقد معاهدة معه تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين ! . وقد سارع عمورى إلى التحرك على رأس حملة صليبية إلى مصر ليسبق الحملة النورية ، ولكن أسد الدين شيركوه قطع خطّ الرجعة على هذه المحاولة ، وسارع إلى قطع الصحراء ، رغم كبر سنه ، فى وقت وجيز ، فوصل إلى الدلتا قبل الصليبيين ، وألحق الهزيمة بالجيش الفاطمى الذى أرسله ضرغام عند تل بسطا ، ووصل إلى أسوار القاهرة فى أوّل مايو ١١٦٤ . وفى الحال تخلّى الناس والجيش والخليفة عن ضرغام الخائن ، فقتل أثناء محاولته الفرار ، وتولّى شاور الوزارة ! .

وهنا أدرك شاور أن الزنكيين هم الذين استخدموه ! ، وكان يظن أنه يستخدمهم فى الوصول

البحر الأبيض المتوسط

دمياط

تنيس

الفرما

فرع الفرما (البيلوزي)

فاقوس

بلبيس

القاهرة

الفسطاط

خليج السويس

حملة أموري الأول على مصر
١١٦٤م

خط سير الصليبيين
« « جيش نور الدين

(خريطة رقم ٢٨)

إلى الحكم وعرف أنهم أتو ليبقوا لا ليعودوا ! . وعند ذلك طلب منهم الخروج من مصر ، فردّ عليه أسد الدين شيركوه باحتلال بلبيس والشرقية ! . وهنا ارتكب شاور نفس الخيانة التى ارتكبها ضرغام ، فطلب من عمورى الأوّل ملك بيت المقدس المعاونة . وقد لبّى عمورى الدعوة ، ووصل إلى فاقوس الحالية فى أغسطس ١١٦٤ م ، حيث انضم إلى قوات شاور ، وتقدم الاثنان إلى حصار قوات شريكوه فى بلبيس .

عند ذلك لعب نور الدين زنكى فى الشام أهمّ أدواره ، فقد عمد إلى الضغط على الصليبيين فى الشمال لحمل عمورى الأوّل على الانسحاب من مصر ، وفى الوقت نفسه انتّهز فرصة تغيّب عمورى فى مصر وخلو الشام من الفرنج ، ليحقق المكاسب على حساب إمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ! .

وعلى ذلك ففى الوقت الذى كان عمورى الأوّل يتوجّه إلى مصر ، تحالف نور الدين مع كلٍّ من الأمير فخر الدين ألبى صاحب ماردين ، وقطب الدين مودود أتابك الموصل ، وهو الأخ الثالث لنور الدين – لمهاجمة حارم والاستيلاء عليها من إمارة أنطاكية . وقد هبّ الصليبيون إلى مواجهة هذا الخطر الإسلامى ، وكوّنوا حلفًا اشترك فيه بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وريموند الثالث أمير طرابلس ، وحاكم كيليكيا البيزنطى ، وثوروس الثانى الأمير الأرمنى ، وسارت قوات هذا الحلف الصليبى الكبير إلى حارم للالتقاء بنور الدين .

وعندئذ قرّر نور الدين زنكى استدراج الصليبيين ، فترك حصار حارم واتجه صوب ارتاح ، حيث تبعه الصليبيون . وهناك ، فى الموقع الذى اختاره ، دارت رحى معركة هائلة بين الجيش الإسلامى وتحالف القوى الصليبية فى يوم ١١ أغسطس ١١٦٤ ، لقى فيها الصليبيون هزيمةً من أشدّ ما منوا بها منذ دخولهم أرض المشرق العربى ، فقد قتل منهم بضعة آلاف ، وأسر منهم عدد « لا يحدّ » ! .

وقد كان على رأس الأسرى جميع ملوك الصليبيين : فأسر بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وريموند الثالث أمير طرابلس ، وجوسلين الثالث ، وهيو لوزجنان ، فضلاً عن حاكم كيليكيا البيزنطى ! .

وسرعان ما أنطلق نور الدين زنكى إلى « حارم » ليفرض عليها الحصار من جديد ويستولى عليها فى ١٢ أغسطس ١١٦٤ . ومع أنه كان فى وسعه الاستيلاء على أنطاكية بعد مقتل ملكها بوهيمند الثالث فى المعركة ، إلا أنه خشى تجدّد الحلف بين الصليبيين والبيزنطيين ، نظرًا لتبعية

أنطاكية الاسمية للإمبراطور البيزنطى ، فإتجه بدلاً من ذلك إلى بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس ، واستولى عليها فى أكتوبر ١١٦٤ . وبذلك سلب من كل من إمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس موقعين لهما أهميتهما الاستراتيجية ، فضلاً عن أسر أمير أنطاكية وأمير طرابلس وزملائهما ! .

وقد تلقى عمورى الأوّل أنباء هذه المصيبة بينما كان يحاصر مع القوات الفاطمية بقيادة شاور ، الزنكيين بقيادة أسد الدين شيركوه فى بلبيس ، فأسقط فى يده وأراد العودة إلى فلسطين لحماية مملكته ، وأخيرًا تم الاتفاق على انسحاب كل من القوات الصليبية والنورية من مصر ! .

على هذا النحو حققت الحملة الزنكية الأولى على مصر نتائجها فى الشام وليس فى مصر ! . بينما فشلت حملة عمورى الأوّل الثانية على مصر فشلاً ذريعًا فى تحقيق أى غرض ، وأكثر من ذلك أنها أضرت بمملكة القدس ضررًا بليغًا ؛ لأنها أتاحت الفرصة لنور الدين لتحقيق انتصاراته المدوية فى الشام على حساب المملكة ذاتها بالاستيلاء على بانياس ، وعلى حساب أنطاكية بالاستيلاء على حارم ! .

على أن الحملة الزنكية مع ذلك ، كانت تمهيدًا غير مباشر لوحدة مصر والشام . إذ أتاحت لأسد الدين شيركوه استطلاع أحوال مصر وسَبْر نظامها السياسى . وقد أدرك أن مصر بلا قوة يحسب بحسابها على الصعيدين الحكومى والشعبى ، وأن الحكومة فيها حكومة مهتزة مكروهة من الشعب وتفصلها عنه هوّة من عدم الثقة ، وأن الظروف مناسبة لإعادة الكرّة من جديد وإنهاء الحكم الشيعى الفاطمى الذى كان مصدرًا من مصادر الفرقة فى المشرق العربى والعالم الإسلامى ، فأخذ يلحّ على نور الدين زنكى لإعادة الكرّة من جديد ، وإيفاد حملة أخرى . وقد استجاب نور الدين زنكى ، وترتب على ذلك الحملة الزنكية الثانية على مصر فى يناير ١١٦٧ .

٤٨ – مصر بين الحملات الصليبية والحملات النورية

- حملة شيركوه الثانية على مصر فى يناير ١١٦٧ م .
- حملة عمورى الأول الثالثة على مصر فى أواخر يناير ١١٦٧ م .
- الصراع فى مصر بين قوات عمورى الأول وقوات شيركوه .
- انسحاب القوات النورية والصليبية من مصر فى أغسطس ١١٦٧ م .
- انتصار نور الدين على الصليبيين فى الشام .
- الحامية الصليبية فى القاهرة .
- استنجاد شاور بنور الدين .
- حملة عمورى الأول الرابعة على مصر فى نوفمبر ١١٦٨ م . !
- حملة شيركوه الثالثة على مصر فى ديسمبر ١١٦٨ م .
- دخول شيركوه القاهرة وانسحاب عمورى الأول إلى بيت المقدس .
- اعتقال شاور وإعدامه .
- وفاة شيركوه فى مارس ١١٦٩ وتولى صلاح الدين الوزارة الفاطمية .

٤٨ – مصر بين الحملات الصليبية والحملات النورية

رأينا كيف انتهت كلٌّ من الحملة الزنكية الأولى والحملة الصليبية الثانية على مصر بخروج الحملتين معًا ، وعادت مصر إلى أحوالها المتردّية تحت الخلافة الفاطمية لتشكّل فراغًا حقيقيًّا فى المشرق العربى . أصبح يجتذب من جديد كلاًّ من الدولتين القويتين المتصارعتين ، وهما دولة نور الدين بالشام ودولة عمورى الأوّل ملك بيت المقدس . وهكذا أصبحت مصر مرةً أخرى محور تنافس وصراع بين الزنكيين والصليبيين .

ونظرًا لتشابك الصراع وتعقده ، فإننا نكتفى بتبسيطه بالقول بأنه مر بثلاثة أدوار :

الدور الأول ، وقد مر بنا فى الفصل السابق .

والدور الثانى ، وقد بدأ الزنكيون الصراع بحملتهم الثانية على مصر سنة ١١٦٧ .

والدور الثالث ، وقد بدأ الصليبيون الصراع بحملتهم الثالثة على مصر سنة ١١٦٨ .

وفى كلا الدورين كان الفاطميون يستعينون بالطرف الآخر على الطرف الأوّل !. ومن حسن الحظ أن الأمور سقطت فى النهاية فى يد صلاح الدين ، فحسم الأمر لصالح الوحدة الإسلامية .

وكنا قد رأينا كيف عاد أسد الدين شيركوه من حملته الأولى على مصر متحمسًا للعودة إليها . وقد أخذ يلحّ على نور الدين لإعداد حملة ثانية للاستيلاء عليها حتى لا تسقط فى يد الصليبيين . فاقتنع نور الدين وأسند إليه قيادة حملة أخرى فى يناير ١١٦٧ ، رافقه فيها أيضًا ابن أخيه صلاح الدين .

وقد أفلحت الحملة فى شقّ طريقها حتى وصلت إلى الدلتا ، ولم ير شيركوه من الحكمة مهاجمة القاهرة ، فعسكر فى الجيزة فى مواجهة الفسطاط . . على أن شاور الخائن ، وزير الخليفة الفاطمى سرعان ما استنجد بالصليبيين ، فسارع عمورى الأوّل ملك بيت المقدس بجيشه فى نهاية يناير لتلبية النداء ، وسار فى الطريق المألوف من غزة إلى العريش إلى بلبيس ، حيث استقبله شاور ، وعسكر الجيشان على الضفة الشرقية للنيل ، بعد أن أبرم تحالف بين الطرفين يخوّل للصليبيين حقّ حماية مصر والخليفة الفاطمى من شيركوه مقابل أربعمائة ألف دينار يدفع نصفها فوراً !.

البحر الأبيض المتوسط

دمياط

بحيرة المنزلة

تنيس

الفرما

فرع الفرما (البيلوزي)

فاقوس

بلبيس

القاهرة

الفسطاط

أطفيح

خليج السويس

حملة أموري الأول على مصر
١١٦٧ م

خط سير الصليبيين

" " جيش نور الدين

(خريطة رقم ٢٩)

وقد عبر الجيش المصرى – الصليبى إلى جزيرة الروضة لمهاجمة شيركوه ، ولكنه انسحب إلى الصعيد ، حيث لحق به عمورى الأوّل وشاور قرب الأشمونين فى المنيا . وهناك دارت معركة غير متكافئة (كانت قوة شيركوه ألفى فارس فقط) انتهت نهاية غير متوقّعة ، وهى هزيمة الجيش الصليبى – المصرى أمام شيركوه وصلاح الدين !.

ويقول المؤرخون إنه لو ساق شيركوه جيشه خلف عمورى وشاور لامتلك القاهرة ، ولكنه آثر امتلاك الإسكندرية . فسار شمالاً حتى أدركها ، وهنا استقبله أهلها طائعين بسبب سخطهم على الحلف مع الصليبيين .

وهنا ترك شيركوه ابن أخيه صلاح الدين نائباً عنه ، وعاد إلى الصعيد على رأس الجزء الأكبر من جيشه ، حيث فتح معظم بلاده حتى قوص التى فرض عليها الحصار . على أن الجيش الصليبى – المصرى ، انتهز فرصة وجود شيركوه فى الصعيد ليحاصر الإسكندرية وصلاح الدين فيها ، حتى قلّ الطعام ، مما اضطر صلاح الدين إلى الاستنجاد بعمّه . وقد وجد شيركوه أن خير طريقة لفكّ الحصار عن الإسكندرية ، أن يفرض هو الحصار على القاهرة !.

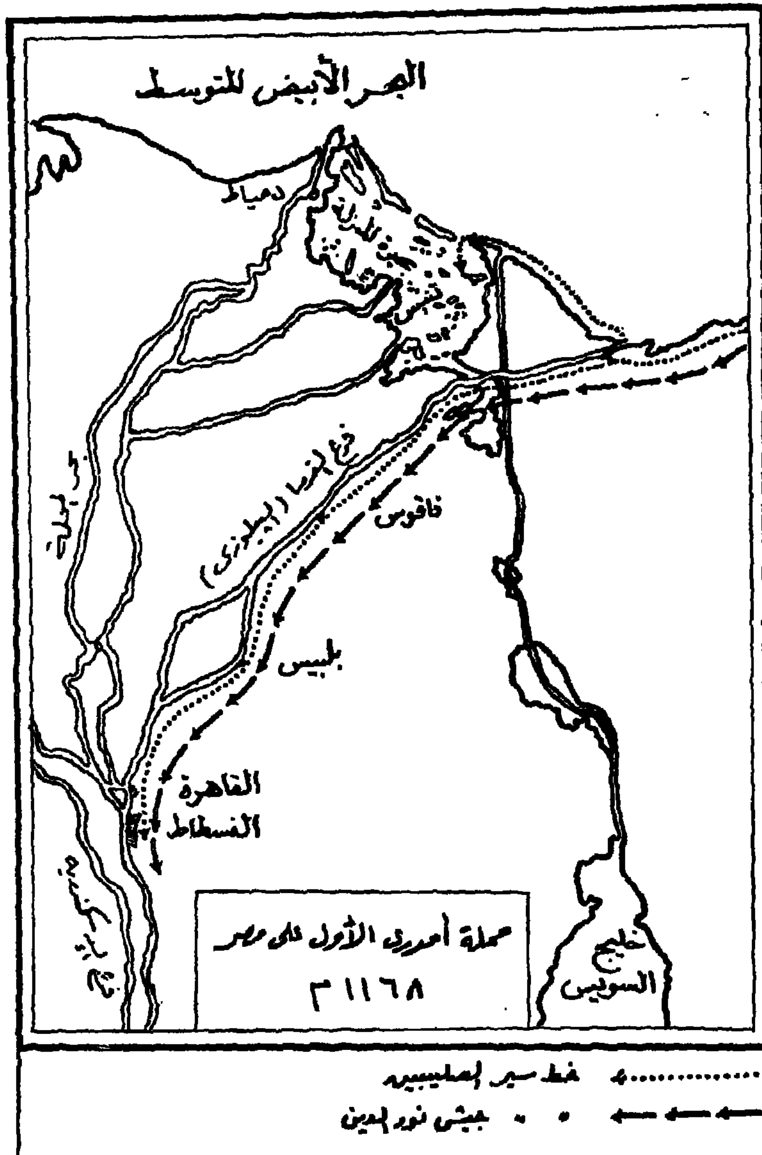
وإزاء هذا الموقف المتوازن لم ير الطرفان بدًّا من التفاوض من أجل الصلح ، وتم الاتفاق بالفعل على انسحاب الطرفين من مصر كما حدث فى المرة السابقة !.

وقد انتهز نور الدين فرصة وجود جيش عمورى الأوّل فى مصر . ليحقق مكاسب فى الشام كما فعل فى المرة الأولى !. ففتح قلعتى العريمة وصافينا من إمارة طرابلس ، وهاجم مملكة بيت المقدس من جهة الشمال الشرقى ، وخرب قلعة هونين ، ثم هاجم بيروت .

على أن عمورى الأوّل لم ير العودة من مصر إلى مملكته بخفّى حنين ، فعقد اتفاقًا مع الخلافة الفاطمية يقضى بدفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار لمملكة بيت المقدس ، وبقاء قوّة من فرسان الصليبيين تحمى أبواب القاهرة ، فضلاً عن إقامة مندوب صليبى فى القاهرة ممثلاً للملك الصليبى !.

وعلى هذا النحو انتهى الدور الثانى من الصراع ليبدأ الدور الثالث !.

ذلك أن الفاطميين لم يلبثوا أن أدركوا حجم المصيبة التى أوقعوا أنفسهم فيها بدعوة الصليبيين لحمايتهم من نور الدين ، فقد أخذ المندوب الصليبى فى القاهرة يتدخل فى شئون الحكم ، فى الوقت الذى كان وجود حامية صليبية لحراسة أبواب القاهرة قد أخذ يثقل على الضمير الإسلامى للمصريين . فأخذوا يتحرشون بالصليبيين . وانقلب هؤلاء من حراس وحماة إلى غزاة وفاتحين .


البحر الأبيض المتوسط
دمياط
فرع الفرما (البيلوزى)
فاقوس
بلبيس
القاهرة
الفسطاط
حملة أمورى الأول على مصر
١١٦٨م
خليج
السويس
خط سير الصليبيين
جيش نور الدين

(خريطة رقم ٣٠)

فأخذوا يسيئون إلى أهل القاهرة «وركبوهم بالأذى» !.

عند ذلك أفاق شاور إلى خيانته . فانقلب على سياسته ، وأرسل ابنه الكامل إلى نور الدين ينهى إليه محبته وولاءه ، ويعرض الدخول فى طاعته ، بل عرض تأكيد هذه العلاقة الجديدة عن طريق تزويج ابنه الكامل لأخت صلاح الدين ، أو تزويج صلاح الدين لابنته !.

وهنا دبّ الخلاف فى صفوف الصليبيين . فقد رأى فرسان عمورى الأوّل وأمراؤه ضرورة غزو مصر وإخضاعها ، حتى لا تقع فى يد نور الدين زنكى ، وأرسل رجال الحامية الصليبية فى مصر إلى ملكهم «يستدعونه ليملكها ، وأعلموه خلوّها من الموانع ، وهوّنوا عليه أمرها» بينما رأى عمورى الأوّل أنه إذا استجاب لهذه الرغبة فى تلك الظروف . فلن يجد المقاومة من شاور والخليفة وجيشهما فقط ، بل سيجد المقاومة من الشعب المصرى بأسره !. ولذلك يورد ابن الأثير فى «التاريخ الباهر» أن عمورى ردّ على أصحابه قائلاً : «إن صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا دونها» !. وهذا ما جعل بعض المؤرخين يعلّقون على هذه الواقعة بقولهم إنه «مما يشرف مصر وتاريخها أن الملك عمورى والصليبيين قد عملوا حسابًا لعامة أهل مصر وفلاحيها ، بينما كانوا يعلمون مدى انحلال حكام مصر وضعفهم» ! .

على أن عمورى الأوّل لم يلبث تحت ضغط فرسانه وقواده أن قبل إعداد حملة صليبية للاستيلاء على مصر ، أسهم فيها «فرسان الاسبتارية» مساهمةً فعالةً ، وهم فرقة دينية - عسكرية يطلق عليها اسم «فرسان القديس يوحنا» ، تتخذ الصليب الأبيض شعارًا لها ، وقد لعبت دورًا هامًّا أثناء الحروب الصليبية وما بعدها فى البحر المتوسط .

وقد غادرت هذه الحملة عسقلان فى أواخر أكتوبر ١١٦٨ ، متجهة إلى دلتا النيل للمرة الرابعة ، فحاصرت بلبيس وهاجمتها واستولت عليها عنوةً فى ٤ نوفمبر ١١٦٨ ، وأعملت سيوفها فى الأهالى «فقتلت منهم خلقًا كبيرًا» وارتكبت جرائم مُنْكرة إذ لم تفرق بين سن أو جنس أو دين ، ثم زحفت على القاهرة لاحتلالها .

وهنا عمد شاور إلى حرق الفسطاط لكيلا يستفيد منها عمورى ، فاستمرت فيها النار مدّة أربعة وخمسين يومًا ! » وأخذ فى تحصين القاهرة للدفاع عنها . بينما أرسل الخليفة الفاطمى إلى نور الدين زنكى يستنجد به بطريقة تدعو إلى الشفقة والرثاء ، فقد بعث مع الرسائل خصلات من شعر سيدات البلاط الفاطمى ليثير حمية نور الدين للدفاع عن حرمات المسلمين المهددة بالانتهاك . وعرض عليه «ثلث بلاد مصر» إذا هو أنقذه من الصليبيين !.

على أن نور الدين لم يكن بحاجة لهذه الصرخات ؛ لأن سقوط مصر فى يد الصليبيين كان من شأنه القضاء على كل مشروعاته الوحدويّة ؛ ولذلك عهد إلى شيركوه للزحف على مصر للمرة الثالثة ، وقد صحب صلاح الدين عمّه فى تلك الحملة الجديدة متمنعًا بسبب ما لاقاه من عناء فى حصار الإسكندرية ! وتحركت الحملة فى ديسمبر ١١٦٨ م .

فى تلك الأثناء وصل إلى بحيرة المنزلة وتانيس الأسطول الصليبى . وحاول التقدم إلى القاهرة لمساعدة جيش عمورى ، ولكن المصريين وضعوا العقبات فى مجرى النيل على النحو الذى شلّ حركة الأسطول الصليبى . فلم يتمكن من تعزيز القوة الموجودة أمام القاهرة .

ويبدو أن شاور خشى تأخر جيش نور الدين فلا يصل إلاّ بعد سقوط القاهرة . لأنه عرض على عمورى الأوّل مائة ألف دينار فى سبيل التّراجع عنها . وقد قبل عمورى لإدراكه صعوبة الاستيلاء على مدينة كبرى معادية مثل القاهرة من جهة ، ولسماعه باقتراب جيش نور الدين وضرورة مواجهته من جهة أخرى .

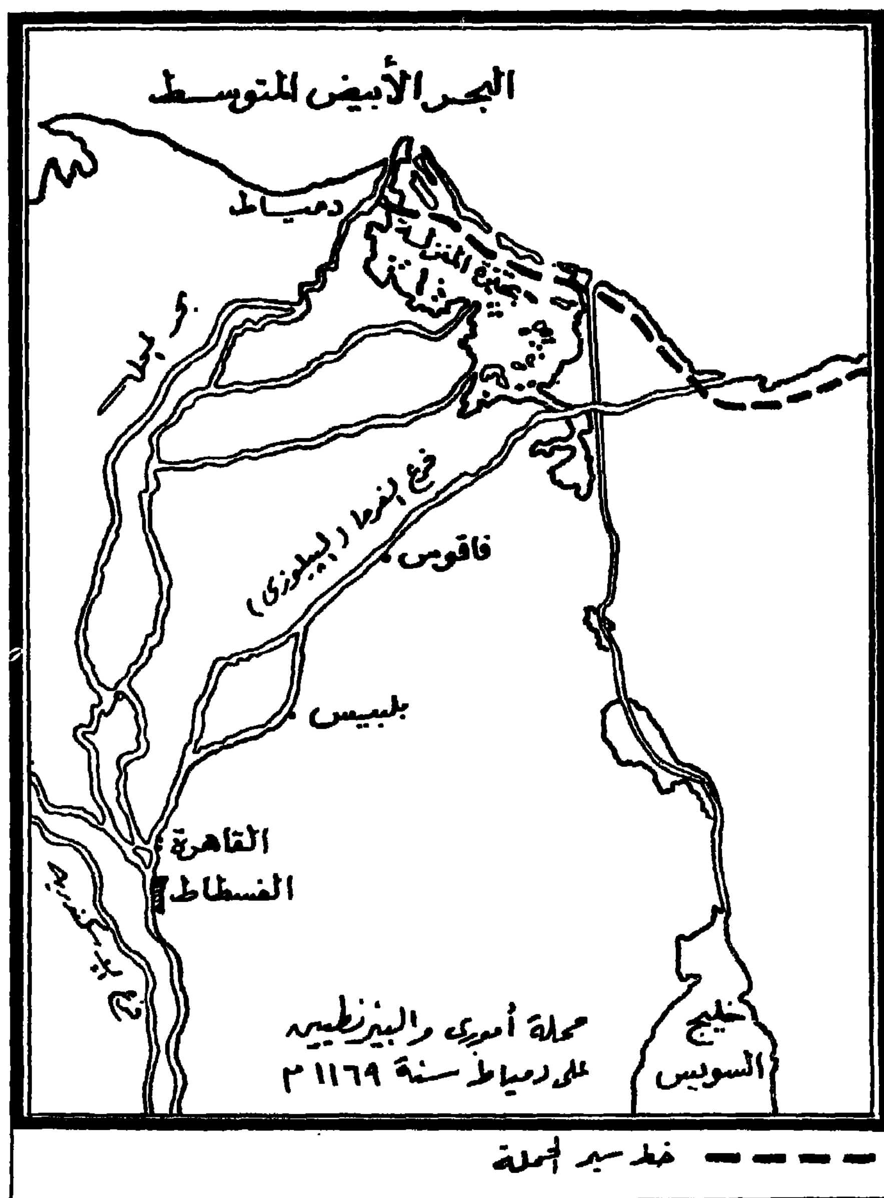
لذلك انسحب عمورى إلى جهة سرياقوس على عزم مباغتة جيش نور الدين عند فاقوس ، قبل أن يستريح من زحفه ، ولكن شيركوه فى تلك الأثناء كان قد اخترق الصحراء متجهًا إلى القاهرة ، حيث استقبله أهلها استقبال المنقذ ، والتفّوا حوله . وبذلك توحّد الجيش الشامى والجيش المصرى ضد الصليبيين ! .

وهنا أدرك عمورى الأوّل أنه لن يستطيع تحقيق أهدافه التى قدم لأجلها ، وهى الاستيلاء على مصر ، فلم ير مفرًّا من الانسحاب إلى بيت المقدس فى يناير ١١٦٩ ، « عائدين إلى بلادهم بخفى حنين ، خايبين مما أملوه » ! .

وسرعان ما أخذ المسرح السياسى فى المشرق الإسلامى يفتتح فصلاً جديدًا . ذلك أن الخليفة الفاطمى لم يلبث أن استدعى شيركوه إلى القصر ، « وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقّبه بالمنصور » فبدأت تتأسس الوحدة بين مصر والشام التى كانت أمل نور الدين زنكى .

وقد ساعدت تطورات الموقف بعد ذلك على الإسراع بها . ذلك أن شاور لم يلبث أن عاد إلى سيرة المراوغة والخداع بعد أن زال الخطر الصليبى ، بل حاول تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه وقادته ، ولكن ابنه الكامل اعترض عليه قائلاً :

« والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن شيركوه ! . فردّ أبوه قائلاً : والله لئن لم نفعل هذا


البحر الأبيض المتوسط
دمياط
بحيرة المنزلة
فرع الفرما (البيلوزى)
فاقوس
بلبيس
القاهرة
الفسطاط
خليج السويس
حملة أموري والبيزنطيين
على دمياط سنة ١١٦٩م
خط سير الحملة

(خريطة رقم ٣١)

لنقتلن جميعًا ! . فقال الكامل : صدقت ، نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ! » .

وعندما أحس صلاح الدين برائحة الخيانة تفوح من شاور ، الذى أخذ يماطل فى تنفيذ الوعود التى قطعها العاضد إلى نور الدين ، وهى ثلث الأراضى المصرية ، وتوزيع إقطاعات على الجيش ، قرر اعتقاله ، ووثب عليه وهو فى طريقه لزيارة قبر الإمام الشافعى ، ويقال إن الخليفة الفاطمى العاضد شارك فى المؤامرة ؛ ولذا فقد أمر بعد اعتقال شاور بقطع رأسه !. وأصدر مرسومًا عيّن فيه شيركوه قائدًا عامًّا للجيوش المصرية ، ودخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباحوا للأهالى نهب قصر شاور .

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بمرض التخمة بعد شهرين ، أى فى مارس ١١٦٩ ، فخلفه صلاح الدين ، الذى استوزره الخليفة الفاطمى بعد ثلاثة أيام من وفاة شيركوه ، ولقّبه بالملك الناصر .

وهكذا بعد أن كانت مصر فى دور الاضمحلال والضعف ، أخذت تتهيأ لتصبح مركز المقاومة الإسلامية فى الشرق العربى ضدّ الصليبيين !.

٤٩ - حصار دمياط

- توحد الجبهة الإسلامية فى الشام ومصر.
- استقلال صلاح الدين بأمور مصر.
- تحالف عمورى الأول ومانويل كومنين لغزو مصر.
- الحملة الصليبية البيزنطية على مصر فى ١١٦٩ م.
- حصار دمياط بحرًا وبرًا فى أواخر أكتوبر ١١٦٩ م.
- صمود دمياط.
- نشاط نور الدين فى الشام.
- استيلاء نور الدين على الموصل ١١٧٠ م.
- حصار صلاح الدين لغزة فى ديسمبر ١١٧٠ م.
- إستيلاء صلاح الدين على إيلات فى نهاية ديسمبر ١١٧٠.
- إنهاء الخلافة الفاطمية فى مصر فى سبتمبر ١١٧١ م.
- فتح صلاح الدين للنوبة واليمن.
- فشل محاولات عمورى الأول لتجديد القوى الصليبية.
- توتر العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين.

٤٩ - حصار دمياط سنة ١١٦٩ م

انتهى الصراع بين الصليبيين ونور الدين زنكى على مصر ، بانتصار نور الدين ، ودخول نائبه شيركوه وفى صحبته ابن أخيه صلاح الدين القاهرة دخول المنقذ ، وانسحاب عمورى الأوّل إلى بيت المقدس ، وأصبح شيركوه وزير الخليفة الفاطمى العاضد ؛ ثم خلفه صلاح الدين بعد شهرين عند وفاته . وبذلك تهيأ المسرح السياسى فى المشرق العربى لفصل جديد .

فمن ناحية أصبحت مصر والشام تحت قيادة واحدة ، وانتصرت الجبهة الإسلامية الموحدّة ضدّ الصليبيين . ومن ناحية ثانية فإن تولّى صلاح الدين الوزارة لم يلبث أن انتقل بمصر من دولة ضعيفة تعانى سكرات الموت ، إلى دولة قوية ومركز للمقاومة الإسلامية فى الشرق العربى ضدّ الصليبيين . وتحولت لتصبح المخزن الكبير الذى أمدّ النضال الإسلامى بالموارد البشرية والمالية الضرورية لتوجيه الضربات إلى الصليبيين ، وقلعة حصينة خرجت منها جيوش الأيوبيين ثم المماليك لتقوّض فى النهاية البناء الذى أقامه الصليبيون على الأرض العربية .

وكان صلاح الدين قد أخذ فوْر توليه الوزارة فى السيطرة على الأمور فى مصر عن طريق استمالة قلوب المصريين من جهة ، وإخضاع مماليك شيركوه والسيطرة على الجند من جهة أخرى . وقد بقيت الفرقة السودانية ، التى كان يعتمد عليها الخليفة العاضد ، عقبة فى سبيل استكمال سيطرته ، ولكن رئيسها نجاح ، الملقب « بمؤتمن الخلافة » ، قدّم له الذريعة لتصفيتها عندما تآمر على صلاح الدين ، وأراد الاتصال بالصليبيين ، فأعدمه صلاح الدين . وعندما غضبت فرقته السودانية لإعدامه وقامت بثورة عارمة فى الفسطاط اشترك فيها نحو خمسين ألفًا ، أشعل صلاح الدين النار فى محلتهم حتى انتقلوا إلى الجيزة ، ثم أرسل إليهم أخاه توران شاه بن أيوب ، فأبادهم بالسيف . ثم عمد إلى حرس الخليفة من الأرمن ، فأشعل النار فى ثكناتهم ، وقضى عليهم حتى لا يعطيهم الفرصة للقيام بمثل ما قامت به الفرقة السودانية . ثم تخلص من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى ، وبذلك خلص الأمر له .

فى تلك الأثناء أحست القوى الصليبية فى الشام بأنها وقعت بين فكى كماشة هائلة بوجود نور الدين زنكى فى الشمال الشرقى وصلاح الدين فى الجنوب الغربى . وفى نفس الوقت فإن سيطرة

صلاح الدين على القواعد البحرية فى الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانى الدلتا ، قد نقل السيادة البحرية من يد الصليبيين فى شرق البحر المتوسط إلى يد المسلمين ! .

وقد نشط عمورى الأوّل فى ذلك الحين فى إثارة الغرب الأوروبى للإسراع بحملة صليبية جديدة تؤكد وضع الصليبيين فى المشرق العربى ، واتصل بفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، فضلاً عن وليم الثانى ملك صقلية . على أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية فى ذلك الحين حال دون تنفيذ هذه الحملة .

وعندئذ اتجه عمورى الأول إلى البيزنطيين ، الذين أزعجهم بدورهم هذه التطورات الخطيرة فى المشرق العربى ، وأدركوا خطورة وحدة مصر والشام تحت قيادة إسلامية واحدة ، فتم التحالف من جديد بين عمورى ومانويل كومنين على أساس مهاجمة مصر وانتزاعها من يد نور الدين زنكى ثم اقتسامها .

وفى يوم ١٠ يوليو سنة ١١٦٩ قامت حملة ضخمة من الدردنيل ، وصفها بعض المؤرخين بأنها « أرمادا » ! — اشارة إلى ضخامتها — اتجهت إلى الشام بعد أن لحقت بها وحدات إضافية فى قبرص ، وتقابلت فى عكّا مع القوات الصليبية التى دعمها عمورى الأول « بفرسان الاسبتارية » : ثم أقلع الأسطول البيزنطى إلى مصر بينما زحف الصليبيون برًّا من عسقلان إلى الفرما فى ١٦ أكتوبر ١١٦٩ .

وكانت الخطة مهاجمة دمياط بدلاً من الإسكندرية كما جرت العادة فى الحملات السابقة ، لتضليل صلاح الدين . وبالفعل فإن صلاح الدين أسرع إلى تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية دون أن يهتم الاهتمام الكافى بدمياط ، فى الوقت الذى نصب الصليبيون معسكرهم أمام دمياط ! فى أواخر أكتوبر ١١٦٩ م .

وسرعان ما نشب القتال ، فحاول الأسطول البيزنطى دخول الميناء ، ولكن احتجزته السلاسل الحديدية الممتدّة بعرض الميناء . واستفاد أهل دمياط من خبراتهم السابقة مع الأعداء ، فاستغلوا جريان تيار النيل إلى البحر المتوسط ، وألقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطى أضرارًا كبيرة ، وأجبرته على الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحسّت بنضوب تموينها وبدأت تشعر بالجوع ، مما جعل القائد البيزنطى يقترح على عمورى الأوّل القيام بهجوم شامل على دمياط ، ولكن عمورى رفض ، لأن صلاح الدين فى تلك الأثناء كان قد جلب قوات كبيرة حشدها داخل المدينة ، ووردت إليه

الإمدادات والنجدات من نور الدين ، حيث وصلت إليه من طريق النيل .

وفى الوقت نفسه ؛ وكما هى العادة ، فإن نور الدين انتهز هذه الفرصة لمهاجمة الممتلكات الصليبية فى الشام فى غياب الجيوش المدافعة عنها ، وقد وصلت أنباء هذا الهجوم إلى الصليبيين أمام دمياط ، فشعروا بأن انتظارهم قد طال أمامها دون جدوى ، وبأنه يعرض بلادهم ذاتها للخطر . ولذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط والعودة إلى عسقلان ! . وهناك وجدوا أن نور الدين قد ألحق بها الخراب والدمار ! . ولذا يصفهم ابن الأثير فى كتابه : « التاريخ الباهر » « بأنهم أشبه بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين ، فعادت بلا أذنين » . . ! .

وبطبيعة الحال لم يجد الأسطول البيزنطى بدًّا من الانسحاب بدوره ، بعد أن بلغ الإرهاق من البحارة مبلغه ، حتى عجزوا عن السيطرة على السفن ، فغرق كثير منها ، وظلت الأمواج تقذف بجثث بحارتها أمام الشاطئ عدة أيام متتالية ! . وكانت تلك نهاية الحملة الصليبية البيزنطية على مصر عام ١١٦٩ .

ولم تلبث الظروف أن أتاحت لنور الدين زنكى الاستيلاء على الموصل أيضًا فى سنة ١١٧٠ . كما استولى على نصيبين ووادى الخابور . وبذلك امتدت سلطته من العراق إلى الشام إلى مصر ، لتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة ربطًا وثيقًا .

وفى تلك الأثناء كان صلاح الدين قد وطد مركزه فى مصر ، وأصبح يسيطر على الجبهة الداخلية ، ومن ثم بدأ فى توجيه اهتمامه إلى الجبهة الخارجية : الصليبيين ! .

ففى أوائل ديسمبر ١١٧٠ أعدّ حملةً للاستيلاء على غزّة ، فبدأ بحصار قلعة الدارون جنوبى غزة ، كما فرض الحصار على غزة ، ولكن الملك عمورى الأوّل أتى بنفسه على رأس قواته لنجدة الموقعين ، ودارت معركة بين الجيشين هُزِمَ فيها الصليبيون ، وأفلت عمورى الأوّل من الأسر بأعجوبة ، ولكن صلاح الدين انسحب إلى مصر ليستعدّ لضربة أخرى فى خليج العقبة .

ففى ذلك الحين كان قد بنى عددًا كبيرًا من السفن ، ونقلها على ظهور الجمال عبر سيناء إلى البحر الأحمر ، ثم أعاد تركيبها . وهاجم إيلات بحرًا بينما كان يهاجمها برًّا ، فسقطت المدينة فى يده فى نهاية ديسمبر ١١٧٠ .

وفى نفس الوقت أخذ نور الدين زنكى يشدّد الضغط من الشمال . فأرسل قوّةً هاجمت إمارة أنطاكية فى سبتمبر ١١٧١ ، بينما هاجم هو إمارة طرابلس . فحاصر عرقة ، واحتل قلعتى عريمة وصافينا . وبذلك أخذ الصليبيون يتعرضون للضغط الإسلامى من الشمال والجنوب ! .

فى ذلك الحين كانت الخلافة الفاطمية قد أصبحت اسمًا على غير مسمى ، فلم يكتف صلاح الدين بالاستيلاء على جميع مقاليد الأمور فى يده ، بل عمل على نشر وتدعيم المذهب السنّى فى مصر بكافة الوسائل وأخذ فى تحويل المدارس الشيعية إلى مدارس سنّية شافعية ، وأحلّ القضاة الشافعية محلّ الشيعية فى جميع أنحاء البلاد . وفى سبتمبر ١١٧١ ، وبإلحاح نور الدين زنكى ، أعلن سقوط الخلافة الفاطمية ، وأمر بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضىء محلّ اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة . وقد حدث هذا التحول فى هدوء ، « ولم ينتطح فيه عنزان » – حسب قول ابن الأثير ! . وبذلك عادت مصر إلى المذهب السنّى بعد قرنين من الزمان تقريبًا ، بكل ما ترتب على ذلك من عودة العالم الإسلامى إلى وحدته المذهبية ! .

ولم يلبث صلاح الدين أن عمل على توحيد الجبهة الجنوبية ، فأرسل أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب فى أواخر سنة ١١٧٢ لفتح بلاد النوبة . وبعد عامين أرسل أخاه ثانيةً لفتح اليمن ، وقد نجح فى ذلك وأصبحت تابعة لصلاح الدين .

وفى تلك الأثناء كان عمورى الأوّل يسعى جاهدًا لتجديد القوى الصليبية فى المشرق العربى عن طريق حملة صليبية جديدة. فجدّد دعوته واستغاثته بالبابوية والغرب الأوروبى. وعندما تبيّن ضعف الاستجابة ، لم ير مفرًا من الاتجاه إلى الإمبراطورية البيزنطية لتكوين حملة جديدة على مصر ! وأبحر بالفعل فى ١٠ مارس ١١٧١ إلى القسطنطينية لهذا الغرض . وبطبيعة الحال فقد طالب الإمبراطور بالثمن ، ولكنه كان ثمنًا باهظًا ، وهو اعتراف ملك بيت المقدس نفسه بتبعيته للإمبراطور البيزنطى . وقد قبل عمورى الأوّل هذه التضحية فى سبيل تكوين جبهة مسيحية ضدّ الجبهة الإسلامية ! .

على أن الأمور فى الجبهة الإسلامية كانت فى ذلك الحين مقدمة على تغيير كبير . فى ذلك الحين كانت العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين قد بدأت تدخل فى مرحلة صعبة ، بسبب عمل صلاح الدين على الاستئثار بمصر ، وخوف نور الدين من استقلال تابعه عنه . وفى الحقيقة أن صلاح الدين كان بين نارين : فإذا ظلّ على ولائه لنور الدين بوصفه نائبا عنه فى مصر ، فقد كان عليه أن يتقبّل نقله من مصر إلى أىّ بلد آخر فى أىّ لحظة ! . وإذا خرج على نور الدين فسوف يتعرض لهجوم جيوشه عليه ، وهو ما لا قبل له بها ؛ لذلك اتبع سياسة الملاينة وإرسال الهدايا ! .

على أن الصدام سرعان ما أصبح محتومًا ، حين صدرت إليه الأوامر من نور الدين بمهاجمة حصن الشوبك فى وادى عربة ، وفى أثناء حصاره للحصن علم أن نور الدين فى طريقه إليه

لمساعدته ، فخشى أن يقبض عليه ويعزله ! ، فانسحب إلى مصر بحجّة مساعدة أخيه على محاربة أتباع الفاطميين فى الصعيد ، وبأن ثورة العلويين تنذر بالاشتعال فى القاهرة . على أن نور الدين لم يقبل هذه الحجة . بل بدأ يستعدّ للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ! . على أن صلاح الدين ، تحت نصيحة أبيه ، كتب إلى نور الدين يعرب له عن ولائه ، وخرج فى العام التالى ١١٧٣ لغزو الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية لإثبات حسن نيته . على أنه حين علم باقتراب نور الدين من الكرك ، تخوّف من أن يغدر به ، فانسحب سريعًا إلى مصر بحجّة مرض أبيه الذى استخلفه ! وعندئذ أدرك نور الدين أنه لم يعد مفر من المواجهة مع تابعه ، وصمم نهائيًّا على غزو مصر والقضاء على صلاح الدين ، وشرع بالفعل فى إعداد جيشه ، ولكنه لم يلبث أن توفّى سنة ١١٧٤ قبل أن يحقق غرضه ، وبذلك لم يحدث الصدام المنتظر ! .

على أنه بموت نور الدين يكون قد أخلى الميدان تمامًا لصلاح الدين ، وأكثر من ذلك يكون قد أخلى الميدان لمصر لترث الدور الذى لعبه الشام والعراق فى عهده وعهد أبيه ، ولتنتقل بهذا الدور إلى مستوى جديد تحت قيادة صلاح الدين ، وسوف يدفع ثمنه الصليبيون ! .

٥٠ – مصر مركز الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين

- انتقال مركز الجهاد الإسلامى من الشام إلى مصر بموت نور الدين .
- إغارة الأسطول الصقلى الفاشلة على الإسكندرية فى يونية ١١٧٤ م .
- تصفية الفاطميين على يد صلاح الدين .
- وفاة عمورى الأول فى يولية ١١٧٤ م .
- صلاح الدين يبسط سلطته من الفرات إلى النيل .
- فتح حلب فى يونية ١١٨٣ م ثم الموصل فى مارس ١١٨٦ .

٥٠ - انتقال مركز الجهاد الإسلامي من الشام إلى مصر على يد صلاح الدين

بموت نور الدين زنكى انتهى الدور التاريخى فى ذلك الحين لقيادة الشام لحركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ، وانتقل هذا الدور إلى مصر تحت حكم صلاح الدين . ذلك أن الخلاف والتنافس بين أمراء نور الدين على الوصاية على ابنه القاصر الصالح إسماعيل ، لم يلبث أن هدّد الدولة النورية وآذن بتقسيمها ، فى الوقت الذى كانت مصر موحدّة تحت صلاح الدين ، الذى كان يبدو أقوى أمراء الدولة الزنكية ، والذى أرسل إلى الشام يعلن حقّه فى الوصاية على الصالح إسماعيل وأملاكه .

على أن صلاح الدين لم يفعل شيئًا فى ذلك الحين نظرًا للخطر الذى أصبح يواجه مصر من ناحية الصليبيين . ففى ذلك الوقت كانت قد تواطأت على صلاح الدين عناصر الشيعة فى مصر من أتباع الفاطميين ، والباطنية (الحشيشية) فى الشام ، والصليبيين فى بيت المقدس ، وتم الاتفاق على الاستعانة بالأسطول الصقلى ، على أن يشعل الشيعة فى مصر الثورة فى القاهرة فى الوقت الذى يهاجم الأسطول الصقلى الإسكندرية ، ويدهم الصليبيون فى مملكة بيت المقدس مصر من الشرق ! .

وبناءً على هذا التحالف وصلت الأساطيل الصقلية أمام الإسكندرية فى ٢٨ يولية ١١٧٤ ، وكان عددها يتراوح بين ٦٠٠ وفقًا للمصادر العربية و ٢٨٢ وفقًا للمصادر الغربية ، وتحمل ثلاثين ألف مقاتل ! .

على أن صلاح الدين فى تلك الأثناء كان قد أجهض المؤامرة بالقبض على زعمائها فى مصر ، مما أدى إلى عدم اشتراك بيت المقدس بقواتها فى المعركة ، وتوفى عمورى الأول مقهورًا فى يولية ١١٧٤ . وبذلك تركزت المقاومة ضدّ الأسطول الصقلى ، الذى لم يستطع الصمود أكثر من يومين ، ثم انسحب طالبًا النجاة فى البحر بعد أن تكبد خسائر فادحةً على يد جيش صلاح الدين والمقاومة الشعبية .

وقد كان عقب انتهاء الخطر الداخلى فى مصر ، أن اتجه صلاح الدين لتأمين الوحدة الإسلامية ، وحمل الراية التى تركها نور الدين زنكى . وكانت الخلافات بين أمراء الدولة النورية

قد أدّت بأمير دمشق إلى الاستنجاد بصلاح الدين ، فخرج من مصر على رأس جيش من ستمائة فارس ، ووصل إلى دمشق فى أواخر نوفمبر ١١٧٤ ، فاستقبل فى دمشق استقبالاً طيبًا . وبعد أن استمال قلوب الأهالى ، اتجه إلى حمص فاستولى عليها فى ديسمبر من نفس العام ، ثم استولى على مدينة حماة فى نهاية الشهر نفسه . وبذلك أصبحت حلب محور الصراع ، وقد فرض عليها صلاح الدين الحصار .

على أن أصحاب كمشتكين ، المستبد بأمور حلب ، لم يلبثوا أن سارعوا إلى الاستعانة بالحشيشية الذين أرسلوا إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله . ولكنهم فشلوا فى ذلك ، فأرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى يستعينون به ضدّ صلاح الدين ، وقد رحب ريموند بهذه الفرصة ، فهاجم مدينة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها ، مما اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب مؤقتًا فى أوائل فبراير ١١٧٥ لنجدة حمص .

وفى تلك الأثناء كان غازى الثانى أمير الموصل قد عبّأ جيوشه مع جيوش حلب ضد صلاح الدين. فلما عاد دارت موقعة هامّة عند «قرون حماة» فى أواخر أبريل ١١٧٥ ، انتصر فيها صلاح الدين على الزنكيين ، وعاقب الصالح إسماعيل بأن أعلن تحرره من التبعية الزنكية ، ولقّب نفسه باسم « ملك مصر والشام » ، وأرسل إلى الخليفة العباسى طالبًا إقرار الوضع الجديد ، فأقرّه ، وبذلك اكتسب وضعه شكلاً شرعيًّا .

على أن الزنكيين لم يلبثوا أن انقلبوا على ماضيهم النضالى مرة أخرى بالاستعانة بالصليبيين ، وعبّأ سيف الدين غازى ملك الموصل ، جيشه ، واشترك مع جيش ريموند الثالث ، صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس ، فى مهاجمة صلاح الدين . والتقى الجيشان عند تل السلطان ، على الطريق بين حماة وحلب ، فى إبريل ١١٧٦ ، فانتصر صلاح الدين انتصارًا كبيرًا ، واستولى على غنائم ضخمة . ثم شرع فى مهاجمة بعض المواقع الهامة الواقعة شرقى حلب لقطع الصلة بينها وبين الموصل . وانتهى الصراع فى هذه المرحلة بإبرام هدنة بين الجانبين لمدة ست سنوات .

وقد استفاد صلاح الدين من هذه الهدنة فى تصفية الباطنية ، الذين حاولوا اغتياله مرة أخرى فى صيف ١١٧٦ أثناء حصاره عزاز ، فاتجه إلى قلعة الباطنية فى مصياف ، وفرض عليها الحصار ، وقتل منهم كثيرين ، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم خال صلاح الدين .

ولم يلبث أن أخذ يستعجل ضم حلب والموصل بعد وفاة الصالح إسماعيل ، ابن نور الدين

زنكى سنة ١١٨١ ، وانتهاء الهدنة سنة ١١٨٢ . إذ أوصى الصالح قبل موته بأن تكون حلب من حصة عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ، الذى أسند حكمها إلى أخيه العادل أمير سنجار سنة ١١٨٢ . فانتهز صلاح الدين فرصة انتهاء الهدنة مع الزنكيين ، وفرض الحصار على الموصل بالاستعانة بالأراتقة . ولكنه لم ينجح فى فتحها ، واضطر إلى العودة إلى الشام ، بسبب اشتداد هجمات الصليبيين على أعمال دمشق وحوران ، تنسيقًا مع الزنكيين .

وقد عاد صلاح الدين إلى الشام ليبدأ بحصار حلب . . وفى هذه المرة نجح فى فتحها ، إذ تفاوض معه حاكمها فى تنازله عن حلب مقابل إعادة إمارة سنجار إليه ، وتمّت الصفقة فى يونيو ١١٨٣ . ثم عاد صلاح الدين إلى الموصل لحصارها للمرة الثانية سنة ١١٨٥ ، ولكن تم الصلح بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، الذى قبل أن يكون تابعًا لصلاح الدين ، ويخطب باسمه على المنابر ، ويضرب السكة (النقود) باسمه .

وبذلك عادت الوحدة الإسلامية مرةً أخرى تحت علم واحد هو علم صلاح الدين الأيوبى ، الذى أصبح يظلّل المنطقة من الفرات إلى النيل . وسرعان ما بدأت مرحلة جديدة من مراحل الجهاد الإسلامى ضدّ الصليبيين .

٥١ - إغارة الصليبيين على الحجاز

- تدهور أحوال مملكة بيت المقدس بعد عمورى الأول .
- إبرام الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين ١١٨٠ م .
- بروز دور أرناط فى الصراع .
- استيلاء أرناط على إيلات .
- إغارة أرناط على مكة والمدينة ١١٨١ - ١١٨٣ م .

٥١ - اغارة الصليبيين على الحجاز

وفى ذلك الحين أخذ صلاح الدين يعمل بنشاط فى تحصين مصر على نحو ما رأى فى مدن الشام من بلاد محصنة وحصون مسوّرة وأسوار عالية البناء ، فأخذ فى بناء القلعة فى القاهرة ، وبنى سورًا ضخمًا يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ، وامتدت جهوده إلى مختلف الموانى والثغور المصرية . وقد أظهر بذلك استيعابه لدروس الحملات الصليبية على مصر أيام عمورى الأول ! .

وكانت الأحوال فى مملكة بيت المقدس وقتذاك تدخل مرحلة تدهور بعد وفاة عمورى الأوّل سنة ١١٧٤ ، إذ تولّى بعده ابنه القاصر بلدوين الرابع تحت وصاية ريموند الثانى أمير طرابلس ، فلما تسلم الحكم سنة ١١٧٧ اختلف الأمراء حول ولاية العهد له ، إذ كان مريضًا ولا نسل له ، وانتهى الخلاف باختيار لويس السابع ملك فرنسا جاى دى لوزينيان ، وهو أمير فرنسى مغامر طرد من بلاده لجريمة ارتكبها . لذلك رفض النبلاء إسناد ولاية العهد إليه . ثم توفّى بلدوين الرابع وتلاه بلدوين الخامس ١١٨٥ ، فكانت عدّة حروب أهلية أسفرت عن تثبيت لوزينيان فى العرش ، على غير إرادة النبلاء ، وبذلك تفككت وحدة مملكة القدس الداخلية .

وقد كانت هذه الظروف مشجعةً لصلاح الدين على اتخاذ عمل حاسم ضد الصليبيين ، خصوصا بعد أن أتم ، باستيلائه على حلب سنة ١١٨٣ ، تطويق الامارات الصليبية على امتداد الساحل.ولكن انشغاله بتنظيم الأوضاع الداخلية فى دولته ، وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته فى حكم أجزاء دولته الكبيرة ، دفعته إلى تجديد هدنة كان قد عقدها فى سنة ١١٨٠ مع بلدوين الرابع وريموند كونت طرابلس . وكانت مده الهدنة الجديدة أربع سنوات من ١١٨٥ ، وكانت هذه الهدنة هامّة جدًّا للطرفين ، لكى يعيد صلاح الدين تنظيم دولته ، وتتاح للصليبيين الفرصة لتصفية كثير من مشاكلهم الداخلية .

على أنه فى تلك الظروف برز رينو (رينالد) شاتيون ، أو « أرناط » – كما يسميه المسلمون – لينتهك الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين . وقد سبق أن أشرنا إلى أرناط هذا عند حديثنا عن إمارة أنطاكية ، وقلنا إنه فارس فرنسى وصل إلى الشام فى أعقاب حملة لويس السابع ، ثم تخلف

فى فلسطين ، وتزوج من أرملة ريموند بواتييه ملك أنطاكية والوصية على وريثه بوهيمند الثالث سنة ١١٥٣ ، وقد اشتهر بالحمق والقسوة وانتهاك العهد مع المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى وقع فى أسر مجد الدين بن الداية نائب نور الدين فى حلب سنة ١١٦٠ ، وظلّ فى الأسر فى حلب ستة عشر عامًا حتى عام ١١٧٦ ، حين أطلق كمشتكين ، حاكم حلب ، سراحه وسراح جوسلين الثانى دى كورتناى ، اعترافًا بجميل الصليبيين فى أنطاكية الذين تحالف معهم ضد صلاح الدين ! . فخرج أرناط يبحث عن دور جديد ، وقد وجده فى التزوج من وريثة صاحب الأردن التى ورثت عن أبيها الأردن وحصنى الشوبك والكرك ، وبذلك أصبح سيدًا على هذه المنطقة من سنة ١١٧٧ .

وهنا أراد أرناط تصفية الحساب مع المسلمين ، متناسيًا أن الستة عشر عامًا التى قضاها فى الأسر قد بدلت الأوضاع ، إذ صارت دمشق والقاهرة وحلب والموصل ، تحت راية إسلامية واحدة ، هى راية صلاح الدين ، بينما تحللت أوضاع الصليبيين فى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس .

لذلك ، عمد أرناط من موقعه الفريد فى حصنى الكرك والشوبك ، اللذين يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين ، بل وأيضًا فى الطريق البرىّ الرئيسى بين مصر والشام — إلى شنّ الاعتداءات على قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز بغرض النهب والسلب . فقد أسر عام ١١٧٩ قافلةً برمتها قدرت مبالغها بـ ٢٠٠ ألف دينار . وحاول ملك القدس إقناعه بردّ الغنائم ، فرفض . وفى سنة ١١٨١ ، وبالرغم من الهدنة بين مملكة بيت المقدس وصلاح الدين ، كرّر أعمال الاعتداء والسلب . ثم ما لبث أن أخذ يعدّ مشروعه الضخم للزحف على المدينة ومكة وطعن الإسلام فى قلبه ، وتحقيق سيادة الصليبيين على البحر الأحمر ! والوصول إلى عدن ، وإغلاق البحر الأحمر فى وجه المسلمين . واحتكار تجارة الشرق ! .

فنى سنة ١١٨٢ بدأ بالاستيلاء على إيلات ، التى كان صلاح الدين استردّها من مملكة بيت المقدس عام ١١٧١ ، وبذلك تخلّص من خطر وجود المسلمين فى هذا الموقع الذى كان يهدّد الشوبك والأراضى الصليبية فى وادى عربة . ولكى يستولى على جزيرة فرعون المواجهة فى خليج العقبة ، والتى تسيطر عليها ، عمد إلى بناء عدّة سفن ، حملت أجزاؤها مفككة إلى خليج العقبة حيث رُكّبت . ثم استولى على الجزيرة ، بينما كانت بعض السفن الأخرى تغير على الموانى المصرية

على البحر الأحمر ، مما أثار رعب الأهالى الذين لم يسبق لهم رؤية سفن صليبية فى مياه ذلك البحر ! .

ولم يلبث أرناط أن أخذ فى تنفيذ مشروعه ضدّ الحرمين ، فأغار بأسطوله على ميناء عيذاب فى البحر الأحمر فى مواجهة جدّة ، وهو وقتذاك الميناء الرئيسى للتجارة المصرية الدولية بين الشرق والغرب . فقام بتخريبه ونهب مابه من متاجر وقوافل وسفن تجارية ، ثم انتقل إلى شاطئ الحجاز نفسه ، حيث نزل على ساحل الحوراء ، قرب ينبع ، وأصبح على مسيرة يوم واحد من « المدينة » . ثم أبحر منه إلى رابغ ، من موانى مكة ، وأحدث به التخريب والسلب والنهب . وعادت سفنه محملة بالغنائم ! .

وقد أحدث هذا الزحف صدىً عظيمًا فى العالم الإسلامى ، ورأى فيه المسلمون نذيرًا بقيام الساعة وعلامةً على « غضب الله لفناء بيته المحرم » ! ولذلك سارع العادل أخو صلاح الدين بإرسال الحاجب لؤلؤ فى أسطول قوىّ إلى البحر الأحمر ، حيث حاصر إيلات وأحرق ما فيها من سفن ، وأسر بحارتها ، ثم تعقب سفن أرناط عند عيذاب فشواطئ الحجاز ، ودهمها على ساحل الحوراء ، ودمرها وأسر من فيها ، وقد استطاع البعض الفرار إلى الشاطئ ولاذوا بالجبال ، ولكن حسام الدين لؤلؤ تعقبهم على خيل العربان إلى الجبال ، وأسرهم جميعا . ثم أرسل أسيرين من الصليبيين إلى منى ، حيث كان موسم الحج قد أزف ، « فنحروا كما تنحر البُدْن » ! ليكونوا عبرةً لمن لا يعتبر ! وعاد ومعه بقية الأسرى إلى مصر ، حيث أمر صلاح الدين بقتلهم لأنهم اعتدوا على حرم الله وحرم رسوله ، وقد تم ذلك بالفعل بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والإسكندرية أما أرناط فقد نذر صلاح الدين دمه حين يقع فى يده .

وسرعان ما أخذ المسرح السياسى فى المشرق العربى يتهيأ لموقعة حطين التاريخية .

٥٢ – صلاح الدين يسترد بيت المقدس

- إغارات أرناط على قوافل الحجاج .
- حملة صلاح الدين على الكرك والجليل .
- هزيمة الصليبيين فى معركة صفورية فى مايو ١١٨٧ م .
- موقعة حطين ٤ يوليو ١١٨٧ .
- سقوط عكا فى يد صلاح الدين .
- اجتياح صلاح الدين للمدن والمعاقل الصليبية .
- سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين فى ٢ أكتوبر ١١٨٧ م .

٥٢ - صلاح الدين يسترد بيت المقدس

كان أرناط هو الذى أتاح بنفسه لصلاح الدين الوفاء بنذره . فعلى الرغم من الهدنة التى كانت معقودة بين صلاح الدين والصليبيين فى ذلك الحين ، إلاّ أن هذا « الفارس اللص ، الذى لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق » ! - على حدّ قول المؤرخ جروسيه Grousset - لم يستطع احترام تلك الهدنة ، فانتهز فرصة مرور قوافل الحجاج الإسلامية وقوافل التجارة من صحراء الأردن ، وانقض فجأة على قافلة « ثقيلة معها نعم جليلة » فى طريقها من القاهرة إلى دمشق فى أواخر ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ ، واستولى على ما فيها من ثروة وبضائع ، وساق رجالها إلى حصن الكرك أسرى ليسومهم « الشد والشدة » ! .

وقد كانت تلك هى الشرارة التى فجرت الصراع من جديد ، وهو صراع دفع الصليبيون ثمنه غاليًا . وفى الواقع أنهم كانوا يدركون ذلك ، لأنهم ألحّوا على رينودى شاتيون ليطلق الأسرى والأموال ، وكان على رأس من ألحوا جاى لوزينيان ملك القدس ، ولكن أرناط أعرض عنهم جميعًا ، بل وصلت به الاستهانة أن ردّ على رسل صلاح الدين قائلاً : « قولوا لمحمد يخلصكم » ! . وبذلك لم يبق أمام صلاح الدين سوى القصاص والحرب .

وتروى المصادر الإسلامية أنه «كتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار بكر وأربل وغيرها من بلاد الشرق ، وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ، ويأمرهم بالتجهيز له بغاية الإمكان » . وعندما اكتملت جيوش صلاح الدين غادر دمشق فى حوالى منتصف مارس ١١٨٧ متجهًا إلى الجنوب ، فهاجم أرناط ، وسار إلى الكرك فى اثنى عشر فارسًا ، فقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، وتقدم للقاء القوات المصرية قرب الكرك ، ليفسد على أرناط خطته فى سدّ الطريق فى وجه هذه القوات . وهكذا وجد أرناط نفسه محصورًا فى قلعة الكرك . ثم أرسل صلاح الدين قوّةً لمهاجمة إقليم عكّا مستأذنًا ريموند الثالث أمير طرابلس ، الذى كانت تتبعه طبرية ، فى اختراق إقليم الجليل ، فاضطر إلى ذلك بحكم تحالفه مع صلاح الدين . ولكن قائد الفرسان الداوية جيرار دى ريدفورت أسرع بجمع قواته وحاول التصدّى للمسلمين قرب صفورية . فدارت معركة كبرى فى أوائل شهر مايو

١١٨٧ ، سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى ، وكان فى مقدمتهم مقدم الاسبتارية وعدد كبير من فرسانهم . وعندما أسرعت قوّة من الصليبيين إلى صفورية لنجدة إخوانهم ، كانت المعركة قد انتهت ، فسقطوا جميعهم أسرى ! .

وقد هزّت هذه المعركة الصليبيين هزًّا عنيفًا ، حتى أن ريموند الثالث ، أمير طرابلس ، سارع إلى الدخول فى طاعة جاى لوزينيان ملك القدس ، ناقضًا بذلك الهدنة مع صلاح الدين ، وقبل أن يسير تحت رايته لمحاربة المسلمين . واختار الصليبيون صفورية – قرب عكا – مكانًا لحشد جيوشهم ، ومعهم صليب الصلبوت (الصليب الأصلى) .

وسرعان ما زحف صلاح الدين على طبرية فى أوائل يولية ١١٨٧ ، فاقتحم المدينة وأحرقها عقابًا لريموند الثالث من جهة ، ولإجبار الصليبيين على ترك صفورية والقدوم إليه لملاقاته فى المكان الذى اختاره ميدانًا للقتال من جهة أخرى . وقد صحّ ما توقعه صلاح الدين ، إذ اجتمع مجلس حرب الصليبيين فى عكا ، وقررت غالبيته الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين فى طبرية . بينما وقف ريموند الثالث موقف المعارض ، برغم أن زوجته كانت محاصرة فى قلعة طبرية التى لم تسقط بعد ! . وقد أوضح للأمراء الصليبيين أنه إذا بقى الصليبيون فى مواقعهم ، فإن المسلمين لن يكون أمامهم سوى أحد أمرين : إما الانصراف بعد الاستيلاء على طبرية طالما تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم ، أو الزحف على صفورية لملاقاة الصليبيين ، وعندئذ سيكون الأخيرون فى موضع أفضل ، بينما يصل المسلمون مُجْهدين بسبب قلة الماء وحرارة الجو ، فيسهل الانتصار عليهم .

على أن غالبية الأمراء – كما ذكرنا – اختاروا السير إلى صلاح الدين فى طبرية فارتكبوا الغلطة التى حذر منها ريموند الثالث ، وكان الفضل فى إقناعهم بهذا الخطأ أرناط صاحب الكرك ، وجيرار دى ريدفورت مقدم الداوية ! . وهكذا بدأ الجيش الصليبى زحفه فى أوائل يولية ١١٨٧ متجهًا إلى طبرية لملاقاة صلاح الدين . وعندما علم صلاح الدين بذلك صاح مبتهجًا : « جاءنا ما نريد » ! ، ثم تقدم بجيشه نحو خمسة أميال حيث رابط غربى طبرية عند قرية « حطّين » .

وقد وصل جيش الصليبيين إلى هضبة طبرية يوم ٣ يوليو ، الذى يذكر المؤرخون أنه كان يومًا قائظ الحرارة راكد الهواء . وقد اشتدّ بجنوده وفرسانه العطش . وهناك فى أسفل الهضبة كانت تقع قرية حطّين وبحيرة طبرية بمائها الوفير ، ولكن جيوش صلاح الدين كانت ترابط بينهم وبين الماء . واضطر الجيش الصليبى إلى قضاء ليلته فوق الهضبة يئن من العطش والإنهاك . وفى الصباح كان

صلاح الدين قد استغلّ غطاء الليل ليحيط بهم إحاطة كاملة .

وعلى هذا النحو وفى تلك الظروف دارت موقعة حطّين الشهيرة ، التى كُسر فيها الصليبيون كسرةً شديدةً ، فأخذتهم سهام المسلمين ، ولم ينج منهم سوى ريموند الثالث أمير طرابلس الذى فرّ مع قليل من رجاله تجاه صور ، وأوى بقية الصليبيين إلى جبل حطين ليعصمهم من البلاء ، فظل المسلمون يطاردونهم ، حتى سقط أسقف عكّا قتيلاً ، وسقط من يده صليب الصلبوت ، فاستولى عليه المسلمون ، فكان لذلك وقع الكارثة على الصليبيين الذين أيقنوا بالهلاك . وبقى ملك القدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان ، فأسرهم المسلمون جميعًا ! .

ويقول ابن شداد فى سيرة صلاح الدين ، إنه لما فرغ المسلمون منهم ، نزل صلاح الدين فى خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس أرناط ، صاحب الكرك . وأجلس الملك إلى جانبه ، وقد أهلكه العطش ، فسقاه ماء مثلوجًا فشرب وأعطى فضلته لصاحب الكرك ، فشرب . فقال صلاح الدين : إن هذا لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى (أمنى) . ثم كلّمه وقرّعه بذنوبه ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته . وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به : إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القافلة غدرًا » ! .

لم يتقدم صلاح الدين بعد حطين للاستيلاء على القدس مباشرةً ، فقد فضّل أن يعزلها عن الإمدادات الساحلية التى قد تأتى إليها من العالم الخارجى ، لتبقى محصورةً داخل بلاد الشام . فاتجه إلى عكّا ، التى سقطت فى يده دون مقاومة ، إذ عرض جوسلين الثالث على صلاح الدين تسليمها ! ، بشرط تأمين أهلها على أرواحهم وممتلكاتهم ، فأمنهم صلاح الدين ، وخيّرهم بين الإقامة أو الهجرة ، مما أدى إلى احتفاظ عكا بعناصرها النشيطة فى الميدان التجارى فاستمر رواجها الاقتصادى .

وقد ساعدت هذه السياسة صلاح الدين على فتح كثير من المدن الصليبية الساحلية والداخلية ، فقد أقام صلاح الدين فى عكا ، ووجّه جيوشه لفتح المعاقل القريبة ، فاستولت على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة والطور . بينما استولى أخوه العادل على حصن مجدل يابا (مجدليابا) بين يافا ونابلس ، ثم على يافا . كما وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين بين لاجين فاستولى على سبسطية وفيها قبر زكريا عليه السلام ، وعلى قلعة تبنين واستسلمت صرفند وصيدا دون مقاومة .

وفى عام ١١٨٧ م سقطت بيروت . واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى جبيل ، التى أسر

من طبرية إلى عكا (وقعة حطين)

(خريطة رقم ٣٢)

صاحبها هيو الثالث فى طبرية ، وعرض على صلاح الدين تسليمها مقابل إطلاق سراحه . وفعلا أحضره صلاح الدين فى قيده حيث أمر الحامية بالتسليم ، فاستولى عليها صلاح الدين . وما لبث صلاح الدين أن اتجه إلى عسقلان ، التى اتخذها الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية ، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى ، وفى أثناء حصارها استولى على الرملة والدارون ، كما قبل مقدم الداوية أن يسلمه غزة والنطرون وبيت جبرين . وفى تلك الأثناء نفذت مقاومة أهل عسقلان ، فطلبوا الأمان ، وعندئذ أمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأملاكهم ، واستولى على عسقلان فى أوائل سبتمبر ١١٨٧ . وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين سوى القدس .

ويقول المؤرخون : إن صلاح الدين عرض على أهل القدس التسليم بالشروط نفسها التى استسلمت بها بقية المدن الصليبية ، أى تأمينهم على أرواحهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم ، والسماح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالما ، ولكنهم رفضوا ، وعندئذ أقسم صلاح الدين أن يأخذ القدس بحدّ السيف . وفى ٢٠ سبتمبر ١١٨٧ بدأ هجومه فى الجانب الشمالى من المدينة عند باب عمود أوكنيسة صهيون ، ووصل جنوده إلى سور المدينة ونقبوه . وعندئد أرسل المحاصرون وفدًا من كبارهم لتسليم المدينة بشرط الأمان ، ولكن صلاح الدين أصرّ على تسليم المدينة دون شرط ، بسبب قسمه ، بل هدّد رسل الصليبيين قائلاً : « لا أفعل بكم إلاّ كما فعلتم بأهل القدس حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، من القتل والسبى ، وأجزى السيئة بمثلها » !

وعندما ألح الأمير باليان ، أمير منطقة الرملة ، فى طلب الأمان ، سأله صلاح الدين مستفهمًا :

– أهناك من مفاوضات حول مدينة باتت فى حكم السقوط ؟

أجاب باليان : أيها السلطان . إننا نطلب وقف القتال أملاً فى عدالتك . وأن تعامل السكان كما عاملت المدن الأخرى ، فإنهم يحبّون الحياة ويكرهون الموت . أما بالنسبة لنا (المحاربين) فإذا لم يكن من الموت بدٌّ فسوف ننحر نساءنا وأطفالنا ، ونحرق كلّ ما نملك ، ولا ندع للغنائم شيئًا . ثم نهدم قبّة الصخرة وبقية الأماكن . ونذبح المسلمين الأسرى لدينا ، وهم خمسة آلاف . ثم نتوجه إليكم لنقاتل دفاعًا . وحينئذ لايقتل الرجل ، حتى يقتل أمثاله » ! .

عندئذ استشار صلاح الدين أصحابه ، فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل عشرة دنانير للرجل ، وخمسة للمرأة ، وواحد للطفل ، وتحديد مدّة تسديد الفدية بأربعين يومًا يصبح بعدها الفرد مملوكاً . وهى شروط سهلة هينة بالمقارنة بما فعله الصليبيون عند احتلالهم القدس سنة ١٠٩٩ من مذبحة للمسلمين خاضت فيها ركبهم باعتراف المؤرخين المعاصرين . ودخل صلاح الدين المدينة فى ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧ م) .

وعلى العكس تمامًا مما فعله الصليبيون ، فقد تمثلت إنسانية صلاح الدين بأجلى معانيها فى أثناء تنفيذ هذه الشروط . فقد أمر مناديه بأن يعلن فى الطرقات أن كافّة العجزة الفقراء هم أحرار يمكنهم الذهاب أنّى شاءوا . كما وهب رئيس أساقفة القدس هرقليانوس ، وكذا باليان ، ألفا من الأسرى ، تم إطلاق سراحهم ، ووهب أخاه العادل ألفًا أطلق سراحهم .

ويروى المؤرخ لينبول أن أرامل الفرسان ذهبت إلى معسكر صلاح الدين طالبات الرحمة

فسأل عمن يكنّ ؟ وما هو مطلبهنّ ؟ . فأخبر بذلك ، وقيل له إنهن جئن يسألن العطف . ولما رأى بكاءهن ، دمعت عيناه ، وطلب ممن يعرفن مكان أزواجهن من بين الأسرى ، أن يخبرنه ليطلق سراحهم . أما النساء اللواتى فقدن أزواجهن فيعوّضن من خزينته . ويعلّق لينبول Lane-Pool على ذلك قائلاً : « فإن لم يعرف عن صلاح الدين غير استيلائه على القدس ، فإنها الدليل الكافى على أنه أعظم فاتح يتمتع بقلب رحيم فى زمانه ، وربما كافة الأزمان » .

٥٣ – الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢)
بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد

- الدعوة إلى حملة صليبية جديدة فى أوروبا .
- الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ – ١١٩٢ .
- حملة فردريك بارباروسا وتبددها فى آسيا الصغرى فى يونية ١٨٩٠ .
- حصار عكا (أغسطس ١١٨٩ – يولية ١١٩١) .
- أحداث حصار عكا .
- الوقعة العادلية .
- سقوط عكا فى يد الصليبيين فى ١٢ يولية ١١٩١ .
- مشروع الزواج بين أخى صلاح الدين وأخت رتشارد .
- صلح الرملة فى سبتمبر ١١٩٢ .

٥٣ - الحملة الصليبية الثالثة
بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد

استرّد المسلمون القدس من يد الصليبيين عام ١١٨٧ . بعد تسعين سنة كاملة من أوّل حملة صليبية على المشرق الإسلامى عام ١٠٩٧ . فضربوا المثل للأجيال التالية على العزم والتصميم والتمسك بالأهداف العليا . ولم يحقق المسلمون هذا الانتصار بالجمود والاكتفاء بالشعارات ، وإنما حققوه بالحركة الدائبة النشطة والتضحيات . وعبروا إليه فوق بحر من دماء الشهداء ، ووصلوا إليه بعد سلسلة طويلة من التقهقر والتقدم والهزائم والانتصارات .

وقد كان هذا النصر على كل حال علامةً هامّةً على طريق النضال الإسلامى لإخراج الصليبيين من الأرض العربية وطردهم إلى بلادهم التى جاءوا منها ، ولكنه لم يكن ختام هذا النضال ؛ ذلك أن سقوط القدس قد هال أوروبا ، وأفزع البابوية ، فبشرت بحملة صليبية جديدة ، وأخذت فى الضغط على الملوك والحكام ليوقفوا تنازعهم وتقاتلهم فى الغرب ، والاشتراك فى هذه الحملة . فلبى الدعوة كلٌّ من فريدريك بارباروسا ، إمبراطور ألمانيا والدولة الرومانيّة ، وريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . وهم أعظم حكّام غرب أوروبا فى هذه الفترة . فتجهزت حملة من أكبر الحملات الصليبية فى عدد المشتركين فيها للزحف على المشرق الإسلامى ومحاربة صلاح الدين فى مايو ١١٨٩ م .

وقد سار فريدريك بارباروسا عن طريق البرّ من ألمانيا مخترقًا بلاد المجر إلى البلقان والقسطنطينية ، حيث وقع الاحتكاك المعهود بين جيشه وبين الجهات التى اخترقها ، وقام الجيش الألمانى بكثير من النهب كأنه فى بلاد معادية ، حتى وصل إلى القسطنطينية ، التى كان فريدريك يسىء الظن بإمبراطورها إساكوس الثانى . وبعد صعاب عبر الجيش الألمانى المضايق إلى آسيا الصغرى فى مارس ١١٩٠ م . وهناك تعرض للتعب والجوع والمرض من جهة ، ومقاتلة فرسان مملكة الروم الإسلامية والقبائل التركمانية من جهة أخرى . وجاءت الضربة القاضية لهذا الجيش الألمانى حين مات الإمبراطور فريدريك غريقًا فى نهر سالف فى كيليكيا ، فعاد فريق من أتباعه إلى الغرب ، ولجأ البعض الآخر إلى أنطاكية ، وتوجه البعض الثالث إلى طرابلس .

أما ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، فقد عرج فى طريقه على جزيرة قبرص ، التى استولى عليها ، وقدر لها أن تصبح فيما بعد مأوى للصليبيين بعد طردهم من الأراضى المقدسة . وتمكن مع حملة فيليب أوغسطس ملك فرنسا من الوصول إلى عكا للاشتراك فى حصارها .

ذلك أنه فى ذلك الحين كانت قد تجمعت قوى الصليبيين فى صور بإحدى الغلطات التاريخية الفادحة التى ارتكبها صلاح الدين ، بالسماح لكل من فتح بلادهم بغير حرب من الصليبيين بالرحيل عنها إلى مدينة صور ! . مما مهّد الطريق إلى تجمع عدد عظيم من المحاربين فى هذه المدينة ، وتكوين قلعة حصينة معادية على الساحل ، اتخذت قاعدة للمقاومة والهجوم ، وانطلقت منها الوفود إلى أوروبا تستنهض ملوكها لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة ! .

وقد أدرك صلاح الدين خطأه متأخرًا ، فأخضع صور للمراقبة ، وأخذ يدبر للصليبيين الكمائن والبعوث كلما خرجوا من حين لآخر إلى ما جاورهم من البلاد . وأخيرًا انتهز الصليبيون فى صور مجيء طلائع الحملة الصليبية الثالثة على غير انتظار ، فتحركت القوات الصليبية من هذه المدينة نحو عكّا لاسترجاعها ، وفرضت عليها الحصار .

كان صلاح الدين يحاصر حصن الشقيف فى الجبل حين بلغه خبر سير الصليبيين من صور نحو عكا . فتريّث فى اللحاق بهم خشية أن يكون هذا السير لصرفه عن الحصن ، فلما تبين جدّية الحملة سارع إلى تعبئة جيشه ، وجمع مجلسًا حربيًّا لمناقشة طريق السير ، هل يكون على الساحل لملاقاة الصليبيين قبل بلوغهم عكا ، أم يلقاهم هناك عند المدينة بعد سلوك الطريق الداخلى مارًّا بطبرية . وقد اختيرت الخطة الأخيرة على الرغم من عدم رضائه شخصيًّا عنها ؛ لأن الصليبيين إذا تركوا حتى يصلوا إلى عكا ، أمكنهم اختيار المكان المناسب والتحصن حوله .

وهذا ما حدث ؛ لأن الصليبيين وصلوا قبل جيش صلاح الدين وفرضوا الحصار منذ أغسطس ١١٨٩ ، ثم وصل جيش صلاح الدين لينزل حول الجيش الصليبى من الخارج ، بينما كان البحر مفتوحًا للأساطيل الصليبية والإسلامية . ولذا أصبحت عكّا ميدانًا لعمليات حربية على ثلاثة خطوط نصف دائرية متوازية تقريبًا ، كما يقول بعض المؤرخين : أولها حامية أيوبية داخل عكا نفسها ، وثانيها قوات صليبية محاصرة لهذه الحامية ، وثالثها قوات أيوبية بقيادة صلاح الدين ، غرضها هدم الحصار الصليبى للحامية الأيوبية . فلما وصلت فى وقت متأخر قوات ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس ، اتصلت السفن والجنود الإنجليزية والفرنسية بالقوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا ، وأصبحت الحامية الأيوبية داخل عكا محصورة بين جيشين

كبيرين : جيش بحرى متمثل فى الأساطيل المشتركة ، وجيش برى متمثل فى القوات الصليبية التى زحفت من صور .

وقد استمر الحصار عامين من أغسطس ١١٨٩ إلى يولية ١١٩١ ، تخللته حوادث بطولة حقيقية وقصصية ، كثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ، وأتى الأفراد فى كلا الجيشين بأعمال البطولة الخارقة للعادة على نحو لم يسبق له مثيل . وفوق ذلك تخفف الفريقان من الروح الدينية المتعصبة ليفسحا الطريق لروح الفروسية تعقد بينهم الصلات ، وتقيم بينهم ألوان التعارف حينما يضعون السلاح بين المعارك ، فتتحدث الجماعة الصليبية إلى الأخرى من المسلمين ، ويمتد ذلك إلى الاشتراك فى ألوان الترفيه والتخفيف من عبء القتال . فيروى القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد فى كتابه « سيرة صلاح الدين الأيوبى » ، أنه بعد أن طال الأمر بين الفئتين ، « أنس البعض بالبعض ، بحيث إن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال ! ، وربما غنّى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة » ! .

بل روى ابن شداد القصة الغريبة الآتية ، فذكر أنه فى أحد الأيام « سئم الرجال من الطائفتين من القتال ، فقالوا : إلى كم نقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ؟ . نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم .. فأخرج صبيّان من البلد (عكا) إلى صبيّين من الإفرنج . واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين ، فاختطفه ، وضرب به الأرض ، وقبضه أسيرًا . فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين ، وقالوا : هو أسيرك حقًّا ! . فأخذ الدينارين وأطلقه » ! .

وقد كانت خطة صلاح الدين هى أن يفتح ثغرةً فى الحصار يستطيع أن يصل عن طريقها إلى المدينة بالجنود والأقوات لمساعدتها على المقاومة . وقد استطاع بالفعل فتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك ، إلى باب قراقوش الذى جدده ، ودخل السلطان إلى عكا ، « ورقى على السور ، ونظر إلى عسكر العدوّ تحت السور » . ولكن العدو كان يسارع إلى سدّ الثغرات . وبلغ الصراع أشدّه بعد خمسين يومًا ، حين دارت معركة هامة تقلب فيها الحظ بين الجانبين ، وانتهت بهزيمة كبيرة للصليبيين خرّ فيها منهم سبعة آلاف وفقًا للقاضى ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية ، وكان قد اشترك فى هذه الحرب .

وفيما يبدو أن المسلمين ظنّوا أن الهزيمة ساحقة ؛ لأنهم آثروا التوقف عن القتال للراحة رغم اعتراض صلاح الدين ، الذى كان من رأيه أن العدو « إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر ، جاءه مدد عظيم ، والرأى عندى مناجزتهم » . ولكن أمراء الجيش اعترضوا على ذلك بحجّة أن

(خريطة رقم ٣٣)

« الناس لهم خمسون يومًا تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك » ! .. وهكذا توقف القتال تقريبًا ، ولم يستأنف بعد تلك الراحة لدخول الشتاء ، فاكتفى صلاح الدين بإدخال المؤن والرجال إلى عكّا ، وسرح جنوده لمدّة الشتاء الذى تكثر فيه الأمطار وتتعذر الحركات ، وتراجع بباقى الجيش إلى الخروبة .

على أن كل يوم يمضى كان يحمل الإمداد إلى العدو الصليبى من أوروبا ، حتّى ما إذا استأنف القتال فى الربيع من سنة ١١٩٠ كان الموقف يتغير لصالح الصليبيين . فى ذلك الحين وصلت الأنباء بالحملة الألمانية ، واضطر صلاح الدين إلى نقل جزء من جيشه للمرابطة على منافذ الشام من الشمال ، مما أتاح للصليبيين الذين يقومون على حصار عكّا الفرصة لمهاجمة الجبهة التى نقص فيها الجند المسلمون فى ميمنة الجيش ، وكان عليها أخوه الملك العادل ، فدارت معركة كبيرة تعرف باسم « الوقعة العادلية » ، أطمع فيها الملك العادل الصليبيين ، حتّى شغلهم فى النهب والسلب ، ثم حمل عليهم بجيشه ، وأجبرهم على النكوس هاربين ، « وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرءوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس » . وتتابعت جيوش الموصل ومصر وراء العدو ، حتى امتدت أشلاء جنده بين المعسكرين ويقول ابن شداد : « ولقد خضت فى تلك الدماء بدابّتى ، واجتهدت فى أن أعدهم ، فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم » . ولما أحس المسلمون فى عكّا بما جرى ، خرجوا إلى مخيم العدو ، وجرى قتال عنيف تحققت فيه النصرة للمسلمين ، وانتهت المعركة فى ذلك اليوم بمقتل ثمانية آلاف من الصليبيين . فكانت هذه الوقعة العادلية أكبر وقائع الدور الثانى للحصار الصليبى لعكا الذى استمر إلى شتاء سنة ١١٩٠ .

وقد جاء الدور الثالث للحصار فى ربيع عام ١١٩١ حين أخذت جيوش صلاح الدين تتوافد إليه من أنحاء الدولة ، وبدأ الصليبيون يجددون إغارتهم على المدينة ويشددون حصارها . وفى هذا الدور وصلت الحملة الفرنسية بقيادة فيليب أوغسطس والحملة الإنجليزية بقيادة رتشارد قلب الأسد ، بينما كانت مناعة عكا قد قلّت بعد أن مضى عليها تحت الحصار صيفان وشتاءان . وقد أراد صلاح الدين إرسال مدد إلى عكا عن طريق البحر ، ولكن مهارة الإنجليز فى البحر كانت أكبر مما عهد المسلمون ، فتمكنوا من الإحاطة بالسفن الإسلامية ، التى آثر جنودها الموت على التسليم ، فأهووا على جوانبها بالمعاول حتّى ثقبوها ، « فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدو منها بشىء » .

ولم يلبث العدوّ الصليبي أن أخذ يشدد ضغطه على المدينة ،٠فأخذ يوالى الهجوم بالمجانيق المتواصلة والضرب ، حتى تخلخل سور المدينة ، وضعف بنيانه ، ولم يجد من فى المدينة بدًّا من المفاوضة فى التسليم بعد نحو ثلاثة أشهر من تجدد الحرب ، وكانت شروط الصلح أن تسلم المدينة للصليبيين « وجميع ما فيها من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتى ألف دينار نظير الأسرى المسلمين ، وإطلاق سراح ألف وخمسمائة فارس صليبى من مجاهيل الأسرى ، فضلاً عن ستمائة فارس مختارين ، وأن يردّ صليب الصلبوت (الصليب الأصلى) ، ويخرج السكان من المدينة سالمين . وهكذا سلمت عكا بعد عامين من الحصار فى ١٢ يولية ١١٩١ .

على أنه حين عجز المسلمون عن إحضار الفدية فى الموعد المحدد ، أمر ريتشارد قلب الأسد بقتل حوالى ٢٧٠٠ من الأسرى المسلمين ، الذين ذبحوا على مشهد من أقاربهم . وقد جاء فى حولية صليبية معاصرة ما يأتى : « ولم يتأخر أتباع الملك عن التنفيذ ، فقد قفزوا على المسلمين وهم تواقون لتنفيذ أوامره هذه ، شاكرين الله الذى هيأ لهم الفرصة لهذا الانتقام » . وإذا استحضرنا معاملة صلاح الدين لأهل بيت المقدس عند فتح المدينة ، لوجدنا الفرق شاسعًا بين المعاملتين .

وقد رحل فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، الذى مرض أثناء حصار عكا ، إلى بلاده بعد الاستيلاء على المدينة بوقت قصير .

أما ريتشارد قلب الأسد فإنه بقى مدة سنة كاملة . وفى خلال هذه السنة لم يستطع التغلب على صلاح الدين سوى مرة واحدة عند أرسوف ، وأن يستولى بعد ذلك على يافا . غير أنه أخفق فى جميع محاولاته للزحف على مدينة القدس .. ولم تغير أعماله الحربية شيئًا من مجرى الحوادث ، واضطر إلى فكرة المفاوضة بعد الاستيلاء على يافا ، لعلها تكفل بقاء دولة صليبية بفلسطين إلى جانب دولة صلاح الدين المترامية الأطراف . فعرض على صلاح الدين مشروع زواج بين الملك العادل محمد أخى صلاح والملكة جوانا الصقلية أخت ريتشارد قلب الأسد ، على أن يعطى الأخير أخته مدينة عكا والمدن الصليبية الأخرى كبائنة ، ويعطى صلاح الدين كل فلسطين لأخيه ، ويحكم الزوجان بيت المقدس . ولكن مشروع هذا الزواج لم يتم .

وأخيرًا انتهت المفاوضات بصلح الرملة فى سبتمبر ١١٩٢ . وفيه اتفق الطرفان على احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية التى تمتد من عكا إلى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الإسلامى ، ويسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها على شرط قدومهم من عكا ، وتغدو مدينة عسقلان منطقة

حرام منزوعة الحصون والسلاح . ثم أبحر ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى بلاده . وهكذا على الرغم من قوة الحملة الصليبية الثالثة ، واشتراك أكبر ملوك غربي أوروبا فيها ، إلا أنها عجزت عن استعادة القدس من المسلمين .

٥٤ - من حملة الأطفال إلى الحملة الصليبية الخامسة

- انقسام إمبراطورية صلاح الدين بعد وفاته ١١٩٣ م .
- توحيد العادل محمد مصر والشام .
- الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٢ - ١٢٠٤ م .
- الحملة الصليبية الرابعة تنسى اسمها وتفقد هدفها .
- حملة الأطفال الصليبية ١٢١٢ م .
- عقد مجلس اللاتيران الرابع والدعوة إلى حملة صليبية .
- الحملة الصليبية الخامسة على مصر (حنابريين) ١٢١٨ - ١٢٢١ م .
- حصار دمياط واحتلالها فبراير - نوفمبر ١٢١٩ .
- عرض السلطان الكامل تسليم القدس للصليبيين مقابل دمياط .
- هزيمة الصليبيين وانسحابهم من الأراضى المصرية فى ٨ سبتمبر ١٢٢١ .

٥٤ – من حملة الأطفال الصليبية إلى الحملة الصليبية الخامسة

فشلت الحملة الصليبية الثالثة فى استعادة القدس من يد المسلمين ، رغم اشتراك أكبر ملوك غربى أوروبا فيها . ثم أبحر ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، من عكا إلى بلاده فى الشهر التالى لعقد صلح الرملة فى سبتمبر ١١٩٢ ، وفى رأسه أن الطريق لاسترداد مملكة القدس التى سقطت فى يد المسلمين يبدأ بالاستيلاء على مصر ، وهو ما قال به أكثر من واحد من رجاله قبل رحيلهم إلى بلادهم .

على أن هذه الفكرة لم يقدر لها التحقيق فى عهد صلاح الدين . ذلك أن عظمة شخصية هذا القائد الإسلامى المجيد ، وجلال أعماله ، وما حققه فى عهده من أقصى ما تطلعت إليه الزعامات الإسلامية منذ حلول الصليبيين بفلسطين ، قد جعلت خصومه يترددون فى تحقيق هذا الحلم فى عهده . ومن المعروف أن صلاح الدين قد حظى باحترام خصومه على النحو الذى دعا مؤرخًا أوروبيًّا إلى القول بأنه « لم يحظ قائد من قادة الحرب والسياسة بتقدير خصومه وإعجابهم – باستثناء نابليون بونابرت – مثلما حظى صلاح الدين الأيوبى بتقدير خصومه الصليبيين».

على أنه بعد موت صلاح الدين سنة ١١٩٣ بدأت محاولات تنفيذ مشروع غزو مصر . ذلك أن إمبراطورية صلاح الدين لم يلبث أن سرى عليها ما سرى على أمثالها فى الشرق والغرب ، إذ قسم صلاح الدين إمبراطوريته بين أولاده وإخوته وبنى عمومته وأولادهم فى وصيته ، مما أدّى إلى امتلاء السنوات التى أعقبت وفاته بعديد من الحروب الداخلية ، حتى تمكن أخوه الأكبر العادل محمد من إخضاع جميع أبناء البيت الأيوبى فى مصر والشام ، ووحّد ممتلكاتهم تحت سلطانه ، تحت شعار : « الملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب » . وأقام العادل نفسه سلطانًا على الإمبراطورية الأيوبية كلها لمدة ثمانية عشر عامًا ، من ١٢٠٠ إلى ١٢١٨ .

وقد أدى توحيد الإمبراطورية الأيوبية تحت العادل محمد إلى حملة صليبية جديدة . فقد وضح لأوروبا أن مصر سوف تتحول من جديد إلى مركز خطر يهدد مملكة عكّا وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ، وبات الاستيلاء عليها ضرورة حربية . وقد وجه البابا أنوسنت الثالث الدعوة

لهذه الحملة ، التى دخلت التاريخ تحت اسم الحملة الصليبية الرابعة ، والتى قدر لها أن تتجه اتجاهاً آخر غير الذى أعدّت له .

فقد تم الاتفاق مع جمهورية البندقية على نقل الحملة إلى مصر مقابل إيجار مالى معين . فضلاً عن نصف الأراضى التى تستولى عليها الحملة . ولكن البندقية فى ذلك الحين كانت تتفاوض مع العادل محمد لعقد معاهدة تجارية ، وفى الوقت نفسه عجز الزعماء الصليبيون عن الوفاء بالشروط المالية المتفق عليها ، بينما كانت القوات الصليبية قد تجمعت بالفعل بمدينة البندقية استعداداً للسفر . وهنا سنحت الفرصة لأمير البندقية « دوج داندولو » الشهير ، لعقد اتفاق مع القوات الصليبية يتيح له استخدام هذه القوات فى خدمة مصالحه ، فى مقابل تأجيل دفع المبالغ المطلوبة حسب الاتفاق . وقبلت القوات الصليبية هذا الاتفاق ، وخرجت من مدينة البندقية أواخر سنة ١٢٠٢ إلى ميناء زارا التابع للمجر ، فاحتلته للبنادقة ، ثم توجهت ، بعد قضاء الشتاء ، إلى القسطنطينية ، التى كان إمبراطورها البيزنطى ألكسيوس الثالث يضيق على البنادقة وجاليتهم التجارية بالقسطنطينية أشدّ التضييق ، بينما كان يغدق الامتيازات على منافسيهم أهل بيزا ، ففرضت الحصار على القسطنطينية لإسقاط إمبراطورها وإعادة الإمبراطور السابق المخلوع إلى العرش ! .. وقد نجحت الحملة الصليبية الرابعة فى هذا الغرض ، ولاذ ألكسيوس الثالث بالفرار ، واعتلى الإمبراطور المخلوع إسحاق وابنه العرش من جديد . ولكن البيزنطيين ثاروا على الإمبراطور وعلى الصليبيين معاً ، مما تطلب حصار الصليبيين للقسطنطينية مرةً أخرى ، والاستيلاء عليها عنوةً مرةً ثانية سنة ١٢٠٤ وإقامة دولة صليبية لاتينية بالقسطنطينية استمرت خمسين عاماً ! . وبطبيعة الحال فقد نسى الجميع الغرض الذى تكونت لأجله الحملة الصليبية الرابعة ، وهو الاستيلاء على مصر ؛ إذ حصلت البندقية على ثلاثة أثمان القسطنطينية ، ثم استولت على أهم الثغور البحرية المسيطرة على الطرق التجارية إلى شبه جزيرة القرم فى الشمال ، وإلى مصر فى الجنوب . وبذلك تكون هذه الحملة الصليبية الرابعة ، قد نسيت اسمها ، وفقدت هدفها .

على أن هذا الفشل أدّى إلى حدث فريد من أحداث التاريخ ، هو ما اصطلح المؤرخون على تسميته « بحملة الأطفال الصليبية » . فقد برز فى فرنسا صبى من قُندوم يدعى ستيفان ، عمره اثنا عشر عاما ، أخذ يعظ الناس فى باريس ، ويؤكد أن العناية الإلهية قد اختارته ليقود حملةً من الأطفال الأطهار إلى فلسطين لاسترداد مملكة بيت المقدس من المسلمين . وقد انتشرت دعوته هذه فى مناخ التخلف والخرافات الذى كان يميز العصور الوسطى ، فاجتمع حوله بضعة آلاف من

الصبية وصغار رجال الدين ، توافدوا عليه من جميع أنحاء فرنسا . وفى الوقت نفسه قام فى مدينة كولونيا بوادى الراين صبىٌ ثان اسمه نيقولا ، زعم مثل هذا الزعم ، وصدقه الناس ، فتوافد عليه بدوره بضعة ألوف من الصبية لنفس الغرض ، وهو الزحف على فلسطين لاسترداد بيت المقدس .

وقد سارت الحملة الأولى الفرنسية إلى مرسيليا ، ومنها أبحرت إلى الشرق فى يونية سنة ١٢١٢ . أما الحملة الألمانية ، فسارت عبر سويسرا إلى إيطاليا ، حيث انقسمت إلى قسمين القسم الأول بقيادة نيقولا ، وقد وصل إلى بيزا ومنها أبحر إلى فلسطين فى أغسطس من تلك السنة . والثانية إلى برنديزى ، حيث أبحرت فى السنة التالية .

على أن أخبار هذه الحملات انقطعت بعد إقلاعها ، فلاهى وصلت إلى فلسطين ، ولا هى عادت إلى أوطانها . ولكن بعد ثمانية عشر عامًا ، عاد إلى فرنسا أحد هؤلاء الصبية بعد أن أصبح قسيسًا ، وأدلى بأخبارها . فذكر أن السفن التى أقلّت الصبية وقعت فى يد قراصنة من المغاربة جنوبى جزيرة سردينا ، فأخذوا أسرى ، وباعوا عددًا منهم فى ثغر بجاية بالجزائر ، وباعوا عددًا آخر فى مدينة الإسكندرية ، كما بيع عدد آخر فى بغداد . وقد اشترى الملك الكامل محمد ، نائب السلطنة الأيوبية فى القاهرة ، عددًا منهم ، واستخدمهم فى وظائف الترجمة والدواوين ، دون أن يجبرهم على دخول الإسلام ! . وكانت عودة القس إلى فرنسا عام ١٢٣٠.وقد أوردت بعض المراجع التاريخية أن ستيفان بيع بيع الرقيق بعد مغادرته مرسيليا .

على كل حال ، فقد كان فى حملة الأطفال الصليبية ما أخجل أوروبا ، فأخذ البابا إنوسنت الثالث فى الدعوة لحملة صليبية جديدة يحقق بها ما عجزت عنه الحملة الصليبية الرابعة أو حملة الأطفال ، وهو استعادة بيت المقدس ! . وجمع مجلس اللاتيران Lateran الكنسى العام سنة ١٢١٥ لهذا الغرض ، ثم أرسل سنة ١١١٦ م إنذارًا إلى السلطان العادل محمد يهدّد بقرب وصول الحملة التى أعدّها إلى مصر إذا هو لم يسلم القدس إلى الصليبيين بدون قتال ! ، ولكن البابا إنوسنت توفى فى تلك السنة ، فتولى البابا هونوريوس استكمال عمله ، مما تمخض عنه ما عرف باسم « الحملة الصليبية الخامسة » (١٢١٨ – ١٢٢١) .

وقد وصلت هذه الحملة تباعًا إلى عكّا خلال سنة ١٢١٧ ، وهى تتكون من قوميات عديدة بدون قيادة محددة . ثم وصل إلى عكا فى أواخر إبريل ١٢١٨ عدد كبير من سفن هولندا ، وتلاها بقية الحملة من الفرنسيين والإنجليز . وبذلك تجمعت فى عكا فرق كثيرة أخلّت بتوازن القوى فى ذلك الحين بين الصليبيين والمسلمين . ولم تتجه هذه الحملة إلى القدس لاستعادتها ، بل اتجهت إلى

البحر الابيض المتوسط
بورة
دمياط
العادلية
فارسكور
شارمساح
طلخا
اشموم طناح
المنصورة
سمنود
فرع الفرما (البلوزى)
الفرما
فاقوس
بلبيس
القاهرة
خليج السويس

حملة حنا بريين على مصر
(الحملة الصليبية الخامسة)
١٢١٨ - ١٢٢١م

خط سير الحملة

(خريطة رقم ٣٤)

قطع ينابيع القوة الإسلامية ضدّ الصليبيين فى فلسطين ، وهى مصر ، فأخذت فى غزوها فى يونية سنة ١٢١٨ منتهزة انتهاء الهدنة التى أبرمت بين حنا بريين Jahn of Brienne ملك عكا والسلطان الأيوبى فى ١٢١٢ م لمدة خمس سنوات .

كان سلطان مصر فى ذلك الحين هو السلطان العادل محمد الذى كان يقيم بدمشق ، منيبًا عنه ابنه السلطان الكامل . ولم يصدق العادل أن ينقلب الصليبيون إلى الحرب بعد الهدنة ، ولكنه فوجئ بوصول قوات صليبية كبيرة من عكا بحرًا ، بقيادة الملك حنا برين ، إلى الشواطئ المصرية ، ونزولها عند قرية بورة ، ثم زحفها على شاطئ البحر حتى الشمال الغربى قبالة دمياط القديمة . فسارع العادل إلى إعداد جيش بالشام ، بينما زحف الكامل من القاهرة شمالاً إلى فارسكور ثم إلى بلدة العادلية على فرع دمياط .

على أن الصليبيين لم يلبثوا أن تمكنوا من الاستيلاء على برج دمياط ، حيث تمتد منه سلاسل حديدية عبر النيل لمنع مراكب العـدوّ من الدخول إلى الأراضى المصرية ، فقطعوا هذه السلاسل لكى تسير مراكبهم فى النيل وتتقدم إلى أسوار دمياط . ولم يحتمل العادل الصدمة وهو مريض بدمشق ، فتوفّى فى أواخر أغسطس ١٢١٨ .

على أن الكامل لم يلبث أن عوض السلاسل بجسر من السفن فى عرض النيل . وعندما تمكنت فرقة صليبية من اختراق هذا الجسر ، ردّ السلطان الكامل بإغراق عديد من هذه السفن فى النيل ، مما استحال معه تقدم الصليبيين . ولكنهم تمكنوا من تسيير مراكبهم فى فرع قديم من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق ، فجرت إلى بلدة بستان بورة قبالة العادلية ، التى كان فيها معسكر السلطان ، وبذلك أصبح الجيشان وجهًا لوجه .

ولكن الظروف جرت فى صف الصليبيين ، حين ترك الكامل معسكره ليلاً فجأةً ليتفادى مؤامرة ضدّه ، ثم تبعه الجيش ، فأتاح ذلك للصليبيين عبور النيل إلى البر الشرقى الذى عليه دمياط ، وزحفوا عليها ، وفرضوا عليها الحصار . وكان ذلك فى فبراير ١٢١٩ ، أى بعد مضى تسعة أشهر من حلولهم بمصر ، ثم تمكنوا من الاستيلاء عليها فى نوفمبر ١٢١٩ بعد مقاومة باسلة من المدينة استمرت بضعة أشهر أخرى ، لقيت فيها المدينة عنتًا شديدًا ، حتى امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى والجوعى . ووضع الصليبيون السيف فى رقاب أهلها ، وأسرفوا فى قتلهم وفى الاستيلاء على أقواتهم .

فى هذه الظروف القاتمة ، وبتقدير ثاقب من السلطان الكامل لخطورة الموقف ، وادراكا منه

أن ضياع مصر سوف يترتب عليه ضياع فلسطين وكل شيء – أراد انقاذ مركز القوة الاسلامية الرئيسى ، وهو مصر ، مقابل التنازل المؤقت عن فلسطين ! . فعرض على الصليبيين عرضًا غريبًا ، وهو إبرام الصلح على أساس جلاء الحملة الصليبية عن مصر تمامًا ، فى مقابل ردّ صليب الصلبوت إليهم ، وردّ مدينة القدس نفسها ومعظم البلاد الفلسطينية التى استردها منهم صلاح الدين ، ما عدا الكرك والشوبك ، اللتين رأى ضرورة بقائهما فى يده لتأمين الأطراف البرية من المعتدين ، حتى يحين وقت تحرير فلسطين عند توفر القوة اللازمة .

على أن الصليبيين أدركوا فى سهولة غرض السلطان الكامل ، فرفضوا هذا العرض السخى ، إذ رأى المندوب البابوى ، واسمه بلاجيوس Pelagius ، أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم ، لإملاء شروط ذلّهم وخضوعهم . وبناءً على ذلك لم يعد مفرّ من القتال .

فى تلك الأثناء كان السلطان الكامل قد انسحب إلى موقع مدينة المنصورة الحالية ، حيث أقام معسكره ، وأخذ فى بناء التحصينات على مدى ثمانية عشر شهرًا ، فى الوقت الذى أخذت تفد إليه النجدات من دمشق بقيادة أخيه المعظم عيسى وأخيه الأشرف موسى بعده .

وفى شهر يولية ١٢٢١ ، والنيل يوشك أن يمتلئ بماء الفيضان ، بدأ الصليبيون هجومهم بعد وصول حملة إضافية إليهم من أوروبا بقيادة لويس دوق بافاريا . فتحركوا من دمياط ، واتجهوا إلى بلدة طلخا ، ثم توقفوا شمال المعسكر الإسلامى عند بحر أشموم طناح ، تأهبًا لشن هجوم كاسح على الجيش الإسلامى لدفعه إلى الوراء نحو القاهرة ، ولم يكن يفصل بينهم وبين المعسكر الإسلامى سوى البحر الصغير .

على أن المعسكر الإسلامى كان فى ذلك الحين قد سيطر على ضفتى النيل الرئيسى ، بما فى ذلك جوجر وطلخا ، متحصنًا بمواقعه وراء بحر أشموم طناح . والأرض التى يجرى الاشتباك عليها ذات قنوات وترع كثيرة تعرفها القوات المصرية ولا يعرفها الصليبيون . وقد غفل الصليبيون فى حركتهم الانتشارية عن قناة تجرى وقت الفيضان بين النيل وفرع قديم من فروعه ، وتصبح حائلاً بينهم وبين دمياط ، كما غفلوا عن زحف بضعة فرق من جيش السلطان الكامل شرقًا وعبورها بحر أشموم قرب أضحال المنزلة . ولم تلبث البحرية الأيوبية أن استولت على بضعة سفن كبيرة صليبية محمّلة بالرجال والمؤن وأسرت معظم رجالها ، وأبحر عدد من السفن المصرية فى بحر المحلة الذى يلتقى بالنيل جنوبى فارسكور ، فحالت بين الصليبيين وأية نجدات تصل إليهم من دمياط ، وقطعت فى نفس الوقت خط الرجعة على السفن الصليبية . ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر

النيل شمال طلخا ، فضلاً عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء وغطى مساحةً كبيرةً من الأرض شمال مواضع الصليبيين ، عدا طريق ضيق سدّه الكامل بقوات برية .

وبهذا انحصر الصليبيون ، وسدت عليهم المنافذ ، وأدركوا يأس موقفهم ، فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وسائر أدواتهم الثقيلة ، وأرادوا الانسحاب فى الظلام ليلة ٢٦ أغسطس ١٢٢١ ، ولكن الماء والقوات البرية المصرية حالت دون تقهقرهم إلى دمياط ، وباتت تصفيتهم مسألة وقت ! .

عند ذلك انقلب النائب البابوى بلاجيوس إلى مفاوضة السلطان الكامل ، يلتمس السماح للجيش الصليبى بالعودة إلى دمياط ، للجلاء عنها دون قيد أو شرط . وقد انقسم مجلس حرب السلطان الكامل ، فقد رأى البعض الاستمرار فى حصار الصليبيين حتى تنفد أقواتهم وقواتهم وتتفشى فيهم المجاعة ، فيأكل بعضهم بعضًا أو يأكلهم الطاعون ! . بينما أشار البعض الآخر بإعطاء الصليبيين الأمان من باب العفو عند المقدرة . وقد رأى السلطان الكامل أن اكتساب معركة دبلوماسية أجدى عليه من نصر معركة حربية قد تعقبها هزيمة على يد نجدات أوروبية يحتمل وصولها ، فمنح الصليبيين أمانه . وانتهى الطرفان بعقد هدنة مدتها ثمانية أعوام ، بشرط موافقة الإمبراطور فردريك الثانى عليها ، وإطلاق سراح الأسرى من الطرفين .

وفى يوم ٨ سبتمبر ١٢٢١ جلا الصليبيون عن دمياط ، ودخلتها القوات المصرية ، وذلك بعد أن شهدت مدينة المنصورة احتفالاً عظيمًا شهده الأمراء المسلمون ، وعلى رأسهم السلطان الكامل ، كما شهده زعماء الصليبيون ، وعلى رأسهم الملك حنا برين والنائب البابوى بلاجيوس ودوق بافاريا ، وتبادل الطرفان التهانى ، وتبارى الشعراء فى قصائد المديح . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ! .

٥٥ – الحملتان الصليبيتان السادسة والسابعة

- حملة فريدريك الثانى .
- إتفاقية الهدنة بين فريدريك الثانى والسلطان الكامل فى سبتمبر ١٢٢٨ م .
- انقسام البيت الأيوبى مرة ثالثة بعد وفاة الكامل فى مارس ١٢٣٩ م .
- حملة تيبالد ملك نافار Theobald of Navarre ١٢٣٩ ونزولها فى عكا .
- هزيمة قوات تيبالد فى غزة وانسحابه إلى طرابلس .
- تورط تيبالد فى الصراع بين أمراء البيت الأيوبى وإنسحابه من عكا فى سبتمبر ١٢٤٠ م .
- إسترداد الصالح أيوب القدس فى ١١ يونية ١٢٤٤م وهزيمة الحلف الصليبى الإسلامى .
- هزيمة قوات الحلف الصليبى – الأيوبى فى وقعة حربيا .
- استرداد الصالح أيوب طبرية فى يونية ١٢٤٧ م .
- إسترداد عسقلان فى ١٥ أكتوبر ١٢٤٧ م .
- حملة لويس التاسع على مصر ١٢٤٨ – ١٢٥٤ .
- هزيمة الجيش الصليبى وأسر لويس التاسع .

٥٥ - الحملتان الصليبيتان السادسة والسابعة
(١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) ، (١١٤٨ - ١٢٥٤ م)

كان لفشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر دوىٌّ عظيم فى أوروبا ، فقد هالها انسحاب الصليبيين من دمياط بعد استيلائهم عليها ، وهالها أكثر من ذلك رفض الصليبيين مرةً بعد أخرى عروض السلطان بتسليمهم معظم مملكة القدس فى مقابل الانسحاب عن دمياط ، واضطرارهم فى نهاية الأمر إلى تسليم دمياط والجلاء عن الشواطىء المصرية دون قيد أو شرط . وتندر المتندرون بغفلة زعماء الحملة ! ، وأخذ دعاة الفكرة الصليبية فى إثارة أوروبا لإعداد حملة أخرى .

فى ذلك الحين كان فريدريك الثانى هوهنشتاوفن ؛ إمبراطورًا على الدولة الألمانية الغربية ، وكان قد نذر عند اعتلائه العرش الإمبراطورى سنة ١٢١٥ أن يذهب فى حملة صليبية ألمانية إلى الشرق ، وسنحت له الفرصة حين تزوّج فى سنة ١٢٢٥ من ابنة الملك حنا برين قائد الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة ، فأصبح بحق هذا الزواج صاحب مملكة عكّا ، وأعدّ بالفعل حملةً صليبيةً ألمانيةً فى عام ١٢٢٧ أبحرت من ثغر برنديزى بإيطاليا ، ولكنها عادت بسبب إصابته بالحمى ، فاعتبرت البابوية المرض تمارضًا ، وأصدرت قرارًا بقطع فريدريك من رحمة الكنيسة . على أن فريدريك استطاع مع ذلك أن يحقق للصليبيين ما عجزت عنه الحملة الصليببة الخامسة ، فقد دخل فى مراسلات مع السلطان الكامل أسفرت عن اتفاق يقوم على شروط مماثلة لما عرضه السلطان الكامل على الصليبيين فى الحملة الصليبية الخامسة ، وهى أن يتسلم فريدريك مدينة بيت المقدس وبيت لحم ، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل بين عكّا وبيت المقدس ، بما فى ذلك اللد ويافا والناصرة والجليل ، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى بيت المقدس فى يد المسلمين . وذلك مقابل هدنة تستمر عشر سنوات يتعهد فيها فريدريك بمنع أية حملة صليبية أوروبية جديدة عن السواحل المصرية والشامية . وقد تمّ توقيع هذه الهدنة بالفعل فى سبتمبر ١٢٢٨ فى فلسطين عند مدينة عكا .

وقد أعقب هذه الهدنة زيارة قام بها فريدريك ، بإذن السلطان الكامل ، إلى المسجد الأقصى ، حيث يذكر المؤرخون أنه كان يستفسر عن مزاراته باللغة العربية الفصحى ! ، إذ كان

يجيد – إلى جانب اللغة العربية – ست لغات أخرى كتابة وكلاما ! . ولم يكد ذلك غريبا عن سامعية الذين تعودوا سماع كثير من الصليبيين الأوروبيين فى الشام يتكلمون العربية . ثم رحل فريدريك إلى عكا بعد أن توّج نفسه بكنيسة القيامة ملكا على مملكة بيت المقدس .

وقد أغضبت تلك الاتفاقية كلاً من الصليبيين والمسلمين على السواء . فقد حنقت البابوية على فريدريك لأنه صالح المسلمين ، بدلاً من مقاتلتهم حتى النهاية . ولكنها أدركت بعد ذلك أن حملته الصليبية السلمية قد حققت للمسيحيين ما لم تحققه الحملة الصليبية الخامسة ، فأعلنت عودته إلى رحمة الكنيسة سنة ١٢٣٠ .

أما بالنسبة للمسلمين فقد امتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها بالناقمين على السلطان الكامل ، الذى سلم بيت المقدس لفريدريك الثانى فى مقابل هدنة عشر سنوات قابلة للتجديد ، ولم يفلح السلطان فى إقناع أحد بمزايا تجنيب مصر والشام ويلات حملات صليبية جديدة لمدة عشر سنوات . وقد تبدى سخط المعاصرين على السلطان الكامل فى عبارة الفقيه المعاصر ابن الأهدل ، التى أوردها المؤرخ الكبير الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وفيها يقول : « وللكامل هفوة جرت منه ، عفا الله عنه ، وذلك أنه سلم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختيارًا . نعوذ بالله من سخط الله ، وموالاة أعداء الله » .

على أن الأمور أخذت تهيئ مرةً أخرى لعودة بيت المقدس إلى يد المسلمين ، بعد وفاة السلطان الكامل فى دمشق فى مارس ١٢٣٩ ، وانفراط عقد الدولة الأيوبية للمرة الثالثة ، فقد تولى السلطنة بالقاهرة العادل الثانى بن الكامل ، وتولى أخوه الأكبر الصالح أيوب فى دمشق مستعينًا بالخوارزمية ، واعتزم الأخير الحلول محل أبيه فى السلطنة الأيوبية المتحدة بالقاهرة ، ولكن عمه الصالح إسماعيل طرده من امارة دمشق ، ودار صراع بين ملوك البيت الأيوبى أشاع الاضطراب فى الدولة الأيوبية .

فى أثناء ذلك الاضطراب دنا أجل الهدنة التى عقدت بين الكامل وفريدريك ، وكانت البابوية تترقب هذا الميعاد لإرسال حملة أخرى إلى الشرق ، وتكونت بالفعل حملة صليبية فى عام ١٢٣٩ بقيادة تيبالد Theobald ملك ناڤار ، وانضمت إليها جيوش فرنسية أخرى من برجندى ونيفر وبريتانى وغيرها ، وأبحرت من مينائى أيجمور ومرسيليا بجنوب فرنسا فى أغسطس ١٢٣٩ حيث أنزلت جيشًا عدته بضعة آلاف من الفرسان والمشاة عند عكا فى يوم انتهاء أجل الهدنة . وكان ذلك فى وقت بلغ الصراع فيه بين ملوك البيت الأيوبى أشده .

ومع ذلك فقد قدر لهذه الحملة أن تلقى فشلاً ذريعًا حرمها من التمتع باسم عددى فى كتب

الحروب الصليبية ! . فقد اختلف أمراء الحملة فى اتجاه الحملة : هل تتجه أوّلاً إلى غزو مصر ، أم تغزو دمشق ؟ . وهنا رأى الملك تيبالد الجمع بين الفكرتين ، وذلك بالهجوم أوّلاً على الأطراف المصرية عند عسقلان وغزة لتأمين الأراضى الصليبية من ناحية الجنوب ، ثم التحوّل فى سرعة إلى مهاجمة دمشق . على أن الملك تيبالد لم يكد يقترب من غزة حتى كان فى انتظاره جيش مصرى يكمن فى المدينة ، ولذا عندما أرسل إلى المدينة فرقة لاحتلالها عند الفجر ، سقط معظم رجالها أسرى ، وانقلب الزحف الصليبى إلى الجنوب فى تقهقر عام نحو الشمال إلى عكا . ولكن الملك الناصر داود ، حاكم الكرك وعموم فلسطين ، زحف على بيت المقدس فجأة ، فاحتلها بعد تسليم حاميتها له فى السابع ديسمبر ١٢٣٩ ، وهدم تحصينات بيت المقدس الجديدة ، ثم رجع عنها إلى عاصمته بالكرك . وتحوّل الملك تيبالد شمالاً نحو إمارة طرابلس الصليبية حيث بقيت قواته حائرة فيها حتى صيف عام ١٢٤٠ م .

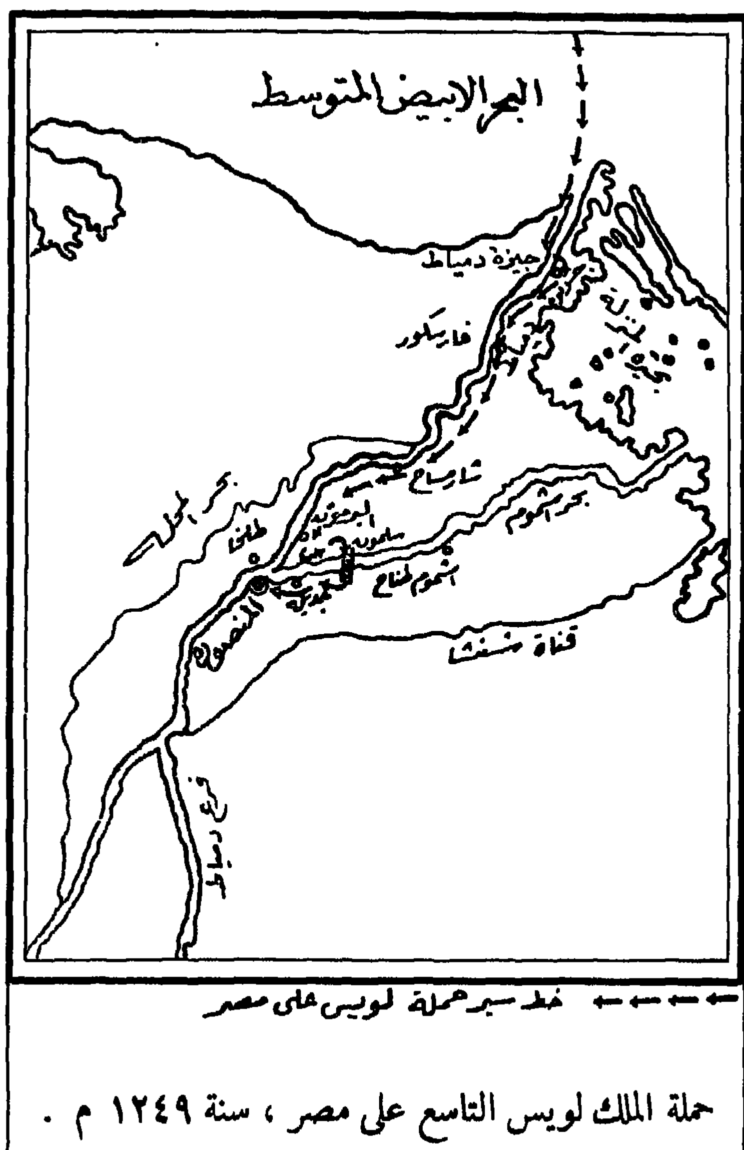
وفى تلك الأثناء كان الصالح أيوب قد تمكن من اعتلاء السلطنة فى القاهرة فى يونية ١٢٤٠ ، مما أدّى إلى تدهور العلاقات بينه وبين الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق ، وحين أحس الصالح إسماعيل بقرب الهجوم من قبل الصالح أيوب وحليفه الناصر داود صاحب الكرك ، طلب محالفة الملك تيبالد لمساعدته ، فى مقابل تسليم صفد وما حولها من الحصون للصليبيين ! . ولكن الصالح أيوب استطاع بالدعاية الدينية تأليب أهل دمشق ضدّ هذا التحالف ، وفى الوقت نفسه وعد الملك تيبالد بإطلاق سراح أصحابه من أسرى وقعة غزة إذا نكث عهده مع الصالح إسماعيل وقد قبل الملك تيبالد هذا الاتفاق ، مما أغضب عليه الصليبيين المحليين ، فلم يجد مفرًّا فى النهاية من الرجوع بحملته من مدينة عكا إلى أوروبا فى أواخر سبتمبر ١٢٤٠ . وبذلك فشلت هذه الحملة الصليبية فى كل خطواتها ، ما عدا الاستيلاء على عسقلان وصفد .

وفى السنوات التسع التالية وقعت بالصليبيين فى فلسطين ثلاث كوارث . وقد بدأت الكارثة الأولى ببداية مشجعة للصليبيين ، حين تكوّن حلف صليبى - إسلامى ، يتكون من الفرسان الداوية فى عكا وفلسطين ، ومن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، ضدّ الصالح أيوب . وفى مقابل هذا الحلف الغريب ، نزل الصالح إسماعيل للصليبيين عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، المنصوص فى الهدنة التى عقدت بين الكامل وفريدريك على بقائها فى يد المسلمين ، وقام فرسان الداوية باحتلال هذه المنطقة فى أواخر سنة ١٢٤٣ . ولكن الصالح أيوب أرسل إلى الخوارزمية ،

الذين أدخلهم فى خدمته منذ سنة ١٢٤٠ ، يكلفهم بالاستيلاء على دمشق وبيت المقدس . فعبرت جيوشهم نهر الفرات إلى الشام فى يونية سنة ١٢٤٤ ، وعدتها عشرة آلاف من الفرسان ، تريد الاستيلاء بسرعة على دمشق ، ولكنها اكتشفت ضرورة حصارها ، وليس لديها أدوات الحصار ، فزحفت نحو بيت المقدس بعد احتلال طبرية ونابلس ، وتمكنت من دخول المدينة يوم ١١ يونية ١٢٤٤ ، وأعطت الأمان لأهلها ، فخرجوا منها إلى يافا فى أواخر أغسطس . وبذلك فقد الصليبيون مدينة القدس مرة أخرى .

أما الكارثة الثانية : فوقعت حين أراد الصليبيون معاقبة الصالح أيوب على احتلاله لبيت المقدس ، بالاستعانة بحلفائهم المسلمين ، وهم : الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والمنصور إبراهيم صاحب حمص ، والملك الناصر داود صاحب الكرك - وكونوا أعظم جيش منذ وقعة حطين ، وزحفت جيوشهم فى أوائل أكتوبر ١٢٤٤ من عكا إلى عسقلان لمنع الجيش المصرى والخيالة الخوارزمية من الزحف شمالاً ، ولكن المصريين والخوارزميين تقدموا شمالاً ، واصطدموا بالجيوش المتحالفة اصطداماً عنيفاً عند قرية حيربيا الحالية (لافوربى زمن الصليبيين) فى منتصف الطريق بين غزة وعسقلان ، وذلك يوم ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ م ، وألحقوا بها هزيمةً ساحقةً ، سقط فيها من الصليبيين وحدهم خمسة آلاف ، ولم ينج سوى عدد قليل فرّ عائداً إلى يافا . ثم أسرعت الجيوش المصرية والخوارزمية إلى ممتلكات الملك الناصر صاحب الكرك ، فاستولت على حبرون وبيسان ونابلس ، وزحفت إلى دمشق فى أبريل ١٢٤٥ ، فسقطت فى يدها . وهكذا أحدثت وقعة حيربيا - التى تعرف باسم « وقعة غزة » فى كتب الحروب الصليبية - بالقوات الصليبية ما أحدثته معركة حطين قبلا - كما يقول الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى حقق مكان الوقعة .

أما الكارثة الثالثة ، فقد وقعت بعد عامين ، أى فى سنة ١٢٤٧ ، حين اتحدت للصالح أيوب تحت حكمه مصر والشام والبلاد الفراتية ، ما عدا إمارات حمص وحلب وحماة ، التى كانت مع ذلك إمارات أيوبية تعترف له بالصدارة ، وذلك بعد تخلصه من الملك الصالح إسماعيل . وتخلصه أيضاً من الخوارزمية الذين انقلبوا عليه ، ثم تفرغ لقتال الصليبيين . فاستطاع جيش مصرى استرداد مدينة طبرية فى يونية ١٢٤٧ ، ثم زحف نحو عسقلان ، بينما كانت تحاصرها سفن الأسطول المصرى ، ولم تجد حامية عسقلان بدًّا فى النهاية من الاستسلام ، فدخل الجيش المصرى المدينة يوم ١٥ أكتوبر ١٢٤٧ ، وهدم حصونها القوية التى استعصت على كل المحاولات السابقة



حملة الملك لويس التاسع على مصر ، سنة ١٢٤٩ م .

(خريطة رقم ٣٥)

للاستيلاء عليها منذ أيام صلاح الدين . وزار السلطان الصالح أيوب مدينة بيت المقدس حيث أمر بتجديد أسوارها تجديدًا تامًّا .

كانت هذه الكوارث ، وخاصة كارثة استعادة المسلمين بيت المقدس مرةً أخرى ، سببًا فى ارتفاع الصيحة من جديد فى أوروبا لتكوين حملة صليبية تستعيد بيت المقدس . وقد تزعمت فرنسا حركة المناداة ، وأعلن ملكها لويس التاسع ، الذى تسميه المراجع الأوروبية «القديس لويس» ، المراجع العربية «لُوَيْس بن لُوَيْس» ، عزمه على قيادة حملة صليبية جديدة تستعيد للصليبيين ما فقدوه قديمًا وحديثًا ، عن طريق الاستيلاء على مركز المقاومة الرئيسى فى الشرق وهو مصر .

وقد تكونت هذه الحملة بالفعل وتجمّعت فى قبرص فى ربيع سنة ١٢٤٨ ، من جيوش فرنسية بحتة ، وانضمت إليها جيوش إنجليزية وإقطاعيون صليبيون من عكا وقبرص نفسها ، وبذلك صارت الحملة تمثل حلفًا من الفرنسيين والإنجليز والصليبيين القدامى فى فلسطين . ومكثت سنةً كاملةً فى قبرص قبل أن تبحر من ميناء ليماسول فى أوائل مايو سنة ١٢٤٩ متجهةً إلى الشواطئ المصرية ، لترسى خارج دمياط كما فعلت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دى برين ، بعد أن تعرضت لرياح عاصفة شديدة بدّدت الكثير من سفنها ، فلم يصل سوى سبعمائة سفينة .

ويبدو أن لويس التاسع أراد الاستفادة من تجربة الحملة الصليبية الخامسة ، ولكنه وقع فى كل أخطائها . فقد رسا بجنوده على الشاطئ الغربى لدمياط كما فعلت الحملة السابقة ، رغم ما أثبتته الحملة السابقة من صعوبات هذا الطريق . وكان السلطان الصالح أيوب قد تلقى بعض أركان الخطة الصليبية وهو فى أشموم طناح ، أو توقع قادته نزول الصليبيين على الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط كما فعلت الحملة السابقة ، فأعدّ لها العدّة بجزء كبير من الجيش المصرى تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف ، عبر النيل عند عزبة البرج الحالية ، وعسكر على طول الشاطئ الغربى ، وفى الوقت نفسه ملأ دمياط وأبراجها وأسوارها بالعساكر والأسلحة والأقوات ، استعدادًا لحصار طويل ، ولذلك يذكر جوانفيل ، مؤرخ الحملة الصليبية وأحد قادتها ، أن منظر جيوش السلطان فى أسلحتها الذهبية ، والجلبة التى كانت تحدثها بصنوجها وأبواقها الشرقية ، كانت تدخل الرعب فى قلوب من يسمعونها .

وبدا أن الهزيمة حتمًا ستكون من نصيب الجيوش الصليبية ، لولا أنه حدث أن القائد فخر الدين ، الذى كان عجوزًا متقدمًا فى السن ، اعتقد أن السلطان الصالح أيوب ، الذى كان

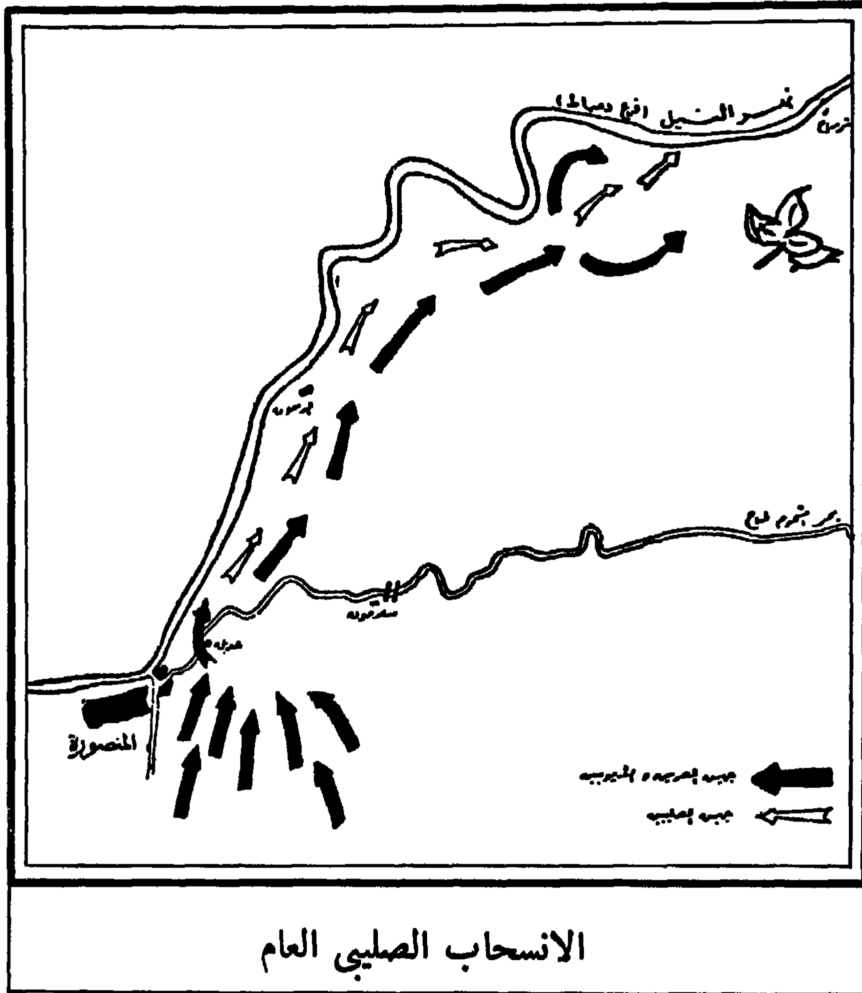
فى ذلك الحين يعانى مرضًا خطيرًا ، قد مات ، فانسحب بقواته تحت ستار الليل إلى أشموم طناح ، حيث يوجد المعسكر السلطانى ، وباتت دمياط دون جيش يحميها سوى حامية صغيرة ، مما دعا أهلها إلى مغادرتها خوفاً على أرواحهم ، ولحقوا بالعسكر ، ثم فروا هاربين إلى القاهرة . وهكذا دخل الصليبيون دمياط دون مقاومة ! .

وقد كان لهذا الانسحاب وقع الكارثة على الصالح أيوب ، الذى أنزل عقوبة الإعدام شنقًا بحامية دمياط المنسحبة ، وكاد يأمر بإعدام فخر الدين نفسه . ولكنه قرر التراجع مع جيشه جنوبًا إلى مدينة المنصورة ، وبدأ فى تحصينها تأهبًا للقاء الصليبيين . وساعده الحظ بتلكؤ لويس التاسع ستة أشهر انتظارًا لوصول بقية سفنه ، مما أتاح له الفرصة للاستعداد الكامل .

على أنه لم يكد الصليبيون بقيادة لويس التاسع يبدءون هجومهم من دمياط فى نوفمبر ١٢٤٩ ، حتى توفى السلطان الصالح أيوب . وأدركت زوجته شجر الدر ما يمكن أن يؤدى إليه علم جيشه بهذا الموت من تفرق الشمل وضعف الروح المعنوية ، فأخفت الخبر ، وأرسلت إلى ابنه توران شاه فى حصن كيفا بالموصل ، للحضور لتسلم العرش . وتقدم الجيش الصليبى فى تلك الأثناء إلى بلدة البرمون على البحر الصغير حيث نصب عسكره فى مواجهة الجيش المصرى الممتد من أشموم طناح إلى قرية جديلة والمنصورة .

وقد حاول لويس التاسع نصب جسر من الخشب فى عرض البحر الصغير ، ليعبر منه إلى المعسكر المصرى ، ولكن القذائف النارية المصرية المستمرة أبادت معظم الجنود العاملين فى الجسر ، بينما كانت المجانيق المصرية والقاليع تمطر الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار الإغريقية التى أنزلت الرعب بقلوبهم . وقد روى المؤرخ جوانفيل «أن الملك القديس كلما سمع أن النار الإغريقية قد صوبت نحونا انتصب واقفًا على سريره رافعاً يديه إلى السماء مبتهلاً وعيناه مخضلتان بالدموع : «أيها الإله الطيب ، احفظ لى شعبى» .

على أنه فى تلك الأثناء استطاع الفرنسيون ، عن طريق أحد الخونة العربان ، اكتشاف مخاضة فى بحر أشموم طناح ، يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم ، فكلف الكونت أرتوا بالعبور على رأس فرقة من الجيش يوم ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير ١٢٥٠) للاشتباك مع المصريين ، وشغلهم عن بناء الجسر ، حتى يعبر عليه بقية الجيوش الصليبية ، ولكنه فرح بما حقق من نصر بفضل المباغتة ، واندفع بفرسانه إلى المنصورة فدخلها ، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان . ولكن فرقة المماليك البحرية حملت على جنوده حملةً قويةً ، وتعقبتها بقيادة بيبرس



الانسحاب الصليبي العام

(خريطة رقم ٣٦)

البندقدارى ، وقتلت منهم ما يقرب من ألف وخمسمائة فى بضع ساعات ، وفى مقدمتهم الكونت أرتوا نفسه ! . ثم التقى الجيش الإسلامى بالجيش الصليبى بقيادة لويس التاسع ، ودار بين الجيشين قتال عنيف لم يحسمه إلا وصول توران شاه إلى المنصورة وتسلمه زمام الموقف .

فقد لجأ توران إلى حيلة قديمة هى بناء سفن خفيفة ، وحملها على الجمال إلى بحر المحلة ، حيث أعيد تركيبها وتعويمها فى النيل ، وقطع على الصليبيين الطريق بينهم وبين دمياط . واشتدت الضائقة على جيش لويس التاسع لانقطاع المئونة عنه من دمياط ، فعرض الانسحاب مقابل بيت المقدس ، ولكن توران شاه رفض ، فقرر التقهقر إلى دمياط فى أوائل إبريل سنة ١٢٥٠ ، ولكن الجيش الإسلامى أطبق عليه عند فارسكور ، وألحق به هزيمةً ساحقةً ، وسقط لويس التاسع نفسه أسيرًا ، وحمل مكبلاً إلى المنصورة ليسجن بدار قاضيها إبراهيم بن لقمان . وانتهت الحملة الصليبية السادسة ، التى عقدت عليها الآمال ، باتفاق على جلاء الصليبيين عن دمياط والأراضى المصرية ، مع دفع مائتى ألف قطعة ذهبية اسبراطورية فديةً عن أخوى الملك وكبار الأسرى ، يؤدّى نصفها قبل إطلاق سراحه .

وقد جرت اجراءات تسليم دمياط وإطلاق سراح لويس التاسع وكبار الأسرى يوم الجمعة ٢ صفر ٦٤٨ هـ الموافق ٦ مايو ١٢٥٠ م . حيث ارتفعت أعلام السلطنة الأيوبية على أسوار وأبراج دمياط ، ونزلت أعلام الصليبيين ، التى رفرفت منذ أوائل شهر يونية ١٢٤٩ م ، أى مدة أحد عشر شهرا . ولم يشهد توران شاة هذا الاحتفال ، لأنه كان قد اغتيل قبل أربعة أيام بيد ركن الدين بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى – بعد أن شعر المماليك البحرية بأنه ينوى أن يقلب لهم ظهر المجن عندما يعزز أقدامه فى الحكم . وبذلك بدأت صفحة جديدة فى الصراع مع أوروبا ، لعبت دور البطولة فيها دولة المماليك ! .

٥٦ – طرد الصليبيين من الشام

- خسائر الحملة الصليبية السابعة .
- ظهور قوتى المغول والمماليك فى المشرق العربى .
- غزو المغول للمشرق العربى بالتحالف مع أنطاكية وأرمينيا الصغرى .
- التحالف بين مماليك الشام ومماليك مصر .
- موقعة عين جالوت فى ٦ سبتمبر ١٢٦٠ م .
- غزو بيبرس للشام وفتحه أنطاكية فى مايو ١٢٦٨ م .
- حملة لويس التاسع على تونس ١٢٧٠ م .
- وفاة بيبرس فى أوائل ١٢٧٧ م .
- جهاد قلاوون ضد المغول وهزيمته لأبغا قرب حمص فى ١٢٨١ م .
- إسترداد قلاوون إمارة طرابلس فى ابريل ١٢٨٩ م .
- وفاة قلاوون فى نوفمبر ١٢٩٠ م .
- استرداد عكا على يد خليل بن قلاوون فى ١٨ مايو ١٢٩١ م .
- انتهاء الحروب الصليبية وبقاء الفكرة الصليبية .

٥٦ – طرد الصليبيين من الشام

انتهت حملة لويس التاسع على مصر بالفشل الذريع ، وخرج مدحوراً من مصر وفى ركابه مائة جندى ، هم ما تبقى من ثمانين ألف مقاتل تكونت منهم حملته ، تاركاً عشرة آلاف أسير صليبى ضماناً لتنفيذ معاهدته مع مصر . وانتهت بطرد هذه الحملة الصليبية السابعة صفحة صاخبة من صفحات الصراع بين العرب وأوروبا ، لتبدأ صفحة أخرى أشدّ صخباً .

فى ذلك الحين كان المسرح السياسى فى المشرق العربى يتأهب لاستقبال غاصب جديد ، يتمثل فى المغول ، وفى الوقت نفسه كان يودّع الأسرة الأيوبية ويستقبل دولة المماليك . وقد قدر لهذين التغييرين الكبيرين أن يلعبا الدور الرئيسى فى الأحداث على مدى الأربعين عاماً التالية .

وبالنسبة للتغيير الأول ، فإن النصف الأول من القرن الثالث عشر كان قد شهد ظهور المغول كقوة حربية هائلة فى آسيا ، حين استولى جنكيز خان على الصين بين سنتى ١٢١٠ و ١٢١٦ ، ثم أخضع تركستان الشرقية غرباً ، ثم أتراك خوارزم سنة ١٢٢٠ ، وعند انتصاف القرن الثالث عشر كانت جيوش المغول قد استولت على فارس ومعظم جنوب روسيا وأطراف شرق أوروبا ، وانقسمت إلى كتلتين كبيرتين ، إحداهما شمال بحر قزوين والبحر الأسود وحوض نهر الفولجا ، والأخرى فى فارس وعلى رأسها هولاكو . وقد قدر لهذه الكتلة الأخيرة أن تهدّد الشرق العربى ، خصوصًا بلاد العراق والشام ومصر . عند إنسحاب لويس التاسع عن مصر سنة ١٢٥٠ .

أما بالنسبة للتغيير الثانى ، فقد رأينا فى الصفحات السابقة كيف توفى السلطان الصالح أيوب أثناء حملة لويس التاسع على مصر ، وكيف حملت فرقة المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى عبء إنقاذ المنصورة من الفرسان الصليبيين ، فى الوقت الذى أرسلت شجرة الدر ، أرملة الصالح أيوب ، فى استدعاء ابنه توران من حصن كيفا بالموصل . وقد استطاع توران شاه القضاء على أهداف الحملة الصليبية بهزيمة لويس التاسع عند فارسكور ، وسوقه أسيرًا ليسجن بدار ابن لقمان بالمنصورة . ولكنه أساء إلى المماليك البحرية بعد ذلك ، كما أساء إلى أرملة أبيه التى أسلمته مقاليد الحكم ، فكانت النتيجة تآمر شجرة الدر مع المماليك البحرية على اغتيال توران شاه ، ووقع الاختيار على شجرة الدر لتشغل منصب السلطة تحت اسم : « السلطانة شجرة

الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية » ، فكانت أوّل امرأة تتولى سلطنة المسلمين فى التاريخ الإسلامى .

وقد كان قيام شجرة الدر فى السلطنة ، البداية العملية لدولة المماليك ، فى رأى كثير من المؤرخين ، لأنها بحكم أصلها كانت أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين . فكأن دولة المماليك قد قامت فعلاً فى مايو ١٢٥٠ . على أن الصراعات التى قامت بعد ذلك على الحكم أدّت إلى انقسام مصر والشام إلى قوتين متنازعتين ، الأولى بأيدى المماليك ، والثانية بأيدى الأيوبيين فى الشام . وفى الوقت نفسه لم يقر الخليفة المستعصم بالله العباسى فى بغداد مبدأ قيام امرأة فى حكم المسلمين ، فتنازلت شجرة الدر عن العرش لعز الدين أيبك فى يوليو ١٢٥٠ بعد ثمانين يومًا ، واضطر هذا إلى الاصطدام بالمماليك البحرية والتخلص من زعيمهم أقطاى ، فقرروا الخروج إلى الشام بقيادة بيبرس البندقدارى ، ولكن أيبك لم يستمر طويلاً فى الحكم ، إذ لقى مصرعه على يد شجرة الدر فى إبريل ١٢٥٧ ، وبعد ثلاثة أيام تعرضت هى لنفس المصير ، وبذلك أصبح الحكم من الناحية الفعلية فى يد الأمير سيف الدين قطز ، الذى عين نائبًا لابن أيبك فى منصب السلطنة ، ثم أصبح سلطانًا فى إبريل ١٢٥٩ عندما أصبح خطر المغول يهدد البلاد .

فنى ذلك الحين كان هولاكو ، خان مغول فارس ، قد أخذ ينفذ مشروعاته فى الاستيلاء على العراق ، فقضى أوّلاً على معاقل طائفة الحشاشين فى فارس ، ثم بدأ الزحف على بغداد ، وفرض الحصار عليها ، فسقطت فى يده فى فبراير ١٢٥٨ ، واندفع المغول فى أنحائها يقتلون ويدمرون ، وكان من ضحاياهم الخليفة المستعصم نفسه ومجموعة من أبناء البيت العباسى . وبذلك صارت الشام ومصر هى الهدف التالى للمغول .

وبالفعل ، فإن هولاكو لم يتأخر طويلاً عن الزحف على بلاد الشام ، فاستولى أوّلاً على ديار بكر ، ومنها على آمد ، وأرسل من حران فرقة استولت على حلب فى فبراير ١٢٦٠ ، ثم اتجه إلى دمشق حيث ترك رئاسة الجيش إلى مساعده كتبغا ، وعاد إلى جوف آسيا للمشاركة فى اختيار خان المغول الأعظم بعد موته ، فاستولى كتبغا على دمشق فى مارس ١٢٦٠ ، ومن ثم أخذ المغول يتجهون إلى فلسطين فى طريقهم إلى مصر .

فى ذلك الحين كانت قد جرت محاولات للتحالف بين الصليبيين والمغول . وكان لويس التاسع متحمسًا لهذه الفكرة تحت اعتقاد أن المغول الوثنيين هم حقل بكر لنشر المسيحية بينهم . ولذلك فقد أجرى اتصالات قبل زحفه بحملته على مصر لعقد تحالف معهم لغزو بيت المقدس ، واضطر

فى سبيل ذلك إلى الانتظار فى قبرص مدة عام كامل ، مما أضعف من حماس رجاله . ولما فشلت حملته على مصر تعطل مشروع التحالف الصليبى المغولى ، وعاد لويس التاسع إلى عكا ليبقى بها أربع سنوات ، أخذ الخطر المغولى يتزايد فيها على المشرق العربى كما ذكرنا ، وبدت المصلحة المشتركة بين الصليبيين والمغول فى القضاء على القوى الإسلامية ، ولكن السلطان قطز استطاع عقد اتفاقيةً مع الصليبيين فى عكا للتفرغ للمغول ، بينما تمكن كتبغا من التحالف مع بوهيمند السادس أمير أنطاكية وهيثوم ملك أرمينيا الصغرى ، فاشتركت جيوشهما الصليبية فى الزحف على مصر . ولكن بيبرس البندقدارى ، الذى كان قد سجل موقفًا تاريخيًا مشرفًا للمماليك البحرية بعرضه التعاون مع السلطان قطز ضدّ الخطر المشترك ، استطاع أن يطرد طلائع المغول من غزة ، ثم زحف الجيش المملوكى من مصر شمالاً ، بعد ضمان حياد عكا ، ليفاجئ المغول بوصوله إلى طبرية ، مما لم يحسبوا له حسابًا . ثم دارت المعركة التاريخية الفاصلة عند عين جالوت فى ٦ سبتمبر ١٢٦٠ م ، فألحق قطز بالأعداء هزيمةً ساحقةً ، كانت هى الأولى فى تاريخهم ، وترتب عليها طرد المغول من دمشق وسائر بلاد الشام إلى ما وراء الفرات .

وقد انتقل الملك فى مصر فى أعقاب ذلك إلى بيبرس ، بعد خلافات مع قطز ترتب عليها اغتياله على يد المماليك البحرية ، فبدأت صفحة جديدة من الصراع مع الصليبيين .

ذلك أن الظاهر بيبرس كان – كما يقول المؤرخون – شديد الإعجاب بدور صلاح الدين الأيوبى ، وحريصًا على تقليده . وقد دعاه ذلك إلى القيام بأعمال عظيمة فى الداخل والخارج جعلت منه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك . على أن التحدى الحقيقى جاء من وقوع القوى الإسلامية بين خطرين كبيرين : خطر المغول الذين لم ينسوا ما حلّ بهم بعين جالوت ، فارتدوا إلى ما وراء الفرات ، لتتكرر إغاراتهم على بلاد الشام طوال عصر المماليك . وخطر الصليبيين الذين كانت قواهم قد أخذت فى الضعف ، سواء فى إمارة أنطاكية أو طرابلس وعكا ، بعد فشل الحملات الصليبية المتتالية . وكان من المستحيل على بيبرس التفرغ لحرب الصليبيين تمامًا وإهمال جانب المغول ؛ ولذلك اتخذت حملاته ضدّ الصليبيين شكل هجمات متقطعة ، بينها فترات يكون فيها مشغولاً بحرب المغول .

وقد بدأ حملاته سنة ١٢٦٣ بمحاصرة عكا ، بعد أن قوّى مركزه بسلسلة من المعاهدات والاتفاقات مع الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجوس ، وما نفرد هوهنشتاوفن ملك صقلية . وفى أواسط عام ١٢٦٥ استولى على قيسارية وعينتاب وحيفا وأرسوف من الصليبيين . وفى العام

التالى ١٢٦٦ هاجم المدن الصليبية على امتداد الشام ، وقاد جيشاً كبيراً اتجه إلى قلعة صفد ، واستولى عليها بعد حصار ثلاثة أسابيع ، وانتقل منها إلى دمشق ليقوم منها بحملة على مملكة أرمينيا الصغرى ، وخرب عاصمتها سيس . وفى سنة ١٢٦٨ خرج بجيش من مصر قاصدًا إمارة أنطاكية الصليبية ومدينتها ، فاستولى فى طريقه على يافا وشقيف أرنون ، وقصد حماة ليتخذ منها قاعدةً لهجومه ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق زحف بها على أنطاكية القوية ، ففرض عليها الحصار ، وشدّد الضغط عليها حتى سقطت فى مايو ١٢٦٨ م . فكان نصرًا مدوّيًا ارتجّت له أنحاء العالم الإسلامى ، وارتجفت له الإمارة الباقية ، وهى طرابلس ، ومدينة عكا ، البقية الباقية من إمارة بيت المقدس .

وفى سنة ١٢٧٠ قام لويس التاسع بحملة صليبية على تونس ، هى الحملة المعروفة بالثامنة ، فعاد بيبرس إلى القاهرة ، لبحث كيفية مساعدة تونس ، ولكن هذه الحملة انهارت بوفاة لويس التاسع فى تونس ، فعاد بيبرس إلى فلسطين والشام ليستولى فى سنة ١٢٧١ م على صافيثا وحصن الأكراد وعكار والقرين . وفى سنة ١٢٧٥ عاد لغزو أرمينيا الصغرى فاستولى على سيس وإياس . وتوفى فى دمشق فى أوائل ١٢٧٧ .

وقد انتهى الحكم إلى يد بطل عظيم آخر هو السلطان قلاوون بعد صراع على السلطة دام إلى أواخر عام ١٢٧٩ ، ليواجه نفس الخطرين : الخطر الصليبى ، والخطر المغولى . ويبدو أن الصراع على السلطة داخل دولة المماليك بين وفاة بيبرس وتولية قلاوون ، شجع مغول فارس ، فقد أخذوا فى شنّ حملة على الشام قاربت حلب ، واستولت على بعض ضواحيها ، ولكن قلاوون سارع بإرسال جيشه للقضاء على هذا الخطر ، فارتدّ المغول عن حلب بسرعة محمّلين بالأسلاب والغنائم . ورأى قلاوون أن يعقد هدنة مع الصليبيين فى طرابلس وعكا مدتها عشر سنوات ، حتى يفرغ لقتال المغول . وفى عام ١٢٨١ حين عاود أبغا ، قائد المغول ، الهجوم على بلاد الشام ، ووصلت جيوشه إلى حماه ، كان قلاوون مستعدًّا ، فألحق الهزيمة بجيوش المغول قرب حمص ، واضطر أبغا خان إلى الفرار نحو بغداد مع فلول جيشه ، وتوفى بعد ذلك بقليل .

وسرعان ما أخذ قلاوون فى تنفيذ مخططه لتصفية الخطر الصليبى . فبدأ بالهجوم على حصن الاسبتارية بالمرقب ، عند الطرف الشمالى لإمارة طرابلس ، سنة ١٢٨٥ ، وبعد حصار دام ثمانية وثمانين يومًا ، استسلم الفرسان الاسبتارية ، وسمح لهم بالانسحاب إلى طرابلس . ثم اتجه قلاوون إلى مرقية التابعة للكونت بوهيمند السابع أمير طرابلس ، وهدّد بشنّ الحرب على طرابلس ذاتها

إذا لم تسلم له القلعة ، فاضطر بوهيمند إلى تسليمها له سنة ١٢٨٦ . وعندئذ اضطرت مرجريت ، أميرة صور إلى شراء الصلح من قلاوون بشروط مهينة . وتعهد ليو الثالث ، ملك أرمينيا الصغرى ، بدفع جزية سنوية له .

وسرعان ما تهيأت الظروف لقلاوون لتصفية إمارة طرابلس ، حين قام الخلاف فيها عقب وفاة أميرها بوهيمند السابع دون وريث ، فانتهز نقض الصليبيين فيها الهدنة بالاعتداء على التجار المسلمين ، وزحف عليها بجيش ضخم فى فبراير ١٢٨٩ ، وفرض عليها الحصار تسعةً وثلاثين يومًا ، حتى استسلمت فى إبريل ١٢٨٩ ، ثم استولى على قلعة البطرون جنوبى طرابلس ، بعد أن خربها هى الأخرى تخريباً شاملاً . وبذلك لم يبق إلا عكّا .

ويتفق المؤرخون على أن قلاوون شرع فى الاستعداد لحصار عكا وإسقاطها فى العام التالى ، ولكنه مرض وهو يستعد للخروج على رأس جيشه ، وتوفى فى نوفمبر ١٢٩٠ . وقد آلى ابنه الأشرف خليل بن قلاوون على نفسه تنفيذ مشروع أبيه عقب توليه العرش . فنودى فى الجامع الأموى بدمشق بالاستعداد لهذا الغزو ، وخرج الأمير حسام الدين لاجين ، نائب الشام ، بجيشه من دمشق . وخرج الملك المظفر بجيشه من حماة . وخرج الأمير سيف الدين بلبنان بجيشه من طرابلس ، وخرج الأمير بيبرس الدوادار بجيشه من الكرك ، ثم خرج السلطان خليل بن قلاوون بجيشه الكبير من القاهرة . واجتمعت هذه الجيوش الإسلامية عند أبواب عكّا فى ربيع عام ١٢٩١ مع آلات الحصار واثنين وتسعين منجنيقا ، وبدأت جيوش خليل بن قلاوون تضرب حصون عكا بالمجانيق لمدة عشرة أيام ، قبل أن تشنّ هجومها العام . وكانت جيوش قبرص بقيادة ملكها هنرى الثانى تعزز القوات الصليبية المدافعة ، وحاول فتح باب المفاوضات مع السلطان خليل ، ولكنه أصرّ على الاستسلام التام ، فقرر هنرى الثانى العودة إلى جزيرته ومعه قواته وفرسانه ، ولم تلبث عكا أن سقطت فى أيدى القوات الإسلامية بقيادة خليل بن قلاوون فى ١٨ مايو ١٢٩١ ، بعد أن لبثت فى أيدى الصليبيين مائة عام كاملة .

وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية الساحلية القليلة الباقية فى يد الصليبيين ، فسقطت صور ، ثم صيدا ، وتبعتها عثليث وأنطرطوس وبيروت . وهدمت جميعًا ماعدا بيروت التى اختارت التسليم للنجاة من هذا المصير . وبذلك انتهت صفحة الصليبيين بالشام ، ووصف المؤرخ جيبون انتهاء الحروب الصليبية بقوله : «ساد سكون محزن على امتداد الساحل الذى ظلّ زمنًا طويلاً ميدانًا تسمع فيه قعقعة سلاح هذا الصراع» .

خاتمة :

وبانتهاء الحروب الصليبية تكون قد انتهت صفحة صاخبة من الصراع بين العرب وأوروبا ، لتبدأ صفحة أخرى . ذلك أن الفكرة الصليبية نفسها لم تنته ، وسوف تحملها جزيرة قبرص فى القرن الرابع عشر ، ثم يحملها قادة الكشف الجغرافى ووكلاء البورجوازية التجارية من أمثال ألبوكيرك و « فاسكودا جاما » و « كبرال » و « ألميدا » و « دياز » . وتستمر على طول العصور الحديثة ، حتى ترث الفكرة الصهيونيةُ الفكرةَ الصليبيةَ ، ويحلّ الصهيونيون الأوروبيون محلّ الصليبيين الأوروبيين . ولكن هذا يقتضى دراسةً أخرى لتلك الملحمة الجديدة واستعدادات علمية أخرى نرجو أن نتمكن من أدائها فى خدمة أمتنا العربية .

ولعل القارئ قد تتبع معنا هذه الرحلة الطويلة ، منذ أن اصطدمت الإمبراطورية البيزنطية بالمسلمين فى عهد الرسول فى السنة الثامنة للهجرة ، وألحقت بهم مع حلفائها الغساسنة الهزيمة فيما عرف باسم « غزوة مؤتة » . وقد تغلب المسلمون على هذه الهزيمة بغزوة تبوك ، ووضع الرسول تقليد المواجهة مع الدولة البيزنطية بجيش أسامة بن زيد الذى تركه قبل وفاته ، وأرسى به مبدأ الهجوم كخير وسيلة للدفاع . ثم انتقل العرب بعد ذلك من هزيمة مؤتة إلى انتصارات الشام ، ومن الصحراء إلى البحر ، ومن أرض شبه الجزيرة العربية إلى حصار القسطنطينية ثلاث مرات ، ومن الشام إلى أفريقيا إلى المحيط الأطلنطى ، ثم إلى غرب أوروبا وتأسيس دولة الأندلس ، والانسياح منها إلى جنوب فرنسا وسويسرا وإيطاليا ، وطرق أبواب روما ، وبسط السيطرة الكاملة على البحر الأبيض المتوسط وتحويله إلى بحيرة عربية خالصة . ثم انقلب الموقف ، وبدأ المدّ الصليبى مع انقسام المسلمين ، فاستولى على الشام وفلسطين وهدّد مصر عدّة مرات ، حتى بدأ تكوين الجبهة الإسلامية الموحّدة على يد عماد الدين زنكى ، واستمرّ فى عهد نور الدين ، وبلغ ذروته فى عهد صلاح الدين ، واستمر على يد بيبرس وقلاوون ، وكانت التصفية الأخيرة على يد الأشرف خليل ابن قلاوون ، وانحسر بذلك المدّ الصليبى إلى حين . وفى كل مراحل هذا المد والجزر تبدت تلك الحقيقة التاريخية البارزة ، وهى أن العرب ينهزمون بانقساماتهم بأكثر مما ينهزمون بقوّة أعدائهم . فهل يعى العرب هذه الحقيقة التاريخية فى صراعهم الحالى مع الصهيونيين الأوروبيين فى فلسطين ؟ وهل يستوعب العرب دروس التجربة الصليبية ، ويتعاملون معها على أنها صراع أجيال ، ويعرفون كيف يكون الفر من أجل الكر ، والتقاط الأنفاس لمزيد من النضال والكفاح ؟ ، وهل ينجحون فى طرد الأوروبيين الصهيونيين كما أفلحوا فى طرد الأوروبيين الصليبيين من فلسطين ؟.

مراجع الكتاب

مراجع عربية :

إبراهيم حركات :المغرب عبر التاريخ ، المجلد الأول
(الدار البيضاء ، دار السلمى ١٩٦٥)

ابن الأثير :كتاب الكامل فى التاريخ – ١٢ جزءا
(بولاق ١٣٥٧ هـ)

ابن شداد : كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
(القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد صبيح)

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، (٣ أجزاء) الجزءان ١ ، ٢ تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ، والجزء الثالث تحقيق بروفنسال (بيروت : دار الثقافة)

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، (طبعة مدريد ١٩٢٦)

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د . جمال الدين الشيال (القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣)

احسان عباس الدكتور : العرب فى صقلية (القاهرة : دار المعارف)

د . أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (أربعة أجزاء)(القاهرة : مكتبة النهضة المصرية)

آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (جزءان) ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريده (القاهرة : ١٩٤١)

د . أسدرستم : الروم (جزءان) (بيروت ؛ دار المكشوف ١٩٥٦)

د . الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى (الدار التونسية للنشر ١٩٦٨)

د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الإسلامى ، (جزءان) (كتاب الشعب ١٣٨)

د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية (بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧١ .

د . السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة (لبنان ، دار المعارف ١٩٦٢ »

د . السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، الجزء الأول (القاهرة . دار النهضة العربية ١٩٧١)

العبادى ، د . أحمد مختار : فى التاريخ العباسى والأندلسى (القاهرة ١٩٧١)

العبادى ، د . أحمد مختار : فى التاريخ العباسى والفاطمى (القاهرة ١٩٧١)

العبادى ، د . أحمد مختار ، ود . عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس

العبادى ، د . عبد الحميد : المجمل فى تاريخ الأندلس (القاهرة ١٩٥٨)

العدوى ، د . إبراهيم أحمد : الأساطيل العربية فى مياه البحر المتوسط

العدوى ، د . إبراهيم أحمد : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر)

العدوى ، د . إبراهيم أحمد : السفارات الإسلامية فى أوروبا (سلسلة إقرأ)

العدوى ، د . إبراهيم أحمد : قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط (القاهرة : مكتبة نهضة مصر ١٩٦٣)

العدوى ، د . إبراهيم أحمد : موسى بن نصير ، مؤسس المغرب العربى (القاهرة : أعلام العرب ٦٨)

العرينى ، د . السيد الباز : الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٣)

الكعاك ، عثمان : الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (معهد الدراسات العربية ١٩٦٥)

المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب (١٠ مجلدات) (القاهرة ١٩٤٩)

أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة طه بدر (القاهرة ١٩٥٣)

بروفنسال ، ليڤى : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى (القاهرة ١٩٥٨) وهو ترجمة فصول من كتاب « إسلام الغرب » .

بينز ، نورمان : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة د . حسين مؤنس ومحمود زايد (القاهرة ١٩٥٠)

جلوب ، جون باجوت : الفتوحات العربية الكبرى ، تعريب خيرى حماد (القاهرة ١٩٦٣)

جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩)

حتى ، فيليب : تاريخ العرب ، ترجمة محمد المبروك نافع

د . حسن إبراهيم حسن : المجمل فى التاريخ المصرى ، ألفه مع بعض أعضاء هيئة التدريس (القاهرة ١٩٤٢)

د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ثلاثة أجزاء (مكتبة النهضة المصرية)

د . حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمه وقدم له وعلق عليه (القاهرة : دار الفكر العربى ١٩٥٨)

د . حسن حبشى : القديس لويس ، (دار المعارف ، المكتبة التاريخية)

د . حسن حبشى : نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨)

د . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرقة فى تاريخ المغرب فى العصور الوسطى (القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٧)

د . حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ١٩٥٠)

د . حسين مؤنس : غارات النورمانديين على الأندلس (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الأول ١٩٤٩)

د . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ، مكتبة الآداب ١٩٤٧)

ستانلى لين بول : العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم بك (القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٧)

سرور ، د . جمال الدين : مصر فى عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠)

سعداوى ، د . نظير حسان : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى (القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٧)

شعيرة ، د . محمد عبد الهادى : المرابطون ، تاريخهم السياسى (القاهرة : مكتبة النهضة الحديثة ١٩٦٩)

شكيب أرسلان ، الأمير : تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (القاهرة ، عيسى البابى الحلبى ١٣٥٢ هـ)

عاشور ، د . سعيد عبد الفتاح : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٩)

عاشور ، د . سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية (جزءان) الطبعة الثالثة (القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ و ١٩٧٦)

عاشور ، د . سعيد عبد الفتاح : الظاهر بيبرس (أعلام العرب ١٤)

عبد الجليل عبد الرضا الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس فى القرنين الثانى والثالث للهجرة (الرياض : مكتبة النهضة ١٩٦٩)

د . عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى (بيروت : دار الآداب ١٩٦٥)

د . عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ، المكتبة التاريخية عدد ٧ ، ١٩٥٩)

عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة

د . عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى (دار المعارف : المكتبة التاريخية)

د . عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية (الإسكندرية ١٩٥٨)

د . على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٤)

فازيلييف : العرب والروم ، ترجمة د . عبد الهادى شعيرة (القاهرة : دار الفكر العربى)

فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ، بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى (٣ أجزاء) (القاهرة : دار الكاتب العربى)

د . لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا (القاهرة ، المكتبة التاريخية عدد ٢ (النهضة المصرية ١٩٥٩)

لوبون ، جوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٦٩)

محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية (القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٧)

محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٥٢)

محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى (القاهرة : كتاب الهلال ٨٧)

محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية

ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية

د . يوسف العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية (لبنان : دار الكتاب)

يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهرة ١٩٥٨)

مراجع أجنبية :

Cambridge Medieval history (Cambridge 1957)

Dozy, Reinhart Pieter Anne: Spanish Islam, A history of the Moslems in Spain (English Edition) (London 1913)

Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 vols Paris 1943-6

Lane -Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, (London 1901)

Lone-Poole, The Moors in Spain

Lone—Poole, Saladin (London 1898)

Runciman; A history of the Crusades, 3 vols (Cambridge 1957)

Setton, history of the Crusades, 2 Vols (Pensylvania 1958)

Vasilieve, A History of The Byzantine Empire, 2 Vols (Madison 1961).

مصادر الخرائط

الخرائط رقم : ١ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٥

المصدر : محمد رفعت بك : الأطلس التاريخى (مطبعة المعارف ١٩٣٩)

الخرائط رقم : ٢ ،٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

المصدر : جون باجوت جِلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، (تعريب خيرى حماد ١٩٦٣)

الخرائط رقم : ١٢ ، ١٣

المصدر : د . إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر)

الخرائط : ١٤ ، ١٦ .

المصدر : محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية (القاهرة : دار المعارف ١٩٤٧)

الخريطة رقم : ١٧

المصدر : د . حسين مؤنس : غارات النورمانديين على الأندلس

المجلة التاريخية المصرية المجلد الثانى ، العدد الأول ١٩٤٩)

الخريطة رقم : ١٨

المصدر : د . حسين مؤنس : السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين (بالمجلة التاريخية المصرية . المجلد الثالث : العدد الأول ١٩٥٠)

الخرائط رقم : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢

المصدر : د. السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية.
(القاهرة : دار النهضة المصرية ١٩٦٣)

الخرائط رقم : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦

المصدر : د. محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر (القاهرة ١٩٦١)

فهرس تفصيلى

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

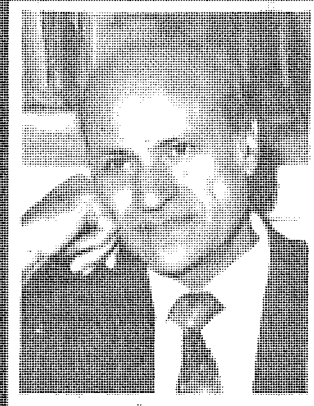
الصفحات

الصفحات

رقم الإيداع	١٩٨٣/٤٣٤١
الترقيم الدولى ٩٧٧-٠٢-٠٥٩٠-٧	ISBN

١/٨٢/٢١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

ملحمة الصراع التاريخي الهائل بين العرب وأوربا، من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية. يكتبها المؤرخ والكاتب السياسي الكبير، الدكتور عبد العظيم رمضان، أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة المنوفية، ويتتبعها في انتقالها المكاني من شبه الجزيرة العربية إلى شمال أفريقيا، وإلى الأندلس، وإلى جنوب أوربا — غربا، وإلى الشام، وآسيا الصغرى إلى أبواب القسطنطينية — شرقا. كما يتتبعها — زمنيا — في انتقالها من عهد الرسول إلى الخلفاء الراشدين، وإلى الدولة الأموية، وإلى الدولة العباسية، ثم إلى عصر الحروب الصليبية، فضلا عن العهود الإسلامية في أفريقيا والأندلس.

جـ
٥٠٠